موسوعة

التاريخ الإسلامي

الشيخ

محمد هادي اليوسفي الغروي

الجزء الأول

أضواء الحوزة

لبنان

موسوعة التاريخ الإسلامي

موسوعة التاريخ الإسلامي

العصر النبوي ـ العهد المكي

الجزء الأول

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

تأليف

الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي

أضواء الحوزة - لبنان

لسان العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كـلمة

يعتبر التأريخ الإسلامي مصدراً مهمّاً من مصادر المعرفة الإسلامية باعتبارين.

الأوّل: أنّ التأريخ ـ بشكل عام ـ ترجمة حقيقية وتعبير واقعي عن الأفكار والآراء والمفاهيم التي تبناها الإنسان على مدى التأريخ فجسّدها في سلوكه ونشاطه.

والثاني: أنّ التأريخ مجموعة تجارب ودروس وعِبَر كلّفت البشرية ضحايا هائلة وطاقات ضخمة، لذلك كان جديراً بإمعان النظر فيه وبذل الجهود الحثيثة لتحليل أحداثه والاهتداء إلى سننه لكي تتوضح للبشرية الحقائق التي ترسم لها خطى السعادة والشقاء.

وتجلّت في التأريخ الإسلامي عظمة الإسلام وشموخه وحيويته، فكان مصدراً من مصادر فهم السيرة النبوية فضلاً عن قدرته على التعبير عن التجربة الأُولىٰ للإسلام القادر على صنع الإنسان الأمثل والمجتمع الأمثل، ولهذا فهو جدير بالدراسة العلمية الموضوعية المعمقة.

وتتمثل المهمة الأُولىٰ لكل باحث في التأريخ الإسلامي في البحث عن المادة الأساسية للتحليل التأريخي بعد ان كان التأريخ بشكل عام والتأريخ الإسلامي بشكل خاص عرضة للإهمال والتحريف بدءاً بمشكلة المنع من تدوين الأحاديث والسنة النبوية الشريفة التي تشكّل البنية الأساسية للتجربة الإسلامية الفريدة وانتهاءً بإخضاع المؤرخين ونتاجاتهم لأهواء الحكّام علاوة على المتاجرة بكل ما يمكن نسبته إلىٰ رسول الإسلام ﷺ وصحابته الكرام

من قبل الرواة والمحدّثين غير الورعين. فكم من حوادث مهّمة لم تدوّن أو دُوّنت مختزلة بحجّة الاختصار أو لاستلزامها الطعن ببعض الحكّام من صحابة وتابعين، فأدّت إلى تزييف الحقائق التأريخية وتشويهها بما لا يتناسب وعظمة تأريخنا الإسلامي الوضّاء.

ومن هنا كان على الباحث الموضوعي والمؤرخ المحقق أن يقوم قبل كل شيء بنقد موضوعي لكل ما جاء في كتب التأريخ والحديث والتراجم والرجال والتفسير بعد عرضه على العقل السليم ونصوص القرآن الكريم ومحكمات السنة النبوية الشريفة، وهذا ما قام به المحقق المتضلّع فضيلة الشيخ محمّد هادي اليوسفي الغروي في كتابه هذا (موسوعة التأريخ الإسلامي). إذ اعتمد على التتبع اللازم في المصادر الأصلية التي تحتوي على حوادث تأريخية ترتبط بموضوع بحثه، ثم عرضها على القرآن الكريم وأُصول السنة الشريفة والعقل السليم، وقد حاول من خلال بحوثه تفنيد ما أورده المستشرقون ومن حذا حذوهم في تشويه معالم الصورة الإسلامية الناصعة، وتقديم الصورة الأقرب إلى الواقع عن الإسلام من خلال تأريخه المجيد. وهذه هي الحلقة الأُولى من هذه الموسوعة وتختص بالعهد المكي من العصر النبوي وسوف يستمر البحث في الحلقات الآتية ـ إن شاء اللّه تعالى ـ عن تأريخ الرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين.

ونحن إذ نبارك له جهده المشكور، نتمنى له التوفيق في مواصلة هذا النشاط المبارك. وآخر دعوانا ان الحمد للّه رب العالمين.

باسمه تعالى

وصلني كتاب كريم من أخ كريم بشأن الكتاب، فآثرت نشره هنا، شاكراً:

الشيخ اليوسفي الغروي وكتابه موسوعة التاريخ الإسلامي

أ. د. صلاح مهدي الفرطوسي

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد امتحنني بغربة لا يعرف إلّا هو مدى ثقلها، فإنه أنعم عليَّ فيها أيضاً بنعم لا أُحصيها، تدفعني إلى شكره وحمده، ومن بينها أخذه بيدي منذ سنة ونصف إلى رحاب أمير المؤمنين المرتضى عليه السلام، وما زلت حتى الساعة مشغولاً به في كلّ ساعات يقظتي ما بين تأمل وقراءة وكتابة، ولا شكَّ أنك على بيّنة بأن تاريخ الإمام شائك متشابك يصعب على من يريد الدخول إلى بهائه حلُّ جميع معضلاته، ولا سيّما في بلاد يصعب أن تعثر فيها على مكتبة تُعنى بالتاريخ الإسلامي، وإن وُجدت، فيصعب عليك الوصول إليها لأسباب لا تستطيع تقديرها إلّا إذا عانيت الأمرّين منها في هذه البلاد.

ومن بين تلك المشكلات بعثه عليه السلام إلى اليمن، إذ تشابكت أخباره واختلطت فيما تحت يدي من مصادر حتى بات من الصَّعب فصلها أو تحديد مسار دقيق لمجرياتها، أو ربط مشاهدها في تسلسل زماني أو مكاني يبدو مقبولاً.

وكان الأُستاذ صفاء وديس من الشخصيّات العلميّة الفاضلة التي عرفتها بهذه البلاد، ولقد وضعني بمكانة في نفسه لا أستحقها، ووجدت في برّه وشفقته ما لم أجده بالخاصّة من طلبتي، ويوم استغلق عليَّ أمر بعث الإمام ذلك استنجدت به كي

يأخذ بيدي إلى كتاب أستعين به، فنصحني أن أعود إلى موسوعة التاريخ الإسلامي للشيخ اليوسفي الغروي، ومن نكد الغربة أني ما سمعت بالشيخ من قبل، ولا أعرف له عنواناً كي أراسله، ولم تصل نسخة من الموسوعة إلى هذه الديار كي أطّلع عليها، وكان أخي الشيخ حسين الفرطوسي قد ترك لي يوم غادر هولندا مجموعة من الكتب التي لم يستطع اصطحابها معه، وتثاقلت من الذهاب إلى بيته لأخذها من أُسرته، وشاء حسن الطالع أن أذهب لجلبها،وما أسعدني بها يوم وقع بصري على الجزء الأوّل من الموسوعة بينها، فهالني ما وجدت فيه من معلومات تسدُّ خللاً وتوضح صورة وتغيّر مساراً في غير جانب مما كتبته حول سيرة الإمام قبل الهجرة، ورأيته بعين منصفة يفتح لكلّ دارس لتاريخ فجر الإسلام باباً لا أظنه يستطيع فتحه في غيره.

وبسبب من شديد إعجابي بذلك الجزء راودني هاجس السَّفر إلى مقرّ إقامة الشيخ، إذ شعرت بحاجة ماسّة إلى التداول معه في أُمور كثيرة كان الوسواس قد ركبني فيها أيضاً، ورأيته ـ كما حدّثني عنه غير واحد ممن لا اتّهم موضوعيته ـ من خيرة من يمكن استشارته، فهو من المتبحرين في ميادين الفقه والعقيدة والتفسير، ومن كبار علمائنا المجتهدين، وهو في ميدان التاريخ بين يديّ بعد أن نظرت في كتابه، ولكنّ أُموراً لم أستطع دفعها في حينها حالت دون سفري.

ويوم وفقني الله لحجّ بيته الحرام، سألته أن يسعدني بلقائه في الديار المقدّسة، وما أن وطأت قدماي أرض مدينة الرسول المصطفى صلوات الله عليه وآله، وتحلّلت من زيارته وزيارة أهل بيته عليهم السلام حتى بدأت البحث والتقصّي.

وبعد لأي وصلت إليه، ولا أُحدثك عن فرحتي بلقائه، ولا عن حسن استقباله وهو لا يعرفني، وكأن الرجل أحسّ بحاجتي لوقت يخصّني به على الرغم من ازدحام وقته، فاندفع إليّ بكلّه هاشّاً باشّاً بخُلق العلماء وسماحتهم.

إنها ذكرى لا تُنسى عددتها في حينها من مكافآت الحج التي شكرت الله عليها وعلى غيرها. وهالني يوم قرأت ما قرأت، إذ وجدتني أمام سِفر يحتاج في هذا الزمن الصعب إلى عقود لكتابته، تسبقها عقود من الدرس الجاد والمثابرة والفطنة والذكاء الحادِّ وبُعد النَّظر وسعة الأُفق، ويحتاج أيضاً إلى مكتبات عدّة متخصّصة في علوم شتّى.

انماز منهج المؤلف بطريقة بحث تختلف عن الطرائق المألوفة التي اتّبعها مؤرخو السيرة منذ ابن إسحاق وحتى العصر الحديث، إذ حاول ربط كثير من أحداثها بتواريخ نزول الآيات وتسلسلها، في الأجزاء الخاصّة بعصر القرآن، وهي ميزة ما عرفتها عند غيره من الكتّاب، وإن كان الواقدي في مغازيه قد ذكر ما نزل من قرآن في غزوات الرسول صلوات الله عليه وآله بل إنها طريقة في البحث يصعب أن يلتزم بها أي مختصّ بأحداث تلك المرحلة مهما أُوتي من العلم إلّا إذا كان متفقّهاً تفقّهاً عميقاً بعلوم القرآن وتفسيره، وأسباب نزوله وتاريخه، وكان الباحث منهم لذا استطاع رؤية الأحداث بعين بصيرة جنّبته الوقوع في متاهات رواة السيرة وأخبارها، وفي ذات الوقت بصرّته بالغثّ والسمين منها.

والكتاب فيما أحسب أيضاً جديد من باب آخر، فهو أول دراسة جادّة للسيرة النبوية، وعهد الخلفاء الأوّلين من وجهة نظر علماء أهل البيت، إذ استند في كثير من مباحثه على أخبار مرويّة عن أئمتهم عليهم السلام، أما غالبيّة من تعرّض للسيرة أو لبعض أحداثها سواء أكانوا من الشيعة أم السنّة كتبوها اعتماداً على روايات كتّاب السيرة القدماء كابن إسحاق وابن هشام والواقدي وابن سعد والبلاذري، ومن خلال ما كتبه المؤرخون القدماء كالطبري والمسعودي وغيرهما، وأضافوا إليها مناقشاتهم لأحداثها من خلال المصادر الأُخرى، وكان التركيز في غالبيّتها على كتب أهل الحديث، وما جاء فيها من أخبار ومرويّات، وجميعها لم تأخذ

بتاريخ النزول أساساً في ربط الأحداث، وإن كانت قد أشارت إليه بين حين وآخر، وكان جلّ اعتمادها على أخبار الرواة.

وليس بخاف عليك أن أخبار السيرة تدخّلت رؤى كثيرة في صياغتها حتى أصبح من الصعب على المؤرخ الوصول إلى الحقيقة مجرّدة من الشوائب، فقد انفرط عِقد الصحابة، وكاد ذلك السراج ينطفئ بعد رحيل المصطفى صلوات الله عليه وآله، وانفراطه أدّى إلى صياغة الأحداث بصور تتماشى إلى حدٍّ كبير مع وجهات نظرهم، ومدى تأثرهم بأحداث عصرهم، وبميولهم واتجاهاتهم، وهكذا انطمست حقائق كبرى بات من العسير الوصول إليها، ثمّ تدخّلت عوامل أُخرى شوّهت وجه كثير من الروايات من بعد، يضاف إلى ذلك أنها يوم انتقلت من جيل إلى آخر دخلها بحسن نيّة أو بسوء نيّة كثير من التغيير والتصحيف والتحريف والخلط، بسبب بُعد عصر التدوين عن عصر السيرة، وكثر الوضع كثرة تجاوزت الأصل، واختلقت أحداث لا أساس لها من الصحّة، ونفخ في أحداث أُخرى حتى كادت تتفجر بسبب ما اعتراها من تزوير وتدليس وكذب وبهتان، وهي بمجملها لا تخصُّ فرقة من الفرق، ولا حزباً من الأحزاب، ولا عصراً من العصور، بل إن رواية ملفقة أحياناً تصبح روايات في حقب التاريخ المتعاقبة، وأنت تقرأ كلّ هذه الرؤى في روايات من عصر الصحابة والتابعين ومن تلاهم في كتب التاريخ والسيرة والحديث.

أما تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وسيرته فقد تآمرت أُمم من الفئة الباغية على تشويهه منذ رحيل المصطفى صلوات الله عليه وآله إلى قرون متعاقبة من الحكم العباسي الذي كان أشد نكداً وظلماً لأهل البيت من الأمويين ومن تابعهم.

وكنت مذ وعيت الدّرس على بيّنة من هذا الأمر، وكان مادّة درسي على طلبة الدراسات العليا لمحاضرات عدّة وأزعم أنها تركت أثراً محموداً في نفوسهم وعلى رسائلهم من بعد.

وإذا كنت قد وقفت بإنعام نظر على مشاهد كثيرة من أجزاء الموسوعة الأربعة التي تؤرخ الأحداث الإسلامية لحين دخول أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة بعد حرب الجمل، فإني بانتظار صدور جزئها الخامس، وأتمنى أن يستمر الشيخ بإصدار أجزاء أُخرى يعرض فيها الأحداث لغاية عصر الإمام الصادق عليه السلام في الأقل.

وأزعم أني رافقت ما صدر من الموسوعة مرافقة دقيقة في غير مشهد، أختلف مع الشيخ في رؤيته أحياناً حتى الخصومة، وأتّفق معه في أحايين كثيرة لحدّ الانبهار، وآخذ عليه في حين كأني أتصيّد له بالماء العكر، وأُعجب به في حين آخر حتى لا أجد مناسبة إلّا تحدّثت عنه حديث تجلّة وإكبار.

ولكي لا أظلم نفسي لابد من الإشارة إلى أن قراءتي لم تكن عادلة ولا موضوعية لأنها قامت بين رؤيتين رؤية المؤلف تبحّرت بقراءة المصادر الدينية من فقه وتفسير وعقيدة فوعتها وعي اجتهاد بها، بالإضافة إلى تبحّرها بقراءة المصادر التاريخية، وبين رؤيتي التي ابتعدت عن كلّ ذلك بسبب ظروف نشأتها العلمية واختصاصها، فقد تركّز اهتمامي منذ عقود على قراءة كتب الأدب واللغة والمعجمات والكتابة عنها وتحقيق بعضها، وعلى الدراسات الصرفيّة والكتابة عنها، أما الدراسة التاريخيّة فأنا ضيف عليها وعلى مصادرها، لذا فإن ما أراه يبتعد عن الواقع أحياناً يراه الشيخ من صميمه، يضاف إلى هذا أنه في موسوعته حاول تقديم وجهة نظر علماء أهل البيت التي حدّثتك عن مدى الحاجة إليها، وهي في أحيان ليست قليلة لا تلتقي مع رؤية كتّاب السيرة من القدماء والمحدثين وخاصّة الذين اعتمدوا على مدرسة أهل الحديث في كتابتهم أو تثقّفوا عليها.

على أن منهجه لم يُبعده كثيراً عن كتّاب أهل الحديث، وإنما التقاهم في غالبيّة الروايات التي ليس فيها من خلاف، كما التقاهم في الروايات التي لا يودّون النظر فيها على الرغم من واقعيّتها وصدقيّتها سنداً ومتناً، فنظر فيها، وأزاح عنها القذى

بما لا يقبل الشكّ لصاحب العين البصيرة، وكان من هومه إزاحة الكدر الذي خيّم على حقوق كثيرة هُدرت لأسباب أشرنا إليها، أو لأسباب أُخرى تتعلّق بأُفق الفقيه المتبحّر في التاريخ إذا أراد دراسته.

وهو في درسه لا يرى مبرّراً للنظر إلى نصوص السيرة بتقديس إلّا إذا قوّمت تقويماً سليماً ووُزنت بميزان الاعتبار فصحّت بما لا يقبل الشك، وميزان الاعتبار عنده أن تُعرض على القرآن الكريم، فما وافق كتاب الله منها قُبل، وما خالفه رُفض، وبالاعتماد على القرآن تتحدّد معالم شخصيّة الرسول، فإذا انسجم النصُّ مع صفاته القرآنية أخذنا به، وإن كانت الأُخرى رفضناه دون تردّد، «وإلّا فكيف ننسب إلى هذه الشخصيّة أنه حمل حليلته عائشة على متنه لتشاهد أغاني السودان؟! أو أنّه شرب النبيذ؟! أو أنّه بال قائماً؟! أو أنّه شكّ في نبوّته؟! أو أنّه أثنى على الأوثان تقريباً للمشركين إلى نفسه». وبالاقتداء بالقرآن الكريم «الذي إنما يخاطب أولي الألباب والعقول» يكون الموقف من جميع القضايا التاريخية.

والشيخ في موسوعته يشاكس كتّاب السيرة في مواقف كثيرة، فهو حينما يقف على رواية يراها تصطدم مع روايات علماء أهل البيت الموثوقة، أو التسلسل الزماني والمكاني لنزول القرآن لا يغضّ النظر عنها، وإنما يشبعها بحثاً ومناقشة كي يأخذ بيد قارئه إلى الحقيقة أو يقرّبه منها. وهو أيضاً لا يتعصّب لرواية مهما كان مصدرها إذا شكّ في صحتها، سواء أكانت من روايات علماء أهل البيت أم من روايات مدرسة أهل الحديث.

إنّه كتاب على الرغم من صفحاته التي تجاوزت في كلّ جزء الثمانمائة لا يترك لك فرصة كبيرة لتركه، فكلّما حاولت أخذ بيدك إلى موضوعاته الجديرة بالمراجعة، بل أنت كلما نظرت في فصل من فصوله معتقداً أنك مطّلع على ما ورد فيه يفاجئك بأشياء كثيرة جديرة بالنظر والمراجعة، وإذا كنت سأقف معك في هذه العجالة على

الجزء الأوّل منه فهذا لا يعني إهمال بقيّة الأجزاء، ولكنّ أمر عرضها يحتاج إلى أناة تستحقّها، فليس كلّ يوم نقف على كتاب بهذا العمق، وعلى كاتب بهذه الموسوعية.

وأنت حينما تقرأ ذلك الجزء تخرج بتسلسل تاريخي في كثير من أحداثها يختلف إلى حدّ كبير مع تسلسلها عند أصحاب السير، وإذا كانت مصادره الأساس هي كتب علماء أهل البيت، فإنه لم يهمل مصدراً من مصادر أهل الحديث، بل إنها تماشى جنباً إلى جنب مع مصادره، بل إنك تشعر حينما تنظر في هوامش بحثه أنه لم يترك مصدراً قديماً أو حديثاً يمكن الإفادة منه إلّا وقد اطّلع عليه وأفاد منه.

فمصادر الجزء الأول تجاوزت المائتين بكثير، كما أن صفحاته تجاوزت الثمانمائة وستين، قسمها تقسيماً يدعوك إلى قراءته إذا نظرت في التقديم الذي وضعه بين يديه، إذ شوّقك إلى ما ينبغي على كاتب التاريخ اتباعه في دراسته، وحشد لك فيه موضوعات كلها جديرة بالنظر حول التاريخ قبل الإسلام وبعده، وحول تدوين السيرة وكتّابها والأثر الباقي منها، وحول ما قام به ابن هشام في سيرة ابن إسحاق، وحول مغازي الواقدي، وحول كتب السيرة والخلاف فيما بينها، ثمّ قدم تصوّراً لشرائط دراسة التاريخ، وكيفيّة تقويم النصوص، واستدراك ما فاتها، ثمّ كيفيّة رفع الركام عن معالم الحقّ التي طمست، ثمّ منهجه في الدراسة، وقد أفاد الباحث في تقديمه من مصادر كثيرة في مقدّمتها دراسة المستشرق الدكتور مارسدن جونس الرائعة التي قدّم بها كتاب مغازي الواقدي.

وقسم الباقي من صفحات الجزء الأول التي قاربت الثمانمئة على عشرة فصول، تناول في الفصل الأول البيئة العربية قبل الإسلام، وقد قاربت صفحات هذا الفصل المئة والسبعين، أغناها بالمباحث المهمّة التي من بينها مبحث الجاهلية في القرآن الكريم، ومبحث الجاهلية في نهج البلاغة الذي لم أقف على ما يقاربه عند غيره، بالإضافة إلى مباحث أُخرى كثيرة تتعلّق بدول العصر ودياناته وأحداثه

الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، وعلاقات الجزيرة بما جاورها، ودرس كلّ ذلك من خلال كتابات المؤرخين والأخباريين القدماء منهم والمحدثين، ولكنّه أهمل كتابات المستشرقين والآثاريين، ولا سيما كتاب ولفنسن حول تاريخ اللغات السامية، وكاد يهمل كتاب مؤرخ العصر لأُستاذنا البحر جواد علي، فلم يلتفت إليه إلّا في موقف عابر حول تفشّي المجوسيّة بين بعض القبائل العربيّة، في الوقت الذي وقف فيه وقفات كثيرة مع كتاب العصر الجاهلي لأُستاذنا طيّب الذكر الدكتور شوقي ضيف.

وسلّط الضوء في الفصل الثاني على نشأة النبي الكريم صلوات الله عليه وآله منذ ولادته إلى انتقال المرتضى لبيته وكفالته وما دار حولها من أخبار.

ودراسة أخبار هذه الحقبة من الزمن والحقبة التي سبقتها يكتنفها الغموض في أغلب جوانبها على الرغم من كثرة ما كتب عنها، وتحيط بها حكايات كثيرة تراوح بين الأُسطورة والواقع، ومن الصّعب التوثق من صحّتها لا في كتب مدرسة أهل الحديث ولا في كتب مدرسة أهل البيت، ولا في كتب الآثاريين والمؤرخين، لأسباب لسنا بصدد بحثها، ولكنّ الأحداث تبدو أكثر وضوحاً واقتراباً إلى الواقع على الرغم من شديد اختلاطها حينما تصل إلى حكاية حفر بئر زمزم.

وكان من مباحث الفصل الثاني المهمة مبحث عمر خديجة رضوان الله عليها يوم تزوجها الرسول.

ومبحث تاريخ ميلاد الزهراء عليها السلام، وما ورد فيه من اختلاف يصل إلى عشر سنوات بين مدرسة أهل الحديث وبين مدرسة أهل البيت، فذكر ما ورد من أخبار أهل البيت حول ولادتها عليها السلام، وما ورد عن غيرهم، ومن بين الروايات التي ذكرها رواية عن الشيخ المفيد التي ذهب فيها إلى أن ولادتها كانت (سنة اثنتين من المبعث)، وقال: «وتبعه تلميذه الشيخ الطوسي فقال في المصباح: في اليوم العشرين

من جمادى الآخرة سنة اثنتين من المبعث كان مولد فاطمة في بعض الروايـات». ويبدو أن الشيخ يقترب إلى ما ذكره الشيخ المفيد، إذ قال: «كل ذلك مما يؤيّد أو يدلّ على كون ولادتها بعد البعثة». ويبدو أن رواية الشيخ المفيد تقترب إلى الواقع أكثر من غيرها من خلال مقارنة عمرها الشريف بما روي من مـواقـفها عليها السلام مـع الجوار القرشي الدّنس وما فعله بالمصطفى بعد رحيل أبي طالب رضوان الله عليه.

ومــن المـباحث المـهمّة أيـضاً مـبحث انـتقال المـرتضى إلى بـيت أخـيه المصطفى صلى الله عليه وآله، وعلى الرغم من اتفاق الروايات على أن السبب يعود إلى ضائقة ألمّت بأبي طالب، وبسبب كثرة عياله اقترح المصطفى على عمّه العباس التخفيف عن عمّه فاختار المصطفى علياً واختار العباس جعفر بن أبي طالب، وقد استغرق الفصلان مع التقديم ثلث الجزء الأوّل تقريباً.

وتناول في الفصل الثالث البعثة النبوية المباركة، وكانت مباحثه كلّها مـهمّة بسبب معالجاتها التي قدّمت الروايات المعتبرة عن أهل البيت على غـيرها، دون إهمال للمصادر التاريخيّة الأُخرى، وكان من بين مباحثها المهمة مبحث ما نزل من القرآن في دور كتمان الدعوة، ومبحث الإسراء والمعراج، وحديث الإنذار الذي ما زال محل شدٍّ وجذب بين المدرستين وغيرها.

أما الفصل الرابع، وهو في غاية الأهمية أيضاً فقد تناول فيه مرحلة الدعوة العلنيّة ثمّ انتقل إلى دراسة تاريخ نزول كثير من السور مع ربط الأحداث بها، وذكر ما نزل منها في مرحلة الدعوة السريّة، وما نزل منها في المرحلة العلنيّة، ولا أشكُّ في أن البحث بتاريخ النزول قد استغرق منه جهداً هائلاً إذ اضطره فيما أحسب إلى إنعام النظر بجميع كتب التفاسير، وبجميع الدراسات التي تناولت تاريخ القرآن، بالإضافة إلى كتب التاريخ والسيرة التي أرّخت للأحداث، وكان الباحث فيها حاضراً واعياً مجتهداً لا يستقرُّ على رأي دون أدلّة قويّة يركن إليها.

أما الفصول الثلاثة التي تليه فقد خصّها للإسراء والمعراج وما ندرج بعده من أحداث، والهجرة إلى الحبشة، وأخبار المقاطعة وصحيفتها، ووفاة أبي طالب وخديجة رضوان الله عليهما، وما رافق كلّ ذلك من أحداث، وهجرته صلوات الله عليه وآله إلى الطائف، مع دراسات لبعض السور القرآنية ومناسبات نزولها.

وتناول في الصول الثلاثة الباقية بيعة العقبة، فذكر أخبارها ومن شارك فيها، وأنت تقف في هذا المبحث على رؤى جديدة لا تراها في كتب السيرة المتداولة، ثمّ تحدّث أيضاً عن مؤامرة قريش على قتل النبي، ومبيت المرتضى في فراشه، وكيفيّة هجرة المصطفى صلوات الله عليه وآله إلى المدينة، وخروج علي من بعد بالفواطم، وتقف في هذا المبحث على رؤى لا تقف عليها بهذا الوضوح والتوثيق عند كتّاب السيرة من مدرسة أهل الحديث.

لقد أعادني المؤلف في كتابه هذا إلى جيل الرواد من الكتّاب العظام الذين حينما ننظر إلى مؤلفاتهم الموسوعية تأخذنا الحيرة والدهشة من طول أناتهم وصبرهم على كتابتها، ولا أشك في أن كتابه هذا سيحتسب ثوابه في ميزان حسناته، وسيبقى مصدراً مهماً من بعد لأجيال من الكتّاب والمؤرخين، وإني في الوقت الذي أشدُّ على يده القويّة مهنئاً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنّ عليه بالعمر المديد كي يتحف المكتبة الإسلامية بكتب أُخرى تزيل قذىً، وتجلو حقيقة، وتُظهر حقّاً.

أ د. صلاح مهدي الفرطوسي

عضو مجمع دمشق ـ هولندا

تقديم

كيف ينبغي أن ندرس تأريخ الإسلام

التأريخ قبل الإسلام:

لم يكن للناس قبل الإسلام مادّة للتأريخ، اللّهمَّ إلّا ما توارثوه بالرواية، مِمّا كان شائعاً بينهم من أخبار آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وشعوبهم وقبائلهم وملوكهم، وما في حياة أُولٰئك من قصص فيها البطولة والكرم والوفاء، وما كان من خبر الأُسر الّتي تناوبت الإمرة علىٰ الناس وما قاموا به من تجهيز الجيوش وإقامة الحروب وبناء المُدن والقصور، إلىٰ أمثال ذٰلك، مِمّا قامت فيه الذاكرة مقام الكتاب واللسان مقام القلم، يعي الناس منه ويحفظون ثم يؤدّونها كما هي أو بإضافة أو نقيصة، وكثيراً ماكان بإضافات وتحريفات.

كان هذا عند الفرس المجوس، واليهود الإسرائيليين، والعرب الجاهليين المشركين، واختص هٰؤلاء بأخبار الجاهلية الأُولىٰ و أنسابها، ومافيها من قصص عن البيت وزمزم وجُرهم، وماكان من أمرها، ثم ماكان من خبر الأُسر الّتي تناوبت الزعامة والإمرة علىٰ قريش، وماجرىٰ قبل ذٰلك لسدِّ مأرب في اليمن، وماتبعه من تفرّق الناس في البلاد.

التأريخ بعد الإسلام:

ثمّ ظهرت الرسالة المُحمّدية بصفتها أعظم حادث في حياة البشر عامّة والعرب خاصّة، فكان محور تأريخ البشر عامّة والعرب خاصّة، فما اجتمع ملأ منهم أو تفرّق إلّا وحديثهم عنه، ولا تحرّكت جيوشهم و كتائبهم إلّا له أو عليه، حتّىٰ تتوّجت جهوده بمعنىٰ قوله سبحانه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ﴾ فنبذوا ما كانوا فيه من الجاهلية الجهلاء والضّلالة العمياء بهداية القرآن والإسلام.

ويومئذٍ وبظهور النبيّ صلى الله عليه وآله وظهور دعوته، ظهر مورد جديد للتأريخ، وهي أحاديث الصحابة والتابعين وأهل بيته عليهم السلام عن ولادته و حياته، وما قام به صلى الله عليه وآله من جهاد وجهود في سبيل اللّٰه، واصطدام في ذٰلك مع المشركين، ودعوة إلىٰ التوحيد، وماكان فيها من أثر للسيف والسّنان واللسان والبيان، وأصبحت هذه هي موادّ التأريخ الجديد بصورة عامّة وسيرة الرّسول بصورة خاصّة.

تدوين السيرة النبويّة وتأريخ الإسلام:

ولم يدوَّن في تأريخ الإسلام أو في سيرته صلى الله عليه وآله شيء، حتّىٰ مضت أيام الخلفاء، لم يدوَّن في هذه المدّة شيء سوىٰ القرآن الكريم وتقويم إعرابه بمبادئ وقواعد النّحو علىٰ يد أبي الأسود الدؤلي بإملاء أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، وقد كان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يحفِّز المسلمين علىٰ كتابة القرآن حِرصاً علىٰ حفظه وصيانته، كما إنّ تفشي العُجمة علىٰ ألسِنةِ أبناء العرب علىٰ أثر اختلاطهم بغيرهم عند اتساع الرّقعة الإسلامية دفعت أبا الأسود الدؤلي إلىٰ عرض ذٰلك علىٰ علي عليه السلام فكان ذٰلك حافزاً علىٰ تدوين النحو.

وبهذا الاختلاط ايضاً تفشّت فيهم أخبار الماضين من ملوك الفرس وبني

إسرائيل، فلمّا كانت أيام معاوية أحبّ أنْ يدوِّن في التأريخ القديم كتاب فاستقدم عُبيد بن شُرَيَّة من صنعاء اليمن فكتب له كتاب أخبار الماضين من ملوك اليمن من العرب البائدة وغيرهم ومنهم الفرس والحبشة[١].

وقد كان المسلمون يُحِبُّون أنْ يخلِّدوا آثار ما يتعلق بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد كان هذا يحقّق ما في نفوسهم من تعلّق به ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ، ولكنّهم ـ ببالغ الأسف ـ مُنعوا عن تدوين أحاديثه مخافة أنْ يختلط الحديث بالقرآن الكريم ـ كما زعموا ـ، بل مُنعوا حتّىٰ عن التحديث بحديثه، حاشا أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فإنّه لم يشارك في هذا المنع ولم يؤيّده، بل كما أملىٰ النحو علىٰ كاتبه أبي الأسود الدؤلي كتب هو أيضاً بعض الكتب في الفقه والحديث، وأمر كاتبه الراتب عبيد اللّه بن أبي رافع أنْ يكتب المُهِمَّ من أقضيته، وأحكامه في فنون الفقه من الوضوء والصلاة وسائر الأبواب[٢].

وبهذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام، وبفعل حاجة المسلمين إلىٰ أحاديث نبيِّهم ظهر فيهم غير واحد من حَمَلَةِ الأحاديث العلماء الفقهاء، ولٰكن حيث استمر هذا المنع رسميّاً من قبل الخلفاء بعد علي وابنه الحسن عليهما السلام إلىٰ أيام عمر بن عبد العزيز، قام رجال كلّهم محدِّثون، لم يدوِّنوا في الحديث والفقه شيئاً، ولٰكنَّهم عوَّضوا عن كتابة أحاديثه بكتابة شيء من سيرته صلى الله عليه وآله.

أُصول السيرة النبويّة وتطوّرها في القَرنين الأول والثاني:

لا شكَّ في الأهمية الكُبرىٰ الّتي كانت لأقوال النبي صلى الله عليه وآله وأعماله في حياته، وأكثر منها بعد وفاته.

---

(١) أُنظر مروج الذهب ٢: ٦٠ ـ ٦٢ و ٢٥١.

(٢) أُنظر رجال النجاشي: ٤ ـ ٧.

ومن الطبيعي أنْ تورث هذه الأهمية عناية بتدوين تفاصيل حياته وجمع الأخبار و الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله.

وطبيعي أيضاً أنْ تكون القصص الشعبية عن سيرته موجودة في حياته معتنىٰ بها ـ كحال الناس في العناية بقصص الأنبياء من قبل ـ.

وطبيعي أيضاً أنْ يكون بعض الصحابة والتابعين قد تفوَّق علىٰ أقرانه في علمه بسيرته و مغازيه.

كتّابُ السيرة الأوائل:

إنّ أوّل من صنّف في السيرة هو عُروة بن الزبير بن العوّام (م ٩٢ هـ).

وذكر ابن سعد في كتابه «الطبقات» مايفيد: أنّ أوّل من تخصّص فيها هو أبان بن عثمان بن عفّان (م ١٠٥ هـ)، رویٰ بعضها عنه المغيرة بن عبدالرّحمٰن.

ثم تنبّه إلىٰ جمع أخبارها والتحديث بها وهب بن منبّه اليمني (م ١١٠ هـ).

ثُمَّ عاصم بن عمر بن قَتادة (م ١٢٠ هـ) الذي يروي عنه ابن إسحاق بعض أخبار سيرته كخبره عن دعاء النبي للاستسقاء في طريق تبوك، وكثرة النِّفاق.

ثُمَّ شرحبيل بن سعد الشامي (م ١٢٣ هـ).

ثُمَّ عبد الله بن أبي بكر بن حزم القاضي (م ١٣٥ هـ) الّذي طلب منه عمر بن عبد العزيز أنْ يكتب إليه ماعنده من الأحاديث فنشرها بين الناس.

ثُمَّ موسىٰ بن عُقبة (م ١٤١ هـ).

ثُمَّ مَعمر بن راشد (م ١٥٠ هـ).

ثُمَّ مُحمّد بن إسحاق بن يسار المدني ـ وقِيلَ بشار ـ بن خيار من سبي عين تَمْر بالعراق (م ١٥٣ هـ).

ثُمَّ راويته زياد بن عبد الملك البَكّائي الكُوفي العامري (م ١٨٣ هـ).

ثُمَّ مُحمّد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي صاحب كتاب المغازي (م ٢٠٧هـ).

ثُمَّ راوية ابن زياد البَكّائي عن ابن إسحاق: عبد الملك بن هِشام الحِميَري اليمني البصري (م ٢١٨هـ).

ولم يصلنا من كُتب هؤلاء شيء سوىٰ سيرة ابن إسحاق برواية ابن هِشام عن البَكّائي عن ابن إسحاق، ومغازي الواقدي، اللّهمَّ إلّا روايات في طَيّات أُمّهات المصادر التأريخيّة فيما بعد.

المؤرخون الأوائل:

وإلىٰ جانب هؤلاء ظهر مَنْ لم يقتصر علىٰ أخبار سيرة الرسول ﷺ، بل جمع إليها أخبار الجاهلية قبل الإسلام، ثُمَّ أخبار الخُلفاء بعده، أو جمع أخبار بعض الخُلفاء، أو الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فقط، فكانوا مؤرِّخين بالمعنىٰ العام.

منهم: مُحمَّد بن السائب الكلبي الكُوفي النّسابة (م ١٤٦هـ).

وأبو مخنف لوط بن يحيىٰ الأَزدي الكُوفي (م ١٥٧هـ).

وهِشام بن مُحمَّد الكلبي الكُوفي (م ٢٠٦هـ).

ونصر بن مُزاحم المنقري الكُوفي (م ٢١٢هـ).

وعبد اللّٰه بن مسلم بن قتيبة الدينوري (م ٢٧٤هـ).

وأحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري (م ٢٧٩هـ).

وإبراهيم بن مُحمَّد الثقفي الكُوفي الإصبهاني (م ٢٨٣هـ).

وأبو الفرج علي بن الحسين الأموي الإصبهاني (م ٢٨٤هـ).

وأحمد بن واضح بن يعقوب البغدادي (م ٢٩٢هـ).

ومحمّد بن جرير الطبري (م ٣١٠هـ).

وعلي بن الحسين المسعودي البغدادي (م ٣٤٦هـ).

ومُحمّد بن مُحمّد بن النُعمان التَلعُكْبريّ المفيد (م ٤١٣هـ).

الأثر الباقي في السيرة:

عرفنا أنّ الكتابة في سيرة رسول الله ﷺ كانت قد حصلت في التابعين وتابعي التابعين، كما رأينا قائمة أسمائهم وتواريخ وَفَياتهم، ولكنّها لم تكن كثيرة، بل هي مهما أطلنا الحديث عنها كانت قليلة جداً، لاتعدو أنْ تكون صُحفاً فيها بعض الأخبار عن سيرة المختار ﷺ.

أمّا الكتاب الّذي كُتبت له الموفقية والنجاح وشهرة الاعتماد والوثوق فهو سيرة مُحمّد بن إسحاق، الّتي ألّفها في أوائل أيام العباسيين.

ذكر الخطيب: أنّه دخل يوماً علىٰ المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: أَتعرِف هذا يابن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين: فقال: اذهب فصنِّف له كتاباً مُنذ خلق الله آدم عليه السلام إلىٰ يومك هذا. فذهب ابن إسحاق فصنَّف له الكتاب وأتاه به فلمّا رآه قال: لقد طوّلته يابن إسحاق فاذهب فاختصِره. فاختصَره، وأُلقي الكتاب الكبير في خزانة الخليفة[١].

وفي هذا المعنىٰ رُويَ عن ابن عَدِي الرِّجالي المعروف أنّه كان يقول في ابن إسحاق: «لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلّا أنّه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لايحصل منها شيء للاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبتدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق، وقد فتّشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما تهيّئ أنْ يُقطع عليه بالضعف، ورُبّما أخطأ واتُّهم في الشيء كما يخطيء غيره.

---

(١) أُنظر تاريخ بغداد ١: ٢٢١ و ٧: ٢٤٥.

ولم يتخلَّف في الرواية عنه الثقات والأئمة الاثبات، أخرج له مسلم في المبايعات، واستشهد به البخاري في مواضع، وروىٰ له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه»[١].

ثُمَّ أصبح ابن إسحاق في الحقيقة عُمدة المؤلفين في السيرة، فما من كتابٍ في السيرة إلّا وهو مستمدّ منه وراوٍ عنه، اللّٰهُمَّ إلّا ما نأتي عليه من مغازي الواقدي ورواية كاتبه ابن سعد عنه، وما رُوي عن أئمة أهل البيت عليهم‌السلام، وكذلك أصبح كتاب ابن إسحاق عُمدة الكتب في السيرة لقرّائها مُنذ أنْ كتبه إلىٰ يومِنا هذا ولاسيّما بعد تهذيبها من قبل ابن هِشام ـ بحيث أنّك لاتكاد تجد رجلاً يدرس سيرة الرسول الكريم إلّا وكتاب ابن إسحاق كتابه الأوّل والأُم في ذلك.

عمل ابن هِشام في سيرة ابن إسحاق:

وقد جاء بعده عبد الملك بن هِشام الحميري البصري (ت ٢١٨هـ) بنصف قَرن تقريباً، فروىٰ سيرة ابن إسحاق برواية زياد بن عبد الملك البَكّائي العامري الكُوفي (ت ١٨٣هـ) ولٰكنّه لم يروها كما هي بل تناولها بكثير من التمرير والاختصار والاضافة والنقد أحياناً، والمعارضة بروايات أُخر لغيره، عبَّر عن أعماله هذهِ بقوله في صدر سيرته: «وانا ـ إنْ شاء اللّٰه ـ مبتدىء هٰذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولَد رسولَ اللّٰه من ولده، أولادهم لأصلابهم الأوّل فالأوّل من إسماعيل إلىٰ رسول اللّٰه، ومايعرض من حديثهم ـ وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل للاختصار ـ إلىٰ حديث سيرة رسول اللّٰه. وتارك بعض مايذكره ابن إسحاق في هٰذا الكتاب مِمّا ليس لرسول اللّٰه فيه ذكر ولانزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء

---

(١) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦: ١٠٢ ـ ١١٢.

من هٰذا الكتاب ولاتفسيراً له ولاشاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به (!) وبعض يسوء بعض الناس ذكره (!) وبعض لم يَقرّ لنا البَكّائي بروايته (؟) ومُسْتَقْصٍ ـإن شاء اللّهُ تعالىٰ ـ ماسوىٰ ذٰلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به»[١].

إذن فقد أسقط ابن هِشام من عمل ابن إسحاق: تأريخ الأنبياء من آدم إلىٰ إبراهيم، ومن ولد إسماعيل مَنْ ليس في عمود النسب النبوي الشريف، كما حذف من الأخبار مايسوءُ بعض الناس! ومن الشعر مالم يثبت لديه. ولكنّه زاد فيه مِمّا ثبتت لديه من رواية، ولذٰلك نُسبت السيرة إليه وعُرفت به، حتّىٰ لايكاد يذكر ابن إسحاق معه، فقد عُرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء مُنْذُ عهد بعيد باسم سيرة ابن هِشام، لِمَا له فيها من رواية وتهذيب.

وبهذا الصدد قال ابن خلّكان في ترجمة ابن هِشام: «وابن هِشام هٰذا هو الّذي جمع سيرة رسول اللّه من المغازي والسّير لابن إسحاق وهذّبها ولخّصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس المعروفة بسيرة ابن هِشام».

ولم تنقطع العناية بالتأليف في السيرة إلىٰ يومنا هٰذا، إلّا أنّ الموضوع في ذاته ليس أمراً يقوم علىٰ التجارب، أوْ فكرة يقيمها برهان وينقضها برهان، شأن النظريات العلميّة الّتي نرىٰ تجديدها وتغييرها علىٰ مرّ السنين، وإنّما هو من العلوم النقليّة لا العقليّة، فكان المشتغلون به أوّلاً محدِّثين ناقلين، ثُمَّ جاء مَن بعدَهم جامِعِين مبوِّبين ثُمَّ ناقدين معلّقين. ولم يكن قابلاً للتجديد في جوهره، إلّابمقدار قليل حسب النقد الدقيق، وإنّما كان التجديد في أشكاله وصوره شرحاً أوْ اختصاراً، أوْ شيئاً من النقد قليلاً مشيراً إلىٰ مافيه من أخطاء.

---

(١) سيرة ابن هِشام ١ : ٤.

ولعلَّ الذين تناولوا السيرة بالتلخيص والاختصار، إنّما خففوا من ثقل الكتاب بعض أخباره تلك الّتي استبعدوها غير مؤمنين بصحّتها، ناقلين من الأخبار مايرون فيه القرب من الحقّ، ومستبعدين مالايجري في ذلك مع فكرتهم وعقيدتهم مفنّدين إياه رادّين له.

ولعلَّ من عِلل انتشار أخبار ابن إسحاق ثُمَّ كتابه في السيرة كثرة رحلاته، فالراجح في تأريخ مولده في المدينة أنّه كان سنة ٨٥هـ ولا يرتاب الرجاليّون وأصحاب الطبقات في أنّه أمضىٰ شبابه في المدينة فتىً جميلاً «فارسي الخلقة» جذّاب الوجه له شعرة حسنة ولذلك حكىٰ ابن النديم بشأنه في فِهرسته: أنّه اتّهم بأنّه يجلس في مؤخّر المسجد للصلاة فيُغازل بعض النساء، فأمر أمير المدينة بإحضاره و ضربه اسواطاً ونهاه عن الجلوس في مؤخّر المسجد. ولعلّه لهذا لم يَرْوِ عنه من أهل المدينة غير راوٍ واحدٍ هو إبراهيم بن سعد فحسب(١).

ولعلَّه لهذا رحل منها سنة ١١٥هـ أي في الثلاثين من عمره إلىٰ الاسكندرية في مصر، ويظن أنّها أُولىٰ رحلاته، فانفرد برواية أحاديث عن عدةٍ من رجال الحديث بها.

ثُمَّ رحل إلىٰ الكوفة والحيرة، ولعلَّه بها التقىٰ بالمنصور فصنَّف لابنه المهدي كتاب السيرة كما سبق، فرواها عنه زياد بن عبد الملك البَكّائي العامري وغيره، ورحل إلىٰ الجزيرة أي الموصل، والرّي حتّىٰ إذا بُنيت بغداد فرجع إليها وفيها ألقىٰ عصا الترحال، وله من كلّ هذه البُلدان رواة كثيرون. وعاش في بغداد حتّىٰ توفي بها فدفن في مقابر الخيزران.

وقد كان ابن إسحاق يُعدُّ في طبقة تلامذة عبد الملك بن شهاب الزُهْري وأقرانه، وله عنه روايات، ونقل أصحاب الطبقات أنّ شيخه ابن شهاب الزُهْري

---

(١) وانظر تهذيب التهذيب ٩: ٤٤.

لم يكن يتّهمه بشيء بل كان يوثّقه، وتبعه في توثيق ابن إسحاق من الفقهاء الأئمة: سفيان الثوري وشعبة، بالإضافة إلىٰ راويته زياد ابن عبد الملك البكّائي عنه. وإنْ كان هِشام بن عُروة بن الزبير من رواة السيرة، ومالك بن أنس من أئمة الفقهاء يتحاملان عليه بالجرح والتضعيف ويتّهمانه بالكذب والدّجل والتّدليس، والقول بالقدر، والنقل عن غير الثقات، وأخطاء في الأنساب. ولٰكن لعلّه لأن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك وعلمه ويقول: إيتوني ببعض كتبه حتّىٰ أُبيّن لكم عيوبه، فأنا بيطار كتبه[1]! إذن فالحملة متقابلة من الطرفين، والتضعيف ضعيف لأنه معلوم الوجه والعلة «الشخصية».

مغازي الواقدي:

أمّا الواقدي مُحمّد بن عمر بن واقد مولىٰ بني سهم، فقد ذكر تلميذه ابن سعد في «الطبقات الكُبرىٰ» أنّه ولد في المدينة سنة ١٣٠هـ أي بعد خروج ابن إسحاق منها بخمسة عشر عاماً، ولذٰلك لم يَرْوِ عنه وإنْ كان قد روىٰ عن سائر رواة الأخبار عن الزُهْري، مع تشابه كبير بين فِقرات كتاب السيرة لإبن إسحاق وكتاب المغازي للواقدي، ولذٰلك زعم مُستشرقان هُما (فلهوزن وهورفتس) أنّه سرق منه ولم يسنده إليه، وفنّد زعمهما مُستشرق آخر هو (مارسدن جونس) محقّق المغازي كما في مقدّمته للكتاب[2] ثُمّ احتمل أنْ يكون الواقدي قد أعرض عن الرواية عن ابن إسحاق نظراً إلىٰ عدم توثيق علماء المدينة له[3].

---

(١) راجع ترجمته وهذه الأقوال في الكامل في الضعفاء لابن عدي ٦: ١٠٢ ـ ١١٢.

(٢) مغازي الواقدي ٢: ٢٩.

(٣) بل مرّ أنّه رحل عن المدينة شاباً قبل تأليفه السيرة فلم يروها عنه من أهل المدينة أحد، فلم يرو عنه الواقدي.

ثُمَّ قال: يبدو واضحاً للقارىء الحديث أنّ من أهم السّمات الّتي تجعل الواقدي في منزلة خاصة بين أصحاب السِّير والمغازي تطبيقه المنهج التأريخي العلمي الفنّي، فإنّا نلاحظ عند الواقدي ـ أكثر مِمّا نلاحظ عند غيره من المؤرّخين المتقدمين ـ أنّه كان يرتّب التفاصيل المختلفة للحوادث بطريقة منطقية لاتتغير، فهو مثلاً يبدأ مغازيه بذكر قائمة طويلة من الرجال الذين نقل عنهم تلك الأخبار ثُمَّ يذكر المغازي واحدة واحدة مع تأريخ محدد للغزوة بدقّة، وغالباً مايذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة، ثُمَّ يذكر المغازي الّتي غزاها النبي بنفسه، وأسماء الّذين استخلفهم علىٰ المدينة أثناء غزواته، وأخيراً يذكر شعار المسلمين في القتال، كلّ ذٰلك بالإضافة إلىٰ وصفه لِكُلِّ غزوة بأسلوب موحّد: فيذكر أوّلاً اسم الغزوة وتأريخها وأميرها.

وكثيراً مايقدّم لنا الواقدي قصة الواقعة بإسناد جامع، أي يجمع الرجال والأسانيد في متن واحد. وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن الكريم، فإنّ الواقدي يفردها وحدها مع تفسيرها ويضعها في نهاية أخبار الغزوة، وفي المغازي المهمه يذكر الواقدي أسماء الّذين استشهدوا فيها.

وإنّ ما أورده في الكتاب من التفاصيل الجغرافية ليوحي بجهده ومعرفته للدقائق في الأخبار الّتي جمعها في رحلته إلىٰ شرق الأرض وغربها طلباً للعلم[1]. وقد روىٰ الخطيب البغدادي وابن سيد الناس[2] عن الواقدي أنّه قال: ماأدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولاموليٰ لهم إلاّ سألته: هل سمعت أحداً من أهلك يُخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلىٰ الموضع فأُعاينه، وما عَلِمت غزاة إلاّ مضيت إلىٰ الموضع فأُعاينه، حتّىٰ لقد مضيت إلىٰ «المريسيع» فنظرت إليها.

---

(١) مقدمة المحقق للمغازي ١ : ٣١.

(٢) تأريخ بغداد ٣: ٦، وعيون الاثر ١ : ١٨.

ورووا عن هارون الغروي قال: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة فقلت: أين تريد؟ قال: أُريد أنْ أمضي إلىٰ حنين حتّىٰ أرىٰ الموضع والوقعة.

ويشهد لنباهة الواقدي بهذا الشأن ماقصّه تلميذه وراويته ابن سعد في الطبقات:

إنّ هارون الرشيد ويحيىٰ بن خالد البرمكي حين زارا المدينة في حجتها، طلبا مَنْ يدلّهما علىٰ المشاهد وقبور الشهداء، فدلّوهما علىٰ الواقدي، فصحبهما في زيارتهما فلم يدع موضعاً من المواضع ولامشهداً من المشاهد إلّا مرّ بهما عليه. فمنحه هارون الرشيد بعشرة آلاف دِرْهم، فصرفها في قضاء ديون كانت قد تراكمت عليه وزوّج بعض ولده وبقي في يسر وسعة[1].

ولٰكنّه يعود فيقول: إنّه لحقه دين بعد ذٰلك فذهب إلىٰ العراق سنة ١٨٠هـ[2] ويفصّل الخطيب عن الواقدي يقول: كانت للناس في يدي مئة الف دِرْهم أُضارب بها في الحنطة، وتلفت الدراهم، فشخصتُ إلىٰ العراق فقصدتُ يحيىٰ بن خالد البرمكي[3]، ويفصّل ابن سعد عنه أيضاً يقول: ثُمَّ إنّ الدّهر أعضّنا، فقالت لي أُمُّ عبدالله: ياأبا عبد الله ماقعودك وهٰذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أنْ تسير إليه حيث استقرت به الدار. فرحلتُ من المدينة. ولمّا دخل بغداد وجد الخليفة والبلاط قد انتقلوا إلىٰ الرّقة بالشام فرحل إليهم حتّىٰ لحق بهم[4] فيقول: صار إليّ من السلطان ستمئة الف دِرْهم ماوجبت علي فيها الزكاة[5] ثُمَّ رجع معهم إلىٰ بغداد

---

(١) انظر الطبقات ٥: ٣١٥.

(٢) الطبقات ٧: ٧٧.

(٣) تأريخ بغداد ٣: ٤.

(٤) الطبقات ٥: ٣١٥.

(٥) تأريخ بغداد ٣: ٢٠.

وبقي بها، حتّىٰ قدمها المأمون فجعله قاضياً لعسكر المهدي[(١)] وكان العسكر في الجانب الشرقي وكان الواقدي في الجانب الغربي فلمّا انتقل حمل كتبه علىٰ عشرين ومئة وقر[(٢)] فولّي القضاء مدّة أربع سنوات قبل وفاته، وأوصىٰ إلىٰ المأمون فقبل وصيته وأرسل إليه بأكفانه وقضىٰ دينه[(٣)].

ذكر ابن سعد ـ وهو تلميذه وكاتبه وراويته ـ يقول: مات ببغداد ليلة الثلاثاء لإحدىٰ عشرة ليلة خَلَت من ذي الحجة سنة سبع ومئتين ودفن يوم الثلاثاء في مقابر الخيزران، وهو ابن ثمان وسبعين سنة[(٤)].

مكانة الواقدي في الرواية والعلم:

وتتجلىٰ مكانته في الرواية والعلم في وصف كاتبه وتلميذه ابن سعد له حيث يقول: كان عالماً بالمغازي والسيرة والفتوح واختلاف الناس في الحديث والأحكام، واجتماعهم علىٰ ماأجمعوا عليه، وقد فسّر ذٰلك في كُتب استخرجها ووضعها وحدّث بها[(٥)].

وقال عنه ابن النديم في الفهرست: إنّه كان عنده غلامان يعملان ليلاً ونهاراً في نسخ الكتب، وقد ترك عند وفاته ستمئة قِمَطْر من الكتب يحتاج كلّ منها إلىٰ رجلين لحمله[(٦)].

---

(١) الطبقات ٧: ٧٧.

(٢) تأريخ بغداد ٣: ٥ وعيون الاثر ١: ١٨ والوافي بالوفيات ٤: ٢٣٨ وسير اعلام النبلاء ٧: ١١٨.

(٣) الطبقات ٥: ٣١٥، ٣٢١، وتأريخ بغداد ٣: ٢٠، وتأريخ دمشق ١١: ٣، والوافي بالوفيات ٤: ٢٣٨.

(٤) الطبقات ٧: ٧٧.

(٥) الطبقات ٥: ١٤٤.

(٦) الفهرست: ١٤٤.

ونقل الخطيب البغدادي عن علي بن المديني: أنّ ماجمع الواقدي من الأحاديث بلغ عشرين ألف حديث[1].

ونقل ابن سيد الناس عن يحيىٰ بن معين أنّه قال: أغرب الواقدي علىٰ رسول اللّٰه في عشرين ألف حديث. ثُمَّ قال ابن سيد الناس: وقد روينا عنه مِنْ تتبعه آثار مواضع الوقائع وسؤاله من أبناء الشهداء والصحابة ومواليهم عن أحوال سلفهم مايقتضي انفراداً بالروايات وأخباراً لاتدخل تحت الحصر[2].

ونقل الذهبي عن إبراهيم الحربي أنّه كان يقول عنه: إنّه كان أعلم الناس بأمر الإسلام، فأمّا أمر الجاهلية فلم يعلم منها شيئاً[3] ثُمَّ ذكروا له زهاء ثلاثين كتاباً.

ونرىٰ في قائمة كتبه كتاب الطبقات، ولنا أنْ نتمثّله في كتاب الطبقات الكبرىٰ لتلميذه وكاتبه مُحمّد بن سعد، فقد نقل عنه كثيراً ولاشكَّ أنّه صنّفه علىٰ غرار كتاب شيخه وروىٰ فيه عن غيره أيضاً.

ومن كتبه كتاب الرّدة، ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ، ومحاربة الصحابة لطلحة بن خويلد الأسدي ومسيلمة الكذّاب وسجاح في اليمامة والأسود العنسي في اليمن. وقد نقل عنه تليمذه ابن سعد في الطبقات والطبري في تأريخه أخبار الأحداث الّتي تلت وفاة النبي، وإنّما هو من كتابه في الرّدة.

ويمكن القول بأنّ مانقله ابن سعد، والطبري عنه عن الواقدي من أخبار الجاهلية فهو من كتاب سمّوه: «كتاب التأريخ والمغازي والمبعث»، هٰكذا بتقديم المغازي علىٰ المبعث وتأخير المبعث عن المغازي، الّذي عدّوه غير كتاب المغازي. والطبري ينقل المغازي عن الواقدي مباشرة ولكنّه حين يُورد أخبار الجاهلية

---

(١) تأريخ بغداد ٣: ١٣.

(٢) عيون الأثر ١: ٢٠.

(٣) سير الأعلام ٧: ١١٧.

وماقبل الإسلام فإنّه يرويها عن ابن سعد عن الواقدي، ممّا يدلُّ علىٰ أنّه اعتمد في المغازي علىٰ كتاب المغازي للواقدي، وأمّا أخبار الجاهلية فهي من كتاب آخر له لعلّه هو التأريخ والمبعث.

ومن كتبه «فتوح الشام وفتوح العراق»، وقد نقل البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» عن الواقدي كثيراً، وهو من تلامذة ابن سعد كاتب الواقدي، فهو قد روىٰ كتاب شيخه له ورواه البلاذري كما نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» كثيراً من حوادث سنة ٦٤هـ والطبري نقل عنه كثيراً من حوادث النصف الثاني من القرن الثاني أي التي عاشها الواقدي.

حول تشيع الواقدي وابن إسحاق:

قال ابن النديم في فهرسته عن الواقدي: كان يتشيّع، حسن المذهب، يلزم التقيّة، وهو الّذي روىٰ انّ علياً كان من معجزات النبي صلى الله عليه وآله كالعصا لموسىٰ واحياء الموتىٰ لعيسىٰ بن مريم عليهما السلام، وغير ذلك من الأخبار[1].

ونقل هذا القول عنه السيد الأمين العاملي صاحب «أعيان الشيعة» وترجم له[2]، وكذلك ذكره آقا بزرك الطهراني في «الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة»[3] عند الحديث عن تأريخ الواقدي. بينما لم يذكره الشيخ الطوسي في فهرسته ولارجاله ولاذكر كتاباً من كتبه حتّىٰ مقتل الحسين عليه السلام.

---

(١) الفهرست: ١٤٤. هذا وقد روى ابن عدي الرجالي عنه في كتابه الكامل في الضعفاء ٦: ٢٤٢، برقم ١٧١٩ بسنده عن بشر بن سعيد، قال: سألت زيد الجهمي: هل أوصى النبي إلىٰ أحدٍ؟ فقال: لا.

(٢) أعيان الشيعة ٤٦: ١٧١.

(٣) الذريعة ٣: ٢٩٣.

وابن أبي الحديد حينما ينقل فقرة طويلة عن الواقدي ثمّ يُورد رواية أُخرىٰ مختلفة عن الأُولىٰ يبدؤها بقوله: «وفي رواية الشيعة»[1]، مِمّا يدلُّ علىٰ أنّه لم يعتبره شيعياً ولا مُمثّلاً لهم.

ومن الطريف أنْ يلاحَظ أنّ ابن إسحاق أيضاً كان يُتّهم بالتشيّع[2].

ولعلّ السبب في وصفهما بالتشيّع لا يرجع إلىٰ عقيدتهما الشخصية، بل إلىٰ ماورد في كتابيهما من الأخبار التي يعرضونها مِمّا تقتضيه طبيعة التأليف في مثل هذه الموضوعات لا عن عقيدة صحيحة بها، وإلىٰ ماأورداه في بعض المواضع من كتابيهما بشأن جماعة من الصحابة منهم بعض الخلفاء فيذكرانهم بعبارات لا تضعهم في الموضع الموضوع لها عند كثير من المسلمين.

ولذلك فانّ أكثر النقّاد من المحدّثين الأوائل كانوا يضعّفون الواقدي في الحديث.

فقد قال البخاري والرازي والنّسائي والدارقطني: انّه متروك الحديث، ولكنّهم لم يُجمعوا علىٰ ذلك، فقد وصفه الدرآوردي بأنّه: أمير المؤمنين في الحديث.

وقال يزيد بن هارون: الواقدي ثقة.

ووثّقه مصعب الزبيري، ومجاهد بن موسىٰ، والمسيّب وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر الصغاني[3].

وقال إبراهيم الحربي: هو آمن الناس علىٰ أهل الإسلام[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٩.

(٢) معجم الأُدباء ١٨: ٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٩: ٣٦٤.

(٤) عيون الأثر ١: ١٨.

وقال ابن النديم: كان عالماً بالمغازي والسِّير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار[1].

أمّا بالنسبة لابن إسحاق: فقد عقد الخطيب البغدادي في كتابه «تأريخ بغداد» وكذلك ابن سيّد الناس في كتابه «عيون الأثر» فصلين فنّدا فيهما جميع المطاعن الّتي وجّهت إليه.

وبالنسبة لتشيّعه وقوله بالقدر قالا ماملخّصه: أمّا مارمي به من التدليس والقدر والتشيّع فلا يوجب ردّ روايته، ولا يوقع فيها كبير وهن، أمّا التدليس فمنه القادح وغير القادح، ولا يُحمل ماوقع هنا من مطلق التدليس علىٰ التدليس المُقيد بالقادح في العدالة، وكذلك القدر والتشيُّع لايقتضيان الردّ إلّا بضميمة أُخرىٰ لم نجدها هنا.

والعجيب أنّك لاتجد شيئاً من هٰذا التشكيك في عبد الملك بن هشام مهذّب سيرة ابن إسحاق، فلو كان العيب في هٰذا الباقي من سيرة ابن إسحاق لشمل الشك ابن هشام أيضاً.

وعندئذ نطمئن إلىٰ انّ العيبَ ليس في هٰذا الباقي بل فيما قال عنه ابن هشام: «وتارك بعض مايذكره ابن إسحاق في هٰذا الكتاب... أشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكّائي بروايته، ومُسْتقص ماسوىٰ ذلك».

وعندئذ تجد محور اتّهام التشيّع أيضاً. وقد رأينا أنّا إذا استثنينا هذين المتهمين بالتشيّع لم يبقَ لعامة المسلمين شيء يُذكر في السيرة ولا المغازي. وعندئذ ندرك أيضاً أنّ السابقين الأولين إلىٰ تدوين سيرة الرسول ومغازيه أي الصدر الأول من تأريخ الإسلام هُم من شيعة أئمة أهل البيت عليهم السلام أوْ المقاربين لهم المتّهمين بهم.

---

(١) الفهرست: ١٤٤.

نقد كتب السيرة:

لعلّ النظر إلىٰ تراث السلف الصالح ـ ولاسيّما سيرة الرسول الكريم ـ بنظرة التقديس، هو الّذي أدّىٰ بالمؤلّفين في السيرة علىٰ اختلاف طبقاتهم أنْ لايقفوا موقف الناقد البصير، فلم نَرَ منهم من يعرض لما تحمله السيرة بين دفتيها من أخبار ضعيفة بعيدة عن الحقيقة لينقدها ويأتي علىٰ نقاط الضعف فيها، فهذا ما حُرِمَهُ هٰذا العلم في جميع أدواره السالفة إلىٰ عهدنا هٰذا الأخير، حيث أخذ المستشرقون والمتأثّرون بهم يتناولون خبراً أوْ خبرين من السيرة وسيلة للطّعن في شخص النبي الكريم صلى‌الله‌عليه‌وآله أوْ مايتصل به، فآمن بعض أصحاب الأقلام الجديدة بأنّ في السيرة أخباراً لاتمتّ إلىٰ الحقّ بصلة في قليل ولاكثير، ثمّ تجرّؤوا فأقدموا علىٰ تهذيب السيرة ممّا اُلصق بها وهي ليست منها، كقصة شقّ الصدر والغرانيق[1] وغرام الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله بزوجة زيد ربيبه!

إنّ سيرة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله كسائر العظماء اُضيف إليها ماليس منها، إمّا عن حبٍ وهوىٰ وحسن نيّة وطويّة، وإمّا عن حقد وسوء قصد متعمّد، ولكنّها تمتاز عن سير جميع العظماء بأنّ شيئاً كثيراً منها ضمّه الوحي الإلهي وضمن حفظه القرآن الكريم، وكثيراً منها مرويّ علىٰ لسان الحفّاظ الثّقات من المحدّثين. فعلىٰ هذه الاُسس الصحيحة يجب أنْ تُبنىٰ السيرة، وأنْ تُحلّل التحليل العلميّ النزيه بملاحظة ظروف الوسط وحال البيئة وجوانبها المختلفة من عقائد ونظم وعادات وتقاليد وطقوس، وأنْ لايُبنىٰ الأساس علىٰ المعجزات والكرامات وخوارق العادات إلّا ماخرج بالدليل بل يُبنىٰ علىٰ أساس «إنّ اللّٰه أبىٰ أنْ يُجري الأشياء إلّا بأسباب»[2] اللهمّ إلّا ما خرج بالدليل الثابت المعقول.

---

(١) اُنظر ملخّص القصّة في ذيل الصفحة التالية.

(٢) اُصول الكافي ١ : ١٨٣، عن الصادق عليه‌السلام وهي رواية الصفّار القمي في بصائر الدرجات كما عنه في بحار الأنوار ٢ : ٩٠.

الخلاف في كتب السيرة وبينها:

إنّ الدارس لكتب السيرة والتأريخ يلاحظ أنّ ماروته من أنباء الخوارق والمعجزات وغيرها من كثير من الأنباء، ينقص ثمّ يزيد بزيادة الأزمان التي وضعت فيها هذه الكتب، فقديمها أقلّ رواية للخوارق من متأخّرها، وماورد من الخوارق في الكتب القديمة أقلّ بعداً عن مقتضىٰ العقل مِمّا ورد في كتب المتأخّرين.

فهذه سيرة ابن هشام أوْ قُل ابن إسحاق أقدم السِّير المعروفة اليوم تغفل كثيراً ممّا ذكره أبو الفداء في تأريخه وماذكره القاضي عياض في «الشفاء» وعن جميع كتب المتأخرين تقريباً.

فلا بدّ للباحث من أنْ يقبل لنفسه مقياساً يعرض عليه مااتّفقوا عليه ومااختلفوا فيه، فما صدّقه هذا المقياس أقرّه وأقرّ به وقرّبه، ومـا لم يصدّقه فلم يورده بل يردّه[1].

---

(١) مثلاً: إنّ قصة الغرانيق التي تذهب إلىٰ أن النبي لما ضاق ذرعاً بسادات قريش فتلا عليهم سورة النجم حتىٰ إذا بلغ فيها إلىٰ قوله سبحانه ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ أضاف إليها ﴿ تلك الغرانيق العلىٰ منها الشفاعة ترتجىٰ ﴾ ثم أتمّ السورة فسجد وسجد المسلمون والمشركون!

وقد رواها ابن إسحاق ثم قال: إنّها من وضع الزنادقة. وذكرها ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» فقال «ذكروا قصّة الغرانيق، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها في مواضعها، إلّا أنّ أصل القصّة في الصحيح، ثمّ ذكر حديثاً عن البخاري في أمرها وأردفه بقوله «انفرد به البخاري دون مسلم».

أمّا الّذي يتخذ عصمة الرسول في تبليغ الرسالة مقياساً للأخذ والردّ، فلا يتردد في نفي القصّة من أساسها، بل يتّفق مع ابن إسحاق في أنّها من وضع الزنادقة، ويكتفي في ردّها بما فيها من نقض ما للرسول من عصمة في تبليغ رسالة ربّه، كما تقتضي ذلك قواعد النقد العلمي، كما فعل هيكل في كتابه: ٤٨ و ١٤٧ ـ ١٦١.

وهناك سبب آخر يوجب تمحيص ماورد في كتب السلف ونقده نقداً علمياً دقيقاً، هو أنّ أقدمها كُتب بعد وفاة النبي بمئة سنة أوْ أكثر، وبعد أنْ فشت في الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث من وسائلها للغلبة علىٰ خصومها، فكيف بما كُتب متأخراً في أشدّ أزمان الاضطرابات والقلاقل؟ وكيف بما ورد في المتأخِّر من كُتب السيرة؟ فهل يمكن الأخذ به بدون تمحيص بدقّة علميّة؟ وقد أدّت المنازعات السياسية وغيرها الّتي حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام، إلىٰ اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها، هٰذا والحديث لم يدُوّن إلىٰ أواخر عصر الأمويين.

ذلك لأنّ عمر عزم علىٰ ذٰلك فأصبح يوماً يقول: إنّي كنت أردت أنْ أكتب السنن، ثمّ عدلت عن كتابتها، فإنّي ـ والله ـ لا أشوب كتاب الله بشيءٍ أبداً! ثمّ كتب إلىٰ الأمصار بذلك يقول: من كان عنده شيء غير القرآن فليمحُه! وظل الأمر كذلك ـ ما عدا عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الحسن عليهما السلام ـ حتّىٰ أمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث[1].

أمّا كيف روىٰ مثل البخاري مثل قصّة الغرانيق ـ مثلاً ـ؟ فقد اعتذر عن مثل ذٰلك النووي في شرحه لصحيح مسلم قال: «أخذ جماعة علىٰ البخاري ومسلم أحاديث أخلّا بشرطيهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه» وقد التزما بمقياس السند والثقة بالرواية في قبول الحديث ورفضه، ولكنّه وحده غير كاف لذٰلك.

بل إنّ خير مقياس يقاس به الحديث والخبر عن النبي ما روي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «إنّكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه علىٰ كتاب الله فما وافقه فمنّي وماخالفه فليس منّي»[2] فهو مقياس صحيح أخذ به كثير من

---

(١) طبقات ابن سعد ٣: ٢٠٦.

(٢) أُصول الحنفية للشاشي: ٤٣.

الثقات، وهو يتفق مع قواعد النقد العلمي، وقال ابن خلدون بشأنه: «إنّني لا أعتقد صحة سند حديث ولاقول صحابي عالم يخالف ظاهر القرآن، وإنْ وثّقوا رجاله، فَرُبَّ راوٍ يوثّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيّئ الباطن. ولو انتقدت الروايات من جهة فحوىٰ متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون علىٰ كثيرٍ من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا: إنّ من علامة الحديث الموضوع: مخالفته لظاهر القرآن، أوْ القواعد المقرّرة في الشريعة، أوْ لبرهان العقل، أوْ الحسّ والعيان وسائر اليقينيّات».

حقّاً إنّ اختلاف المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بلغ حدّاً دعا الدعاة فيهم إلىٰ اختلاق الآلاف المؤلّفة من الأحاديث والروايات.

لمّا قُتل عثمان وبدأت الحروب الداخلية بين المسلمين بخصومة خصماء علي عليه السلام، وأيّد أمير المؤمنين من أيّده، ثمّ استتبّ الأمر لبني أُميّة جعل المحدّثون المتّصلون ببني أُميّة يضعّفون مايُروىٰ عن علي بن أبي طالب عليه السلام وفضائله، وكما جعل أنصار عائشة يشيعون عنها مايؤيّد دعواها.

ومن طريف مايُروىٰ في ذٰلك: مارواه الذهبي في ترجمة إسماعيل بن المثنّىٰ الاسترآبادي: كان يَعِظُ بدمشق، فقام إليه رجل فسأله عن قول النبيّ: أنا مدينة العلم وعلي بابها؟ فأطرق إسماعيل لحظة ثمّ رفع رأسه وقال: نعم لايعرف هٰذا الحديث عن النبيّ إلّا من كان في صدر الإسلام، إنّما قال النبيّ: أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفها وعليّ بابها! فسُرّ الحاضرون بذلك، فسألوه أن يخرج لهم إسناده، فوعدهم به[1] وذكر القصة ابن‌عساكر فقال: فأنعم ولم يخرجه لهم[2]. أجل، هٰكذا كانت‌الأحاديث تلفّق لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة حتّىٰ كَثُرت وشاعت.

---

(١) لسان الميزان ١: ٤٢٢.

(٢) تأريخ ابن عساكر ٣: ٣٤ وانظر كتاب: فتح الملك العلي بصحة حديث مدينة العلم علي: ١٥٦. بتحقيق الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني النجفي.

هٰذا، وقد تولّىٰ كتّاب السيرة كتابتها ـكما مر خبرها ـ للخلفاء: فابن إسحاق كتب سيرته للمنصور وابنه المهدي، والواقدي كتب مغازيه للرشيد ووزيره يحيىٰ بن خالد البرمكيّ، اللهُمَّ إلّا هشام الكلبي والمدائني فإنّهما لم يكتبا لأحد منهم، ولكنّهم كلهم ماكان لهم أنْ ينازعوا مع الخليفة في آرائه خوفاً منه، ولذٰلك فإنّه لا ينطبق علىٰ ماكتبوه مقاييس الصحة بدقّة.

ومن أمثلة الاختلاف في النقل الّذي يبدأ بذكر معجزة نراها تزيد بزيادة الزمان إلىٰ معاجز: ماحدث في أثناء مسيرة جيش العسرة إلىٰ تبوك:

فقد روىٰ ابن هشام قال: «قال ابن إسحاق: فلمّا أصبح الناس ولاماء معهم شكوا ذٰلك إلىٰ رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فدعا رسول اللّٰه، فأرسل اللّٰه سحابة فأمطرت حتّىٰ ارتوىٰ الناس واحتملوا حاجتهم من الماء»[1].

أمّا صحيح مسلم فيروي قصّة تبوك بصورة أُخرىٰ لاتقتصر علىٰ هذه المعجزة بل تزيدها زيادة كثيرة علىٰ غير ماورد في سيرة ابن إسحاق:

فقد روىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن معاذ بن جبل: «أنّ النبيّ قال لمن سار معه إلىٰ تبوك: إنّكم ستأتون ـإنْ شاء اللّٰه ـ غداً عين تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتّىٰ يضحىٰ النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسّ من مائها شيئاً حتّىٰ آتي. فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشرك تَبِضّ بشيء من ماء. فسألهما رسول اللّٰه: هل مَسَستما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم، فسبّهما النبيّ وقال لهما ماشاء اللّٰه أنْ يقول (!) ثمّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتّىٰ اجتمع في شيء غسل رسول اللّٰه فيه يديه ووجهه ثمّ أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر ـ أوْ قال: غزير ـ حتّىٰ استقىٰ الناس، ثمّ قال: يامعاذ يوشك ـإنْ طالت بك الحياة ـ أنْ ترىٰ ما هاهُنا قد ملئ

---

(١) ابن اسحاق في السيرة ٤: ١٧٣.

جِناناً»[١] فهل ارتوىٰ المسلمون في طريق تبوك بماء العين المنهمر ـ بعد السباب! ـ أم بمطر من سحاب بدعاء مستجاب من نبيٍّ مجاب؟ أَليس في القليل الأول غنىٰ عن الثاني الكثير؟! اللهُمَّ إلّا أنْ نبني علىٰ ترجيح الحديث الأكثر إعجازاً ولا نقتنع بالقليل منه!

هٰذا وقد روىٰ ابن إسحاق بعد روايته خبر السحابة خبراً آخر يؤيده قال: «فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قُلتُ لمحمود بن لبيد: هَلْ كان الناس يعرفون النّفاق فيهم؟ قال: نعم واللّٰه إنْ كان الرجل ليعرفه من أخيهِ ومن أبيهِ ومن عمّهِ وفي عشيرتهِ، ثمّ يلبس بعضهم بعضاً علىٰ ذٰلك، ولقد أخبرني رجال من قومي قالوا: لمّا كان من أمر الماء بالحجر ماكان ودعا رسول اللّٰه حين دعا فأرسل اللّٰه السحابة فأمطرت حتّىٰ ارتوىٰ الناس قالوا: أقبلنا علىٰ رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول اللّٰه حيث سار، فقلنا له: ويحك! هَلْ بعد هٰذا شيء؟ فقال: «سحابة مارّة»»[٢] اللهُمَّ إلّا أنْ يكون ذكر كثرة النّفاق في بعض الصحابة مِمّا يشنع ذكره ويسوء بعض الناس، وإنْ كان لم يحذفه ابن هشام، واختار مسلم ماسلم من ذكره، وهٰذا هو الراجح في الظن.

شرائط دراسة التأريخ:

لا شكّ في أنّ البحث في التأريخ أمر خطير وعمل شاق جداً، فالباحث فيه كمن يريد أنْ يلج بحراً خضماً هائجاً، وإنّما يمدّ ببصره إلىٰ قاعه ليغنم منه لآلئه ودراريه.

---

(١) صحيح مسلم ٧: ٦٠ ط ١٣٣٢، ورواه قبله الواقدي في المغازي ٣: ١٠١٢ ـ ١٠١٣ ورواه قبله ابن اسحاق في السيرة ٤: ١٧١ إلّا أنّه ذكره لمنزل وادي المشقق في طريق عودته من تبوك. ورواه معاصره مالك في الموطأ ١: ١٤٣ باب الجمع بين الصلاتين في السفر والحضر من كتاب قصر الصلاة في السفر.

(٢) ابن اسحاق في السيرة ٤: ١٦٦.

والباحث في التأريخ إنْ كان يطمح من بحثه إلىٰ إحقاق الحقّ وازهاق الباطل، فإنّه لايتسنىٰ له ذلك إلّا إذا كان واسع الإطلاع، بعيد النظر، شديد الحب للحق، موطّناً نفسه علىٰ اتّباعه، مبتعداً عن التعصب المذهبيّ المقيت، ورعاً في إصدار الأحكام، خبيراً بطرق الاستنباط، عارفاً بأمراض التأريخ وعلله، مُلمّاً بظروفه ومراحله، مؤثِراً مصلحة الإسلام والمسلمين علىٰ ماسِواها، متحرر الفكر، غير مشدود لما وَرثه من أهله وقومه.

وذلك لمساس التأريخ ـ ولاسيّما سيرة الرسول الكريم ـ بمختلف نواحي الحياة. فمنه تؤخذ العقيدة الدينية، وأحكام الإسلام، ومعارفه وعلومه، وأدبه وأخلاقه، وعلىٰ أساسه تقول الأجيال كلمتها في كل شيء، و علىٰ ضوئه تحكم علىٰ كل شيء.

وقد ابتلي التأريخ والسيرة ـ ككثير من الأُمور ـ بنظرتين مفُرطة وأُخرىٰ مفرّطة:

فِمن مقبل علىٰ التأريخ والسيرة مكبّ علىٰ أخذ مافيه، غثّه و سمينه، ينتهل منه ريّه في كلّ جوانب الحياة، ويعتبره من أسلم المسلّمات بها، دون حذر عمّا داخله من الدسّ والخرافات بعيداً عمّا نبّه إليه الرسول من حتميّة ظهور المفترين عليه، غير معتبر بما اعترف به الزنادقة الملحدون مِمّا رواه المؤرخون: أنّهم وضعوا آلاف الأحاديث كذباً علىٰ اللّه ورسوله حلّلوا بها الحرام وحرّموا بها الحلال، وأزالوا بها الحقّ عن نصابه، وزوّروا كثيراً من الأحاديث الصحيحة وافتعلوا الكرامات والمناقب حبّاً في المال والمناصب.

وآخرون فرّطوا فيه فغلّبوا التشاؤم وتنكّروا للتأريخ جملةً وتفصيلاً، اتهموه ببعض مافيه وتحاملوا عليه، وجعلوا ذلك حجة لإعراضهم عنه وابتعادهم منه. وذلك ظلم قبيح وفصم لعرىٰ الأجيال، وحرمان للمتأخرين من دروس الماضي، وهدم لبناء الدّين وطعن في تعاليم الأنبياء الّذين حثّوا علىٰ تدارس الماضي والاستماع إليه، مع تمحيص الحقّ عمّا علق به من شوائب الباطل.

وبين هاتين النزعتين المفرطة والمفرّطة تنجلي النمرقة الوسطىٰ باهتمام مفكّري المسلمين وعلمائهم بالدراسات التأريخية، وبذل الوسع لإماطة اللثام عن كثيرٍ من جوانبه الّتي بدت قاتمة مشوهة بفعل الدّخلاء عليه، ممّن جنّدوا أنفسهم لهدم الدّين وطمس معالم الحقّ والتجنّي عليه[1].

طمس معالم الحقّ:

قلنا نعرض الروايات ـ الّتي يُدّعىٰ أنّها تسجّل سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ـ علىٰ القرآن الحكيم، ذٰلك لانّا لو راجعنا وصف هٰذا النبيّ العظيم في القرآن الكريم، لوجدناه يصفه بأنّه: ﴿ عَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] و﴿ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[3] ينهىٰ الناس عن الاستخفاف به ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾[4] ويلعن الّذين يؤذونه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾[5].

ولكنّا لو راجعنا بعض تلك الروايات الّتي يُدّعىٰ أنّها تسجّل لنا سيرته لوجدناه فيها: طفلاً كسائر الأطفال، ورجلاً يتكلّم كسائر الجهّال، بل أضعف عقلاً من سائر العقّال، فهو بحاجة دائمة إلىٰ من يشرف عليه ويدبّر شؤونه، ويأخذ بيده ويرشده، ويحلّ له مشاكله ويشدّ قلبه ويطمئنه، ويؤيّده ويساعده، وإلّا فهو يغضب فيكون غضبه عجزاً واضطراباً بل وسباباً[6] ويرضىٰ فيكون رضاه سخفاً وميوعة!

---

(١) مقدمة: دراسات في التأريخ الاسلامي: ٨، ٩ للشيخ محمد باقر الناصري بتصرف.

(٢) القلم: ٤.

(٣) الاحزاب: ٤٠.

(٤) النور: ٦٣.

(٥) الاحزاب: ٥٧.

(٦) كما مرّ عن صحيح مسلم.

وإلّا فكيف نفسّر: أنّه رأىٰ الرأي فنزلت الآيات تصوّب رأي غيره وتفنّد رأيه، فقعد يبكي؟! وأنّه كان له شيطان يعتريه ويأتيه في صورة جبرئيل! ثمّ أعانه اللّٰه عليه فأسلم! ولعلّه مِن فعل شيطانه أنّه مرّ علىٰ سباطة قوم فبال قائماً[1]! ثمّ شرب النبيذ؟! ثمّ إنّه رأىٰ زوجة ابنه بالتبنّي في حالة مثيرة فعشقها! وإنّه كان يعشق عائشة حتّىٰ أنّه حملها علىٰ عاتقه بطلبها لتنظر إلىٰ رقص السودان في مسجده، وخدّها علىٰ خدّه! ثمّ إنّه ترك الجيش لينفرد بزوجته ليسابقها في الصحراء!

والطامة الكُبرىٰ الّتي شملت شيخ الأنبياء إبراهيم: انّه كان أولىٰ بالشكّ من إبراهيم! إلىٰ ماهُنالك مِمّا يزيد في قبحه علىٰ ماذكر أكثر بكثير، كلّ ذٰلك مِمّا «قد فاجأتنا به الأنباء والسِّير» في الجاميع الحديثية وكُتب السيرة! وفيها عن حياته الزوجية ماتنتذمّر من ذكره فضلاً عن القيام بأمره! وأدهىٰ مافي الأمر وأمرّ أنّها مدوّنة في الكتب الّتي تُوصف بأنها أصحّ كتاب بعد الذكر الحكيم، وهي تحاول أنْ تصوّر لنا سيدنا ومولانا ونبيّنا أفضل الأنبياء والمرسلين وأشرف السفراء المقرّبين!!

قال محقّقو سيرة ابن هشام في مقدّمتهم: «ولعلّ النظر إلىٰ تراث السالفين ولاسيّما مايتصل منه بعلم السِّير نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الّذي حال دون هٰؤلاء وهٰؤلاء أنْ يقفوا من هٰذا العلم موقفاً فقدناه في جميع المؤلفين المتقدّمين

---

(١) صحيح البخاري ١: ٦٣ ومسلم ١: ١٥٧ والمصنف لابن أبي شيبة ١٤: ٢٣٤ وشرح الكرماني ١١: ٤٠ وفتح الباري ١: ٢٦١ ـ ٢٦٣ ونقله ابن شاذان (م ٢٦٠ هـ) في الايضاح: ٥٨ باسنادهم عن حذيفة قال: إنّه مال إلى سباطة قوم فبال قائماً فتفحّج (= باعد بين رجليه) حتّى أشفقت عليه، فصببت عليه الماء من خلفه فاستنجى! ونقله ابن الأثير في النهاية في مواد: سباطة وفحج وأبض ومأبض. ونقله الأزرق في تسهيل المنافع: ٦٦ عن أبي هريرة وعن الإمام الشافعي. ومجلة تراثنا ع ٣٢ و ٣٣: ٢١٦: حديث السباطة سنداً ودلالة للسيّد حسن الشيرازي.

علىٰ اختلاف طبقاتهم، فلم نَرَ منهم من عرض لما تحمله السِّيَر بين دفتيها من أخبار تتّصف بالبعد عن الحقيقة، فنقدها وأتىٰ علىٰ مواضع الضعف منها.

هٰذا ماحرمه هٰذا العلم في جميع أدواره السالفة إلىٰ ماقبل أيّامنا هٰذه بقليل، إذ رَأَيْنا الايمان بأنّ في السيرة أخباراً لا تتصل بالحقّ في قليلٍ ولاكثيرٍ، تصحبه الجُرأة ثمّ الإقدام، ورَأَيْنا فكرة جديدة تجري بها أقلام مجدّدة، يتناول أصحابها الخبر أوْ الخبرين من السيرة، مِمّا كان يُتخَذ مطعناً علينا في شخص النبيّ ـصلّىٰ اللّٰه عليه و [آله] وسلم ـأوْ مايتصل به، فخلّصوه مِمّا لصق به مِمّا ليس منه، وأقاموا حوله سياجاً من الحجج والبراهين، صحّ بها وأصبح حجة علىٰ الطاعنين فيه.

ومثل هٰذا مافعله الأُستاذ الإمام الشيخ مُحمّد عبده في قصّة النبيّ ـصلّىٰ اللّٰه عليه و [آله] وسلم ـ، وتزويجه زينب بنت جحش من زيد بن حارثة ثمّ ماكان من تزوّج الرسول ـصلّىٰ اللّٰه عليه و [آله] وسلم ـإيّاها بعد تطليق زيد لها مِمّا أرجف فيه الطاعنون ولغوا لغواً كثيراً.

ومنهم من عرض للكتاب في قصّة أوْ قصّتين منه فصاغها في أُسلوب جديد، ومثّل للناس الخبر في قالب قصصيّ خرج به عن أسانيده وذكر رواته ـتلك الطريقة الّتي هي سرّ تقديس هٰذه الأخبار في هٰذه الكتب!ـ فبدت المعاني في هٰذا القالب الجديد كما يبدو الجسد في الغلالة الرقيقة لاتكاد تُخفي منه شيئاً. وهٰذا الأُسلوب الجديد بما يتضمن من التّهكم بالفكرة السقيمة والخبر الغث، يخلق به المؤلف في القارئ روح التحفّظ في قبول الأفكار وتسلّمها.

ومنهم من جرىٰ مع ابن إسحاق في شوطه، فتناول السيرة كما تناولها ابن إسحاق، مبتدئاً بميلاد الرسول ﷺ وما سبقه أو عاصره من حوادث، ثمّ جرىٰ يذكر حياة الرسول إلىٰ أنْ قبضه اللّٰه إلىٰ جواره، ناقلاً من الأخبار مايرىٰ فيها القرب من الحقّ، و مستبعداً مالايجري في ذٰلك مع فكرته ومايعتقد،

مفنداً مزاعم الطاعنين راداً علىٰ المكذبين. فجاء كتابه سيرة للرسول جديدة في اسلوبها، نقية من اللغو والهراء»[١].

أجل، إذا كان المُراجع إلىٰ هٰذه المَراجع ـ الصحاح وغيرها ـ مليء النفس بتقديس النصّ تقديساً عشوائياً ساذجاً، فهو يمتنع ويمنع عن تقويم النصوص تقويماً سليماً يزنها بميزان الاعتبار.

ولا مبرر لهٰذا التقديس ما لم يثبت أنّ هٰذا الحديث ممّا صدر عنه أوْ من شؤونه أوْ من صفاته، اللهُمَّ إلّا إذا كان لايعرف شيئاً ممّا يجب أنْ يتوفر في شخص رسول اللّٰه وخليفته وحجته علىٰ عباده، وكان خالي الذهن عن المنطلقات الأساسية والضوابط الحقيقية الّتي يجب أنْ يتوفر عليها من يحاول دراسة التأريخ بصورة علميّة، وسيرة الرسول الكريم بصورة خاصة[٢].

سحاب مركوم علىٰ الحقّ المظلوم:

أمّا كيف حدث كلّ هٰذا الحديث الموضوع للنيل من كرامة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله؟ فنحن نرىٰ ذٰلك من التعتيم الّذي اصطنعه بنو أُميّة وبنو مروان علىٰ معالم الشخصية النبوية، مستفيدين من سياسة المنع من الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله بل إحراق ماكتبه كبار الصحابة عنه: ابتداء من الخليفة الأوّل إذ أحرق خمسمئة حديث كان قد جمعها هو من أحاديث رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله[٣]. ثمّ اشتدّ الأمر علىٰ عهد الخليفة الثاني فإنّه جمع ماكتبه الصحابة عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وأحرقه، ولعلّ ذٰلك بعد أنْ اتصل به كعب الأحبار الحبر اليهودي المسلم.

---

(١) مقدمة سيرة ابن هشام ١: ح، ط.

(٢) انظر مقدمة الصحيح في السيرة ١: ١٦، ١٧.

(٣) راجع المصادر في كتاب النص والاجتهاد: ١٥١.

ولقد كان اليهود علىٰ فرقتين: فرقة تؤمن بالكتابة والتدوين وهُم الفرّيسيون، وفرقة أُخرىٰ تؤمن بوجوب الحفظ وعدم جواز كتابة شيء غير التوراة، ويقال لهٰؤلاء: القرّاء[1] وضعف أمر الفريسيين وكَثر القرّاء، ويظهر أنّ كعب الأحبار كان من القرّاء، كما يظهر من جوابه لعمر حينما سأله عن الشعر، فكان مِمّا قاله عن العرب: «قوماً من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم (أي يحفظونها علىٰ ظهر القلب) ينطقون بالحكمة» وقد كان كعب عند حُسن ظن الخليفة به فكان مقرّباً عنده، فلعلّه قَبِل هٰذه النظريّة من كعب الأحبار.

ويشهد لذٰلك ماررواه ابن سعد في «الطبقات» والخطيب البغدادي في كتابه «تقييد العلم» ونقله عنهما الشيخ أبو ريّة في كتابه «أضواء علىٰ السُّنَةِ المُحمّدية» قالوا: كَثُرت الأحاديث علىٰ عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أنْ يأتوه بها، فلمّا أتوه بها أمر بتحريقها ثمّ قال: مشناة كمشناة أهل الكتاب[2] أو قال: ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فاكبّوا عليها وتركوا كتاب اللّٰه، واني واللّٰه لا أشوب كتاب اللّٰه بشيء أبداً! فمنع من الحديث عن النبيّ ﷺ إلّا بشاهد، ومنع كبار الصحابة عن الخروج من المدينة، واستعمل علىٰ الأمصار صغارهم مِمّن لا اطلاع له في الدّين ولامعرفة له بأحكامه[3]. وروىٰ ابن سعد في «الطبقات» والخطيب البغداديّ في كتابه الآخر «جامع بيان العلم وفضله» ونقله عنهما الشيخ أبو ريّة في كتابه

---

(١) شرح ذٰلك النوري في كتابه الفارسي: لؤلؤ ومرجان: وفصله مُحمّد حسن ضاضا في كتابه: التفكير الديني عند اليهود.

(٢) تقييد العلم: ٥٢، والطبقات ٥: ١٤٠، والأضواء: ٤٧، والنص المثناة والصحيح ما أثبتناه وهي: الروايات الشفوية.

(٣) كأبي موسىٰ الأشعري حيث استعمله والياً علىٰ البصرة سنة ١٨ هـ وله ثمان عشرة سنة إذ ولد في السنة الاولىٰ للهجرة.

«أضواء علىٰ السُّنَةِ المحمّدية»: إنّ الّذين جاؤوا بعد عمر ساروا علىٰ نهجه في المنع عن الحديث إلّا حديثاً كان علىٰ عهد عمر[١].

فنتج عن سياسة المنع عن الحديث وعن كتابته أنْ نسي الناس سنن الرسول ﷺ حتّىٰ في الصلاة الّتي هي عمود الدّين وركن الإسلام والكتاب الموقوت الّذي يؤدّيه المسلمون في كلّ يوم خمس مرات، أصبحوا لايعرفون أحكامها وحدودها، حتّىٰ أقرب الناس إلىٰ مهبط الوحي والتنزيل الّذين يفترض فيهم أنْ يكونوا أعرف بأحكام الإسلام وشرائع الدّين... إذن فكيف بحال غيرهم من عوام الناس؟! وماهو مدىٰ معرفتهم بدينهم وشريعتهم والحال كذٰلك؟! ولا سيّما الناس البعداء عن منابع الثقافة الإسلامية، وبالأخصّ فيما يقلّ الإبتلاء به.

فقد روىٰ البلاذري في «أنساب الأشراف» والبيهقي في سننه والمتّقي الهندي في «كنز العمّال» عن عبدالرزاق وابن أبي شيبة: أنّ عمران بن الحصين صلّىٰ خلف علي عليه السلام فأخذ بيد مطرّف بن عبدالله وقال: لقد صلّىٰ صلاة مُحمّد ولقد ذكّرني صلاة مُحمّد[٢].

ولا شكّ في أنّ مِن سنن الرسول في الصّلاة الجهر بالبسملة في الصّلاة فكان علي عليه السلام يجهر بها، فبالغ بنو اُميّة في المنع عن الجهر بها سعياً في إبطال آثار علي عليه السلام[٣] حتّىٰ روىٰ النسائي والبيهقي في سننهما عن ابن عبّاس أنّه كان يقول: اللهُمَّ العنهم فقد تركوا السُّنّة من بغض عليّ[٤] حتّىٰ بلغ الحال بالناس علىٰ عهد عليّ بن الحسين عليه السلام

---

(١) الطبقات ٣ ق ١: ٢٠٦، وجامع بيان العلم ١: ٦٤، والأضواء: ٤٧.

(٢) انساب الاشراف ٢: ١٨٠، وسنن البيهقي ٢: ٦٨، وكنز العمّال ٨: ١٤٣.

(٣) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ١: ٧٩.

(٤) تعليقة السندي بهامش سنن النسائي ٥: ٢٥٣.

أنْ كانوا لا يعرفون كيف يحجّون بل حتّىٰ كيف يصلّون[١] ولذٰلك تجرّأ ابن الزبير علىٰ أنْ يقدّم الصّلاة قبل الخطبة (يوم الجمعة ؟) كما رواه الشافعي في كتابه «الأُمّ» عن وهب بن كيسان، ثمّ قال: كلّ سنن رسول اللّٰه قد غُيِّرت حتّىٰ الصّلاة[٢].

ولذٰلك نجد الإمام السجّاد عليه السلام يقول في دعائه يوم الجمعة ويوم الأضحىٰ: «اللّهُمَّ إنّ هٰذا المقام لخلفائك وأصفيائك، و مواضع أُمنائك في الدرجة الرفيعة الّتي اختصصتهم بها قد ابتزّوها. حتّىٰ عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزّين، يرون حكمك مبدّلاً وكتابك منبوذاً، وفرائضك محرّفة عن جهات شرعك، وسنن نبيّك متروكة»[٣].

وروىٰ ابن سعد في «الطبقات» عن الزهريّ قال: دخلت علىٰ أنس ابن مالك بدمشق وهو وحده يبكي، فقلت: ما يبكيك ؟ قال: لا أعرف شيئاً مِمّا أدركت، إلّا هٰذه الصّلاة وقد ضيعت[٤].

وروىٰ الإمام مالك بن أنس في كتابه «الموطّأ» عن مالك قال: ما أعرف شيئاً مِمّا أدركت الناس إلّا النداء بالصلاة[٥]. واستثنىٰ الحسن البصري القبلة فقط فقال: لو خرج عليكم أصحاب رسول اللّٰه ما عرفوا منكم إلّا قبلتكُم[٦].

---

(١) كشف القناع عن حجية الاجماع: ٦٧.

(٢) كتاب الام للشافعي ١: ٢٣٥ وهو رواه في صلاة العيدين ! ولكنه لا يناسب كلام وهب، ولم يتعقّبه المحقّق النجار الأزهري. وروى خبر وهب النسائي في سننه ٣: ١٩٤، والطوسي في الخلاف ١: ٦٧٤ مختلفاً عما هنا عن الشافعي.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٨.

(٤) الطبقات ٧: ٢٠ وصحيح الترمذي: ٣: ٣٠٢ وجامع بيان العلم ٢: ٢٤٤ والزهد والرقائق: ٥٣١ وضحى الإسلام ١: ٣٦٥.

(٥) الموطأ ١: ٧٢ الباب ١، الحديث ٨، وشرحه ١: ١٢٢.

(٦) جامع بيان العلم ٢: ٢٤٤.

ولم يستثنِ عبدالله بن عمرو بن العاص شيئاً إذ قال: لو أنّ رجلين من أوائل هذه الأمة خلوا بمصحفيهما في بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم ولايعرفان شيئاً ممّا كان عليه[١].

ومع هذه الحال فمن الطبيعي أنْ يروج سوق الوضّاعين الكذّابين وأنْ يصبحوا هُم مصدر العلم والمعرفة والثقافة للأمة المسلمة. هكذا شاء الحكّام، وهكذا استحقّ المحكومون إذ ابتعدوا عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[٢].

أمّا لماذا حاول بنو أُميّة ورواتهم أنْ يستفيدوا من هذا الفراغ المفتعل بفضل المنع عن الحديث، للنيل من كرامة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسائر المقدّسات الإسلامية؟ فإنّ ذلك يعود إلى:

أ ـ أنّ الحقد والعداء الأُموي الموروث من القديم ضد بني هاشم ـ بما فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله ـ لم يدعهم يقتنعوا بأنّه نبيّ مرسل حقّاً:

فقد قال أبو سفيان للعبّاس لمّا رأى كثرة زُحام الناس على التبرك بماء وضوء النبيّ يوم فتح مكّة: ياعبّاس! والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً! فقال: ويحك إنّها النبوة! فقال: نعم!

وقال معاوية لمّا سمع المؤذّن يقول: أشهد أنْ لاإله إلّا الله: لله أبوك يابن عبدالله! لقد كنت عالي الهمّة، مارضيت لنفسك إلّا أنْ يُقرن اسمك باسم ربّ العالمين[٣].

---

(١) الزهد والرقائق: ٦١.

(٢) والموضوع مهم وبحثته في أربع مقالات متوالية في الأعداد ٥ و ٨ و ٩ و ١٠ من مجلة الفكر الإسلامي للسنة الثانية والثالثة.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٠١ عن أحمد بن أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك».

وقال للمغيرة بن شعبة ـ بعد أنْ ذكر ملك أبي بكر وعمر وعثمان وأنّهم هلكوا فهلك ذكرهم ـ: وإنّ ابن أبي كبشة ! يُصرَخ به في كلّ يوم خمس مرات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأيّ عمل يبقىٰ مع هٰذا؟! لا أُمّ لك... لا والله إلّا دفناً دفناً[١]، ولمّا سمع المأمون بالخبر أمر بلعنه[٢].

وقال ـ أوْ تمثّل ـ ابنه يزيد بقول ابن الزبعرى:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولاوحي نزل
لست من خِنْدِف إنْ لم أنتقم ... من بني أحمد ماكان فعل[٣]

وتبعه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان يقول:

تلعّب بالخلافة هاشميّ ... بلا وحي أتاه ولاكتاب
فقل للّه: يمنعني طعامي ... وقُل للّه يمنعني شرابي[٤]

واستفتح المصحف وقرأ فيه: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾[٥] فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشّاب وأقبل يرميه وهو يقول:

أتوعدُ كلَّ جبارٍ عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربّك يوم حشر ... فقل: ياربّ خرّقني الوليد[٦]

---

(١) مروج الذهب ٣: ٤٥٤ وشرح نهج البلاغة ٥: ١٢٠ عن الموفقيات للزبير بن بكار عن المدائني عن المطرّف بن المغيرة بن شعبة.

(٢) الطبري ١٠: ٢٨٤ ومروج الذهب ٣: ٤٥٤.

(٣) الطبري ١٠: ٢٨٦.

(٤) مروج الذهب ٣: ٢١٦.

(٥) إبراهيم: ١٥، ١٦.

(٦) مروج الذهب ٣: ٢١٩.

وكان الوليد هٰذا مهملاً لأمره قليل العناية بأطرافه، وكان صاحب ملاهٍ وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن اُمور الناس بشرب ومجون، فبلغ من مجونه أنّه أراد أنْ يبني علىٰ الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو، ووجّه مهندسا لذٰلك[1] مجوسياً ليبني له علىٰ الكعبة مشربة للخمر، وأراد أنْ ينصب قبّة ديباج علىٰ الكعبة ويجلس فيها ومعه الخمر، فخوّفه أصحابه من ثورة الناس فامتنع[2].

ب ـ ولذٰلك فهم ـ كما رأينا ـ كانوا يريدون القضاء علىٰ هٰذا الدّين ودفنه نهائيّاً، وذٰلك لأنّه كان يقف في وجه شهواتهم ومآربهم ويضرّ بمصالحهم.

ج ـ وبالتصوير المشوَّه للرّسول الكريم ﷺ والإسلام العظيم كانوا يحاولون تبرير كلّ انحرافات وسخافات الجهاز الحاكم، والتقليل من فضاعتها وبشاعتها في أعين الناس، وذٰلك برفع الفوارق الكبيرة بين مواقفهم ومواقف النبيّ الاعظم ﷺ.

أمّا مايمثّل لنا شخصية الرسول الكريم المستهدفة للاُمويين فلنذكر منه نماذج:

١ـ نسمع الكميت بن زيد الأسدي يمدح الرسول الكريم فيقول في قصيدته البائيّة:

إلىٰ السراج المنير أحمد، لا ... يعدلني عنه رغبة ولا رهب
عنه إلىٰ غيره، ولو رفع النا ... س إليّ العيون وارتقبوا
وقيل: افرطت. بل قصدت ولو ... عنّفني القائلون، أوْ ثلبوا!
اليك ياخير من تضمّنت الأر ... ض وإنْ عاب قولي العيَب
لجّ بتفضيلك اللسان ولو ... اُكثر فيك الضجاج واللُجب

---

(١) اليعقوبي ٢: ٣٣٣.

(٢) عن الأغاني والطبري في نهج الصباغة ٥: ٣٤٠.

فيا ترىٰ من الّذي يحاول أنْ يعدل به عن مدح النبيّ صلّى الله عليه وآله بالترغيب والترهيب؟ ومن يرتقبون أنْ يُمدح عوضاً عنه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ؟ ويا ترىٰ بماذا خاطب الكميت النبيّ صلّى الله عليه وآله غير أنْ يقول له: ياخير من تضمّنت الأرض! حتّىٰ يقال له: أفرطت في مدحه! من الذي يعنّفه ويثلبه ويعيبه؟ ومن الّذي يكثر الضجاج واللجب علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وآله؟!

ولعلّه قد أحسّ بأمر خطير خلف هٰذه السياسة الأُموية فقال في أُخرىٰ:

رضوا بخلاف المهتدين، وفيهم　　　مخبّأة أُخرىٰ تصان وتحجب

فلعلّه يقصد بالمخبّأة الأُخرىٰ تخريب دين النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد تشويه سمعة شخصه.

أوْ ماذكره الرجاليّون وأصحاب الطبقات في ترجمة خالد بن سلمة المخزومي الشهير بالفأفاء: أنّه كان ينشد بني مروان هجو النبيّ صلّى الله عليه وآله[١].

وقد سبق هٰذا ماذكروه في ترجمة عمرو بن العاص أنّه لم يرض بضرب نصرانيّ سبّ النبيّ صلّى الله عليه وآله[٢].

ولحق هٰذا مارواه المؤرّخون في علل خروج زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنّه دخل علىٰ هشام بن عبد الملك فسمع أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يسبّ عنده فلم ينكره ولم يغيّر علىٰ قائله[٣].

أوْ أنّه يقصد بالمخبّأة ماروا ابن عبد ربّه الأندلسي في «العقد الفريد»:

---

(١) انظر دلائل الصدق للمظفر ١: ٢٩، وراجع: بحوث مع أهل السُّنَّةِ والسلفية: ١٠١.

(٢) الإصابة ٣: ١٩٥ عن البخاري في تأريخه بإسناد صحيح، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣: ١٩٣.

(٣) انظر كشف الغمة للاربلي ٢: ٣٥٢ وكُتب التراجم والرجال في ترجمة زيد رضي الله عنه.

أنّ الحجاج كتب إلىٰ عبد الملك: أنّ خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذٰلك الخلفاء ياأمير المؤمنين أعلىٰ منزلة من المرسلين[١].

ولئن كانت هٰذه مخبّأة يوماً فإنّ ذٰلك لم يدم طويلاً حتّىٰ حجّ الحجّاج ورأىٰ الحُجّاج يطوفون بقبر الرسول ﷺ ومنبره بالمدينة فقال: تباً لهم إنّما يطوفون بأعواد ورِمة بالية! هَلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟! ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله؟!

قال المبرِّد: إنّ ذٰلك مِمّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج[٢].

وبهذه النظرة فلا مانع لديه أنْ يرمي الكعبة بالمنجنيق ـ بل كما قِيل ـ بالعذرة أيضاً[٣]. ولا يرىٰ أية حرمة لمقام إبراهيم عليه السلام فيحاول أنْ يضع رجله علىٰ المقام فيزجره عن ذٰلك مُحمّد بن الحنفية[٤].

وعلىٰ هٰذه النظرة أيضاً: «هلّا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك» فلا استبعاد لما احتمله السيد المرتضىٰ العاملي: أنْ يكون الحجاج حين بنىٰ مدينة (واسط) في العراق وسطاً بين الكوفة والبصرة، حوّل قبلتها من جهة الحجاز (الكعبة) إلىٰ جهة الشام: إمّا قصر أمير المؤمنين(!) أوْ قبّة الصخرة الّتي بناها وأمر الناس بالحجّ إليها:

فقد ذكر اليعقوبي: أنّه لمّا استولىٰ ابن الزبير علىٰ مكّة والحجاز كان يأخذ الحُجّاج بالبيعة له فلمّا رأىٰ ذٰلك عبد الملك منعهم من الخروج إلىٰ الحج، فضجّ الناس

---

(١) عن العقد الفريد ٢: ٣٥٤.

(٢) الكامل للمبرد ١: ٢٢٢ وسنن أبي داود ٤: ٢٠٩ والعقد الفريد ٥: ٢٨٤ وشرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢ عن كتاب «افتراق هاشم وعبد شمس» لأبي العبّاس الدبّاس. والنصائح الكافية عن الجاحظ: ٨١، ونقل جدلاً حوله الدكتور طه حسين في كتابه: الايام.

(٣) عن الفتوح لابن الأعثم الكوفي المتوفى ٣١٠ ج ٢: ٤٨٢ وعقلاء المجانين: ١٧٨.

(٤) طبقات ابن سعد ٥: ٨٤ والمصنف لعبد الرزاق ٥: ٤٩ وربيع الابرار ١: ٨٤٣.

وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت اللّٰه الحرام وهو فرض من اللّٰه علينا؟! فقال لهم: هٰذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم: أنّ رسول اللّٰه قال «لاتُشدّ الرّحال إلّا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس» فهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام! وهٰذه الصخرة الّتي يروى: أنّ رسول اللّٰه وضع قدمه عليها لمّا صعد إلىٰ السماء، تقوم لكم مقام الكعبة!. فبنىٰ علىٰ الصخرة قبّة وعلّق عليها ستور الدّيباج وأقام لها سَدَنة، وأخذ الناس بأنْ يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة! وأقام بذٰلك أيام بني أُميّة[1].

وإلىٰ هٰذا أشار الجاحظ في بعض آثاره فقال في المفاضلة بين بني هاشم وبني أُميّة: وتفخر هاشم بأنّهم لم يهدموا الكعبة، ولم يحوّلوا القبلة، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة[2].

ويفصّل هٰذا أيضاً في بعض رسائله فيقول: حتّىٰ قام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بالهدم وعلىٰ حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة واستباحوا الحرمة، وحوّلوا قبلة واسط ـ إلىٰ أنْ قال ـ فأحسب أنّ تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلاً، وأحسب مارووا من كلّ وجه: أنّهم كانوا يزعمون: أنّ خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم[3]...

واحتمل السيد المرتضىٰ العاملي: أنْ يكون هٰذا هو سر استحباب التياسر في القبلة لأهل العراق دون غيرهم عند أئمة أهل البيت عليهم‌السلام، ويظهر أنّ خصوم الشيعة قد التفتوا إلىٰ هٰذا منهم، ولذٰلك كانوا يتّهمون من يتحرّىٰ القبلة بالرفض.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٦، وحياة الحيوان ١: ٦٦ والبداية والنهاية ٨: ٢٨٠ والانافة في معالم الخلافة ١: ١٢٩. وانظر بحثاً في هٰذا في السُّنّة قبل التدوين: ٥٠٢ ـ ٥٠٦.

(٢) عن آثار الجاحظ: ٢٠٥.

(٣) عن رسائل الجاحظ ٢: ١٦.

فقد روىٰ الخطيب البغدادي: أنّ قاضي واسط أسد بن عمرو قد رأىٰ قبلة واسط رديئة فتحرّف فيها فاتُّهِم بالرفض[1].

٢ـ والمقايسة بين الرسول والخليفة، والتوهين بالكعبة لم يكن يقتصر علىٰ الحَجّاج، بل روىٰ أبو الفرج الإصبهاني الأُموي: أنّ خالد بن عبد اللّٰه القسْري عامل هشام بن عبد الملك علىٰ مكّة ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: أيّما أكرم: رسول الرجل في حاجته أوْ خليفته في أهله؟! يُعرّض أن هشاماً خير من النبيّ صلى الله عليه وآله[2].

وروىٰ عن أبي عبيدة قال: خطب خالد القسري يوماً فقال: إنّ إبراهيم الخليل استسقىٰ اللّٰه ماء فسقاه اللّٰه ملحاً أُجاجاً (يقصد زمزم) وإنّ أمير المؤمنين استسقىٰ اللّٰه ماءً فسقاه عذباً نقاخاً[3] يقصد العين الّتي أجراها لسليمان بن عبد الملك بمكة قبل أنْ يحجّ إليها وأجراها إلىٰ المسجد الحرام[4].

وروىٰ أنّه قال لغلامه يوماً: ابن أَمَي! أيّما أعظم: ركيّتنا أم زمزم؟! فقال له: أيّها الأمير من يجعل الماء العذب النقاخ مثل الملح الأُجاج؟! وكان يسمّي زمزم: أُمّ الجعلان[5].

وروىٰ عن المدائني: أنّ خالداً كان يقول: لو أمرني أمير المؤمنين لنقضت الكعبة حجراً حجراً ونقلتها إلىٰ الشام[6].

وروىٰ أنّه حبس بعض التابعين فأعظم الناس ذلك وأنكروه فبلغه ذلك،

---

(١) عن تأريخ بغداد ٧: ١٦ ونشوار المحاضرة ٦: ٣٦.

(٢) الاغاني ١٩: ٦٠.

(٣) الاغاني ١٩: ٦٠. النقاخ: الماء البارد العذب الصافي الطيب، كما في اللسان.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٩٣.

(٥) الاغاني ١٩: ٥٩ ومثله قبله في اليعقوبي ٢: ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٦) الاغاني ١٩: ٦٠ وانظر سفينة البحار ٢: ٦٦١ ـ ٦٦٢.

فخطب فقال: قد بلغني ماأنكرتم من أخذي عدوّ أمير المؤمنين ومن حاربه، والله لو أمرني أمير المؤمنين أنْ أنقض هٰذه الكعبة حجراً حجراً لنقضتها! والله لأمير المؤمنين أكرم علىٰ الله من أنبيائه[1].

٣ـ وتحامل ابن الزبير علىٰ بني هاشم تحاملاً شديداً وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتىٰ بلغ ذٰلك منه أنّه ترك الصّلاة علىٰ مُحمّد ﷺ في خطبته! فقيل له: لِمَ تركت الصّلاة علىٰ النبيّ؟ فقال: إنّ له أُهيل سوء يشرئبّون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به! وأخذ أربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم منهم مُحمّد بن الحنفية وعبد الله بن عبّاس امتنعوا عن بيعته فحبسهم وهدّدهم أنْ يحرقهم بالنار: وقام خطيباً فنال من عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولمّا عجز عنهم أخرجهم من مكّة، فأخرج مُحمّد بن الحنفيّة إلىٰ رضوىٰ وعبد الله بن عبّاس إلىٰ الطائف حتىٰ توفي ابن عبّاس بها سنة ٦٨هـ[2].

واعتبروا أقوال الصحابة حجة كقول رسول الله ﷺ: قال الشيخ أبو زُهرة في كتابه عن الإمام مالك: ووجدنا مالكاً يأخذ بفتواهم ـ أي الصحابة ـ علىٰ أنّها من السُّنَةِ، ويوازن بينها وبين الأخبار المرويّة إنْ تعارض الخبر مع فتوىٰ صحابي! وهٰذا ينسحب علىٰ كلّ حديث عنه ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ حتىٰ ولو كان صحيحاً[3].

ونقل هٰذا السيد المرتضىٰ العاملي في مقدمته لسيرته ثمّ علّق عليه يقول: وليس هٰذا إلّا لأنّ شأن رسول الله لم يكن عند هٰؤلاء في المستوىٰ الطبيعي

---

(١) الاغاني ١٩: ٦٠.

(٢) اليعقوبي ٢: ٢٦١.

(٣) عن كتاب: الإمام مالك لابي زُهرة: ٢٩٠.

اللائق به كما هو ظاهر. ثمّ نقل عن «الرسائل المنيرية» قوله: والعجب منهم من يستجيز مخالفة الشافعي لنصّ له آخر في مسألة بخلافه، ثمّ لايرون مخالفته لأجل نصّ رسول اللّٰه[1].

هٰذه هي صورة عن مكانة النبيّ صلى الله عليه وآله وتعاليمه وقيمة أقواله لديهم، نكتفي منه بهذا.

ونقول: إنّ وجود هٰذه الخطط الّتي استهدفت شخصية الرسول الكريم بل كلّ المقدّسات الإسلامية، توجب علينا أنْ نقوّم نصوص سيرته وروايات تأريخه وتأريخ الإسلام.

بماذا نقوّم النصوص؟

وإنْ نحن أردنا ذٰلك فمِن الضروريّ أنْ نعتمد فيه قبل كلّ شيء علىٰ:

١ـ عرضه علىٰ القرآن الكريم ـكما مرّـ فقد روي عنه صلى الله عليه وآله ـكما مرّ أيضاـ أنّه قال: تكثر لكم الأحاديث بعدي، فإذا روي لكم عنّي حديث فاعرضوه علىٰ كتاب اللّٰه، فما وافق كتاب اللّٰه فاقبلوه، وماخالف فردّوه[2].

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام قال عن القرآن: «وميزان قسط لايحيف عن الحقّ لسانه، ونور هدىٰ لايُطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لايضلّ من أمّ قصدَ سنّته».

وروىٰ الكلينيّ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: مالم يوافق كتاب اللّٰه فهو زُخرف[3].

---

(١) الصحيح ١ : ٢٤ عن مجموعة الرسائل المنيرية : ٣٢.

(٢) عن اصول الحنفية للشاشي : ٤٣.

(٣) اصول الكافي ١ : ٦٩.

وعـن ابن عبّاس قال: إذا سمعتموني أُحدّث عن رسول اللّٰه فلم تجدوه في كتاب اللّٰه أوْ حسناً عند الناس، فاعلموا أني كذبت عليه[١].

وعن ابن مسعود قال: فانظروا ما واطأ كتاب اللّٰه فخذوه وما خالف كتاب اللّٰه فدعوه[٢].

وعن مُعاذ بن جبل قال: فـاعرضوا عـلىٰ الكـتاب كـلّ شيء مـن الكـلام ولاتعرضوه علىٰ شيء من الكلام[٣].

وأوصىٰ أُبيّ بن كعب رجلاً فقال له: إتّخذ كتاب اللّٰه إماماً وارضَ به قاضياً وحكماً[٤].

وعن أبي بكر في خطبة له: فإن كانت للباطل غزوة ولأهل الحقّ جولة يعفو لها الأثر وتموت السُنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن[٥].

ولن ينقضي العجب من بعض أهل الزيغ حيث نسب هٰذا القول ـ وهو عرض الحديث علىٰ القرآن ـ إلىٰ أهل الزيغ فقال: وقد أمر اللّٰـه عـزّوجل بـطاعته ـ أي النبي ﷺ ـ واتّباعه أمراً مطلقاً لم يقيّد بشيء كما أمرنا باتّباع كتاب اللّٰه، ولم يقل: ماوافق كتاب اللّٰه، كما قال بعض أهل الزيغ[٦].

وأعجب من ذٰلك أنّ بعضهم نسب هٰذا الحديث إلىٰ الزنـادقة والخـوارج! فقال: الزنادقة والخوارج وضعوا ذٰلك الحـديث، يـعني مـاروي عـنه أنّـه قـال:

---

(١) عن سنن الدارمي ١: ١٤٦.

(٢) عن المصنف ٦: ١١٢ وجامع بيان العلم ٢: ٤٢، وحياه الصحابة ٣: ١٩١.

(٣) عن كنز العمّال ٨: ٨٧ عن ابن عساكر.

(٤) عن حلية الاولياء ١: ٢٥٣.

(٥) البيان والتبيين ٢: ٤٤ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢: ٢٣٣. والعقد الفريد ٤: ٦٠.

(٦) جامع بيان العلم ٢: ٢٣٣ عن ابي عمر.

ما أتاكم عني فاعرضوه علىٰ كتاب اللّٰه فإن وافق كتاب اللّٰه فأنا قلته وإنْ خالف كتاب اللّٰه فلم أقله. و: إنّما أنا موافق كتاب اللّٰه وبه هداني اللّٰه.

وهٰذه الالفاظ لاتصحّ عنه عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه، وقد عارض هٰذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا: نحن نعرض هٰذا الحديث علىٰ كتاب اللّٰه قبل كلّ شيء ونعتمد علىٰ ذٰلك، فلمّا عرضناه علىٰ كتاب اللّٰه وجدناه مخالفاً لكتاب اللّٰه، لأنّا لم نجد في كتاب اللّٰه: أنْ لا يقبل شيء من حديث رسول اللّٰه، بل وجدنا كتاب اللّٰه يطلق التأسّي به والأمر بطاعته، وكذا ينهىٰ عن المخالفة عن أمره، جملة علىٰ كلّ حال[1].

وقال أبو بكر البيهقي: والحديث الّذي روي في عرض الحديث علىٰ القرآن باطل، فإنّه ينعكس علىٰ نفسه بالبطلان، فليس في القرآن دلالة علىٰ: عرض الحديث علىٰ القرآن[2].

وقالوا بقول مطلق: السُّنّة قاضية علىٰ الكتاب، وليس الكتاب بقاض علىٰ السُّنّة[3].

وحاول الخطّابي في شرحه لسنن أبي داود أنْ يجد من الحديث ماينفي أحاديث العرض علىٰ الكتاب، وذٰلك في شرحه لقوله ﷺ «لا ألفينّ أحدكم متكئاً علىٰ أريكته يأتيه الأمر ممّا أمرت به أوْ نهيت عنه فيقول: ماندري، ما وجدنا في كتاب اللّٰه اتّبعناه».

---

(١) بحوث مع أهل السُّنّةِ والسلفية: ٦٨ نقلا عن جامع بيان العلم ٢: ٢٣٣.

(٢) عن دلائل النبوة للبيهقي ١: ٢٦.

(٣) سنن الدارمي ١: ١٤٥ وتأويل مختلف الحديث: ١٩٩، جامع بيان العلم ٢: ٢٣٤ ومقالات الاسلاميين ٢: ٣٢٤.

قال الخطّابي معلّقاً علىٰ هٰذا الحديث: في الحديث دلالة علىٰ أنْ لاحاجة إلىٰ عرض الحديث علىٰ الكتاب، وأنّه مهما ثبت عن رسول اللّٰه شيء كان حجة بنفسه فأمّا مارواه بعضهم أنّه قال: إذا جاءكم الحديث فاعرضوه علىٰ كتاب اللّٰه فإن وافقه فخذوه... فإنّه حديث باطل لا أصل له. وقد حكىٰ زكريا الساجي عن يحيىٰ بن مَعين أنّه قال: هٰذا حديث وضعته الزنادقة[1].

وقد بحث هٰذا الموضوع العلّامة المحقّق السيد مهدي الرُوحاني في كتابه «بحوث مع أهل السُنَّةِ والسلفية» وخلص إلىٰ القول: بأنّ هٰذه الأحاديث ـ أي أحاديث عرض الحديث علىٰ الكتاب ـ ناظرة إلىٰ قبول الموافق وردّ المخالف، أمّا مالايوافق ولايخالف فهو باق تحت حجّية الأخبار، فعدم وجود معنىٰ حديثٍ ما في كتاب اللّٰه لايفيد مخالفة هٰذا الحديث له.

٢ـ بالاعتماد علىٰ القرآن الحكيم علينا أنْ نحدّد معالم شخصية الرسول الكريم الّتي تمثّل أسمىٰ إنسان وجد ويوجد علىٰ وجه الأرض، متّصفاً بصفات الفضل والكمال متخلياً عمّا عداها، حتّىٰ جعله اللّٰه لنا أُسوة وقدوة مطلقاً فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] فهو كما وصفه حفيده الإمام الهادي عليه‌السلام في الزيارة الجامعة: «عصمكم اللّٰه من الزلل وآمنكم من الفتن، وطهّركم من الدنس، وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً» فهو المعصوم عن المعاصي والمبرّأ من كلّ عيب وعاهة وآفة منفرة للناس عنه، فلا يُرىٰ في اعماله أيُّ تشتّت أوْ ضعف، ولا في اقواله أي تناقض أوْ تهافت أوْ سَخَفٍ، بل الفضائل الكاملة، والصفات الإنسانية الرفيعة الفاضلة: حكمة وعلماً، وشجاعة وحزماً، وسكينة ووقاراً، و... و بكلمة: هو خليفة اللّٰه في أرضه وحجته علىٰ عباده.

---

(١) نقلاً عن عون المعبود في شرح سنن ابي داود ٤: ٣٢٩ من الطبعة الحجرية.

(٢) الممتحنة: ٦.

فنلاحظ إنْ كان النصّ منسجماً مع هٰذه الشخصية العظيمة قبلناه، وإلّا رددناه. وإلّا فكيف ننسب إلىٰ هٰذه الشخصية أنّه حمل حليلته عائشة علىٰ متنه لتشاهد أغاني السودان؟! أوْ أنّه شرب النبيذ؟! أوْ أنّه بال قائماً؟! أو أنّه شكّ في نبوّته؟! أوْ أنّه أثنىٰ علىٰ الأوثان تقريباً للمشركين إلىٰ نفسه؟! وما شاكل ذٰلك.

٣ـ وبالإقتداء بالقرآن الكريم الّذي إنّما خاطب أُولي الألباب والعقول، وجعل العقل ـالقطعيّ الإتفاقيّ ـ حكماً فيما يقول وذمَّ العقلاء علىٰ مخالفتهم لحكم عقولهم... فليكن ذٰلك هو موقفنا في جميع القضايا التأريخية أيضاً، فنتأكد من إمكان حدوثه تأريخياً.

هٰذا بعد التأكد من سلامة النصّ من التناقض والمعارض، والنظر في طبقات الرّواة وعلاقاتهم السياسية وغيرها، والتأكد من سلامة سند النصّ من الوضّاعين والكذّابين وأصحاب الأهواء السياسية وغيرها.

بعد كلّ ذٰلك وبالأخذ بنظر الإعتبار جميع تلك المقاييس، يكون بإمكاننا أنْ نقوّم النصوص غير القليلة الّتي تسعىٰ أن تصوّر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بمظهر صبيّ جاهل عاجز مهين! فلا ندع لها فرصة التسلّل إلىٰ سيرته صلى الله عليه وآله.

وحينئذ يكون بإمكاننا أنْ نتقدم إلىٰ المسلمين بنصّ من ثروة التراث يكون مصدر فخر واعتزاز.

وهٰذه ميزة يمتاز بها تأريخ الإسلام، وهي أنّه ينطلق عن قواعد بإمكانها أنْ تهدي الباحث إلىٰ الطرق الامينة والّتي بإمكان سالكها أنْ يصل بها إلىٰ الحقيقة الّتي يريدها مطمئنّ النفس راضي الضمير، شريطة التزامه بتلك القواعد والضمانات المشار إليها فيما مرّ.

واستداركاً لما فات:

واستداركاً لِمَا مرّ نقول: إنّ المدوّن من تأريخ الإسلام ـ بما فيه بِمّا مرّ ذكره ـ مع ذلك يعتبر أغنىٰ تأريخ مطلقاً، ذلك لامتيازه بدقته وشموله، فتراه يلمَح اللمحات، ويلتفت مع اللفتات، ويتحرك مع الحركات، ويتحدث عن الأحداث، ويتكلّم بالكلمات، ويقف في المواقف بدقّة وشمول منقطع النظير، ويملك لذلك من النصوص الشيء الكثير، بحيث لايشابهه أي تأريخ مطلقاً، فإنّه ليس بإمكان أي تأريخ آخر أنْ يثبت الكثير من أحاديثه عن الحوادث الكُبرىٰ بصورة قطعية فضلاً عن الجزئيات من الأُمور.

لكن لا بدّ لمن يريد الإفادة من كُتب التأريخ الإسلامي من أنْ يفتح عينه ووعيه لكلّ كلمة منه، فيطالعها بوعي ويقظة وحذر، يسعىٰ لاستخلاص ماينسجم منه مع الواقع ويردّ ماعداه، بِمّا مال به القائل أوْ لعبت به الأهواء، ولاسيّما مايتعلق منه بصدر الإسلام، بِمّا يتحكم فيه الهوىٰ المذهبي والتزلّف إلىٰ الخلفاء والأُمراء والحكّام فيذكر الأمر منقطعاً عن علله وعوامله ومنفصلاً عن أسبابه وجذوره، وذلك بفعل التعصب البغيض والظلم الكثير. فالمؤرّخ كان لايكتب ولا يثبت إلاّ ماينسجم مع نفسية الحاكم، ويتّفق وقوله، مهما كان مخالفاً للواقع والحقيقة، ولاتجاه المؤرّخ عقيدته أيضاً، فهو يشوّه أُموراً صدرت من الحاكم أوْ غيره ويحيطها بالغموض والإبهام، أوْ يهمل أحداثاً ويتجاهل شخصيات لها أثرها في التأريخ، ويختلق أحداثاً أوْ شخصيات لاوجود لها، أوْ يسهب الكلام في وصف غرام أوْ مجلس رقص أوْ غناء وشراب ويعنىٰ بأُمور حقيرة تافهة.

بينما مهمّة المؤرّخ أنْ يعكس حياة الأمة وماعرض لها من أزمات فكريّة واجتماعية وسياسية واقتصادية، وبصورة عامة كلّ مامرّت به من أوضاع وأحوال، وذلك بدقّة وأمانة. وليس بخافٍ مافي ذلك من الأثر الكثير في حياة الأمّة

ووضعها في الحال الحاضر: عقائديّاً وعلميّاً وادبيّاً واجتماعيّاً، حسب اختلاف الأحداث عمقاً وشمولاً. ولا ينفي ترتّب هٰذا الأثر البارز أنْ يكون الحدث التأريخي قد مرّ علىٰ تأريخه أكثر من ألف عام.

قلنا: إنّ المسلمين اهتموا بتدوين تأريخهم مالانراه لغيرهم، وإنّه بالرغم مِمّا ذكر فهو أثرىٰ تأريخ اُمّة مطلقاً. ولكنّ هٰذا لايعني أنّ تدوينه لم يتأثّر بالأهواء السياسية ومختلف العصبيات المذهبية وغيرها، مِمّاأدخل فيه الأباطيل والموضوعات. الأمر الّذي فرض علينا أنْ نتّخذ من المبادىء القرآنية والإسلامية، وشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، مقياساً لتقييم كثيرٍ من النصوص والحكم عليها من خلال انسجامها مع كلّ ذٰلك، وهٰكذا بالنسبة إلىٰ كلّ شخصية من إمام معصوم وغيره حصلنا منه علىٰ علم عام بسيرته وأخلاقه، مستعينين بالكثير من أدوات البحث الأُخرىٰ الّتي توفّرها الممارسة الطويلة في هٰذا الموضوع، كتناقض النصوص، أوْ التوصل إلىٰ عدم إمكان وقوع ذٰلك الحدث في تلك الفترة الزمنية أوْ بالنسبة إلىٰ الشخصية المنسوب إليها.

بحث الأسناد:

إنّ هٰذه الحالة ـ حالة عدم الأمانة التامة ـ لاتدعنا نعتمد علىٰ الأسانيد لتكون ميزاناً نهائياً ومقياساً مطلقاً في موضوع التأريخ، إذْ إنّ ذٰلك يعني أنْ نحصر أنفسنا في حصار نصوص يسيرة تكاد لاتفي حتّىٰ بالفهرسة الإجمالية لسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ومجمل تأريخ صدر الإسلام، ويعني أنْ نفقد الكثير من النصوص الصحيحة الّتي لم تحتفظ بسند فيه أدنىٰ شرائط القبول، وسوف يفقد الناقد حريّة حركته بين النصوص للإستنتاج.

إذن، فلا يمكن ملاحظة شروط الأسناد إلّا بالنسبة لِما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أمّا في خصوص النصوص التأريخية فإنّه لايتيسر ملاحظة ذٰلك، ذٰلك

لأنّ التأريخ قد دُوِّن بأيدٍ قد تكون أمينة ولكن لا علىٰ الإطلاق ولاسيّما بالنسبة لأسناد مادوّنوا من أخبار، وعلىٰ هٰذا، فلا بُدّ من ملاحظة أكثر مايمكن للتأكد من عدم الجعل والتحريف فيها قبل قبولها علىٰ أنّها من التأريخ المعتمد عليه.

وبكثرة الأكاذيب والأباطيل في الأحاديث والأقاويل التأريخية، بسبب تلاعب الأهواء المذهبية والسياسيّة كما سبق، فانّ الاستناد إلىٰ أفراد معيّنين من المؤرِّخين أوْ نوعية معيّنة من الكتب التأريخيّة ربّما تحرم الباحث من كثيرٍ من الحقائق التأريخية المبعثرة هُنا وهناك، والّتي أمكن لها أنْ تصل إلينا عبر الموانع المتعددة سليمة من كثيرٍ من التحريف، بما أنّ الساسة لم يروها؛ أوْ لم يروا فيها ما يشكّل خطراً عليهم، وكذٰلك المتعصّبون من أرباب المذاهب، فبقيت بعيدة عن متناول أيديهم ورماحهم وغوغائهم، وآمنة من تعنّت المتعصبين وجبروت الطواغيت كي نتلقفها اليوم بسلام.

دراستنا نحن للتأريخ:

ونحن هُنا نحاول بدورنا أنْ نستخلص صورة نقية واضحة ما أمكننا من تأريخنا تأريخ الإسلام، وبصورة أساسيّة نهتم لنبتعد عن ذٰلك القسم الموضوع المكذوب من النقول التأريخية، والّتي لاتعدو في الحقيقة والواقع عن أوهام من خيالات أصحاب الأهواء والأغراض من المحدّثين والقصّاصين.

والبداية الطبيعية لتأريخ الإسلام هي سيرة الرسول الكريم ﷺ، وهٰذه البداية الطبيعية تفرض علينا أنْ نلاحظ أوّلاً شيئاً عن تأريخ ماقبل البعثة النبوية الشريفة، كي نتعرَّف علىٰ المناخ والجوّ الّذي ظهر فيه الإسلام إلىٰ العالم.

واعتمدنا فيما كتبناه هُنا ـ حتّىٰ الإمكان ـ علىٰ أسبق ماكتبه أورواه السابقون الأولون ولاسيّما من مدرسة أهل البيت عليهم السلام دون المتأخرين فضلاً عن المعاصرين

إلّا قليلاً، إذْ هو علم نقليّ ليس للمتأخر إلّا ماكتبه المتقدم اللهُمَّ إلّا في كيفية الإخراج والتأليف والتصنيف والترتيب والتنظيم والتنسيق، ثمَّ توجيهه وتحليله كلّ في حدود إمكانه وطاقته.

وقد أمسك أُولئك المؤرخون القدامىٰ عن أية دراسة أوْ تحليل للحوادث والوقائع التأريخية، ولعلّه صيانة لنصوص أحاديث تلك الحوادث، لا بشأن النبيّ ﷺ فحسب، بل إنّ التأريخ الإسلامي بصورة عامّة كُتب بدون دراسة أوْ تحليل أوْ تحقيق. أجل إنّ أوّل من فتح هٰذا الطريق بوجه المؤرّخين الإسلاميين هو العالم العربي القاضي عبد الرحمن بن مُحمّد الحضرمي المالكي المعروف بابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، فإنّه أسّس في «مقدمته» أُسس التأريخ التحليلي، وهي بما فيها من اشتباهات كثيرة في تحليل بعض الحوادث تعدّ أثراً مفيداً جديداً مبتكراً في بابه.

وقد كُتبت بشأن النبيّ العظيم من النوعين الأوّل والثاني، أي التأريخ الوقائعي والتحليلي كُتب كثيرة، ولٰكن يعوز النوع الأوّل: التحليل، ويعوز النوع الثاني في كثيرٍ من الأحيان أنّها علىٰ جانب كبير من الأخطاء العجيبة، حيث إنّها اعتمدت علىٰ مصادر غير معتبرة أوْ على كُتب المستشرقين.

فبالنظر إلىٰ هذين الإشكالين الأساسيّين عمدنا في حدود إمكاننا في دراستنا هٰذه أنْ نتجنبها، وذٰلك بأن:

نسجّل الحوادث المهمّة الّتي تتميّز بدروس لنا فيها، وأنْ ننقل ذٰلك من المصادر الأصلية الأُولىٰ المؤلّفة في القرون الأُولىٰ الإسلامية والشواهد التأريخيّة الناطقة.

والله الموفّق والمعين، وهو الهادي إلىٰ الحقّ وإلىٰ طريق مستقيم، فهو حسبي ونعم الوكيل، نِعمَ المولىٰ ونِعمَ النصير.

اليوسفي الغروي

الفصل الاول

البيئة العربية والظروف العالمية

قبيل ظهور الإسلام

الجاهلية فى القرآن الكريم:

قلنا: إنّ البداية الطبيعيّة لتأريخ الإسلام تفرض علينا أنْ نتعرّف أوّلاً علىٰ حالة العرب قبل الإسلام كي نتعرّف علىٰ المناخ والجو الذي انطلقت فيه الدعوة إلىٰ الإسلام، وخير كلام في هذا المقام كلام الإمام العلّامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» قال:

إنّ القرآن يسمّي عهد العرب المتّصل بظهور الإسلام بالجاهليّة، وليس إلّا إشارة منه إلىٰ أنّ الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، وأنّ المسيطر عليهم في كلّ شيء الباطل دون الحق، وكذلك كانوا، علىٰ مايقصّ القرآن من شؤونهم:

قال تعالىٰ: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[1].

وقال ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) المائدة: ٥٠.

وقال: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾(١).

وقال: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾(٢).

كانت العرب يومئذٍ تجاور في جنوبها الحبشة وهي نصرانيّة، وفي مغربها إمبراطوريّة الروم وهي نصرانيّة أيضاً، وفي شمالها الفرس وهم مجوس، وفي غير ذلك مصر والهند وهما وثنيّتان، وفي أرضهم طوائف من اليهود. وهم وثنيّون يعيش أكثرهم عيشة القبائل، وهذا كلّه هو الذي أوجد لهم اجتماعاً همجيّاً بدويّاً فيه أخلاط من رسوم اليهوديّة والنصرانيّة والمجوسيّة، وهم سكارىٰ في جهالتهم.

وكانت العشائر البدو علىٰ ما هم من خساسة العيش ودناءته يعيشون بالغزوات وشنّ الغارات واختطاف ما في أيدي الآخرين من متاعٍ أو عرَض، فلا أمن بينهم ولا أمانة، ولا سلم ولا سلامة، والأمر لِمَن غلب، والملكُ لِمَن وضع يده عليه «ومن عزّ بزّ» أي: من امتنع قطع، أو من قوي فري.

أمّا الرجال فالفضيلة بينهم سفك الدماء والحميّة الجاهليّة والكبر والغرور واتّباع الظالمين وهضم حقوق المظلومين، والتعادي والتنافس، والقمار وشرب الخمر والزنا، وأكل الميتة وحشف التمر.

وأمّا النساء فقد كنّ محرومات من مزايا المجتمع الإنساني لا يملكن من أنفسهنّ إرادة ولا من أعمالهنّ عملاً، ولا يملكن ميراثاً، ويتزوّج بهنَّ الرجال من غير تحديد بحدّ، كما عند اليهود وبعض الوثنيّين، ومع ذلك فقد كنّ يتبرّجن بالزينة ويدعين من أحببن إلىٰ أنفسهنّ، وفشا فيهنّ الزنا والسفاح حتّىٰ المحصنات المزوّجات منهنّ، ومن عجيب بروزهن أنّهنّ ربّما كنّ يطفن بالبيت ليلاً عاريات من ثيابهنّ (لأنّهنّ لا يجدن إحراماً طاهراً).

---

(١) الفتح: ٢٦.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

وأمّا الأولاد فكانوا يُنسَبون إلىٰ الآباء لكنّهم لا يُورَّثون صِغاراً ويذهب الكبار بالإرث، ومن الإرث زوجة المتوفّىٰ، ويُحرَم الصغار ـ ذكوراً أو إناثاً ـ والنساء. نعم لو ترك المتوفّىٰ صغيراً ورثه ولكنّ الأقوياء يتولّون أمر اليتيم ويأكلون ماله، ولو كان اليتيم بنتاً تزوّجوها وأكلوا مالها ثمّ طلّقوها وخلّوا سبيلها، فلا مال تقتات به ولا راغب في نكاحها ينفق عليها. والإبتلاء بأمر الأيتام من أكثر الحوادث المبتلىٰ بها بينهم لدوام الحروب والغارات والغزوات فطبعاً كان القتل شائعاً بينهم.

وكان من شقاء أولادهم أنّ بلادهم الخربة وأراضيهم القفرة البائرة كان يسرع إليها الجدب والقحط، فكان الرجل يقتل أولاده خشية الإملاق: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾[1] وكانوا يئدون البنات: ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[2] وكان من أبغض الأشياء أنْ يبشَّر الرجل بالأنثى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3].

وأمّا وضع الحكومة بينهم: فأطراف الجزيرة وإن كانت ربّما ملك فيها ملوك تحت رعاية أقوىٰ الجيران وأقربها كإيران لنواحي الشمال، والروم لنواحي الغرب، والحبشة لنواحي الجنوب، إلّا أنّ قرىٰ الأوساط كمكّة ويثرب والطائف وغيرها كانت تعيش في وضع أشبه بالجمهوريّة وليس بها، والعشائر في البدو بل حتّىٰ في داخل القرىٰ كانت تدار بحكومة رؤسائها وشيوخها، وربّما تبدّل الوضع بالسلطنة.

---

(١) الإسراء: ٣١.

(٢) التكوير: ٨، ٩.

(٣) النحل: ٥٨، ٥٩.

وهـذا هو الهرج (الفوضىٰ) العجيب الذي كان يبرز في كلّ عدّة معدودة منهم بلون، ويظهر في كلّ ناحية من أرض شبه الجزيرة بشكـل مـع الرسـوم العـجيبة والاعتقادات الخرافيّة الدائرة بينهم. أضف إلىٰ ذلك بلاء الأُمـيّة وفـقدان التـعليم والتعلُّم في بلادهم فضلاً عن العشائر والقبائل.

وكلٌّ هذا الذي ذكرناه من أحوالهم وأعمالهم والعادات والمراسيم الدائـرة بينهم هو مِمّا يُستفاد من سياق الآيات القرآنيّة والخطابات التي تخاطبهم بها، أوضح إفادة، فتدبّر في المقاصد التي ترومها الآيات والبيانات التي تلقيها إليهم بمكّة أوّلاً، ثمّ بعد ظهور الإسلام وقوّته بالمدينة ثانياً، وفي الأوصاف التي تصفهم بها، والأُمور التي تذمّها منهم وتلومهم عليها، والنواهي المتوجّهة إليهم في شدّتها وضعفها.. إذا تأمّلت كلّ ذلك تجد صحّة ما ذكرناه. والتأريخ كذلك يذكر كلّ ذلك ويعرض مـن تفاصيله ما لم نذكره، لإجمال الآيات الكريمة وإيجازها القول فيه. وأوجـز كـلمة وأوفاها لإفادة مجمل هـذه المعاني ما سمّىٰ القرآن به هذا العهد «الجاهليّة» فقد أجمل في معناها كلّ هذه التفاصيل. هذا حال عالم العرب ذلك اليوم.

وأمّا العالم المحيط بهم ذلك اليوم من الفرس والروم والحبشة والهند وغيرهم، فالقرآن يُجمل القول فيه أيضاً.

أمّا أهل الكتاب منهم أعني اليهود والنصارىٰ ومن يلحق بهم (من المجوس والصابئة) فقد كانت مجتمعاتهم تدار بالأهواء الاستبداديّة والتحكّمات الفرديّة من الملوك والرؤساء والحكّام والعمّال، فكانت مقتسمة طبعاً إلىٰ طبقتين: طبقـة حاكمة فعّالة لِما تشاء، تعبث بالنفس والعرض والمال وطبقة محكومة مستعبدة مستذلّة لا أمن لها في مالٍ ولا عرض ولا نفس ولا حرّيّة ولا إرادة إلّا ما وافق من يفوقها. وقد كانت الطبقة الحاكمة استمالت علماء الديـن وحـملة الشـرع وائـتلفت بهـم، وأخذت بجامع قلوب العامّة وأفكارهم بأيديهم، فكانت بالحقيقة هي الحاكمة في

دين الناس ودنياهم، تحكم في دين الناس كيفما أرادت بلسان العلماء وأقلامهم، وفي دنياهم بالسوط والسيف.

هذا وقد انقسمت الطبقة المحكومة أيضاً حسب قوتها في السطوة والثروة فيما بينهم، إلىٰ طبقتي الأغنياء المترفين والضعفاء و العجزة والعبيد، وإلىٰ ربّ البيت ومربوبيه من النساء والأولاد، وكذا إلىٰ الرجال المالكين لحرّيّة الإرادة والعمل في جميع شؤون الحياة وإلىٰ النساء المحرومات من جميع ذلك والتابعات للرجال محضاً والخادمات لهم فيما أرادوه منهنّ من غير استقلال ولو يسيراً.

ويجمل هذه الحقيقة يظهر من قوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] وكذا قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] وقوله في النساء: ﴿ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾[3] وفيما أوصىٰ به في التزويج بالفتيات والإماء: ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾[4].

الجاهليّة في نهج البلاغة:

وبعد استعراض هذه الآيات من القرآن الكريم بشأن الجاهليّة يكفينا أنْ نتذكّر بعض ماجاء عن علي عليه السلام في «نهج البلاغة» في ذلك:

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) آل عمران: ١٩٥.

(٤) النساء: ٢٥. الميزان ٤: ١٥١ ـ ١٥٤.

«وأنتم معشر العرب علىٰ شرّ دين وفي شرّ دار، مُنيخون بين حجارة خُشن وحيّات صُمّ، تشربون الكَدِر وتأكلون الجَشِب، وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام فيكم معصوبة»[١].

«والناس ضُلّال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستزلّتهم الكبرياء واستخفّتهم الجاهليّة الجهلاء، حيارىٰ في زلزالٍ من الأمر وبلاءٍ من الجهل»[٢].

«والأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكَثرة متفرّقة، في بلاء ازل وإطباق جهل: من بنات موؤدة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة»[٣].

معنى الجاهليّة:

ومن مصاديق الحميّة الجاهليّة ما حاوله البعض أنْ يحرّف في معنىٰ الجاهليّة من معنىٰ عدم العلم وفقدان المعرفة لديهم إلىٰ أنّها من الجهل بمعنىٰ الحميّة والغضب، كما قد يقال: جهل زيد علىٰ عمرو بمعنىٰ غضب عليه، وأنّها ليست من الجهل بمعنىٰ عدم العلم والمعرفة.

وهذا التوجيه ليس -كما قلنا- إلّا مصداقاً من مصاديق الحميّة الجاهليّة، فإنّ الظاهر من إطلاق الجهل ليس إلّا بمعنىٰ ما يقابل العلم والمعرفة، ولا تحمل علىٰ معنىٰ الحميّة والغضب إلّا مجازاً بقرينة ما، كما فيما يستشهدون به من قولهم جهل عليه،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.

(٢) الخطبة: ٩٥.

(٣) الخطبة: ١٨٧.

فإنّ تعدية الجهل إلىٰ المفعول بلفظة «علىٰ» أجلىٰ قرينة لفظية لذلك، وإلّا فلا تحمل الكلمة إلّا علىٰ ما يقابل العلم فقط.

وليت شعري ما يقول أصحاب هذا التوجيه غير الوجيه في معنىٰ ما جاء في الآيات الكريمة الأربع «ظنّ الجاهليّة» و«حكم الجاهليّة» و«الحميّة الجاهليّة» و«تبرّج الجاهليّة» فهل يصحّ أنْ تفسّر الجاهليّة في هذه الآيات بمعنىٰ الغضب؟

وقد رأينا أمير المؤمنين عليه السلام وصف الجاهليّة بالجهلاء تأكيداً للمعنىٰ المعروف من الجاهليّة، ثمّ قال: «وبلاء من الجهل» و«إطباق جهل» ممّا يؤكّد ذلك أيضاً ويدفع أيّ ترديدٍ فيه.

«لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته المتقدّمة حالة العرب ومستواهم العلمي والثقافي، وأنّهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل والحيرة والضّياع..

وهذا يكذّب كلّ ما يدّعيه الآخرون ـ كالآلوسي وغيره ـ من أنّ العرب كانوا قد تميّزوا ببعض العلوم: كعلم الطبّ والأنواء والقيافة والعيافة...»[١].

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد «إنّ الملّة ـ العربيّة ـ في أوّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة، وذلك لمُقتضىٰ أحوال السذاجة والبداوة.. فالقوم يومئذٍ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دفعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة.. فالأُمّيّة يومئذٍ صفة عامّة»[٢].

ويقول عن علم الطب عند العرب: «.. طب يبنونه ـ في غالب الأمر ـ علىٰ تجربة قاصرة علىٰ بعض الاشخاص متوارثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه، وربّما يصحّ

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ١ : ٤٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٤٣.

منه البعض إلّا أنّه ليس علىٰ قانون طبيعي ولا علىٰ موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطبّاء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره»[١].

ويكفي أنْ نذكر هنا ما رواه البلاذري في أُميّتهم: إنّ الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً، وفي الأوس والخزرج في المدينة إثنا عشر رجلاً يعرفون القراءة والكتابة[٢].

ويقول ابن خلدون عن نوعية الخطّ عندهم «وكانت كتابة العرب بدوية وكان الخط العربي لأوّل الإسلام غير بالغ إلىٰ الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلىٰ التوسط، ذلك لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبعدهم عن الصنائع. وأُنظر ما وقع ـ لأجل ذلك ـ في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثمّ اقتفىٰ التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً بما رسمه اصحاب الرسول»[٣].

بل ربّما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيباً، فقد قال عيسى بن عمر: قال لي ذو الرّمة: ارفع هذا الحرف. فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده علىٰ فيه اي اكتم عليّ، فإنّه عندنا عيب[٤].

وقال ابن خلدون بهذا الصدد: «مع مايلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ، لأنّه من جملة الصنائع، والرؤساء ـ أبداً ـ يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجرّ إليها»[٥].

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٤٩٣.

(٢) فتوح البلدان ق ٣: ٥٨٠.

(٣) مقدّمة ابن خلدون: ٤١٩.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٣٤.

(٥) مقدّمة ابن خلدون: ٥٤٤، فصل «أنّ حَمَلَة العلم في الإسلام أكثرهم العجم».

فالذي رواه الرواة والمؤرخون يفيد نفي وجود أي لون من ألوان التعليم، أو وجوده ولكن بنسبة صغيرة جدّاً حيث لا يتجاوز عدد المتعلمين عدد أصابع اليدين والرجلين في كلّ بلدان الحجاز وحواضره.

ذهب بعض المتأخرين من المؤرخين العرب ـ منهم محمد عزة دروزة في كتابه: القرآن المجيد ـ إلىٰ أنّ هناك في المدن الحجازية فئة من المتعلمين بنسبة لا يمكن تجاهلها. وكلّ ما سجّله هؤلاء في كتبهم لتأييد رأيهم هو: ـ أنّ البيئة الحجازية ـ ولا سيّما مكة والمدينة ـ كانت بيئة تجارية ـ، كما أشار إلىٰ ذلك القرآن الكريم في سورة قريش، فكانت ـ بحكم عملها وطبيعتها ـ علىٰ اتّصال وثيق ومستمر مع البلاد المجاورة من الشام واليمن والعراق والتي كانت علىٰ جانب لا بأس به من العلم والثقافة.

وكانت البيئة الحجازية تضم فئات كتابيّة: يهودية ومسيحية اصيلة ونازحة من البلاد المجاورة، والتي كانت تتداول ما بينها الكتب الدينية وغيرها قراءة وكتابة.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فقد ورد في القرآن العزيز أطول آية في سورة البقرة تطلب من الناس تسجيل كافة المعاملات والتصرفات وكتابتها نقداً أو ديناً صغيرة أو كبيرة[1] فكيف تطلب هذه الآيات من الناس تحقيق كلّ ذلك دون وجود قسم من المتعلمين في صفوفهم يكتبون ويدوّنون عن أنفسهم أو الآخرين.

هذا بالاضافة إلىٰ أنّ كتبة الوحي بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله بلغ عددهم أكثر من أربعين رجلاً، وأنّ كثيراً منهم كانوا مكيّين، وهم الذين كتبوا القسم المكّي من القرآن قبل هجرته صلى الله عليه وآله إلىٰ المدينة، فهذا دليل علىٰ وجود المتعلمين في مكة وإنْ كانوا قليلين، سواء ممّن كتب الوحي من هؤلاء ومن لم يسلم بعد.

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

كما إنّ الأسرىٰ الفقراء من قريش الذين وقعوا في قبضة المسلمين في معركة بدر الكبرىٰ في العام الثاني للهجرة، والذين لم يستطيعوا أنْ يقدّموا فدية نقديّة لإطلاق سراحهم، كلف كلّ واحد منهم ـ ممّن يجيد القراءة والكتابة ـ تعليم عشرة من أطفال المسلمين في المدينة القراءة و الكتابة لقاء إطلاق سراحهم، ويحدّثنا البلاذري: انّ كثيرين منهم قاموا بما كلّفوا به من تعليم الأطفال في المدينة وأصبحوا بعدها أحراراً عادوا إلىٰ مكة، كما أسلم بعضهم بعدما لمسوا عدالة الإسلام وسماحته فكيف يعقل هنا أنْ يجيد قسم من الفقراء ومعدمي القرشيّين القراءة والكتابة ولا يتقنها أغنياؤهم وتجّارهم وأرباب السلطان منهم!(١).

وخلاصة القول في جواب هؤلاء هو أنْ نقول: إنّ الجهل كان هو الحاكم المطلق ولا نلاحظ نحن فيهم أي شيء من العلوم قبل الإسلام بل لا نرى إلّا جهلاً وحيرة وضياعاً. أمّا ما استشهد به هؤلاء فلا يعدو أنْ يكون ممّا قام به الإسلام لمحو الأمية.

أمّا أولوية أنْ يكون ذوو الغنى والسلطان منهم يقرأون ويكتبون فقد عرفت فساده ممّا سبق عن ابن خلدون. وأمّا عدد كتّاب الوحي فقد فنّد أكثر العدد العلّامة السيد ابو الفضل مير محمدي في كتابه القيّم «بحوث في تأريخ القرآن وعلومه».

ولا يفوتنا هنا أنْ ننوّه إلىٰ: أنّ أُميّتهم هذه كانت السبب في قوة حافظتهم التي امتازوا بها، فأصبح الكثير منهم حفظة القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم.

لكن مستواهم الثقافي هذا كان السبب الطبيعي في أنْ ينظروا إلىٰ أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً نظرة التلميذ إلىٰ معلّمه فتكون لهم الهيمنة الفكرية عليهم، ممّا بقيت آثاره في أخبار رواتهم فيقول الطبري: «عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب».

---

(١) لمحات من تاريخ القرآن للسيد محمد علي الاشيقر، ط النجف: ٣٦ و ٣٧.

غيرة وحميّة، أم حميّة جاهليّة:

كما حاولوا أنْ يوجّهوا الجاهليّة بتفسيرها بمعنىٰ الغضب لا عدم العلم والمعرفة، كذلك حاولوا تحريف الحميّة الجاهليّة المذكورة في القرآن الكريم من كونها صفة ذميمة إلىٰ جعلها خصيصة ذات ميزة للعرب قبل الإسلام، وذلك بحذف صفة الجاهليّة وإضافة لفظة «الغيرة» إلىٰ «الحميّة».

والحقيقة هي أنّ الحميّة صفة ذميمة، إذ هي تعني أنْ يكون النصر للقبيلة وذوي القرابة فقط، وأنّ العون لا بدّ وأنْ يمحّض لهم ظالمين كانوا أو مظلومين فلا بدّ من الوقوف إلىٰ جانب ابن القبيلة سواء كان الحقّ له أو عليه، حتّىٰ قال شاعرهم يمتدحهم بذلك:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات علىٰ ما قال برهانا[1]

وفي المقابل تتحمّل القبيلة عنه كلّ جناية وجريمة يرتكبها، وتحميه من كلّ مَن أراده بسوء. وهذا هو التعصّب القبلي الذي لا يرحم ولا يلين. فالتعصب القبلي كان من مميّزات الإنسان العربي وخصائصه.

ومن الطبيعي أنْ يكون شعور أفراد كلّ قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قويّاً جدّاً، وذلك بدافع من شعورهم بالحاجة إلىٰ قبائلهم للدفاع عن أنفسهم.

وهذا هو السرّ في شجاعتهم أيضاً، وذلك أنّهم بحكم بيئتهم وحياتهم في الصحراء بلا حواجز وموانع طبيعيّة أو غيرها، كانوا يشعرون بحاجتهم إلىٰ حماية أنفسهم والدفاع عنها، ولا يردّ عنه إلّا يده وسيفه ثمّ أهله وعشيرته، وهو يرىٰ نفسه في كلّ حين عرضة للغزو والنهب والسّلب والغارات والثارات.

إنّ حياة البادية والغزو المفاجيء وعمليات الاغتيال ثأراً التي كانت تهدّدهم

---

(١) الشاعر: قريط بن أُنيف من شعراء الجاهلية كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢٧، ٢٩.

دائماً، كلّ ذلك كان يستدعي سرعة الإقدام ومباشرة العمل فوراً، فإذا اضيف إلىٰ ذلك عدم شعورهم بالمسؤوليّة عمّا يفعلون، فإنّ الإقدام بلا تروّ ولا تريّث لا بدّ وأنْ يصبح هو الصّفة المميّزة لهم والطّاغية علىٰ تصرّفاتهم.. ولذا فقد قلّ أنْ تجد فيهم حليماً.

وأخيراً فقد نعىٰ القرآن الكريم علىٰ الجاهليّة هذه الحميّة فعبّر عنها بالحمية الجاهليّة، وهذا يعني أنّها كانت من دون تثبّت في الفكر والرأي بل للجهل، فكيف تكون ميزة؟!

أجل إنّ الإسلام حاول أنْ يضع هذه الحميّة في خطّها الصحيح وأنْ يجعلها تنطلق من قواعد إنسانيّة وعواطف حقيقيّة وفضائل أخلاقيّة، وبالأخصّ من إحساس دينيّ صحيح، وأنْ يستفيد منها في بناء الأُمّة علىٰ أُسس صحيحة وسليمة. فقد حاول أنْ يوجّه العصبيّة القبليّة وجهة بنّاءة ويقضي علىٰ كلّ عناصر الشر والانحراف فيها، فدعى إلىٰ برّ الوالدين وإلىٰ صلة الرحم، وجعل ذلك من الواجبات وذلك لربط الأُمّة المسلمة بعضها ببعض. وفي الوقت نفسه أدان كلّ تعصب لغير الحقّ وندّد به وعاقب عليه، واعتبر ذلك من دعوات الجاهليّة المنتنة كما جاء في بعض نصوص الاحاديث. وكذلك حاول أنْ يوجّه غيرتهم وحميّتهم وشدّتهم إلىٰ حيث قال تعالىٰ: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾[1].

بناء الكعبة المعظّمة:

يجدر بنا ونحن نحاول دراسة التأريخ الإسلامي أنْ نتعرّف علىٰ تأريخ بناء الكعبة في مكة المكرمة، وذلك يجرّنا إلىٰ البدء بتأريخ بانيها إبراهيم عليه السلام، فلنبدأ به:

---

(١) الفتح: ٢٩.

ومن اجمع مايتضمن قصة الخليل عليه‌السلام ما جاء في «روضة الكافي» بسنده عن عليّ بن إبراهيم القميّ، عن زيد الكرخي قال:

سمعت أبا عبد الله الصادق عليه‌السلام يقول: إنّ إبراهيم عليه‌السلام كان مولده بكوثاريا وكان أبوه من أهلها، وكانت أُمّ إبراهيم وأُمّ لوط عليهما‌السلام، سارة وورقة اختين، وهما ابنتان للاحج، وكان لاحج نبيّاً منذراً، ولم يكن رسولاً.

وكان إبراهيم عليه‌السلام في شبيبته علىٰ الفطرة التي فطر الله عزّ وجلّ الخلق عليها حتّىٰ هداه الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ دينه واجتباه وانّه تزوّج سارة ابنة[1] لاحج، وهي ابنة خالته، وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وكانت قد ملّكت إبراهيم عليه‌السلام جميع ما كانت تملكه، فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتّىٰ لم يكن بأرض كوثاريا رجل أحسن حالاً منه.

وإنّ إبراهيم لمّا كسّر اصنام نمرود وأمر به نمرود فأُوثق، وعمل له حايراً وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار، ثمّ قذف إبراهيم عليه‌السلام في النار لتحرقه، ثمّ اعتزلوها حتّىٰ خمدت النار. ثمّ اشرفوا علىٰ الحاير فإذا إبراهيم عليه‌السلام سليماً مطلقاً من وثاقه. فأُخبر نمرود خبره، فأمرهم أنْ ينفوا إبراهيم عليه‌السلام من بلاده، وأنْ يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجّهم إبراهيم عليه‌السلام عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فإنّ حقّي عليكم أنْ تردّوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم! واختصموا إلىٰ قاضي نمرود فقضى علىٰ اصحاب نمرود أنْ يردّوا علىٰ إبراهيم عليه‌السلام ماله! وأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أنْ يخلّوا سبيله وسبيل ماشيته وماله ويخرجوه وقال: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم (!) وأضرّ بآلهتكم. فأخرجوا إبراهيم ولوطاً عليهما‌السلام معه من بلادهم إلىٰ الشام.

---

(١) قد علّق العلّامة المجلسي في الجزء ٢٦ من مرآة العقول علىٰ ذلك بأنّه لا بدّ وأن تكون ابنة ابنة لاحج، ولعلّ السقط من النسّاخ حيث تصوّر أنّها زائدة.

فخرج إبراهيم ـ ومعه لوط لا يفارقه ـ وسارة، وقال لهم «إنّي ذاهب إلىٰ ربّي سيهدين» يعني إلىٰ بيت المقدس. فتحمّل إبراهيم بماشيته وماله، وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة وشدّ عليها الاغلاق غيرةً منه عليها. ومضى حتّىٰ خرج من سلطان نمرود، وصار إلىٰ سلطان رجل من القبط يقال له: عزارة، فمرّ بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشّر ما معه، فلما انتهىٰ إلىٰ العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم عليه‌السلام: إفتح هذا التابوت لنعشّر ما فيه، فقال له إبراهيم عليه‌السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتّىٰ نعطي عشره ولا نفتحه. فأبىٰ العاشر إلّا فتحه، وغضب إبراهيم عليه‌السلام علىٰ فتحه. فلما بدت له سارة ـ وكانت موصوفة بالحسن والجمال ـ قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال إبراهيم عليه‌السلام: هي حرمتي وابنة خالتي. فقال له العاشر: فما دعاك إلىٰ أنْ خبّيتها في هذا التابوت؟ فقال إبراهيم عليه‌السلام: الغيرة عليها أنْ يراها أحد! فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتّىٰ أُعلم الملك حالها وحالك.

فبعث رسولاً إلىٰ الملك فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت، فأتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه‌السلام: إنّي لست أُفارق التابوت حتّىٰ يفارق روحي جسدي! فاخبروا الملك بذلك، فأرسل الملك: أنْ احملوه والتابوت معه. فحملوا إبراهيم عليه‌السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتّىٰ أُدخل علىٰ الملك، فقال له الملك: افتح التابوت! فقال له إبراهيم عليه‌السلام: أيّها الملك إنّ فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي.

فغضب الملك إبراهيم عليه‌السلام علىٰ فتحه، فلما رأىٰ سارة لم يملك حلمه سفهه أنْ مدّ يده إليها، فأعرض إبراهيم عليه‌السلام وجهه عنها وعنه ـ غيرة منه ـ وقال: اللّهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي! فلم تصل يده اليها ولم ترجع اليه!

فقال له الملك: إنّ إلٰهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم إنّ إلٰهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردته من الحرام.

فقال له الملك: فادع إلٰهك يردّ عليّ يدي، فإنْ أجابك فلن أعرض لها. فقال إبراهيم عليه السلام: إلٰهي ردّ إليه يده ليكفّ عن حرمتي، قال: فردّ اللّٰه عزّ وجلّ إليه يده.

فأقبل الملك نحوه ببصره ثمّ عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللّهم احبس يده عنها. قال: فيبست يده ولم تصل إليها.

فقال الملك لإبراهيم عليه السلام: إنّ إلٰهك لغيور، وإنّك لغيور، فادع إلٰهك يردّ إليّ يدي، فإنّه إنْ فعل لم أعد! فقال إبراهيم عليه السلام: أسأله ذلك على أنّك إن عدت لم تسألني أنْ أسأله! فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: نعم.

فقال إبراهيم عليه السلام: اللّهم إن كان صادقاً فردّ يده عليه. فرجعت إليه يده. فلمّا رأىٰ ذلك الملك من الغيرة ما رأىٰ، ورأىٰ الآية في يده، عظّم إبراهيم عليه السلام وهابه وأكرمه واتّقاه، وقال له: قد أمنت من أنْ أغرض لها أو لشيء ممّا معك فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة! فقال إبراهيم عليه السلام: ما هي؟ فقال له: أُحبّ أنْ تأذن لي أنْ أُخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً، فأذِنَ إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة، وهي هاجر أُمّ إسماعيل عليه السلام.

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاماً لإبراهيم وهَيْبةً له، فأوحىٰ اللّٰه تبارك وتعالىٰ إلىٰ إبراهيم عليه السلام: أنْ قف ولا تمشِ قدّام الجبّار المتسلّط وهو يمشي خلفك، ولكن اجعله أمامك وامشِ خلفه وعظّمه وهبه فإنّه مسلّط، ولا بدّ من إمرةٍ في الأرض برّةٍ أو فاجرة! فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امضِ، فإنّ إلٰهي أوحىٰ إليّ الساعة: أنْ أُعظّمك وأهابك، وأنْ أُقدّمك أمامي وأمشي خلفك إجلالاً لك! فقال له الملك: أوحىٰ إليك بهذا؟ فقال إبراهيم عليه السلام: نعم. فقال له الملك: أشهد أنّ إلٰهك لرفيق حليم كريم، وانّك ترغّبني في دينك! وودّعه الملك.

فسار إبراهيم عليه السلام حتىٰ نزل بأعلىٰ الشامات وقد خلّف لوطاً عليه السلام في أدنىٰ الشامات.

ثمّ إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعتني هاجر لعلّ اللّه أنْ يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفا؟! فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فتزوّج بها، فولدت إسماعيل عليه السلام[1].

وروىٰ علي بن إبراهيم القميّ في تفسيره عن أبيه عن هشام عن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال:

إنّ إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً لأنّه لم يكن له منها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكىٰ إبراهيم ذلك إلىٰ اللّه عزّ وجلّ، فأوحىٰ اللّه إليه، إنّما مثل المرأة مثل الضلع الأعوج، إن تركتها استمتعت بها وإن أقمتها كسرتها. ثمّ أمره أنْ يُخرج إسماعيل وأمّه، فقال: يا ربّ إلىٰ أيّ مكان؟ قال: إلىٰ حَرَمي وأمني وأوّل بقعةٍ خلقتها من الأرض وهي مكّة. فأنزل اللّه عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل. وكان إبراهيم لا يمرّ بموضعٍ حَسَن فيه شجر ونخل وزرع إلّا قال: يا جبرئيل إلىٰ ها هنا؟ إلىٰ ها هنا؟ فيقول: لا، امضِ، امضِ، حتّىٰ أتىٰ مكة، فوضعه في موضع البيت.

وقد كان إبراهيم عليه السلام عاهد سارة: أنْ لا ينزل حتّىٰ يرجع إليها، فلمّا نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر علىٰ ذلك الشجر كساء كان معها فاستظلّوا تحته، فلمّا سترهم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلىٰ سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لِمَ تَدَعُنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟!

---

(١) روضة الكافي: ٣٠٤ ـ ٣٠٦ ط النجف الأشرف، وانظر تفسير القمي ١: ٢٠٦، ٢٠٧ ط النجف الأشرف.

فقال إبراهيم: اللّه الذي أمرني أنْ أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم. ثمّ انصرف عنهم فلمّا بلغ كُداء ـوهو جبلٌ بذي طوىٰـ التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1] ثمّ مضىٰ وبقيت هاجر.

فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعىٰ ونادت: هل في الوادي من أنيس؟! فغاب عنها إسماعيل، فصعدت علىٰ الصفا ولمع لها السراب في الوادي وظنّت أنّه ماء وسعت، فلمّا بلغت المسعىٰ غاب عنها، ثمّ لمع لها السراب في ناحية الصفا فعادت حتّىٰ بلغت الصفا، حتّىٰ فعلت ذلك سبع مرّات، فلمّا كان في الشوط السابع وهي علىٰ المروة نظرت إلىٰ إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجله، فعادت حتّىٰ جمعت حوله رملاً فزمّته بما جعلته حوله فلذلك سمّيت زمزم.

وكانت جُرْهُم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلمّا ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش علىٰ الماء فنظرت جُرهُم إلىٰ تعكّف الطير علىٰ ذلك المكان فاتّبعوها حتّىٰ نظروا إلىٰ امرأة وصبيّ في ذلك الموضع قد استظلّوا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما. فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبيّ؟ فقالت: أنا أُمّ ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه، أمره الله أنْ ينزلنا ها هنا. فقالوا لها: أيّتها المباركة أفتأذني لنا أنْ نكون بالقرب منكما؟

فلمّا زارهم إبراهيم عليه السلام في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إنّ ها هنا قوماً من جُرهُم يسألونك أنْ تأذن لهم حتّىٰ يكونوا بالقرب منّا، أفتأذن لهم

---

(١) ابراهيم: ٣٧.

في ذلك؟ فقال إبراهيم: نعم. فأذنت، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنست هاجر أمّ إسماعيل بهم.

فلمّا زارهم إبراهيم في المرّة الثالثة نظر إلىٰ كثرة الناس حولهم فسرّ بهم سروراً شديدا. وكانت جُرهُم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحد منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها.

فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر اللّه إبراهيم عليه السلام أنْ يبني البيت، فقال: يا ربّ في أيّ بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت علىٰ آدم القبّة فأضاء لها الحرم فلم تزل البقعة التي أنزلتها علىٰ آدم قائمة حتّىٰ كان طوفان نوح فلما غرقت الدنيا رفعت تلك القبة وغرقت الدنيا إلّا موضع البيت. فبعث الله جبرئيل عليه السلام فخطّ له موضع البيت، وأنزل اللّه عليه القواعد من الجنّة، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوىٰ، وبنىٰ إبراهيم البيت فرفعه إلىٰ السماء تسعة أذرع[١]. وكان الحجر الذي أنزله الله علىٰ آدم أشدّ بياضاً من الثلج، فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضعه في موضعه الذي هو فيه. وجعل له بابين: باباً إلىٰ المشرق وباباً إلىٰ المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقىٰ عليه الشجر والاذخر[٢] وعلّقت هاجر إلىٰ بابه كساء كان معها فكانوا يكنّون تحته.

فلما بناه وفرغ منه نزل عليهما جبرئيل عليه السلام يوم التروية لثمان مضين من ذي الحجّة فقال: يا إبراهيم قم فارتوِ من الماء. لأنّه لم يكن بمنىٰ وعرفات ماء، فسمّيت التروية لذلك، ثمّ أخرجه إلىٰ منىٰ فبات بها، ففعل به ما فعل بآدم عليه السلام[٣].

---

(١) وكذلك في خبرين في الكافي ٤: ٢٠٧ الحديث ٨ و ٤: ٢١٧ الحديث ١، وهما في الفقيه ٢: ٢٤٧ وفي الثاني منهما: والطول ثلاثين ذراعاً والعرض اثنين وعشرين ذراعاً.

(٢) الاذخر: نبات طيب الرائحة.

(٣) تفسير القمي ١: ٦٠ ـ ٦٢.

وروىٰ علي بن إبراهيم القمّي أيضاً عن أبيه عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: إنّ إبراهيم عليه السلام أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم ارتو من الماء لك ولأهلك ـولم يكن بين مكة وعرفات ماء ـ فسمّيت التروية بذلك. فذهب به حتّىٰ انتهى به إلىٰ منىٰ فصلّىٰ به الظهر والعصر و العشائين والفجر، حتّىٰ إذا بزغت الشمس خرج إلىٰ عرفات فنزل بنَمِرَة، وهي بطن عرفة. فلمّا زالت الشمس خرج واغتسل فصلّىٰ الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، وصلّىٰ في موضع المسجد الذي بعرفات ـوقد كانت ثمّة أحجار بيض فأُدخلت في المسجد الذي بُني ـ ثمّ مضى به إلىٰ الموقف فقال: يا إبراهيم اعترف بذنبك، واعرف مناسكك. ولذلك سميت عرفة. فأقام به حتّىٰ غربت الشمس، ثمّ أفاض به فقال: يا إبراهيم ازدلف إلىٰ المشعر الحرام ـفسمّيت المزدلفة ـ وأتىٰ به المشعر الحرام، فصلّىٰ به المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثمّ بات بها فرأىٰ في النوم أنّه يذبح ابنه... حتّىٰ إذا صلّىٰ بها صلاة الصبح أراه الموقف.

ثمّ أفاض إلىٰ منىٰ فأمره فرمىٰ جمرة العقبة عندما ظهر له إبليس لعنه اللّه، وأمر أهله فسارت إلىٰ البيت، واحتبس الغلام، فانطلق به إلىٰ موضع الجمرة الوسطىٰ، فاستشار ابنه وقال ـكما حكىٰ اللّه ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فقال الغلام ـ كما حكىٰ اللّه ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[1].

وأقبل شيخ فقال: يا إبراهيم ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أُريد أنْ أذبحه! فقال: سبحان اللّه! تذبح غلاماً لم يعصِ اللّه طرفة عين!

فقال له إبراهيم: ويلك إنّ الذي بلّغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به!

---

(١) الصافّات: ١٠٢.

فقال: لا واللّه ما أمرك بهذا إلّا الشيطان!

فقال إبراهيم: لا واللّه لا أكلّمك، ثمّ عزم إبراهيم علىٰ الذبح.

فقال: يا إبراهيم إنّك إمامٌ يُقتدىٰ بك، وإنّك إن ذبحته ذبح الناس أولادهم! فلم يكلّمه. وأقبل إلىٰ الغلام فاستشاره في الذبح، فقال الغلام كما حكىٰ اللّه: امضِ كما أمرك اللّه به، فلمّا أسلما جميعا لأمر اللّه قال الغلام: يا أبَتِ خمّر[١] وجهي وشدّ وثاقي!

فقال إبراهيم: يا بنيّ! الوثاق مع الذبح؟ لا واللّه لا أجمعهما عليك اليوم، فرمىٰ له بقرطان الحمار[٢] ثمّ أضجعه عليه وأخذ المدية فوضعها علىٰ حلقه، ورفع رأسه إلىٰ السماء ثمّ انتحىٰ عليه بالمدية فقلّب جبرئيل المدية علىٰ قفاها وأثار الغلام من تحته، واجترّ الكبش من قبل ثبير الجبل الذي عن يمين مسجد منىٰ وكان أملح أغبر أقرن يمشي في سواد ويأكل في سواد، فوضعه مكان الغلام، ونودي من (قبل) مسجد الخيف ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْـمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[٣].

ولحق ابليس بأُمّ الغلام بحذاء البيت في وسط الوادي فقال لها: رأيت شيخاً ومعه وصيف قد أضجعه الشيخ وأخذ المدية ليذبحه!

فقالت: كذبت، إنّ إبراهيم أرحم الناس، كيف يذبح ابنه!

قال: فوربّ السّماء والأرض وربّ هذا البيت، لقد رأيته أضجعه وأخذ المدية!

---

(١) خمّر: استره بالخمار.

(٢) قرطان الحمار: مايجعل علىٰ ظهره من الجُلّ والقماش.

(٣) الصافّات: ١٠٤ ـ ١٠٦.

فقالت: ولِمَ؟ قال: زعم أنّ ربّه أمره بذلك. فوقع في نفسها أنّه قد أُمر في ابنها بأمر، فقالت: فحقّ له أنْ يطيع ربّه. ولمّا قضت مناسكها أسرعت في الوادي راجعة إلىٰ منىٰ.[١]

وما جاء في خبر علي بن إبراهيم القميّ عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّ الكعبة كانت قبل طوفان نوح قبّة ضربها آدم عليه السلام بموضع البيت، يؤيده ما جاء في الخطبة المعروفة بالقاصعة للامام علي عليه السلام انّه قال:

«ألا ترون أنّ اللّه سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم ـ صلوات اللّه عليه ـ وإلىٰ الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً. ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة وقرىٰ منقطعة، لا يزكو بها خفّ ولا حافر ولا ظلف. ثمّ امر آدم وولده: أنْ يثنوا اعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع اسفارهم وغاية لملتقىٰ رحالهم، تهوى إليه الأفئدة من مفاوز سحيقة..»[٢].

ولعلّ هذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٣] فانّ رفع القواعد يفيد انها كانت قد وضعت قبل ذلك وإنّ إبراهيم هو الذي رفعها وشيّد علىٰ أساسها وإن لم تكن بقيت بعد طوفان نوح، حيث قرأنا في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ جبرئيل هو الذي دلّ إبراهيم عليه السلام علىٰ موضع البيت.

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢، صبحي الصالح.

(٣) البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.

وحيث لاحظ إبراهيم عليه السلام أنّ البيت قد وضع في بقعة يصعب فيها الحياة قال:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1]. واستجيبت دعوته فأصبحت الكعبة قبلة المسلمين ومهوىٰ أفئدة المؤمنين.

شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الإسلامية:

هي شبه جزيرة كبيرة تقع في جهة الجنوب الغربي من آسيا، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلومترٍ مربعٍ، وهذا يعني أنها اكبر من مساحة إيران مرتين، واكبر من فرنسا ستّ مرّات، وأكبر من إيطاليا عشر مرّات، وأكبر من سويسرا ثمانين مرّة.

وهي شبه جزيرة مستطيلة غير متوازية الأضلاع تحدّها من شمالها الشام وفلسطين، ومن شرقها أرض الرافدين من الكوفة إلىٰ البصرة ثمّ خليج فارس ـ كما كان يسمّىٰ ـ ومن جنوبها خليج عدن والمحيط الهندي، ومن غربها البحر الاحمر. فهي محصورة من جنوبها وغربها وقسم من مشرقها بالبحار وفي قسم آخر من مشرقها وشمالها ببادية الشام أو الاردن والعراق.

وقد قسموها قديماً إلىٰ ثلاثة اقسام:

١ـ القسم الشمالي والغربي وهو الحجاز.

٢ـ القسم الشرقي والمركزي وهو المسمى بالصحراء العربية.

٣ـ القسم الجنوبي وهو اليمن.

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

وفي شبه الجزيرة صحاري رملية حارة واسعة غير قابلة للسكنىٰ كثيرة منها: صحراء النفوذ، والربع الخالي الذي يمتد حتّىٰ حواشي الخليج الفارسي. وقديما كان يسمّىٰ قسم منه بصحراء الدهناء والقسم الآخر بالأحقاف.

وهذه الصحاري تشكل اكثر من ثلث الجزيرة غير المسكون بلا ماء ولا كلأ إلّا ما قد يوجد فيها من آثار الامطار فيرعىٰ حولها بعض العرب ابلهم لفترة غير طويلة. والجو فيها حار جدّاً، وجاف كذلك إلّا في بعض السواحل، وبعض النقاط المعتدلة نسبياً. ولذلك لا يتجاوز عدد نفوسها بمجموعها عن عشرين مليوناً تقريباً.

وكانت جبال اليمن قديماً تحتوي علىٰ الاحجار الكريمة وشيء من الذهب والفضة، وغالباً ما كانوا يكتفون من تربية الحيوانات بالابل والخيل، ومن الطيور كان اكثر ماعندهم النعام والحمام. وفي الجزيرة جبال تمتد من الجنوب إلىٰ الشمال آخر حد لارتفاعها ٢٤٧٠ متراً.

ونشرح هذه الاقسام الثلاثة من الجزيرة فيما يلي:

١ـأمّا الحجاز، وهو القسم الشمالي والغربي للجزيرة، فهو يمتدّ من الاردن إلىٰ اليمن في سواحل البحر الاحمر، وهي اراضي جبلية صخرية تتخللها صحاري قاحلة.

ولهذه المنطقة ذكر في التأريخ اكثر من غيرها وذلك لاشتمالها علىٰ الكعبة المعظمة.

الكعبة المعظمة ومكة المكرمة:

«وقد كانت الكعبة مقدسة معظمة عند الامم المختلفة: فكان الهنود يعظمونها ويقولون: إنّ روح سيفا ـ وهو الاقنوم الثالث عندهم ـ حلت في الحجر الاسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها احد البيوت السبعة المعظمة، وربّما قيل: إنّه بيت زحل عندهم لقدم عهده وطول بقائه.

وكان سائر الفرس يحرمونها أيضاً زاعمين أنّ روح هرمز قد حل فيها، وربّما حجوا اليها زائرين.

وكان اليهود يعظمونها ويعبدون اللّه فيها علىٰ دين إبراهيم، وكان بها صور وتماثيل، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل وبايديهما الازلام، ومنها صورة المسيح وامه، وهذا يشهد بتعظيم النصارىٰ لها أيضاً.

وكان العرب يعظمونها أيضاً كلّ التعظيم ويحجون اليها علىٰ انها بيت اللّه بناها إبراهيم»[1].

ومدينة مكة من اشهر مدن العالم، واكثر مدن الحجاز نفوساً. وهي ترتفع عن سطح البحر ٣٠٠ متراً تقريباً. عدد نفوسها اليوم ١٥٠ الفاً تقريباً. وتربتها غير زراعية.

وللحجاز ميناءان علىٰ البحر الاحمر: احدهما: جدة[2]، وهي ميناء مكة والآخر: ينبع، وهي كانت ميناء أهل المدينة المنورة سابقا، واليوم اصبحت جدة هي الميناء الرئيسي في الحجاز. وفي الحجاز من المدن المهمة بعد مكة: المدينة، والطائف.

المدينة المنورة:

وهي تقع في شمال مكة علىٰ بعد (٣٥٠ كم) تقريباً. وفي حواليها نخيل وبعض

---

(١) الميزان ٣: ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) جِدّة: بكسر الجيم، بمعنىٰ الصخور الساحليّة. وفيها قبر بطول سبعة أمتار = خمسة عشر ذراعاً منسوب إلىٰ حوّاء أُمّ البشر، قيل: ولذلك سمّيت جَدّة ـ بفتح الجيم ـ أي مرقد جدّة البشر! ولا يصحّ.

البساتين لصلاح تربتها للزراعة نسبياً. وكان اسمها قبل الإسلام يثرب، وبعد هجرة الرسول ﷺ إليها سميت: مدينة الرسول، وحذف المضاف اليه تخفيفاً فقيل: المدينة.

ويقال: إنّ العمالقة أوّل من سكنوا المدينة أو يثرب، وظلّوا بها حتّىٰ نـزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي علىٰ اثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين، والمظنون أنّهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلىٰ الجزيرة علىٰ إثر ضغوط القيصر نينوس عليهم وهدمه لهيكلهم سنة ٧٠ م وكذلك اصطدام القيصر هوريان بهم سنة ١٣٢ م ففي هذه الأثناء فرّ كثير منهم إلىٰ الحجاز[١].

ونرى أنّ الحجاز منطقة جرداء تقريباً لا تصلح للزراعة والعمل، فـهي لا تصلح للسكنىٰ والحياة... وهذا قد جعل المنطقة في مأمن من فرض السيطرة عليها من قبل الدولتين العظميَين آنذاك: الروم والفرس، ولذلك لا نرى لهم أي أثرٍ فيها، إذ لم يكن لهم أي مغنم في تجهيز الجيوش إليها، فهم ان فعلوا ذلك كان عـليهم أنْ يرجعوا عنها خائبين خاسرين.

وقد نقل بعض المؤرخين اليونانيين: أنّ القائد اليوناني الكـبير: دمـريوس، عزم علىٰ تسخير الجزيرة حتّىٰ وصل إلىٰ قرية: پترا ـ ولعلها مـاء بـدر ـ فـقال له أهلها: أيّها القائد اليوناني! لماذا تحاربنا؟ فنحن نعيش في صحاري ليس فـيها أي شيء للعيش، وقد اخترنا هذه الصحارى القاحلة الجرداء كي لا نذعن لأمر احد، فاقبل هدايانا وانصرف عنا. والاّ فنحن نعلمك أنّك سـتصاب بمـصائب عـظيمة ومشاكل كثيرة؛ واعلم أنّ أحدنا لا ينفكّ عمّا هو عليه من الخـلق والعـادة، فـلو تقدمت فينا وأسرت منّا أُناساً تريد أنْ تذهب بهم فإنّك لن ترىٰ نفعاً فيهم فإنّهم سوف يقابلونكم بسوء الأعمال والنيّات لا يغيرون شيئاً ممّا هم عليه!

---

(١) راجع: الجزء السادس من تأريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي.

فقبل القائد اليوناني هداياهم وانصرف عن تسخير الجزيرة[١].

٢ ـ القسم المركزي والشرقي من الجزيرة يسمى الصحراء العربية وفيها صحراء النجد، وهي أراضي مرتفعة نسبيّاً وفيها قرىٰ عامرة كذلك، منها «الرياض» التي أصبحت في سلطة آل سعود عاصمة لهم، وهي الآن مدينة كبيرة.

٣ ـ القسم الجنوبي الغربي للجزيرة يسمّىٰ: اليمن، طولها من الشمال إلىٰ الجنوب يقرب من سبعمئة وخمسين كيلومتراً، ومن الغرب إلىٰ الشرق يقرب من اربعمئة كيلومتراً، وتقرب مساحتها من ستين ألف ميل مربع، في جنوبها مدينة: عدن، وهي اكبر مدن اليمن، ويحدها من الشمال صحراء نجد ومن المشرق صحراء الربع الخالي، ومن المغرب البحر الاحمر، وأكبر موانئها ميناء: الحُدَيدة.

واليمن هي اخصب نقاط الجزيرة واكثرها بركة ونعمة، ولها تأريخ حضاري عظيم، فهي مملكة التبابعة الذين حكموها سنين طويلة. وكانت المركز التجاري المهم ومفترق الطرق، وبها الاحجار الكريمة والذهب والفضة. وبها آثار حضارية ما زالت باقية حتّىٰ اليوم. وهذا يعني أنّ عرب اليمن كانوا قد بنوا هذه الاثار المهمة بهممهم العالية في عهد لم تتوفر فيه الامكانات لهذه الاعمال الضخمة. وكانوا قد تقدموا في الزراعة والري إلىٰ حد تقرير البرامج المقررة والمنفذة حكومياً بدقة.

فمن آثارهم التاريخية ذلك السد المعروف بسد مأرب، والذي ما زالت آثاره باقية، وهو الذي تهدم بالسيل الذي اطلق عليه القرآن الكريم قوله سبحانه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ وذلك حيث قال تعالىٰ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ

(١) بالفارسيّة، تمدن اسلام وعرب: ٩٤.

وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

وفي سورة قريش إشارة إلىٰ تجارتهم في الشتاء إلىٰ اليمن ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[٢].

يقول جرجي زيدان: «إنّ الآثار التي ظهرت من الحفريات الاثرية للمستشرقين تدل علىٰ الحضارة الراقية في اليمن من سد مارب وفي صنعاء، ومدينة بلقيس. وكانت في مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ) قصور عالية قد زينت ابوابها وسقوفها بالذهب، ووجد بها أوانٍ من الذهب والفضة، وسرر معدنية كثيرة»[٣].

وروىٰ الشيخ الطبرسي عن فروة بن مُسيك قال: سألت رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن سبأ أرجل هو أم امرأة؟ فقال هو رجل من العرب ولد عشرة، تيامن منهم ستة وتشاءم اربعة، فأمّا الذين تيامنوا فالازد وكندة ومَذْحِج والأشعريون وأنمار وحِمْيَر. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأمّا الذين تشاءموا فعاملة وجَذام ولَخْم وغَسّان[٤].

وفي «الكافي» باسناده عن سَدير: قال: سأل رجل أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول

---

(١) سبأ: ١٥ ـ ٢٠.

(٢) قريش: ١ ـ ٤.

(٣) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٩٦.

(٤) مجمع البيان ٨: ٦٠٤، طبعة بيروت.

اللّه عزّ وجلّ: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية، فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرىً متّصلة ينظر بعضهم إلىٰ بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نعم اللّه عزّ و جلّ وغيّروا ما بأنفسهم من عافية اللّه فغيّر اللّه ما بهم من نعمة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[١] فأرسل اللّه عليهم سيل العرم، فغرّق قراهم وخرّب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنانهم ﴿ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ثمّ قال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[٢].

وقوم سبأ من العرب العاربة باليمن، سمّوا باسم أبيهم سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، كما نقل رواة التأريخ.

العرب قبل الإسلام:

١ ـ العرب البائدة:

لاريب في أنّ جزيرة العرب كانت موطن قبائل كثيرة من العرب منذ القدم، وقد باد بعضهم علىٰ اثر حوادث خاصة سماوية وارضية، وذلك لاعراضهم عن ذكر اللّه كما قال تعالىٰ في قوم سبأ: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ... ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ... وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ﴾[٣] ولذلك سمّي هولاء بالبائدة.

ولعلّ منهم قوم عاد المُعاد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من عشرين مرّة وقوم ثمود المكرر ذكرهم في القرآن الكريم اكثر من خمس وعشرين مرّة.

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الميزان ١٦: ٣٢٤.

(٣) سبأ: ١٦ ـ ٢٠.

أ ـ عاد قوم هود عليه السلام:

أمّا عاد فإنّهم قومٌ من العرب من بشر ما قبل التأريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم، ولا يحفظ التأريخ من حياتهم إلّا أقاصيص لا يُطمأنّ إليها، وليس في التوراة الموجودة ذكر لهم.

والذي يذكره القرآن الكريم من قصّتهم هو: أنّ عاداً كانوا يسكنون وادي أو صحراء الأحقاف[1] وهو واد بين عمان وأرض مهرة إلىٰ حضرموت والأحقاف هي الرمال الملتوية. وأنّهم من ذرّية من حملهم الله مع نوح عليه السلام وكانوا ذوي خلقة قوية عظيمة وطوالاً[2] وكان لهم تقدّم ورقيّ في المدنية والحضارة، ولهم بلاد عامرة وأرض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم وبعث الله فيهم أخاهم هوداً يدعوهم إلىٰ الحقّ ويرشدهم إلىٰ أنْ يعبدوا الله ويرفضوا عبادة الاوثان ويعملوا بالعدل والرحمة[3]، فبالغ في وعظهم وبث النصيحة فيهم وأنار الطريق وأوضح السبيل، وقطع عليهم العذر، فقابلوه بالاباء والامتناع، وواجهوه بالجحد والانكار، ولم يؤمن به إلّا شرذمة منهم قليلون، وأصرّ جمهورهم علىٰ البغي والعناد، ورموه بالسفه والجنون، والحوا عليه بان ينزل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعدهم به، فأرسل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه الّا جعلته كالرميم[4] كانت تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخلٍ منقعر[5]، ريحاً صرصراً في أيّام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترىٰ القوم فيها صرعىٰ كأنّهم أعجاز

---

(١) الأحقاف: ٢١.

(٢) الأعراف: ٦٩، والسجدة: ١٥، والشعراء: ١٣٠.

(٣) الشعراء: ١٣٠.

(٤) الذاريات: ٤٣.

(٥) القمر: ٢٠.

نخل خاوية[١] تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرىٰ إلّا مساكنهم[٢]. فأهلكهم اللّه جميعا إلّا هوداً والذين آمنوا معه[٣] ولعلّه لهذا يسمّي عاداً المهلكة بعادٍ الأُولىٰ[٤] والأُخرى هي الباقية منهم.

ب ـ ثمود قوم صالح عليه‌السلام:

وأمّا ثمود فهم قومٌ من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرىٰ بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التأريخ أيضاً لا يضبط التأريخ إلّا شيئاً يسيراً من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم، ولا اعتماد علىٰ ما يذكر من جزئيات قصصهم.

والذي يقصّه كتاب اللّه من أخبارهم هو: أنّهم كانوا أُمّة من العرب يدلّ عليه اسم نبيّهم صالح عليه‌السلام وهو منهم[٥] جاءوا بعد قوم عاد، وكانت لهم حضارة ومدنية، يعمرون الارض ويتّخذون من سهولها قصوراً ويتّخذون من الجبال بيوتاً آمنين[٦]، ويفجّرون العيون ويحرثون ويغرسون جنّات النخيل[٧]، وكان في مدينتهم شعوب وقبائل يتحكّم فيهم شيوخهم وسادتهم، وفيهم تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون[٨] فلمّا أسرفوا في أمرهم أرسل اللّه إليهم صالحاً النبي عليه‌السلام،

---

(١) الحاقّة: ٧.

(٢) الأحقاف: ٢٥.

(٣) هود: ٥٨.

(٤) النجم: ٥. بل الأولى أن يقال: ان الأُولى هنا بمعنى القديمة وليست الأُولى العددية.

(٥) هود: ٦١.

(٦) الأعراف: ٧٤.

(٧) الشعراء: ١٤٨.

(٨) النمل: ٤٨.

وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاءة[١] فدعاهم إلىٰ توحيد اللّٰه سبحانه وأنْ يتركوا عبادة الاصنام وأنْ يسيروا في مجتمعهم بالعدل والاحسان وأنْ لا يطغوا ولا يسرفوا[٢] فقام بالدعوة إلىٰ دين اللّٰه بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر علىٰ الأذىٰ في جنب اللّٰه، فلم يؤمن به إلّا جماعة قليلة من الضعفاء[٣].

أمّا الطغاة والمستكبرون وعامة من تبعهم فقد اصرّوا علىٰ كفرهم واستذلّوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر[٤] وطلبوا منه البيّنة علىٰ كلامه وسألوه آية معجزة تدلّ علىٰ صدقه في دعوىٰ الرسالة، واقترحوا له أنْ يخرج لهم من صخر الجبل ناقة، فأتاهم بناقة علىٰ ما وصفوها له، وقال لهم: إنّ اللّٰه يأمركم أنْ تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفّوا عنها يوماً فتشربها الناقة، فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، وأنْ تذروها تأكل في أرض اللّٰه ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب[٥] وكان الأمر علىٰ ذلك حيناً. ثمّ إنّهم مكروا وطغوا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقرها. وقالوا لصالح: إئتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال صالح عليه السلام: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيّام ذلك وعد غير مكذوب[٦].

ثمّ مكرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح ﴿ **تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾[٧] ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ**

---

(١) هود: ٦٢، والنمل: ٤٩.

(٢) هود والشمس.

(٣) الاعراف: ٧٥.

(٤) الاعراف: ٦٦، والشعراء: ١٥٣، والنمل: ٤٧.

(٥) الاعراف: ٧٢، والشعراء: ١٥٦، وهود: ٦٤.

(٦) هود: ٦٥.

(٧) النمل: ٤٩.

وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[١] ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[٢] ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٣].

وفي «الكافي» بسنده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾[٤]. قال: بعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه وكانت صخرة يعظّمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كلّ سنة ويجتمعون عندها. فقالوا: إن كنت كما تزعم نبيّاً رسولاً فادعُ لنا إلٰهك حتّىٰ يخرج لنا من هذه الصخرة الصمّاء ناقة عشراء (أي ذات حمل في الشهر العاشر) فأخرجها الله كما طلبوا منه (و) أوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إليه: أنْ يا صالح قُل لهم: إنّ الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم ولكم شرب يوم.

فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم، فيحبسونها فلا يبق صغير ولا كبير إلّا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلىٰ مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ إنّهم عتوا علىٰ الله ومشىٰ بعضهم إلىٰ بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أنْ يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثمّ قالوا: مَن الذي يلي قتلها ونجعل له جعلا ما أحب؟! فجاءهم رجل أحمر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب، يقال له: قدّار، شقي من الأشقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً.

---

(١) الذاريات: ٤٤.

(٢) الأعراف: ٧٨.

(٣) النمل: ٥٣.

(٤) القمر: ٢٣، ٢٤.

فلما توجّهت الناقة إلىٰ الماء الذي كانت ترده تركها حتّىٰ شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف فلم يعمل شيئاً فضربها ضربةً أُخرىٰ فقتلها، وخرّت علىٰ الأرض علىٰ جنبها وهرب فصيلها حتّىٰ صعد إلىٰ الجبل، فرغا ثلاث مرّات إلىٰ السماء وجاء قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلّا شركه في ضربته واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلّا أكل منها.

فلما رأىٰ صالح ذلك أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلىٰ ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربّكم؟ فأوحىٰ اللّه تبارك وتعالىٰ إلىٰ صالح عليه السلام: إنّ قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها اللّه إليهم حجّة عليهم، ولم يكن لهم فيها ضرر، وكان لهم أعظم المنفعة، فقل لهم: إنّي مرسلٌ إليهم عذابي إلىٰ ثلاثة أيّام فإن هم تابوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، و إن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح وقال: يا قوم إنّي رسول ربّكم إليكم وهو يقول لكم: إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم.

فلما قال لهم ذلك كانوا أعتىٰ وأخبث ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] قال: يا قوم إنّكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة، واليوم الثاني وجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة.

فلمّا كان أوّل يوم أصبحوا ووجوههم مصفرّة فمشىٰ بعضهم إلىٰ بعض وقالوا قد جاءكم ما قال صالح. فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً. فلمّا كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرّة، فمشىٰ بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: لو أهلَكَنا جميعاً ما

(١) الأعراف: ٧٧.

سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا، فلمّا كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودّة فمشىٰ بعضهم إلىٰ بعض فقالوا يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح.

فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح. فلمّا كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم، فماتوا جميعاً في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم، ولم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلّا أهلكه الله، وأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتىٰ، وأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين[1].

٢ ـ القحطانيّون: هم ابناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يسكنون اليمن وجنوب جزيرة العرب، ويسمّون بالعرب العاربة أيضاً. واليمنيّون اليوم بصورة عامة والأوس والخزرج هم من نسل قحطان. وقد سبق أنّ قوم سبأ أيضاً كانوا من نسل قحطان، وكانت لهم حكومات ومساعٍ عمرانية وحضارية أثرية ولهم خط يسمّىٰ بالخطّ المسند. وكلّ ما يقال عن حضارة العرب قبل الإسلام فإنّما هو من هؤلاء في اليمن.

٣ـ العدنانيون المضريون: وهم ابناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي قد تبين لنا أنّه أُمر بأن يذهب بابنه إسماعيل وأُمّه هاجر إلىٰ أرض مكّة، فسار بهم إبراهيم عليه السلام من أرض فلسطين إلىٰ بطن وادٍ منخفض بلا ماء ولا كلأ باسم مكّة، فأجرىٰ الله لهم ماء زمزم. وكبر إسماعيل فتزوّج من قبيلة جرهم الذين استأذنوا إبراهيم أنْ يسكنوا مكة فأذِن لهم، فكان لإسماعيل نسل كثير، ومن أحفاده عدنان، وقد تفرّعت منه فروع عديدة أشهرها قبيلة قريش في مكة وحولها، وثقيف

---

(١) الميزان ١٠: ٣١٤، ٣١٦.

في الطائف، وقيس عيلان في نجد، وعبد القيس في البحرين، وبنو خيفة في اليمامة، وضبّة وتميم في صحراء الدّهناء، وبكر عشائر بكر في الشمال الشرق إلى البحرين ويمامة، ومعهم تغلب، وأسد في شمال نجد، وكنانة وهذيل إلى مكة. وأهم عشائر قريش: هاشم وأُمية ومخزوم وتيم وجمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة وعدي.

أخلاق العرب قبل الإسلام:

ونعني بالأخلاق هنا تلك الآداب الإجتماعيّة التي كانت رائجة بينهم قبل الإسلام. وبصورة عامّة نستطيع أنْ نلخّص الخصال المحمودة العامة للعرب في بضعة سطور فنقول:

إنّ عرب الجاهليّة ـ ولا سيّما العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام ـ كانوا بالطبع أسخياء يكرمون من استضافهم، ولا يخونون أماناتهم إلّا قليلاً، ويَرَوْنَ نقض العهد ذنباً لا يُغتفر، وكانوا صريحين في أقوالهم، أقوياء في حفظهم، أقوياء في فنون من الشعر والخطابة، يُضرَب بهم المثل في شجاعتهم وجرأتهم، مَهَرَة في ركض الخيل والرمي، يرون الفرار من الزحف عاراً لا يُغتسل.

وفي مقابل هذه الصفات كانوا قد تلوّثوا من مساوىء الأخلاق بما يذهب بكل كمال من هذه الخصال ولولا أنْ تداركهم رحمة من ربّهم بأن بعث فيهم رسولاً من انفسهم يزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، لما كنّا نعايش اليوم نسلا من عدنان، بل كانوا قد التحقوا بالعرب البائدة، وكانت تتجدّد قصّة أُخرىٰ عن هؤلاء البائدين.

إنّ شيوع الجهل والخرافات والفساد فيهم كان قد قرّب حياتهم من حياة الحيوانات، بحيث ينقل لنا التأريخ قصصاً متعددة عن حروب امتدّت خمسين سنة بل مائة، ولم تبدأ إلّا علىٰ مواضع حقيرة لا يعبأ بها.

إنّ عدم وجود حكومة متنفّذة بينهم تضرب علىٰ أيدي الطغاة والبغاة من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ سوء الوضع الجغرافي للجزيرة من حيث الماء والكلأ، كانا عاملين جعلا أكثر العرب من البدو الرحّل يجوبون الصحاري برواحلهم كلّ عام سعياً وراء الماء والكلأ، وإذا رأوا أثراً منهما نصبوا خيامهم حولها، وإذا علموا ـ أو أخبرهم رائدهم ـ بمكان أنفع ممّا هم فيه بدأوا الرحلة من جديد.

إنّ الجهل والفقر وفقدان النظام كان قد خيّم علىٰ بيئة الجزيرة العربية بصورة ظاهرة بحيث أصبحت لهم تلك العادات القبيحة اموراً اعتيادية، فكثرت فيهم الغارات، واسر بعضهم، وتداول فيهم الربا والخمر والميسر.

انّهم كانوا يثنون علىٰ المروّة ويمجّدون بالشجاعة، لكنّ مفهوم الشجاعة لديهم كان عبارة عن قتل أكبر عدد ممكن وسفك الدّماء أكثر فأكثر. وكذٰلك الغيرة كانت لديهم بمعنىٰ وأد البنات في القبور و هنّ أحياء. ويرون الوفاء أنْ ينصروا عشيرتهم وحلفاءهم في كلّ شيء سواء كانوا علىٰ حقٍّ أم باطل:

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات علىٰ ما قال برهانا(١)

هل كانت للعرب حضارة قبل الإسلام؟

لا شكّ أنّه كانت هناك في جزيرة العرب بعض الحضارات، إلّا أنّها لم تكن في كلّ الجزيرة بل عدّة نقاط منها، كحضارة قوم سبأ أصحاب سدّ مأرب في اليمن، فإنّها حضارة لا تُنكر، ففضلاً عمّا ذكر عنها في التوراة الحاضرة وما نقل عن «هرودوت» و«ارتميدور» المؤرخَين اليونانيَّين قبل الميلاد، نرىٰ المؤرخ الشهير المسعودي يقول في وصفها:

---

(١) لقريط بن أُنيف من شعراء الجاهلية، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢٧ ـ ٢٩.

«ذكر أصحاب التأريخ القديم: أنّ أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً، مع بنيان حسن وشجر مصفوف، ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرّقة. وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدّ علىٰ هذه الحالة، وفي العرض مثل ذلك، وإنّ الراكب والمارّ كان يسير في تلك الجنان من أوّلها إلىٰ أنْ ينتهي إلىٰ آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه لاستتار الأرض بالعمارة الشجريّة. واستيلائها عليها وإحاطتها بها. وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه، وأهنأ حال وأرغد قرىً، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفّق الماء، وقوّة الشوكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة، وكانت بلادهم في الأرض مثلاً، وكانوا علىٰ طريقة حسنة من اتّباع شريف الأخلاق، وطلب الأفضال بحسب الإمكان وما توجبه القدرة من الحال، فمكثوا علىٰ ذلك ما شاء اللّه من الأعصار، لا يعاندهم ملك إلّا قصموه، ولا يوافيهم جبّار في جيش إلّا كسروه، فذلّت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض»(١).

إلّا أنّ وجود هذه المستندات لا تدلّنا علىٰ حضارة تسود كلّ أقطار الجزيرة العربيّة، ولا سيّما منطقة الحجاز التي لم تكن تتمتّع بهذه الحضارة بل لم تشمّ شيئاً من نسيمها، وهذا هو الذي جعلها مصونة عن تصرّف المتصرّفين بالبلاد، فلم يتوجّه إليها نَهَمُ الروم والفرس اللذين كانا يقتسمان العالم آنذاك. والمقطوع به هو أنّه لم يَبْقَ من هذه الحضارة حين ظهور الإسلام شيءٌ يُذْكر.

ونحن هنا نأتي بذكر قصّة أسعد بن زرارة الخزرجي، التي تبيّن لنا نقاطاً كثيرةً من حياة الناس في الحجاز: روىٰ الشيخ الطبرسي في كتابه «إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ» عن علي بن إبراهيم أنّه قال:

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٦١.

«كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث وكانت للأوس علىٰ الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلىٰ مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف علىٰ الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لا نتفرّغ معه لشيء!

قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟

قال عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول اللّه، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟

قال: ابن عبد اللّه بن عبد المطّلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم ـ النضير وقريظة وقينقاع ـ: إنّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة، لنقتلنّكم به يا معشر العرب.

فلمّا سمع أسعد ما سمع من عتبة وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، وقال: فأين هو؟

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب فقال عتبة: إنّهم لا يخرجون من شعبهم إلّا في الموسم، وها هو جالس في الحجر، فلا تسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه.

فقال أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لا بدّ لي أنْ أطوف بالبيت؟

فقال: ضع في أُذنيك القطن. فحشا أسعد في أُذنيه القطن ودخل المسجد ورسول اللّه جالس في الحجر مع قومٍ من بني هاشم، فطاف أسعد بالبيت ونظر إلىٰ

رسول اللّه نظرةً وجازه، فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي! أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا نعرفه حتّىٰ أرجع إلىٰ قومي فأُخبرهم؟! فأخذ القطن من أُذنَيه ورمىٰ به وقال لرسول اللّه: أنعم صباحاً!

فرفع رسول اللّه رأسه إليه وقال: قد ابدلنا اللّه به ما هو أحسن من هذا، تحيّة أهل الجنة: السلام عليكم.

فقال اسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب! إلامَ تدعو؟ يا محمّد!

قال: إلىٰ شهادة أنْ لا إله إلّا اللّه وأنّي رسول اللّه، وأدعوكم ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

فلمّا سمع أسعد هذا قال: أشهد أنْ لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له وأنّك رسول اللّه»[٢].

كانت هاتان الآيتان من سورة الأنعام تتضمنان الدّاء والدّواء لأُمّة متحاربة جاهلة، ولذلك خلّفت أثراً عميقاً في قلب أسعد وذكوان الخزرجيّين فأسلما فوراً.

إنّ النظر في مُفاد هاتَين الآيتَين يغنينا عن أي بحث آخر عن أوضاع العرب قبل الإسلام، فإنّ هاتين الآيتين تبيّنان ما كان يسود حياة العرب في الجاهليّة

---

(١) الانعام: ١٥١، ١٥٢.

(٢) إعلام الورىٰ ١ : ١٣٦ ـ ١٣٨.

من الأمراض الخلقيّة المزمنة، و إنّ مضمون هاتين الآيتين شاهد علىٰ ابتلاء العرب بجميع هذه الأوصاف الرذيلة، ولهذا تلاهما رسول اللّه علىٰ أسعد في أول لقائه به وبذلك عرّفه برسالته.

الدين في جزيرة العرب:

إنّ آيات القرآن الكريم تشير إلىٰ أرباب العرب وآلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم، والقرآن ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وفيه الكفاية:

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾[١].

وإذا كانت إيران قد اتّخذت الزرادشتية (المجوسية) ديناً رسميّاً لها طلباً للاستقلال العقائدي عن الروم المسيحيّة[٢]، وهما في حرب دؤوب، فطبيعي أنْ تحاول إيران نشر عقيدتها الثنوية بالإلهين: إله الخير وإله الشرّ بين الشعوب المغلوبة المستعمرة لها من حولها، فتتفشّت المجوسية في بعض القبائل العربية من تميم والبحرين وعمان واليمن[٣] ونحن نعلم أنّ المجوس ثنويّون يؤمنون بإلهين يدبّران العالم فللخير يزدان وللشرّ اهريمن ولهما رمزان فليزدان الخير النور، ولاهريمن الشرّ الظلمة.

أمّا أكثر العرب في الجاهليّة فكانوا وثنيّين يؤمنون بقوىً الهية كثيرة منبثّة في مظاهر الطبيعة، وبقوىً خفيّة كثيرة في بعض الحيوانات والنباتات

---

(١) سورة ص: ٤ ـ ٧.

(٢) الإسلام وإيران ٢: ٣٢.

(٣) تأريخ العرب قبل الإسلام ٦: ٢٨٤ فما بعد.

وحتىٰ الجمادات، فكانوا يتعبدون لأصنام وحتىٰ أوثان كثيرة اتّخذوها رمزاً لتلك الآلهة ومنها الكواكب والنجوم.

فكان عرب الجنوب في اليمن يرجعون بآلهتهم إلىٰ ثالوث مقدس هو: القمر، واسمه عند المعينيين (أوائل الألف الأوّل قبل الميلاد)[١] وَدّ، وكان إلٰهم الاكبر، وهو الزوج الذكر، ولذلك لفظه مذكر. وتليه الشمس، وهي اللات، وفيها تاء الإناث، ولذا اعتبروها زوجة القمر ولذلك لفظها مؤنث! ومنها ولدت العزّىٰ أي الزهرة أو عشتر، أو فينوس بالرومية، أو ناهيد بالفارسية. ولهم الهات أُخرىٰ رمزاً عن بعض النجوم أو بعض مظاهر الطبيعة أو بعض الطيور، وكانوا قد بنوا عليها الهياكل ويقدمون لها القرابين ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير. وقوافل التجارة والهجرة كانت متبادلة بينهم وبين عرب الشمال العدنانيين أو النزاريين الحجازيين فحملوا دينهم معهم إليهم[٢].

وأشار القرآن الكريم إلىٰ عبادتهم للشمس في قوله سبحانه حكاية عن الهدهد من طيور سليمان بن داود، إذ تفقّدها وكان الهدهد غائباً فلم يره ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ إذ جاء، ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ... * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾[٣]. ويضيف القمر في آية أُخرىٰ تخاطب العرب المشركين: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾[٤].

---

(١) العصر الجاهلي: ٢٥ لشوقي ضيف.

(٢) انظر العصر الجاهلي: ٢٩ لشوقي ضيف. والحياة العربية في الشعر الجاهلي للحوفي: ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٣) النمل: ٢٢ ـ ٢٤.

(٤) فصّلت: ٣٧.

ومن قبل أضاف إليها الكوكب فيما حكاه عن خليله إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ ولعلّه كان عشتر (الزهرة)، ولعلّ الليلة كانت من أواخر الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخّراً فبدأ بالكوكب ثمّ قال: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فالليلة كانت من أوائل العشر الأخيرة من الشهر القمري إذ يظهر القمر متأخّراً ثمّ يأفل ولا يبقىٰ حتّىٰ الصباح، ولمّا بزغت الشمس صباحاً ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ ولعلّه بهذا يعترض علىٰ تقديمهم للقمر (الأصغر) علىٰ الشمس (الأكبر) ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[1].

ولعلّ شرك هؤلاء الصابئة البابليّين هو منشأ شرك أهل اليمن ثمّ الحجاز[2]. أمّا الهدهد فطبيعي أنّه إنّما اهتدىٰ إليهم نهاراً فوجدهم يسجدون للشمس، ولم يذكر القمر والزهرة ولم ينفهما.

وقد أشار القرآن الكريم إليها بأسمائها المعينيّة اليمنيّة لدىٰ النزاريّين الحجازيّين مع خمسة آلهة أُخرىٰ لهم، في آيتين من سورتين هما قوله سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ ثمّ أشار إلىٰ انوثتها لديهم فقال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾[3].

والآية الأُخرىٰ من سورة نوح وعن لسانه عليه السلام ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا

---

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) العصر الجاهلي: ٨٩ لشوقي ضيف.

(٣) النجم: ١٩ ـ ٢١.

لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ ثمّ لم يجعلها إناثاً بل ذكّرها في الضمير إليها فقال: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ ثمّ حكىٰ دعاء نوح عليهم قال: ﴿ وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ﴾[١].

إذن فلغة (ودّ) رجعت إلىٰ أقدم من المعينيّين باليمن (أوائل الألف الأوّل ـ ق م) وإلىٰ أقدم من قوم إبراهيم ببابل العراق (أوائل الالف الثالث ق م) إلىٰ ما قبل الطوفان (أوائل الألف الرابع ق م) ومن حيث المكان قرب مكان إبراهيم ببابل العراق في الكوفة[٢] ولذلك نقل الطوسي في «التبيان» عن الضحاك وابن زيد وقتادة عن ابن عباس قال: هذه الاصنام المذكورة كان يعبدها قوم نوح ثمّ عبدتها العرب فيما بعد[٣].

ونقله الطبرسي في «مجمع البيان» وفي تفصيله نقل عن ابن عباس أيضاً قال: نحت إبليس خمسة أصنام وحمل الكفّار فيما بين آدم ونوح علىٰ عبادتها، وهي: ودّ وسواع ويعوق ويغوث ونسر. فلمّا كان الطوفان دفن تلك الأصنام وطمّها بالتراب فلم تزل مدفونة، حتّىٰ أخرجها الشيطان لمشركي العرب:

فاتّخذت قضاعة ودّاً فعبدوه بدومة الجندل، توارثوه حتّىٰ صار إلىٰ كلب.

وأخذ بطنان من طيّ يغوث فذهبوا به إلىٰ مراد فعبدوه زماناً، ثمّ إنّ بني ناجية أرادوا أنْ ينزعوه منهم ففرّوا به إلىٰ بني الحرث بن كعب، فجاء الإسلام وهو عندهم.

---

(١) نوح: ٢١ ـ ٢٤.

(٢) في روضة الكافي عن الصادق عليه السلام قال: عمل نوح سفينته في مسجد الكوفة... ثمّ التفت وأشار بيده إلىٰ موضع وقال: وهنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر ـ الميزان ٢٠ ـ ٣٥. وعليه فلعلّ هذه الأسماء آرامية دخلت في المعينية.

(٣) التبيان ١٠: ١٤١.

وأمّا يعوق فكان لكهلان (اليمن) ثمّ توارثوه حتّىٰ صار إلىٰ همدان (اليمن) فجاء الإسلام وهو فيهم.

وأمّا نسر فكان لخثعم (اليمن) يعبدونه.

وسواع كان لآل ذي الكلاع (الحميري اليمني) يعبدونه[1].

وفي كيفيّة حمل إبليس لاولئك الأوائل علىٰ عبادتها روى الصدوق في «علل الشرائع» بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: كانوا يعبدون الله فماتوا، فضجّ قومهم وشقّ ذلك عليهم فجاءهم ابليس فقال لهم: اتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم. فأعدّ لهم أصناماً على مثالهم. فكانوا يعبدون الله وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاء الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت، فلم يزالوا يعبدون الله، حتّى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا: إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عزّ وجل، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً ... ﴾[2].

أمّا الآيات فقد أشارت إلىٰ أنّ عبادتها كانت مكراً مكره أصحاب الأموال والأولاد، ولعلّه لاستثمار الضعفاء منهم. ولعلّ في الفصل بين الآلهة وهذه الأصنام في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا ... ﴾ إشارة إلىٰ أنّهم جعلوا هذه الأصنام رموزاً للآلهة لا نفسها.

ثمّ نقل الطبرسي عن قتادة قائمة بنسبة أكثر من هذه الأصنام الخمسة إلىٰ قبائل العرب قال:

إنّ أوثان قوم نوح صارت إلىٰ العرب، فكان ودّ بدومة الجندل. وسواع برهاط لهذيل. وكان يغوث لمراد (اليمن) وكان يعوق لهمدان (اليمن) وكان نسر

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٥٤٧. ونقله السيوطي عن ابن عبّاس أيضاً في الدر المنثور.

(٢) علل الشرائع ١: ١٣، ١٤.

لآل ذي الكلاع من حمير (اليمن) وكان اللات لثقيف، وأمّا العزّىٰ فلسليم وغطفان وجُسم ونضر وسعد، وأمّا مناة فكانت لفديد، وأمّا أساف ونائلة وهُبَل فلأهل مكّة: كان اساف حيال الحجر الأسود، وكانت نائلة حيال الركن اليماني وكان هبل في جوف الكعبة. ونقل عن الواقدي قال: كان ودّ علىٰ صورة رجل، وسواع علىٰ صورة امرأة ويغوث علىٰ صورة أسد، ويعوق علىٰ صورة فرس، ونسر علىٰ صورة نسر من الطير.

ويقال إنّ اللات كانت صخرة مربعة بيضاء بنت عليه ثقيف بيتاً، وكانت قريش وجميع العرب يعظّمونه وكعبتها هي كعبة الطائف[١] ولذلك نرىٰ في أسمائهم: وهْب اللات وعبد شمس.

وكانت مناة ـ آلهة الموت والآجال والأعمار والأقدار ـ صخرة منصوبة علىٰ ساحل البحر بين مكّة والمدينة في هذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يحجّون إلىٰ مكّة ويقفون مع الناس المواقف الثلاثة ولكنّهم لا يحلقون رؤوسهم، ولا يرون تمام حجّتهم إلّا أنْ ينصرفوا إلىٰ مناة فيحلقوا رؤوسهم عندها[٢].

وكانت العزّىٰ شجرة بوادي نخلة شرقي مكّة إلىٰ الطائف لغطفان، حتّىٰ قطعها الإسلام[٣]. وقد جعلوا لها حِمىً شِعباً من وادي الحِراض يقال له سِقام بإزاء الغمير عن يمين المصعِد إلى العراق من مكة بعد ذات العرق بتسعة أميال إلى البستان.

ومن ثنويّتهم في وثنيّتهم ما تدلّ عليه معاني: يعوق ويغوث وسواع، ففي الأخير ما يدلّ علىٰ أنّه كان إله الهلاك والشرّ، وبإزائه يعوق أي يكون عائقاً عنه،

---

(١) الأصنام للكلبي: ١٦، ٢٢ والمحبر لابن حبيب: ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات.

(٢) الأصنام للكلبي: ١٤، والمحبر لابن حبيب: ٣١٦، ومعجم البلدان في مناة.

(٣) الأصنام للكلبي: ١٧ ونقل الطبرسي عن مجاهد ٩: ٢٦٦ ومعجم البلدان في العزّىٰ.

ويغوث أي يغيث منه[١]. ولعلّها في أصلها مقتبسة من ثنويّة المجوسيّة، ولا سيّما أنّهم كانوا يقدّمون قرابين النيران، ويوقدونها لاستمطار السماء والاستسقاء، وعند عقد أيمانهم وأحلافهم[٢].

وكان هبل من عقيق أحمر علىٰ صورة إنسان، يده اليمنىٰ من ذهب. والقداح أمامه، فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده فما خرج انتهوا إليه وعملوا به، ومنه، فعل عبد المطّلب لذبح ابنه عبد الله. ومنها للزواج، ومنها للمواليد، فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هديّة ثمّ ضربوا بسهام الأزلام (القداح) فإن خرج (الصريح) كان الوليد صريحاً في نسبه وأمّا إذا خرج (ملصق) دفعوه[٣].

ومن الأصنام المشهورة: ذو الخلصة، وهو صنم خثعم وبجيلة وأزد السراة، وكان صخرة بيضاء عند منقوطة (مروة) منقوش عليها كهيئة التّاج، وكان في تبالة وله بيت يحجّون إليه[٤] ولا يخفىٰ أنّ تركيب اسم الصنم (ذو الخلصة) يَمَنيّ وكعبتها هي الكعبة اليمانيّة.

وكان في حاضرة إمارة النبط (ق ٣ م ـ ق ٢ م) في «سلع» كما جاء في التوراة: أو «بطرا» كما هو اسمها لدىٰ اليونان ولعلّه ترجمة يونانيّة لسلع العبريّة أو السريانيّة معبد كبير لصنمهم ذي الشري[٥] إله الخَصْبِ والخَمْرِ!

---

(١) العصر الجاهلي: ٩٠ لشوقي ضيف.

(٢) الحيوان للجاحظ ٤: ٤٦١ فما بعد.

(٣) الأصنام للكلبي: ٢٨. وسيأتي تفصيل الأزلام.

(٤) الأصنام للكلبي والمحبّر: ٣١٧

(٥) الأصنام للكلبي: ٣٧ ومادّة الشري في لسان العرب وتاج العروس.

وقال الكلبي في كتابه «الأصنام»: واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فنهم من اتّخذ بيتاً، ومنهم من اتّخذ صنماً، ومن لم يقدر علىٰ بناء البيت ولا اتّخاذ الصنم اتّخذ حجراً من الحرم أو ممّا استحسن ثمّ طاف به كطوافه بالبيت، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجارٍ فنظر إلىٰ أحسنها فاتّخذه ربّاً وجعل الثلاثة الأُخرىٰ أثافي لقدره فإذا ارتحل تركها. وكانوا يذبحون وينحرون عندها ويتقرّبون بذلك إليها[١].

ومن تقديسهم لدماء ذبائحهم القرابين لهياكل الأصنام والأوثان ينصبون لديها أحجاراً هي النصب والأنصاب، يصبّون عليها دماء ذبائحهم التي يتقرّبون بها إلىٰ آلهتهم، فالأنصاب والأزلام كانت من لوازم الأوثان والأصنام في كلام اللّه تعالىٰ: ﴿ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

وكان لها سدنة وحجّاب. وبجانب سدنة البيوت المقدّسة كان هناك كهّان يدّعون أنّه سخّر لهم طائفٌ من الجنّ يسرق لهم السمع فيعرفون منهم ما كتب اللّه للناس في ألواحهم، رجالاً ونساء.

فممّن عُرِف من رجالهم: سطيح الذئبي، وسلمة الخزاعي، وسواد بن قارب الدوسي، وشِقّ بن مصعب الأغاري، وعزّىٰ سلمة، وعوف بن ربيعة الأسدي[٣].

---

(١) الأصنام للكلبي: ٣٣.

(٢) المائدة: ٩٠.

(٣) ابن هشام في السيرة ١: ١٦ والأغاني ٩ و١٥: ٧٠ و٨٤ ويقال: قيل لسطيح: من أين لك هذا العلم؟ قال: من صاحبي من الجنّ كان استمع أخبار السماء حين كلّم اللّه موسىٰ في طور سيناء!

ومن الكاهنات: كاهنة ذي الخلصة، والكاهنة السعديّة، والكاهنة الشعثاء، والزرقاء بنت زهير وطريفة الكاهنة امرأة عمرو بن عامر[١] وكان قد يلتحق ببعضها بغايا أيضاً[٢]، ويسمّون الذي يخبر الكاهن: الرئي.

ولذلك فهم كانوا يؤمنون بالجنّ ويخافونها ويتعبّدونها ويجعلون بينها وبين اللّه نسباً، و إن كانت هي مظاهر الشرّ عندهم، وكما كانوا يجعلون الملائكة بنات اللّه وهي مظاهر الخير والرحمة: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٣] ولعلّها من تنويّة هؤلاء الوثنيّين متسرّبة إليهم من تنويّة المجوس أيضاً.

صحيح أنّ كثيراً من هؤلاء كانوا يعدّون الجنّ والملك والأرواح والأوثان والأصنام من شفعائهم عند اللّه كما حكىٰ القرآن الكريم: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[٤] لكنّها لم تكن للنجاة من النار بل ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾[٥]، ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٦].

ذلك أنّهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[٧]، ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ١ : ١٩ و ٢ : ٥٤ وابن هشام ١ : ١٦ في الهامش .

(٢) المحبر: ١٨٤ .

(٣) الأنعام: ١٠٠ .

(٤) الزمر: ٣.

(٥) مريم: ٨١.

(٦) يس: ٧٤.

(٧) الجاثية: ٢٤ .

بِمَبْعُوثِينَ ﴾[١] ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٢] فلم تكن قرباهم للنجاة من النار.

نعم كان حجّهم الأعظم إلىٰ الكعبة الإبراهيميّة، وقد بقي فيهم منه ومن حجّه بعض السنن مزيجاً بالبدع الجاهليّة: منها أشهر الحجّ المعلومات الحرم: رجب وذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم، فكانت فرصة لبعدائهم عن الأماكن المقدّسة للوصول إليها دون أن تمسّ نذورهم، فكانوا فيها يتّجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ.

ويقول ابن حبيب في «المحبّر»: كانوا يلبّون، فكانت قريش تقول: لبّيك اللّهم لبّيك، لا شريك لك إلّا شريك هو لك، تملكه وما ملك. تخاطب إساف.

وكانت تلبيتهم لودّ: لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك معذرةً إليك.

وكانت تلبيتهم للّات: لبّيك اللّهم لبّيك، كفىٰ بيتنا بنيّه، ليس بمهجورٍ ولا بليّه، لكنّه من تربةٍ زكيّه، أربابه من صالحي البريّه.

وكانت تلبيتهم للعزّىٰ: لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك وسعديك ما أحبّنا إليك.

وكانت تلبيتهم لذي الخلصة: لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك بما هو أحبّ إليك[٣].

فالحُمس من قريش وكنانة وخزاعة يطوفون بثيابهم، والحلّة يطوفون عرايا.

ويصوّر الأزرقي في كتابه «أخبار مكّة» طواف العريان فيقول: يبدأ بإساف فيستلمه ثمّ يستلم الركن الأسود، ثمّ يجعل الكعبة عن يمينه ويطوف سبعاً فإذا ختم

---

(١) الأنعام: ٢٩.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) أخبار مكّة للأزرقي ١: ١١٤.

استلم الحطيم أو ركن الحجر الأسود ثمّ استلم نائلة فختم طوافه، ثمّ يخرج فيجد ثيابه فيلبسها ويمضي[١].

وقد فصّل الكلبي المؤرّخ الشهير المتوفّىٰ في ٢٠٦هـ ديانات العرب قبل الإسلام فقال:

«إنّ حِمْيَر كانت تعبد الشمس وكنانة كانت تعبد القمر وقيس كانت تعبد الشعرىٰ، ولَخْم كانت تعبد المشتري، وطيء كانت تعبد نجمة السهيل، وأسد كانت تعبد العطارد، وتميم كانت تعبد الدَبْران، وبنو مليح كانوا يعبدون الجنّ، وأكثر العرب الأوثان والأصنام.

وإنّ أوّل من جاء بها إلىٰ مكّة هو: عمرو بن لُحيّ، وكانوا في أوّل أمرهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾[٢] ثمّ رأوا فيهم قوّة دون قدرة اللّه، فكانوا يتمسّحون بها إذا أرادوا السفر، واتّخذوا من أحجار الصحراء أصناماً يعبدونها كما يتّخذون عدداً آخر منها أثافي لقدورهم. كانوا يرون أنّهم بالقربان للأوثان يجلبون رضاها، فإذا قرّبوا لها قرباناً تلطّخوا بدمائه، وكانوا يتقاسمون بالأزلام عندها، وهي سهام اصطلحوا علىٰ بعضها أنّها أمرٌ وعلىٰ بعضها الآخر أنّها نهيٌ، فيعملون كما تخرج لهم، وقد أصبحت الكعبة بيتاً مركزيّاً للأوثان أكثر من ثلاثمائة وستّين، منها اللات والعزّىٰ ومناة، اللاتي كانت قريش تزعم أنّها بنات اللّه تعالىٰ فتعبدها واللات بدورها أمّ سائر الآلهة وكان مقرّها بالطائف، وأمّا مناة فهي ربّ الأعمار والآجال، ومقرّها بين مكّة والمدينة»[٣].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) الأصنام للكلبي: ١٦ و ٢٢.

أزلام العرب:

قال تعالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوقوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنطيحة وَما أَكَلَ السَبُعُ إلّا ما ذَكَّيْتُمْ وَما ذُبِحَ عَلىٰ النُصُبِ وَأنْ تَسْتَقْسِموا بِالأَزْلام ذٰلِكُمْ فسْق ﴾[١].

قال القميّ في تفسيره للنُصب: إنّ قريشاً كانوا يعبدون الصخور فيذبحون لها. و«الأزلام» كانوا يعمدون إلىٰ الجزور فيجزئونه عشرة أجزاء، ثمّ يجتمعون عليه فيخرجون سهاماً عشرة: سبعة لها أنصباء وثلاثة لا أنصباء لها، فالتي لها أنصباء هي: الفذّ والتوأم، والمُسبل، والنافِس، والحَلْس، والرقيب، والمُعلّىٰ؛ فالفذّ له سهم، والتوأم له سهمان، والمُسبل له ثلاثة أسهم، والنافِس له أربعة أسهم، والحلْس له خمسة أسهم، والرقيب له ستّة أسهم، والمُعلّىٰ له سبعة أسهم.

والتي لا أنصباء لها هي: السفْح، والمنيح، والوغد. وكان ثمن الجزور علىٰ من لم يخرج له من الأنصباء شيء. وهذا قمار، حرّمه اللّه عزّ وجلّ[٢].

وقد عقد اليعقوبي في تأريخه فصلاً خاصّاً بعنوان «أزلام العرب» قال فيه: «وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كلّ أُمورها، وهي القداح، ولا يكون لها سفر ولا مقام ولا معرفة حال إلّا رجعت إلىٰ القداح.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) تفسير القمّي ١: ١٦١، ١٦٢ وعنه في مجمع البيان ٣: ٢٤٤ عن الصادقين عليهما السلام. وقال الطوسي في التبيان ٣: ٤٣٣: هي سهام كانت للجاهليّة، مكتوب علىٰ بعضها: أمرني ربّي، وعلىٰ بعضها: نهاني ربّي. فإذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتمّ به ضربوا تلك القداح، فإن خرج الأمر مضىٰ لحاجته، وإن خرج النهي لم يمض، وإن خرج ما ليس عليه شيء اعادوها. فبيّن اللّه تعالىٰ أنّ ذلك يحرم العمل به. ونقله في مجمع البيان عن الحسن وجماعة من المفسّرين: مجمع البيان ٣: ٢٤٤.

وكانت القداح سبعة: فواحد عليه «اللّه عزّ وجلّ» والآخر «لكم» والآخر «عليكم» والآخر «نعم» والآخر «منكم» والآخر «من غيركم» والآخر «الوغد».

فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلىٰ القداح فضربوا بها ثمّ عملوا بما تخرج القداح، لا يتعدّونه ولا يجوزونه. وكان لهم أُمناء علىٰ القداح لا يثقون بغيرهم.

وكانت العرب إذا كان الشتاء وناهم القحط وقلّت ألبان الإبل استعملوا الميسر بالأزلام، فضربوا بالقداح وتقامروا عليها إلّا أنّ قداح الميسر عشرة: سبعة منها لها أنصب، وثلاثة لا أنصب بها. فالسبعة التي لها أنصب يقال لأوّلها «الفذ» وله جزء واحد، و«التوأم» وله جزءان، و«الرقيب» وله ثلاثة أجزاء، و«الحلس» وله أربعة أجزاء، و«النافس» وله خمسة أجزاء، والثلاثة التي لا أنصب لها يقال لها: المنيح والسفيح والوغد.

فكانت الجزور تشترىٰ بما بلغت ولا ينقد الثمن، ثمّ يدعىٰ الجزّار فيقسّمها عشرة أجزاء، فإذا قسّمت أجزاؤها علىٰ السواء أخذ الجزّار الرأس والأرجل، ثمّ أُحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحيّ، فأخذ كلّ فرقة علىٰ قدر حالهم ويسارهم وقدر احتمالهم، فيأخذ الأوّل الفذّ والثاني التوأم وكذلك سائر القداح علىٰ ما سمّينا منها.

فإذا عرف كلّ رجل منهم قدحه دفعوا القداح إلىٰ رجلٍ أخسّ لا ينظر إليها معروف أنّه لم يأكل لحماً قطّ بثمن ويسمّىٰ «الحرضة» يؤتىٰ «بالمجعول» وهو ثوب شديد البياض فيجعل علىٰ يده، ويعمد إلىٰ «السلفة» وهي قطعة من جراب فيعصّب بها علىٰ كفّه لئلّا يجد مسّ قدح يكون له في صاحبه هوىٰ فيخرجه، ويأتي رجل فيجلس خلف الحرضة يسمّىٰ «الرقيب» ثمّ يفيض الحرضة بالقداح فإذا نشز منها قدح استلّه «الحرضة» فلم ينظر إليه حتّىٰ يدفعه إلىٰ «الرقيب» فإن خرج من الثلاثة الأغفال التي لا نصيب لها ردّ من ساعته، وإنْ خرج أوّلاً «الفذّ» أخذ

صاحبه نصيبه وضربوا بباقي القداح علىٰ التسعة الأجزاء الأُخر، فإن خرج التوأم أخذ صاحبه جزأين وضربوا بباقي الأقداح علىٰ الثمانية الأجزاء الأُخر، فإن خرج المعلّىٰ أخذ صاحبه نصيبه وهو السبعة الأجزاء التي بقيت.

ووقع غرم ثمن الجزور علىٰ من خاب سهمه وهم أربعة: صاحب «الرقيب» و«الحلس» و«النافس» و«المسبل» ولهـذه الأقداح ثمانية عشر سهماً فيجزّأ الثمن علىٰ ثمانية عشر جزءاً ويأخذ كلّ واحد من الغرم مثل الذي كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه.

وإن خرج «المعلّىٰ» أوّل القداح أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجـزور، وكـان الغرم علىٰ أصحاب القداح التي خابت، واحتاجوا أن ينحروا جزوراً أُخرىٰ، لأنّ في قداحهم المسبل، وله ستّة أجزاء ولم يبقَ من اللحم إلّا ثلاثة أجزاء. فإن نحروا الجزور الثانية، وضربوا عليها القداح فخرج «المسبل» أخذ صاحبه ستّة أجـزاء الثلاثة الباقية من الجزور الأُولىٰ وثلاثة أجزاء من الجزور الثانية، ولزمه الغرم في الجزور الأُولىٰ ولم يلزمه في الثانية شيء لأنّ قدحه قد فاز. وبقي من الجزور الثانية سبعة أجزاء فيضرب عليهابقداح من بقي، فإن خـرج «النـفاس» أخـذ صـاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شـيئاً، لأنّ قدحه قد فاز، ولزمه الغرم من الأُولىٰ وبقي جزءان مـن اللحم، وفيما بقي من القداح «الحلس» له أربعة أجزاء، فيحتاجون أن ينحروا جزوراً أُخرىٰ لتتمّة أربعة.

وإن نحروا الجزور الثالثة وفاز «الحلس» أخذ صاحبه أربعة أجزاء: جزأين من الجزور الثانية وجزأين من الجزور الثالثة، ولم يغرم من الجزور الثـالثة شيئاً فإن قدحه قد فاز ويبقىٰ ثمانية أجزاء من الجزور الثالثة، فيضرب بباقي القـداح عـليها حتّىٰ يخرج قداحهم وفقاً لأجزاء الجزور، فهذا حساب غرمهم الثمن.

وربّما كانت أجزاء اللحم موافقة لأجزاء القداح فلا يحتاجون إلىٰ نحر شيء، وإنّما تُنحر الجزور إذا قصرت أجزاء اللحم عن بعض القداح، فإن عاد بعض مـن

فاز قدحه ثانية فخاب، غُرم من ثمن الجزور التي خاب قدحه منها علىٰ هذا الحساب. فإن فضل من أجزاء اللحم شيء وقد خرجت القداح كلّها، كانت تلك الأجزاء لأهل المسكنة من العشيرة، فهذا تفسير «الميسر».

وكانوا يفتخرون به ويرون أنّه من فعال الكرم والشرف، ولهم في هذا أشعارٌ كثيرة يفتخرون بها[١].

اليهود في يثرب والنصارىٰ في نجران والشام:

استولىٰ القيصر الرومي تيتوس علىٰ الشام وفلسطين والقدس فهدم هيكل اليهود سنة ٧٠ م، ثمّ اضطهدهم القيصر هُوريان سنة ١٣٢ م، ففرّ في هذه الأثناء كثيرٌ منهم إلىٰ الحجاز وغيرُ قليلٍ منهم إلىٰ اليمن، أي في أواخر القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني الميلادي[٢].

ويظنّ أنّ القياصرة الرومان في صراعهم علىٰ السلطة أرادوا النفوذ إلىٰ اليمن لبسط سلطانهم علىٰ هذه البلاد بما لها من قوافل تجاريّة، فكان ذلك من أهمّ الأسباب لنفوذ النصرانيّة هناك بالبعثات التبشيريّة المسيحيّة التي كان يشجّعها القياصرة، ويظنّ أنّ انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي، ولا نصل إلىٰ العصر الجاهلي (الخامس) حتّىٰ نرىٰ النصرانيّة منتشرة في نجران وغيرها، ونجران كانت أهمّ مواطنها[٣].

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٥٩ ـ ٢٦١.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ لجواد علي، والحياة العربية في الشعر الجاهلي للحوفي: ١٢٦ ـ ١٤٢.

(٣) الحياة العربية للحوفي: ١٤٢ ـ ١٥٠.

ويرىٰ نسّابة العرب أنّ الغساسنة في الشام من أصلٍ يمنيّ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلىٰ الشمال معها قبائل كثيرة أُخرىٰ منها جذام وعاملة وقضاعة وكلب. ويقال إنّهم اصطدموا هناك بعرب من الضجاعمة فتغلّبوا عليهم وسادوا هناك، ويزعم مؤرّخو العرب أنّ مؤسّس سلالتهم جفنة بن عمرو فهم آل جفنة، فأقاموا إمارتهم في شرقي الأُردن، وكأنّهم ظلّوا بدواً يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكانٍ إلىٰ مكان في الجابية وجلولاء والجولان وحتّىٰ جُلَّق قرب دمشق، وقرّبهم الرومان البيزنطيون ومنحوهم ألقابهم واتّخذوهم حاجزاً بينهم وبين البدو وغاراتهم، ومساعداً لهم في حروبهم ضدّ من يؤيّد الفرس من عرب مناذرة الحيرة في العراق.

وليس بأيدينا من الوثائق التأريخيّة ما تبيّن بدّقة تأريخ نشأة هذه الإمارة، إلّا أنّها ظهرت علىٰ صفحة التأريخ إثر قضاء الرومان علىٰ مملكة تدمر فدمّروها سنة ٢٧٣ م، ولكنّ تأريخها قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الإبهام والغموض، وأوّل ملكٍ يمكن الاطمئنان إلىٰ أخباره من الوجهة التأريخيّة هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ م.

وانتشرت النصرانيّة بين عرب الشام من الغساسنة وعاملة وقضاعة وكلب وجذام، وكانوا علىٰ مذهب المنوفستيين أو اليعاقبة المنسوبين إلىٰ يعقوب البرادعي حوالي الخمسمائة الميلاديّة، الذي كان يرىٰ للمسيح أُقنوماً واحداً أي طبيعة بشريّة واحدة غير إلهيّة.

وبكر بن وائل كانوا في ديار بكر فيما بين الشام إلىٰ العراق ويليهم إلىٰ شمال العراق إياد وتغلب، فنفذت النصرانيّة اليعقوبيّة فيهم أيضاً، بل وتغلغلت في الحيرة قرب الكوفة فسمّوا العباديّين نسبة إلىٰ عبادة اللّه، ولكنّهم غير يعاقبة بل نساطرة نسبة إلىٰ نسطوريوس المتوفّىٰ سنة ٤٥٠ م الذي كان يرىٰ أنّ للمسيح أُقنومين

أي طبيعتين: اللاهوت مع الناسوت، وحتّىٰ دخل في النصرانيّة أواخرهم: النعمان بن المنذر واخته هند بنت المنذر وبنَت ديراً.

وكان في مكّة جوارٍ روميّات[١] وعبدان نصرانيّان من عين تمر بالعراق[٢] ورقيق حبشي نصراني كثير، وفي الطائف عداس النصراني من نينوىٰ في شمال العراق، وتنصّر في مكّة قوم قبيل الإسلام منهم عتبة بن أبي لهب، وعثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل[٣].

وفي أواخر القرن السادس الميلادي استطاع يهود اليمن أن يؤثّروا في ذي نؤاس ملك اليمن، وربّما كان السبب الحقيقي لاستجابته لليهود أنّهم خوّفوه من تغلغل النصرانيّة في بلاده وبذلك تفتح أبواب اليمن لنصارىٰ الحبشة من دون مقاومة، فأدخلوه في دينهم، ثمّ انتقموا به من النصارىٰ فدفعوه إلىٰ التنكيل بنصارىٰ نجران وتحريقهم بالنار في ما حفروه لهم من حفر الأُخدود في الأرض، وإذ كانت النصرانيّة يومئذٍ أحقّ من اليهوديّة قال اللّه تعالىٰ: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[٤] وانتقم نصارىٰ الحبشة لإخوانهم فأزالوا دولة ذي نؤاس سنة ٥٢٥ م بقيادة أبرهة، وظلّوا هناك خمسين عاماً.

فدعمت النصرانيّة واعتنقها كثيرون وبنيت لها كنائس في أكثر من بلد من أشهرها كنيسة نجران أنشأها أبرهة كما أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن، واهتم بزينتها وزخرفتها. ومن أشهرها القُلَيس في صنعاء، والكلمة تعريب لكلمة الكليسة

---

(١) أُسد الغابة ١ : ٣٨٧.

(٢) أسباب النزول للواحدي : ٢١٣ ـ ٢٢٠.

(٣) تأريخ اليعقوبي ١ : ٢٥٧.

(٤) البروج : ٤ ـ ٨.

اليونانيّة، فيقال: إنّه نقشها بالذهب والفضّة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضّة ومنابر من الأبنوس والعاج(١) وقد حوّلها المسلمون إلىٰ مسجد لا يزال اليوم قائماً(٢).

وكانت هذه الفترة سبباً في خروج اليهود من اليمن وتفرّقهم في البلاد، وبقي منهم جماعة حتّىٰ دخل الإسلام فدخلوا فيه، منهم كعب الأحبار ووهب بن منبّه.

وأهمّ من يهود اليمن يهود الحجاز، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز: يثرب وخيبر ووادي القرىٰ وتيماء، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمّها: بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع وبنو تهدل، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج وتنيين.

من سنن الجاهلية في الابل والغنم:

البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي... وقد جاء في القرآن الكريم عنها: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٣).

وروى العيّاشيّ في تفسيره لها عن الامام الصادق عليه‌السلام قال:

إنّ أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا: وصلت، فلا يستحلّون ذبحها ولا أكلها، وإذا ولدت عشراً جعلوها سائبة فلا يستحلون

---

(١) تفسير الطبري ٣: ١٩٣.

(٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٩٧ ـ ١٠٠.

(٣) المائدة: ١٠٣.

اكلها ولا ظهرها. والحامي: فحل الابل، لم يكونوا يستحلون (اكله) فأنزل الله أنه لم يحرّم شيئاً من هذا[١].

ونقل الشيخ الطوسي فى «التبيان» عن محمد بن اسحاق قال:

الوصيلة: هي الشاة اذا ولدت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن، كل بطن توأم اناث ليس فيها ذكر، قالوا: قد وصلت، وجعلوها وصيلة، وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث!

والسائبة: هي الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس فيهن ذكر، سُيّبت فلم يركبوها ولم يَجزّوا وبرها ولم يشرب لبنها إلّا ضيف.

والبحيرة: هي ما نتجت السائبة بعد ذلك من انثى شُقّ اذنها ثم خُلّي سبيلها مع أُمها، فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها، ولم يشرب لبنها الاضيف[٢].

ونقل عن أهل اللغة قالوا: الوصيلة: هي الشاة كانت اذا ولدت انثى فهي لهم، واذا ولدت ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعمهم، واذا ولدت ذكراً و انثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوه لآلهتهم.

وفي البحيرة: قال: كانوا في الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً، بحروا اذنها أي شقّوها، وامتنعوا من ركوبها و ذبحها، ولم تطرد عن رعي ولاماء.

وفي السائبة: قال: كانوا في الجاهلية اذا نذر أحدهم لقدوم من سفر أو بُرءٍ من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في التخلية[٣].

---

(١) تفسير العياشي ١:٣٤٧.

(٢) التبيان ٤:٣٨ وعن ابن اسحاق في السيرة ١:٩١.

(٣) التبيان ٤:٣٨.

و أسند الطبرسي في «مجمع البيان» قول أهل اللغة هذا الى الزجاج.

وفي الحامي قال: هو الذكر من الابل، كانت العرب اذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قدحمى ظهره، فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى، رواه عن الزجاج وأبي عبيدة، وابن مسعود وابن عباس.

ثم نقل عن المفسّرين عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: إنّ عمرو ابن لُحيّ بن قمعة بن خِندف، كان قد ملك مكة، وكان هو أول من غيّر دين اسماعيل و اتّخذ الأصنام و نصب الأوثان، و بحّر البحيرة و سيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي، فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه[1].

حماس العرب قبل الاسلام:

بإمكاننا انْ نقول: إنّ العربيّ قبل الإسلام كان نموذجاً تاماً لشره البشر و حرصه علىٰ مصالحه و منافعه، فكان ينظر إلىٰ كلّ شيءٍ من زاوية منافعه الخاصة، وكان يدّعي لنفسه في كلّ ذلك أنواعاً من الشرف والكرامة والرفعة علىٰ الآخرين، يحب الحرية غاية الحبّ، وينفر من أيّ قيد أو حدّ.

وقد قال ابن خلدون بهذا الصدد: «إنّ العرب إذا تغلّبوا علىٰ أوطان أسرع إليها الخراب، وذلك أنّهم أمّة قد استحكمت فيهم أسباب التوحش فصار لهم خُلقاً وجبلّة، وكان عندهم الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ملذوذاً. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له،فانّ حالتهم العاديّة هي الرحلة والتغلّب، وهذا مناقض للسكون الّذي به العمران ومناف له. وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في

---

(١) مجمع البيان ٣: ٣٩٠. ورواه ابن اسحاق بسنده عن ابن حزم وبسند آخر عن أبي هريرة ـ السيرة ١: ٧٨، ٧٩.

أيدي الناس، وأنّ رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون إليه، بل كلّما امتدّت أعينهم الىٰ مال أو متاع أو ماعون انتهبوه»[١].

أجل، إنّ العرب قبل الإسلام كانوا قد اعتادوا علىٰ الحرب والقتال، وكان منطقهم السائد: لا يغسل الدم إلّا الدم، وكذٰلك كانوا قد اعتادوا الإغارة علىٰ أموال الآخرين حتّىٰ أنّ أحدهم كان يعدّ غاراته علىٰ أموال الناس مفخرة له، وحتّىٰ أنّ الشاعر الجاهلي حينما يشاهد عجز قومه عن الغارة يتمنّىٰ اَنْ لو كان له عن قومه هٰؤلاء قومٌ آخرون يشنّون الغارات:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا ... شنّوا الإغارة فرساناً وركبانا

والىٰ هٰذه الحالة يشير الذكر الحكيم إذ يقول لهم: ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾[٢].

الخرافات عند العرب:

إنّ القرآن الكريم يبيّن أنّ من أهداف بعثة رسول اللّه ﷺ أنّه ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[٣].

فما هو الإصر وماهي الأغلال الّتي كانت عليهم؟ لا شكّ أنّها لم تكن أغلالاً من حديد، بل الغرض منها هي تلك الأوهام والخرافات الّتي كانت تمنع عقولهم وافكارهم عن الرشد والنموّ، ولا شكّ أنّها لا تقلّ عن أغلال الحديد ثقلاً وضرراً، إذ هٰذه الأغلال قد لا تنفك عن صاحبها حتّىٰ الموت وهي تمنعه عن كلّ حركة حتّىٰ لحلّها، في حين لو كان الإنسان ذا عقل حرّ سليم كان بإمكانه اَنْ يكسر كلّ طوق أو قيد.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٤٩.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) الاعراف: ١٥٧.

إنّ من مفاخر رسول الإسلام صلى الله عليه وآله أنّه كافح الخرافات والأوهام، وغسل العقل البشريّ منها.

إنّ ساسة العالم الّذين لا يهمّهم شيء سوىٰ الرئاسة علىٰ الناس، يحاولون الإفادة من كلّ شيء في سبيل أغراضهم ومقاصدهم، فإذا كانت العقائد الخرافية والقصص القديمة ممّا يمكن انْ تؤيد حكومتهم ورئاستهم، فلا مانع لهم من أنْ يروّجوا لها ويفتحوا السبيل أمامها، وحتّىٰ لو كانوا أُناساً مفكّرين ذوي رأي ومنطق فإنّهم سوف يدافعون عن هٰذه الخرافات باسم احترام آراء الناس وأفكارهم واعتقاداتهم.

امّا رسول اللّه فانّه لم يمنع عن تلك العقائد الخرافية الّتي تضرّ بالمجتمع فحسب، بل كان يكافح حتّىٰ الأفكار الّتي كانت قد تؤيّده وتدعم هدفه، وكان يسعىٰ الىٰ أنْ يكون الناس أبناء الدليل والمنطق لا القصص والخرافات.

فقد روىٰ البرقي في كتابه «المحاسن» بسنده عن أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام أنّه قال: لمّا قبض إبراهيم ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله جرت في موته ثلاث سنن: أمّا واحدة: فانّه لمّا قبض انكسفت الشمس فقال الناس: انّما انكسفت الشمس لموت ابن رسول اللّه، فصعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله المنبر فحمد اللّه وأثنىٰ عليه ثم قال:

«ايّها الناس! إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا انكسفا أو أحدهما صلّوا».

ثم نزل من المنبر فصلّىٰ بالناس الكسوف[1]. إنّ فكرة كسوف الشمس لموت ابن رسول اللّه كان ممّا يرسّخ العقيدة برسول اللّه في نفوس الناس، وهو من ثَمَّ يؤدي الىٰ انتشار رسالته ولكنّه صلى الله عليه وآله لم يرضَ أنْ يتأيّد بالخرافة.

---

(١) المحاسن للبرقي: ٣١٣.

إنّ كفاح رسول اللّه ﷺ ضد الخرافات و علىٰ رأسها عبادة الأصنام والأوثان واتّخاذ بعض المخلوقات أرباباً لم يكن دأبه في رسالته فحسب بل إنّه كان يكافح الأوهام والخرافات حتّىٰ في دور طفولته وصباه. فقد روىٰ المحدث المجلسيّ في موسوعته «بحار الأنوار» عن كتاب «المنتقىٰ في أحوال المصطفىٰ» للكازروني من العامّة، بسنده عن ابن عباس عن حليمة السعدية أنّها قالت «فلمّا تمّ له ثلاث سنين قال لي يوماً: يا أُمّاه! مالي لا أرىٰ أخويّ بالنهار؟ قلت له: يا بنيّ انّهما يرعيان غُنيمات، قال: فمالي لا أخرج معهما؟ قلت له: تحبّ ذلك؟ قال: نعم. فلما أصبح دهّنته وكحّلته وعلّقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية فنزعها ثم قال لي: مهلاً يا أُمّاه! فإنّ معي من يحفظني»[1].

إنّ عقائد جميع أُمم العالم كانت حين طلوع فجر الإسلام خليطاً بأنواع من الخرافات والأساطير، فالأساطير الساسانية واليونانية كانت تسود علىٰ أفكار أُمم كانت تعدّ من أرقىٰ أُمم العالم يومذاك. وحتى اليوم يوجد بين أُمم العالم خرافات كثيرة لا تستطيع الحضارة الحاضرة أنْ تنفيها من حياة الناس.

وقد سجّل التأريخ خرافات وأساطير كثيرة للناس في شبه جزيرة العرب، جمع كثيراً منها السيد محمود الآلوسي في كتاب أسماه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» مع ذكر شواهد لها من الشعر الجاهلي وغيره، بمراجعة هذا الكتاب ومثله يواجه المرء شيئاً كثيراً من الخرافات قد ملأت عقول العرب الجاهلين، وكانت هذه الأساطير إحدىٰ عوامل التخلف فيهم عن سائر أُمم العالم آنذاك، وكانت كذلك أكبر سدّ أمام تقدّم الإسلام فيهم أيضاً، ولهذا كان النبي ﷺ يسعىٰ جاهداً أنْ يحبط تلك الأساطير والأوهام من آثار الجاهلية، فحينما أرسل «معاذ بن

---

(١) بحار الانوار ١٥ : ٣٩٢.

جبل» الىٰ اليمن أمره قائلاً: «وأمِت الجاهلية إلّا ما سنّه الإسلام، وأظهر أمر الإسلام كلّه صغيره وكبيره»[١].

وهنا نأتي نحن بنماذج من خرافاتهم:

أ ـ إشعال النار للاستسقاء:

كانت الجزيرة العربية تواجه الجفاف في أكثر فصول السنة، فكان الناس يجمعون حطباً من شجر القشر والسّلعْ فيربطونها بذيل الثور ثُمَّ يسوقونه إلىٰ سفح الجبل فيضرمون النار في حزمة الحطب فتشتعل، ويبدأ الثور يركض ويخور وهم يرون ذٰلك تقليداً للبرق والرعد؛ فالبرق النار في الحطب والرعد خوار الثور والبقر، ويرون ذٰلك مفيداً لهطول الأمطار!

ب ـ يضربون الثور لتشرب البقرة:

كانوا يرِدون بقطيع البقر الماء وقد يشرب الثور ولا تشرب الأبقار، فيرون ذٰلك من وجود الجن في قرون الثور فيضربون الثور لتشرب البقر! ويقول شاعرهم في ذٰلك:

فإنّي إذاً كالثور يُضْرَبُ جنبه إذا لم يعف شرباً وعافت صواحبه!

ج ـ يكوون الجمل السالم لتصحّ الإبل:

كانوا إذا مرضت الإبل وظهر في فمها أو علىٰ أطرافها قروح أو بثور، يأتون ببعير سالم فيكوون شفاهه وساعديه وذراعيه، لِتَصحَّ سائر الإبل كما يتوهّمون حسب خرافاتهم. وقد يحتمل بعض المتأخرين من المؤرخين أنّ ذٰلك كان عملاً وقائياً بل علاجاً علمياً! لكننا حينما نرىٰ أنّهم يفعلون ذٰلك بواحد من الإبل بدلاً من الكلّ، نعلم أنّ ذٰلك لم يكن إلّا خُرافة ووهماً.

---

(١) تحف العقول: ٢٥.

د ـ يحبسون بعيراً علىٰ القبر ليحشر الميّت عليه:

كانوا إذا مات كبير منهم حفروا قرب قبره حفيرة وحبسوا بها بعيراً وتركوه يموت جوعاً وعطشاً، يزعمون انّ الميّت يركبه ولا يبقىٰ راجلاً بلا راحلة!.

هـ ـ يعقرون بعيراً عند قبر الميت:

كانوا إذا مات كريم منهم كان ينحر الإبل لاضيافه، يعقر أقرباؤه بعيراً عند قبره تكريماً للميت وثناء عليه!

وحارب الإسلام كلّ هٰذه الأوهام، بل انّها إنّما كانت ظلماً للحيوان، وإذا ماقارنّاها نحن بأحكام الإسلام بشأن حماية الحيوان رأينا أنّ الإسلام كان ثورة علىٰ هٰذه الأفكار السائدة في ذٰلك المحيط الجاهل. ويكفينا من بين عشرات الأحكام أنّ الإسلام قرّر للحيوان حقوقاً علىٰ صاحبه[١].

و ـ علاج المرضىٰ:

كانوا يرون أنّ الملدوغ والملسوع لو كان معه شيء من النحاس مات، وكانوا يعالجونها بإناطة عقود وقلائد الذهب والفضّة برقبتها وكانوا يعالجون عضّة الكلب المكلوب (داء الكلب) بدم كبير القبيلة أو شيخ العشيرة يضعونه علىٰ موضع الجراح! وقد جاء هٰذا المعنىٰ في هٰذا البيت المعروف:

أحلامكم لسقام الجهل شافية ... كما دماؤكم تشفي من الكَلَب

وكانوا إذا ظهرت علىٰ أحدٍ منهم سمات مسّ الجنون لجؤوا لطرد الأرواح الشرّيرة منه الىٰ عظام الموتىٰ والأقمشة الملوّثة بالأوساخ والقاذورات فعلّقوها برقبته. ولدفع الجنون عن الجنين والبنين كانوا يعلّقون سنّ السنّور والثعلب بخيط فيعلّقونها برقابهم. وكانت الأم إذا رأت في فم أو شفاه أولادها بثوراً حملت علىٰ

---

(١) انظر بهذا الصدد كتاب من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٨٦ ـ ٢٩٢.

رأسها طبقاً وطافت علىٰ دور القبيلة فجمعت شيئاً من الخبز والتمر وأطعمتها الكلاب ليطيب بنوها. وكان نساء الحيّ يراقبن أبناءهن كيلا يأكلوا شيئاً من ذلك الخبز والتمر فيصابوا بذلك الداء. وَإذا استمرّ مرض أحدهم قالوا انّه قتل حيّةً أو غيرها من الجنّ، وللاعتذار من الجنّ كانوا يصنعون بعيراً من الطين يحمّلونه التمر والحنطة والشعير ويتركونه ببعض شعاب الجبال،فإذا رأوا الحمل بعد ذلك قد تغيّر شيء منه قالوا انّ الهدية قبلت وسيطيب المريض، وإلّا قالوا: إنّهم استقلوا الهديّة فلم يقبلوا بها!.

وكانوا إذا دخلوا قرية وخافوا الجنّ أو الطاعون صاحوا في مدخل القرية عشر مرّات بصوت الحمير (النهيق) وقد يعلّقون برقابهم عظم الثعلب! وكانوا إذا ضلّوا في البيداء نزعوا ملابسهم فلبسوها بالمقلوب كي ينقلبوا الىٰ أهلهم! وكانوا عند السفر يربطون خيطاً بغصن شجرة أو فرعها، فإذا رجعوا ووجدوه كما هو اطمأنّوا الىٰ وفاء أزواجهم وعدم خيانتهنّ لهم، أمّا إذا فقدوه أو وجدوه قد حُلّ اتهموا أزواجهم بخيانتهم من ورائهم. وكانوا إذا سقط سنّ من أسنان أطفالهم رموا به الىٰ جهة الشمس وقالوا: أيّتها الشمس اعطينا سنّاً أحسن من هذا! وكانت المرأة التي لا يبقىٰ لها أولادها تطأ القتيل سبع مرّات ويرون أنّ ذلك نافع لها ليبقىٰ لها ولدها بعد هذا.

هذه نماذج من الخرافات التي كانت قد خيّمت علىٰ محيط حياة العرب في عهد الجاهلية فجعلت منه عهداً مظلماً أسودَ ومنعت عقولهم من الرقيّ والنمو.

المرأة في المجتمع الجاهلي:

كانت المرأة لديهم كسلعة تباع وتشترىٰ، تماماً كالحيوانات، ولا يورّثونها، ويرثونها مع التركة، ولا حدّ لتزويج الرجال منهنّ، ويعضلوهنّ ليذهبوا ببعض ما آتوهن ـكما في القرآن الكريم ـ ويتزوّجون بزوجات آبائهم، ويمنعون أزواجهم إذا طلقوهنّ ان يتزوجن بغيرهم إلّا بإذنهم، ولا يكون ذلك إلّا بمال.

أمّا الإسلام فيكفينا منه تغييراً لهذا الوضع واصلاحاً له قول رسول الله ﷺ في خطبته في حجّة الوداع:

«أيّها الناس: انّ لنسائكم عليكم حقّاً ولكم عليهن حقّاً، فحقّكم عليهن أنْ لا يوطئن أحداً فرشكم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلّا بإذنكم، وانْ لا يأتين بفاحشة، فإنّ اللّه قد أذن لكم أنْ تعضلوهن وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مُبرح، فإذا انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف اخذتموهن بأمانة اللّه واستحللتم فروجهن بكتاب اللّه، فاتّقوا اللّه في النساء واستوصوا بهنّ خيراً»(١).

مبدأ العرب، والعرب العاربة:

إن ماكتبه العرب عنهم بعد الاسلام مزيج بالأساطير، وقد ظل تأريخهم تأريخاً مبهماً حتىٰ أواسط القرن الماضي حيث جدّ علماء الآثار والحفريات الأثرية التاريخية من الغربيين فى قراءة آثارهم المنقوشة بالخط المسند على الأبراج والهياكل والنصب و الأحجار، فاستقر رأي هؤلاء الباحثين الغربيين على أن العرب الجنوبيين في اليمن هم من الموجة السامية الأخيرة التي بدأت فى أواخر الألف الثانى ق م، أي في حدود الألف قبل الميلاد، أي قرابة خمسة عشر قرناً قبل الاسلام، اتجهت من شمال الجزيرة الى جنوبها، لامن بابل العراق(٢) بينما نرى في التاريخ النقلي المتوارث أن الهجرة كانت من بابل الى اليمن، فمثلاً:

---

(١) تحف العقول: ٣٠، وانظر للتفصيل: المرأة في الشعر الجاهلي لعلي الهاشمي، والقيان والغناء في الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد. وحقوق المرأة في الجاهلية والإسلام للمؤلف.

(٢) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٢٥ ـ ٢٨.

ذكر المسعودي في أوائل من تكلموا بالعربية عن نسل نوح ببابل العراق بعد الطوفان قال: وكان من تكلّم بالعربية: يعرب وجرهم، وعاد، وثمود، وعملاق، وطسم، وجديس، ووبار، وعبيل وعبد ضخم، فسار يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح (اي الجيل الخامس بعد نوح) بمن تبعه من ولده.. فحلّ باليمن.

وسار بعده عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه، فحلّ بالأحقاف وأداني الرمل بين عمان وحضرموت واليمن وتفرّق هٰؤلاء في الأرض فانتشر منهم ناس كثير: منهم جيرون بن سعد بن عاد حلّ بدمشق فمصّر مصرها، وجمع عمد الرّخام والمرمر إليها وشيّد بنيانها وسماها «إرم ذات العماد».

قال المسعودي: وهٰذا الموضع بدمشق في هٰذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ سوق من أسواقها عند باب المسجد الجامع يعرف بجيرون، وهو بنيان عظيم كان قصر هٰذا الملك (جيرون) عليه أبواب من نحاس عجيبة، بعضها على ما كانت عليه، وبعضها من المسجد الجامع.

وسار بعد عاد بن عوص: ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه، فنزلوا الحجر الىٰ قُرح، نحو وادي القرىٰ بين الشام والحجاز ونبيّهم صالح عليه السلام.

وسار بعد ثمود: جديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه، وهٰؤلاء نزلوا اليمامة.

وسار بعد جديس: عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه فنزل هٰؤلاء أكناف الحرم والتهائم، ثم انضافوا الىٰ ملوك الروم فملّكتهم الروم علىٰ مشارف الشام والغرب والجزيرة من ثغور الشام فيما بينهم وبين فارس، منهم السميدع بن هوبر، ومنهم أُذينة بن السميدع.

ثم سار طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاوذ بولده ومن تبعه، فكان منزلهم باليمامة، واسمها إذ ذاك جرّ، وكانت أفضل البلاد وأكثرها خيراً فيها صنوف الشجر والأعناب، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفّة، وكثُرت طسم فملّكت عليها عملوق بن جديس.

فكان عملوق يحكم طسم وجديس، ولكن كثرت جديس فملكت عليها الأسود بن غفار. وكان عملوق ظلوماً غشوماً لاينهاه شيء عن هواه، وكان قد قهر علىٰ جديس وتعدىٰ عليهم. وترافع اليه زوجان من جديس تنازعا في ولدهما عمن يكون بعد الطلاق فحكم الملك أنْ يؤخذ الولد منهما ويجعل في غلمانه، فقالت فيه شعراً ذمّته به وبلغ قولها الملك فغضب، وأمر أنْ لاتتزوج امرأة من جديس فتزّف الىٰ زوجها حتّىٰ تحمل اليه فيفترعها قبل زوجها، فلقوا من ذلك ذلاً طويلاً، ولم تزل تلك حالتهم حتّىٰ تزوجت أُخت الأسود ملك جديس ففعل بها كسائر نسائها، فخرجت تقول شعراً تحرّض به قومها جديس علىٰ طسم. فصنع الأسود طعاماً كثيراً ودعا إليه عملوق ومن معه من رؤساء طسم باليمامة فأجابوه، فوثبت جديس عليهم بأسيافهم فقتلوهم عن آخرهم ومضوا إلىٰ ديارهم فانتهبوها.

قال المسعودي: وسار بعد طسم بن لاوذ: وبار بن أُميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، بولده ومن تبعه من قومه، فنزل برمل عالج، وأصابهم نقمة من الله فهلكوا لبغيهم في الأرض.

وسار بعد وبار بن أُميم: عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف، ثم هلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر فدثروا، ولهم ذكر في الشعر الجاهلي.

وسار بعد عبد ضخم بن إرم: جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه، وطافوا البلاد حتّىٰ أتوا مكّة فنزلوها (بعرفات، وبعد ظهور زمزم نزلوا حول البيت بمكّة).

وسار أُميم بن لاوذ بن إِرم بعد جرهم بن قحطان فحلّ بأرض فارس، فالفرس من ولد كيومرث بن أُميم بن لاوذ بن إِرم بن سام بن نوح علىٰ خلاف في ذٰلك.

ونزل ولد كنعان بن حام بن نوح بلاد الشام فبهم عرفت تلك الديار فقيل: بلاد كنعان.

قال المسعودي: وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار: انّ جميع من ذكرنا من هٰذه القبائل كانوا أهل خيم وبدواً مجتمعين في مساكنهم من الأرض. وانّ أُميا وأولاده (أي الفرس) هم أوّل من ابتنىٰ البنيان ورفع الحيطان وقطع الأشجار وسقّف السقوف واتّخذ السّطوح.

وقد كان من ذكرنا من الأُمم لايجحد الصانع عزّوجلّ، ويعلمون أنّ نوحاً عليه السلام كان نبيّاً. ثم دخلت عليهم بعد ذلك شبه ومالت نفوسهم الىٰ ما تدعو اليه الطبائع من الملاذ والتقليد، وكان في نفوسهم هيبة الصّانع والتقرّب إليه بالتماثيل وعبادتها لظنهم أنّها مقرّبة لهم اليه.

وكان عبيل بن عوص بن إِرم بن سام بن نوح نزل هو وولده ومن تبعه بلاد الجحفة بين مكّة والمدينة، فهلكوا بالسيل فسمّي ذلك الموضع بالجحفة لإجحافها بهم.

وكان يثرب بن قامة بن مهليل بن إِرم بن عبيل نزل هو وولده ومن تبعه المدينة فسمّيت به يثرب، وهٰؤلاء أيضاً هلكوا ببعض غوائل الدهر وآفاته.

وقد أخبر اللّه جلت قدرته عمن أُهلك من قوم عاد وثمود فقال تعالىٰ **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾**[1] ارسل اللّه علىٰ عاد الريح العقيم فخرجت عليهم

---

(١) الحاقة: ٤ – ٦.

من وادٍ لهم (بصورة سحاب مركوم) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ... قَالُوا هَذَا عَـارِضٌ مُـمْطِرُنَا ﴾ وتباشروا بذلك، فلمّا سمع هو ذلك منهم قال لهم ﴿ بَلْ هُوَ مَـا اسْـتَعْجَلْتُمْ بِـهِ رِيـحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

ولمّا دثّرت هذه الأُمم من العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس، فنزل قوم من بني حنيفة اليمامة واستوطنوها. وقد كـانوا نـزلوا بـلاد الجحفة بين مكّة والمدينة.

واختلفوا في بني حَضور فقيل إنّهم من ولد يافث بن نوح، ومنهم من الحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمّينا، وكانت أُمّةً عـظيمة ذات بـطشٍ وشـدةٍ. ومنهم من رأىٰ أنّ ديارهم كانت ببلاد جند قِنّسرين الىٰ تلّ ماسح اِلىٰ خـناصرة الىٰ بلاد سورية، وهذه المدن في هذا الوقت مَضافة الىٰ أعمال حلب من بلاد قِنّسرين من أرض الشام. ومن الناس من رأى أنّهم كـانوا بـأرض السماوة وأنّهـا كـانت عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة، وذلك بين العراق الىٰ حدّ الحجاز والشام، وهي الآن براري وقفار وديار خراب. وقد كان اللّه بعث اِليهم شعيب بن مهدّم بن حضور بن عدي: نبيّاً ناهياً لهم عمّا كانوا عليه، وهـو غـير شـعيب بـن نـويل. فجدّ شعيب بن مـهدم في دعـائهم وخـوّفهم وتـوعّدهم، وظـهرت له مـعجزات ودلائل أظهرها اللّه علىٰ يـديه تـدلّ عـلىٰ صـدقه وتـثبت حـجته عـلىٰ قـومه، فقتلوه.

وكان في عصره نبيّ آخر هو برخيا بن اجنيا بن رزنائيل بن شالتان، مـن أسباط يهودا بن إسرائيل بن إسحاق بن اِبراهيم، فأوحىٰ اللّه اِليه أنْ يأمر بـعض الملوك في الشام بغزو العرب أصحاب شعيب بن مـهدّم، فسـار إليهـم في جـنوده

---

(١) الأحقاف: ٢٤.

وغشىٰ دارهم بعساكره، فاستعدّوا لحربه ولكن انفضّت جنودهم وتفرّقت جموعهم وولّت كتائبهم وأخذهم السيف فحصدوا أجمعين وبشأنهم ـ قيل ـ قال اللّٰه تعالىٰ ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾(١).

العرب من ولد قحطان:

قال المسعودي: «ودثرت العرب العاربة عدا ولد قحطان من يعرب، فدثرت عاد وثمود والعمالقة وجرهم وطسم وجديس ووبار وعبيل، وسائر من سمّينا، ودخل من بقي ممّن ذكرنا في العرب الباقية الىٰ هٰذا الوقت، وهم ولد قحطان ومعد، ولانعلم أن قبيلاً بقي يشار اِليه في الأرض من العرب الأولىٰ غير معد وقحطان»(٢).

وقال: «الواضح من أنساب اليمن وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان الىٰ هٰذا الوقت قولاً وعملاً، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير، والّذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأُمم، ووجدت عليه الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد، وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف، وبلاد عمان وغيرها من الأمصار: أنّ الصحيح في نسب قحطان: أنّه قحطان بن عابر ابن شالخ بن قنان بن ارفخشد بن سام بن نوح. وكان لعابر ثلاثة أولاد: فالغ وقحطان وملكان. وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً منهم يعرب، وولد ليعرب: يشجب، وولد ليشجب: عبد شمس فتملك وقاتل وسبى فلقّب: بالسبأ لسبيه السبايا. وولد لسبأ: حمير وكهلان، وانّما العَقِبِ

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٠٩ ـ ١٣١ بتصرف ـ الأنبياء: ١٢.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٤.

في قحطان من ولد هذين: حمير وكهلان. هٰذا هو المتفق عليه عند أهل الخبرة والمتيقن لديهم. وكان قحطان سُرياني اللسان وانّما تكلّم يعرب بالعربية بخلاف لسان قحطان أبيه»[1].

ملوك اليمن:

قال المسعودي «وفد عُبيد بن شُريّة الجُرْهُمي علىٰ معاوية فسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنيّها، فذكر: أنّ اول ملوك اليمن: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثمّ ملك بعده الحارث بن شدّاد بن ملطاظ ابن عمرو. ثمّ ملك بعده أَبرهة بن الرائش وهو أَبرهة ذو المنار، ثمّ ملك بعده افريقس بن أَبرهة. ثمّ ملك بعده أخوه العبد بن أَبرهة، ثمّ ملك بعده الهَدهاد بن شرحبيل بن عمرو وهو ذو الصرّح، ثمّ ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد سبع سنين، ثمّ ملك سليمان بن داود عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة. ثمّ ملك بعده ارحبعم بن سليمان سنة، ثم رجع الملك الى حمير فملك من بعد ارحبعم بن سليمان: ناشر النعم بن يعفر بن عمرو ذي الأذعار، ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن أَفريقس، ثمّ ملك بعده تبّع الأقرن بن عمرو، وهو تبّع الأكبر، ثم ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبّع. ثمّ ملك بعده تبّع أبو كرب اسعد بن ملكيكرب، ثمّ ملك بعده كلال بن مثوب، ثم ملك بعده تبّع بن حسّان بن تبّع، ثمّ ملك بعده مرثد، ثمّ ملك بعده أَبرهة بن الصبّاح، ثمّ ملك بعده ذو شناتر بن زُرعة، ثمّ ملك بعده لخنيعة ذو شناتر، في مجموع مدّة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين سنة. هٰذا ماحكي عن عبيد بن شريّة في ترتيب ملوك اليمن[2].

---

(١) مروج الذهب ٢: ٤٥، ٤٦.

(٢) مروج الذهب: ٢: ٦٠ ـ ٦٢.

ونترك هنا ذكر بقيّة ملوك اليمن وماوقع علىٰ عهدهم، لنأتي علىٰ ذٰلك بعد ذكر انتشار العرب من اليمن الىٰ الحجاز ويثرب والعراق والشام. ورجّحنا ذكر خبر عبيد بن شريّة الجرهمي في هٰذا الباب للاختصار، ولترجيح المسعودي له بقوله «ولم يصح عند كثير من الاخباريين ـأي المؤرخين ـ من أخبار من وفد علىٰ معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها، إلّا خبر عبيد بن شريّة واخباره ايّاه عمّا سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعّب الأنساب. وكتاب عُبيد بن شُريّة متداول في أيدي الناس مشهور»[1].

سيل العرم وتفرّق الأزدْ في البلدان:

ذكر اللّه تعالىٰ في القرآن الكريم أنّه أرسل علىٰ أهل بلاد سبأ سيلاً سماه سيل العرم، وقال المسعودي: «لا خلاف بين ذوي الرواية والدراية: أنّ العرم هو المسنّاة الّتي قد احكم عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل[2]، وكان فرسخاً في فرسخ، بناه لقمان بن عاد بن عاديا الأكبر[3]. وهٰذا السد هو الّذي كان يردّ عنهم السيل فيما سلف من الدهر اذا حان أنْ يغشىٰ أموالهم وقد كانت أرض سبأ قبل ذٰلك يركبها السيل، وكان ملك القوم في ذٰلك الزمان يقرّب الحكماء ويدنيهم ويؤثرهم ويحسن إليهم، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلىٰ رأيهم والأخذ من محض عقولهم، فشاور في دفع ذٰلك السيل وحصره، وكان ينحدر من أعالي الجبال هابطاً علىٰ رأسه حتّىٰ يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء.

---

(١) مروج الذهب ٢: ٢٥١.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٦٣، ١٦٤.

(٣) مروج الذهب ٢: ١٦١.

فأجمع القوم رأيهم علىٰ عمل مصاريف له إلىٰ البراري تقذف به إلىٰ البحر. فحصّر الملك المصارف حتّىٰ انحدر الماء وانصرف وتدافع إلىٰ تلك الجهة، واتّخذ السد في الموضع الّذي كان فيه بدء جريان الماء، من الجبل إلىٰ الجبل، من الحجر الصلد والحديد بطول فرسخ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام وقد اتّخذوا من تلك المياه نهراً بمقدار معلوم ينتهي في جريانه الىٰ المخراق، وكان في هٰذا المخراق للأخذ من تلك الأنهار ثلاثون نقباً مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضاً مدوّرة علىٰ أحسن هندسة وأكمل تقدير، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتّىٰ تأتي الجنان فترويها سقياً، وتعمّ شرب القوم.

ثمّ إنّ تلك الأمم بادت وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله، ومرّت عليها السنون، وعمل الماء في أُصول ذٰلك المخراق وأضعفه ممر السنين عليه وتدافع الماء حوله. وأتىٰ أبناء قحطان إلىٰ هٰذه الديار وتغلّبوا علىٰ من كان فيها من القُطّان، ولم يعلموا الآفة في السد والمخراق وضعفه، وعند تناهي السد والبنيان في الضعف عن تحمله غلب الماء علىٰ السد والمخراق والبنيان إبان زيادة الماء، فقذف به في جريه ورمىٰ به في تياره واستولىٰ الماء علىٰ تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان، حتّىٰ انقرض سكّان تلك الأرض وزالوا عن تلك المواطن[1]، وذٰلك عندما انتهت الرئاسة فيهم إلىٰ عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبأ»[2].

قال المسعودي: «ورأى عمرو في النوم سيل العرم، فعِلمَ أنّ ذٰلك واقع بهم وأنّ بلادهم ستخرب، فكتم ذٰلك واخفاه وأجمع اَنْ يبيع كلّ شيء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب.

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٦١.

فلمّا اجتمعت لعمرو بن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم فقال: قد رأيت انكم ستمزقون كلّ ممزّق، واني أصف لكم البلدان فاختاروا أيّها شئتم. فنزل جمع من الأزد بقصر عمان المشيّد فقيل لهم: أزد عمان. ولحق وادعة بن عمرو الأزدي وجمع معه بشِعب كرود وهي أرض همْدان فانتسبوا الِيهم. وسكن جمع منهم ببطن مُرّ فسمّوا خزاعة لانخزاعهم عمّن كان معهم من الناس وهم بنو عمرو بن لُحيّ. ولحق الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بيثرب فسكنوه. ولحق بنو غسّان ببصرىٰ وحفير من أرض الشام. ولحق مالك بن فهم الأزدي وولده بالعراق فسكنوه.

وخرج من كان بمأرب من الأزد يريدون أرضاً يقيمون بها، فساروا حتّىٰ إذا كانوا بنجران تخلّف أبو حارثة بن عمرو بن عامر ودِعبل بن كعب فانتسبوا إلىٰ مَذْحِج، وخرج عمرو بن عامر وولده من مأرب فسار حتّىٰ إذا كان بين السّراة ومكّة أقام هنالك أُناس من بني نصر من الأزد. وسار عمرو بن عامر وبنو مازن حتّىٰ نزلوا بين بلاد الأشعريين وعَكّ علىٰ ماء يقال له غسّان بين واديين يقال لهما زُبيد ورَمَع، فأقاموا علىٰ غسّان فسُمّوا به، والسّراة: جبل يقال له الحجاز أيضاً سكن الأزد في سهله وجبله وما قاربه من ظهره، وإنّما سمّي السّراة ظهر هٰذا الجبل كما يقال لظهر الدابة السّراة، وهو جبل يبدأ من تخوم الشام يفرز بين الحجاز وبين مايلي أعمال دمشق والأُردن وبلاد فلسطين»[1].

«وتخلّف في مأرب مالك بن اليمان بن بُهْم بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، فأصبح ملك مأرب بعد من خرج منه الىٰ أَنْ كان من أَمرهم ماكان من الهلاك»[2].

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٧٠ ـ ١٧٤.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٧٢.

قال المسعودي: وكان أهل مأرب يعبدون الشمس، فبعث اللّٰه اليهم رسلاً يدعونهم الىٰ اللّٰه ويزجرونهم عمّا هم عليه، ويذكّرونهم آلاء اللّٰه ونعمته عليهم، فجحدوا قولهم وردّوا كلامهم وأنكروا اَنْ يكون للّٰه عليهم نعمة وقالوا لهم: إنْ كنتم رسلاً فادعوا اللّٰه اَنْ يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنّا ما أعطانا فدعت عليهم رسلهم فأرسل اللّٰه عليهم سيلاً هدم سدّهم وغشىٰ الماء أرضهم فأهلك شجرهم وأباد خضراءهم وأزال أنعامهم وأموالهم! فأتوا رسلهم فقالوا: ادعوا اللّٰه أنْ يخلف علينا نعمتنا ويخصب بلادنا ويرد علينا ما شرد من أنعامنا، ونعطيكم موثقاً اَنْ لانشرك باللّٰه شيئاً. فسألت الرسل ربها فأجابهم الىٰ ذلك وأعطاهم ماسألوا. فأخصبت بلادهم واتسعت عمائرهم الىٰ أرض فلسطين والشام قرىٰ ومنازل وأسواقاً. فأتتهم رسلهم فقالوا: موعدكم اَنْ تؤمنوا باللّٰه، فأبوا اِلّا طغياناً وكفراً فمزّقهم اللّٰه كلّ ممزّق»[1].

ولابدّ هنا من استدراك:

كان هذا مهذّب ماكتبه العرب عنهم بعد الاسلام، تأريخاً نقلياً ظنيّاً، بل مزيجاً بالأساطير. وظل هكذا مبهماً حتى أواسط القرن الماضي، حيث جدّ علماء الآثار والحفريات الأثرية التاريخية الغربيون في قراءة آثارهم المنقوشة بالخط المسند على الأبراج والهياكل والنصب والأحجار، فاستقرّ رأي الباحثين من علماء الغرب على ما يلي موجزاً:

إن العرب الجنوبيين في اليمن ليسوا من هجرة بابل بالعراق، بل همْ من الموجة السامية الأخيرة التي بدأت في أواخر (الألف الثاني ق م وأوائل الألف ق م)، أي في حدود خمسة عشر قرناً قبل الاسلام، متجّهة من شمال الجزيرة

(١) مروج الذهب ٢: ١٧٤، ١٧٥.

نحو جنوبها، لا من خارجها وكانت مملكة سبأ في جنوب اليمن وعاصمتها مأرب، ولهجتهم السبائية هي احدىٰ اللهجتين الأساسيتين: المنبثقة في اللغة اليمنية العربية القريبة من العربية الشمالية الحجازية والتهامية، والحبشية.

واللهجة الاخرىٰ: المعينية لمملكة معين في جوف اليمن، وهي المملكة الثانية من الممالك الخمس هناك.

والمملكة الثالثة: مملكة قَتَبان في الجنوب الغربي لسبأ، وعاصمتها تِمْنَع.

والمملكة الرابعة: الاوسانية جنوبي قتبان.

والمملكة الخامسة: مملكة حضْرموت، وعاصمتها شبوة.

وكانت الدولة المعينية في القرن العاشر قبل الميلاد، واستولت على مملكة قتبان ومملكة حضرموت، ووُجدت نقوشهم في شمالي الحجاز في دادان من منطقة العُلا، وفي الحِجر أو مدائن صالح عليه السلام.

وفي (القرن السابع ق م) غلب السبائيون على المعينيين بل على الجنوب كله والشمال، واتخذوا مأرب حاضرة لهم، ومنهم بلقيس، نحو (٢٧٠ ق م).

وفي (١١٥ ق م) نازعهم ملوك ظُفار وذي ريدان الحميريون وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية فتلقّبوا باسم ملوك ذي ريدان واليمان وسبأ وحضرموت، وكانت لهم تجارات الى الهند ومصر وافريقية الشرقية.

وفي (٢٤ ق م) اتّجه الرومان الى الملاحة في البحر الأحمر فاستولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلّوا بذلك تجارة الحميريين، فساءت أحوالهم الاقتصادية، وأهملوا شؤونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدبّ في البلاد.

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي حاربهم ملوك الحبشة واستولوا على بلادهم وظلوا بها عشرين عاماً. وأخذت القبائل الحجازية تغير عليها.

فأخذ كثير من عشائر اليمن يهاجرون الى الشمال.

وهكذا اختلطت بل امتزجت لغتهم مما أعدّ لانتصار العربية الشمالية الحجازية على العربية الجنوبية اليمنية في أواخر العصر الجاهلي.

وسبّبتِ المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة بعثات دينية مسيحية الى اليمن، فاعتنقها أهل نجران في القرن الخامس الميلادي. وناهضها ملوك حمير وآخرهم ذو نؤاس وحاول القضاء على المسيحيين بنجران (أصحاب الاخدود). فأوعزت بيزنطة الىٰ النجاشي أن يغزو اليمن، فغزاها في (٥٢٥ م) واستولىٰ عليهم وضمّها الى بلاده. وظل هذا الاحتلال الحبشي لليمن نحو خمسين عاماً.

وأخيراً استنجد أهلها (سيف بن ذي يزن) بالفرس، فردّوا الأحباش وظلّوا بها حتىٰ سنة (٦٣٨ م) إذ اعتنق الاسلام الحاكم الفارسي على اليمن باذان[1] في السنة السابعة للهجرة، فأقره رسول الله على عمله على اليمن، فكان عليها حتىٰ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن أجل أن نصل الىٰ مدىٰ عظمة الحضارة الحديثة الإسلامية فانّ علينا أنْ ندرس الحضارات السائدة يومئذ:

الحضارة في الامبراطوريتين الفارسية والرومية:

يهمّنا للوصول الىٰ مدىٰ بركات الدعوة الإسلامية أنّ نطّلع علىٰ حال الناس:

أولاً ـ في محيط نزول القرآن الكريم، وبيئة ظهور الإسلام وتناميه.

ثانياً ـ في أرقىٰ نقاط العالم يومئذ فكراً وأدباً واخلاقاً وحضارة.

لانرىٰ التأريخ يعرّفنا بأرقىٰ نقطة في ذلك العهد سوىٰ الإمبراطوريتين الفارسية والرومية، وانّ من تمام البحث أنْ ندرس أوضاع هاتين الدولتين من مختلف النواحي كي يتضح لنا مدىٰ أهمية الحضارة الّتي أتىٰ بها الإسلام.

---

(١) العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٢٧، ٢٨.

ونحن اذ نتبيّن نقاط الضعف في العرب أو الفرس أو الروم قبل الإسلام لانريد من ذلك إلّا الوصول الىٰ الحقائق في تعاليم الإسلام السامية، ولامانع لدينا عن تبيّن الواقع وتشريح الحقائق وبيان العقائد الخرافية والواقع السيّء قبل ظهور الإسلام وحينه، سواء كنّا عرباً أو فرساً أم من الروم.

دولة الفرس حين ظهور الاسلام:

المعروف أنّ بعثة رسول الإسلام ﷺ كانت في سنة (٦١١ م) المصادف لعهد خسرو پرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) وعلىٰ عهده هاجر الرسول ﷺ من مكّة المكرّمة الىٰ المدينة المنورة (٦٢٢ م) وهو مبدأ التأريخ الهجري القمري والشمسي.

وفي هٰذه الأيام كان يحكم القسم الأعظم من العالم المتحضر يومئذ الدولتان الكبيرتان والقويتان الروم الشرقية وإيران الساسانية، وكانت هاتان منذ مدّة مديدة في حرب مستمرة في سبيل الاستيلاء علىٰ الحكم في العالم، امتدّت هذه الحروب من عهد السلطان انو شيروان (٥٣١ ـ ٥٨٩ م) وحتّىٰ عهد خسرو پرويز أي أكثر من أربعة وعشرين عاماً. وقد اثّرت الخسائر الفادحة والمصاريف الباهضة التي كانتا تتحملانها في هٰذه الحروب في قدرتها حتّىٰ لم يبق منها سوىٰ شبح مخيف خاوٍ.

ونحن من أجل أنْ ندرس أحوال الناس في ظل الفرس من مختلف الجهات علينا أنْ نطّلع علىٰ أوضاع الحكومات من بعد انوشيروان وحتّىٰ دخول المسلمين الىٰ إيران.

الحضارة الايرانية:

إنّ اكبر نقد يرد علىٰ الحكم القائم يومئذ هو أنّه كان حكماً ديكتاتورياً استبدادياً فردياً، ولاشكّ أنّ العقل الفردي ليس كالعقل الجماعي، فالظلم والمساومة أقلّ في الحكومة الجماعية من الحكومة الفردية. ولاشكّ ان شكل الحكم مما يؤثر في كيفية سلوك الناس.

انّ الملوك الساسانيين كانوا ذوي أُبّهة وفخفخة، فالبلاط الساساني وجماله وبهاؤه كان ممّا يحار فيه الناظرون، وذلك من كثرة ماجمعوا فيه من الجواهر والأشياء النفيسة والثمينة ومن الصور والنقوش مايحيّر العقول.

وقد شرح بعض المؤرخين بعض ترف خسرو پرويز، منهم حمزة الإصفهاني في كتابه «سنيّ ملوك الأرض» إذ كتب يقول: «كان لخسرو پرويز ثلاثة آلاف امرأة، واثنا عشر ألف جارية مطربة وراقصة. وله ستة آلاف حارس. وله ثمانية آلاف وخمسمائة من الخيل الجياد للطّراد، وإثنا عشر ألف من البغال لحمل أثقاله مع ألف بعير. وله تسعمائة وستون فيلاً للقتال»[١].

إنّ نظام المجتمع علىٰ عهد الساسانيين كان نظاماً طبقياً بل كان من قبل ذلك قديماً وانّما اشتد علىٰ عهدهم.

كتب أحد المحققين من المؤرخين الإيرانيين بشأن الطبقات في عهدهم يقول:

«إنّ من أشد عوامل التفرقة في الايرانيين هو النظام الطبقي المتشدّد الّذي كان يطبقه الساسانيون في إيران، وانْ كانت جذوره ممتدة منذ القدم إلّا انّ الساسانيين كانوا قد تشدّدوا في تطبيقه جدّا: فالملكية الفردية كانت محصورة تقريباً في سبع أُسر خاصة بينما كان عامة الناس محرومين من ذلك تقريباً. ونفوس ايران إذْ ذاك مائة وأربعون مليوناً تقريباً، واذا افترضنا أنّ الأُسر السبع كانت تبلغ سبعمائة ألف، وأضفنا الىٰ ذلك أُمراء الثغور وأصحاب الأملاك الصغار الّذين كانوا يتمتعون بشيءٍ من حقّ الملكية وافترضنا انّهم أيضاً سبعمائة ألف، كان الّذي يتمتّع بحق الملكية مليوناً ونصف المليون من مجموع مائة وأربعين مليوناً»[٢].

---

(١) سنيّ ملوك الارض: ٤٢٠.

(٢) بالفارسية: تاريخ اجتماعى ايران ٢: ٢٤ ـ ٢٦.

وقد نقل مؤلف كتاب «إيران في عهد الساسانيين» عن أحد المؤرخين الغربيين أنّه يقول: «إنّ العمّال والفلاحين في إيران علىٰ عهد الساسانيين كانوا يعيشون بمنتهىٰ الذلة والمسكنة والتعاسة، وكان من تكليفهم في الحروب أنْ يمشوا من وراء العسكر كأنّهم قد كتب عليهم أنّ يكونوا عبيداً أرقاء، من دون أنْ ينالوا علىٰ أعمالهم هٰذه الشاقة شيئاً»[1].

وذكر الكاتب الإسلامي شكيب أرسلان يقول:

«إنّ العمّال والفلاحين كانوا محرومين من أي شيء من الحقوق الاجتماعية بل كان عليهم عبء مصارف الأشراف وثقلهم، فلم يكن لهم أيّ نفع في حفظ هٰذا النظام، ولذٰلك كان كثير من الفلاحين والطبقات السفلىٰ في المجتمع قد تركوا أعمالهم فراراً عن أداء الضرائب والمكوس يلتجئون الىٰ الصوامع والدّير والكنائس والبيع»[2].

أجل، إنّ نسبة قليلة أقلّ من الواحد والنصف في المائة من المجتمع الإيراني كان يتمتع بكلّ شيء، امّا أكثر من ثمان وتسعين بالمائة من الناس في إيران كانوا كالعبيد الأرقّاء.

اختصاص التعليم بالطبقة الممتازة:

إنّ أطفال الأثرياء وأُولي النعمة والجاه فقط هم الّذين كان لهم الحقّ في أنْ يتعلموا، أمّا الطبقات الوسطىٰ وسائر الناس فقد كانوا ممنوعين عن ذٰلك! وقد اعترف بهٰذا النقص في الحضارة الفارسية القديمة حتّىٰ أُولئك الّذين كانوا يحاولون

---

(١) بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان: ٤٢٤.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠ ـ ٧١.

الاعتزاز بتلك الحضارة. فقد ذكر الفردوسي الشاعر الحماسيّ الفارسيّ في ديوان شعره الحماسيّ قصة تشهد علىٰ ذلك، وقد وقعت القصّة علىٰ عهد أنوشيروان أي في العهد الساساني الذهبي، وتشهد هٰذه القصّة علىٰ أنّ الأكثرية الساحقة من الناس لم يكن لهم حقّ التعلم.

يقول الفردوسي: كان أنوشيروان بحاجة الىٰ المعونة المالية لقتال الروم، فانّ أكثر من ثلاثمائة ألف جندي إيراني كانوا يحاربون الروم وهم في إعواز شديد للأسلحة والطعام. وكانوا قد أبلغوا انوشيروان بذلك، فاضطرب انوشيروان وخاف علىٰ مصيره من ذلك، ودعا إليه وزيره العالم «بُزُرك مِهر» ليشاوره في الأمر، ويقول انوشيروان: إنّ علىٰ الوزير أنْ يذهب الىٰ بلاد مازندران ليجمع المال اللازم لذلك من الناس، ويقول بزرك مهر: إنّ الخطر قريب وعلينا أنّ نفكر في الخلاص السريع ولذلك يقترح علىٰ الملك أنْ يقترض من الناس فيقبل الملك علىٰ أنْ يعجّل في الأمر، ويبعث بزرك مهر رسله إلىٰ القرىٰ والمدن القريبة ليبلّغوا أغنياءها بالأمر. ويحضر تاجر يعمل في تجارة الأحذية ويستعد لدفع جميع مصارف الحرب بشرط واحد هو: أنْ يسمح لولده بالتعلم والوزير لا يرىٰ مانعاً عن إجابة ملتمسه، فيسرع إلىٰ خسرو أنوشيروان ويبلغ الملك أمل الرجل، فيغضب أنوشيروان لذلك وينهر وزيره ويقول له: ما هٰذا الطلب الّذي تتقدم به أنت؟! ليس من الصلاح أنْ نستجيب لهٰذا الطلب، فإنّه بخروجه عن طبقته ينخر في كيان النظام الطبقي، وهٰذا ضرّه أكثر من نفع ما يدفعه من الذهب والفضة! فانّ ابن التاجر اذا تعلّم فأصبح عالماً ذا فنّ وهب له علمه آذاناً صاغية وعيوناً ناظرة، فإذا جلس ابني علىٰ سرير الملك واحتاج إلىٰ كاتب استخدمه ولم يبق للعلماء من أبناء البيوتات والأُسر سوىٰ أنْ يتحسّروا ويحسدوا ابن التاجر[١]! ومع هذا وصفوه بالعادل.

---

(١) بالفارسية: تاريخ اجتماعى ايران ١: ٦١٨.

وفي فتنة مزدك قتل ثمانين الفاً من أصحابه(١) ليقتلع جذور الفتنة! بينما جذور الفتنة كانت تكمن في التمايز الطبقي وكنز الثروات بيد الأثرياء الأغنياء، وحكر الثراء والمقام بأيدي طبقة خاصة، الىٰ جانب حرمان الأكثرية الساحقة، وسائر المفاسد الأخرىٰ. في حين يحاول أنوشيروان اَنْ يسكّت الناس بالضغط وقوة السلاح!

وبصدد توجيه نسبة صفة العدالة الىٰ أنوشيروان يقول إدوارد براون:

«وذلك لشدّة بطشه بالزنادقة المزدكيّين ممّا حبّبه إلىٰ مؤبد المجوس، وهم الّذين أثبتوا له هذه الصفة»(٢). ووصفوه بأنّه كان قد علّق خارج قصره سلسلة ليحركها المظلومون، فينبّهونه بذلك ويدعونه الىٰ العدل بشأنهم(٣).

ودليل الكذب فيه هو أنّهم يقولون بعد ذلك: أنّه لم يحرّكها في طول هذه المدّة إلّا حمار!

وكذلك قالوا «كان فيمن وفد إليه من رسل الملوك وهداياها والوفود من المماليك في العراق: رسول لملك الروم قيصر بهدايا والطاف، فنظر الرسول الىٰ إيوانه وحسن بنيانه، ومع ذلك اعوجاج ميدانه! فقال: كان ينبغي أنْ يكون الصحن مربّعا؟ فقيل له: إنّ عجوزاً لها منزل في جانب الاعوجاج منه، وأنّ الملك أرادها علىٰ بيعه وارغبها فأبت فلم يكرهها الملك وبقي الاعوجاج من ذلك علىٰ ماترىٰ! فقال الرومي: هذا الاعوجاج الآن أحسن من ذلك الاستواء»(٤).

---

(١) مروج الذهب ١: ٢٦٤.

(٢) بالفارسية: تاريخ ادبى ايران ١: ٢٤٦.

(٣) بالفارسية: تاريخ اجتماعى ايران ١: ٦١٨.

(٤) مروج الذهب ١: ٢٦٤.

عجيب! اَلا يحضّر من يريد أنّ يبني هٰكذا قصر عظيم هندسة وتصمياً خاصاً له وهٰكذا يقدم علىٰ البناء بدون أرضية كافية وهندسة خاصة؟! فيخرج القصر معوجّ الميدان. ـكما نقل المسعودي ـ، من يصدّق هٰذا؟! أجل لايبعد أن يكون موابذة المجوس وأصحاب البلاط قد وضعوا هٰذه القصص له شكراً له علىٰ ما قدّمه لهم من خدمات تذكر فتشكر.

وأعجب من ذٰلك اَنْ حاول بعض الشعوبيين اَنْ يضع حديثاً علىٰ لسان رسول الله صلى الله عليه وآله يصف انوشيروان بالعدالة: «ولدتُ في زمن الملك العادل»[1] وخبراً يقول: إنّ علياً عليه السلام حينما دخل مدائن كسرىٰ نزل في اِيوانه وأخرج جمجمة فأحيىٰ صاحبها وسأله عن حاله فقال: انّه انوشيروان وهو لكفره محروم عن الجنة ولكنّه لعدله لا يعذّب بالنار! وممّا يشهد علىٰ أنّ أصحاب البلاط كانوا يمدحونه ويثنون عليه وينشرون عنه الجميل ممّا ليس فيه ما يذكره الفردوسي في «الشاهنامة»: أنّ الوزير بزرك مهر كان وزيراً لانوشيروان مدة ثلاثة عشر عاماً، ثم غضب عليه خسرو پرويز فألقاه في السجن وكتب اِليه رسالة قال له فيها: انّ عملك هو الّذي أدّىٰ بك الىٰ القتل! فكتب بزرك مهر في جوابه يقول له: كنت أفيد من عقلي ما كان الحظّ يساعدني، والآن اِذْ ليس لي حظّ فسأفيد من حلمي وصبري إنْ كنت قد حرمت من كثير من أعمال الخير والبرّ، فقد استرحت أيضاً من كثير من أعمال السوء والشر، إنْ كنت قد سلبت منصب الوزارة فقد أُعْفيت من ألم الظلم فيها أيضاً، فما يضرني ذٰلك؟!

فلمّا بلغت هٰذه الرسالة ليد خسرو پرويز حضر عليه وأمر انْ يجدع أنفه وتقطع شفتاه! فلمّا سمع بزرك مهر ذٰلك قال: أجل إنّ شفتيّ يستحقان أكثر من ذٰلك!

---

(١) في إعلام الورى ١ : ٤٢.

فقال خسرو: لماذا؟ قال بزرك مهر: لأنّي أثنيت عليك بها عند الخاصة والعامة بما لم يكن فيك، ونشرت عنك جميلاً لم تكن أهلا له، يا أسوأ الملوك! بعد أنْ أيقنت بطهري وبرّي أردت قتلي بسوء الظنون؟! إذن فمن يأمل عدلك ومن يعتمد قولك؟!

فغضب خسرو پرويز من هٰذا الكلام وأمر بضرب عنقه[١].

وكذٰلك كان أكثر الحكام الساسانيين ذوي سياسة خشنة بالعصا الغليظة، وحتّىٰ العلماء وأصحاب الأعمال لم تكن لهم قيمة لدىٰ بلاطهم، إذ كان القادة الساسانيون مستبدّين بآرائهم بحيث لايجرؤ أحد علىٰ اظهار نظره لديهم، ولهٰذا كان عامة الإيرانيين غير راضين عنهم ولكنّهم كانوا خائفين منهم[٢].

وقتل خسرو پرويز ابنُه شيرويه ليصل الىٰ الملك كما نقل المسعودي[٣].

وملك بعد شيرويه حتّىٰ يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عدد يتراوح ذكرهم في التأريخ بين ستة إلىٰ أربعة عشر رجلاً وامراة وهٰذا يعني أنّ الحكومة تغيّرت في مدة أربع سنين أكثر من ست مرات الىٰ أربع عشرة مرة. فما حال دولة يحدث فيها أربعة عشر اِنقلاباً دموياً في مدة أربع سنين فقط! فكلّ من يصل للملك يقتل كلّ من يدّعيه غيره، ويفعل ما يراه موطّداً لأركان ملكه، فالأب يقتل ابنه والابن يقتل أباه، وكلّ من كان يصل الىٰ الملك كان يقتل أقرباءه أي أبناء الملوك الآخرين دفعاً للخطر، كان القادة ينادون بالملك للأطفال والنساء وبعد عدة أسابيع يقتلونهم ويجلسون آخرين بمكانهم. وهٰكذا كانت الدولة الساسانية تسير الىٰ هاوية الهلاك.

---

(١) الشاهنامة ٦: ٢٥٧ ـ ٢٦٠. وحكى القصّة المسعودي في مروج الذهب ١٠: ٢٧٦.

(٢) بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان: ٣١٨.

(٣) مروج الذهب ١: ٢٨٠.

حروب إيران والروم:

بعد وقوع عدد من الحروب بين إيران والروم عقد أنوشيروان صلحاً مع الروم اسموه بالصلح الدائم. وبعد مدة ساءت ظنون أنوشيروان بالروم فأعدّ العدّة وجهّز الجيوش للهجوم علىٰ الروم واشتعلت نيران الحرب، وفي فترة قليلة نسبياً فتح الفرس سورية وأحرقوا مدينة أَنطاكية ونهبوا آسيا الصغرىٰ، واستمرت الحروب حتّىٰ عشرين عاماً وحتّىٰ فقد كلّ من المعسكرين إمكاناتهم وطاقاتهم فيها، وبعد خسائر كثيرة عقدوا الصلح بينهم مرة أُخرىٰ ورجعوا الىٰ حدودهم السابقة كما كانت شريطة أَنْ يدفع الروم كلّ عام عشرين ألف دينار من الذهب الىٰ ايران.

وبعد أنْ تملّك في الروم «تي پاريوس» بدأ هجوماً عنيفاً علىٰ إيران بغية الانتقام منها، واستمرت هٰذه الحروب سبع سنين. ومات عنها أنوشيروان وتملّك بعده ابنه خسرو پرويز وفي عام ٦١٤ م بدأ پرويز هجوماً عنيفاً علىٰ الروم وفتح في الحملة الأولىٰ الشام وفلسطين وأفريقيا، ونهب اورشليم وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح وهدم المدن، وانتهت هٰذه الحروب بقتل أكثر من تسعين ألف مسيحي!

وكان هٰذا بعد بعثة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله فتفاءل المشركون بغلبة الفرس عبدة النيران علىٰ الروم المسيحيين واغتمّ المسلمون لذٰلك، وانتظر رسول الله صلى الله عليه وآله الوحي فنزلت الآيات الأوائل من سورة الرّوم ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1].

وقد تحقق نبأ القرآن الكريم بشأن الروميين بعد عشر سنين أي في سنة ٦٢٧م تقريباً فاستعاد هرقل مدينة نينوىٰ (الموصل) ولم يمضِ شيء حتّىٰ قتل

---

(١) الروم: ١ ـ ٥.

خسرو پرويز علىٰ يد ابنه شيرويه، ومات شيرويه بعد ثمانية أشهر، وبعد شيرويه حكم إيران في مدة أربع سنين اكثر من عشرة قادة أربعة منهم نساء وانتهىٰ الأمر بهجوم العرب المسلمين وقد ساعدت هٰذه الحروب الّتي استمرت أكثر من خمسين عاماً علىٰ تقدم الفتوحات الإسلامية مساعدة جادّة مؤثرة، وذٰلك إذْ تعلقت مشيئة اللّه بأن ينتشر نور الإسلام.

اضطراب الوضع الديني:

وأهمّ اضطراب كان يسود إيران علىٰ عهد الساسانيين هو الاضطراب الديني. إنّ «أردشير بابكان» مؤسس سلسلة الساسانيين كان ابن موبذ من موابذة المجوس ووصل الىٰ السلطة بمساعدة علماء المجوس، ولذٰلك قام بنشر دينهم في أطراف مملكته بكلّ ما قدر عليه. فأصبح الدين الرسمي والعام لإيران علىٰ عهد الساسانيين هي المجوسية، وبما أنّ سلطة الساسانيين إنّما تحققت بتأييد موابذة المجوس لذٰلك كانوا في رعاية تامة من قبل البلاط الساساني، وكانوا أقوىٰ طبقة في المجتمع الطبقي الإيراني، وكان الحكّام الساسانيون في الواقع متعيّنين بتعيين من الموابذة المجوس، فاذا تمرد أحد الحكام علىٰ العلماء الروحيين كانوا يقابلونه بشدّة، وكذٰلك كان الملوك الساسانيّون يقبلون علىٰ طبقة رجال الدين أكثر من أية طبقة أُخرىٰ، ولذٰلك كان الموابذة في إطّراد وكثرة، وكان الساسانيون يفيدون منهم لتأييد سلطانهم، ويقيمون لهم في أطراف إيران معابد النيران وفي كلّ منها عدد كثير منهم، حتّىٰ كتبوا أنّ خسرو پرويز بنىٰ معابد نيران كانت تسع لاِثني عشر ألف «هيربد» من العباد يصلّون ويتلون الأناشيد الدينية[1].

---

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن ساسانى ١: ١.

وهٰكذا كانت المجوسية دين البلاط الرسمي، وكان الموابذة المجوس يسعون لتهدئة الطبقات الكادحة والمحرومة من المجتمع بحيث لا يحسّون كثيراً بآلامهم.

وهٰذه الصلاحيات اللامحدودة المخوّلة للموابذة المجوس وضغطهم الشديد علىٰ عموم الناس أثر في إبعاد الناس عن المجوسية، فكان أكثر الناس يحاولون أن يجدوا لانفسهم ديناً غير دين طبقة الأشراف.

ومن ناحية أُخرىٰ: فانّ دين المجوس كان قد فقد حقيقته تماماً، فقد بلغ تقديس النيران إلىٰ تحريم ضرب الحديدة المحماة بالنار بالمطرقة لأنّها بمجاورتها النار كانت قد تقدست بقداسة النار المقدسة! وهٰكذا شكّلت الخرافات والأساطير أكثر أُصول عقائد زرادشت، أمّا حقائق دينه فقد تركت المجال لعدد من الشعائر الخاوية الميّتة الّتي كان الموابذة يضيفون كلّ يوم إليها خرافات جديدة.

ومن ناحية ثالثة: كانت الثقافة الرومانية والهندية قد وجدت طريقها إلىٰ إيران علىٰ عهد أنوشيروان، وسبّب اصطكاك العقائد الزرادشتية مع العقائد المسيحية والأديان الأُخرىٰ يقظة الايرانيين وأصبحوا يتألّمون ممّا في الدين الزرادشتي من الخرافات والمطاليب الواهية، وسبّب كلّ هٰذا اختلاف العقائد والآراء في إيران وشيوع الأديان والمذاهب الأُخرىٰ، والشكّ والتردد في آخرين، حتّىٰ ترك أكثر الناس ما كانوا يعتقدون به قبل ذٰلك، وشمل الإلحاد والاضطراب كلّ أنحاء إيران[١].

الحضارة الروميّة:

أمّا الرّوم فلم تكن بأحسن حالاً من إيران، فالحروب الداخلية والخارجية

(١) بالفارسية: تاريخ اجتماعى ايران ٢: ٢٠ فما بعد.

الّتي كانت تكابدها دائماً ضد إيران علىٰ أراضي «أرمنستان» وغيرها كانت قد أعجزت الناس وجعلتهم مستعدين لاستقبال أيّ تغيير للأوضاع الراهنة آنذاك. إنّ رجال الكنيسة حينما اخذوا زمام الحكم بأيديهم في الروم جعلوا يمارسون الضغط الشديد بالنسبة الىٰ الوثنيين ولم تكن الفتنة تنطفيء بين الوثنيين والمسيحيين فكانت الاختلافات الدينية أكثر من كلّ شيء في الروم، وكان ضغط رجال الكنيسة قد أدّىٰ بكثير من الناس الىٰ الحرمان والفقر، وكانت هٰذه الاختلافات تنخر في كيان قدرة الامبراطورية الرومية.

وعدا هٰذا فقد كان البيض في شمال الروم في اصطكاك وصدام مع الصُفر في شرق الروم في سبيل الحصول علىٰ أكثر النقاط صلاحاً للزراعة والاستثمار، وكانت هذه الصدامات أحياناً تؤدّي الىٰ خسائر فادحة عظيمة من الطرفين، وكان هٰذا قد تسبّب في انقسام الامبراطورية الرومية الىٰ قسمين: شرقي وغربي. ويرىٰ المؤرخون أنّ الأوضاع الاجتماعية والمالية والسياسية الرومية في القرن السادس كانت في اضطراب شديد، ولا يرون في اقتدار الروم علىٰ استعادة سلطتها علىٰ بعض النقاط المسلوبة منها دلالة علىٰ قدرة الروم، بل يرون ذلك من فقدان النظام الحاكم في إيران لانضباطه وكيانه القوي.

إذن: فالامبراطوريتان اللتان كانتا تدّعيان السيادة السياسية علىٰ العالم يومئذ كانتا حين طلوع فجر الإسلام تعيشان مرحلة الشيخوخة والهرم، ومن البديهي أنّ هٰذه الأوضاع المضطربة كانت قد أوجدت في الشعبين استعداداً بل استقبالاً لدين جديد ينظّم أوضاعهم هٰذه من جديد منقذاً لهم ممّا هم فيه من الاضطراب والقلق.

وإذ قرأنا هذا عن أوضاع هاتين الامبراطوريتين فلنقرأ عن دويلتين عربيّتين تابعتين لهما:

ملوك الحيرة من اليمن:

بَعد قرنين من الميلاد وفي أوائل القرن الثالث، هبط بعض الطوائف العربية من بني لَخْم اليمنيين في الأراضي المجاورة للفرات في العراق، على عهد الفرس الساسانيين.

وكان الفرس الساسانيون يحكمون العراق، ولكن القرىٰ والمزارع العراقية الساسانية كانت تتعرض من حين لآخر لغارات القبائل العربية البدوية من ناحية بادية الصحراء الحجازية، فكانوا بحاجة الى عربٍ يملّكونهم على ثغور العراق فيكفونهم غارات البدو، فملّكوا هؤلاء اللّخميّين.

وبنى هؤلاء اللخميّون في هذه المنطقة عدداً من المدن أو القرى والقلاع أهمها الحيرة قرب الكوفة على حافة بادية الصحراء الحجازية، ولفظ الحيرة تحرّف عن حِرتا السُريانية وتعني القبّة والحرم، أو المعسكر والمخيّم[١] وساعد جوّ هذا البلد و مناخه وماؤه على عمرانه والحضارة فيه، ومن مظاهر الحضارة فيه أنهم تعرّفوا على الخطّ والكتابة به، ومنهم انتقل الى عرب الحجاز[٢].

ومن تاريخهم المنقول نكتفي نحن هنا بما ذكره اليعقوبي والمسعودي ونعلّق عليه بما يلزم:

نقل اليعقوبي عن أهل العلم بالرواية قالوا: لما تفرق أهل اليمن، قدم مالك بن فهم بن غنم بن دوس، حتّىٰ نزل أرض العراق في أيام ملوك الطوائف (الفُرس) فأصاب قوماً من العرب من مِعدّ وغيرهم بالجزيرة (الموصل) فملّكوه عليهم عشرين سنة.

---

(١) العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٤٤.

(٢) فتوح البلدان: ٤٥٧.

وتكهّن جذيمة الأبرش (التنوخي)، وعمل صنمين سماهما (الضيزنان) واستهوىٰ بهما أحياءً من العرب، وصار بهم الى العراق، فسار من ارض البصرة الى ارض الجزيرة (الموصل) حتّىٰ صار الى ناحية على شط الفرات بالقرب من الأنبار يقال لها: بقة.

وكان يملك تلك الناحية امرأة يقال لها الزبّاء[1].

فلما صار جذيمة الى أرض الأنبار، واجتمع له من أجناده ما اجتمع قال لهم: اني عزمت على أن أرسل الى الزبّاء (زنّوبة) فأتزوّجها فأجمع ملكها الى ملكي!

فقال غلام له يقال له قصير: إنّ الزبّاء (زنّوبة) لو كانت ممن تقبل نكاح الرجال لسُبقتَ اليها!.

فكتب اليها. فكتبت اليه: أن أقبل اليّ أزوّجك نفسي! فارتحل اليها. فلما دخل عليها.. قتلته فقطّعته «وكان يعاصر اردشير بن بابك وشاهپور ابن اردشير»[2].

فلما قتل جذيمة ملك مكانه ابن اخته: عمرو بن عدي (ومن هنا سمّوا: بني عدي) بن نصر (ومن هنا سمّوا: بنى نصر) ابن ربيعة (فهم من بني ربيعة) ابن عمرو بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لَخْم ومن هنا سموا: اللَخْميّن، ولتكرار اسم المنذر فيهم بعد هذا سمّوا بمناذرة العراق بازاء غساسنة الشام.

قال المسعودي: وكان على الحيرة ابن عم جذيمة: عمرو بن عبد الحيّ التنوخي، فلما صرف عمرو بن عدي وجوه جندخاله جذيمة التنوخي إلى

---

(١) محرّفة كلمة: زنّوبة ملكة تدمر النبطية التي كانت تحكم الأنباط بالشام عن الرومان، وطغت فتمرّدت عليهم، فحاربوها حتى قضوا عليها عام (٢٧٣ م) ـ العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٣٢.

(٢) مروج الذهب ٢: ٦٥.

نفسه ومناهم بالمال والحال، فانصرف اليه منهم بشر كثير، التقى هو وعمرو ابن عبدالحي التنوخي بالقتال حتى خافوا الفناء، فخضع التنوخي لابن عدي وتمّ الأمر له[١].

قال اليعقوبي: ثم ملك امرؤ القيس بن عمرو[٢].

ثم ملك أخوه الحارث بن عمرو.

ثم ملك عمرو بن امرىء القيس.

قال المسعودي: ثم ملك النعمان بن امرىء القيس[٣].

قال اليعقوبي: ثم ملك المنذر بن (النعمان بن) امرئ القيس.

ثم ملك النعمان (ابن المنذر) وحكم ثماني وثلاثين سنة، عاصر فيها من ملوك الفرس: يزدجر الأول[٤] وبهرام گور. وكان من اشد ملوك العرب نكاية في أعدائه. غزا الشام مراراً وأكثر من المصائب في أهلها وسبىٰ وغنم. وجنّد الجند علىٰ نظام خاص عرف به، فكان عنده من الجيش كتيبتان: إحداهما مؤلفة من رجال الفرس اسمها «الشهباء» والأُخرى من عرب تنوخ اسمها «الدوسر» فكان

---

(١) مروج الذهب ٢: ٧١ فكان ملكه مائة سنة ٢: (٦٦ و ٧٤)، وفي اليعقوبي ١: ٢٠٩ خمساً وخمسين سنة. بل نصبه شاهپور بن اردشير الساساني في (٢٤١ ـ ٢٧١ م) أي ثلاثين سنة فقط ـ العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٤٤.

(٢) ملك (٢٧٢ م)، وكأنه غزا لبنان فهلك على شرقي جبل الدروز ودفن هناك سنة (٣٢٨ م) كما في نقش النمارة على قبره في أطلال معهد روماني اكتشفه دوسو وماكلر عام (١٩٠١ م) كما في العصر الجاهلي: ٣٥، فقد ملك (٥٨)، ويقاربه المسعودي ٢: ٧٤ ستين سنة، وفي اليعقوبي ١: ٢٠٩ (٣٥) سنة.

(٣) مروج الذهب ٢: ٧٤.

(٤) من ٣٩٩ ـ ٤٢٠ م. العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٤٤.

يغزو بهما من لا يدين له من العرب[١]. تتبّع أخباره بالتفصيل جرجي زيدان في كتابه «العرب قبل الاسلام».

قال اليعقوبي: وهو الّذي بنىٰ «الخورنق»[٢] فبينما هو جالس ينظر منه الىٰ مابين يديه من الفرات وما عليه من النخل والأجنّة والأشجار إذ ذكر الموت فقال: وما ينفع هٰذا مع نزول الموت وفراق الدنيا؟! فتنسّك واعتزل الملك. وإياه عنىٰ عديّ بن زيد العبادي حيث يقول:

وتفكرْ ربُّ الخورنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سرَّه حاله وكثرة ما يمـ ـلك، والبحر معرض والسدير
فارعوىٰ قلبه وقال: وما غبـ ـطة حيّ الىٰ المات يصير[٣]

قال المسعودي: وملك (بعده ابنه) الأسود بن النعمان.

وملك (بعده ابنه) المنذر بن الأسود[٤].

---

(١) للتفصيل انظر: العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان.

(٢) وكان سبب بنائه الخورنق: انّ يزدجرد بن بهرام شاه بن شاهپور ذي الأكتاف، ولد له ابنه بهرام، فسأل عن منزل برّي مري صحيح من الأدواء والأسقام فدلّ علىٰ ظهر الحيرة، فأمر يزدجرد النعمان هٰذا ببناء مسكن له ولابنه بهرام، فامر النعمان رجلاً يقال له سنمّار أنْ يبني له ذٰلك فبناه، فلمّا فرغ من بنائه تعجّبوا من حسنه واتقان عمله فوفّوه أجره، فقال: لو علمت انّكم تصنعون بي ما أنا أهله وتوفوني أجري لكنت بنيته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت! فغضب النعمان وقال: كنت قادراً علىٰ أن تبني ماهو افضل منه ولم تبنه كذلك؟! ثم أمر به فطرح من أعلىٰ الجوسق من رأس الخورنق، فجرىٰ ذلك مثلاً في العرب يقال: جزاه جزاء سنمّار (الطبري ٢: ٦٥)، (الاغاني ٢: ١٤٤ ـ ١٤٦).. والجوسق معرب كلمة: كوشك، وهو الغرفة العالية الخاصّة في أعلىٰ القصر. والخورنق كذلك معرّب كلمة: خورنگاه أي المطعم.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٠٩، ٢١٠ والقصيدة في الأغاني ٢: ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٤) مروج الذهب ٢: ٧٤ وفي اليعقوبي ١: ٢١٠: المنذر بن النعمان. من (٥١٥م) معاصراً ←

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر[1] قال اليعقوبي: وهو ابن هند، وكان يلقّب بمضرّط الحجارة (لشدّته على العرب). وكان قد جعل الدهر يومين: يوماً يصيد فيه ويوماً يشرب، فاذا جلس لشربه أخذ الناس بالوقوف على بابه حتىٰ يرتفع مجلس شرابه.. فلم يزل طَرَفة بن العبد يهجوه ويهجو أخاه قابوساً ويذكرهما بالقبيح ويشبّب باخت عمرو ويذكرها بالعظيم.. ويساعده على هجائه المتلمّس. فقال لهما عمرو: قد طال ثواكما، ولا مال قِبلي، ولكن قد كتبت لكما الى عاملي بالبحرين يدفع لكل واحد منكما مئة ألف درهم!

فأخذ كل واحد منهما صحيفة. واستراب المتلمّس بأمره، فلما صارا عند نهر الحيرة لقيا غلاماً عبادياً[2] فقال له المتلمّس: أتُحسن أن تقرأ؟ قال: نعم. قال: اقرأ هذه الصحيفة: فاذا فيها: إذا أتاك المتلمّس فاقطع يديه ورجليه. فطرح الصحيفة وقال لطرفة: في صحيفتك مثل هذا! قال: لا يجترئ علىٰ قومي بهذا وأنا بذلك البلد أعزّ منه! ومضىٰ الى عامل البحرين بصحيفته دون أن يقرأها.

← لقُباد الساساني وفي عهده كان الحارث الغساني قد أقام دولته في الشام للروم، فاشتبك المنذر معه في حروب طاحنة أسر فيها ابناً للحارث فقتله سنة (٥٤٤ م) وهو صاحب يوم حليمة المعروف بالقرب من قِنّسرين وفيها قتل (٥٥٤ م)، فملك أربعين عاماً تقريباً، وقال المسعودي: (٣٤)، واليعقوبي: (٣٠).

(١) مروج الذهب ٢: ٧٤. من (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م) وساءت العلاقة بينه وبين قُباد الساساني في أوائل ملكه (قبل ٥٥٩ م) فعزله قباد وولّى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة، ثم توفي قباد (نحو ٥٥٩ م) وتملك خسرُو أنوشيروان فأعاد المنذر الى حكم الحيرة فحارب الحارث فهزمه وقتله. ولُقّب محرّق العرب لأنه حرّق قوماً من العرب من بني تميم في يوم أوارة باليمامة وفاءً بنذره ـ العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٤٥. وحيث عاد الى الحكم توهم اليعقوبي التعدد فقال: ثم ملك عمرو بن المنذر الثاني ١: ٢١٠.

(٢) أي نصرانياً، أهل عبادة، وقراءة في الكتب.

فلما قرأ العامل صحيفته قطع يديه ورجليه وصلبه!.

ثم ملك أخوه قابوس بن المنذر[1].

قال المسعودي: وملك النعمان بن المنذر (الرابع) وهو الذي يقال له: أبيَت اللَّعن، اثنتين وعشرين سنة[2] ولتكرار اسم المنذر فيهم سمّوا: المناذرة.

قال اليعقوبي: وكان مع المنذر أهل بيت من امرئ القيس بن زيد، وكان من أهل ذلك البيت عديّ بن زيد العبادي (النصراني) وكان خطيباً شاعراً قد كتب العربية والفارسية، وكان المنذر قد جعل عندهم ابنه النعمان فأرضعوه وكان في حجورهم.

وكتب كسرىٰ الىٰ المنذر بأن يبعث له بقوم من العرب يترجمون له الكتب. فبعث بعديّ بن زيد وأخوين له، فكانوا في كتّابه يترجمون له.

فلما مات المنذر قال كسرىٰ لعديّ بن زيد: هل بقي من أهل هذا البيت من يصلح للملك؟

قال: نعم، إن للمنذر ثلاثة عشر ولداً كلهم يصلح لما يريد الملك!

فبعث فأقدمهم ومعهم النعمان الذي ربّاه أهل بيت عديّ بن زيد.

فأنزلهم عديّ بن زيد كل واحد على حِدته، وكان يفضّل اخوة النعمان عليه في النزل ويريهم أنه لا يرجوه، ويخلو بهم رجلاً رجلاً ويقول لهم: إنْ سألكم الملك: هل تكفوني العرب؟ فقولوا له: لن نكفيكهم! الا النعمان فقد قال له: إن سألك الملك عن اخوتك فقل: إن عجزت عنهم فأنا عن العرب اعجز!

---

(١) اليعقوبي ١: ٢١١ وهو الذي اشتبك مع المنذر بن الحارث التنوخي الغسّاني في معارك أهمها معركة عين أباغ سنة (٥٧٠ م) هزم فيها من المنذر الغساني ـ العصر الجاهلي، لشوقي ضيف: ٤١.

(٢) مروج الذهب ٢: ٧٥، من (٥٨٠ ـ ٦٠٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ٤٦.

فلما امر كسرىٰ عدي بن زيد أن يدخلهم عليه، جعل يدخلهم رجلاً رجلاً، فاذا سألهم: هل تكفوني ما كنتم تكفون؟ قالوا: لن نكفيك العرب! الا النعمان فانه لما دخل عليه قال له: هل تستطيع أن تكفيني العرب؟ قال: نعم! قال: فكيف تصنع باخوتك؟ قال: إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز!. فملّكه وكساه وألبسه اللؤلؤ! فخرج وقد مُلّك عليهم.

وكان الأسود بن المنذر يحضنه أهل بيت أشراف من الحيرة يقال لهم بنومرينا، وكان منهم رجل شاعر مارد يقال له عدي بن أوس بن مرينا، لمّا رأىٰ ذلك أمر قوماً من خاصة النعمان وأصحابه أن يذكروا عديّ بن زيد عنده ويقولوا: إنه يزعم أن الملك (النعمان بن المنذر) عامله وأنه هو ولّاه ولولاه ماولّي، وكلاماً نحو هذا!

فلم يزالوا يتكلمون بذلك بحضرة النعمان حتىٰ أحفظوه وأغضبوه على عديّ بن زيد. فكتب النعمان اليه: عزمت عليك الازرتني! فاستأذن كسرى، وقدم عليه، فأمر النعمان بحبسه في حبس لا يصل اليه فيه أحد!.

فجعل عديّ يقول الشعر في محبسه ويستعطف النعمان ويذكر له حرمته و يعظه بذكر الملوك المتقدّمين، فلم ينفعه ذلك. وجعل أعداؤه من آل مرينا يحمّلون عليه النعمان ويقولون له: إن أفلت قتلك وكان سبب هلاكك!.

وكان لعديّ عند كسرى أخوان يقال لأحدهما، أُبيّ، والآخر: سُميّ، و ابنه عمرو بن عدي، فكتب اليهم شعراً.. فقام أخوه وابنه ومن معهما الى كسرىٰ فكلّماه في أمره.

فكتب كسرىٰ الى النعمان يأمره بتخلية سبيله، ووجّه في ذلك رسولاً... وابتدأ الرسول به... فبلغ النعمان مصير رسول كسرىٰ الىٰ عديّ، فلما خرج من

عنده وجّه اليه النعمان من قتله: وضع على وجهه وسادة حتىٰ مات؛ ثم قال للرسول: إنّ عديّاً قد مات. وأعطاه وأجازه وتوثق منه أن لا يخبر كسرىٰ الّا أنه وجده ميّتاً! وكتب الى كسرىٰ: أنه قدمات!.

انتقام ابن عديّ لأبيه:

وقال: وكان عمرو بن عديّ يعمل لكسرى عمل أبيه في ترجمة الكتب... وطلب كسرىٰ يوماً جارية وصف صفتها فلم توجد له، فقال له عمرو بن عدي: أيها الملك! عند عبدك النعمان بنات له وقرابات علىٰ اكثر مما يطلب الملك، ولكنه يرغب بنفسه عن الملك ويزعم أنه خير منه!.

فوجّه كسرىٰ الى النعمان يأمره أن يبعث اليه ابنته ليتزوّجها!

فقال النعمان: أما في عِينِ السواد وفارس ما يبلغ الملك حاجته؟!

فلما انصرف الرسول أخبر كسرىٰ بقول النعمان.

فقال كسرى: وما يعني بالعِين؟

فقال عمرو بن عدي: أراد البقر! ذهاباً بابنته عن الملك!

فغضب الملك وقال: ربّ عبد قد صار الى اكبر من هذا ثم صار أمره الى تباب! وأمسك عنه شهراً، ثم كتب اليه بالقدوم عليه.

وبلغت النعمان كلمته فعلم ما أراد، فحمل سلاحه وما قوي عليه ولحق بجبَلَي طيء، وهو مصاهرهم على سعدىٰ بنت حارثة منهم، فسأل طيئاً أن يمنعوه من كسرىٰ فقالوا: لا قوة لنا به! فانصرف عنهم.

وجعلت العرب تمتنع من قبوله. حتى نزل في بطن ذي قار في بني شيبان، فلقي هانئ بن مسعود الشيباني، فدفع اليه سلاحه وأودعه بنته وحرمته ومضىٰ الى كسرى فنزل ببابه، فأمر به فقُيّد، ثم وجّه به الى «خانقين» وطُرح تحت الفيلة فداسته حتىٰ قتلته فقُرّب للأُسود فاكلته!.

ووجّه كسرىٰ الى هانىء بن مسعود: أن ابعث إليّ مال عبدي الذي عندك وسلاحه وبناته[١]!

قال: وكان النعمان أودعه ابنته وأربعة آلاف درع. فأبىٰ هانئٌ وقومُه أن يفعلوا، فوجّه كسرى بالجيوش من العرب والعجم، فالتقوا بذي قار، فأتاهم حنظلة بن ثعلبة العجلي فقلّدوه أمرهم قالوا لهانئٌ: ذمّتك ذمّتنا ولا نخفر ذمّتنا! فحاربوا الفرس، فهزموهم ومن معهم من العرب، فكان أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم[٢].

فيروى عن رسول الله أنه قال: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نُصروا[٣].

---

(١) اليعقوبي ١: ٢١٢ ـ ٢١٥. ونقل الطبري ٢: ٢٠٦ عن أبي عبيدة مَعمر بن المثنىٰ عن بعضهم: أن هانىء بن مسعود لم يدرك هذا الأمر، وانما هو هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود. وهو الثبت عندي. وكذلك ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف: ٢٠٧.

(٢) اليعقوبي ١: ٢١٥.

(٣) اليعقوبي ١: ٢١٢ والمسعودي في التنبيه والاشراف: ٢٠٨ قال: قيل :إن ذلك كان قبل الهجرة، وان اناساً من بكر بن وائل من البحرين واليمامة جاؤوا الموسم، كانوا يريدون المضيّ الى بكر بن وائل مع بني شيبان بالعراق لنجدتهم، فوقف عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله يعرض نفسه عليهم، ودعاهم الى الايمان بالله.. فوعدوا النبيّ صلى الله عليه وآله إن نصرهم الله على الأعاجم آمنوا به وصدّقوا بنبوّته! فدعا لهم النبيّ بالنصر. فلما بلغه ظهورهم على الأعاجم قال: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا.

وقال في مروج الذهب ١: ٣٠٧: وكان حرب ذي قار في ملك خسرو پرويز، وهو اليوم الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، ونُصرت عليهم بي. وكانت بعدَ بعثته لتمام أربعين سنة من مولده، وفي رواية أُخرى: بعد وقعة بدر بأربعة أشهر.

←

--- ← وروىٰ القصة بالتفصيل الطبري ٢: ١٩٣ ـ ٢١٢ عن محمد بن هشام الكلبي عن كتاب حمّاد الراوية الكوفي، ولكنه روى عن الكلبي قال: اني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بين ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرىٰ وتاريخ سنيّهم، من بيع الحيرة.

وعزّز ذلك الطبري فقال: وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق، متعالماً (معلوماً) عند أهل الحيرة مثبتاً عندهم في أسفارهم وكنائسهم ـ الطبري ١: ٦٢٨.

وعلى صحة الحديث النبويّ لعلّ العلّة فيه هو أن بنات النعمان كنّ نصارىٰ مترهّبات، وكان خسرو پرويز كافراً مجوسياً زرادشتياً لا تحل له النصرانية. ويدل على ذلك خبران رواهما المسعودي في مروج الذهب قال:

كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر اذا خرجت الى بيعتها يُفرش لها طريقها بالحرير والديباج، مغشى بالخزّ والوشي، فتقبل في جواريها حتىٰ تصل الى بيعتها وترجع الىٰ منزلها.

ولما وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميراً عليها قتل رستم وهزم اللّٰه الفرس، أتت حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهنّ في زيّها عليهنّ المسوح والمقطعات السود، مترهّبات، يطلبن صلته ـ ٢: ٧٩.

وقال: وكانت هند بنت النعمان بن المنذر مترهبة في دير لها بالحيرة، فركب المغيرة بن شعبة اليها وهو أمير الكوفة يومئذٍ. وهند قد عميت، فلما جاء المغيرة الى الدير استأذن عليها، فاتتها جاريتها فقالت لها: هذا المغيرة بن شعبة يستأذن عليك؟ فقالت هند لجاريتها: الق اليه أثاثاً، فألقت له وسادة من شعر، ودخل المغيرة فقعد عليها وقال: أنا المغيرة: فقالت له: قد عرفتك عامل المدَرَة (الكوفة) فما جاء بك؟ قال: أتيتك خاطباً اليك نفسك! فقالت: أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت الا بحاجتك، ولكنّي اخبرك الذي أردت له! قال: وماهو؟ قالت: أردت أن تتزوّجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول: تزوجت ابنة النعمان! قال: ذلك أردت! ـ مروج الذهب ٣: ٢٥. ←

سائر ملوك الحيرة ومصيرها:

قال ٱلمسعودي: «ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس، حتىٰ بلغ عدد الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكاً من بني نصر وغيرهم من العرب وٱلفرس، وكان مدّة ملكهم ستمائة وٱثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر. وبدأ عمران الحيرة من أوائل المئة الثانية من هؤلاء ٱلملوك فكان عمرانها من بدوه إلىٰ أن بنيت ٱلكوفة فتناقص عمرانها: خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة[١]، ثمّ لم يزل عمرانها يتناقص إلىٰ أيام ٱلمعتضد حيث ٱستولىٰ عليها ٱلخراب. وكان جماعة من خلفاء بني ٱلعباس كالسفّاح وٱلمنصور وٱلرشيد وغيرهم ينزلونها ويطيلون ٱلمقام بها، لطيب هوائها وصفاء جوهرها وصحة تربتها وصلابتها، وقرب ٱلخورنق وٱلنجف منها. وقد كان فيها أديرة كثيرة فيها كثير من ٱلرّهبان، فلمّا تداعىٰ ٱلخراب إليها لحقوا بغيرها. قال ٱلمسعودي «وهي في هٰذا ٱلوقت ليس بها إلّا ٱلصدىٰ وٱلبوم»[٢].

← وعليه فهنّ نصارىٰ مترهّبات لا يحلن لكافر مجوسيّ زرادشتي.

وعلىٰ أي حال فالعباديون النصارىٰ وهم أخلاط من العرب وغيرهم، والأحلاف من الأنباط من بقايا سكان العراق من الآراميين والأكديين كانوا يجاورون الاكثرية العرب في الحيرة، وكانت فيهم جالية فارسية تمتهن الحرف والمهن، وفيهم بعض اليهود، فكانت الحيرة سوقاً تجارية وزراعية كبرىٰ، ومتأثرة بالثقافة الفارسية العامة في المنطقة ـ العصر الجاهلي: ٤٧.

(١) وروي في ٱلطبري عن ٱلكلبي: أنّ ٱلحيرة بنيت مع ٱلأنبار علىٰ عهد بختنصّر (نبوخذنصر) فلمّا هلك بختنصر تحول أهلها إلىٰ الأنبار فخربت ٱلحيرة، إلىٰ أنْ عمّرت الحيرة مرة أخرى باتخاذ عمرو بن عدي ٱللخمي إياها منزلاً لنفسه، فعمرت ٱلحيرة خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة إلى أن وضعت ٱلكوفة ونزلها ٱلاسلام (الطبري ٢: ٤٣)

(٢) مروج الذهب ٢: ٨١.

غساسنة الشام:

وفي القرن الخامس الميلادي هاجرت جماعات من أطراف الجزيرة الىٰ جهة شمالها الغربي بجوار حدود المملكة الرومية فأسّسوا دولة الغساسنة الّتي كانت تحت حماية الأُمراء الروميين تبعاً للقسطنطينية، كما كان حكام الحيرة عمّالاً لملوك الفرس.

وتحضّرت دولة الغساسنة نوعاً ما، فهي كانت تجاور «دمشق» من ناحية ومدينة «بصرىٰ» التأريخية من ناحية أُخرىٰ، فهي كانت تحت تأثير الحضارة الرومية. وبما أنّ الغساسنة كانوا في خلاف مع مناذرة الحيرة اللَخَميّين ومن ورائهم الفرس، لذٰلك كانوا يوالون الرومانيين. وقد بلغ عدد أُمرائهم بضعة عشر رجلاً، واليك تفصيل خبرهم:

ملوك الشام من اليمن:

قال المسعودي: «وتفرّقت قبائل العرب لما كان بمأرب فسارت غسّان الىٰ الشام[١]، وهم من ولد مازن بن الأزد، وإنّما غسّان ماء لم يزل عمرو بن عامر حين خرج من مأرب مقيماً علىٰ هٰذا الماء، وهو مابين زُبيد ورمَعَ وادي الأشعريين بأرض اليمن.

وكانت قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ أوّل من نزل الشام من عرب اليمن، واتّصلوا بملوك الروم ودخلوا في النصرانية، فملّكوهم علىٰ من بالشام من العرب. وأوّل من ملك منهم النعمان بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان.

---

(١) هذا، وقد سبق آنفاً أن هجرتهم كانت في القرن الخامس الميلادي، أي بعد سيل العرم بعديد من القرون، فالتاريخ الأثري اي المستند على المكتشف من آثارهم لا يدل على أسبق من ذلك.

ثمّ وردت سليح من قضاعة أيضا الشام فغلبت علىٰ تنوخ من قضاعة وتنصّرت فملّكها الروم علىٰ العرب الّذين بالشام، وهم ولد سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أيضاً.

فلمّا سارت غسّان الىٰ الشام غلبت علىٰ من بالشام من العرب فملكها الروم علىٰ العرب، فكان أوّل ملك من ملوك غسّان بالشام: الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة، ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة، وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده المنذر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، ثمّ ملك بعده عوف بن المنذر، ثمّ ملك بعده الحارث بن المنذر، وكان هٰذا علىٰ عهد بعثة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ودعاه النبي صلى الله عليه وآله الىٰ الإسلام ورغّبه فيه ولم يسلم، وملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث، وهو الّذي أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقَوَد. فجميع مَن ملك مِن ملوك غسّان بالشام أحدَ عشرَ ملكاً، وكانت ديار ملوك غسّان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق واعمالها، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام[١].

وقال اليعقوبي: «كانت قضاعة أوّل من قدم الشام من العرب، فصارت الىٰ ملوك الروم ودخلوا في النصرانية فملّكوهم فكان أوّلهم: تنوخ ابن مالك بن فهم بن تيم اللّه بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة.

ثم ورد بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة الىٰ الشام فغلبوا علىٰ تنوخ من بني قضاعة، ودخلوا في ذمة الروم وتنصّروا وأقاموا علىٰ ذٰلك. فلمّا تفرقت الأزد بسيل العرم وصار من صار منهم الىٰ تهامة، ومن صار الىٰ يثرب، ومن صار الىٰ عمان، صارت غسّان الىٰ الشام فقدموا أرض البلقاء»[٢].

---

(١) مروج الذهب ٢: ٨٣ ـ ٨٦.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٠٦.

وقال اليعقوبي: «فسأل بنو غسّان بني سليح أنْ يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم، وأنْ يقيموا في بلادهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم. فكتب رئيس سليح وهو يومئذ «دهمان بن العِمْلَق» الىٰ ملك الروم، وهو يومئذ «نوشر» وكان منزله بانطاكية، فأجابهم الىٰ ذٰلك بشروط (منها دفع أتاوة يقبضها ملك الروم) فأقاموا بذٰلك أزمانا حتّىٰ وقعت بين رجل من غسان يقال له «جذع» ورجل من أصحاب ملك الروم مشاجرة علىٰ الأتاوة حتّىٰ ضرب الغسّاني الرومي بسيفه فقتله.

فحمل عليهم صاحب الروم من قبل ملك الروم بجماعة من العرب من قضاعة، فأقاموا مليّا يحاربونه ببصرىٰ من أرض دمشق، ثم صاروا الىٰ «المحفق» فلمّا رأىٰ ملك الروم صبرهم علىٰ الحرب ومقاومتهم جيوشه كره أَنْ تكون ثلمة عليهم، وطلب القوم الصلح علىٰ أَنْ لايكون عليهم ملك من غيرهم، فأجابهم ملك الروم الىٰ ذٰلك، وكان رئيس غسّان يومئذ «جفنة بن علية بن عمرو بن عامر»، فملّك عليهم، وتنصّرت غسان، واستقام الّذي بينهم وبين الروم وصارت أُمورهم واحدة، فأقاموا بالشام مملكة من قبل صاحب الروم.

وكان أوّل ملك جلّ قدرهُ وعلا ذكره من غسّان بعد جفنة بن علية: الحارث بن مالك بن الحارث بن غضب بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن ثعلبة بن حارثة. وملك بعده: الحارث الأكبر ابن كعب بن علية بن عمرو بن عامر. ثمّ ملك أخوه الحارث الأعرج بن كعب فنزل الجولان. ثمّ ملك أخوه الحارث الأصغر. ثمّ ملك جبلة بن المنذر. ثمّ ملك الحارث بن جبلة. ثمّ ملك الأيهم بن جبلة. ثم جبلة بن الأيهم»[١].

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٠٦، ٢٠٧.

والحارث بن جبلة منهم هو الّذي وقعت بينه وبين المنذر بن امرئ القيس اللخمي المعركة الهائلة في «قنّسرين» فكان من جرائها قتل المنذر ودخول «قنّسرين» في حوزة الحارث بن جبلة، فأعجب الروم بشجاعته وهابوا سطوته فبالغوا في ترقيته وتقريبه والخلع عليه، ومنحه الامبراطور جوستينان سنة ٥٢٩ م لقب (البطريرك). وغزا الفرس بلادهم سنة ٦١٤ م فاستولوا علىٰ اورشليم ودمشق الشام فانحط أمرهم[١].

وذكر المسعودي من أواخر ملوك غسّان: الحارث بن المنذر وقال: وكان هٰذا علىٰ عهد بعثة رسول اللّه، ودعاه النبي ﷺ الىٰ الإسلام ورغّبه فيه فلم يسلم. وملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة، وهو الّذي أسلم وارتد عن الإسلام خوف القَوَد والعار[٢] وذلك أنّ رجلاً فزارياً وطأ ازاره، وكان الخليفة الثاني قد أحسن وفادته ورفع من شأنه ووضعه في مرتبة المهاجرين الأولين، فلطم الفزاري علىٰ رأسه، فشكاه الفزاري الىٰ الخليفة فلمّا أحسّ بانّ الخليفة سيقتصّ منه للفزاري فرّ الىٰ القسطنطينية.

وروىٰ اليعقوبي في حوادث السنة الثالثة عشرة في بداية خلافة الخليفة الثاني: أنّ جبلة بن الأيهم الغساني كان في ثلاثين الفاً من قومه مع الروم في وقعة اليرموك، فلمّا انهزم الروم في اليرموك رجعوا الىٰ مواضعهم، فأرسل اِليه يزيد بن أبي سفيان: أن اقطع علىٰ أرضك بالخراج والجزية، فأبىٰ وقال: أنا رجل من العرب، وانّما يؤدي الجزية العلوج[٣]! وأتىٰ جبلة الىٰ الخليفة فقال له: خُذ منّي الصدقة

---

(١) سيرة المصطفىٰ: ١٧.

(٢) مروج الذهب ٢: ٨٤، ٨٥.

(٣) اليعقوبي ١: ١٤٢.

-يعني الزكاة-كما تصنع بالعرب؟ قال: بل الجزية -إذ لم تسلم-والاّ فالحق بمن هو علىٰ دينك، يريد الروم. فخرج جبلة في ثلاثين الفاً من قومه وهم نصارىٰ حتّىٰ لحق بأرض الروم. فندم عمر علىٰ ماكان منه في أمر جبلة وقومه[١].

ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام:

بدأ اليعقوبي في أواخر الجزء الأول من تاريخه فصلاً بهذا العنوان وقال في بدايته «وإنّما أخّرنا خبر إسماعيل وولده وختمنا بهم أخبار الأُمم، لأن اللّهَ -عزّوجلّ-ختم بهم النبوة والملك، واتصل خبرهم بخبر رسول اللّهِ ﷺ»[٢] وكذٰلك فعلنا نحن: وقد سبق نقل مقال المسعودي إذ قال: الواضح من أَنساب اليمن وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان إلىٰ هٰذا الوقت قولاً وعملاً، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير، والّذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الامم، وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأَنجاد، وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف، وبلاد عمان وغيرها من الأمصار: أنّ الصحيح في نسب قحطان: أنّه قحطان بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح، وقد كان لعابر ثلاثة أولاد: فالغ وقحطان وملكان وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً منهم يعرب بن قحطان، وكان قحطان سُريانيّ اللسان، وقد ثبت أنّ قحطان هو يقطن بالسريانية وإنّما عُرّب فقيل: قحطان وزعم الهيثم بن عدي: أن جُرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن، هو قحطان[٣].

---

(١) اليعقوبي ١: ١٤٧.

(٢) اليعقوبي ١ : ٢٢١.

(٣) مروج الذهب ٢: ٤٥ ونؤكّد هنا ما قدّمناه في عنوان: مبدأ العرب: ١٤٠.

وتكلّم يعرب وجُرهم وعاد وثمود وعملاق ووبار وعبيل وجديس وعبد ضخم بالعربية فسار يعرب بن قحطان من بابل حتّىٰ حلّ باليمن(١). وسار عبد ضخم بن إرم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا «الطائف» وسار جُرهم بن قحطان بولده ومن تبعه وطافوا البلاد حتىٰ أتوا «مكّة» فنزلوها(٢).

وقال عند ذكره أخبار مكّة وبناء البيت ومن تداوله من جُرهم وغيرها: إن جرهم بادروا نحو مكّة وعليهم الحارث بن مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيني بن نبت بن جُرهم، حتّىٰ أتوا الوادي ونزلوا مكّة واستوطنوها مع إسماعيل.

وقال قبل هٰذا: إنّ بني كُركُر وعليهم السُميدع بن هوبر بن لاوي بن قيطور بن كُركُر بن حيدان، عدمت الماء والمرعى واشتد بها الجهد، فيممت نحو تهامة يطلبون الماء والمرعىٰ والدار الخصبة، فأشرف روّادهم وهم المتقدمون منهم لطلب الماء علىٰ الوادي فنظروا الطير ترتفع وتنخفض، فهبطوا الوادي ونظروا إلىٰ العريش علىٰ الربوة الحمراء الّذي اتّخذته هاجر ليكون مسكناً لها وفيه هاجر وإسماعيل، وقد زمّت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان فسلّم الروّاد عليها واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء، فأنست إليهم وأذِنت لهم في النزول. فتلقوا من وراءهم من أهليهم وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء، وبما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام فرحين، وتكلّم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه.

فقيل في بني كُركُر هٰؤلاء: إنّهم من جُرهم، وقيل إنهم من العماليق، وانّ جرهم تسامعت ببني كُركُر ونزولهم الوادي ومافيه من الخصب وإدرار الضرع

---

(١) مروج الذهب ٢: ١١٠.

(٢) مروج الذهب ٢: ١٢١ و ١٢٢.

فبادروا نحو مكّة[١] واستوطنوها مع إسماعيل، وتزوج إسماعيل: سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هيني بن نبت بن جرهم.

وعاش إسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وولد له اثنا عشر ولداً ذكراً وهم: نابت، وقيدار، وأدبيل، وميشام، ومشمع، ودوما، ودوام، ومشا، وحدّاد، وثيما، ويطور، ونافش، وكل هؤلاء قد انسل.

وقبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة، فدفن في المسجد الحرام حيال الموضع الّذي فيه الحجر الأسود[٢].

وقال اليعقوبي: إنّ ولد جُرهم بن عامر لمّا صار إخوتُهم من بني قحطان بن عامر[٣] إلىٰ اليمن فملّكوا، صاروا هم إلىٰ أرض تهامة فجاوروا إسماعيل بن إبراهيم. فتزوج إسماعيل: الحنفاء بنت الحارث بن مضاض الجرهمي، فولدت له اثني عشر ذكراً» ثمّ ذكر أسماءهم فقال «وهٰذه الأسماء تختلف في الهجاء واللغة لأنّها مترجمة من العبرانية» ثمّ قال: فلمّا كملت لإسماعيل مائة وثلاثون سنة توفي فدفن في الحجر.

فلمّا توفي اسماعيل وليَ البيت بعده نابت بن إسماعيل. ثم افترق ولد إسماعيل فمنهم من افترق في البلاد يطلبون السعة وهم الكبار منهم، وكان من بقي منهم في

---

(١) لا يخفىٰ انّ هٰذا خلاف مامر من خبر القمي في تفسيره عن الصادق عليه‌السلام، وأنّ جرهم كانت نازلة بعرفات، وأنّها أوّل من التقىٰ بهاجر وسكن معها حول زمزم.

(٢) كذا في مروج الذهب ٢: ١٩ ـ ٢١ وسيأتي الصحيح عن اليعقوبي أنه دفن في الحجر، ولذٰلك سمّي حجر إسماعيل، لاحيال الحجر الأسود. ولعل الأسود زيادة تحريف من النساخ.

(٣) كذا، وقد مرّ تأكيد المسعودي في نسب قحطان: أنّه قحطان بن عابر، وأنّ جرهم هو ابن قحطان. وفي موضع آخر ان جرهم هو الجد الثامن للحارث بن مضاض الجرهمي الّذي نزل ببني جُرهم بمكّة. وهو الصحيح الّذي يدلّ عليه مامرّ من خبر علي بن إبراهيم القميّ عن الصادق عليه‌السلام، في تفسيره: ١: ٦١.

الحرم من ولد إسماعيل صغاراً فوليَ البيت المضاض بن عمرو الجرهمي جدّ ولد إسماعيل. ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة في أيام جرهم غير ولد إسماعيل وكانت جرهم في أيّامها تطيعهم، تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم، غيرَ انّ ولد إسماعيل كانوا يسلمون ملك مكّة لجرهم للخؤولة.

فقام بأمر الكعبة بعد نابت أمين ثمّ يشجب بن أمين ثم الهميسع ثمّ أُدد ثمّ عدنان بن أُدد ثمّ معدّ بن عدنان، ثمّ نزار بن معد، ثم إياد[1] ثم خرجت ولاية البيت من أيديهم الىٰ خزاعة[2]، وسنذكر خبرهُ فيما يأتي. هٰذا ماقاله اليعقوبي بشأن الجمع بين ولاية البيت وملك مكّة.

وقال المسعودي: لمّا قبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل، ثم غلبت جرهم علىٰ ولد إسماعيل من بعد نابت فقام بأمر البيت بعده أُناس من جُرهم: أوّلهم الحارث بن مضاض. وكان ينزل هناك في الموضع المعروف بقعيقعان في أعلىٰ مكّة وكان كلّ من دخل مكّة بتجارة عشّرها عليه.

وكان السميدع بن هوبر بن لاوي بن قبطور بن كركر بن حيدان ينزل ببني كركر في أجياد من أسفل مكّة، فأخذ يعشّر من دخل مكّة من ناحيته، فنازع الحارث بن مضاض سلطانه.

فخرج الحارث بن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدّرق، فسمّيَ الموضع بقعيقعان لِما ذكرنا، وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل، فعرف الموضع بأجياد إلىٰ هٰذا الوقت. فكانت للعماليق وهم علىٰ جياد الخيل علىٰ جرهم، فسمّي الموضع فاضحاً الىٰ هٰذا الوقت لفضيحة جرهم.

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٢١ ـ ٢٢٦.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٣٨، ومروج الذهب ٢: ٢٩.

وصارت ولاية البيت وملك مكّة الىٰ العماليق. ثمّ اصطلحوا ونحروا الجزر وطبخوا فسمّي الموضع بـ(المطابخ) إلىٰ الآن[١].

ثمّ كانت بينهم وقعة أُخرى كانت لجرهم علىٰ العماليق، وأقاموا ولاة البيت نحو ثلاثمائة سنة، آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو ابن الحارث بن مضاض الأكبر، وزادوا في بناء البيت ورفعوه علىٰ ماكان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام[٢].

وقال اليعقوبي: إنّ السميدع كان ملك العمالقة نازع المضاض سلطانه فلمّا ظهر عليه المضاض مضىٰ السميدع والعمالقة إلىٰ الشام فكان هناك ملك العمالقة بالشام واستقام الأمر لمضاض حتّىٰ توفي. ثمّ ملك بعده الحارث بن مضاض، ثمَّ ملك عمرو بن الحارث بن مضاض، ثمَّ ملك المعتسم بن الظليم، ثمَّ ملك الحواس بن جحش بن مضاض، ثمّ ملك عداد بن صداد ابن الجندل بن مضاض، ثمّ ملك فينحاص بن عداد بن صداد، ثمّ ملك الحارث بن مضاض بن عمرو. وكان هٰذا آخر من ملك من جرهم. وطغت جرهم وبغت وفسقت في الحرم، فسلّط اللّٰه عليهم الذّر فأُهلكوا به عن آخرهم وذٰلك في عصر أُدد بن الهميسع بن أمين من ذرية إسماعيل، وكان ينكر علىٰ جرهم أفعالهم فلمّا هلكت عظم شأنه في قومه وجلّ قدره[٣].

وقال المسعودي: وبغت جرهم في الحرم وطغت، حتّىٰ فسق رجل منهم في الحرم يسمّى اساف، بامرأة تدعىٰ نائلة، فمسخهما اللّٰه عزّوجل حجرين صيّرا بعد

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١١٧.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٢٢.

ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما إلىٰ اللّه تعالىٰ. فبعث اللّه علىٰ جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوي قوة ومنعة فغلبوا علىٰ أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مكّة فلحقوا بجهينة في موضع يقال له: أضم، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم. وصارت ولاية البيت في ولد اياد بن نزار ابن معد ثمّ الىٰ خزاعة. ثم إلىٰ قصي[1].

وقد روى الكليني في (فروع الكافي) عن الصادق عليه السلام قال: إنّ جُرهم غلبت بمكّة علىٰ ولاية البيت، فكان يلي ذلك منهم كابر عن كابر، حتّىٰ بغوا واستحلّوا حرمتها وأكلوا مال الكعبة وظلموا من دخلها، فلمّا بغوا وعتوا واستحلوا فيها بعث اللّه عزّوجل عليهم الرعاف والنمل وأفناهم[2].

نقل المجلسي ذلك في (البحار) ثمّ نقل عن الفيروز آبادي أنّ النملة هي قروح في الجنب كالنمل وبثور تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ثمّ يرمّ مكانها يسيراً ثم يدبّ إلىٰ موضع آخر كالنمل[3].

وننتقل هنا الىٰ ذكر خبر المدينة يثرب، وإتيان تبّان أسعد أبي كرب اليمني إليها وتهوده بها ومروره في رجوعه بمكّة، ثمّ خبر أصحاب الأُخدود باليمن،

---

(١) مروج الذهب ٢: ٢٣ ـ ٣١. وروىٰ ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق: أنّ جُرهماً بغوا بمكّة واستحلوا حلالاً من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا ماكان يهدىٰ إلىٰ الكعبة من مال، فلمّا رأىٰ بنو كنانة وبنو خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم واخراجهم من مكة، فآذنوا بالحرب فاقتتلوا، فغلبت كنانة وخزاعة علىٰ جُرهم فنفوهم من مكّة فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن فدفنها في زمزم (سيرة ابن هشام ١: ١١٩). ودفن زمزم (سيرة ابن هشام: ١: ١١٨). وانطلق هو ومن معه من جرهم الىٰ اليمن، فحزنوا علىٰ ما فارقوا من أمر مكّة حزناً شديداً (سيرة ابن هشام ١: ١٢٠).

(٢) فروع الكافي ٤: ٢١١.

(٣) وتجده كذلك في سائر كتب اللغة ومنها: المنجد.

ثمّ دخول الأحباش النصارىٰ إلىٰ اليمن وأصحاب الفيل منهم، ثمّ دخول الفرس المجوس إليها. ثمّ نرجع إلىٰ بقية أخبار مكّة والبيت الحرام وولاته ولاسيّما انتقال الأمر الىٰ خزاعة، وإنّما قدّمنا هنا ما تقدم منها علىٰ خبر تبّان أسعد وأصحاب الفيل.

يثرب بين اليهود والأوس والخزرج:

نقلنا فيما مرّ رواية المسعودي في سبب انتشار العرب من اليمن بعد سيل العرم، ونزول الأوس والخزرج يثرب «المدينة» وهنا ننقل خبر اليعقوبي في ذٰلك لما فيه من التفصيل الخاص بهذا الصدد: قال اليعقوبي: إنّ تفرق أهل اليمن في البلاد وخروجهم عن ديارهم كان بسبب سيل العرم، وكان رئيس القوم عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان كاهناً، فتكهن أنّ بلاد اليمن تغرق، فأظهر غضبه علىٰ بعض ولده وباع مرباعه وخرج هو وأهل بيته، فصاروا الىٰ بلاد «عك» ثم ارتحلوا إلىٰ «نجران» فحاربتهم مذحج، ثم ارتحلوا عن نجران فمرّوا «بمكّة» وبها يومئذ «جرهم» فحاربوهم حتّىٰ أخرجوهم عن البلد، فصاروا الىٰ «الجحفة» ثم ارتحلوا الىٰ «يثرب» فتخلّف بها الأوس والخزرج إبنا حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ولحق بهما جماعة من الأزد من غير إبني حارثة فصاروا حلفاء لهم.

وكانت يثرب منازل اليهود، وكانوا أكثر من الأزد والأوس والخزرج فغلبوهم وقهروهم، حتّىٰ كان الرجل من اليهود ليأتي منزل الأوسي أو الخزرجي أو الأزدي فلا يمكنه دفعه عن ماله وأهله[1]، وكان رجل يقال له «الفطيون» قد تملّك علىٰ اليهود فتملّك علىٰ الأزد والأوس والخزرج فسامهم سوء العذاب.

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٠٣، ونؤكّد أيضاً ما قدّمناه في عنوان: مبدأ العرب: ١٤٠.

فخرج مالك بن العجلان الخزرجي الىٰ تبّع أبي كرب تبّان أسعد بن ملكيكرب[١] فأعلمه بغلبة قريظة والنضير عليهم[٢] فسار أبو كرب اليمني اليهم بجيشه حتّىٰ قتل من اليهود مقتلة عظيمة[٣] وخلّف فيهم ابناً له بين أظهرهم فقتله اليهود، فزحف اِليهم وحاربهم[٤].

وروىٰ الطبري وابن هشام عن ابن اِسحاق: أنّ تبّان أسعد قد أقبل من قبل المشرق علىٰ المدينة وخلّف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة. فقدِمها مرةً أُخرىٰ لاستئصال أهلها وهدمها.

وكان في المدينة من أحبار اليهود حبران عالمان راسخان في العلم من بني قريظة أحدهما كعب والآخر أسد، فلمّا سمعا بما يريده تبّان أسعد من هلاك أهل المدينة وهدمها جاءا اليه فقالا له: أيّها الملك! لاتفعل ذٰلك، فانك اِن أبيت الّا ماتريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة! فقال لهما: ولِمَ ذٰلك؟ فقالا: هي مُهاجَر نبيّ يخرج من هٰذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره! فتناهىٰ عند ذٰلك عمّا كان يريد بالمدينة.

وكان تُبّع تبّان أسعد وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فلمّا سمع منهما ذٰلك أعجبه فاتّبع دينهما اليهودية وانصرف عن المدينة واصطحبهما معه[٥].

وروىٰ ابن شهر آشوب في (المناقب) عن ابن اِسحاق: أن تبّع الأول لمّا سار في الآفاق فوصل الىٰ مكّة فلم يعظّمه أهلها، غضب عليهم، فقال له وزيره

---

(١) تبّان أسعد اسم مركب كمعد يكرب، وتبّان من التبانة بمعنىٰ الفطانة.

(٢) اليعقوبي ١: ١٩٧.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٠٤.

(٤) اليعقوبي ١: ١٩٧.

(٥) تهذيب سيرة ابن هشام ١: ٢٠ والطبري ٢: ١٠٥.

عياريسا: إنّهم جاهلون ومعجبون بهٰذا البيت! فعزم الملك علىٰ أن يخرّب البيت، فأخذه اللّٰه بالصداع وبدأ ينزل من أُذنيه وعينيه وأنفه وفمه ماء نتن، وعجز أطباؤه عنه، فلمّا أمسىٰ جاء عالم من العلماء الّذين كانوا معه الىٰ وزيره واستأذن منه علىٰ الملك، فاستاذن له الوزير، فلمّا خلا بالملك قال له: هل أنت نويت في هٰذا البيت أمراً؟ قال: أجل، فقال العالم: تُبْ من ذٰلك ولك خير الدنيا والآخرة! فقال: قد تبت ممّا كنت نويت. فعوفي في الساعة! فآمن باللّٰه وبإبراهيم الخليل، وخلع علىٰ الكعبة سبعة أثواب. وهو أول من كسا الكعبة.

ثمّ خرج الىٰ يثرب ـوهي أرض فيها عين ماء ـ فاعتزل أربعمائة عالم من الذين كانوا معه وجاؤا الىٰ باب الملك وقالوا: إنّا خرجنا من بلداننا وطفنا معك زماناً حتّىٰ جئنا الىٰ هٰذا المكان، والآن نحن نريد المقام هنا الىٰ آخر أعمارنا! فسألهم الوزير عن حكمة ذٰلك؟ قالوا: أيّها الوزير! إنّ شرف البيت بمكة بشرف محمد صاحب القبلة إليها وصاحب القرآن والمنبر واللواء، مولده بمكّة وهجرته إلىٰ ها هنا، وإنّا علىٰ رجاء أنْ ندركه أو يدركه أولادنا! فلمّا سمع الملك ذٰلك أذن لهم وبنىٰ لهم دوراً[١].

وهٰذا الخبر وإن لم يصرح بكون العلماء الذين كانوا مع تبّع اليمنيّ الأوّل يهوداً فالظاهر منه أنّهم كانوا يهوداً وأنّ نبأهم بمولد رسول اللّٰه ومهاجره كان من بشائر شريعة موسىٰ عليه السلام وأيضاً لم ينص الخبر علىٰ يهودية تبّع بل فيه أنّه لمّا تاب ممّا كان قد نواه من هدم البيت وعوفي آمن باللّٰه وبابراهيم الخليل، لكن يظهر من اصطحابه لعلماء اليهود مكرماً لهم سامعاً منهم أنّ المقصود بإيمانه باللّٰه انّه كان قبل ذٰلك فاسقاً غير مؤمن في العمل بدينه. وعلىٰ هٰذا فهٰذا الخبر أكثر انسجاماً مع

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٥ ط قم المقدسة.

ما أخبر به القرآن الكريم من سبق اليهودية الىٰ اليمن علىٰ عهد بلقيس وسليمان وهم قبل تبّع بسبعة قرون تقريباً، بينما الخبر المعروف في أكثر التواريخ بأن تبّع الأول كان أوّل من آمن باليهودية بدعوة علماء اليهود في مدينة يثرب وأنه أوّل من دعا أهل اليمن الىٰ ذلك، لا يوافق كتاب اللّٰه كما يأتي.

بل روىٰ الصدوق عن ابن عباس انّه كان يقول: لايشتبهنّ عليكم أمر تبّع فإنه كان مسلماً، وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ تبّع قال للأوس والخزرج: كونوا ها هنا حتّىٰ يخرج هٰذا النبي، فأمّا أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه[1].

وروىٰ الطبرسي عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: لاتسبّوا تبعاً فإنّه كان قد أسلم[2].

فقرّب النفر الّذين أشاروا عليه من هذيل فقطّع أيديهم وأرجلهم، ثم مضىٰ حتّىٰ قدم مكّة، فطاف بالبيت وحلق رأسه، وأقام بمكّة ستة أيام ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم.

وأمر ولاة البيت من جرهم بتطهيره، وأن لايقرّبوه دماً ولا ميتة، وجعل له باباً ومفتاحاً، وكساه ثياباً يمنية. ثمّ خرج متوجهاً الىٰ اليمن بمن معه من جنوده والحبرين.

فلمّا وصل الىٰ اليمن دعا قومه الىٰ الدخول في اليهودية. وكانت باليمن نار يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم. فأبوا عليه اليهودية حتّىٰ يحاكموه الىٰ النار. فخرج رجال من قومه بأوثانهم ومايتقرّبون به في دينهم حتّىٰ قعدوا للنار عند مخرجها الّتي تخرج منه، وخرج الحبران متقلّدين مصاحفهما في أعناقهما حتّىٰ قعدوا عند مخرج النار، فخرجت النار إليهم فأكلت الأوثان وماقربوا

---

(١) إكمال الدين: ١٦٨ ط النجف.

(٢) مجمع البيان ٩: ٦٦، وبه قال البيضاوي في أنوار التنزيل ٢: ٤١٩.

معها ومن حملها من رجال حمير، ولمّا أقبلت نحو الحبرين هابوها وحادوا عنها، فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتّىٰ غشيتهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرّهما. فأجمعت عند ذٰلك حمير علىٰ اليهودية.

فكذٰلك كان أصل اليهودية باليمن[1].

ولا يظهر من خبر تبّع تبّان أسعد بن كليكرب هٰذا وتهود اليمن معه أكان قبل نسخ اليهودية بشريعة عيسىٰ عليه السلام أو بعد ذٰلك، إلّا انّه كان بعد بلقيس وسليمان بن داود ـ وهو من أنبياء بني إسرائيل بعد موسىٰ ـ كان بعدهم بسبعة قرون تقريباً كما في التواريخ، وبعد تبّع تبّان أسعد هٰذا بمدة غير قصيرة استولىٰ علىٰ اليمن الثالث من أولاده بعد حسّان وعمرو: زرعة ابن تبّان أسعد، يكنىٰ ذا نؤاس، وشاع أتباع دين المسيح عليه السلام علىٰ عهده في مدينة نجران، فجعل يطلبهم ويحرّقهم بالاخدود. وروىٰ ابن هشام عن ابن إسحاق[2] والطبري عنه وعن الكلبي[3]: انّ زرعة ذا نؤاس تهوّد فتسمّىٰ يوسف والتبس هٰذا علىٰ المسعودي فذكره: يوسف ذو نؤاس بن زرعة[4].

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ٢٠، ٢١. والطبري ٢: ١٠٥ ـ ١٠٨ كذا، وتبّع هٰذا هو الملك العشرون من ملوك اليمن المعروفين المعدودين في كتب التاريخ، والعاشر هي بلقيس ثمّ سليمان بن داود ثم ابنه أرحبعم بن سليمان. وسليمان من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسىٰ، والبعد الزمني بين بلقيس وسليمان وتبّع هٰذا حسب كتب التأريخ سبعة قرون تقريباً، ومعنىٰ هٰذا أنّ اليمن كانت مسبوقة باليهودية كما حكىٰ القرآن الكريم ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ (النمل: ٢٤) لا الأوثان والعجب أنْ لم أجد من المؤرخين من تنبّه لذلك أو تعرض له.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٣١، ٣٢.

(٣) الطبري ٢: ١١٩.

(٤) مروج الذهب ٢: ٥٢.

أصحاب الاخدود:

روىٰ القميّ في تفسيره بسنده عن عطاء عن ابن عباس: أنّ ذا نؤاس ـوهو آخر من ملك اليمن من حمير ـ تهوّد، واجتمعت معه حمير علىٰ اليهودية، وسمّىٰ نفسه يوسف، وأقام علىٰ ذلك حيناً من الدهر. ثمّ أخبر أنّ بنجران بقايا قوم علىٰ دين النصرانية، وكانوا علىٰ دين عيسىٰ عليه السلام وعلىٰ حكم الانجيل ورأس ذلك الدين: عبد الله بن بريا[1] فحمله أهل دينه علىٰ أنْ يسير اليهم ويحملهم علىٰ اليهودية

---

(١) تفسير القميّ: ٢: ٤١٤. وروىٰ العياشي في تفسيره بإسناده عن جابر عن الامام الباقر عليه السلام أنّه قال: أرسل علي عليه السلام الىٰ أُسقف نجران يسأله عن أصحاب الاخدود، فأخبره بشيء: فقال عليه السلام: ليس كما ذكرت، ولكن ساخبرك عنهم: اِنّ اللّه بعث رجلاً حبشياً نبيّاً ـ وهم حبشية ـ فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه وأسروهم وأسروه ثمّ بنوا له حيراً ثم ملؤوه ناراً، ثمّ جمعوا الناس فقالوا: من كان علىٰ ديننا وأمره فليعتزل، ومن كان علىٰ دين هٰؤلاء فليرم نفسه في النار! فجعل أصحابه يتهافتون في النار! فجاءت آمرأة معها صبيّ لها آبن شهر، فلمّا هجمت هابت ورقّت علىٰ آبنها، فنادىٰ الصبيّ لاتهابي وآرميني ونفسك في النار، فانّ هٰذا ـ واللّه ـ في اللّه قليل! فرمت بنفسها في النار وصبيّها.

رواه العلامة الطباطبائي في تفسيره ثم قال: ورواه السيوطي في الدر المنثور عن علي عليه السلام بطريقين وعن الحسن عليه السلام أيضاً (الميزان ٢٠: ٢٥٧).

وروىٰ ذيل الخبر عن المرأة وطفلها المسعودي في (مروج الذهب ٢: ٧٨).

وروىٰ الطبرسي في (مجمع البيان) عن سعيد بن جبير: أنّ اهل اسفندهان كانوا مجوساً فلمّا انهزموا قال عمر: ماهم يهود ولا نصارىٰ فليسوا من أهل الكتاب. فقال علي عليه السلام: بلىٰ قد كان لهم كتاب رفع، وذلك أنّ ملكاً لهم سكر فوقع علىٰ آبنته أو قال: علىٰ اخته فلمّا أفاق قال لها: كيف المخرج ممّا وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك وتخبرهم أنّك ترىٰ نكاح البنات وتأمرهم أنْ يحلّوه! فجمعهم فأخبرهم! فأبوا أنْ يتابعوه، فخدّ لهم أُخدوداً في الأرض، وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبىٰ قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلّىٰ سبيله. رواه الطباطبائي... في (الميزان ٢٠: ٢٥٦) ثمّ قال ورواه السيوطي في (الدرالمنثور). ←

ويدخلهم فيها، فسار حتىٰ قدم نجران، فجمع من كان بها علىٰ دين النصرانية ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص الحرص كله فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل فخدّ لهم اخدوداً جعل فيه الحطب وأشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف، ومثّل بهم كلّ مُثلة. فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين الفاً.

وأفلت منهم رجل يدعىٰ دوس ذو ثعلبان علىٰ فرس له[1]. ـأو جبار، أو حيار، أو حيّان، ابن فيض، أو قيض[2] ـ حتىٰ قدم علىٰ صاحب الروم فأخبره بما بلغ ذو نؤاس منهم، واستنصره عليه. فقال له قيصر: بعدت بلادك من بلادنا ونأت

⟵ وقيل: انّ الذين خدّوا الاخدود ثلاثة: تبّع صاحب اليمن، وقسطنطين بن هلاني حين صرف النصارىٰ عن التوحيد الىٰ عبادة الصليب، ونبوخذنصر ملك بابل حين ادعىٰ الربوبية وأمر الناس أن يسجدوا له فآمتنع دانيال وأصحابه، فألقاهم في النار! نقله محققو سيرة آبن هشام ١: ٣٢.

وآحتمل التعدد العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان ٢: ٢٥٧).

وقال السيد هاشم الحسني في كتابه (سيرة المصطفىٰ: ٢٢) «ذلك ـويقصد به خبر اخدود اليمني ـ جاء في بعض التفاسير ولكن لاتؤكده التفاسير الموثوقة، وليس بعيداً أنْ يكون من الاسرائيليات التي أدخلها كعب الأحبار وأمثاله».

من هنا يظهر انّ السيد الحسني سامحه اللّه لم يحسن النظر في روايات أخبار القصّة، والّا فليس في طريق أيّ رواية من أخبارها كعب الأحبار وأمثاله، نعم إحدىٰ روايات آبن إسحاق تنتهي الىٰ وهب بن منبّه اليماني، وهو مثل كعب الأحبار، ولكنّ هٰذا الخبر لايتناسب أن يعدّ من الاسرائيليات، فانّه ليس لصالح بني إسرائيل واليهود بل لصالح النصارىٰ علىٰ اليهود، فكيف يكون من الإسرائيليات؟!

(١) تفسير القمي ٢: ٤١٤.

(٢) الطبري ٢: ١٣٧.

عنّا، فلا نقدر علىٰ أَنْ نتناولها بالجنود، ولكنّي سأكتب لك الىٰ ملك الحبشة ـ فانّه علىٰ هٰذا الدين وهو أقرب الىٰ بلادكما منّا ـ فينصرك. وكتب معه قيصر الىٰ ملك الحبشة يأمره بنصرهم علىٰ من بغىٰ عليهم. هٰذا علىٰ رواية ابن إسحاق[١].

وعلىٰ رواية هشام الكلبي: قدم علىٰ ملك الحبشة رأساً، ومعه إنجيل قد أحرقت النار بعضه، فأعلمه ما ركبه ذو نؤاس منهم. فقال له: الرجال عندي كثير وليست عندي سفن، وأنا كاتب الىٰ قيصر أَنْ يبعث اليَّ بسفن أحمل فيها الرجال. فكتب الىٰ قيصر بذٰلك وبعث اليه بالإنجيل المحرّق. فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة[٢].

فوجّه النجاشي الىٰ اليمن أربعة آلاف رجل عليهم أرياط بن أصحمة[٣] فعبرت الحبشة الىٰ اليمن من بلاد ناصع والزّيلع ـ وهو ساحل الحبشة ـ الىٰ بلاد غلافقة من ساحل زبيد من أرض اليمن[٤] وعرض البحر بين الساحلين: مسيرة ثلاثة أيام، وهو أقل المواضع في البحر عرضاً، وبين الساحلين جزيرة الىٰ جانب الحبشة تسمّىٰ سقطرة، وأُخرى الىٰ جانب اليمن تسمّىٰ العقل[٥].

فسار إليهم ذو نؤاس، فلمّا التقوا افترق قومه وانهزموا بعد حروب طويلة، فلمّا رأىٰ ذو نؤاس ضرب فرسه فاقتحم به البحر فأغرق نفسه خوفاً من العار[٦].

---

(١) الطبري ٢: ١٢٤.

(٢) الطبري ٢: ١٢٤.

(٣) الطبري ٢: ١٣٢ بخمسة أسانيد عن ابن عباس وعطاء بن يسار وغيرهما. وذكر العدد عن الكلبي وابن إسحاق سبعين ألفاً والأول أوفق بوسائط النقل القديمة قطعاً، والثاني أبعد جداً. أما الاسم: أرياط بن أصحمة، فهو كما في تهذيب سيرة ابن هشام ١: ٢٤ ومروج الذهب ٢: ٥٢، وفي اليعقوبي ١: ٢٠٠: أرياط فقط.

(٤) مروج الذهب ٢: ٥٢.

(٥) مروج الذهب ١: ٤٣٩.

(٦) تهذيب سيرة ابن هشام ١: ٢٤ واليعقوبي ١: ١٩٩ ومروج الذهب ٢: ٥٢.

وهو الّذي أخبر اللّه تعالىٰ عنه في كتابه فقال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١].

أرياط أو أبرهة:

روىٰ ابن هشام[٢] والطبري[٣] عن ابن إسحاق، وعن غيره بخمسة طرق[٤] واليعقوبي[٥] والمسعودي[٦]: أنّ الذي بعثه النجاشي علىٰ الأحباش الىٰ اليمن هو أرياط بن أصحمة. وأنّه أقام باليمن في سلطانه سنين، ثمّ نازعه في أمر الحبشة باليمن أَبرهة الحبشي، وكان في جنده، حتّىٰ تفرّقت الحبشة عليهما، فانحاز إِلىٰ كلّ واحدٍ منهما طائفة منهم، واستعدوا للحرب بينهم[٧].

وروىٰ الطبري بالطرق الخمسة: انّ أرياط لمّا غلب علىٰ اليمن أعطىٰ الملوك ـويعني بهم شيوخ العشائر والقبائل اليمنية ـ واستذل الفقراء. فقام رجل من الحبشة

---

(١) البروج ٤: ٩. وورد خبره في سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق ١: ٣٧. وفي الطبري عنه أيضاً ٢: ١٢٣، وعن هشام الكلبي ٢: ١٩. واليعقوبي ١: ٢٠٠. والمسعودي ٢: ٥١. وكان هٰذا بدء نفوذ الأحباش النصارىٰ في اليمن وتهامة وماجاورها سنة ٥٢٥ م.

(٢) سيرة ابن هشام ١: ٤١.

(٣) الطبري ٢: ١٢٥.

(٤) الطبري ٢: ١٣٧.

(٥) اليعقوبي ١: ١٧٣.

(٦) مروج الذهب ٢: ٧٨.

(٧) الطبري ٢: ١٢٨.

يقال له: اَبرهة أبو يكسوم، فدعا الىٰ طاعته فأجابوه، فقاتل أرياط[١].

وروىٰ عن هشام الكلبي: أنّ النجاشي لمّا بلغه ماكان من ذي نوّاس جهّز اِليه سبعين ألفاً عليهم قائدان: أحدهما أبرهة ـ ولم يذكر الآخر ـ فلمّا صاروا الىٰ صنعاء ورأىٰ ذو نوّاس اَنْ لا طاقة له بهم ركب فرسه واقتحم البحر فكان آخر العهد به ذٰلك. وأقام اَبرهة ملكاً علىٰ اليمن، ولكنّه لم يبعث الىٰ النجاشي بشيء فقيل للنجاشي: إنّه قد خلع طاعتك ورأىٰ أنّه استغنىٰ بنفسه عنك. فوجه اِليه جيشاً عليه رجل من أصحابه يقال له: أرياط فلمّا حلّ بساحته بعث اِليه اَبرهة: أنه يجمعني واِياك البلاد والدين، والواجب عليَّ وعليك اَنْ ننظر لأهل بلادنا وديننا ممّن معي ومعك، فإن شئت فبارزني، فأيّنا ظفر بصاحبه كان الملك له، ولم تقتل الحبشة فيما بيننا؟! فرضي أرياط بذلك، فاتّعدوا موضعاً يلتقيان فيه.

وعزم ابرهة علىٰ المكر بأرياط فأكمن له عبداً له يقال له: ارنجدة، في وهدة قريبة من الموضع الّذي التقيا فيه، فلمّا التقيا سبق أرياط فطعنه بحربته يريد رأسه، وزالت الحربة عن رأس ابرهة ولكنها شرمت أنفه، فلُقّب بالأشرم من ذٰلك. ونهض ارنجدة من الحفرة فزرَق بحربته المزرَاق رأس أرياط فأنفذها فيه فقتله بها. وكتب الىٰ النجاشي بما رضي به عنه وأقرّه علىٰ عمله[٢].

أصحاب الفيل:

روىٰ الطبري بالطرق الخمسة عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: أنّ اَبرهة الأشرم أبا يكسوم لمّا غلب علىٰ اليمن رأىٰ الناس أيّام الموسم يتجهزون للحج الىٰ البيت الحرام، فسأل: أين يذهب هٰؤلاء الناس؟ قالوا: يحجّون الىٰ بيت الله بمكّة،

---

(١) الطبري ٢: ١٣٧.

(٢) الطبري ٢: ١٢٨ وعن ابن إسحاق ٢: ١٢٩.

قال: مِمَّ هو؟ قالوا: من حجارة، قال: فما كِسوته؟ قالوا: ما يُذهب به إِليه من ها هنا من الوصائل، فقال: قسماً بالمسيح لأبنينّ لكم خيراً منه!

فبنىٰ لهم كنيسة عملها بالرخام الأسود والأصفر والأبيض والأحمر، وحلّاها بالذهب والفضة، وحفّها بالجواهر، وجعل لها أبواباً عليها صفائح الذهب، وجعل لها حجاباً، كانوا يلطّخون جدرها بالمسك ويوقدون فيها بالمندل (او الصندل، وهو عود هندي طيّب الرائحة لاسيّما عند الاحتراق) وأمر الناس أنْ يحجّوا إِليها فحجّ إِليها كثير من قبائل العرب سنين، ومكث فيه رجال يتعبّدون ويتألّهون ويتنسّكون له[1] وروي عن ابن إِسحاق: انّه سمّاها «القلّيس»[2] أي البناء المرتفع كالقبلة[3].

وروىٰ الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن محمد بن إِسحاق قال: إنّ إِبرهة أبا يكسوم بنىٰ بيتاً باليمن وجعل لها قباباً من ذهب وأمر أهل مملكته بالحج إِليها يضاهي بها البيت الحرام.

فخرج رجل من بني كنانة حتّىٰ قدم اليمن فقعد فيها ـ يعني لحاجة الانسان ـ فدخلها ابرهة فوجد العذرة بها فقال: من اجترأ عليّ بهٰذا؟ فقيل له في ذٰلك فقال: ونصرانيتي لأهدمنّ ذٰلك البيت حتّىٰ لايحجّه حاجّ أبداً! وآذن قومه ومن اتبعه من أهل اليمن بالخروج، فتتبّعه ناس أكثرهم من عك والأشعريين وخثعم، فخرج يحثّ السير حتّىٰ أتىٰ الطائف فطلب منهم دليلاً، فبعثوا معه دليلاً من هذيل يقال له: نفيل فخرج بهم يهديهم، حتّىٰ اذا كانوا بالمغمّس ـ وهو علىٰ ستة أميال من مكّة ـ نزلوا وبعثوا مقدّمتهم الىٰ مكّة.

---

(١) الطبريّ ٢: ١٣٧.

(٢) الطبري ٢: ١٣٠.

(٣) قاله السهيلي في: الروض الأنُف في شرح السيرة. وقيل: انّ ابرهة كان قد جشم أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة اَنْ ينقلوا إِليها الحجارة والرخام من قصر بلقيس علىٰ فراسخ.

فقالت قريش: لا طاقة لنا اليوم بقتال هٰؤلاء القوم، وخرجوا إلىٰ رؤوس الجبال، ولم يبقَ بمكّة غير عبد المطّلب بن هاشم، وأخذ بعضادتي الباب يقول:

لا همّ إنّ المرء يمنع رحله فامنع حِلالك[١]

لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدواً محالك[٢]

إنْ يدخلوا البيت الحرام إذاً فأمر ما بدالك[٣]

وروىٰ الشيخ المفيد في (الأمالي) بسنده عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال: لمّا قصد أبرهة بن الصباح ملك الحبشة مكّة لهدم البيت تسرعت الحبشة فأغاروا عليها وأخذوا سرحاً لعبد المطلب بن هاشم، فجاء عبد المطلب الىٰ الملك فاستأذن عليه فأذن له، وهو في قبة ديباج علىٰ سرير له، فسلم عليه فردّ أبرهة السلام وجعل ينظر في وجهه فراقه حسنه وجماله وهيئته، فقال له: هل كان في آبائك هٰذا النور والجمال الّذي أراه لك؟ قال: نعم أيّها الملك كلّ آبائي كان لهم هٰذا النور والجمال والبهاء! فقال له ابرهة: لقد فقتم الملوك فخراً وشرفاً ويحق أن تكون سيد قومك! ثمّ أجلسه معه علىٰ سريره...

ثمّ قال لعبد المطلب: فيمَ جئت؟ فقد بلغني سخاؤك وكرمك وفضلك، ورأيت من هيئتك وجمالك وجلالك ما يقتضي أن انظر في حاجتك، فسلني ماشئت.

---

(١) الحِلال بالكسر جمع الحلة: القوم النزول فيهم كثرة.

(٢) المحال بالكسر: القوة والشدة.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٥٤٠ ـ ٥٤٢ باختصار وفي سيرة ابن هشام ١: ٤٤ ـ ٥٢ بغير هذا اللفظ، وفي الشطر الأخير: إنْ كنت تاركهم وقبلتنا فامر مابدالك. وقد روى الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: يبعث عبد المطلب امة وحده عليه بهاء الملوك وسيماء الأنبياء، وذٰلك أنّه أوّل من قال بالبداء، وذٰلك.. انّه أخذ بحلقة باب الكعبة وجعل يقول: يا ربّ إنْ تهلك فامر مابدالك. (اصول الكافي ١: ٤٤٧).

فقال له عبد المطلب: إنّ أُصحابك عدوا علىٰ سرحٍ لي فذهبوا به فمرهم بردّه !

فتغيظ الحبشي من ذلك وقال لعبد المطلب: لقد سقطت من عيني! جئتني تسألني في سرحك وأنا قد جئت لهدم شرفك وشرف قومك، ومكرمتكم الّتي تتميّزون بها من كلّ جيل، وهو البيت الّذي يحجّ اليه من كلّ صقع في الأرض، فتركت مسألتي في ذلك وسألتني في سرحك!

فقال له عبد المطّلب: لستُ بربّ البيت الّذي قصدتَ لهدمه، وأنا ربّ سرحي الّذي أخذه أصحابك، فجئت أسألك فيما أنا ربّه، وللبيت ربّ هو أمنع له من الخلق كلّهم وأولىٰ به منهم!

فقال الملك: ردّوا عليه سرحه. وانصرف عبد المطّلب الىٰ مكّة.

ودخل الملك بالفيل الأعظم وكان فيلاً أبيض عظيم الخلقة له نابان مرصّعان بأنواع الدرر والجوهر وقد زيّن بكلّ زينة حسنة وكان الملك يباهي به ملوك الأرض فدخل ومعه الجيش لهدم البيت، فكانوا إذا حملوه علىٰ دخول الحرم أناخ وإذا تركوه رجع مهرولاً!

فقال عبد المطّلب لغلمانه: ادعوا اليّ ابني... فلمّا جاؤا بعبد اللّه أقبل إليه وقال: اذهب يا بني حتّىٰ تصعد أبا قبيس، ثمّ اضرب ببصرك ناحية البحر فانظر أيّ شيء يجيء من هناك وخبّرني به.

فصعد عبد اللّه أبا قبيس فما لبث أنْ جاء طير أبابيل مثل السّيل والليل، فجاء عبد الله إلى أبيه فأخبره الخبر. فقال: انظر يا بنيّ ما يكون من أمرها بعده، فاخبرني به. فنظرها فاذا هي قد أخذت نحو عسكر الحبشة، فأخبر عبد المطلب بذلك، فخرج عبد المطلب وهو يقول: ياأهل مكة اخرجوا الىٰ المعسكر فخذوا غنائمكم!

فخرجوا ينظرون الىٰ الطير فإذا ليس من الطير الّا ومعه ثلاثة أحجار: في منقاره ورجليه يقتل بكل حصاة واحداً من القوم. فلمّا أتوا علىٰ جميعهم انصرف الطير، ولم يُرَ قبل ذٰلك الوقت ولا بعده. وأتوا العسكر فإذا هم أمثال الخشب النخرة[١].

وروىٰ الكليني في (روضة الكافي) والصدوق في (علل الشرائع) بسندهما عن الباقر عليه‌السلام قال: أرسل اللّه عليهم طيراً جاءتهم من قبل البحر... مع كلّ طير ثلاثة أحجار: حجران في مخالبه وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها حتّىٰ جدّرت أجسادهم، فقتلهم اللّه عزّوجلّ بها. وماكانوا قبل ذٰلك رأوا شيئاً من ذٰلك الطير ولاشيئاً من الجدري[٢].

وقال القميّ في تفسيره: كانت الطيور ترفرف علىٰ رؤوسهم وترمي أدمغتهم، فيدخل الحجر في دماغهم ويخرج من أدبارهم فتنتقض أبدانهم، فكانوا كما قال اللّه تعالىٰ كالعصف المأكول وهو التبن الذي أُكل بعضه وبقي بعضه. ثمّ روىٰ عن الصادق عليه‌السلام: أن أصل الجُدري من ذلك الذي أصابهم في زمانهم[٣].

وروىٰ الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان) عن العياشي باسناده الىٰ هشام بن سالم عن الصادق عليه‌السلام قال: أرسل اللّه علىٰ أصحاب الفيل طيراً مثل الخطّاف أو نحوه، في منقاره حجر مثل العدسة، فكان يحاذي برأس الرجل فيرميه بالحجر فيخرج من دبره، فلم تزل بهم حتّىٰ أتت عليهم[٤].

---

(١) امالي المفيد: ٣١٢، وبحار الأنوار ١٥: ١٣٠ نقلاً عنه وعن أمالي الطوسي: ٨٠ ـ ٨٢ الحديث ١٢٠.

(٢) روضة الكافي: ٨٤، وعلل الشرائع: ١٧٦.

(٣) تفسير القميّ ٢: ٤٤٢.

(٤) مجمع البيان ١٠: ٥٤٠ ـ ٥٤٢.

وفي خبر الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: ومن أفلت منهم انطلقوا حتّىٰ بلغوا حضرموت ـ وادٍ باليمن ـ فأرسل الله عليهم سيلاً فغرقهم، فلذٰلك سمّي حضرموت حين ماتوا فيه[١].

ورویٰ الطبري بخمسة طرق: أنّ الطّير أقبلت من البحر أبابيل، مع كلّ طير منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئاً إلّا هشّمته، وإلّا نفط ذٰلك الموضع، فكان ذلك أوّل ما كان الجدريّ والحصبة والأشجار المرّة، فأهمدتهم الحجارة، وبعث اللّٰه سيلاً فذهب بهم فألقاهم في البحر[٢].

قال المسعوديّ: وكان قدومه مكّة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم[٣]، وكان ملك اَبرهة علىٰ اليمن الىٰ أنْ هلك ثلاثاً وأربعين سنة، لأربعين سنة من ملك كسرىٰ، قبل مولد رسول الله بخمسين يوماً[٤].

قال ابن إسحاق: ولمّا ردّ اللّٰه الحبشة عن مكّة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة قالت العرب بشأن قريش: إنّهم أهل اللّٰه، فقد قاتل اللّٰه عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم، وكان شعراء قريش يفخرون بذٰلك في شعرهم كثيراً.

فلمّا بعث اللّٰه تعالىٰ محمداً ـ صلىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ جعل قصّة اصحاب الفيل ممّا يعدّه علىٰ قريش من نعمته وفضله عليهم[٥] فقال تعالىٰ **﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾**.

---

(١) علل الشرائع: ١٧٦.

(٢) الطبري ٢: ١٣٨ وعن ابن إسحاق. ورواه ابن هشام في السيرة ١: ٥٦.

(٣) مروج الذهب ٢: ٥٤.

(٤) مروج الذهب ٢: ٥٣ و ٢٧٤.

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١: ٥٩.

قال ابن هشام: الأبابيل: الجماعات، وأمّا السجّيل، فقد ذكر بعض المفسّرين: أنّهما كلمتان بالفارسية: سنج يعني الحجر، وجلّ يعني الطين، جعلتهما العرب كلمة واحدة تعني الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين، وهي حجارة شديدة صلبة. والعصف المأكول هو ورق الزرع الّذي لم يقصّب[1] أي أصابته آكلة الديدان فأكلت بعضه وبقي بعضه الاخر.

بينما رجّح الشيخ محمد عبده في تفسيره: أنّ الطير الّذي ورد في الآية الكريمة من الجائز اَنْ يكون من نوع البعوض أو الذباب الّذي يحمل جراثيم بعض الأمراض الفتّاكة، وأن تكون تلك الحجارة من الطين المسموم الّذي تحمله الرياح يتعلق بأرجل تلك الطيور، فإذا أصاب إنساناً انتقل المكروب الىٰ جسدهِ، فأحدث فيه بعض الجروح، وبالتالي ينتهي الىٰ فساد الجسم[2]!

ولا نجد نحن وجها لهٰذا التفسير بل التأويل مادام القرآن ينصّ علىٰ أنّها طيور مرسلة بالحجارة. نعم أصيبوابها بالجُدريّ فماتوا به كما مرّ في الخبر عن الصادق عليه‌السلام.

«وما اُحبّ أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التي رمت الحبشة بحجارة من سجّيل فجعلتهم كعصفٍ مأكول لأنّي أوثر دائماً أن أقبل النصّ وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأوّلون حين تلاه النبي ـ صلىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ»[3].

وقال سيد قطب: وأنا فيما سبق من مؤلفاتي وحتى في الأجزاء الأُولى

---

(١) سيرة ابن هشام ١: ٥٥، ورواه الطوسي في التبيان ١٠: ٤١١ وعنه في مجمع البيان ٥: ٢٨١ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) مما جاء في ظلال القرآن ٣٠: ٢٥١، وحياة محمد لهيكل: ١٠٢.

(٣) مرآة الإسلام لطه حسين: ٢٩.

من هذه «الظلال» قد انسقت إلى شيء من هذا، وارجو أن اتداركه في الطبعة التالية إذا وفّق الله[1].

وكانت هٰذه القصّة في الفترة بين عيسىٰ ونبينا ـ علىٰ نبيّنا وآله وعليه السلام ـ وقبل بعثته بأربعين عاماً، في عام ميلاده ﷺ، فالفترة كانت فترة شريعةَ عيسىٰ عليه السلام وهؤلاء كانوا نصارىٰ، ولكنّهم كانوا منحرفين فيها عن الحق، وعملهم هٰذا لم يكن حرباً مع المشركين لردعهم عن شركهم ودعوتهم الىٰ شريعةِ عيسىٰ عليه السلام، بل كان هدماً لبيت إبراهيمَ عليه السلام بل بيت اللّه، ولم يكن هٰذا من شريعةِ عيسىٰ عليه السلام بل خروجاً عنه وبغياً وعدواناً وطغياناً وعُتواً فلذٰلك أُهلكوا.

دخولُ الفرسِ المجوس الىٰ اليمن:

وكان من ظلمِ أَبرهة أَنْ بعث الىٰ أبي مرة يوسف بن ذي يزن وكان من أشراف اليمن فنزع منه امراته ريحانة بنت ذي جدن، وكانت ذات جمال وقد ولدت لأبي مرّة مَعديكَرب، فولدت لأبرهة: مسروق بن ابرهة. وهرب أبو مرة سيف بن ذي يزن[2].

فروىٰ الطبري عن الكلبي: انّ أبا مرّة سيف بن ذي يزن خرج من اليمن فلحق بعمرو بن المنذر من ملوك بني المنذر بالحيرة، فسأله أَنْ يكتب له الىٰ كسرىٰ كتاباً يعلمه فيه بقدره وشرفه وما فزع إِليه فيه. فقال عمرو: لاتعجل، فإنّ لي عليه في كلّ سنة وفادة، وهٰذا وقتها.

فأقام قِبَله حتّىٰ وفد عليه معه، فدخل عمرو بن المنذر علىٰ كسرىٰ فذكر له شرف ذي يزن وحاله، واستأذن له. فأذن له كسرىٰ. فدخل، فأوسع عمرو له

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩ : ١٥١ ـ ١٥٣.

(٢) الطبري ٢ : ١٣٠ عن ابن اسحاق و١٤٢ عن هشام الكلبي وعنه سائر الحديث.

فلمّا رأىٰ كسرىٰ ذٰلك عرف شرفه وقد كان ابن ذي يزن قال قصيدة بالحميرية في مدح كسرىٰ، فلمّا ترجمت له أُعجب بها، فأقبل عليه ولطف به وسأله: ما الأمر الّذي نزع بك؟ قال: أيّها الملك! إنّ السودان قد غلبونا علىٰ بلادنا وركبوا منّا اموراً شنيعة أُجلّ الملك عن ذكرها، فلو أنّ الملك تناولنا بنصره من غير أنْ نستنصره لكان بذٰلك حقيقاً لفضله وكرمه وتقدّمه علىٰ سائر الملوك. فكيف وقد نزعنا اليه مؤمّلين له، راجين أن يقصم اللّٰه عدوّنا وينصرنا عليهم وينتقم لنا به منهم! فان رأىٰ الملك أن يصدّق ظنّنا ويحقّق رجاءنا، ويوجه معي جيشاً ينفون هٰذا العدو عن بلادنا فيزدادها الىٰ ملكه فعل، فانّها من أخصب البلدان وأكثرها خيراً، وليست كما يلي الملك من بلاد العرب.

فقال انوشيروان: قد علمت أنّ بلادكم كما وصفت، فأيّ السّودان غلبوا عليها: الحبشة أم السند؟ قال ابن ذي يزن: بل الحبشة.

قال أنوشيروان: انّي لاحبّ اَنْ أُصدّق ظنّك وأن تنصرف بحاجتك، ولكنّ مسلك الجيش الىٰ بلادك مسلك صعب أكره أنْ أُغرر جندي به، وسأنظر فيما سألت.

فلم يزل مقيماً عنده حتىٰ هلك.

ونشأ معديكرب بن ذي يزن مع اُمّه ريحانة في حجر اَبرهة، وأخبرته اُمّه اَن أباه هو سيف بن ذي يزن، واقتصّت عليه خبره، فلبث حتّىٰ مات الأشرم ومات ابنه يكسوم، وتملّك اخوه مسروق، فخرج ابن ذي يزن الىٰ ملك الروم، ولم يذهب اِلىٰ كسرىٰ لابطائه عن أبيه، ولكنّه وجد قيصر أو هرقل لموافقته للحبشة في دينهم يحامي عنهم، فانكفأ راجعاً الىٰ كسرىٰ، فاعترضه يوماً ـ وقد ركب ـ فصاح به: أيّها الملك انّ لي عندك ميراثاً! فدعا به كسرىٰ وقال: من أنت؟ وما ميراثك؟ قال: أنا ابن الشيخ اليماني ذي يزن الّذي وعدته أنْ تنصره فمات بحضرتك، فتلك العدة حق لي وميراث يجب عليك الخروج لي منه. فقال له: أقم حتّىٰ أنظر في أمرك.

ثم إنّ كسرىٰ استشار وزراءه في توجيه الجند معه، فقال المؤبدان[١] إنّ هٰذا الغلام حقاً بوعدك لأبيه وموته ببابك وفزع هٰذا اليك. وفي سجون الملك رجال ذووا نجدة وبأس، فلو أنّ الملك وجّههم معه، فإنْ أصابوا ظفراً كان له، وإنْ هلكوا كان قد استراح وأراح أهل مملكته منهم، ولم يكن ذٰلك ببعيد عن الصواب.

قال كسرى: هذا الرأي. وأمر بمن كان في السجون من هٰذا الضرب أن يحصوهم، فأُحصوا فبلغوا ثمانمائة نفر، فقوّد عليهم قائداً من أساورته[٢] يقال له: وهرز -أو بهروز- كانوا يعدلونه بألف أُستوار، وقوّاهم وجهّزهم وأمر بحملهم في ثماني سفن في كلّ سفينة مئة رجل.

فركبوا البحر فغرقت من السفن الثمانية سفينتان، وسلمت ست سفن، وخرجوا بساحل حضرموت، فنزل وهرز علىٰ سِيف البحر فجعل البحر وراء ظهره. ولحق بمعديكرب بن سيف بشر كثير.

وسار اليهم مسروق في مئة ألف من الحبشة وحمير والأعراب فلمّا نظر مسروق الىٰ قلة من مع وهرز أرسل إليه: ماجاء بك وليس معك إلّا من أرىٰ، ومعي من ترىٰ؟ قد غرّرت بنفسك وأصحابك، فإن أحببت أذِنت لك فرجعت الىٰ بلادك، وإنْ أحببت أجّلتك حتّىٰ تشاور أصحابك وتنظر في أمرك، وانْ أحببت ناجزتك الساعة.

ورأى وهرز انّه لاطاقة له بهم، فأرسل الىٰ مسروق: بل تضرب بيني وبينك أجلاً، وتعطيني موثقاً وعهداً الّا يقاتل بعضنا بعضاً حتىٰ ينقضي الأجل ونرىٰ رأينا. ففعل مسروق ذٰلك.

---

(١) لقب عالم المجوس، ومن هنا يظهر انّ الاستشارة كانت استفتاء شرعياً: هل يجب عليه شيء أو لا؟

(٢) جمع الاسوار، وهو كما يقال اليوم في الفارسية: الاستوار، رتبة من الرتب العسكرية.

وأقام كلّ واحد منهما في عسكره حتّىٰ مضت عشرة أيام، وكان مع وهـرز ابنه، فخرج ذات يوم علىٰ فرس له حمله الىٰ عسكرهم فقتلوه. فـلمّا لم يـبق مـن الأجل إلّا يوم واحد أمر بالسفن الّتي كانوا فيها فأُحرقت، وأمر بما كان معهم من فضل كسوة فأُحرق ولم يدع منه إلّا ما كان علىٰ أجسادهم، ثم أمر بفضل الزاد فأُلقيَ في البحر، ثمّ قام فيهم خطيباً فقال: أمّا ما حرّقتُ من سفنكم فإني أردت أنْ تعلموا أنّه لا سبيل الىٰ بلادكم أبداً، وأمّا ماحرّقت من ثيابكم فانّه كان يغيظني إنْ ظفرت بكم الحبش أن يصير ذٰلك إليهم، وأمّا ما أَلقيت من زادكم في البحر فأنّي كرهت أن يطمع أحد منكم أن يكون معه زاد يعيش به يوماً واحداً بعد اليوم، فإنْ كنتم قوماً تقاتلون معي وتصبرون فأعلموني ذٰلك. فقالوا: نقاتل معك حتّىٰ نموت عن آخرنا أو نظفر!

فلمّا كان صبح اليوم الّذي انقضىٰ فيه الأجل عـبأ أصحابه وأقـبل عـليهم يحضّهم علىٰ الصبر. وأمرهم أن يوتروا ويعدّوا قسيّهم، ولم يكن لليمنيين نُشّاب[١] قبل ذٰلك اليوم، فقال لأصحابه: إذا أمرتكم أن ترموا فارموهم رشقاً بالپنجگان[٢].

وأقبل مسروق في جمع لا يُرىٰ طرفاه طويلاً يميناً ويساراً، وهو عـلىٰ فـيل وعلىٰ رأسـه تاج وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة. ثمّ نزل من الفـيل فـركب فرساً، فأخرج وهرز نشّابة فوضعها في كبد قوسه وقال لهم: ارموا، فرموا، ورمىٰ مسروقاً في جبهته فسقط عن دابته، وقتل من ذٰلك الرشق الواحد جماعة كثيرة من جيش الأحباش، ولمّا رأوا صاحبهم مسروقاً صريعاً انفضوا، حتّى كان الاستوار يأخذ من الحبشة ومن حمـير والأعـراب الخـمسين والسـتين فـيسوقهم مكـتّفين

---

(١) كلمة فارسية أصلها: نوش آب: مصّاص ماء البدن: الدم.

(٢) كلمة فارسية من پنج بمعنى الخمسة، تعني: النشاب ذو شعب خمسة من النصال الحديدية.

لايمتنعون منه، ولكنّ وهرز قال لهم: اقصدوا قصد السودان فلا تبقوا منهم أحداً أمّا حمير والأعراب فكُفوا عنهم، فقتل أكثر الحبشة، وغنم الفرس من عسكرهم مالا يعدّ ولا يحصىٰ كثرة.

وأقبل وهرز حتّىٰ دخل صنعاء وفرّق عماله في مخاليف اليمن فغلب علىٰ البلاد[١] وكان ذلك سنة ٥٧٥م[٢].

قال المسعودي: فتوّج وهرز: معديكرب بن سيف بتاج كان معه والبسهُ بدنة[٣] وقُفّازات من الفضة ورتّبه في ملكه علىٰ اليمن وكتب بالفتح الىٰ أنوشيروان.

وأتت معديكرب الوفود تهنئه بعود الملك اليه، من أشراف العرب وزعمائها، وفيهم: عبد المطلب بن هاشم، وأُميّة بن عبد شمس، وخويلد بن أسد، وأبو الصلت الثقفي، فدخلوا اليه وهو في أعلىٰ قصره بمدينة صنعاء، المعروف بغمدان[٤] وعلىٰ يمينه ويساره أبناء المقاول والملوك.

فتقدم عبد المطلب بن هشام فتمدّحه، فرحّب بهم معديكرب بن سيف.

---

(١) الطبري ٢: ١٤٢ ـ ١٤٧ وذكر فيه شعراً لأُمية بن الصلت قصيدة لامية سجّل فيها ابتهاج العرب بخلاص اليمن من الأحباش على يد الفرس.

(٢) سيرة المصطفىٰ: ٢٣.

(٣) البدنة هنا: شيء شبه الدرع إلّا أنّها تصير قدر البدن فقط.

(٤) غُمدان كعثمان، قصر باليمن بناه يشرخ بن يحصب علىٰ أربعة وجوه: أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، وبنىٰ في داخله قصراً بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعاً، وجعل في أعلاه مجلساً بناه بالرخام الملوّن وجعل سقفه رخامة واحدة، وجعل علىٰ كلّ ركن من أركانه تمثال أسد من شبه كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه فيسمع له صوت كالزئير، وخربه عثمان بن عفّان قاله المسعودي وقال: ورأيته قد انهدم بنيانه وصار تلاً عظيماً من تراب، كأن لم يكن. مروج الذهب ٢: ٢٢٩.

وأقام معديكرب ملكاً علىٰ اليمن، واصطنع عبيداً من الحبشة يمشون بين يديه بالحراب، فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء، فلمّا صار الىٰ رحبتها عطفت عليه الحراب من الحبشة فقتلوه بحرابهم. وكان ملكه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكاً.

ولما قتلت الحبشة معديكرب في الرحبة بحرابهم، كان بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم، ممّن كان ضمهم وهرز الىٰ معديكرب، فركب وأتىٰ علىٰ من كان هنالك من الحبشة وضبط البلد. وكتب بذٰلك الىٰ وهرز وهو بباب أنوشيروان الملك[١] وذلك بمدائن طيسفون من أرض العراق، فاعلم وهرز الملك بذٰلك، فسيّره في البر في أربعة آلاف من الأساورة وأمره اَن لا يبقي علىٰ أحدٍ من بقايا الحبشة ولا علىٰ جعد قطط الشعر[٢] شرك السودان في نسبه. فأتىٰ وهرز اليمن حتّىٰ نزل في صنعاء فلم يترك بها أحداً من السودان اِلّا قتلهم. وملّك اَنوشيروان وهرز علىٰ اليمن الىٰ اَن هلك بصنعاء[٣].

وعن الكلبي: اَنّه لمّا بلغ انوشيروان موت وهرز بعث الىٰ اليمن اُستواراً يُدعىٰ «وين» وكان جبّاراً مسرفاً، وكان ذٰلك في آخر ملك اَنوشيروان، فلمّا مات اَنوشيروان وخلَفه إبنه هرمز عزل «وين» واستعمل مكانه المروزان[٤]، فلمّا ملك

---

(١) مات اَبرهة لأربعين من ملك كسرىٰ وملك يكسوم عشرين سنة ثم ملك مسروق ثلاث سنين ثم ملك معديكرب أربع سنين، ومجموع ملك كسرىٰ: ثمان وأربعون سنة، فلا يتم التوفيق بين هٰذا كله.

(٢) الجعد والقطط: قصر الشعر وفتله.

(٣) مروج الذهب ٢: ٥٧ ـ ٦٢.

(٤) الطبري ٢: ١٧١ وأظنّ اَن اسمه: المهروزان وكان ملك كسرى انوشيروان ثمانياً وأربعين سنة كما في الطبري: ٢: ١٧٢.

ابن هرمز: خسرو پرويز كتب الىٰ المروزان: أن استخلف من شئت واَقبل الي، فاستخلف المروزان ابنه خور خسرو علىٰ اليمن وسار فمات في الطريق وحُمل الىٰ خسرو پرويز، ثمّ بلغ خسرو پرويز اَنّ خور خسرو يتأدب بآداب العرب ويروي أشعارهم فعزله وولّىٰ بمكانه باذان، وهو آخر من قدم من ولاة العجم[1].

وذكر المسعودي مساحة اليمن وحدوده فقال: وبلد اليمن طويل عريض، حدّه ممّا يلي مكّة الىٰ الموضع المعروف بطلحة الملك سبع مراحل ـ والمرحلة من خمسةِ فراسخٍ الىٰ ستة ـ ومن صنعاء الىٰ عدن تسع مراحل، ومن وادي وحا الىٰ ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة، والوجه الآخر هو بحر اليمن وهو بحر الهند والصين والقلزم، وجميع ذٰلك يكون: عشرين مرحلة في ست عشرة مرحلة[2].

وذكر اليعقوبيّ سواحل اليمن وهي: عدن ساحل صنعاء، والمندب، وغلافقة، والحردة، والشرجة، وعثر، والحمضة، والسرين، وحدّة (أو الحديدة) وقال: وتسمّىٰ كور اليمن: المخاليف، وهي: أربعة وثمانون مخلافاً. ثمّ أتىٰ باسمائها وقال: هٰذه بلدان مملكة اليمن وبلادها. وكان ملوك اليمن في صدر عهدهم يدينون بعبادة

---

(١) الطبري ٢: ٢١٥ وجاء اسمه في الطبري ٣: ٢٢٧: بادام، وهو الراجح حسب المعنىٰ في الفارسية، وهو الّذي بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ عهده، وفي آخر السنة السادسة للهجرة بعث رسول اللّه الىٰ خسرو پرويز كتاباً يدعوه فيه الىٰ الاسلام، فغضب خسرو پرويز وبعث إلىٰ بادام هٰذا بأن يرسل إليه رسول اللّه مقيّداً، وبعث بادام رجالاً إلىٰ المدينة فأخبرهم رسول اللّه بهلاك خسرو پرويز فقيّدوا ذٰلك ولمّا رجعوا إلىٰ اليمن ووصل الرسول بهلاك خسرو پرويز أسلم بادام ومن معه من أبناء الفرس في اليمن وبعثوا باسلامهم الىٰ رسول اللّه، فأقرّه رسول اللّه علىٰ عمله فكان عليه حتىّ توفي رسول اللّه صلى الله عليه وآله . راجع سيرة ابن هشام ٢: ٧١.

(٢) مروج الذهب ٢: ٦٤.

الأصنام، ثمّ إنّ احباراً من اليهود صاروا اليهم (مع تبّع تبان أسعد) فعلّموهم دين اليهودية فدانوا بدين اليهود وتلوا التوراة. ولم يكونوا يتجاوزون اليمن إلّا أنّهم ربّما أغاروا علىٰ بعض البلدان فيرجعون الىٰ بلادهم ودار ملكهم[1].

أسواقُ العرب:

وكانت للعرب في اليمن وغيره أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم، ويأمنون فيها علىٰ دمائهم وأموالهم بخفارة خاصّة: فمنها سوق «عدن» كان يقوم في أوّل يوم من شهر رمضان وكان بخفارة الأبناء ـ أي أبناء الفرس حكام اليمن ـ وهم كانوا يعشّرونهم بها لقاء خفارتهم لهم، ومنها كان يحمل الطيب الىٰ سائر الآفاق.

ثمّ سوق «صنعاء» كان يقوم في النصف من شهر رمضان بخفارة الأبناء أيضاً.

ثمّ سوق «الرابية» بحضرموت، ولم يكن يوصل اِليها اِلّا بخفارة خاصّة، لأنها لم تكن أرض مملكة، فكان من عزّ بها بزّ، وكانت الخفارة فيها لكندة.

ثمّ سوق «عكاظ» بأعلىٰ نجد، كان يقوم في شهر ذي القعدة، وكان أكثر من يحضرها من مضر وسائر قريش وقليل من سائر العرب، وبها كانت مفاخرات العرب ومهادناتهم بعد حمالاتهم ـ أي دياتهم.

ثمّ سوق «ذي المجاز» يرتحلون منها الىٰ مكّة للحج.

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٠٠، ٢٠١. وقد علّقنا علىٰ هٰذا سابقاً بمعارضته لنقل القرآن الكريم بأنّ الهُدهد أخبر سليمانَ بن داود عنهم بقوله ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ... * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ وان بلقيس قالت ﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ونقل المؤرخون انّ سليمان بن داود حكم اليمن عشرين عاماً ثمّ ملكها ابنه أرحبعم بن سليمان، وان بلقيس كانت قبل تبّع تبان الأسعد بعشرة ملوك في سبعمائة سنة قريباً. فأظن الخبر هٰذا من الاسرائيليات.

ومنها «دومة الجندل» كان يقوم في شهر ربيع الأول، وكانت بين بني كلاب والغساسنة أيّهم غلب قام بها.

ثمّ سوق «المشقر» في مدينة هَجَر، كانت في جُمادىٰ الأولىٰ، يقوم بها بنو تميم.

ثمّ سوق «صُحار» كان يقوم في أوّل يوم من رجب، ولم تكن بحاجة إلىٰ الخفارة لأنّها في الشهر الحرام.

ثمّ سوق «رَيّا» بخفارة آل الجُلَندي وهو كان يعشّرهم بها لذٰلك.

ثمّ سوق «الشِّحْر» شِحْرُ مُهْره، في ظل الجبل الذي عليه قبر هود النبي عليه السلام، وكان يقوم بها بنو مهرة بلا خفارة خاصّة.

وكان في العرب قوم يحضرون هٰذه الأسواق فيستحلّون بها المظالم، ولذٰلك كانوا يسمّون (المحلّون)[1] كانوا من قبائل أسد وطيء وبني بكر وبني عامر. وكان من العرب من ينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر يسمّون (الذّادة المحرّمون) كانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة، ومن هذيل، وبني شيبان، وبني كلب، فكان هٰؤلاء يلبسون السلاح للدفاع عن الناس[2].

وكانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة والعلم، فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر المميّز الكلام المصيب المعاني أحضروه في أسواقهم هٰذه الّتي كانت تقوم لهم في السنة حتّىٰ تجتمع العشائر والقبائل فتسمع شعره، ويجعلون ذٰلك فخراً من فخرهم وشرفاً من شرفهم، وكانوا به يتفاضلون ويتناضلون ويمدحون ويعابون، ويتمثلون ويختصمون. وقد عدّ اليعقوبي عدداً كثيراً من شعرائهم[3].

---

(١) وبعد الإسلام انتقل هٰذا الإسم إلىٰ الخوارج.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٩.

وكان للعرب حكّام يتحاكمون اِليهم في منافراتهم ومواريثهم ومياههم ودمائهم، فكانوا يحكّمون اَهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسّن والمجد والتجربة، اِذ لم يكن لهم دين يرجعون الىٰ شرعه. وقد عدّ اليعقوبي عدداً غير قليل من هٰؤلاء الحكّام القضاة: قضاة التحكيم[١].

وكانت اَديان العرب مختلفة باختلاف المجاورات لأهل الملل: فدخل قوم من العرب في دين اليهود، ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية: فأمّا من تهوّد منهم فان قوماً من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير تهوّدوا، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من بني غسّان، وقوم من جذام، وانّ تبّع اليمني حمل حبرين من أحبار اليهود فأبطل الأوثان وتهوّد من باليمن[٢]. وأمّا من تنصّر من اَحياء العرب: فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزّىٰ منهم ورقة بن نوفل، ومن بني تميم، وبني تغلب، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسّان ولخم وتزندق جمع منهم حجر بن عمرو الكندي وغيره[٣].

وروىٰ الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن الباقر عليه‌السلام قال: كان في أيديهم أشياء كثيرة من الحنيفية من تحريم الأمهات والبنات وماحرّم اللّه في النكاح، اِلّا انّهم كانوا يستحلون امرأة الأب وابنة الأُخت والجمع بين الأُختين، وكان في أيديهم الحج والتلبية والغسل من الجنابة اِلّا ما أحدثوا في تلبيتهم وفي حجّهم من الشرك[٤].

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٥٨.

(٢) مرّ مفصّل هٰذا الخبر وعلّقنا عليه بأنّه منافٍ لما في القرآن الكريم من سبق اليهودية الىٰ اليمن علىٰ عهد بلقيس وسليمان أي قبل تبّع هٰذا بسبعة قرون.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٤) فروع الكافي ١: ٢٢٣.

وروىٰ أيضا بسنده عن الصادق عليه السلام قال: انّ العرب لم يزالوا علىٰ شيء من الحنيفية: يَصِلون الرحم، ويقرون الضيف، ويحجّون البيت، ويتّقون مال اليتيم، ويكفّون عن أشياء من المحارم مخافة العقوبة، وكانوا يأخذون من لحاء شجر الحرم فيعلقونه في أعناق الأبل فلا يجترئ أحد اَن يأخذ من تلك الأبل حيثما ذهبت(١).

أولاد معد بن عدنان:

نرجع هنا الىٰ ذكر بقية أخبار مكّة وولاة اَلبيت من أولاد عدنان، فنقول: قال اليعقوبي: كان عدنان أوّل من كسا الكعبة(٢) ونصب أنصاب الحرم بمكّة. وكان أشرف أولاده معدّ اَبن عدنان، ولمّا ضاقت مكّة بهم وخرج كثير من ولد اِسماعيل لم يخرج هو منها، وكان له عشرة أولاد، منهم قضاعة وبه كان يكنىٰ، وانتقل قضاعة بأهله وأولاده الىٰ اليمن وأصبح لهم عدد كثير، فانتسب جميع من كان باليمن من ولد معد اِلىٰ قُضاعة، وانتمت قُضاعة الىٰ حِمير فحُسبوا معهم.

وساد من ولد مِعَدٍّ نِزار بن مِعَدّ فأقام بمكّة فكان سيد بني أبيه وعظيمهم. وأصبح له من الولد أربعة: مضر وإياد وربيعة وأنمار، ولمّا حضرت نزار الوفاة قسّم ميراثه علىٰ ولده هؤلاء الأربعة: فأعطىٰ مضر ناقته الحمراء فسمّي مضر الحمراء، وأعطىٰ ربيعة فرسه فسمّي ربيعة الفرس، وأعطىٰ إياد غنمه وكانت برقاء(٣) فسمّي إياد البرقاء، وأعطىٰ أنماراً جارية له تسمّى بَجيلة فسمّي بها، واَرتحل أنمار بن نِزار الىٰ اليمن فتزوج في بَجيلة وخَثْعَم، فانتسبَ ولده الىٰ أخوالهم فمنهم في بجيلة ومنهم في خثعم، فحُسبوا معهم.

---

(١) فروع الكافي ١: ٢٢٣.

(٢) هذا، وقد سبق أن أول من كساه تُبّع تبّان أسعد اليمني، وقبله هاجَر ام اسماعيل.

(٣) البرقاء من الشياة التي في خلال صوفها الأبيض طاقات سود ـ مجمع البحرين.

وصار ربيعة بن نِزار الى بطن عرق[١] ثمّ كثر ولده وولد ولده فانتشروا حتّىٰ آمتلأت بطون وديان الفرات في العراق من جماهير قبائل ربيعة: من عَنَزة بن أسد، والنَّمِرِ بن قاسط وبَكر بن وائل بن قاسط، وعِجل ابن لُجيم، وحنيفة بن لُجيم، وتيم بن ثعلبة وقيس بن ثعلبة، وعبد القيس بن أفصىٰ.

ووقع حرب بين بني النمر بن قاسط وعبد القيس فسارت عبد القيس حتّىٰ نزلت اليمامة من أرض اليمن، فكان فيها وفي تهامة جمع من أولاد معد ابن عدنان، فأقبلت اِليهم مذحج تريد غزوهم فالتقوا في موضع سلان، فكان الظفر لبني ربيعة بن معد بن عدنان وهزمت مذحج، فسمّي «يوم السلان».

وأقبل بنو كندة من اليمنيين لحرب ربيعة أيضاً، وعلىٰ كندة سلمة بن الحارث الكندي، وقد استمد من بعض الملوك لذٰلك، فالتقوا بموضع خزاز، ففضّت جموع كندة، فصالحهم سلمة، فسمّي «يوم خزاز».

ثمّ تحارب سلمة مع أخيه شُرحبيل بن الحارث الكندي، فاقتسمت ربيعة فكان بنو عبد القيس مع شرحبيل وسائر ربيعة مع سلمة، فكان لهم العلو علىٰ قيس وقتل شرحبيل الكندي، فسمّي «يوم الكلاب».

ومن عشائر ربيعة: بنو شيبان وبنو تغلب، وقتل جسّاس بن مرة الشيباني: كليب بن ربيعة التغلبي، فاشتبكت الحروب بينهم ودامت أربعين سنة سمّيت «حروب البسوس».

وتشارك بنو شيبان وبنو عجل من بني بكر بن وائل من عشائر ربيعة في الدفاع عن هانىء بن مسعود الشيباني أمام جيوش كسرىٰ من العجم ومن معهم من العرب من بني معد بن عدنان وقحطان مع إياس بن قبيصة الطائي، فالتقوا بذي قار

(١) من مواقيت الاحرام ومنازل طريق الحجاز الى العراق، آخر العقيق وأول تهامة عن مكّة على نحو مرحلتين ـ مجمع البحرين.

فتحاربوا فهزم بنو عجل وبنو شيبان أُولئك، فكان أوّل يوم انتصرت فيه العرب من العجم في «يوم ذي قار».

وصار إياد بن نزار بن معد بن عدنان الىٰ اليمامة فولد له أولاد انتسبوا في القبائل، ثمّ انتقل قسم منهم إلىٰ الحيرة فنزلوا الخورنق والسدير وبارق، وأجلاهم كسرىٰ عن ديارهم فأنزلهم تكريت ـ مدينة قديمة علىٰ شطّ دجلة من أرض الموصل ـ ثمّ أخرجهم عن تكريت الىٰ بلادِ الروم فنزلوا بأنقرة من أرض الروم، وجماهير قبائلهم: نزار ومالك ويقدم وحذاقة.

وساد من ولد نزار من معدّ: مضر بن نزار فكان سيّد ولد أبيه وكان كريماً حكيماً.

فولد مضر بن نزار: الياس بن مضر وعيلان بن مضر.

فولد عيلان بن مضر: قيس بن عيلان وأصبح العدد والمنعة في ولد قيس، وجماهير قبائلهم: عدوان، وفهم، ومحارب، وباهلة، وفزارة، وسليم، وعامر، ومازن، وسلول، وثقيف، وكلاب، وعقيل، وقشر، والحريش، وعوف. ولقبائل قيس عيلان عشرة حروب مشهورة، منها حرب داحس والغبراء بين فزارة وعبس.

وبان فضل إلياس بن مضر وشرفه، وظهرت منه امور جميلة حتّىٰ رضوا به رضاً لم يرضوا بأحدٍ من ولدِ إسماعيل مثله، فأنكر عليهم ماغيّروا من سنن آبائهم فردّهم الىٰ سنن آبائهم حتّىٰ رجعت سنتهم علىٰ أوّلها، فكانت العرب تعظّم إلياس تعظيم أهل الحكمة. وله من الولد: عامر، وعمرو، وعمير، وألقابهم: مدركة، وطابِخة، وقِمعة.

وولد لطابخة بن الياس: أُدّ بن طابخة، فتفرعت من ولده أربع قبائل هي: الرباب، وضَبّة، ومُزينة، وتميم. وأصبح العدد في تميم حتّىٰ امتلأ بهم البلاد.

فمن جماهير قبائلهم: كعب، وحنظلة، وبنو دارم، وبنو زرارة، وبنو عمرو بن تميم، وبنو أسد بن تميم، ولهم حروب معروفة[١].

وكان بنو عمرو بن عامر بن ربيعة قد نزلوا مدينة مأرب باليمن، فلمّا انهدّ السدّ بسيل العرم اعتزلوا سائر ربيعة وانخزعوا إلىٰ مكّة فسمّوا خزاعة لانخزاعهم هذا[٢] وتزوج منهم قمعة بن الياس فانتسب ولده اليهم[٣].

وكانت حجابة البيت لإياد بن نزار[٤]، فنازعه عليها مضر، وثارت الحرب بينهما وكانت علىٰ اياد[٥] فلمّا أرادوا الرحيل عن مكّة قلعوا الحجر الأسود وحملوه علىٰ جملٍ فلم ينهض فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه. فلمّا بعدت اياد اشتدّ ذلك علىٰ مضر وأعظمه قريش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها: اشترطوا علىٰ قريش وسائر مضر أن يصيّروا اليكم حجابة البيت حتّىٰ أدلّكم علىٰ الركن، ففعلوا ذلك، فلمّا أظهروا الركن صيّروا إليهم الحجابة[٦] ووليت خزاعة أمر البيت وأوّل من وليه منهم[٧] عمرو بن لُحيّ بن قَمِعة بن الياس ـ فهو من مضر الّتي انتمت إلىٰ خزاعة ـ وهو أوّل من غيّر دين إبراهيم عليه السلام[٨].

وولد مدركة بن الياس: هُذيلاً، وخُزيمة، وغالباً، وحارثة؛ وكان العدد منهم في بني سعد بن هُذيل، وكانوا فصحاء شعراء أصحاب نجدة وحروب وغارات علىٰ

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٢٣ ـ ٢٢٩.

(٢) مروج الذهب: ٢: ٢٩.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٢٣.

(٤) اليعقوبي ١: ٢٣٨.

(٥) مروج الذهب ٢: ٢٩.

(٦) اليعقوبي ١: ٢٣٨.

(٧) مروج الذهب ٢: ٢٩.

(٨) اليعقوبي ١: ٢٣٨. واسمه في المسعودي: عمرو بن لحي بن عامر ٢: ٢٩.

تعبير اليعقوبي. وأمّا حارثة بن مُدركة فدرج صغيراً ومات، وأمّا بنوغالب فانتسبوا في بني خزيمة، لأنه كان يعدّ له الفضل والسؤدد حتّىٰ كان أحد حكام العرب.

فولد خُزيمة بن مُدركة: أسد، والهون، وكنانة. وأنتقل ولد أسد إلىٰ اليمن، وهم: دودان، وكاهل، وعمرو، وهند، والصّعب، وتغلب. وكان العدد في بني دودان، ومنه تفرّقت قبائل بني أسد: قعين، وفَقْعسُ، ومنقذ، وديّان ووالبة، ولاحق، وحرثان، ورئاب، وبنو الصيداء، وأنتشر ولده في اليمن، ومن قبائلهم: جذام، ولخم، وعاملة، وبنو عمرو بن أسد، وكانت منتشرة من تهامة الىٰ قصور الحيرة: الخورنق والسدير وبارق، وكانت محاربة لكندة في اليمن ومحالفة لطيّء في العراق، ثمّ تحاربوا وأخذ بعضهم من بعض سبايا، ثمّ ردّوا الظعائن.

وولد كنانة بن خُزيمة: النضر، وحدال، وسعداً، ومالكاً، وعوفاً، ومَخرمة، وعليّاً، وغزوان، وجَرْوَلاً، والحارث، وعبد مناة. والعدد في أبناء عبد مناة هٰذا، فنهم: بنو ليث، وبنو الدُئل، وبنو ضَرّة، وبنو غِفار، وبنو جذيمة، وبنو مدلج. فهذه جماهير قبائل كنانة.

والنضر بن كنانة هو الذي سمّته أُمّه قريشاً وهو تصغير قرش وهي دويبة بحريّة، فولد النضر بن كنانة: الصلت ويخلد ومالك، وكان النضر يكنّىٰ أبا الصّلت، وصار ولد الصّلت مع خزاعة ولم يبق من يخلد أحد يعرف.

وإنّما أصبح مالك بن النضر عظيم الشأن، وكان له من الولد: فهر والحارث وشيبان، وأختلفوا في أسم فهر هل أسمه فهر؟ أو أسمه قريش ولقبه فهر، ومنه القرشيون فقط. وظهر في فهر بن مالك علامات فضل في حياة أبيه، فلمّا هلك أبوه قام مقامه.

وكان لفهر بن مالك من الولد: غالب، والحارث، ومحارب وجندلة، وكان غالب أفضلهم وأظهرهم مجداً، فلمّا مات هو شرف غالب وعلا أمره.

وكان له من الولد: لُؤي، وتيم، وتغلب، ووهب، وكثير، وحرّاق. وساد لؤي من بينهم، فلمّا مات غالب بن فهر قام لؤي بن غالب مقامه.

وكان للؤي من الولد: كعب، وعامر، وسامة، وخُزيمة، وعوف، والحارث الجُشَم، وسعد، فصار عامر الىٰ عمان وتزوج أمرأة من مدينة قرن في اليمن، وكان له من الولد: حسل ومَعيص وعُويص. ونزح خُزيمة إلىٰ بني شيبان فانتسب ولده الىٰ بني ربيعة. ونزح الحارث الجُشَم وسعد الىٰ هزّان فانتسبوا إليهم. وانتمىٰ عوف بن لؤي الىٰ عوف بن سعد بن ذبيان في أرض غَطَفان.

وكان أعظم هٰؤلاء شرفاً وقدراً كعب بن لؤي حتّىٰ أن قريشاً أرّخت من موته، وكان له من الولد: مرة، وعَدي، ومنه بنو عَدي رهط عمر بن الخطاب، وهصيص ومنه بنو جُمح وبنو سهم.

وساد مرّة بن كعب، وولد له: يقظة وتيم ومنه بنو تيم رهط أبي بكر ابن أبي قحافة عتيق التيمي، وكلاب، وساد من بينهم كلاب هٰذا. وكان لكلاب بن مرة من الولد: قُصيّ، وزُهرة.

وكان اسم قُصيّ: زيداً، إلّا أن أباه كلاباً مات وهو صغير في حجر أُمّه، وقدم رجل من بني عُذرة من قضاعة يقال له: ربيعة بن حرام العذري فتزوجها وخرج بها الىٰ قومه وحملت زيداً معها فلمّا بعد من دار قومه سمّته قصيّاً. فلمّا شبّ عرف أنه ابن كلاب بن مرّة وأنّ قومه كانوا آل اللّه وفي حرمه فكَرِه قصيّ الغربة وأحبّ أن يخرج الىٰ قومه، وخرج في الشهر الحرام في حُجّاج قضاعة حتّىٰ قدم مكّة وأقام بها وتزوج حُبَيّ ابنة حُليل الخزاعي[1] وهو آخر من وَلِي البيت من خزاعة[2] فولدت له عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزّىٰ، وعبد قُصيّ.

---

(١) اليعقوبي ١ : ٢٢٩ ـ ٢٣٩.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٢٣ ومروج الذهب ٢ : ٣١.

قال المسعودي: وكانت ولاية البيت ثلاث خصال: الاجازة بالناس من عرفة، والإفاضة بالناس غداة النحر إِلىٰ منىٰ، والنسيء للشهور الحرم. وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة، وذٰلك اَنّ العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الرجوع اجتمعت الىٰ شريف كنانة فيقوم فيهم فيقول: اللهم إنّي قد أحللت أحد الصّفرين: الصّفر الأوّل، وأنسأت الآخر للعام المقبل(١).

قال اليعقوبي: وكان الحج واجازة الناس من عرفات للغوث بن مرّ الملقب بالصوفة، وكانت الحجابة لخزاعة. فلمّا حضر الحج جمع قصيّ إليه قومه من بني فهر بن مالك وحال بين صوفة وبين الإجازة، فعلمت بنو بكر وخزاعة اَن قصيّاً سيصنع بهم كما صنع بصوفة فسيحول بينهم وبين الأمر بمكّة وحجابة البيت. فانحازوا عنه وصاروا الىٰ صوفة، فأجمع قصي لحربهم واستمد من إخوانه من الرضاعة في بني عذرة من قضاعة، وقيل انّهم وافوا يريدون الحج فأعانوه، فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح وكثرت القتلىٰ في الفريقين ثمّ تداعوا الىٰ الصلح بالتحاكم الىٰ يعمر بن عوف من بني كنانة، فقضىٰ بينهم بأنّ قصيّاً أولىٰ بالبيت وأمر مكّة من خزاعة، وأنّ كلّ دم أصابه قصيّ من خزاعة وبني‌بكر فهو موضوع، وأنّ ما اصابت خزاعة وبنو بكر من قريش ففيه الدية، فودّوا خمساً وعشرين بدنة وثلاثين حرجاً، أي قطيعاً من الغنم.

وروىٰ بعضهم: أنّه لمّا تزوج قصيّ حُبَيّ ابنة حُليل الخزاعي، أوصىٰ حُليل عند موته بولاية البيت الىٰ قُصيّ.

وقال آخرون: بل دفع حُليل الخزاعي مفتاح البيت الىٰ أبي غبشان سليمان بن عمرو، فاشتراه قصي منه بزُقٍّ خمر علىٰ إبل قَعود ـوهي الناقة الّتي يقتعدها

---

(١) مروج الذهب ٢: ٣٠ ويقصد بالصّفر الأوّل: محرم.

الراعي في كلّ حاجته ـ فجرىٰ مثلاً في العرب فقالوا: أخس من صفقة أبي غبشان. ووثبت خزاعة فقالت: لا نرضىٰ بما صنع أبو غبشان، فوقعت بينهم الحرب.

فولي قُصيّ البيت وأمر مكّة والحكم[١] واستقام أمره فعشّر علىٰ من دخل مكّة من غير قريش[٢] ولم يكن في الحرم بمكّة بيت، إنّما كانوا يكونون بها نهاراً فاذا أمسوا خرجوا، وكانوا في الشعاب ورؤوس الجبال، فجمع قصيّ قبائل قريش فقسّم بينهم منازلهم فأمر لقبائل قريش بالأبطح بمكّة، وقسّمه بينهم أرباعاً، فكانت قريش كلّها بالأبطح خلا بني محارب والحارث ابن فهر، وبني تميم الأدرم، وبني عامر بن لؤي، فانّهم نزلوا الظواهر.

فلمّا استقامت له الامور قدم البيت فبناه بنياناً لم يبنه أحد، كان طول جدرانه تسع أذرع فجعله ثماني عشرة ذراعاً، وسقف البيت بخشب شجر الدوم ـ وهو شجر ضخم يشبه النخل ـ وبنىٰ دار الندوة الىٰ جانب الصفا. فكانوا لا يتشاورون في أمر ولا يعقدون لواء للحرب ولا يختنون، ولا يتناكحون إلّا في دار الندوة. وحفر بئر العجول[٣].

وقال ابن اسحاق: حدثني أبي اسحاق بن يسار عن الحسن بن محمد ابن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: سمعته يقول: فولي قصيّ البيت وأمر مكّة، فكانت اليه الحجابة ـ وهي مفاتيح البيت ـ والسقاية، والرفادة واتخذ لنفسه دار الندوة[٤]

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٣٨ ـ ٢٤٠ وكان ذلك في النصف الأوّل من القرن الخامس الميلادي كما في سيرة المصطفىٰ: ٣٠.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٢.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٤٠.

(٤) صارت الدار في الإسلام الىٰ حكيم بن حزام بن خويلد فاشتراها منه معاوية بمائة ألف درهم وأدخلها في المسجد.

جعل بابها إلىٰ جهة الكعبة، فكانت قريش تقضي امورها فيه، فكانوا لايتشاورون في أمر نزل بهم، ولايعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلّا في داره ـ دار الندوة ـ يعقده لهم أحد ولده، حتّىٰ الجارية من قريش كانت إذا بلغت اَنْ تتدرّع ـ أي تلبس الدّرّاعة وهي ستر كالعباءة القصيرة ـ لم تكن تتدرّع إلّا في داره ـ دار الندوة ـ ففيها كان يشقّ لها درّاعتها ثمّ ينطلق بها أهلها[1].

وكان قصيّ هو الّذي فرض الرّفادة علىٰ قريش وأمرهم بها فقال «يامعشر قريش! إنّكم جيران اللّه وأهل بيته، أهل الحرم، وانّ الحاجّ ضيف اللّه وزوّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتّىٰ يصدروا عنكم».

فكانوا يخرجون لذٰلك كلّ عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس ايّام منىٰ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وجرىٰ ذٰلك فيهم حتّىٰ ظهر الإسلام.

فلمّا كبر قصيّ ودقّ عظمه، رأىٰ أنّ عبد مناف قد شرف في زمانه وهو ثاني أبنائه وبكره هو عبد الدار، فقال له: أما والله يابني لالحقنّك بهم وإن كانوا قد شرفوا عليك: لا يدخل الكعبة رجل حتّىٰ تفتحها اَنت لهم، ولايعقد أحد لواء حرب لقريش إلّا انت، ولا يشرب اَحد بمكّة إلّا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلّا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من امورها إلّا في دارك. فأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ودار الندوة الّتي لا تقضي أمرا من أمورها إلّا فيها، فجعل اليه قصي كلّ ما كان بيده من أمر قومه، وكان قصيّ لا يُخالَف ولا يُرد عليه شيء صنعه[2].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣٦ ـ ١٣٧.

وقـال اليعقوبي: إنّ قصياً قسّم أمره بين ولده: فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزّىٰ، وحافتي الوادي لعبد قصيّ. ومات قصيّ ودفن بالحَجون.

ورأَسَ عبدُ مناف بن قُصيّ وجلّ قدره وعظم شرفه، ولمّا كبر أمره جاءته خزاعة وبنو الحارث من كنانة فسألوه أنْ يعقد بينهم الحلف ليعزّوا به، فعقد بينهم الحلف الّذي يقال له: حلف الأحابيش.

وولد لعبد مناف: هاشم ـ واْسمه عمرو ـ وعبد شمس، والمطلب ونوفل، وأبو عمرو، وحنّة، وتماضر، وأربع بنات.

وشرف هاشم بعد أبيه وجلّ أمره، واصطلحت قريش علىٰ اَن يولّوا هاشماً الرئاسة والسقاية والرفادة[1].

حلف المطيبين وحلف اللعقة:

روىٰ ابن إِسحاق عن أبيه إِسحاق بن يسار، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب اَنه قال لنبيه بن وهب الهاشمي: اِن قُصيّ بن كلاب جعل كلّ ما كان بيده من أمر قومه إِلىٰ عبد الدار، وكان قُصيّ لايخالف ولايُرَدّ عليه شيء صنعه، فأقامت قريش علىٰ ذٰلك ليس بينهم اختلاف وتنازع، حتّىٰ اْنتهىٰ الأمر في عبد الدار الىٰ حفيده: عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ثمّ أجمع بنو عبد مناف بن قصيّ: عبد شمس وهاشم والمطّلب ونوفل، اَجمعوا على اَن يأخذوا مابأيدي بني عبد الدار بن قُصيّ وما جعله اليهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا اَنهم اَولىٰ بذٰلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم،

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٤٢.

فتفرقت عند ذلك قريش: فكانت طائفة مع بني عبد مناف علىٰ رأيهم يرون أنّهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وطائفة مع بني عبد الدار يرون أن لاينزع منهم ماكان قصيّ جعل اليهم.

فكان مع بني عبد مناف بنو أسد بن عبد العزّىٰ بن قصي، وبنو زهرة ابن كلاب، وبنو تيم بن مرّة، وبنو الحارث بن فهر.

وكان مع بني عبدالدار: بنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عديّ بن كعب.

وعقد كلّ قوم علىٰ أمرهم حلفاً مؤكداً علىٰ أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً:

فيزعمون أنّ بعض نساء بني عبد مناف أخرجت لهم جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثمّ غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا مع حلفائهم ثمّ مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً علىٰ أنفسهم، فسمّوا (المطّيبين).

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا مع حلفائهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً علىٰ أن لايتخاذلوا ولايسلم بعضهم بعضاً، فسمّوا (الأحلاف).

ثمّ تداعوا الىٰ الصلح علىٰ أنْ يعطوا بني عبد مناف: السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، فرضي كلّ واحد من الفريقين بذلك وتحاجزوا عن الحرب[1] هٰكذا يقتصر هٰذا الخبر علىٰ ذكر بني عبد مناف وبني عبد الدار دون ذكر شخص خاص منهم، ولكنّه بدأ بذكر عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، من بني عبد الدار، فلا يناسب أن يكون معارضه المعاصر هاشم بن عبد مناف بن قصي، بل إمّا عبد المطلب أو أحد أبنائه ليمكن أنْ يكون متزامناً معه معاصراً له من حيث سلسلة النسب.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٣٧ ـ ١٤٠.

واختصر اليعقوبي هٰذا فقال: واصطلحت قريش علىٰ أنْ يولّوا هاشماً الرئاسة والسقاية والرفادة[١] والظاهر أنّه يريد من «هاشماً» هنا بني هاشم لا هاشم نفسه، والمقصود من بني هاشم هو عبد المطّلب ابنه، كما أنّه قد ذكر بشأن عبد المطلب: أنّ بني عبد الدار لمّا رأوا حال عبد المطلب وأنّه قد حاز الفخر مشوا الىٰ بني سهم فقالوا لهم: امنعونا من بني عبد مناف! فلمّا رأىٰ ذٰلك بنو عبد مناف: بنو المطلب وبنو هاشم وبنو نوفل ـ واختلف في بني عبد شمس فقال الزبيري: لم يكونوا فيهم ـ اجتمعوا، فخرجت أُمّ حكيم بنت عبد المطلب وأخرجت طيباً في جفنة فوضعتها في الحجر، فتطيّب بنو عبد مناف، وأسد، وزهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث، فسمّي حلفهم: حلف المطّيبين.

فلمّا سمعت بذٰلك بنو سهم ذبحوا بقرة وقالوا: من أدخل يده في دمها ولعق منه فهو منّا، فأدخلت أيديها بنو عبد الدار، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي، وبنو مخزوم، فسمّي حلفهم: حلف اللعقة[٢].

رحلة الشتاء والصيف:

قال اليعقوبي: وكان هاشم أوّل من سنّ الرحلتين: رحلة الشتاء الىٰ الشام ورحلة الصيف الىٰ الحبشة واليمن.

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٤٢.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٤٨. وفي ج ٢: ١٧ ذكر حلف الفضول فقال «وحضر رسول اللّه حلف الفضول وقد جاوز العشرين» وقد قال في وفاة عبد المطلب: وتوفي عبد المطلب ولرسول اللّه ثماني سنين ٢: ١٣ إذن فحلف الفضول كان بعد إثني عشر عاماً بعد عبد المطلب: أمّا الّذي كان علىٰ عهد عبد المطلب فانّما هو حلف اللعقة (حلف الأحلاف) دون حلف الفضول، أمّا حلف الفضول فقد تأخّر عنه بأكثر من اثني عشر عاماً ولم أرَ من تنبّه له.

وذٰلك أنّ تجارة قريش كانت لا تعدو مكّة فكانوا في ضيق، حتّىٰ ركب هاشم إلىٰ الشام إلىٰ قيصر، فقال له: أيّها الملك إنّ لي قوماً من تجار العرب، فتكتب لهم كتابا يؤمنهم ويؤمن من تجاراتهم حتّىٰ يأتوا بما يستطرف من أَدَم[١] الحجاز وثيابه. ففعل قيصر ذٰلك، فانصرف هاشم فجعل كلّما مرّ بحيّ من أحياء العرب أخذ من أشرافهم الأيلاف ـ أي العهد ـ أنْ يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذ الإيلاف من الشام إلىٰ مكّة[٢] وذٰلك قول اللّٰهِ تعالىٰ: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[٣].

وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات ولايلزمهم لها مؤونة حتّىٰ صار إلىٰ «غزّة» فتوفي بها.

وانّما لقب بهاشم ـ واسمه عمرو ـ لانه كان يهشم الخبز ويصبّ عليه المرق واللحم فيطعمهم بمكّة ومنىٰ وعرفات والمزدلفة يثرد لهم الخبز في السمن واللحم والسويق، ويأمر بحياض من أدم فتجعل في موضع زمزم، فيسقي الناس فيها من الآبار الّتي بمكّة[٤] أمّا زمزم فقد كانت جرهم طمّته ولم يحفر بعد.

وقد نقل اليعقوبي خبراً عن تاجر من بني كلاب حضر موسم الحج فوصف لنا كيفية رفادة هاشم فقال:

قال الأسود بن شعر الكلبيّ: كنت عِسّيفاً ـ أي عاملاً ـ لعقيلة من عقائل الحيّ، أركب الصعبة والذلول، لا أُبقي مطرحاً من البلاد أرتجي فيه ربحاً من الأموال إلّا ركبتُ اليه من الشام بأثاثه وخرثيّه ـ أي متاعه ـ أُريد كبّة العرب أي جماعتهم.

---

(١) الآدَم بفتحتين: جمع الأديم: الجلد المدبوغ، والأُدُم بضمتين: جمع الأدام للطعام.

(٢) اليعقوبى ١: ٢٤٤.

فعدت من الشام وقد دهم الموسم، فدفعت الىٰ الموسم مسدفاً ـ أي ليلاً ـ فحبست الركاب حتّىٰ انجلىٰ عني قميص الليل، واذا جزر تنحر وأُخرىٰ تساق للنحر، وطهاة يطهون الطعامَ للأكل. فبهرني ما رأيت فتقدّمت أُريد عميدهم. وعرف رجل شأني فقال: أمامك، فدنوت، فإذا رجل علىٰ عرش سام، تحته نمرقة، قد كار ـ اي لفّ ـ عمامة سوداء، وأخرج من ملاثمها جمّة شعر فينانة ـ اي كفنن الشجر في الطول والحسن ـ كانّ الشعرىٰ تطلع من جبينه وفي يده مخصرة، وحوله مشيخة جِلّة، منكسّوا الأذقان، ما منهم احد يُفيض بكلمة، ودونهم خَدَم مشمّرون الىٰ أنصافهم، واذا برجل مجهر علىٰ نشز من الأرض ينادي: يا وفد اللّه هلمّوا الىٰ الغداء، وإنسيان علىٰ طريق من طَعِمَ يناديان: يا وفد اللّه من تغدّ فليرجع إلىٰ العشاء. فقلت لرجل كان الىٰ جانبي: من هٰذا؟ أُريد العميد؟ فقال: أبو نضلة هاشم بن عبد مناف. فخرجت وأنا اقول: هٰذا واللّه المجد، لامجد آل جفنة!

وكان هاشم لمّا أراد الخروج الىٰ الشام حمل آمرأته وآبنه شيبة بن هاشم ليجعل أهله عند أهلها بالمدينة «يثرب» بني عديّ بن النجار.

ولمّا بلغ نبأ وفاة هاشم الىٰ مكّة قام بأمر مكّة بعده أخوه المطلب بن عبد مناف. فلمّا كبر شيبة بن هاشم وبلغ المطلب بن عبد مناف وصف حال شيبة آبن أخيه هاشم، خرج الىٰ المدينة حتّىٰ دخلها عشاءً ـ أي قرب العشية ـ فأتىٰ بني عديّ بن النجار وعرفه القوم ورأىٰ غلاماً علىٰ ما وُصف له فقال: هٰذا آبن هاشم؟ قال القوم: نعم، فذهب به معه.

ودخل المطلب مكّة وخلفه شيبة بن هاشم، والناس في أسواقهم ومجالسهم، فقاموا يرحبون به ويحيونه ويسألونه: مَن هٰذا معك؟ فيقول: عبدي آبتعته بيثرب! ثمّ دخل سوق الحَزْورة ـ الىٰ جانب المسجد الحرام ـ فابتاع له حلّة، ثمّ أدخله داره.

فلمّا كان العشي ـ أي العصر ـ ألبسه الحلّة، ثمّ خرج به معه فأجلسه معه في مجلس بني عبد مناف فأخبرهم خبره. ولكن غلب عليه أسم: عبد المطلب.

وأراد المطّلب أنْ يشارك في رحلة الشتاء الىٰ اليمن، فقال لعبد المطّلب: أنت يا بن أخي أولىٰ بموضع أبيك، فقم بأمر مكّة.

ثمّ رحل فتوفي في سفره ذٰلك بردمان ـ من حصون اليمن ـ فقام عبد المطلب بأمر مكّة وساد وشرف. وأقرّت له قريش بالشرف[١].

حفر بئر زمزم:

قال الكليني: كان في الكعبة خمسة أسياف وغزالان من ذهب، فلما غلبت خزاعة على جُرهم في الحرم القلت جُرهم الأسياف والغزالين في بئر زمزم، والقوا فيها الحجارة وطمّوها وعمّوا أثرها، فلما غلب قُصي على خزاعة لم يعرفوا موضع زمزم[٢].

وقال اليعقوبي: قال محمد بن الحسن: لمّا تكامل لعبد المطلب مجده وأقرّت له قريش بالفضل رأىٰ في المنام وهو في الحجر اَنَّ آتياً أتاه فقال له: قم يا أبا البطحاء واْحفر زمزم حفيرة الشيخ الأعظم[٣].

ورویٰ اٗبن اِسحاق بثلاث وسائط عن علي عليه السلام اَنه قال: قال عبد المطلب: اِني لنائم في الحجر اِذ أتاني آتٍ فقال: اْحفر طيبة، قال: قلت: وماطيبة؟ قال: ثم ذهب عنّي. فلمّا كان الغد رجعت الىٰ مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: اْحفر برّة،

---

(١) اليعقوبي ١: ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

(٢) الكافي ٤: ٢١٩، الباب ٩، الحديث ٦ بلا إسناد.

(٣) اليعقوبي ١: ٢٤٦.

قال: قلت: فما برّة؟ قال: ثمّ ذهب عنّي؟. فلمّا كان الغد رجعت الىٰ مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: أحفر المضنونة، قال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثمّ ذهب عنّي فلمّا كان الغد رجعت الىٰ مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: أحفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنزِف أبداً ولا تُذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم[1]، عند قرية النمل.

فلمّا بُيّن له شأنها ودُلّ علىٰ موضعها وعرف أنه قد صدق الرؤيا غدا بمِعْوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ـ ليس له يومئذ ولد غيره ـ فحفر فيها.

فلمّا بدا لعبد المطلب الحجارات الّتي طوي بها البئر عرفت قريش أنّه قد أدرك حاجته، فقاموا اِليه فقالوا: ياعبد المطلب إنّها بئر أبينا اسماعيل، وانّ لنا فيها حقاً فاشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل إنّ هٰذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيته من بينكم. فقالوا له: فانصفنا فإنّا غير تاركيك حتّىٰ نخاصمك فيها! قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أُحاكمكم اِليه قالوا: كاهنة بني سعد هُذيم. قال: نعم. وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه بني عبد مناف، وركب من كلّ قبيلة من قريش نفر، فخرجوا حتّىٰ إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتّىٰ أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا: إنّا بمفازة، ونحن نخشىٰ علىٰ أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلمّا رأىٰ عبد المطلب ماصنع القوم وما يُتخوّف منه علىٰ نفسه وأصحابه قال لهم: إنّي أرىٰ أنْ يحفر كلّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلّما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثمّ واروه، حتّىٰ يكون آخركم واحداً،

---

(١) الغراب الّذي في جناحيه بياض. وحكاه الكليني في الكافي ٤ : ٢١٩، الباب ٩، الحديث ٦ بلا إسناد.

فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً. قالوا: نعم، وقام كلّ واحد منهم فحفر حفرته ثمّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً.

ثمّ قال عبد المطلب لأصحابه: ارتحلوا فعسىٰ اللّه أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، وتقدّم عبد المطلب الىٰ راحلته فركبها، فلمّا انبعثت به انفجرت من تحت خفّها عين من ماء عذب، فكبّر عبد المطلب وكبّر أصحابه، ثمّ نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتّىٰ ملأوا أسقيتهم. ثمّ دعا سائر قريش فقال: هلمّوا الىٰ الماء فقد سقانا اللّه فاشربوا واستقوا. فجاؤا فشربوا واستقوا، ثمّ قالوا: قد ـ واللّه ـ قضىٰ لك علينا ياعبد المطلب، فلا نخاصمك في زمزم أبداً، فإنّ الّذي سقاك هٰذا الماء بهٰذه الفلاة لهو الّذي سقاك زمزم، فارجع الىٰ سقايتك راشداً. فرجعوا[1].

وروىٰ اليعقوبي عن محمد بن الحسن أنّه قال: كانت قريش تفسد ذٰلك الحوض الّذي كان يسقي منه عبد المطّلب وتكسره، فرأىٰ في المنام أيضاً: أنْ قم فقل: اللهم إنّي لا أُحلّه لمغتسل إنّما هو حلّ للشارب. فقام عبد المطّلب فقال ذٰلك، فلم يكن يفسد ذٰلك الحوض أحد إلّا رُمي بداء من ساعته، فتركوه.

وكان ـ لمّا حفر ـ وجد سيوفاً وسلاحاً وغزالاً ـ من ذهب ـ مقرّطاً مجزّعاً ذهباً وفضة! فلمّا رأت قريش ذٰلك قالوا: ياأبا الحارث! أعطنا من هٰذا المال الّذي أعطاك اللّه فإنّها بئر أبينا إسماعيل فاشركنا معك، فقال: امهلوني. فلمّا استقام له الأمر جعل الذهب صفائح علىٰ باب الكعبة، وكان أوّل من حلّىٰ الكعبة بعد حليّها علىٰ عهد جرهم[2].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٥٠ ـ ١٥٣. ورواه عنه المعتزلي في شرح النهج ١٥: ٢٢٨ واختصره اليعقوبي ١: ٢٤٨.

(٢) اليعقوبي ١: ٢٤٦، ٢٤٧ ورواه الكليني عن علي بن ابراهيم مرفوعاً في فروع الكافي ١: ٢٢٥.

وقال المسعودي: حفر عبد المطّلب بن هاشم بئر زمزم، وكانت مطويّة، و ذٰلك في ملك كسرىٰ قباد، فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدرر والجوهر وغير ذٰلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعيّة وسبعة أدرع سوابغ، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل إحدىٰ الغزالين صفائح ذهب في الباب، وجعل الاخرىٰ في الكعبة وجعل باب الكعبة مذهّباً[1].

(١) مروج الذهب ٢: ١٠٣.

الفصل الثاني

كيف نشأ النبي ﷺ

آباء النبي صلى الله عليه وآله

إيمان عبد المطلب:

قال المسعودي: قد تنازع الناس في عبد المطلب: فمنهم من رأىٰ أنّ عبد المطلب وغيره من آباء النبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ كان مشركاً إلّا من صحّ إيمانه. ومنهم من رأىٰ أنّ عبد المطلب كان مؤمناً موحداً وأنّه لم يشرك باللّٰهِ عزّ وجلّ، ولا أحد من آباء النبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وأنه نُقل في الأصلاب الطاهرة، وأنه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ أخبر: انه وُلد من نكاح لا من سفاح. وهٰذا موضع فيه تنازع بين الإمامية وغيرهم من الفرق في النصّ والاختيار: وليس كتابنا هٰذا للحجاج فنذكر حجة كلّ فريق منهم.

وكان عبد المطلب يوصي ولده بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغّبهم ويرهّبهم فعل من يرقب معاداً وبعثاً ونشوراً، وقد أوصىٰ أبا طالب بالنبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ[1].

---

(١) مروج الذهب ٢: ١٠٣ و ١٠٨.

وروىٰ الصدوق في (الخصال) بسنده عن الصادق عليه‌السلام: أنّ النبي ـ صلّىٰ الله عليه وآله ـ قال لعلي عليه‌السلام: إنّ عبد المطلب سنّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الله له في الإسلام: حرّم نساء الآباء علىٰ الأبناء وأنزل الله عزوجل ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[١] ووجد كنزاً[٢] فأخرج منه الخمس وتصدّق به، وأنزل الله عزوجل ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾[٣]. ولمّا حفر بئر زمزم سمّاها: سقاية الحاج، وأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[٤]. وسنّ عبد المطلب في القتل مئة من الإبل فأجرىٰ الله ذلك في الإسلام. ولم يكن للطواف عدد عند قريش فسنّ فيهم عبد المطّلب سبعة أشواط فأجرىٰ الله ذلك في الإسلام. يا علي! إنّ عبد المطّلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح علىٰ النصب، ويقول: أنا علىٰ دين أبي إبراهيم عليه‌السلام[٥].

وروىٰ الكليني في (الكافي) رواية عن الصادق عليه‌السلام بثلاث طرق: عن مقرن وزرارة ومفضّل بن عمر عنه عليه‌السلام قال: يُحشر عبد المطلب يوم القيامة أُمّةً وحده، عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك[٦].

وروىٰ الشيخ المفيد في (الإختصاص) بسنده عن عبد الرحمن بن خالد مولىٰ

---

(١) النساء: ٢٢.

(٢) يمكن أن يكون المقصود منه ما وجده ممّا كانت جرهم قد دفنته في بئر زمزم من هدايا الكعبة، كما مرّ.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) التوبة: ١٩.

(٥) الخصال: ٣١٢، وعيون أخبار الرضا وكتاب من لا يحضره الفقيه كما في جامع أحاديث الشيعة ٨: ٥٣٨.

(٦) أُصول الكافي ١: ٤٤٦ و ٤٤٧، اي وحده في الايمان دون معاصريه.

المنصور العباسي قال: أخرج اليَّ بعض ولد سليمان بن علي العبّاسي كتاباً بخطّ عبد المطّلب وإذا هو شبيه بخطّ الصبيان وهو: بسمك اللهم، ذكر حقّ عبد المطلب بن هاشم من أهل مكّة علىٰ فلان بن فلان الحميري من أهل زول[1] صنعاء، عليه ألف درهم فضة طيبة كيلاً بالحديد، ومتىٰ دعاه بها أجابه، شهد اللّه والملكان[2]. وهٰذا يدلّ علىٰ إيمانه باللّه والملائكة.

وقال اليعقوبي: إنّه كان يوحّد اللّه عزّوجلّ، وقد رفض عبادة الأصنام، وسنّ سنناً سنّها رسول اللّه ونزل بها القرآن، وهي: الوفاء بالنذر، ومئة من الابل في الديّة، وأن لا تنكح ذات محرم، ولا تؤتىٰ البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموؤدة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّ عليه، والقرعة، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، وإضافة الضّيف، وأن لا ينفقوا إذا حجّوا إلّا من طيب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات فكانت قريش تقول: عبدالمطلب ابراهيم الثاني[3].

وقال الشهرستاني في (الملل والنحل): كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ويحثّهم علىٰ مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيّات الأمور، وكان يقول في وصاياه: إنّه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتّىٰ يُنتقم منه وتصيبه عقوبة، وهلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب في ذٰلك ففكّر فقال: واللّه إنّ وراء هٰذه الدار داراً يُجزىٰ فيها المحسن بإحسانه ويُعاقب فيها المسيء بإساءته[4].

---

(١) ذكره ياقوت في معجم البلدان فقال: اسم مكان باليمن وجد بخط عبد المطلب بن هاشم.

(٢) الاختصاص: ١٢٣ وذكره ابن النديم في الفهرست. ولا نؤكد نسبة الكتاب الى الشيخ المفيد.

(٣) اليعقوبي ٢: ١٠، ١١.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني نقلاً عن البحار ١٥: ١٢١. وللتفصيل انظر الصحيح ١: ١٤٩ ـ ١٥٤.

أبناء عبد المطلب والذبيح منهم:

رویٰ الصدوق في (الخصال) بسنده عن الصادق عن أبيه عليهما السلام عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال: سئل رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن ولد عبد المطّلب فقال: عشرة والعباس. يعني أحد عشر رجلاً.

ثمّ قال الصدوق: أسنّهم الحارث ـ وبه كان يكنّیٰ عبد المطلب ـ وعبد العزّى وهو أبو لهب، وأبو طالب ـ وهو عبد مناف ـ وضرار، والزبير، والغيداق، والمقوّم، والحَجَل، وحمزة، والعبّاس، وعبداللّه[١].

ورویٰ فيه بسنده عن الباقر عليه السلام قال: كان عبدالمطّلب ولد له تسعة، فنذر في العاشر: إن رزقه اللّه غلاماً: اَنْ يذبحه فلمّا ولد عبداللّه لم يكن يقدر اَن يذبحه ورسول اللّه صلى الله عليه وآله في صلبه، فجاء بعشر من الأبل وساهم عليها وعلى عبد اللّه، فخرجت السهام علىٰ عبداللّه، فزاد عشراً، فلم تزل السهام تخرج علىٰ عبد اللّه ويزيد عشراً، فلمّا اَن بلغت مئة خرجت السهام علىٰ الإبل، فقال عبد المطّلب: ما أنصفت ربّي، فأعاد السهام ثلاثاً فخرجت علىٰ الإبل فقال: الآن علمت اَنّ ربّي قد رضي، فنحرها[٢].

ورویٰ في (عيون الأخبار) بسنده عن علي بن الحسن بن فضّال قال: سألت الرضا عليه السلام عن معنىٰ قول النبي صلى الله عليه وآله: أنا اَبن الذبيحين؟ قال: «يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وعبد اللّه بن عبد المطّلب» الیٰ اَن قال: «فانّ عبدالمطّلب كان قد تعلّق بحلقة باب الكعبة ودعا اللّه اَن يرزقه عشرة بنين، ونذر للّه عزّوجل اَنْ يذبح واحداً منهم متىٰ أجابَ اللّه دعوته.

---

(١) الخصال ٢: ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) الخصال ١: ١٥٦، وكتاب من لا يحضره الفقيه ٣: ٨٩ عن حماد بن عيسى عن حريز عمن أخبره. ففيه ارسال، وبه وبغيره أشكل محقّقه الغفاري، فراجعه.

فلمّا بلغوا عشرة قال: قد وفىٰ اللّه لي، فلأوفين للّه عزوجل: فأدخل ولده الكعبة وأسهم بينهم، فخرج سهم عبد اللّه أبي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وكان أحبّ ولده إليه، ثمّ اَجالها ثانية فخرج سهم عبد اللّه، ثمّ اَجالها ثالثةً فخرج سهم عبد اللّه! فأخذه وعزم علىٰ ذبحه! فاجتمعت قريش ومنعته من ذٰلك، واجتمع نساء عبد المطّلب يبكين ويصحن، وقالت ابنته عاتكة: ياأبتاه اعذر فيما بينك وبين اللّٰه في قتل ابنك. قال: وكيف اعذر يا بنيّة؟ قالت: اعمد الىٰ تلك السوائم الّتي لك في الحرم فاضرب القداح علىٰ ابنك وعلىٰ الإبل واعط ربّك حتّىٰ يرضىٰ.

فبعث عبد المطّلب الىٰ إبله فأحضرها وعزل منها عشراً وضرب بالسهام فخرج سهم عبد اللّٰه، فما زال يزيد عشراً عشراً حتّىٰ بلغت مئة، فضرب فخرج السهم علىٰ الإبل، فكبّرت قريش تكبيرة إرتجّت لها جبال تُهامة! فقال عبد المطّلب: لا، حتّىٰ اَضرب بالقداح ثلاث مرات فضرب ثلاثاً كلّ ذٰلك يخرج السهم علىٰ الإبل! فلمّا كانت في الثالثة إجتذبه الزبير وأبو طالب واخواتهما من تحت رجليه فحملوه ـوكان خدّه علىٰ الأرض فانسلخت جلدة خدّهـ وأقبلوا يرفعونه ويقبّلونه ويمسحون عنه التراب. وأمر عبد المطلب أن تنحر الإبل بالحزورة[1] ولا يمنع أحد منها.

فكانت لعبد المطلب خمس من السنن أجراها اللّٰه عزوجل في الإسلام: حرّم نساء الآباء علىٰ الأبناء، وسنّ الدية في القتل مئة من الإبل، وكان يطوف بالبيت سبعة أشواط، ووجد كنزاً[2] فأخرج منه الخمس، وسمّىٰ زمزم حين حفرها:

---

(١) الحزورة كدحرجة: تل معروف في مكّة كان يتخذ سوقاً ـكما في الصحاح وقد نقل الخبر اَبن إسحاق في سيرته يقول: فيما يزعمون. ثمّ جاء بالخبر ناسباً الىٰ عبد المطلب أنّه ذبح للأصنام: وهو مردود بما رويناه سنداً معتبراً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

(٢) لعلّه ـكما سبق ـ هو مادفنته جرهم في زمزم من هدايا الكعبة.

سقاية الحاج. ولولا أن عبد المطلب كان حُجة وانّ عزمه علىٰ ذبح ابنه عبد اللّٰه شبيهاً بعزم إبراهيم علىٰ ذبح ابنه إسماعيل لما افتخر النبي صلى الله عليه وآله بالانتساب اليهما لأجل انهما الذبيحان، في قوله: أنا ابن الذبيحين. والعلّة الّتي من أجلها دفع اللّٰه عزوجل الذبح عن إسماعيل هي العلّة الّتي من أجلها دفع الذبح عن عبد اللّٰه، وهي كون النبي والأئمة المعصومين ـ صلوات اللّٰه عليهم ـ في صلبيهما، فببركة النبي والأئمة عليهم السلام دفع اللّٰه الذبح عنهما[1].

قال اليعقوبي: وكان اسم عبد اللّٰه (عبد الدار) أو (عبد قصي) فلمّا كان الفداء قال عبد المطلب: هٰذا عبد الله فسمّاه به[2] وكان ذٰلك بعد حفر زمزم بعشر سنين[3]، ولعبد اللّٰه ٢٠ سنة.

فربّما يقال هنا: إن عبد المطلب الّذي قال عنه المؤرخون: انّه كان يقطع يد السارق، ويمنع من طواف العراة، وينهىٰ عن دنيّات الأمور، تاركاً للأصنام مجاب الدعوة.. كيف يسمّي أبناءه عبد مناف، ومناف اسم صنم، وعبد العزّىٰ، والعزىٰ كذلك وثن من الأوثان، ثمّ كيف جاز له التصرّف في شخص غيره ـ ولو ابنه ـ هٰذا التصرّف؟ وهل لأحد أنْ يرىٰ صحة نذر كهٰذا تكون الضحية فيه نفساً محترمة مثل عبداللّٰه؟!

طرح هٰذا السؤال السيد المرتضىٰ في (الصحيح من السيرة)[4] ثمّ نقل عن

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٢.

(٢) اليعقوبي ٢: ٩.

(٣) اليعقوبي ٢: ٩ يعلم ذٰلك ممّا ذكره في سنّ زواج عبد اللّٰه.

(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ص) السيرة ١: ٦٥ ـ ٧٠. ولا يخفى أن عبد العزّى لم يكن اسمه وإنّما هو لقب غلب عليه واسمه المغيرة، ومناف ليس اسم صنم بل الصنم منات، ومُناف يعني الطويل.

المحقق السيد محمد مهدي الروحاني القميّ انّه أشار إلىٰ: أننا نلاحظ أنّ عبد المطّلب قد سار في إيمانه سيراً تكاملياً، فنجده في أوّل أمره يسمّي أبناءه عبد مناف وعبد العزّىٰ، ولكنّه يتقدّم في إيمانه حدّاً يُرهب به أبرهة الحبشي صاحب الفيل، ويقول عنه المؤرخون ما ذكروه وذكرناه، ولا شكّ أنه بعد ميلاد حفيده محمد صلى الله عليه وآله لمّا رأىٰ وسمع الكثير من العلامات الدالة علىٰ نبوته، وشهد وعاين الكثير من الدلالات والكرامات بأُمّ عينيه، بلغ الحدّ الأعلىٰ في إيمانه.

وعليه فلا مانع من أنْ يكون في أوّل أمره يرىٰ لنفسه أنْ ينذر نذراً كهٰذا، وقد أمر اللّٰه نبيّه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، ونذرت امرأة عمران ما في بطنها محرّراً لخدمة بيت المقدس. كما أشار الىٰ هٰذا ابن شهر آشوب فقال وتصور عبد المطّلب أنّ ذبح الولد أفضل قربة لِمَا علم من أمر اسماعيل، ثمّ ذكر الخبر(١).

الزواج الميمون

تزويج عبد اللّٰه بآمنة:

قال اليعقوبي: وبعد حفر زمزم بعشر سنين، وبعد الفداء عن عبد اللّٰه بسنة واحدة كان تزويجه بآمنة بنت وهب، وكان سنّهُ يوم تزويجها أربعاً وعشرين سنة(٢).

وقال ابن إسحاق: خرج عبد المطّلب بابنه عبد اللّٰه حتّىٰ أتىٰ به الىٰ دار وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ـ فخطب ابنته آمنة لعبد اللّٰه، وكانت آمنة أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فزوّجه إيّاها وأملكها.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠ ـ ٢٢ بلا إسناد.

(٢) اليعقوبي ٢: ٩.

وفي داره دخل عبد اللّٰه علىٰ آمنة، فحملت برسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ[1].

وروىٰ الطبرسي في (الأحتجاج) عَن الكاظم عن علي عليه‌السلام أنه قال: إنّ آمنة بنت وهب رأت في المنام انه قيل لها: انّ مافي بطنك سيّد، فإذا ولدته فسمّيه محمداً. ثمّ قال علي عليه‌السلام: فاشتقّ اللّه له اسماً من أسمائه، فإنّ اللّٰه المحمود وهٰذا محمد[2]. وفي هٰذا المعنىٰ روىٰ الطبرسي في (إعلام الورىٰ) عن سفيان بن عيينه أنّه قال: أحسن بيت قالته العرب هو قول أبي طالب للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله:

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٥، ورواه عنه الطبري ٢: ٢٤٣. هٰذا، وقد أورد المجلسي في (البحار) في باب بدء خلقته خبراً يتضمن تفصيلاً مطوّلاً في خطبة آمنة وزفافها استغرق من الطبعة الحديثة من ص ٢٦ إلىٰ ١٠٤، أي ثماني وسبعين صفحة من الجزء ١٥، قال في أوله «قال الشيخ أبو الحسن البكري استاذ الشهيد الثاني في كتابه المسمّىٰ بكتاب الأنوار: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهٰذا الحديث عن أبي عمرو الأنصاري سألت كعب الأحبار ووهب بن منبّه وابن عباس قالوا جميعاً: لمّا أراد اللّٰه اَن يخلقَ محمداً قال لملائكته... وقال المجلسي في آخر الخبر: «أقول: إنّما أوردت هٰذا الخبر مع غرابته وإرساله للإعتماد علىٰ مؤلفه واشتماله علىٰ كثير من الآيات والمعجزات الّتي لا تنافيها سائر الاخبار بل تؤيّدها» هٰذا، والشهيد الثاني استشهد سنة ٩٦٦ وقد حكىٰ محقق البحار: الشيخ الربّاني عن «رياض العلماء» عن بعض المؤرخين: اَنّه رأىٰ نسخة عتيقة من كتاب «الأنوار الكبرىٰ» تأريخ كتابتها سنة ٦٩٦ وآلسمهودي في كتابه «تأريخ المدينة» الّذي ألّفه سنة ٨٨٨ ذكر البكري صاحب الأنوار فقال: إنّ سيرة البكري الكذب والبطلان! وعلىٰ هٰذا فكيف يمكن اَن يكون من مشايخ الشهيد الثاني؟!

أمّا أبو الحسن البكري من مشايخ الشهيد الثاني فهو الصديق الشافعي المتوفىٰ بالقاهرة سنة ٩٥٢ كما في «شذرات الذهب» وليس هو صاحب كتاب الأنوار، ولكن اِلتبس عند الشيخ المجلسي أحدهما بالآخر فأحسن به الظن كما قال، وأورد أخباره الباطلة الكاذبة في بحاره. سامحه الله وغفر له ولنا.

(٢) الاحتجاج ١: ٣٢١.

وشـقّ له مـن اسمـه كـي يجـلّه　　　فذو العرش محمود وهـذا محـمد

ثمّ قـال: وقال غيره: إنّ هذا البيت لحسان بن ثابت في قطعة له أوّلها:

ألم تــر أنّ اللّــه أرسـلَ عـبدَه　　　بـبرهانِه واللّـهُ أعـلىٰ وأمجـد[١]

وقال ابن إسحاق: ويتحدث الناس: أنّ آمنة بنت وهب كانت تحدّث: أنّها حين حملت رأت أنّه خرج منها نور رأت به قصور بُصرىٰ من أرض الشام، وقيل لها: إنّك قد حملت بسيد هٰذه الأمة فإذا وقع الىٰ الأرض فقولي: أُعيذه بالواحد من شر كلّ حاسد، ثمّ سمّيه محمداً[٢].

ثمّ روىٰ بسنده عن عبد اللّٰه بن جعفر بن أبي طالب أنّه حدّث عن حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية عن آمنة بنت وهب أنّها قالت لها: رأيت حين حملت به أنّه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرىٰ من أرض الشـام، ثمّ واللّـه مـا رأيت

---

(١) ورویٰ السيد زيني دحلان: أنّ أُمّه ذكرت ما فات لعبد المطّلب فسمّـاه محمداً (ص) ولكنّها هي سمّته أحمد، ثمّ ذكر خمسة أبيات من شعر أبي طالب (رض) يسمّي النبي فيها بأحمد (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروف بالسيرة الحلبية ٩٢ ـ ١٠٠).

(٢) سيرة ابن هشام ١: ١٦٦ وعنه الطبري ٢: ١٥٦ وعنه ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٢٩: بينما روى مثله القمي في تفسيره: ٣٤٩ والصدوق في إكمال الدين ١: ١٩٦ عنه عن أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي مرفوعاً. والقطب الراوندي في الخرائج والجرائح ١: ٦٩ الحديث ١٢٩ عن الصادق عليه السلام. وقال في (الروض الأنف) وابن فورك في (الفصول): انّ أُحيحة بـن جلاح وحمران بن ربيعة وسفيان بن مجاشع كـانوا قـد التـقوا بمـن له عـلم بـالكتاب الأوّل فأخبروهم بمبعث النبي وباسمه، فلمّا سمعوا بذكر رسول اللّٰه وقرب زمانه وأنّه مـن الحـجاز طمعوا أن يكون ولداً لهم فسمّوا أبناءهم باسمه محمداً، ولا يعرف من تسمّىٰ بهذا الاسم قبله إلّا هٰؤلاء الثلاثة في العرب. هٰذا، ولكنّ السيد زيني دحلان في (السيرة الحلبية ١: ٩٣) بلغ بعدد من تسمّىٰ بهٰذا الاسم إلىٰ ستة عشر رجلاً وذكر شعراً في ذٰلك يقول:

إنّ الذيـنَ سمـوا بـاسم محـمّد　　　من قبل خير الناس ضعف ثمان

من حمل قط كان أخفّ عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته واضعاً يديه علىٰ الأرض رافعاً رأسه الىٰ السماء.

ثمّ روىٰ بسنده عن ثور بن يزيد: أن نفراً من أصحاب رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قالوا له: يارسول اللّٰه أخبرنا عن نفسك، قال: نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرىٰ أخي عيسىٰ، وحين حملت بي أُمّي رأت أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام[1]. فلعلّ قوله في بداية هٰذا الحديث قبل هٰذا «ويتحدث الناس» ليس إشارة الىٰ وهن الخبر بل الىٰ اشتهاره بين الناس، كما رواه الطبرسي

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٧١ ـ ١٧٥ وروىٰ الطبري بسنده عن ثور بن يزيد الشامي عن مكحول الشامي عن شداد بن أوس، قال: بينا نحن جلوس عند رسول اللّٰه! إذ أقبل شيخ كبير من بني عامر وهو سيدهم، يتوكأ علىٰ عصا، فمثل بين يدي النبي قائماً وقال: يا بن عبد المطلب! إنّي انبئت أنّك تزعم أنّك رسول اللّٰه الىٰ الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء، ألا وانّك فوّهت بعظيم، وإنّما كانت الأنبياء والخلفاء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممّن (أي من قوم) يعبد هٰذهِ الحجارة والأوثان فمالك وللنبوة؟! ولكن لكلّ قولٍ حقيقة فأنبئني بحقيقة قولك وبدء شأنك.

فأعجب النبي بمسألته وقال له: يا أخا بني عامر! إنّ لهٰذا الحديث الّذي تسألني عنه نبأ ومجلساً، فاجلس، فثنىٰ رجليه وجلس. فقال له النبي: يا أخا بني عامر إنّ حقيقة قولي وبدء شأني: إنّي دعوة أبي إبراهيم وبشرىٰ أخي عيسىٰ بن مريم، وإنّي كنت بكر أُمي.. ثمّ إنّ أُمي رأت في المنام أنّ الّذي في بطنها نور، وإنّها قالت: فجعلت أتبع بصري النور والنور يسبق بصري حتّىٰ أضاءت لي مشارق الأرض ومغاربها (الطبري ٢: ١٦١). ورواه بنفس السند (الكازروني) في (المنتقىٰ في مولود المصطفىٰ) وقد أخرج ابن أبي الحديد مختصره في (شرح نهج البلاغة) عن الطبري.

والظّاهر أنّ هٰذا الخبر هو ما رواه ابنُ إسحاق عن ثور بن يزيد إلّا انّه نسي السند بعده فقال: «عن بعض أهل العلم ولا أحسبه إلّا عن خالد بن معدان الكلاعي» وقد توفي خالد سنة ١٠٨ كما عن (تهذيب التهذيب) ولعله لهٰذا إنّما نقل قطعة من الخبر بالمعنىٰ.

في (إعلام الورىٰ) وبدأ بقوله: فمن ذلك ما استفاض في الحديث أنّ أُمّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا وضعته رأت نوراً[١].

وروىٰ اليعقوبي عن الصادق عليه السلام: انّه كان بين تزويج أبي رسول الله بأمّه وبين مولده عشرة أشهر.

الميلاد الميمون

قال: وروي عن أُمه اِنّها قالت: لمّا وضعته رأيت نوراً ساطعاً بدا منّي حتّىٰ اَفزعني، ولم أر شيئاً ممّا يرينه النساء.

قال: وروىٰ بعضهم: أنّها قالت: سطع منّي النور حتّىٰ رأيت قصور الشام. ولما وقع الىٰ الأرض قبض قبضة من تراب، ثمّ رفع رأسه الىٰ السماء[٢].

---

(١) إعلام الورى ١: ٥٥.

(٢) روىٰ مفصّل الخبر علي بن ابراهيم القميّ في تفسيره مرسلاً: عن آمنة أُم النبي انها قالت: لما حملت برسول الله لم اَشعر بالحمل ولم يصبني ما أصاب النساء من ثقل الحمل، ورأيت في نومي كأنّ آتيا أتاني فقال لي: قد حملت بخير الأنام.

ثمّ وضعته يتقي الأرض بيديه وركبتيه، ورفع رأسه الىٰ السماء وخرج منّي نور أضاء ما بين السماء الىٰ الأرض، ورميت الشياطين بالنجوم وحجبوا من السماء، ورأت قريش الشهب تتحرك وتزول وتسير في السماء، ففزعوا وقالوا: هٰذا قيام الساعة، واجتمعوا الىٰ الوليد بن المغيرة ـ وكان شيخاً كبيراً مجرباً ـ فسألوه عن ذلك فقال: انظروا الىٰ هٰذه النجوم الّتي يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، فإن كانت قد زالت فهي الساعة، وإنْ كانت هٰذه ثابتة فهو لأمر قد حدث.

وكان بمكّة رجل يهودي يقال له: يوسف، فلمّا رأى النجوم تتحرك وتسير في السماء خرج الىٰ نادي قريش فقال: يامعشر قريش! هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقالوا: لا، ←

حملت به أُمّه في أيام التشريق عند الجمرة الوسطىٰ. وكانت في منزل عبد اللّٰه.

← فقال: أخطأتم والتوراة. قد ولد في هٰذه الليلة آخر الأنبياء وأفضلهم، وهو الّذي نجده في كتبنا أنّه إذا ولد ذٰلك النبي رجمت الشياطين وحجبوا من السماء.

فرجع كلّ واحد إلىٰ منزله يسأل أهله: فقالوا: قد ولد لعبد اللّٰه بن عبد المطّلب إبن.

فقال اليهودي: اعرضوه عليّ. فمشوا معه الىٰ باب آمنة فقالوا لها: أخرجي ابنك ينظر إليه هٰذا اليهودي. فأخرجته في قماطه، فنظر في عينيه وكشف عن كتفه فرأىٰ شامة سوداء عليه شعرات. فسقط إلىٰ الأرض مغشياً عليه، فضحكوا منه. فقال: أتضحكون؟ يامعشر قريش! هٰذا نبيّ السيف ليبيدنّكم، وذهبت النبوة من بني إسرائيل إلىٰ آخر الأبد. وتفرّق الناس يتحدثون بخبر اليهودي.

قال علي بن إبراهيم: فلمّا رميت الشياطين بالنجوم وأنكروا ذٰلك اجتمعوا الىٰ إبليس فقالوا: قد منعنا من السماء وقد رمينا بالشهب. فقال: اطلبوا فانّ أمراً قد حدث في الدنيا. فرجعوا وقالوا: لم نر شيئاً. فقال إبليس: أنا له بنفسي. فجال ما بين المشرق والمغرب حتّىٰ انتهىٰ الىٰ الحرم فرآه محفوفاً بالملائكة وجبريل علىٰ باب الحرم بيده حربة. فأراد إبليس أن يدخل فصاح به جبرئيل: إخسأ يا ملعون: فجاء من قبل حِراء فصار مثل الصدّ (الجبل المرتفع) ثمّ قال: يا جبرئيل حرف اسألك عنه؟ قال: وما هو؟ قال: ما هٰذا؟ وما اجتماعكم في الدنيا؟ فقال: هٰذا نبي هذه الأمة قد ولد وهو آخر الأنبياء وأفضلهم. قال: هل لي فيه نصيب؟ قال: لا. قال: ففي أُمته؟ قال: بلىٰ. قال: قد رضيت (تفسير القميّ ١: ٣٧٣، ٣٧٤ ط النجف).

ولنحتفظ في الذاكرة بقوله: «قال: هل لي فيه نصيب؟ قال: لا» لنقارنه بما سنقرأه في قصّة شق صدره صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من انّ جبرئيل خاصّة أخرج من صدره نصيب الشيطان!

ومع قول يوسف اليهودي في مكّة في آخر الخبر السابق عن آمنة: «ذهبت النبوة من بني إسرائيل الىٰ آخر الأبد» لا يمكن أن نرمي الخبر بانه يهودي من الاسرائيليات.

نعم في الخبر من الاستبعاد انّ الوليد بن المغيرة معروف بما وصف به في الخبر ولكنْ عند ظهور الاسلام، فهل كان كذٰلك قبل ذٰلك بأكثر من أربعين عاماً، اي من قبل الأربعين من عمره حتّىٰ بعد الثمانين؟!

وولدته في شعب أبي طالب في دار محمّد بن يوسف[١] في الزاوية القصوىٰ عن يسار الداخل للدار، وقد أخرجت الخيزران ذٰلك البيت فصيّرته مسجداً يصلي فيه الناس[٢].

ونقل المجلسي عن كتاب (حدائق الرياض) و(التواريخ الشرعية) للشيخ المفيد أنّه قال: السابع عشر من ربيع الأوّل مولد سيدنا رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله عند طلوع الفجر من يوم الجمعة عام الفيل[٣].

وقال الطبرسي: ولد يوم الجمعة عند طلوع الشمس، السابع عشر من شهر ربيع الأوّل عام الفيل، وذٰلك لأربع وثلاثين سنة مضت من ملك كسرىٰ أنوشيروان[٤].

---

(١) قال المجلسي في هامش البحار: قال المؤرخون: كانت هٰذه الدار للنبي صلى الله عليه وآله فوهبها لعقيل بن أبي طالب، فباعها أولاده لمحمد بن يوسف أخ الحجاج الثقفي فاشتهرت بدار محمد بن يوسف فأدخلها في قصره الّذي كانوا يسمونه البيضاء وبعد انقضاء دولة بني أُمية حجت خيزران أم الهادي والرشيد فأفرزتها من القصر وجعلتها مسجداً، وهو الآن يصلىٰ ويزار فيه (البحار ١٥: ٢٥٠، ٢٥٢) وقال السيد الأمين في (أعيان الشيعة): وبقي المسجد في حالته تلك حتّىٰ استولىٰ الوهابيون علىٰ مكّة فهدموه ومنعوا من زيارته، علىٰ عادتهم في المنع عن التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، بل جعلوه مربضاً للدواب (أعيان الشيعة ٣: ٧).

(٢) اصول الكافي ١: ٤٣٩، وذكره المسعودي ٢: ١٧٤.

(٣) بحار الانوار ١٥: ٢٥١. وكذلك في المقنعة: ٤٥٦.

(٤) اعلام الورىٰ ١: ٤٢. ووصف كسرىٰ فقال: «وهو قاتل مزدك والزنادقة ومبيرهم، وهو الّذي زعموا أنّ رسول اللّٰه عناه فقال: ولدت في زمن الملك العادل الصالح» وهٰذا أوّل كتاب نراه ينقل هٰذا مرسلاً بل موهناً له بأنه من زعم من زعمه من بعض الناس! ولم أجده قبل نقل الشيخ الطبرسي في أيّ كتاب من العامة والخاصة، بل مرّ خبر يخالفُه أنّه قال صلى الله عليه وآله: «هٰذا أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبي نصروا» وقد انتصروا علىٰ كسرىٰ انوشيروان فكيف يصفه بأنّه العادل الصالح؟! ←

وقـال السيد ابن طاووس في (الإقبال): إنّ الّذين أدركناهم من العلماء كان عملهم علىٰ أنّ ولادته المقدسة صلى الله عليه وآله كانت يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الأول في عام الفيل عند طلوع فجره(١).

ولذٰلك قال الشيخ المجلسي قدس سره: إعلم أنّه اتفقت الإمامية ـ الّا من شذّ منهم ـ علىٰ أنّ ولادته صلى الله عليه وآله كانت في السابع عشر من شهـر ربـيع الأوّل، وذهب أكـثر المخالفين إلىٰ أنّها كانت في الثاني عشر منه، واختاره الكليني رحمه الله(٢).

← وقال ابن شهر آشوب: ولد بمكّة عند طلوع الفجر من يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأوّل بعد خمسة وخمسين يوماً من هلاك أصحاب الفيل. وقالت العامة: يـوم الاثـنين الثامن أو العاشر منه. ورویٰ رواية الطبرسي في انوشيروان ١: ١٧٢.

(١) اقبال الاعمال ٣: ١٢١ ط. قم المقدّسة.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٢٤٨. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢: ٣ ـ ٤.

وأشار الشيخ الإربلي الىٰ الاختلاف في تأريخ ولادته صلى الله عليه وآله ثم قال: أقول: إنّ اختلافهم في يوم ولادته سهل، إذ لم يكونوا عارفين به وبما يكون منه، وكانوا اميّين لا يعرفون ضبط مواليد أبنائهم، فأمّا اختلافهم في موته فعجيب! ولا عجب من هٰذا أيضاً مع اخـتلافهم في الأذان والإقامة، بل اختلافهم في موته أعجب، فانّ الاذان ربما ادّعىٰ كلّ قوم أنّهم رووا فيه رواية، فأمّا يوم موته فيجب أنْ يكون معيّناً معلوماً (كشف الغمة ١: ١٥).

ونقل السيد المرتضىٰ في (الصحيح) هٰذا الكلام للاربلي ثمّ علق عليه يقول: وأعجب من ذٰلك اختلافهم في الكثير الكثير من الامور الّتي كانوا يمارسونها مع النبي صلى الله عليه وآله عدة مـرات يومياً طيلة أعوام عديدة، حتىٰ انّك لتجدهم يروون التناقضات عنه صلى الله عليه وآله في أفعال الوضوء والصلاة، وهم كانوا يؤدونها معه خمس مرات يومياً، بل قد تجد بعضهم يقول: إنّهـم كـانوا يعرفون أنّه يقرأ في صلاة الظهر والعصر من اضطراب لحيته (الصـحيح ١: ٨٠ نـقلاً عـن الصحيح للبخاري ٦: ٩٠ و ٩٣ ط ١٣٠٩ ومسند أحمد ٥: ١٠ و ١٢ والسنن الكبرىٰ للبيهقي ٢: ٣٧ و ٥٤ عن الصحيحين).

الوليد لدى جدّه وعمّه:

قال ابن إسحاق: فلمّا وضعته أُمّه ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ أرسلت الىٰ جدّه عبد المطلب: إنّه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه. فأتاه فنظر إليه. فحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أُمرت به أنْ تسمّيه. فأخذه عبد المطلب فدخل به الكعبة وقام يدعو اللّه ويشكر له ما أعطاه(١).

وروى القمي في تفسيره، وعنه الصدوق في «كمال الدين» والطوسي في أماليه والراوندي في «الخرائج والجرائح» عن الإمام الصادق عليه السلام عنه قال: أُتي به عبد المطلب لينظر إليه وقد بلغه ما قالت أُمّه، فأخذه فوضعه في حجره ثمّ عوّذه بأركان الكعبة وقال فيه شعراً:

الحمد للّه الّذي أعطاني   هٰذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد علىٰ الغلمان(٢)

وروىٰ ابن شهر آشوب عن (كتاب الإبانة) لابن بُطّة قال: ولد النبي ﷺ مقطوع السرة مختوناً، فحكي ذٰلك لجدّه عبد المطلب فقال: ليكوننّ لإبني هٰذا شأن(٣).

وروىٰ الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: لمّا جاء آمنة بنت وهب داء المخاض حضرتها فاطمة بنت أسد امرأة أبي طالب فلم تزل معها حتّىٰ طلقت ووضعت، فقالت إحداهما للأُخرى: هل ترين ما أرىٰ؟ فقالت: وما ترين؟ قالت: هٰذا النور الّذي قد سطع ما بين المشرق والمغرب. وجاء أبو طالب

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٨، ١٦٩ ورواه الطبري عنه ٢: ١٥٧ بزيادة.

(٢) تفسير القمي: ٣٤٩ ط. قديم، وإكمال الدين ١: ١٩٦ ط. طهران، وأمالي الطوسي: ١٧١ ط. قديم، والخرائج والجرائح ١: ٦١ ـ ٧١، ح ١٢٩ ط. قم المقدّسة، ومناقب الحلبي ١: ٣٠.

(٣) المناقب ١: ٣٢.

فأخبرته فاطمة بالنور الّذي قد رأت، فقال أبو طالب: أما إنّك ستلدين غلاماً يكون وصي هٰذا المولود[١].

وفاة عبداللّه:

روىٰ اليعقوبي عن الصادق عليه‌السلام أنّه توفي بعد شهرين من مولد محمد -صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم- ثمّ قال: وقال بعضهم: إنّه توفّي قبل أن يولد، وهٰذا غير صحيح، لان الاجماع علىٰ انّه توفّي بعد مولده! وقال آخرون: بعد سنة من مولده. وكانت وفاته بالمدينة في دار تعرف بدار النابغة بين أخواله بني النجار[٢].

والمعروف ممّن قال إنّ عبد الله توفّي قبل اَنْ يولد محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله محمّد ابن إسحاق فقد ذكر -كما في سيرة ابن هشام والطبري والطبرسي-: اَنّ عبد اللّه لم يلبث اَن هلك وأُمّ رسول اللّه حامل به[٣].

ثمّ الواقدي، فقد روىٰ الطبري عنه عن الزهري: اَنّ عبد المطلب كان قد بعث عبداللّه الىٰ المدينة كي يحمل لهم تمراً فمات بالمدينة، فحين أبطأ عبد اللّه علىٰ عبد المطّلب بعث اِبنه الحارث في طلبه فوجده قد مات. ثمّ قال الواقدي: والثبت عندنا اَنّ عبد اللّه بن عبد المطّلب أقبلَ من الشام في عِيرٍ لقريش، فنزل بالمدينة وهو مريض، فأقام بها حتّىٰ توفّي، ودفن في الدار الصغرىٰ للنابغة علىٰ اليسار إذا دخلت الدار، ليس بين أصحابنا في هٰذا اختلاف[٤].

---

(١) روضة الكافي ٣٠٢. ورروىٰ مثله بسند آخر ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٢٣.

(٢) اليعقوبي ٢: ١٠.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٦٧. والطبري ٢: ١٦٥ وإعلام الورى ١: ٥٢.

(٤) الطبري ٢: ١٦٥ و ٢٤٦. وقال في ١٦٥: أمّا هشام الكلبي فأنّه قال: توفّي عبد اللّه بعد ما أتىٰ علىٰ رسول اللّه ثمانية وعشرون شهراً. ←

ولعلّ اليعقوبي يقابل بالإجماع هٰذه الدعوىٰ بعدم الخلاف في ذٰلك، سيّما وهو يروي خبره بوفاته بعد ميلاد الرسول بشهرين عن الصادق جعفر ابن محمد عليه السلام فيرىٰ علىٰ نفسه أن يدافع عنه ولو بمقابلة دعوىٰ عدم الخلاف بدعوىٰ الإجماع.

ويوافق اليعقوبي الكليني من دون نسبة الىٰ الصادق عليه السلام فيقول: وتوفي أبوه عبد اللّه بالمدينة عند أخواله، وهو ابن شهرين[1] فلعلّه لم يعتد برواية اليعقوبي لإرسالها، أو لم يطّلع عليها.

أمّا المسعودي فقد ذهب الىٰ ما ذهب اليه ابن إسحاق والواقدي إذ قال: وكان أبوه عبد اللّه غائباً بأرض الشام فانصرف مريضاً فمات بالمدينة ورسول اللّه صلى الله عليه وآله حملٌ. ثمّ قال: ومنهم من قال: انّه مات بعد مولد النبي بشهر، ومنهم من قال: انّه مات في السنة الثانية من مولده[2].

وروىٰ المجلسي عن (المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ) للكازروني من العامة: انّ عبد اللّه خرج الىٰ الشام في عِير من قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثمّ انصرفوا فمرّوا بالمدينة، وعبد اللّه يومئذ مريض فقال اتخلف عند أخوالي بني عديّ بن النجار فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضىٰ أصحابه فقدموا مكّة فسألهم عبدالمطّلب عن عبد اللّه فقالوا: خلّفناه عند أخواله بني عدي وهو مريض. فبعث إليه عبد المطّلب أكبر ولده الحارث، فوجده قد توفّي، فأخبره أخواله بمرضه وبقيامهم عليه. وما ولوا من أمره حتّىٰ قبروه، فرجع الحارث الىٰ أبيه فأخبره فحزن عليه وإخوته وأخواته حزناً ووجداً شديداً. ورسول اللّه يومئذ حَمْلٌ.

← وأمّا الدار الّتي دفن فيها أبو النبي فقد كانت قائمة حتّىٰ بعد عام ١٣٩٠ هـ ثمّ هدمت في توسيع فلكة مسجد النبي صلى الله عليه وآله ولم يبق لها أي أثر.

(١) اصول الكافي ١: ٤٣٩.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٧٤.

ولعبد اللّٰه يوم توفّي خمس وعشرون سنة. ثمّ قال: وروي: أنّه توفّي بعد ما أتىٰ علىٰ رسول اللّٰه سبعة أشهر، ويقال: ثمانية وعشرون شهراً.

ثمّ روىٰ الكازروني عن الواقدي: أنّ عبد اللّٰه ترك من الإرث قطيع غنم وخمسة جمال ومولاته بركة وهي أمّ أيمن حاضنة رسول اللّٰه[1] وقال الطبرسي: عاش ﷺ مع أبيه سنتين وأربعة أشهر. ثمّ قال: وقيل: إنّ أباه ﷺ مات والنبي ابن سبعة أشهر[2].

وقال الأربلي: عاش مع أبيه سنتين وأربعة أشهر. ثمّ قال: وقيل: مات أبوه وعمره سبعة أشهر[3].

والاربلي في كلامه هٰذا يحاكي كلام الطبرسي، والقول الأوّل هو قول هشام الكلبي كما قال الطبري: وأمّا هشام الكلبي فأنّه قال: توفّي عبد اللّٰه أبو رسول اللّٰه بعد ما أتىٰ علىٰ رسول اللّٰه ثمانية وعشرون شهراً[4]. وممّا يؤيد رواية ابن إسحاق بوفاة عبد اللّٰه قبل ميلاد الرسول أنّا لا نعثر علىٰ أي خبر أو أثر عن عبد اللّٰه حين ميلاد الرسول، وانّما نجد جدّه عبد المطلب يلتمس له المرضع.

رضاع النبي ﷺ:

روىٰ المجلسي عن الكازروني في (المنتقىٰ) عن برّة الخزاعية: أن أوّل من أرضع رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ ثويبة ـ مولاة أبي لهب عمّ النبي ـ

---

(١) بحار الأنوار ١٥: ١٢٤، ١٢٥ عن المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ لمحمد بن مسعود الكازروني وفي ص ١١٦ نقل عن كتاب العدد: أنه ورث ذٰلك عن أُمه.

(٢) إعلام الورىٰ ١ : ٥٢.

(٣) كشف الغمة ١: ١٦.

(٤) الطبري ٢: ١٦٥.

بلبن ابنٍ لها يقال له مسروح، قبل أن تقدم حليمة، أياماً. وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطّلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وكانت ـ ثُويبة ـ تدخل علىٰ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ فيكرمها، وكان يبعث إليها رسول الله بعد الهجرة بكسوة وصلة، وكانت قد أسلمت، فماتت بعد فتح خيبر[1].

وروىٰ عن الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: إنّ علياً ذكر لرسول الله ابنة حمزة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما علمت انّها ابنة أخي من الرضاعة. ثمّ قال الصادق عليه السلام: وكان رسول الله وعمّه حمزة قد رضعا من امرأة[2].

وقال اليعقوبي: كان أوّل لبن شربه بعد أُمّه لبن «ثُويبة» مولاة أبي لهب. وقد أرضعت ثُويبة هٰذه حمزة بن عبد المطّلب، وجعفر بن أبي طالب، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[3].

والطبري روىٰ الخبر نفسه الّذي رواه الكازروني، بسنده الىٰ برّة ابنة أبي تجزأة عن طريق الواقدي[4].

وقال الطبرسي في (إعلام الورىٰ): وكانت ثُويبة مولاة أبي لهب بن عبدالمطّلب أرضعت النبي صلى الله عليه وآله بلبن ابنها مسروح، قبلَ أنْ تقدم حليمة، وتوفيت ثُويبة مسلمة سنة سبع من الهجرة، ومات ابنها قبلها. وكانت ثُويبة قد أرضعت قبله

---

(١) بحار الأنوار ١٥: ٣٨٤ عن المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ لمحمّد بن مسعود الكازروني.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٣٤٠ عن فروع الكافي ٢: ٤١ و ٤٢ ورواه الصدوق في الفقيه ٣: ٢٦٠ والطوسي في التهذيب ٧: ٢٩٢. وراجع مفتاح الكتب الأربعة ١٤: ٣٤٠ و ٣٤٣.

(٣) اليعقوبي ٢: ٩.

(٤) الطبري ٢: ١٥٨.

حمزة بن عبد المطّلب عمّه، فلذلك قال رسول اللّه لابنة حمزة: انّها ابنة أخي من الرضاعة. وكان حمزة أسنّ من رسول اللّه بأربع سنين(١).

وروىٰ ابن شهر آشوب رواية الطبري(٢).

وقال الاربلي في (كشف الغمة): أرضعته ثُويبة مولاة أبي لهب، قبل قدوم حليمة أياماً بلبن ابنها مسروح، وتوفيت ثُويبة مسلمة سنة سبع من الهجرة، ومات ابنها قبلها. وكانت ثُويبة قد أرضعت قبله عمّه حمزة رضي الله عنه، فلهٰذا قال صلى الله عليه وآله وقد حودث في التزويج بابنة حمزة: اِنّها ابنة أخي من الرضاعة. وكان حمزة أسنّ منه بأربع سنين(٣).

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ٤٥. ويقال: انه صلى الله عليه وآله لما افتتح مكّة سأل عنها وعن ابنها فاخبر انهما ماتا، كما عن الاستيعاب والروض الانف وشرح المواهب.

(٢) المناقب ١ : ١٧٣.

(٣) كشف الغمة ١ : ١٥، والعبارة هي عبارة الطبرسي في إعلام الورىٰ بدون اسناد. وقد ثقل علىٰ بعض غلاة ولاة أئمة أهل البيت عليهم السلام اَن يقرّوا لمولاة ابي لهب اَن تكون أوّل من أرضعت النبي صلى الله عليه وآله ، فلم يسلّموا لها بذٰلك، ثمّ حاولوا اَن يسدّوا هٰذا الفراغ الزمني بعد ميلاده وقبل دفعه الىٰ حليمة السعدية بما رواه الكليني قدس سره بسنده الىٰ عليّ بن أبي حمزة البطائني عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنّه قال: لمّا ولد النبي مكث أياماً ليس له لبن، فألقاه أبو طالب علىٰ ثدي نفسه فأنزل اللّه فيه لبناً فرضع منه أياماً! حتّىٰ وقع أبو طالب علىٰ حليمة السعدية فدفعه اليها (أُصول الكافي ١ : ٤٤٨) هٰذا، وقد روىٰ الكشي في رجاله في ذم علي بن أبي حمزة البطائني أخباراً كثيرة تتهمه بالكذب وتلعنه، فلعنة اللّه عليه. غفر اللّه للكليني وابن شهر آشوب والمجلسي إذ رووا هذا الكذب، ورحم اللّه الشيخ الرباني الشيرازي محقق البحار (١٥) إذ علّق علىٰ هٰذا الكذب بقوله: الحديث لايخلو عن غرابة، وفي اسناده جماعة لايحتج بحديثهم (بحار الأنوار ١٥ : ٣٤٠). وروى الراوندي خبر الرضا عليه السلام عن حليمة السعدية في صفحة من الخرائج والجرائح ١ : ٨١ الحديث ١٣٤ وعنه بحار الأنوار ١٥ : ٣٣١ وآثرنا نقله المسند عنها هنا.

الرضاع الميمون

رضاعه من حليمة السعدية:

رویٰ ابن اِسحاق بسنده الیٰ عبدالله بن جعفر بن أبي طالب عن حليمة بنت اَبي ذؤيب السعدية اَنها كانت تقول: اِنّها خرجت من بلدها مع زوجها الحارث بن عبد العزّیٰ من بني هوازن ومعها رضيعها عبد اللّٰه بن الحارث، ومعها نسوة من بني سعد كلّ واحدة منهن تلتمس رضيعاً ترضعه ترجو المعروف من أبيه. وذٰلك في سنة مجدبة لم تُبق لهم شيئاً، وما أرض أجدب من بلاد بني سعد. فما كان في ثديها ما يغني صبيّها الرضيع حتّیٰ كانوا ما ينامون ليلهم من بكائه من الجوع، ومعها ناقة لها مسنّة ما ترشح بشيء يغذيهم، وكانت هي علیٰ أتان يتخلف عن الركب ضعفاً وهزالاً.

حتّیٰ قدموا الیٰ مكّة، فما بقيت امرأة ممّن مع حليمة اِلّا أخذت رضيعاً لها سویٰ حليمة وكلما كان يعرض رسول اللّه صلى الله عليه وآله علیٰ امرأة منهن يقال لها اِنّه يتيم، كانت تأباه ليتمه. وبقيت حليمة لم تأخذ رضيعاً، ولم يبق رضيع سویٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله، قالت حليمة: فقلت لزوجي: واللّه اِنّي لأكره اَن اَرجع واَنا بين صواحبي لم آخذ رضيعاً، واللّه لاذهبنّ اِلیٰ ذٰلك اليتيم فلاخذنّه، قال صاحبي: لا عليكِ اَن تفعلي عسیٰ اللّه ان يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت اِليه فأخذته ـوما حملني علیٰ أخذه اِلّا اَنّي لم أجد غيره ـ ورجعت به الیٰ رحلي ووضعته في حجري وأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتّیٰ روي، وشرب معه أخوه فروي. وقام زوجي الیٰ ناقتنا فإذا ضرعها مليء باللبن فحلب ما شرب وشربت معه حتّیٰ روينا، فقال لي صاحبي: يا حليمة لقد اَخذت نسمة مباركة، فقلت واللّه اِني لأرجو ذٰلك.

ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، فلم نزل نتعرّف من اللّه الزيادة والخير، وكانت غنمي ترجع الينا بعد العصر شباعاً قد إمتلأ ضرعها من اللبن، وترجع غنم القوم جياعاً لا ترشح بقطرة لبن. وكان رسول اللّه ـ صلىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ يشبّ ما لا يشبّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه من الرضاعة حتّىٰ غلظ واشتدّ جسمه، حتّىٰ إذا مضت سنتاه وفصلته، فقدمنا به علىٰ أمّه ونحن أحرص شيء علىٰ مكثه فينا لِما نرجو من بركته، فكلمنا أمّه فلم نزل بها حتّىٰ ردّته معنا فرجعنا به.

قالت حليمة: وبعد مقدمنا به بأشهر إحتملناه فقدمنا به علىٰ أمّه.

فقالت آمنة: ما أقدمك به وقد كنت حريصة عليه وعلىٰ مكثه عندك؟

فقلت: قد بلغ اللّه بابني وقضيت الّذي عليّ، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته اليك كما كنت تحبّين.

فقالت: افتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت: نعم. قالت: كلّا واللّه ما للشيطان عليه من سبيل. ثمّ أخبرتها بما رأته منه حين حمله ووضعه.

قال ابن اسحاق: حدثني بعض أهل العلم: انّ ممّا هاج أمّه السعدية علىٰ رده الىٰ أمّه: اَن نفراً من نصارىٰ الحبشة رأوه فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ثمّ قالوا لها: إنه يكون لهذا الغلام شأن نحن نعرف أمره، وأرادوا اَن يأخذوه الىٰ بلدهم، حتّىٰ كادت اَنْ لا تنفلت به منهم.

قال ابن إسحاق: يتحدث الناس: إنّها لمّا قدمت به الىٰ مكّة نحو اَهله افتقدته في الناس، وكلّما التمسته لم تجده، فأتت عبد المطلب فقالت له: إنّي قد قدمت بمحمد البارحة، فلمّا كنت بأعلىٰ مكّة افتقدته فو اللّه ما أدري أين هو؟

فقام عبد المطّلب عند الكعبة يدعو اللّه اَن يردّه عليه، فوجده رجلان من قريش أحدهما ورقة بن نوفل بن أسد ـ ابن عمّ خديجة ـ فأتيا به عبد المطّلب

فقالا له: هٰذا ابنك وجدناه بأعلىٰ مكّة. فأخذه عبد المطّلب فجعله علىٰ عنقه وطاف به الكعبة يعوّذه ويدعو له ثمّ أرسل به إلىٰ اُمّه آمنة[1].

قصّة شقّ الصدر!

إنّ خبر رضاع النبي ﷺ من حليمة السعدية من المسلّم به من أخبار التأريخ إجمالاً، إلّا انّ عمدة ما ورد بتفصيل الخبر فيه خبران ذكرهما الطبري:

الخبر الأوّل: رواية ابن إسحاق عن الجهم بن أبي الجهم عن عبد اللّه ابن جعفر بن أبي طالب، عن حليمة السعدية. وقد رواها الطبري عن ابن إسحاق يصف الجهم بأنّه مولىٰ عبد اللّه بن جعفر، بينما رواها عنه ابن هشام في سيرته يصف الجهم بأنّه مولىٰ الحارث بن حاطب الجمحي. وفي الخبر عن حليمة أنّها قالت: إنّه ﷺ كان ـ بعد رجوعنا به من اُمّه بأشهر ـ مع أخيه ـ عبد اللّه بن الحارث السعدي ـ في بُهم[2] لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ ويقول: انّ أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقّا بطنه و...! فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه! فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو[3]!

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٧١ ـ ١٧٧ بتصرف ورواه عنه الطبري ٢: ١٥٨، ١٦٠، ورواه عنهما ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣: ٢٥٢، ٢٥٣ وروىٰ المجلسي عن الكازروني في (المنتقىٰ): أنّ رسول اللّه لمّا تزوّج بخديجة سمعت به حليمة فقدمت علىٰ رسول اللّه فشكت إليه جدب البلاد وهلاك الماشية. فكلّم رسول اللّه خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً، فانصرفت الىٰ أهلها. وبعد الإسلام قدمت عليه فاستأذنت عليه، فقال: اُمّي اُمّي، وعمد إلىٰ ردائه فبسطه لها فقعدت عليه (بحار الأنوار ١٥: ٤٠١).

(٢) البُهم: الصغار من الغنم.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٧١ ـ ١٧٤، والطبري ٢: ١٥٨ ـ ١٦٠.

والخبر الثاني: رواية الطبري أيضا بسنده عن ثور بن يزيد الشامي، عن مكحول الشامي، عن شدّاد بن أوس. والظاهر أنّ هٰذا الخبر هو ما رواه ابن إسحاق عن ثور بن يزيد أيضاً إلّا أنّه نسي ما بعد ثور من السند فقال «عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلّا عن خالد بن معدان الكلاعي» ثمّ اختصره وتصرّف فيه ما قد نسيه كالسند، فقرب فيه من الخبر السابق إذ قال فيه عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: استرضعت في بني سعد، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعىٰ بُهما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً، ثمّ أخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثمّ غسلا قلبي وبطني بذٰلك الثلج حتّىٰ أنقياه[1].

بينما نرىٰ في رواية الطبري. بسنده عن ثور بن يزيد نفسه عن مكحول الشامي عن شدّاد بن أوس عن النبي ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ أنّه قال: وكنت مسترضعاً في بني ليث بن بكر، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بالجلّة[2] إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب مليء ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هرّابا حتّىٰ انتهوا الىٰ شفير الوادي... ثمّ انطلقوا هرّابا مسرعين الىٰ الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم علىٰ القوم. فعمد أحدهم فأضجعني علىٰ الأرض... ثمّ شقّ ما بين مفرق صدري الىٰ منتهىٰ عانتي... ثمّ أخرج أحشاء بطني فغسلها بذٰلك الثلج... ثمّ أعادها مكانها. ثمّ قام الثاني منهم ... ثمّ أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي، فصدعه ثمّ أخرج منه مضغة سوداء فرمىٰ بها... فإذا أنا بخاتم في يده... فختم به قلبي فامتلأ نوراً

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٧٥.

(٢) الجلّة بالفتح: بعر البعير، ومنه الإبل الجلّالة، والحيوان الجلّال، وهٰذا ما يبعدنا عن تصديق الخبر أيضاً.

وذٰلك نور النبوة والحكمة، ثمّ أعاده مكانه فوجدت برد ذٰلك الخاتم في قلبي دهراً. ثمّ قام الثالث... فأمرّ يده ما بين مفرق صدري الىٰ منتهىٰ عانتي فالتأم ذٰلك الشقّ بإذن اللّه، ثمّ أخذ بيدي فأنهضني[1].

فنرىٰ رواية الطبري هٰذه عن شداد بن أوس تختلف عن رواية ابن إسحاق في: المكان الّذي جرىٰ فيه الحادث، وفي: عدد الأشخاص الّذين جاؤوه، وفي: الكيفية الّتي وقع عليها، إلىٰ غير ذٰلك ممّا اشتملت عليه رواية الطبري من الخصوصيات التفصيلية الّتي لم تتفق معها رواية ابن اسحاق، مع أن كلتيهما تمرّان بثور بن يزيد الكلاعي الشامي المتوفى في ١٥٥ كما في كتب الرجال ومنها «تهذيب التهذيب»، ولذٰلك نرىٰ ابن إسحاق يسحق موارد الخلاف في هٰذا الخبر باختصاره للتفصيلات الواردة فيه، وبالتصرف في عدد الملائكة، فبينما نجد خبر ثور بن يزيد عن شدّاد بن أوس يذكر عدد الملائكة الحاضرين للقيام بالعملية علىٰ رسول اللّٰه: ثلاثة، نجد ابن إسحاق قد أعاد العدد الىٰ اثنين كي يتوافق العدد فيه مع ما في خبر الجهم عن عبد اللّٰه بن جعفر.

وكذٰلك في عدد من معه، فبينما نجد خبر ثور عن شداد يذكر «مع أتراب لي من الصبيان» نرى ابن إسحاق قد أعاد العدد الىٰ فرد بنفس النسبة الّتي في خبر الجهم عن ابن جعفر «مع أخ لي»، وكذٰلك بالتصرف في المكان الّذي جرىٰ فيه الحادث، فبينما نجد خبر ثور عن شداد يذكر مكان الحادث «منتبذ من أهلي في بطن واد» نرىٰ ابن إسحاق قد أعاده الىٰ «خلف بيوتنا».

وكذٰلك بالتصرف في حال الرسول حينئذ: فبينما نرىٰ خبر ثور عن شدّاد يذكر «نتقاذف بالجَلَة» نرىٰ ابن إسحاق قد أبىٰ علىٰ النبي اللعب بالجَلَة ولو في صغره

---

(١) الطبري ٢: ١٦٠ ـ ١٦٢.

وأصرّ علىٰ تكرير ما في خبر الجهم «نرعىٰ بُهماً لنا» أي نرعىٰ الصغار من الغنم، وليت شعري إذا كان الّذي أو الّذين معه أترابه وهو كما في خبر الجهم بعد أشهر من فصاله فكيف يرعىٰ الغنم ؟!

وإنّ هٰذا لعمري لدليل علىٰ وضع الخبر وقصر حبل الكذب! وهٰذا الإختلاف بذاته لمن الدواعي الّتي تثير الشكوك حول هٰذه الحادثة، وبخاصة إذا نظرنا الىٰ أسانيد هٰذه الروايات وعرضناها علىٰ الأُصول الّتي لابد من توفّرها لقبول الرواية، وإنْ كان لم يقنع بهٰذا القدر من التشكيك كثير من كتّاب السيرة[1].

وحينما نراجع تراجم الرجال نجد انّ أرباب التراجم قد رجموا ثور ابن يزيد بأنّه: شاميّ كان يرىٰ القدر، أي هو من القدرية وأنا أرىٰ أنّ القدرية الّتي ينسب اليها الشاميون في شعاع أفكار الأمويين هي أنّ أعمال العباد بقدر مقدّر قد قضىٰ به اللّٰه، لا القدر بمعنىٰ يجتمع مع إرادة الإنسان واختياره.

وعلىٰ هٰذا فهو متهم بوضع ما يؤيد به مذهبه القدري الجبري، كما قال السيد المرتضىٰ العاملي:

«ألا تعني هٰذه الرواية انّه صلى الله عليه وآله كان مجبَراً علىٰ عمل الخير، وليس لارادته فيه أيّ أثر أو فعّالية أو دور؟! لأن حظّ الشيطان قد أُبعد عنه بشكل قطعي وقهريّ، وبعملية جراحية، وهل اذا كان اللّٰه يريد أنْ لا يكون عبده شرّيراً إحتاج في إعمال قدرته الىٰ عمليات جراحية كهٰذه علىٰ مرأىٰ من الناس ومسمع؟!»[2] هٰذا الىٰ خمس نقاط أُخرىٰ نقد بها السيد المرتضىٰ هٰذا الخبر. ولعلّه أخذ هٰذا المعنىٰ عن رواية جاهلية عن أُمية بن أبي الصلت: أنّه دخل علىٰ أُخته فنام علىٰ سرير في ناحية البيت، فانشق جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما

---

(١) السيد الحسني في كتابه: سيرة المصطفىٰ: ٤٦ بعد أنْ اعترف بما في ذٰلك من التشكيك.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ١: ٨٦.

علىٰ صدره ووقف الآخر مكانه، فشقّ الواقع علىٰ صدرِه صدرَه، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الّذي علىٰ صدره: أوَعىٰ؟ قال: وعىٰ، قال: اَقَبِل؟ قال: أبىٰ، ثمّ ردّ قلبه بموضعه[١].

هٰذا، وقد روىٰ المجلسي في بحاره هٰذا الخبر عن الكازروني في كتابه (المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ) بنفس السند ثمّ علّق عليه الكازروني يقول: هٰذا حديث حسن غريب بهٰذا السياق، يعدّ في أفراد محمّد بن يعلىٰ، وكان يلقّب بزنبور، وليس بذاك، ولمكحول عن شداد أحاديث غير اَنّها مرسلة. ثمّ علّق المحقق الرباني الشيرازي يقول: محمّد بن يعلىٰ ضعّفه ابن حجر في «التقريب» وحكىٰ عن أبي حاتم اَنّه قال: متروك، وقال الخطيب: يتكلم فيه. توفّي ٢٠٥[٢].

أمّا الخبر الأوّل عن عبدالله بن جعفر فهو عن مولاه الجهم بن أبي الجهم، وان كان عبد اللّٰه بن جعفر يخالط بني أُميّة بجسده ولا يخالطهم بفكره وعقيدته، فما مولاه من ذٰلك ببعيد[٣].

ولا يحضرني ألآن كتاب عبد الكريم الخطيب اذ نقل عنه السيد المرتضىٰ: اَنّه ناقش في كتابه سند رواية ابن إسحاق إذ قال «عن بعض أهل العلم»[٤]. وكذٰلك محمد حسين هيكل في كتابه[٥].

---

(١) كما في الأغاني ٣: ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٣٩٦ ـ ٤٠٠.

(٣) ولعلّه هو مولاه أبو اللسلاس الّذي روىٰ فيه الطبري عن أبي مخنف: اَنّه دخل علىٰ مولاه والناس يعزّونه بمقتل الحسين عليه السلام، فقال: هٰذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين! فحذفه عبداللّٰه بن جعفر بنعله وقال: يا بن اللخناء اللحسين تقول هٰذا! (الطبري ٥: ٤٦٦).

(٤) الصحيح ١: ٨٤ عن كتاب: النبي محمد: ١٩٦.

(٥) حياة محمّد: ٧٣.

وقد ناقش هٰذا الخبر الشيخ أبو ريّة، نقاشاً موضوعياً سلماً في كتابه القيّم «أضواء علىٰ السّنة المحمّدية» فنقل تشكيك استاذه الشيخ محمّد عبده في تفسيره إذ قال «والمحقَق عندنا انّه ليس للشيطان سلطان علىٰ عباد اللّٰه المخلصين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون. أمّا ما ورد في حديث إزالة حظّ الشيطان من قلبه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فهو من الأخبار الظنية، لأنّه من رواية الآحاد، ولمّا كان موضوعها عالم الغيب، والايمان بالغيب من قسم العقائد، وهي لا يؤخذ فيها بالظّن، لقوله تعالىٰ ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ كنّا غير مكلّفين بالايمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا»(١).

والشيخ عبده إذ ينفي سلطان الشيطان علىٰ المخلصين من عباد اللّه يستند الىٰ ما جاء في سورة الحجر من الكتاب العزيز في قوله سبحانه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴾(٢) وقد جاء أبو ريّة بهذه الآيات ثمّ قال: فكيف يدفعون الكتاب بالسنّة، أو يعارضون المتواتر الّذي يفيد اليقين، بأحاديث الآحاد الّتي لا تفيد الاّ الظن إن صحّت(٣).

وقال: وقد نصّت هٰذه الروايات علىٰ أنّ صدره ـ صلوات اللّٰه عليه ـ قد شُقّ وأُخرجت منه العلقة السوداء! وحظّ الشيطان كما يقولون، وكأنّ العملية الأُولىٰ لم تنجح فأُعيد شقّ صدره، ووقع ذٰلك مرّات عديدة بلغت خمساً، أربع منها بإتفاق

---

(١) تفسير القرآن الحكيم ٣: ٢٩١، ٢٩٢ كما في الأضواء: ١٨٨.

(٢) الحجر: ٣٩ ـ ٤٢.

(٣) أضواء: ١٨٨.

كما يقولون: في الثالثة من عمره، وفي العاشرة، وعند مبعثه، وعند الإسراء، ومرّة خامسة فيها خلاف. وقد قالوا: إنّ تكرار الشق إنّما هو زيادة في تشريف النبي[١].

وفي تفسير الآية الأُولىٰ من سورة الإسراء وبمناسبة حديث الإسراء قال الشيخ الطبرسي في تفسيره «وقد وردت روايات كثيرة في قصّة المعراج في عروج نبينا الىٰ السماء ورواها كثير من الصحابة. وتنقسم جملتها الىٰ أربعة وجوه» الىٰ اَنْ قال «ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره ولا يمكن تأويله اِلّا علىٰ التعسّف البعيد، فالأَولىٰ اَن لا نقبله» اِلىٰ اَنْ قال «وأمّا الرابع: فنحو ما روي أنه شُقّ بطنه وغسلته الملائكة، ذٰلك لانه صلى الله عليه وآله كان طاهراً مطهّراً من كلّ سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد، بالماء[٢].

ولهٰذا لم يذكر هٰذا الخبر ضمن أخباره عن النبي صلى الله عليه وآله في كتابه (إعلام الورىٰ).

وفي الوقت نفسه نرىٰ البعض يعتبر هٰذا الخبر من اِرهاصات النبوة ومثار اِعجاب وتقدير خُصّ به نبينا صلى الله عليه وآله ولم يحصل لأيّ من الأنبياء السابقين كالحلبي في كتابه: (اِنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)[٣] والبوطي في كتابه: (فقه السيرة)[٤] والسيد الحسني في كتابه: (سيرة المصطفىٰ) مع الإعتراف بضعف مستنده[٥].

وعلّق عليه السيد المرتضىٰ فقال متسائلاً: ولِمَ اختص نبينا بهٰذه العملية

---

(١) اضواء: ١٨٧.

(٢) مجمع البيان ٦: ٦٩.

(٣) المعروف بالسيرة الحلبية ١: ٣٦٨.

(٤) فقه السيرة: ٥٣.

(٥) سيرة المصطفىٰ: ٤٦.

ولم تحصل لأي من الانبياء السابقين؟! أفهل يعقل أن يكون هو بحاجة الىٰ هٰذه العملية فقط دون سائر الانبياء؟ إذن فكيف يكون أكملهم وأفضلهم؟! أم يقولون: قد كان فيهم للشيطان حظّ أيضاً ولكنّه لم يقتطع منهم بعملية جراحية كهٰذه، ولذٰلك أصبح هٰذا أفضلهم وأكملهم؟!»[1].

ولا تخلو كتب السيرة والحديث عند غير الإمامية عن هٰذه الرواية غالباً حتّىٰ بعض الصحاح كصحيح مسلم، فقد روىٰ بسنده عن أنس بن مالك قال: إنّ رسول اللّه أتاه جبرئيل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هٰذا حظّ الشيطان منك، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثمّ لأمه ثمّ أعاده الىٰ مكانه. وجاء الغلمان يسعون الىٰ أُمّه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إنّ محمّداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون! قال أنس: وقد كنت أرىٰ أثر ذٰلك المخيط في صدره[2]. وهي عند الإمامية قصّة لم يصحّحها حديث ولا اعتبار، وهم برآء من هٰذه وأمثالها. وقد نقلها المحدث المجلسي في بحاره عن كتاب (فضائل شاذان بن جبرئيل القميّ) نقلاً عمّن يسمّيه الواقدي. ثمّ قال المجلسي: أقول: هٰذا الخبر ـ وان لم نعتمد عليه كثيراً، لكونه من طرق المخالفين ـ إنّما أوردته لما فيه من الغرائب!

وعلّق عليه المحقق الربّاني الشيرازي يقول: نحن في غنىً من أنْ نسرد كلّ ما عثرنا عليه ممّا جاء في فضائله من المعاجز وخوارق العادات كما كان كاتبو سيرته من القدماء يفعلون ذٰلك، فنحن لا نحتاج في إثبات عظمته إليها، بعد ما ملأت فضائله الآفاق[3].

---

(١) الصحيح في السيرة ١: ٨٦.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٠١ ـ ١٠٢ بأربعة طرق.

(٣) بحار الأنوار ١٥: ٣٥٣ ـ ٣٥٧ ـ الهامش.

وأين هٰذه الصورة عن النبي صلى الله عليه وآله عن ذٰلك الوصف الّذي يصفه به صنوه وصهره وأخوه ثمّ وصيه علي عليه السلام إذ قال في كلام له «ولقد قرن اللّٰه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[١].

وروىٰ ابن أبي الحديد: انّ بعض أصحاب الامام الباقر عليه السلام سأله عن قوله سبحانه ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾[٢]؟ فقال عليه السلام: «يوكّل اللّٰه تعالىٰ بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدّون اليهم تبليغ الرسالة، ووكّل بمحمّد ملكاً عظيماً منذ فصل من الرضاع، يرشده الىٰ الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشر ومكاره الأخلاق»[٣].

وفود عبد المطّلب علىٰ سيف بن ذي يزن:

روىٰ الصدوق في (اكمال الدين) بسنده عن ابن عباس قال: لمّا ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة ـ وذٰلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله بسنتين ـ أتاه وفد العرب وأشرافها وشعراؤها بالتهنئة، تمدحه وتذكر ماكان من بلائه وطلبه بثأر قومه.

فأتاه وفد من قريش ومعهم عبد المطّلب بن هاشم، وأُميّة بن عبد شمس، وعبد اللّٰه بن جُدعان، وأُسيد بن خويلد بن عبد العزّىٰ (كذا)، ووهب بن عبد مناف (أبو آمنة أمّ النبي) وأُناس من وجوه قريش.

---

(١) نهج البلاغة، القسم الأوّل: الخطبة القاصعة: ١٩٢، المقطع ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الامام الباقر عليه السلام.

(٢) الجن: ٢٧.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ١٣: ٢٠٧، وعنه في البحار ١٥: ٣٦١.

فقدموا عليه في صنعاء، فاستأذنوا فإذا هو في رأس قصر يقال له (غُمدان) فدخل عليه الآذن فأخبره بمكانهم فأذن لهم، فلمّا دخلوا عليه دنا عبد المطّلب منه فاستأذنه في الكلام، فقال: إنْ كنت ممّن يتكلّم بين يدي الملوك فقد أذنّا لك. فتكلّم عبد المطّلب فقال فيما قال: نحن ـ أيّها الملك ـ أهل حرم اللّٰه وسدنة بيته، أشخصنا اليك الّذي أبهجنا من كشف الكرب الّذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة. قال: وأيّهم أنت أيّها المتكلّم؟ قال: أنا عبد المطّلب بن هاشم. فأقبل عليه وعلىٰ القوم فقال: مرحباً وأهلاً ومستناخاً سهلاً، قد سمع الملك مقالتكم وقبل وسيلتكم، فلكم الكرامة ماأقمتم والحِباء إذا ظعنتم.

ثمّ أمر بهم الىٰ دار ضيافة الوفود فأقاموا شهراً لايصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثمّ انتبه لهم فأرسل الىٰ عبد المطّلب فأخلىٰ له مجلسه وأدناه، ثمّ قال له: يا عبد المطّلب: إنّي مفوّض اليك من سرّ علىٰ أمر ما لو كان غيرك لم أبح له به، ولكنّي رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوياً حتّىٰ يأذن اللّٰه فيه فإن اللّٰه بالغ أمره: إنّي أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الّذي اخترناه لأنفسنا وحجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصّة.

فقال عبد المطّلب: فما هو؟ فقال: إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة ولكم به الدعامة الىٰ يوم القيامة. هٰذا حينه الّذي يولد فيه أو قد ولد، اسمه محمّد، يموت أبوه وأُمّه ويكفله جدّه وعمّه. وقد ولد سراراً واللّٰه باعثه جهاراً وجاعل له منّا أنصاراً، ليعزّ بهم أولياءه ويذلّ بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عُرض[1] ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان

---

(١) العرض بضم العين: من يعترض لهم.

ويخمد النيران ويعبد الرحمان ويزجر الشيطان، قوله فصل وحكمهُ عدل، يأمر بالمعروف ويفعله وينهىٰ عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطّلب: فهل الملك سارّي بإفصاح فقد أوضح لي بعض الأيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات علىٰ النصب، إنّك يا عبدالمطّلب لجده غير كذب، فخرّ عبد المطّلب ساجداً للّه! فقال له ابن ذي يزن: فهل أحسست شيئاً ممّا ذكرته؟ قال: كان لي ابن كنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته بكريمة من كرائم قومي: اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمّيته محمّداً، مات أبوه وأُمّه، وكفلته أنا وعمّه!

فقال سيف بن ذي يزن: إنّ الّذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنّهم له أعداء ولن يجعل اللّه لهم عليه سبيلاً!

ثمّ أمر لكلّ رجل من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء وحلي من البرود ومئة من الابل وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضّة وكرش مملوؤة عنبراً! وأمر لعبدالمطّلب بعشرة أضعاف ذلك وقال: اذا حال الحول فأتني فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول(١).

هذا، وقد سبق في ذكر ملوك اليمن قول المسعودي بأن يكسوم بن ابرهة الأشرم ملكَ اليمنَ بعد هلاك أبيه ابرهة بالأبابيل عشرين عاماً، ثمّ ملك أخوه مسروق بن أبرهة ثلاث سنين، وأنّ سيف بن ذي يزن كان قد مضىٰ الىٰ قيصر يستنجده ـ وذلك قبل هلاك يكسوم بأربع سنين ـ فأبىٰ أن ينجده وقال: أنتم يهود والحبشة نصارىٰ، وليس في الديانة أنْ ننصر المخالف علىٰ الموافق. فمضىٰ الىٰ كسرىٰ

---

(١) اكمال الدين: ١٧٤ ـ ١٧٧. ومختصره في قرب الاسناد: ٢٤٦ الحديث ١٢١٦، والخرائج والجرائح ١: ١١٤ الحديث ١٩٠ وأكثر منه في ١٢٩ الحديث ٢١٥.

انوشيروان فاستنجده، فوعده أنوشيروان بالنصرة علىٰ السودان، ولكنّه شغل بحرب الروم فمات سيف بن ذي يزن. علىٰ بابه. فأتىٰ بعده ابنه معديكرب بن سيف، فوجّه معه اصبهبد الديلم ويعرف في أهل السجون، فقتل وَهْرِز من الحبشة ثلاثين ألفاً، ثمّ توّج وَهْرِز معديكرب بتاج كان معه ورتّبه في ملكه علىٰ اليمن.

وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك اليه، وفيهم عبد المطّلب بن هاشم وأُميّة بن عبد شمس، وخويلد بن أسد بن عبد العزّىٰ، وأبو الصلت الثقفي أبو أُميّة بن أبي الصلت، فدخلوا عليه في أعلىٰ قصره المعروف بغُمدان بمدينة صنعاء وقد تقدمهم عبد المطّلب فتكلّم فقال فيما قال: نحن أهل حرم اللّه وسدنة بيته... الىٰ آخر ما مرّ من الخبر السابق عن (اكمال الدين) ثمّ قال المسعودي: ولمعديكرب بن سيف بن ذي يزن كلام كثير مع عبد المطّلب، وكوائن أخبره بها في أمر النبي وبدء ظهوره، بشّر به عبد المطّلب وأخبره عن أحواله وما يكون من أمره[١].

ولاحظنا أنّ رواية الصدوق عن ابن عباس كانت مصحّفة في اسم أبي خديجة: خويلد بن أُسيد بن عبد العزّىٰ الىٰ: أُسيد بن خويلد بن عبد العزّىٰ. وقد ذكره المسعودي صحيحاً.

وروىٰ الطبرسي الخبر مرفوعاً الىٰ ابن عباس أيضاً وقال في آخره: روىٰ هٰذا الحديث الشيخ أبو بكر البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) من طريقين[٢] والظاهر أنهما ما أورده الصدوق عن ابن عباس.

ورواه الكراجكي في كتابه (الكنز) كذٰلك بنفس السند، كما في بحار الأنوار[٣] ومن المعلوم أنّ ابن عباس لم يدرك ذٰلك. لكنّ الكازروني نقل الخبر في كتابه

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٥٨.

(٢) إعلام الورىٰ : ١٥ ـ ١٧.

(٣) كنز الكراجكي : ٨٢ ـ ٨٤ كما في البحار ١٥ : ١٩١.

(المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ) باسناده الىٰ محمّد بن عبد العزيز عن أبيه عبد العزيز بن عفير، عن أبيه عفير بن عبد العزيز عن أبيه عبد العزيز بن السفر عن أبيه السفر بن عفير، عن أبيه عفير بن زرعة بن سيف ابن ذي يزن قال: لمّا ظفر جدّي سيف علىٰ الحبشة ـ وذٰلك بعد مولد النبي بسنتين ـ أتت وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته، وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه.. ثمّ ساق الحديث مثل ما تقدم برواية الصدوق، ثمّ قال الكازروني: هٰذا الحديث دال علىٰ أن الوفادة الىٰ ابن ذي يزن كان في سنة ثلاث من مولد رسول الله صلى الله عليه وآله، والأصح أنّها كانت في سنة سبع، لأنّه يقول عبد المطّلب فيه: توفّي أبوه وأمّه وكفلته أنا وعمّه. وأمّ رسول الله لم تمت حتىٰ بلغ ست سنين.

فنرى انّ الكازروني قد تنبّه الىٰ هٰذه الغلطة ولكنّه لم يغلّطها بل غلّط بداية الرواية إذ قالت: وذٰلك بعد مولد النبي بسنتين. بدون أيّ مرجّح فيما بين هذين النصّين. ثم لم يغلّط قوله: وكفلته أنا وعمّه. فما معنىٰ ذكر كفالة عمّه أبي طالب الىٰ جانب جدّه عبد المطّلب؟! ثمّ لم يرَ أيّ تناقض بين هاتين الجملتين: هٰذا حينه الّذي يولد فيه أو قد ولد. وقوله: وقد ولد سراراً!

والمسعودي قد اختصر الخبر علىٰ عادته في (مروج الذهب) ولكنّه صرّح: بأن سيف بن ذي يزن كان يهودياً ولذٰلك أبىٰ قيصر أن ينصره، وأبىٰ هو أن يتنصّر أو يظهر له النصرانية فينصره، بل عدل الىٰ الملك غير العادل أنوشيروان عابد النيران فطلب منه الأعوان علىٰ الأحباش النصارىٰ. وهٰؤلاء وإن كانوا علىٰ غير حقيقة النصرانية ولذٰلك أهلك اللّٰه كثيراً منهم بطير أبابيل، ولكن فما الدليل علىٰ العقيدة الحقّة لدىٰ سيف اليمن؟ أفهل يكفي لذٰلك رواية أبنائه المسلمين بعد المائتين بل أكثر من الهجرة، تقصّ علىٰ المسلمين جملة جمة من مجد جدّهم سيف اليمن؟!

وانّما قلت بعد المائتين بل أكثر من الهجرة،، اذ لا نرىٰ أيّ أثر لهٰذا الخبر لا عند ابن إسحاق ولا في سيرة ابن هشام ولا الطبري، بل نراه في اليعقوبي باختصار[١]، ثمّ في (إكمال الدين) للصدوق منقولاً عن ابن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن عباس لم يدرك الأمر ولم يسنده ولم يسند عنه، وإنّما ينتهي إسناده الىٰ أحفاد سيف لاأمجاد الاجداد.

وليس في رواية الشيخ الصدوق للخبر حجّة بعد ذكره المرفوع المقطوع، وقد روىٰ رحمه الله أكثر من ستين صفحة من نفس الكتاب قصّة الملك الهندي بلوهرو والحكيم الهندي بوذاسف، ثمّ عقّبه بقوله: ليس هٰذا الحديث وما شاكله من أخباره ممّا أعتمده... وجميعها في الصحة من طريق الرواية دون ما قد صحّ من الأخبار. ثمّ قال: ولإيراد هٰذا الحديث وما يشاكله في هٰذا الكتاب معنىٰ آخر، وهو: أنّ جميع أهل الوفاق والخلاف يميلون الىٰ مثله من الأحاديث، فإذا ظفروا به من هٰذا الكتاب حرصوا علىٰ الوقوف علىٰ سائر ما فيه[٢].

الاستسقاء برسول الله صلّى الله عليه وآله:

روىٰ المجلسي عن الكازروني في (المنتقىٰ) في ما حدث سنة سبع من مولده صلّى الله عليه وآله بسنده الىٰ مخرمة بن نوفل القرشي عن اُمّه رقيقة بنت صيفي قالت:

---

(١) اليعقوبي ٢ : ١٢.

(٢) اكمال الدين : ٦٠٠. نعم روىٰ في (قرب الاسناد) عن الحسن بن ظريف عن معمّر عن الرضا عن أبيه موسىٰ بن جعفر عليهما السلام انّه قال في كرامات رسول الله «ومن ذٰلك أنّ سيف بن ذي يزن حين ظفر بالحبشة، وفد عليه وفد من قريش فيهم عبد المطّلب فسألهم عنه ووصف لهم صفته، فأقروا جميعاً بأنّ هٰذه الصفة في محمّد، فقال: هٰذا أوان مبعثه، ومستقره أرض يثرب وموته بها» قرب الأسناد: ٢٤٦ الحديث ١٢١٦ كما في بحار الأنوار ١٧ : ٢٢٦. فإذا قبلنا بهٰذا الاجمال فالتفاصيل المشتملة علىٰ ذٰلك التهافت مردودة.

تتابعت علىٰ قريش سنون اقحلت الفرع وأرمّت العظم، فبينا أنا راقدة ـ اللّٰهم ـ أو مهوّمة ومعي صنوي، فإذا أنا بهاتف صَيّت يصرخ ويقول: يامعشر قريش! إنّ هٰذا النبي المبعوث منكم هٰذا اِبّان نجومه، فحيّ هلا بالحيا والخصب، ألا فانظروا رجلاً منكم طوالاً عظاماً أبيض بضّاً، أشمّ العرنين، سهل الخدّين، له فخر يكظم عليه، ألَا فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كلّ بطن رجل، ألَا فليشنّوا من الماء، وليمسّوا من الطيب، وليطوّفوا بالبيت سبعاً، ألا وليكن فيهم الطيّب الطاهر لذاته، ألا فليستق الرجل وليؤمّن القوم، ألا فغثتم ـ إذا شئتم ـ وعشتم! قالت: فأصبحت مذعورةً قد قفّ جلدي ووله عقلي، واقتصصت رؤياي، فوَالحرمة والحرم إن بقي أبطحي إلّا قال: هٰذا شيبة الحمد.

فتتامّت إليه قريش، وانقضّ إليه من كلّ بطن رجل، فشنّوا ومسوا واستلموا وطوّفوا، ثمّ ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يدلفون حوله حتّىٰ قرّوا بذروة الجبل، واستكنفوا جانبيه. ومعه ابن ابنه محمّد وهو يومئذ غلام قد أيفع، فاعتضده فرفعه علىٰ عاتقه ثمّ قال: «اللهم سادَّ الخَلّة وكاشفَ الكُربة، أنت عالم غير معلَّم ومسؤول غير مبخّل، وهٰذه عبيدك وإماؤك بفِناء حرمك، يشكون اليك سنتهم الّتي اذهبت الخفّ والظلف، فاسمَعَنِ اللهم وأَمطِرنْ علينا غيثاً مُريعاً مُغدقاً».

قالت: فما راموا البيت حتّىٰ انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادي بثجيجه(١)

فقلت شعرا:

بشيبة الحمد أسقىٰ اللّه بلدتنا   فقد فقدنا الحيا واجلوّذ المطر(٢)

---

(١) الثجيج: الماء المصبوب، او صوته.

(٢) اجلوّذ: كثر وامتدّ وقت تأخره.

فـجاد بـالماء جـونيّ له سَبَلٌ سحّاً، فعاشت به الأنعام والشجر[١]
مبارك الأسم يستسقىٰ الغمام بـه ما في الأنام له عِدل ولا خـطرُ[٢]

ورواه اليعقوبي في تأريخه[٣]، والسهيلي في (الروض الأُنف) عن البستي النيسابوري باسناده عن دقيقة ايضاً، مستشهداً به لمعنىٰ قول أبي طالب بشأن النبي ﷺ إذ قال:

وأبيضَ يستسقىٰ الغمام بوجهه ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل

قال: فان قيل: كيف قال أبو طالب هٰذا، ولم يره استسقىٰ قط، وإنّما كانت استسقاءاته عليه‌السلام بالمدينة في الحضر والسفر، وفيها شوهد سرعة إجابة اللّٰه له؟!

فالجواب: إنّ أبا طالب قد شاهد من ذٰلك في حياة عبد المطّلب ما دلّه علىٰ ما قال.

وانّما قال السهيلي هٰذا تعليقاً علىٰ رواية ابن هشام: دعا النبي ﷺ للناس حين القحط، فنزل المطر، فقال رسول اللّٰه ﷺ: لو أدرك أبو طالب هٰذا اليوم لسرّه! فقال له بعض أصحابه: كأنّك يا رسول اللّٰه أردت قوله ـ وقرأ البيت ـ قال: أجل[٤].

---

(١) الجون: اللون الأسود، والجونيّ نسبة اليه، والمراد هنا: السحاب الأسود المركوم. والسبل بفتحتين: المطر النازل قبل الوصول للأرض. وله سبل اي له جريان. سحّا: أي منصباً.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٤٠٣، ٤٠٤ عن المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ للكازروني: الباب الرابع من القسم الثاني، وأخرج الحديث ابن الأثير في أُسد الغابة ٥: ٤٥٤ وآبن حجر في الإصابة ٤: ٢٩٦ والحلبي في السيرة ١: ١٣١.

(٣) اليعقوبي ٢: ١٢.

(٤) سيرة ابن هشام ١: ٣٠٠ في المتن وعن الروض الأُنف في الهامش.

وفاة أُم النبي صلى الله عليه وآله، وكفالة جدّه وعمّه له:

قال ابن إِسحاق: وكان رسول اللّه ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ مع أمّه آمنة بنت وهب وجدّه عبد المطّلب بن هاشم في كلاءة اللّه وحفظه، ينبته اللّه نباتاً حسناً لما يريد به من كرامة.

ثمّ روىٰ عن عبداللّه بن حزم انّه: لمّا بلغ رسول اللّه ستّ سنين قدمت به إِلىٰ أخواله من بني النّجار لزيارتهم، فلمّا رجعت الىٰ مكّة ماتت بالأبواء بين مكّة والمدينة.

وفسّر الطبرسي خؤولة بني النجار لرسول اللّه بانّ اُمّ عبد المطّلب كانت من بني النجار[1].

وروىٰ المجلسي عن الكازروني في (المنتقىٰ) عن ابن عباس وغيره: أنّ رسول اللّه ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ كان مع اُمّه آمنة، فلمّا بلغ ستّ سنين خرجت به إِلىٰ أخواله بني النجار بالمدينة تزوّرهم به، ومعه اُمّ أيمن تحضنه، وهم علىٰ بعيرين، فنزلت به في دار النابغة ـ الّتي توفّي ودفن فيها عبد اللّه ـ فأقامت عندهم شهراً... ثمّ رجعت به اُمّه الىٰ مكّة، فلمّا كانت بالأبواء توفيت فقُبرت هناك. ورجعت اُمّ أيمن بالنبي الىٰ مكّة[2].

---

(١) اعلام الورى ١ : ٤٥ كما في سيرة ابن هشام ١ : ١٧٧.

(٢) ثمّ لمّا مرّ رسول اللّه في عمرة الحديبية بالأبواء قال: انّ ألّله قد أذن لي في زيارة قبر اُمّي. فأتىٰ رسول اللّه قبرها فبكىٰ عنده وقال: أدركتني رحم، رحمتها فبكيت. ثمّ أصلح قبرها. وروي عن بريرة قال: لمّا فتح رسول اللّه مكّة أتىٰ قبراً فجلس إِليه وجلس الناس حوله وهو يبكي، ثمّ قام. فاستقبله عمر فقال: يا رسول اللّه ما الّذي أبكاك؟ قال: هٰذا قبر اُمّي، سألت ربّي الزيارة فأذن لي. كما في البحار ١٥ : ١٦٢ عن المنتقىٰ، الفصل الثالث فيما كان سنة ست من مولده. وروىٰ مسلم في صحيحه حديث الرسول في زيارة اُمه هٰكذا: استأذنت ربي في ←

والظاهر أنّ هٰذه الرواية للكازروني عن ابن عباس هي ما رواه الصدوق في (إكمال الدين) بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: لمّا تمت لرسول اللّٰه ست سنين قدمت به اُمّه آمنة علىٰ أخواله من بني النجار فماتت بالأبواء بين مكّة والمدينة.

فبقي رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يتيما لا أب له ولا أمّ، فازداد عبد المطّلب رقة له وحفظاً. فكان يوضع لعبد المطّلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد إجلالاً له، وكان بنوه يجلسون حوله حتّىٰ يخرج عبد المطّلب. فكان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يخرج وهو غلام فيمشي حتّىٰ يجلس علىٰ الفراش! فيعظّمون ذٰلك أعمامه ويأخذونه ليؤخروه، فيقول لهم عبد المطّلب إذا رأىٰ ذٰلك منهم: دعوا آبني فواللّٰه إنّ له لشأناً عظيماً! إنّي أرىٰ انّه سيأتي عليكم يوم وهو سيّدكم، إنّي أرىٰ عزته عزة تسود الناس[1]!

ثمّ يحمله فيجلسه معه ويمسح ظهره ويقبّله ويقول: ما رأيت قبله من هو أطيب منه ولا أطهر قط، ولا جسداً ألين منه ولا أطيب! ثمّ يحمله علىٰ عنقه فيطوف به اُسبوعاً.

وكانت هٰذه حالته حتّىٰ ادركت عبد المطّلب الوفاة.

فبعث الىٰ ابي طالب، فدخل عليه وهو في غمرات الموت ومحمّد علىٰ صدره، فبكىٰ وقال لأبي طالب: يا أبا طالب! انظر أن يكون هٰذا من جسدك بمنزلة كبدك، فإنّي قد تركت بنيَّ كلهم وأوصيتك به، لأنّك من اُمّ أبيه.

← زيارة أُمي فأذن لي، فزوروا القبور تذكّركم الموت. كما في صحيح مسلم ٣: ٦٥ ط ١٣٣٤ كتاب الجنائز. ورواه عنه الطبرسي في إعلام الورىٰ: ٩. ورواه عنه أيضاً الاربلي في كشف الغمة ١: ١٦.

(١) وروىٰ الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام نحوه (اُصول الكافي ١: ٤٤٨) وذكر مثله (اليعقوبي ٢: ٩) وفي تأريخ وفاة آمنة قال الكليني: ومات اُمّه آمنة وهو آبن أربع سنين. اُصول الكافي ١: ٤٣٩.

يا أبا طالب! ان ادركت أيّامه فاعلم أني كنت من أبصر الناس وأعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بلسانك ويدك ومالك، فانّه والله سيسودكم ويملك ما لم يملك أحد من بني آبائي.

يا أبا طالب! ما أعلم أحداً من آبائك مات عنه أبوه علىٰ حال أبيه، ولا أُمّه علىٰ حال أُمّه، فاحفظ الوحدة.

هل قبلت وصيتي؟ فقال: نعم، قد قبلت، والله عليّ بذٰلك شهيد.

فقال عبد المطّلب: فمدّ يدك اليّ. فضرب يده علىٰ يده.

ثمّ قال عبد المطّلب: الآن خُفّف عليّ الموت! ثمّ لم يزل يقبّله ويقول: أشهد انّي لم أُقبّل أحداً من ولدي أطيب ريحاً منك، ولا أحسن وجها منك. ثمّ مات. ورسول الله ابن ثماني سنين[1] وبه قال الكليني في الكافي[2].

فضمّه أبو طالب الىٰ نفسه لا يفارقه ساعة من ليلٍ ولا نهار، وكان ينام معه حتّىٰ بلغ، لا يأتمن عليه أحداً[3].

---

(١) روىٰ المجلسي عن الكازروني في المنتقىٰ قال: مات عبد المطّلب وهو ابن ثنتين وثمانين سنة. وقالت أُمّ أيمن: رأيت رسول الله يبكي خلف سرير عبد المطّلب. وسئل رسول الله: أتذكر موت عبدالمطّلب؟ فقال: نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين (بحار الأنوار ١٥ : ١٦٢ عن المنتقىٰ: الفصل الثالث) ورواه عن (العدد) وأضاف: حتّىٰ دفن بالحجون (بحار الأنوار ١٥ : ١٥٦).

(٢) أُصول الكافي ١ : ٤٣٩.

(٣) ثمّ روىٰ الصدوق بسنده الىٰ ابن اسحاق عن العباس بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن معبد، عن أبيه معبد بن العباس بن عبد المطّلب ـ أو بعض أهله ـ قال: كان يوضع لعبد المطّلب جدّ رسول الله فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، وكان رسول الله يأتي حتّىٰ يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه، فيقول جدّه عبد المطّلب: دعوا ابني فيمسح ظهره ويقول: إن لابني هٰذا لشأناً.

←

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطّلب يوصي برسول اللّٰه عمّه أبا طالب، وذلك أن عبداللّه وأبا طالب كانا أخوين لأمّ واحدة هي فاطمة بنت عمرو

← ثمّ قال: فتوفّي عبد المطّلب والنبي صلّى الله عليه وآله ابن ثماني سنين: بعد عام الفيل ثماني سنين.

(والخبر في سيرة ابن هشام ١ : ١٧٨، وفي تهذيب السيرة : ٤١) ثمّ قال الشيخ الصدوق: انّ ابا طالب كان مؤمناً ولكنّه كان يستر الايمان ويظهر الشرك ليكون أشدّ تمكناً من تصرف رسول اللّه صلّى الله عليه وآله.

ثمّ روىٰ بسنده عن الاصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: واللّٰه ما عبد أبي ـ ولا جدي عبد المطّلب ولا هاشم ولا عبد مناف ـ صنماً قط. قيل: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون الىٰ البيت علىٰ دين إبراهيم عليه السلام متمسكين به.

ثمّ روىٰ بسنده عن الصادق عليه السلام قال: انّ أبا طالب أظهر الكفر وأسرّ الايمان، فلمّا حضرته الوفاة أوحىٰ اللّٰه الىٰ رسول اللّٰه: اخرج منها فليس لك بها ناصر! فهاجر الىٰ المدينة (إكمال الدين : ١٦٩ ـ ١٧٢).

وروىٰ في (الخصال) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: هبط جبرئيل علىٰ رسول اللّٰه صلّى الله عليه وآله فقال: يا محمّد! انّ اللّٰه عزّوجلّ قد شفّعك في خمسة. في بطن حملك، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وفي صلبٍ أنزلك، وهو عبد اللّٰه بن عبد المطّلب. وفي حجر كفلك، وهو عبدالمطّلب بن هاشم، وفي بيت آواك، وهو عبد مناف بن عبد المطّلب أبو طالب، وفي أخٍ كان لك في الجاهلية. قيل: يا رسول اللّٰه! من هٰذا الأخ؟ فقال: كان أُنسي وكنت أُنسه، وكان سخيّاً يطعم الطعام. ثمّ قال الصدوق: اسمه: الجلّاس بن علقمة (الخصال ١ : ٢٩٢، ٢٩٤) وروىٰ مثله بسند آخر في معاني الأخبار : ٤٥ والأمالي ٦ ورواه الكليني في أُصول الكافي ١ : ٤٤٦ وروىٰ الحميري في (قرب الإسناد : ٦١ ـ ٦٢ برقم ١٧٣) بسنده عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول اللّٰه: إنّي مستوهب من ربي أربعة، وهو واهبهم لي إنْ شاء اللّٰه تعالىٰ: آمنة بنت وهب، وعبد اللّٰه ابن عبد المطّلب، وأبو طالب بن عبد المطّلب، ورجل من الأنصار جرت بيني وبينه ملحة، وروىٰ الطبرسي في (إعلام الورىٰ : ١٠) عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال رسول اللّٰه صلّى الله عليه وآله: ما زالت قريش كاعّة عنّي حتىٰ مات أبو طالب عليه السلام.

المخزومي. فكان رسول اللّه ـ صلىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ بعد عبد المطّلب مع عمّه أبي طالب، وكان أبو طالب هو الّذي يلي أمر رسول اللّه ـ صلىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ بعد جدّه، فكان إليه ومعه.

وولّىٰ بعده السقاية علىٰ زمزم أصغر أبنائه العباس[1].

وقال اليعقوبي: وأوصىٰ عبد المطّلب الىٰ أبي طالب برسول اللّه وقال له:

اوصيك يا عبد مناف بعدي　　بمفرد بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد　　فكنت كالأُم له في الوجد
تدنيه من أحشائها والكبد　　فأنت من أرجى بنيّ بعدي
لدفع ضيم، او لشدّ عقد

قال: وأوصىٰ اليه بسقاية زمزم. وأوصىٰ بالحكومة وأمر الكعبة الىٰ ابنه الزبير.

وأعظمت قريش موته، وغسّلوه بالماء والسّدر، ولفّوه في حلّتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال ذهب! وطرح عليه المسك حتّىٰ ستره، وحمل علىٰ أيدي الرجال عدة أيام! إعظاماً وإكراماً وإكباراً لتغييبه في التراب[2].

ولمّا غيب عبد المطّلب، احتبىٰ ابنه الزبير بفناء الكعبة مدّعياً للرئاسة، وادّعاها معه الوليد بن ربيعة المخزومي، وابن جُدعان التّيمي.

---

(١) فلم تزل اليه حتّىٰ قام الاسلام، وهي بيده، فأقرّها رسول اللّه له علىٰ ما مضىٰ من ولايته، فهي الىٰ آل العباس بولاية العباس إياها الىٰ هٰذا اليوم (ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٨٩).

(٢) وروىٰ عن رسول اللّه انّه قال: انّ اللّه يبعث جدي عبد المطّلب امّة وحده، في هيئة الأنبياء وزيّ الملوك (اليعقوبي ٢ : ١٣) ورواها الكليني فى أُصول الكافي بأسانيد ثلاثة مختلفة والفاظ متقاربة (أُصول الكافي ١ : ٤٤٦، ٤٤٧).

وكفل رسول الله بعده عمّه أبو طالب، فكان خير كافل. فكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً، مع املاقه![1] وربّته فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب وأمّ أولاده[2].

وروىٰ ابن شهر آشوب عن الأوزاعي[3] قال: كان النبي في حجر عبد المطّلب، فلمّا أتىٰ عليه اثنان ومئة سنة ورسول الله ابن ثماني سنين، جمع بنيه وقال: محمّد يتيم فآووه وعائل فاغنوه واحفظوا وصيّتي فيه.

فقال أبو لهب: أنا له! فقال: كفّ شرّك عنه! فقال عباس: أنا له، فقال: أنت غضبان لعلّك تؤذيه! فقال أبو طالب: أنا له، فقال: أنت له. فأمسكه أبو طالب في حجره وقام بأمره يحميه بنفسه وماله وجاهه في صغره من اليهود المرصدة له بالعداوة، ومن غيرهم من بني أعمامه، ومن العرب قاطبة، الّذين يحسدونه علىٰ ما آتاه الله من النبوة.

وروىٰ عن الخركوشي في (شرف المصطفىٰ): أنّه لمّا حضرت عبد المطّلب الوفاة دعا ابنه أبا طالب فقال له: يا بني! قد علمت شدّة حبّي لمحمّد ووجدي به، فانظر كيف تحفظني فيه! فقال أبو طالب: يا أبه لا توصني بمحمّد، فإنه ابني وابن أخي!

---

(١) ثمّ روىٰ عن علي عليه‌السلام أنّه قال: ساد أبي فقيراً، وما ساد فقير قبله. (اليعقوبي ٢ : ١٤).

(٢) قال: وأسلمت فكانت مسلمة فاضلة، فلمّا توفيت قال رسول الله كما يروىٰ: اليوم ماتت أمّي! ثمّ كفّنها بقميصه، ونزل في قبرها واضطجع في لحدها. فقيل له: يا رسول الله! لقد اشتدّ جزعك علىٰ فاطمة؟ قال: إنها كانت أمّي، إذ كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني! وكانت أمّي! (اليعقوبي ٢ : ١٤).

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي الفقيه: ثقة جليل من السابقة مات سنة ١٥٧ (تقريب التهذيب).

فلمّا توفّي عبد المطّلب كان أبو طالب يؤثره بالنفقة والكسوة علىٰ نفسه وعلىٰ جميع أهله، وكان إذا أراد أن يعشّي أولاده أو يغدّيهم يقول: كما أنتم حتّىٰ يحضر ابني، فيأتي محمّد فيأكلون[1].

سفر النبي صلى الله عليه وآله الأوّل مع عمّهِ الىٰ الشام:

روىٰ الصدوق في (كمال الدين) بسنده إلىٰ ابن عباس عن أبيه العباس بن عبدالمطّلب عن أبي طالب قال: خرجت الىٰ الشام تاجراً سنة ثمان من مولد النبي، وكان في أشدّ ما يكون من الحر، فلمّا أجمعت علىٰ المسير قال لي رجال من قومي ما تريد أن تفعل بمحمّد؟ وعلىٰ من تخلّفه؟ فقلت: لا أُريد أن أخلفه علىٰ أحد من الناس، أُريد أن يكون معي. فقيل: غلام صغير في حرّ مثل هٰذا تخرجه؟ فقلت: والله لا يفارقني حيث ما توجهت أبداً، فإني لأُوطّئ له الرحل. فذهبت فحشوت له حشية كساءً وكتاناً. وكنّا ركباناً كثيراً، فكان والله البعير الّذي عليه محمّد أمامي لا يفارقني فكان يسبق الركب كلّه، فكان إذا اشتدّ الحرّ جاءت سحابة بيضاء مثل قطعة ثلج فتقف علىٰ رأسه لا تفارقه وهي تسير معنا[2].

وروى الحِميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الكاظم عليه السلام في معجزاته صلى الله عليه وآله قبل مبعثه قال: توجّه إلى الشام مع نفر من قريش، فلما كان بحيال بَحيراء الراهب نزلوا بفِناء دَيره. وكان عالماً بالكتب وقد قرأ في التوراة مروره صلى الله عليه وآله به وعرف أوان ذلك. فأمر فدُعي إلى طعامه. ثمّ أقبل يطلب الصفة فيهم فلم يجدها فيهم، فقال لهم: هل بقي في رحالكم أحد؟ فقالوا: غلام يتيم. فقام بَحيراء الراهب

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥ـ٣٦.

(٢) كمال الدين: ١٧٨. ومثله في الخرائج والجرائح ١: ٧١ الحديث ١٣٠ وعنه في بحار الأنوار ١٥: ٢١٤.

يطّلع عليه فإذا هو به عليه‌السلام نائم وقد أظلّته سحابة. فقال للقوم: ادعوا هذا اليتيم. ففعلوا، فقام يسير وقد أظلّته السحابة، فأخبر القوم بشأنه وأنّه سيُبعث فيهم رسولاً ويكون من حاله وأمره كذا[١].

وفي رواية الصدوق عن ابن عباس عن أبي طالب قال فلمّا قربنا من بصرىٰ الشام[٢] إذا نحن بصومعة، فنزلنا تحت شجرة عظيمة قريبة من الراهب قليلة الأغصان ليس لها حمل، كان الركبان ينزلون تحتها، فلمّا رأىٰ بحيرا الراهب[٣] ذلك اتّخذ طعاماً ثمّ جاء به فأكل وأكلنا معه.

ثمّ قال: يا غلام أسألك عن ثلاث خصال بحق اللات والعزّىٰ إلّا أخبرتنيها. فغضب رسول الله عليه‌السلام عند ذكر اللات والعزّىٰ وقال: لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً كبغضهما، وإنهما صنمان من حجارة لقومي. فقال بَحيرا: هذه واحدة. ثمّ قال: فبالله إلّا ما أخبرتني. فقال: سل عمّا بدا لك، فإنّك قد سألتني بإلهي وإلهك الّذي ليس كمثله شيء. فقال: أسألك عن نومك وهيئتك وأمورك ويقظتك. فأخبره عن نومه وهيئته وأموره وجميع شأنه، فوافق ذلك ما عند بَحيرا من صفته الّتي عنده. فانكب عليه بَحيرا فلم يزل يقبّل يديه مرّة ورجليه مرّة ويقول فيما يقول: أنت دعوة إبراهيم وبشرىٰ عيسىٰ، أنت المقدّس المطهّر من أنجاس الجاهلية.

ثمّ التفت اليَّ وقال: ما يكون هذا الغلام منك فإنّي أراك لا تفارقه؟ قال أبو طالب: فقلت: هو ابني، فقال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون والده

---

(١) قرب الاسناد: ٢٥١ الحديث ١٢٣٢.

(٢) بصرىٰ هي مدينة حوران، فتحت صلحاً لخمس بقين من ربيع الأوّل سنة ثلاث عشرة، وهي أوّل مدينة فتحت بالشام. وردَها رسول الله مرّتين: هذه هي الأُولىٰ.

(٣) حسبه المسعودي من عبد قيس من عرب الشام، مروج الذهب ٢: ١٠٢. وضبط الاسم بفتح الباء وكسر الحاء واشتهر بالتصغير خطأ.

الّذي ولده حياً ولا أُمّه. فقال: قلت: إنّه ابن أخي وقد مات أبوه وأُمّه حاملة به، وماتت أُمّه وهو ابن ست سنين. فقال: صدقت، هكذا هو، ولكن أرىٰ لك أنْ تردّه إلىٰ بلده عن هذا الوجه، فلئن رأوا هذا الغلام وعرفوا منه الّذي عرفت أنا لابتغوه شراً، وأكثر ذلك هؤلاء اليهود! قال أبو طالب: فقلت: كلّا، لم يكن اللّه ليضيّعه!.

ثمّ خرجنا به الىٰ الشام فلمّا توصّلنا الشام إزدحم الناس ينظرون الىٰ وجه رسول اللّه ﷺ وجاءَ حَبر عظيم كان اسمه نسطورا ينظر إليه لا يتكلم بشيء، فعل ذلك ثلاثة أيام متوالية، فلمّا كان اليوم الثالث دار خلفه كأنه يلتمس منه شيئاً، فقلت له: يا راهب كأنّك تريد منه شيئاً؟ فقال: أجل إنّي أُريد منه شيئاً، ما اسمه؟ قلت: محمّد بن عبداللّه، فتغيّر لونه ثمّ قال: فترىٰ أن تأمره أن يكشف لي عن ظهره لأنظر اليه، فكشف عن ظهره فلمّا رأىٰ الخاتم[1] انكبّ عليه يقبّله ويبكي، ثمّ قال: يا هذا اسرع بردّ هذا الغلام الىٰ موضعه الّذي ولد فيه، فانّك لو تدري كم عدوّا له في أرضنا لم تكن بالّذي تقدمه معك.

وروىٰ بسنده الىٰ يعلىٰ بن سيابة[2] قال: كان مع رسول اللّه سنة خروجه الىٰ الشام: خالد بن أُسيد بن أبي العاص وطليق بن أبي سفيان بن أُميّة، فكانا يحكيان أنّهما لمّا توسطا سوق بُصرىٰ إذا بقوم من الرهبان قالوا لهم: نحبّ أنْ تأتوا كبيرنا هاهنا في الكنيسة العظمىٰ. فذهبنا معهم حتّىٰ دخلنا معهم الكنيسة العظيمة البنيان، فإذا كبيرهم قد توسطهم وحوله تلامذته وقد نشر كتاباً بين يديه فأخذ ينظر إلينا مرة وفي الكتاب مرّة، ثمّ قال لأصحابه: ما صنعتم شيئاً، لم تأتوني بالّذي أُريد،

---

(١) روىٰ السهيلي في (الروض الأنف) خبراً عن الخاتم هذا يفيد أنّه كان كبيض الحمام علىٰ غضروف كتفه الأيسر حوله نقاط من الخال عليها شعرات. وقال ابن هشام كان مثل أثر محجمة الحجامة القابضة علىٰ اللحم، كما في سيرته ١ : ١٩٣، متناً وهامشاً.

(٢) في كمال الدين: يعلىٰ النسابة، والصحيح عن مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٠.

وهو الآن ها هنا! ثمّ قال لنا: من أنتم؟ فقلنا: رهط من قريش، فقال: من أي قريش؟ فقلنا من بني عبد شمس، فقال لنا: معكم غيركم؟ فقلنا: بلىٰ (كذا) معنا شاب من بني هاشم نسمّيه يتيم بني عبد المطّلب، فقام واتكىٰ علىٰ صليب من صلبانه وهو يفكر، وحوله ثمانون رجلاً من البطارقة والتلامذة، فقال لنا: فيجب عليكم أنْ تُرونيه، فقلنا له: نعم فجاء معنا.

وفي سوق بُصرىٰ إذا نحن بمحمّد قائم في السوق، فأردنا أنْ نقول للقسّ: هو هٰذا، فإذا هو سبقنا فقال: هو هو، قد عرفته والمسيح، فدنا منه وقبّل رأسه وقال: أنت المقدّس، ثمّ أخذ يسأله عن أشياء من علاماته، فأخذ يخبره النبي صلى الله عليه وآله فسمعناه يقول: لئن ادركت زمانك لأعطين السيف حقّه! ثمّ قال لنا: أتعلمون ما معه؟ معه الحياة والموت، من تعلق به حيي طويلاً، ومن زاغ عنه مات موتاً لا يحيىٰ بعد أبداً هٰذا الّذي معه الذبح الأعظم! ثمّ قبّل رأسه ورجع راجعاً[1].

وقد نقل ابن إسحاق خبر بَحيرا بلا اسناد فقال فيه: كان في بصرىٰ من أرض الشام صومعة لم يزل فيها أبداً راهب كان اليه علم النصرانية عن كتاب لهم يتوارثونه كابراً عن كابر، فكان فيها إذ ذاك راهب يقال له بَحيرا، كانوا كثيراً ما يمرّون به قبل ذٰلك، فلا يكلّمهم ولا يعرض لهم، حتّىٰ خرج أبو طالب في ركب ذٰلك

---

(١) كمال الدين: ١٨٢ ـ ١٨٦ بتصرف واختصار. وخبر بَحيرا رواه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١: ٦٥ ـ ٦٧ عن الطبري والظاهر انّه الطبري الامامي صاحب (دلائل الإمامة) والّا فالخبر لا يطابق ما في تأريخ الطبري. واختار الطبرسي أن يرويه عن ابن إسحاق: إعلام الورىٰ: ٦٥. وكذٰلك الاربلي في كشف الغمة ١: ٢٢ نقل ما ذكره ابن إسحاق. والخبر في سيرة ابن هشام ١: ١٩١ ـ ١٩٤. وفي الطبري ٢: ٢٧٧ ـ ٢٧٨. وأشار اليه اليعقوبي ٢: ١١ واختصره المسعودي ١: ٨٩. وقال: واسم بحيرا في النصارىٰ سِرجيس، وكان للنبيّ اثنتا عشرة سنة.

العام تاجراً إلىٰ الشام، وتعلّق به رسول اللّٰه فرقّ له أبو طالب فخرج به معه، فلمّا كان الركب قريباً من صومعة بحيرا، كان قد رأىٰ ـوهو في صومعته ـ رسول اللّٰه وقد أظلّته من بين الركب غمامة، ونزلوا في ظل شجرة قريباً منه، فاظلّت الغمامة الشجرة وتدلّت أغصانها علىٰ رسول اللّٰه (كذا، ولا حاجة إليهما معاً). فلمّا رأىٰ ذلك بَحيرا نزل من صومعته وصنع لهم طعاماً كثيراً ثمّ ارسل اليهم فقال: يا معشر قريش اني قد صنعت لكم طعاماً فأُحبّ اَنْ تحضروه كلكم كبيركم وصغيركم حرّكم وعبدكم! فانتم ضيف وقد أحببت اَن اكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه. فاجتمعوا اِليه وتخلّف رسول اللّٰه من بين القوم في رحال القوم تحت الشجرة، فقال بَحيرا: يا معشر قريش! لا يتخلّفن أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بَحيرا! ما تخّلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك، إلّا غلام أحدث القوم سنّاً تخلف في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر هٰذا الطعام معكم، فقام اِليه رجل منهم فاحتضنه حتّىٰ أجلسه مع القوم.

فلمّا رآه بَحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر الىٰ أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتّىٰ اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام اِليه بحيرا فقال له: يا غلام! أسألك بحق اللات والعزّىٰ اِلّا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه. فقال رسول اللّٰه: لا تسألني باللات والعزّىٰ، فو اللّٰه ما أبغضت شيئاً قطّ كبغضهما! فقال بحيرا: فباللّٰه اِلّا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه، فقال له: سلني عمّا بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأُموره، وجعل رسول اللّٰه يخبره، فكان يوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته. ثمّ نظر الىٰ ظهره فرأىٰ خاتم النبوة بين كتفيه علىٰ موضعه من صفته الّتي عنده.

فلمّا فرغ أقبل علىٰ عمّه أبي طالب فقال له: ما هٰذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهٰذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً! قال: فانّه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه قال: مات وأُمّه حبلىٰ به. قال: صدقت، فارجع بابن

أخيك الىٰ بلده واحذر عليه اليهود، فو اللّٰه لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرّاً، فانّه كائن لابن أخيك هٰذا شأن عظيم، فاسرع به الىٰ بلاده.

فلمّا فرغ عمّه من تجارته خرج به حتّىٰ أقدمه مكّة[1].

هٰكذا ينتهي الخبر عند ابن إسحاق، وهٰكذا نقله عنه الطبري في تأريخه، ولكنّه روىٰ بعده رواية أُخرىٰ أسندها الىٰ أبي موسىٰ الأشعري الأنصاري ـ المدني ـ من دون اَن يسندها الىٰ أحدٍ قبله، قال في آخرها: فلم يزل يناشده حتّىٰ ردّه، وزوّده الراهب بزيت وكعك وبعث معه أبو بكر بلالاً![2].

ورواه الدياربكري في كتابه (تأريخ الخميس) ثمّ نقل عن الحافظ الدمياطي أنّه أشكل علىٰ هٰذا الخبر ـ اِرسال أبي بكر بلالاً مع الرسول ـ بأنّ أبا بكر لم يكن يومئذ يملك بلالاً بل كان يملكه أُميّة بن خلف، واِنّما اشتراه أبو بكر بعد ثلاثين عاماً! ثمّ ذهب اِلىٰ اَنّ أبا بكر لم يكن في ذٰلك السفر أصلاً! ولذٰلك قال الذهبي بشأن هٰذا الخبر: اظنّه موضوعاً، بعضه باطل[3] ورواه الترمذي في سننه ثمّ قال: حسن غريب!

وقد نقل الطبري عن الكلبي: اَنّ أبا طالب خرج برسول اللّٰه الىٰ بصرىٰ وهو ابن تسع سنين[4]. والمعروف أنّ أبا بكر كان أصغر من النبي ﷺ بأكثر من سنتين، فكيف يكون ما ذكر؟!

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩١ ـ ١٩٤ والخبر فى السيرة بلا سند، وأسنده الطبري اليه عن عبداللّٰه بن أبي بكر. وذكر مثله الكازروني في (المنتقىٰ) بسند طويل الىٰ داود بن الحصين (بحار الأنوار ١٥ : ٤٠٩).

(٢) الطبري ٢ : ٢٧٧ ـ ٢٧٢ ط المعارف وص ٣٤ ط الإستقامة. والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠ وسيرة دحلان ١ : ٤٩ والبداية والنهاية ٢ : ٢٨٥ والثقات لأبن حبّان ١ : ٤٤.

(٣) تأريخ الخميس ١ : ٢٥٩ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠ وسيرة مغلطاي : ١١.

(٤) الطبري ٢ : ٢٧٨.

وقد ألمح الىٰ التشكيك فيها جماعة من المؤرخين ـ كما سبق ـ منهم أبو الفداء في تأريخه الكبير، وجاء فيه: إنّ أحد رواتها هو أبو بكر بن أبي موسىٰ عن أبيه الأشعري، وقد دخل في الإسلام في السنة السابعة من الهجرة، ولابدّ أنْ تكون حينئذ من مرسلات الصحابة. وشكك في الرواية: أنّها اشتملت علىٰ أنّ أبا طالب أرجع النبي صلى الله عليه وآله ـ كما زعم الرواي ـ مع بلال الحبشي وأبي بكر، وقد كانا يوم ذاك أصغر منه سناً، حيث إنّ أبا بكر في ذلك الوقت لم يتجاوز العاشرة، وبلال الحبشي كان أقلّ من ذلك فكيف يصح أنّ يردّه أبو طالب الىٰ مكّة من تلك المسافة البعيدة وفي تلك الصحراء المخيفة مع طفلين صغيرين؟![1]

ثمّ الرواية ـ كما مرّ ـ عن أبي موسىٰ الأشعري، وهو أنصاري مدنيّ، والمعروف أنّه ولُد قبلَ البعثة بثماني سنين، وقدم الىٰ المدينة بعد الهجرة بسبع سنين، ورحلة الرسول مع عمّه أبي طالب الىٰ الشام كانت قبل البعثة باثنتين وثلاثين سنة، وقبل الهجرة بخمس وأربعين سنة، وقبل أتصال أبي موسىٰ بالرسول بأكثر من خمسين سنة، فكيف روىٰ هذا الخبر بلا اسناد الىٰ أحدٍ قبله؟!

والرواية الأُولىٰ نقلناها عن الصدوق في (كمال الدين) بسنده الىٰ ابن عباس، وكانت تنتهي بقول أبي طالب: وعجلت به حتّىٰ رددته الىٰ مكّة[2].

وقد ذكر الدياربكري الرواية عن ابن عباس أيضاً ولكنّه جاء في آخرها: فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق قبل ما نبيء[3] وعلىٰ هذا يكون إيمان أبي بكر قد سبق نبوة النبي فضلاً عن ميلاد علي عليه السلام! ولهذا قال الصفوري الشافعي:

---

(١) البداية والنهاية ٢ : ٢٨٥.

(٢) كمال الدين : ١٨٢.

(٣) تأريخ الخميس ١ : ٢٦١.

وكان إسلامه قبل اَنْ يولد علي بن أبي طالب[١] وتوهم النووي أن سنّ أبي بكر في هٰذه السفرة كان خمس عشرة، بل عشرين سنة، فقال: كان أبوبكر أسبق الناس إسلاماً، أسلم وهو ابن عشرين سنة وقيل: خمس عشرة سنة[٢] وقد مرّ أنّ خبر ابن عباس كان خليّا عن هٰذه الاضافة، وانّ المعروف انّ أبا بكر كان أصغر من النبي بأكثر من سنتين، ولم يكن مع النبي في رحلته هٰذه، كما ذهب اليه مغلطاي في سيرته[٣] والدمياطي كما في (تأريخ الخميس)[٤] ولا أظنّه اِلّا موضوعاً باطلاً كما ذهب اِليه الذهبي[٥] من موضوعات معاوية كما روىٰ خبرها ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن المدائني.

---

(١) نزهة المجالس ٢ : ١٤٧.

(٢) الغدير ٧ : ٢٧٢.

(٣) سيرة مغلطاي : ١١.

(٤) تأريخ الخميس ١ : ٢٥٩.

(٥) تأريخ الخميس ٢ : ٢٥٩ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٠. وقال الحسني في سيرته: ولكنّ تلك المرويات علىٰ كثرتها وشهرتها بين المؤرخين والمؤلفين في سيرته لايكاد يثبت منها شيء عند عرضها علىٰ أُصول علم الدراية، كما أشرنا الىٰ بعض عيوبها في كتابنا (الموضوعات في الآثار والأخبار): (سيرة المصطفىٰ: ٤٩) ولكنّه عاد في ص ٥٦ فقال «وإذا كنت قد وقفت موقف المتصلب في كتابي (الموضوعات) من بعض المرويات الّتي يرويها المدائني عن بعض من تستّروا بصحبة النبي ﷺ ورواها غيره من المؤرخين (كما رواها الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة) فإني لا أقف نفس الموقف من حديث بَحيرا الراهب، فمن الجائز أنْ يكون قد رأىٰ النبي ولكن دوره معه لا يعدو أن يكون دور من يرقب له النبوة عندما وجد فيه بعض العلامات الّتي وصفته بها الكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما.. أمّا بقية الأحداث والخوارق الّتي روتها كتب التأريخ والحديث وادّعت وقوعها في تلك الرحلة، فلو صحت لتركت أثراً في مكّة وما جاورها بل في شبه الجزيرة بكاملها، ولم يحدث شيء من ذلك». ←

كان الله يسلك بالنبي صلى الله عليه وآله طريق المكارم:

روىٰ الشريف الرضي في «نهج البلاغة» عن علي عليه السلام أنه قال في وصف الرسول صلى الله عليه وآله : «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[1].

وروىٰ ابن أبي الحديد في شرحه : أنّ بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام سأله عن قول الله تعالىٰ ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾[2] فقال عليه السلام : يوكّل الله تعالىٰ بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدّون إليهم تبليغهم الرسالة، ووكّل بمحمّد ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده الىٰ الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصّده عن الشر ومساوىء الأخلاق[3].

← وفصّل هٰذا المعنىٰ فقال : «إنّ تلك الأحداث والكرامات الّتي يدّعيها الرواة، وبخاصّة ما كان منها في طريقه الىٰ الشام مع تلك الحشود لم تترك أثراً علىٰ المكيين الّذين رافقوه في تلك الرحلة، فلا محمّد قد احتج بها عليهم يوم كانوا يطاردونه من بيت الىٰ بيت وفي شعاب مكّة وبطاحها، ولا حدّث أحد من المؤرخين بانّ رفاقه في تلك الرحلة كانوا يتحدثون بها لمن رجعوا إليهم في مكّة وما جاورها، كلّ ذٰلك مما يرجّح استبعادها».

وقال : «نبهت في كتابي (الموضوعات) علىٰ ما يرويه المحدثون والمؤرخون ممّا جرىٰ له في طريقه الىٰ الشام وهو في قافلةٍ تتألف من مائة وثمانين من التّجار ومعاونيهم : كحديث الغمامة الّتي كانت تظلله، والمياه الّتي كانت تتفجر من بطون الصحراء الّتي كانت تتعرض فيها حياة العشرات من المسافرين للموت عطشاً، والأشجار اليابسة الّتي كانت تعود اليها الحياة فتثمرُ من ساعتها أنواعاً من الثمار، الىٰ كثير من أمثال ذٰلك».

هٰذا، ولم يكن فيما رويناه إلّا تظليل الغمامة إذا اشتدّ الحرّ، وعند نزوله عند الشجرة.

(١) نهج البلاغة : الخطبة القاصعة : ١٩٢ / المقطع ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الباقر عليه السلام .

(٢) الجنّ : ٢٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ : ٢٠٧ و عنه في بحار الأنوار ١٥ : ٣٦١.

وروىٰ الطبري في تأريخه بسنده عن محمّد بن الحنفية عن أبيه علي عليه‌السلام قال: سمعت رسول الله يقول: ما هممت بشيء ممّا كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كلّ ذٰلك يحول الله بيني وبين ما اريد من ذٰلك، ثمّ ما هممت بسوء حتّىٰ أكرمني الله برسالته.

قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعىٰ معي بأعلىٰ مكّة: لو أبصرت لي غنمي، حتّىٰ أدخل مكّة فأسمر[1] بها كما يسمر الشباب فخرجت أُريد ذٰلك، حتّىٰ إذا جئت أوّل دار من دور مكّة سمعت عزفاً بالدفّ والمزامير، فقلت: ما هٰذا؟ قالوا: هٰذا فلان تزوّج ابنة فلان. فجلست أنظر اليهم، فضرب الله علىٰ اذني فنمت، فما أيقظني إلّا مسّ الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما صنعت شيئاً. ثمّ أخبرته الخبر.

ثمّ قلت له ليلة أُخرىٰ مثل ذٰلك، فقال: افعل. فخرجت فسمعت حين دخلت مكّة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة، فجلست أنظر، فضرب الله علىٰ اذني، فما أيقظني إلّا مسّ الشمس، فرجعت الىٰ صاحبي فأخبرته الخبر. ثمّ ما هممت بعدها بسوء، حتّىٰ أكرمني الله برسالته[2].

وقال ابن إسحاق: شبّ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ والله تعالىٰ يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامة ورسالة، حتّىٰ بلغ أن كان رجلا، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً حتّىٰ ما اسمه في قومه إلّا الأمين، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق الّتي تدنس الرجال، تنزهاً وتكرماً، جمع الله فيه كلّ ذٰلك[3].

---

(١) سهرة الليل.

(٢) الطبري ٢: ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد ١٣: ٢٠٧.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٩٤ ثمّ قال: وذكر لي: أنّ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه [وآله]

حرب الفِجار:

روىٰ أبو الفرج الإصبهاني : أنّه كانت للعرب حروب أربع سمّيت بالفِجار، لِما استُحل فيها من المحارم :

فالفِجار الأوّل : كان بين كِنانة وهوازن. وكان السبب فيه : أن بدر ابن معشر الكناني كان حَدِثاً منيعاً في نفسه، فحضر سوق عكاظ ومعه حيّ من كِنانة، وعقد لنفسه مجلساً يفتخر فيه، فتصدّىٰ له الأحيمر بن مازن ومعه حيّ من

← وسلّم ـ كان ممّا يحدّث به عمّا كان اللّٰه يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما نلعب به، فإني أُقبل معهم وأُدبر، وكلنا قد أخذ إزاره فجعله علىٰ عاتقه ليحمل عليه الحجارة فتعرّىٰ ! إذ لكمني لاكم ثمّ قال : شدّ عليك ازارك، وما أراه ! فأخذته وشددته عليّ، ثمّ جعلت أحمل الحجارة علىٰ رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي.

وقال السهيلي في (الروض الأُنف) في التعليق علىٰ هٰذه القصّة «وهٰذه القصّة انّما وردت في الحديث الصحيح (!) في حين بنيان الكعبة : انّ رسول اللّٰه كان ينقل الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يحملون أُزرهم علىٰ عواتقهم لتقيهم الحجارة ! وكان رسول اللّٰه يحملها علىٰ عاتقه وازاره مشدود عليه، فقال له العباس : يابن أخي لو جعلت ازارك علىٰ عاتقك. ففعل فسقط مغشيّاً عليه ! فضمّه العباس إلىٰ نفسه وسأله عن شأنه، فأخبره أنه نودي من السماء : أن اُشدد عليك إزارك يا محمّد ! ثمّ قال : ازاري ازاري ! فشدّ عليه إزاره، فقام يحمل الحجارة» ثمّ قال : «فإن صحّ حديث ابن إسحاق انّ ذٰلك كان في صغره إذ كان يلعب مع الغلمان، فحمله علىٰ انّ هٰذا الأمر كان مرتين : مرّة في صغره، ومرّة في أوّل اكتهاله (!) عند بنيان الكعبة» ! وقال القسطلاني قريباً منه في فتح الباري ١ : ٤٠١.

امّا نحن فنقول : ان صحّ من هٰذه القصّة شيء فإنّما نحتمل قصّة ابن إسحاق ـ وقد روىٰ نحوه ابن أبي الحديد عن أمالي محمّد بن حبيب ـ امّا انّه كان ذٰلك عند اكتهاله ! بأمر عمّه العباس ! ومعه رجال قومه كذٰلك ! فهٰذا ممّا لا يحتمله عقل أي عاقلٍ قط. وللتفصيل انظر الصحيح للسيد جعفر مرتضىٰ ١ : ١٣٦ ـ ١٤٤.

بني هوازن، فكادت الحرب أن تقع ثمَّ رأوا أنّ الخطب يسير فتراجعوا عن الحرب، وحيث كان سوق عكاظ في رجب الحرام سميت الحادثة فجاراً.

والفِجار الثاني: كان بين قريش وهوازن. وكان السبب فيه: أن فتية من قريش تعرّضوا لامرأة من هوازن، فهاجت الحرب ووقع القتال وأُريقت دماء يسيرة، وكان علىٰ قريش حرب بن أُميّة بن عبد شمس فتحمّل دية ما وقع وتصالح.

والفِجار الثالث: كان بين كِنانة وهوازن أيضاً. وكان السبب فيه: أنّ رجلاً من كنانة كانت عليه دية لرجل من هوازن فافتقر وعجز عنها فلمّا حضروا سوق عكاظ قام الرجل صاحب الديّة من هوازن فعيّر بني كنانة بذٰلك، فقام إليه كناني فضربه، فتهايج الحيّان الىٰ الحرب، ثمّ رأوا أنّ الخطب يسير فتحملت كنانة الديّة فتراجعوا.

والفِجار الرابع: كان بين كِنانة وقريش وبين هوازن وقَيس عَيلان. وكان السبب فيه: انّ النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث في كلّ عام قافلة تجارة بالبزّ والطيب الىٰ سوق عكاظ لتباع هناك، ثمّ يشترىٰ له بثمنها من اَدَم الطائف ما يحتاج اليه[1] وكان لا يعرض لها أحد من العرب حتّىٰ قتل النعمان رجلاً من قيس فكان بلعاء بن قيس بعد ذٰلك يُغير علىٰ قافلة النعمان وكان البَرّاض بن قيس الكناني بمكّة في جوار حرب بن أُميّة بن عبد شمس فوثب علىٰ رجل من هذيل فقتله، فأخرجه حرب بن أُميّة من جواره فلحق بالنعمان بن المنذر، فاجتمع عنده بعروة الرّحال من هوازن، فقال النعمان لهما: من منكما يجير لطائمي ـ أي القوافل التجارية ـ فتصدّىٰ عروة لذٰلك، ونازعه البَرّاض، فلمّا توجّه عروة لينصرف بالقافلة[2] قال له البرّاض الكناني: اتجيرها علىٰ كنانة؟! قال: نعم وعلىٰ الخلق كلّه!

---

(١) الأغاني ١٩: ٧٤ ـ ٨٠ ط بولاق، باختصار. والاَدَم بفتحتين: جمع الأديم: الجلد المدبوغ.

(٢) اليعقوبي ٢: ١٥.

فخرج فيها عروة الرّحال، وخرج البَرّاض يطلب غفلته، حتّىٰ إذا كـان في وادي تيمن بعالية نجد[١] او أوارة قريبة من تيمن الىٰ جانب فدك، نزل عروة ليلة وجلس في سهرة تغنّيه قينة ويشرب فيها الخمر، الىٰ أن قام فنام، فـدخل عـليه البَرّاض الكناني ليقتله، فاعتذر اليه عروة فلم يسمع منه وقتله[٢] في الشهر الحـرام[٣] شهـر رجب[٤] فلذٰلك سمّي الفِجار.

وكانت قريش وكِنانة في الشهر الحرام بعكاظ، وهـوازن كـذٰلك، فأتىٰ آت قريشاً وقـال لهم: إنّ البَرّاض الكناني قد قَتل عروة الرّحال من هوازن! فارتحلت كِنانة وقريش ولم تشعر هوازن بالأمر ثمّ بلغ الخـبر الىٰ هـوازن فـاتبعوا قـريشاً فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتّىٰ جاء الليل، والتقوا بعد هٰذا اليوم أياماً وعلىٰ كلّ قبيل من قريش وكِنانة رئيس منهم، وعلىٰ كلّ قـبيل مـن قـيس وهوازن رئيس منهم. قال ابن إسحاق: وكان قائد قريش وكنانة حرب بن اُميّة بن عبد شمس[٥] فاقتتلوا في رجب، وكان عندهم الشهر الحرام الّـذي لا تسـفك فـيه الدماء، فسمّي الفِجار لأنهم فجروا في شهر حرام.

أمّا بنو هاشم من قريش، فقد رُوي: أن أبا طالب قال: هٰذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام، فلا أحضره ولا أحد من أهلي! فقال حرب بن اُميّة وعبدالله بن جُدعان التيمي: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم، فأُخرج الزبير بن عبدالمطّلب مستكرهاً علىٰ رأس قبيل من بني هاشم.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١٩٦.

(٢) الأغاني ١٩ : ٧٥.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٦.

(٤) اليعقوبي ٢ : ١٥.

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٦ ـ ١٩٨.

وقالوا لأبي طالب : يابن مطعم الطير وساقي الحجيج ! لا تغب عنّا ، فإنّا نرىٰ مع حضورك الظفر والغلبة. قال : فاجتنبوا الظلم والعدوان ، والقطيعة والبهتان فإني لا أغيب عنكم.

فقالوا : ذٰلك لك. فلم يزل يحضر حتّىٰ فتح عليهم.

فقيل : إنّ أبا طالب كان يحضر ومعه رسول الله ، فإذا حضر هزَمَت كنانة قيساً ، فعرفوا البركة بحضوره.

وروي عن رسول الله انّه قال : شهدت الفجار مع عمّي أبي طالب ، وأنا غلام.

ورویٰ بعضهم : أنّه شهد الفِجار وهو ابن عشرين سنة ، وطعن أبا براء ملاعب الأسنة فأرداه عن فرسه ، وجاء الفتح من قبله[١].

---

(١) اليعقوبي ٢ : ١١٥ ـ ١١٦ وقال قبل هٰذا : شهد رسول الله الفجار وله سبع عشرة سنة.

وقال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة النحوي ، عن أبي عمرو بن العلاء : أنّه لمّا بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس عيلان. وشهد رسول الله بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم. وقال رسول الله «كنت انبّل مع أعمامي» أي أردّ عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم بها.

وقال ابن إسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله ابن عشرين سنة. وإنّما سمّي يوم الفجار بما استحلّ هٰذان الحيّان : كنانة وقيس عيلان من المحارم بينهم فيه (سيرة ابن هشام ١ : ١٩٥ ـ ١٩٨).

ولهٰذا قال في (السيرة الحلبية ١ : ١٢٨) : انّ سبب الفجار كان في رجب الحرام امّا الحرب فكان في شعبان. وبهٰذا برّر مشاركة أبي طالب ومعه رسول الله في الحرب.

ولكنّ السيد المرتضىٰ رأىٰ انّ هٰذا التوجيه لا يعتمد علىٰ أيّ سند تأريخي ، فلم يجد مجالاً للتعويل عليه ، وشك في صحة القصة. (الصحيح ١ : ٩٥). ←

ميلاد علي عليه السلام:

قال الكليني في «اصول الكافي»: «بعد عام الفيل بثلاثين سنة ولد أمير المؤمنين عليه السلام»(١).

وقال الشريف الرضي في «خصائص الأئمة»: ولثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، بعد عام الفيل بثلاثين سنة، ولد في البيت الحرام علي عليه السلام(٢).

← ولا يخفىٰ أنّ ابن إسحاق والطبري لم يرويا مشاركة النبي ولا حضوره في الحرب، وانّما روىٰ ابن هشام حضوره مع أعمامه ومساعدته لهم في الحرب وهو ابن خمس عشرة سنة. وروىٰ اليعقوبي حضوره فقط وله سبع عشرة سنة،، ثمّ روىٰ عن غيره حضوره ومشاركته في الحرب وهو ابن عشرين سنة (اليعقوبي ٢ : ١٥).

وقال المسعودي: كان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة (٢:٢٦٨) وقال: وقد قدمنا في كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجارات الأربعة: فجار الرجل ـ أو فجار بدر بن معشر ـ وفجار القرد، وفجار المرأة، والفجار الرابع هو فجّار البرّاض الّذي كان فيه القتال وكان النبي ـ صلىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قد حضر وشاهد الفجار الرابع (٢: ٢٧٦) وقال: انّه عليه السلام شهد يوم حرب الفِجار وذٰلك في سنة إحدىٰ وعشرين (من مولده) وهي حرب كانت بين قريش وقيس عيلان، وكانت لقيس علىٰ قريش، وانّ النبي صلّى اللّٰه عليه [وآله] وسلّم لمّا شاهدها صارت لقريش علىٰ قيس، وكان علىٰ قريش يومئذ عبداللّٰه بن جُدعان التيّمي، وكانت هٰذه إحدىٰ الدلائل المنذرة بنبوته عليه السلام التيمّن بحضوره (٢ : ٢٨٦). وقد يكون الاختلاف في سن النبي في حضوره الفجار ناشئاً من تعدد الفجارات ووقوعها في طول هٰذه السنين وعدم تعيين حضوره في الرابع منها.

(١) اصول الكافي ١ : ٤٥٢ وبعده: وبقي بعد قبض النبي ثلاثين سنة وقتل سنة أربعين من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. ثمّ روىٰ بسنده عن الصادق عليه السلام قال: كان بين رسول اللّٰه وأمير المؤمنين ثلاثون سنة. وكأنه استند الىٰ هٰذا الخبر في تأريخ ميلاد علي عليه السلام. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢ : ٧ و ٨.

(٢) خصائص الأئمة : ٣٩.

وقال شيخه المفيد في «الارشاد»: في «يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولد ـ علي عليه‌السلام ـ بمكّة في البيت الحرام ـ ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت اللّٰه تعالىٰ ـ سواه، إكراماً من اللّٰه تعالىٰ جلّ اسمه له، واجلالاً لمحلّه في التعظيم»[١].

وذكره معاصراه: المسعودي في «مروج الذهب» قال: «وكان مولده في الكعبة..»[٢] والآخر: الحسن بن محمّد القميّ في كتابه «تأريخ قم» الّذي الّفه للصاحب بن عباد سنة ٣٧٨ قال: «سنة ثلاثين من عام الفيل، وفي رواية: سنة ثمان وعشرين منه، كانت ولادة أمير المؤمنين في الكعبة..»[٣].

وكشف الشيخ الطوسي عن مصدر القول الأخير في كتابه «مصباح المتهجد» فقال: «عن عتّاب بن أسيد: ولد.. وللنبي ثمان وعشرون سنة، وقبل نبوّته باثنتي عشرة سنة، وكذٰلك عن ابن عياش»[٤].

وروىٰ الفتّال النيسابوري في «روضة الواعظين» عن جابر بن عبداللّٰه الأنصاري قال: سألت رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن ميلاد علي بن أبي طالب عليه‌السلام، فقال: «لقد سألتني عن خير مولود ولد في شبه المسيح عليه‌السلام كان في زماننا رجل زاهد عابد يقال له: المبرم بن دعيب بن الشقيان، قد عبد اللّٰه مائتين وسبعين سنة، لم يسأل اللّٰه حاجة. فبعث اللّٰه اليه أبا طالب، فلمّا أبصره المبرم قام اليه وقبّل رأسه وأجلسه بين

---

(١) الإرشاد ١ : ٥، ومسار الشيعة : ٥١ ط مصر، والمقنعة : ٤٦١ ط. قم.

(٢) مروج الذهب ٢ : ٣٤٨. ومثله عن علي بن إبراهيم القمي في علل الشرائع كما في بحار الأنوار ٩٩ : ٣٧٠.

(٣) عن الترجمة الفارسية للحسن بن علي القميّ، ترجمه للوزير فخر الدين سنة ٨٦٥ ص ١٩١ ط سنة ١٣٥٣ هـ.

(٤) مصباح المتهجد : ٥٦٠.

يديه، ثمّ قال له: من أنت؟ فقال: رجل من تهامة، فقال: من أيّ تهامة؟ قال: من بني هاشم. فوثب العابد فقبّل رأسه مرة ثانية ثمّ قال: يا هذا، إنّ العليّ الأعلىٰ ألهمني إلهاماً. قال أبو طالب: وما هو؟ قال: ولدٌ يولد من ظهرك، وهو وليّ اللّٰه عزوجل.

فلمّا كانت الليلة الّتي ولد فيها علي عليه السلام أشرقت الأرض، فخرج أبو طالب وهو يقول: أيّها النـاس، ولد في الكعبة وليّ اللّٰه عزوجل»[١] ورواه ابن شهر آشوب في «المناقب»[٢] والكنجي الشافعي (ت ٦٥٨) في كتابه «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب» مسنداً[٣].

وروىٰ المغازلي في «المناقب» مرفوعاً الىٰ علي بن الحسين عليهما السلام قال: كـنا عند الحسين عليه السلام إذ اقبلت امرأة قالت: أنا زبدة بنت قُريبة بن العجلان مـن بـني ساعدة. فقلت لها: فهل عندك شيء تحدّثينا به؟ فقالت: إي واللّٰه، حدثتني أُمّ عمارة الساعدية: أنّها كانت ذات يوم في نساء العرب، إذ أقبل أبو طالب كـئيباً حـزيناً فقلت له: ما شأنك؟ فقال: إنّ فاطمة بنت أسد في شدة من المخاض. ثمّ أخذ بيدها وجـاء بها الىٰ الكعبة وقال لها: اجلسي علىٰ اسم اللّٰه»[٤].

وروىٰ ابن الصباغ المالكي بسنده عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: «دخـل النبي صلى الله عليه وآله المسجد الحرام يوماً فرأىٰ فيه أبا طالب مهموماً مغموماً. فقال له: يا عمّ، ما لي أراك مغموماً؟ فقال: إنّ فاطمة قد أخذها الطلق. فأخذ النبي بيد أبي طـالب

---

(١) روضة الواعظين: ٩٦.

(٢) المناقب ١: ٣٥٨.

(٣) كفاية الطالب: ٢٦٠.

(٤) المناقب لابن المغازلي المالكي: ورواه عنه ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة: ١٤ ورواه عنه ابن البطريق الحلي من المائة السادسة مسنداً الىٰ علي بن الحسين عليه السلام، كما في كتاب: علي وليد الكعبة: ٤٧ ط النجف.

وأتيا بفاطمة الىٰ الكعبة وادخلها النبي الكعبة وقال لها: اجلسي باسم اللّٰه، فإنّ هٰذا المولود المكرّم ينبغي أنْ يولد في هٰذا الموضع المحرّم»[١].

وروىٰ الصدوق في «الأمالي» و«علل الشرائع» و«معاني الأخبار» بسنده عن أبي حمزة الثمالي ثابت بن دينار عن سعيد بن جُبير قال: قال يزيد بن قعنب: «كنت جالساً مع العباس بن عبدالمطّلب وفريق من بني عبد العزّىٰ، بإزاء بيت اللّٰه الحرام إذ أقبلت فاطمة بنت أسد اُمّ أمير المؤمنين، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق، فقالت:

«يا ربّ إنّي مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وانّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، وأنّه بنىٰ البيت العتيق فبحقّ الّذي بنىٰ هٰذا البيت، وبحقّ المولود الّذي في بطني.. إلّا ما يسّرت عليّ ولادتي».

فرأينا البيت قد انشقّ عن ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا وعاد الىٰ حاله. فرمنا أنْ ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا اَنّ ذٰلك من أمر اللّٰه تعالىٰ»[٢].

ورواه الطوسي في «أماليه» بسنده عن الصادق عليه‌السلام عن آبائه، قال: «كان العباس بن عبدالمطّلب ويزيد بن قعنب جالسين ما بين فريق من بني هاشم الىٰ فريق من عبدالعزّىٰ، بإزاء بيت اللّٰه الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد حاملة بأمير المؤمنين.. فوقفت بإزاء البيت الحرام ـ وقد أخذها الطلق ـ فرمت بطرفها نحو السماء ودعت.. فلمّا دعت رأينا البيت قد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا ثمّ عادت الفتحة والتزقت بإذن اللّٰه..

---

(١) الفصول المهمة: ١٤.

(٢) امالي الصدوق: ١١٤ وعلل الشرائع ١: ١٦٤. ومعاني الأخبار: ٦٢.

وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام، وأهل مكّة يتحدثون بذلك في أفواه السكك، وتتحدث المخدّرات في خدروهن. فلمّا كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الّذي كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعليّ علىٰ يديها»[١].

وروىٰ الفتّال النيسابوري في «روضة الواعظين» خبراً مختصراً عن علي بن الحسين عليهما السلام قال:

«إنّ فاطمة بنت أسد، ضربها الطلق وهي في الطواف، فدخلت الكعبة، فولدت أمير المؤمنين فيها»[٢].

وفي آخر خبر موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: «فولدت علياً في الكعبة، طاهراً مطهّراً لم يكن فيه كثافة (كذا) وولد مختوناً مقطوع السرة، ووجهه يضيء كالشمس، فسمّاه أبو طالب علياً، وحمله النبي وأتىٰ به الىٰ البيت»[٣].

وفي عام الولادة قال صاحب مجلة «العمران» المصرية: عبد المسيح الانطاكي: «وعام مولده عليه صلوات الله هو العام المبارك الّذي بدىء فيه برسول الله صلى الله عليه وآله، فأخذ يسمع الهتاف من الأحجار والأشجار ومن السماء، وكشف عن بصره فشاهد أنواراً واشخاصاً، وفي هٰذا العام إبتدأ بالتبتل والإنقطاع والعزلة في جبل حراء. وكان صلى الله عليه وآله ييمّن بذٰلك العام وبولادة سيدنا علي عليه السلام، وكان يسميه «سنة الخير والبركة».

وعندما بلغته البشرىٰ بولادة المرتضىٰ قال المصطفىٰ:

---

(١) أمالي الطوسي: ٧٠٦ بثلاثة طرق ورواه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥٩ عنه عليه السلام مختصراً.

(٢) روضة الواعظين: ١٠٠ ط. قم المقدّسة.

(٣) الفصول المهمة: ١٤.

«لقد ولد لنا الليلة مولود، يفتح اللّٰه علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة» وكان قوله هٰذا أوّل نبؤته، فإنّ المرتضىٰ ـعليه صلوات اللّٰه ـكان ناصره والحامي عنه وكاشف الغماء عن وجهه، وبسيفه ثبت الإسلام ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده»[١].

حلف الفضول:

وانتهىٰ الفجار في شوال، وفي ذي القعدة كان حلف الفضول[٢].

قال اليعقوبي «وكان سبب حلف الفضول: أن قريشاً تحالفت أحلافاً كثيرة علىٰ الحمية والمنعة:

فتحالف المطيّبون؛ وهم: بنو عبد مناف، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو «تيم»، وبنو الحارث بن فهر، علىٰ أن لا يسلموا الكعبة، ما أقام حِراء، وثبير، وما بلّ بحرٌ صوفة وصنعت عاتكة أو البيضاء بنت عبدالمطّلب طيباً فغمسوا أيديهم فيه (فسمّوا المطيّبين).

---

(١) مجلة العمران المصرية، كما في كتاب: علي وليد الكعبة: ٦١ ولم يعين عدد المجلة ولا سنتها.

علّق الصحافي المصري عبد المسيح الأنطاكي بكلامه هٰذا علىٰ قصيدته «العلوية المباركة» الّتي تحتوي علىٰ خمسة آلاف بيت في حياة أمير المؤمنين عليه السلام من دون أن يستند في ذٰلك الىٰ مصدر من حديث أو تأريخ، وإنْ كان كلامه هٰذا ممّا يساعد عليه الاعتبار بسائر الأخبار المعتبرة.

وعلىٰ المعتبر من الخبر في تأريخ ولادته عليه السلام يكون عمره عند بعثة الرسول صلى الله عليه وآله عشر سنين، وعلىٰ ما رواه الطوسي عن ابن عياش وابن غياث يكون عمره في الثانية عشرة وعلىٰ الأكثر في الثالثة عشرة، وعند إعلان الدعوة وتعميمها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٧٠.

وتحالفت اللعقة؛ وهم: بنو عبد الدار، وبنو مخزوم، وبنو جمح، وبنو سهم، وبنو عدي؛ على أن يمنع بعضهم بعضاً ويعقل بعضهم عن بعض، وذبحوا بقرة فغمسوا أيديهم في دمها، (فسمّوا لَعَقة الدّم، والأحلاف).

فكانت قريش (أي الأحلاف) تظلم في الحرم الغريب ومن لا عشيرة له:

حتّىٰ أتىٰ رجل من بني أسد بن خزيمة بتجارة فاشتراها رجل من بني سهم[١] فأخذها السهميّ وأبىٰ أنْ يعطيه الثمن؛ فكلّم قريشاً واستجار بها وسألها اعانته علىٰ أخذ حقّه فلم يأخذ له أحد بحقّه؛ فصعد الأسدي أبا قبيس فنادىٰ بأعلىٰ صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكّة نائي الأهل والنفر
إنّ الحرام لمن تمّت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغَدِر

وقيل: إنّ الرجل كان قيس بن شيبة السّلمي باع متاعاً من أبي خلف الجمحي وذهب بحقّه، فقال هٰذا الشعر. وقيل: بل قال:

يا آل قُصيّ كيف هٰذا في الحرم ... وحرمة البيت وأخلاق الكرم
أُظلمُ، لا يُمنع منّي من ظَلَم[٢]

فكان أوّل من سعىٰ في ذٰلك الزبير بن عبد المطّلب فمشىٰ في قبائل قريش فاجتمعوا في دار الندوة، وهم: بنو هاشم، وبنو المطّلب، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، فاتفقوا علىٰ أنّهم ينصفون المظلوم من الظالم. ثمّ ساروا الىٰ دار عبد اللّٰه بن جُدعان فتحالفوا هنالك. وقال الزبير ابن عبدالمطّلب في ذٰلك:

---

(١) صرح البلاذري في أنساب الأشراف ٢ : ١٢ وكذٰلك المسعودي أنّه: العاص بن وائل السهمي أبو عمرو بن العاص، ولعلّ الرواة اتّقوه فكنّوا عنه ولم يصرّحوا به. ورواها ابن أبي الحديد ١٥ : ٢٥ عن الزبير بن بكار وزاد في الشعر:

هل منصف من بني سهم فمرتجع ... ما غيبوا، ام حلال مال معتمر

(٢) اليعقوبي ٢ : ١٧.

حلفت لنعقدَنْ حلفاً عليهم ‏ ‏ ‏ وان كنّا جميعاً أهل دار
نسمّيه الفضول إذا عقدنا ‏ ‏ ‏ يَعُزّ به الغريب لدىٰ الجوار
ويعلم مَن حوالي البيت أنّا ‏ ‏ ‏ أُباة الضّيم نهجر كلّ عار[١]

ثمّ انصفوا الرجل التاجر الغريب من القرشي العاص بن وائل السهمي[٢].

فروىٰ ابن اسحاق بسنده عن رسول اللّه ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ أنّه كان يقول لقد شهدت في دار عبداللّٰه بن جُدعان حلفاً ما أُحبّ أنّ لي به حمرَ النّعم، ولو أُدعىٰ به في الإسلام لأجبت»[٣].

ثمّ روىٰ: أنّه كان بين الحسين بن علي عليه‌السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير علىٰ المدينة أمّره عليها عمّه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المَرْوَة ـ قرية بوادي القرىٰ ـ فكان الوليد تحامل علىٰ الحسين عليه‌السلام في حقّه، فقال له الحسين: أحلف باللّه لتنصفنّي من حقّي أو لآخذنّ سيفي ثمّ لأقومن في مسجد رسول اللّه، ثمّ لأدعونّ بحلف الفضول!.

وكان عبداللّٰه بن الزبير عند الوليد فقال: وأنا أحلف باللّه لئن دعا به لآخذنّ سيفي ثمّ لأقومنّ معه حتّىٰ يُنصف من حقه او نموتَ جميعاً!.

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧١. الطبقات الكبرىٰ ١ : ١٢٩ ط بيروت.
(٢) البداية والنهاية ٢ : ٢٩٢ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٢ وسيرة دحلان ١ : ٥٣.
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ١٤١ وأنساب الأشراف ٢ : ١٢ ـ ١٥ بخمسة طرق وألفاظ متقاربة واليعقوبي ٢ : ١٧ والبداية والنهاية ٢ : ٢٩٣ وتأريخ الخميس ١ : ٢٦١ والسيرة الحلبية ١ : ١٣١ والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥٣ وروىٰ البلاذري انّه قدم مكّة رجل تاجر من خثعم ومعه ابنة له يقال لها: القتول، فعلقها نبيه بن الحجاج السّهمّي فلم يبرح حتّىٰ نقلها الىٰ منزله بالقهر والغلبة! فدلّ أبوها علىٰ أهل حلف الفضول فأتاهم فأخذوها من نبيه ودفعوها الىٰ أبيها (أنساب الأشراف ٢ : ١٤).

وبلغ هٰذا المِسوَر بن مَخرَمة بن نوفل الزُهري فقال مثل ذٰلك!.

وبلغ ذٰلك الىٰ عبدالرحمن بن عثمان التيمي فقال مثل ذٰلك!.

فلمّا بلغ ذٰلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتّىٰ رضي عليه السلام[1] ثمّ روىٰ: أن محمّد بن جبير بن مُطعم العدوي قدم علىٰ عبدالملك بن مروان ـ وكان محمّد بن جبير أعلم الناس بقريش ـ فقال له عبدالملك: يا أبا سعيد ألم نكن نحن وانتم ـ يعني بني عبد شمس وبني نوفل ابن عبد مناف ـ في حلف الفضول؟ قال: أنت أعلم، قال عبدالملك: لتخبرنّي يا أبا سعيد بالحق من ذٰلك. فقال: لا واللّٰه، لقد خرجنا نحن وأنتم منه! قال: صدقت[2].

وقد روىٰ أبو هلال العسكري الخبر الّذي رواه ابن اسحاق عن تحامل الوليد علىٰ حقّ الإمام الحسين عليه السلام في أرض له بذي المروة، علىٰ غير مارواه ابن اسحاق، فقال: كان بين الحسين عليه السلام وبين معاوية كلام في أرض للحسين. فقال الحسين لابن الزبير: خيرّه في ثلاثة والرابعة الصّيلم ـ أي الصّدام المسلّح ـ: أن يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه، أو يشتريه منّي، أو يقرّ بحقّي ثمّ يسألني أن أهبه له، فإن أبىٰ فوالذي نفسي بيده لأهتفنّ بحلف الفضول[3].

وليس مفاد نداء ابن الزبير بحلف الفضول الىٰ جانب الإمام الحسين عليه السلام أنّه كان وفيّاً مخلصاً في ذٰلك، بل كان الىٰ معاوية وعامله الوليد أقرب منه الىٰ الحسين عليه السلام، ولكنّه كان يتعزّز بهٰذا وأمثاله.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٤٢ وأنساب الأشراف ٢ : ١٤ والبداية والنهاية ٢ : ٢٩٣ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٢ والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥٣ والكامل لابن الأثير ٢ : ٤٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٤٣ والبلاذري في أنساب الأشراف ٢ : ١٤ عن الواقدي والكلبي وشرح النهج للمعتزلي ١٥ : ٢٢٧ عن الزبير بن بكار.

(٣) الأوائل ١ : ٧٣، ٧٤.

فقد جاء في رواية لأبي الفرج: أنّ معاوية قدم المدينة فلم يزره الإمام الحسين عليه‌السلام فأظهر معاوية انزعاجه من ذلك، فأغراه به ابن الزبير! فلم يستجب له معاوية، فقال له ابن الزبير: أما والله اني وإياه ليد عليك بحلف الفضول! فقال له معاوية: من أنت وحلف الفضول(١)؟!

وممّا ورد في قدوم محمّد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان وسؤاله منه عن دخول بني عبد شمس في حلف الفضول، يظهر أنّهم كانوا بصدد تقرير هذا المعنى على الناس، ولذلك روى راويتهم أبو هريرة: أنّ بني أُمية كانوا في حلف الفضول، وأنّ أبا سفيان كان ممّن دعا الناس اليه مع العباس بن عبد المطّلب، ولعلّ حشر العباس معه لتبعيد التهمة عن الرواية. وإنْ كان لم يتابعه عليه أحد بل أنكره غير واحد من المؤرِّخين(٢).

وقد قرر غير واحد من المؤرِّخين أنّ سببه كان عصيان العاص بن وائل السهمي على الرجل التاجر الغريب وحبسه حقّه، وقد سبق أنّ بني سهم وبني عبد شمس كانوا من الأحلاف في لعقة الدّم، فيكون معنى دعوة أبي سفيان اليه ودخول بني أُمية فيه أنّهم دخلوا في حلف خلاف حلف الأحلاف في لعقة الدّم، وهذا ما لم يقله أحد.

وقد روى ابن اسحاق عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: ما كان من حلف في الجاهلية فإنّ الإسلام لم يزده إلّا شدة(٣).

---

(١) الأغاني ٨: ١٠٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي. والبداية والنهاية ٢: ٢٩١ والسيرة الحلبية ١: ١٣١ والسيرة النبوية لدحلان ١: ٥٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١: ١٤٠ وعن الترمذي ٤: ١٤٦ وفتح الباري ٨: ١٧٣ والمصنف للحافظ عبد الرزاق ١٠: ٣٧٠ وفي هامشه عن مسلم والدارمي.

وروىٰ ابن منظور هٰذا الحديث في «لسان العرب» فقال: يريد المعاقدة علىٰ الخير ونصرة الحقّ، وبذا يجتمع هٰذا الحديث وحديث آخر له هو «لا حلف في الإسلام» علىٰ أنْ يكون المراد من هٰذا الحديث الثاني النهي عمّا كانت تفعله الجاهلية من المحالفة علىٰ الفتن والقتال بين القبائل والغارات.

وقيل: إنّ الحديث الثاني وهو «لا حلف في الإسلام» جاء لاحقاً، قاله الرسول ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ زمن الفتح، فهو ناسخ للحديث الأوّل[1].

ولعلّ خصوصية بعد الفتح أنْ يشمل إمضاؤه صلى الله عليه وآله في هٰذا الحديث للحلف الّذي كان قد عقده جدّه عبد المطّلب مع جمع من خزاعة، فلمّا قتلت قريش عدداً من خزاعة استنصروا النبيّ استناداً اليه فكان فتح مكّة مستنداً اليه.

وهٰذا يدلّ علىٰ أنّ الإسلام بما أنّه مع مقتضيات العقل والفطرة الطبيعية الإنسانية لذٰلك يستجيب لكلّ ما ينسجم مع أهدافه السامية ممّا فيه خير الانسان وصلاحه. وقد أمضىٰ هٰذين الحلفين من عبد المطّلب مع خزاعة، والزبير في حلف الفضول لما فيهما من الفضل والعدل، ولو كان هناك أي حلف آخر ينسجم مع أهدافه لأمضاه كذٰلك. أمّا ما رووه عنه صلى الله عليه وآله ممّا يدلّ علىٰ لزوم التمسك بكلّ الأحلاف الجاهلية فإنّما هي دعوة خبيثة مريضة في أغراضها اللّا إسلامية.

أمّا عن علل استجابة من استجاب لهٰذا الحلف فبإمكاننا أنْ نعدّ ثلاثة عوامل:

أ ـ استجابة لنداء الوجدان الاخلاقي الانساني والدافع الفطّري وحكم عقولهم.

---

(١) لسان العرب مادة حلف، وعنه في هامش سيرة ابن هشام ١ : ١٤٠.

ب ـ حفاظاً علىٰ قدسية مكّة المكرمة وكرامة أهلها في نفوس العرب أي ثأراً لكرامتهم.

ج ـ دفاعاً عن منافعهم ومصالحهم المادية في قوافلهم ورحلاتهم التجارية ووفود العرب اليهم.

رعي النبي صلى الله عليه وآله للغنم:

لم يروَ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرعىٰ الأغنام، اللهم اِلّا ما رواه الشيخ الصدوق في (علل الشرائع)، بسنده الىٰ الامام الصادق عليه السلام أنّه قال «ما بعث اللّٰه نبيّاً قطّ حتّىٰ يسترعيه الغنم، يعلّمه بذٰلك رعيه الناس» وأيضاً فيه عنه عليه السلام قال: «إنّ اللّٰه عزّوجلّ أحبّ لأنبيائه من الأعمال: الحرث والرعي، لئلا يكرهوا شيئاً من قطر السماء»[1] ورواه الكليني في (فروع الكافي) هٰكذا «إنّ اللّٰه جعل أرزاق أنبيائه في الزرع والضرع، لئلا يكرهوا شيئاً من قطر السماء»[2].

ورواه البخاري بسنده الىٰ أبي هريرة عنه أنّه كان يقول «ما بعث اللّٰه نبياً إلّا رعىٰ الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرعاها علىٰ قراريط، لأهل

---

(١) علل الشرائع: ٤٦ ط. بيروت.

(٢) فروع الكافي ١: ٤٠٣ أضف الىٰ ذٰلك ما رواه الطبري في تأريخه بسنده عن محمّد ابن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام قال: «سمعت رسول اللّٰه يقول: «قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعىٰ معي بأعلىٰ مكّة ـ لو أبصرت لي غنمي حتّىٰ أدخل مكّة ـ» (الطبري ٢: ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد في شرح النهج).

وأضف اليه مانقله الشيخ الطبرسي في «إعلام الورىٰ» عن علي بن ابراهيم القمّي في كتابه قال: «وكان بين الجبال يرعىٰ غنماً لأبي طالب» (اعلام الورىٰ ١: ١٠٢ والمناقب ١: ٤٣ وليس في تفسيره).

مكّة»[١] وبما أنّ الخبر مشتمل علىٰ جملة «لأهل مكّة» لذٰلك ذكره البخاري في كتاب الإجارة، ولذٰلك فسروا القراريط بأنّها: أجزاء الدراهم والدنانير يشترىٰ بها الحوائج الحقيرة!

ولكن في شرح الحديث في (فتح الباري) نقل عن إبراهيم الحربي أنّه كان يقول: إنّ العرب ما كانت تعرف القراريط، وانّما هي اسم لمكان في مكّة. ويؤيد هٰذا أنّ لفظ الخبر في بعض رواياته: بالقراريط، وفي أُخرى: بأجياد، ممّا يفيد أنّ القراريط وأجياداً اسم لمكان واحد او متداخل او متقارب. ولا يضّر لفظ: علىٰ قراريط، إذ هو اسم جبلٍ كما نقله الطريحي في (المجمع) عن الجوهري قال «وأما القيراط الّذي جاء في الحديث فقد جاء تفسيره فيه: أنّه مثل جبل أُحد» فيكون المعنىٰ: أنّه صلى الله عليه وآله قد رعىٰ الغنم علىٰ ذٰلك الجبل بأجياد، وهٰذا هو الأوفق بالاعتبار فانّ الرعي لا يكون في سهل مكّة في البلد.

وحاول بعضهم أنْ يوجّه فهم البخاري للحديث بما نقل في (فتح الباري) عن بعضهم قولهم: لا يعرف مكان في مكّة بهٰذا الاسم. وردّه السيد المرتضىٰ العاملي بقوله: إنّ عدم معروفيته الان لا يستلزم عدم معروفيته في ذٰلك الزمان[٢].

فلا يبقىٰ إلّا أنْ نشك قوياً في أنْ يكون صلى الله عليه وآله قد رعىٰ لغير أهله بأجر، ولا يجدي البخاري لفظ روايته عن أبي هريرة: لأهل مكّة، فإنّ بعضها يقول: لأهلي.

وإذا كان الراوي هو أبو هريرة فلم يبق ما يعيّن معنىٰ إجارة رسول اللّٰه نفسه لأهل مكّة.

علىٰ أنّ أبا هريرة ممّن لا يمكن الاعتماد عليه أصلاً.

---

(١) فتح الباري وبهامشه البخاري ٤: ٣٦٣ وعنه في السيرة الحلبية ١: ١٢٥ وسيرة دحلان ١: ٥١.

(٢) الصحيح ١: ١٠٩.

هٰذا، وقد روىٰ اليعقوبي وابن كثير عن عمّار بن ياسر أنّه قال: «أنّه ما كان أجيراً لأحد قط»[١].

وقد تقوّل في (فتح الباري) شرحاً لفلسفة رعيه للغنم، وتبعه بعض كتّاب السيرة كالحلبي وزيني دحلان[٢] ولا نراه يتفق والقواعد العقائدية بشأن الأنبياء والمرسلين. فإنْ صحّ رعيه للغنم أصلاً ـ وهو الصحيح ـ فلا علة له سوىٰ ما جاء في رواية الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام، في كتابه (علل الشرائع).

ويمكن تفصيل ذلك التعليل بما نقله السيد المرتضىٰ العاملي من قول البعض: إنّ الرعي فيه تحمل مسؤولية آحاد متفرقة، وهو يناسب المهمة الّتي سوف توكل اليه، الأمر الّذي من شأنه أنْ يروِّض النفس ويزيدها اندفاعاً نحو طلب الخير للآخرين من رعايته لهم والحرص علىٰ ما ينفعهم. وقد كان اللّٰه تعالىٰ يهتم في رفع مستوىٰ تحمّل وملكات وقدرات نبيّه ليواجه المسؤولية العظمىٰ، ولكنْ بالطرق العادية والطبيعية، كما هو معلوم»[٣].

السفر الثاني للنبي صلى الله عليه وآله الىٰ الشام، وزواجه بخديجة:

روىٰ القطب الراوندي في كتابه (الخرائج والجرائح)، عن جابر[٤] أنّه قال: كان سبب تزويج خديجة محمّداً: أنّ أبا طالب قال: يا محمّد: إني أُريد أنْ أُزوّجك،

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٢١. والبداية والنهاية : ٢٩٦.

(٢) فتح الباري ٤ : ٣٦٤ وسيرة دحلان ١ : ٥١ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٦ وقال فيه : انّ رعي الغنم صعب لأنه أصعب البهائم، وهو يوجب أن يستشعر القلب رأفة ولطفاً؛ فاذا انتقل الىٰ رعاية البشر كان قد هذّب أوّلاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي!.

(٣) الصحيح ١ : ١١٠.

(٤) جابر خزرجي من أنصار المدينة، فلم يكن حاضراً يومئذٍ، ولم يسند خبره إلى أحد قبله، فهو مرسل.

ولا مال لي اساعدك به، وإنّ خديجة قرابتنا، وتخرج كلّ سنة قريشاً في مـالها مـع غلمانها، يتجرّ الرجـل لها ويأخذ وقر بعير ممّا أتىٰ به. فهل لك أن تخرج ؟ قال : نعم.

فخرج أبو طالب اِليها وقال لها ذٰلك، ففرحت وقالت لغلامها ميسرة : أنت وهٰذا المال كلّه بحكم محمّد صلى الله عليه وآله.

وربحا في ذٰلك السفر ربحاً كثيراً. فلمّا انصرفا قال ميسرة : لو تقدمت يا محمّد الىٰ مكّة وبشّرت خديجة بما قـد ربحنا لكان أنفع لك ! فتقدّم محمّد علىٰ راحلته.

وكانت خديجة في ذٰلك اليوم جالسة في غرفة لها مع نسوة، فظهر لها محـمّد راكباً، ونظرت خديجة الىٰ غمامة عالية علىٰ رأسه تسير بسيره !. فقالت : إنّ هٰـذا الراكب لشـأناً عظيماً ليته جاء الىٰ داري ! فإذا هو محمّد قاصـد الىٰ دارها، فنزلت حافية الىٰ باب الدار ! فلمّا رجع ميسرة حدّث : أنّه مـا مرّ بشجرة ولا مـدرة اِلّا قالت : السلام عليك يا رسول اللّٰه ! ولمّا رأىٰ بَحيرا الراهب الغمامة تسير علىٰ رأسه حيثما سار تظلله النهار، خدَمَنا[1].

فقالت : يا محمّد اخرج واَحضرني عمّك أبا طالب الساعة.

ثمّ بعثت الىٰ (ابن[2]) عمّها ورقة بن نوفل بن أسد : أن زوّجني من محمّد اذا دخل عليك.

فلمّا حضر أبو طالب قالت : أُخرجا الىٰ (ابن) عمّي ليزوجني من محمّد، فقد قلت له في ذٰلك.

فقاما ودخلا علىٰ (ابن) عمّها، وخطبها أبو طالب منه[3].

---

(١) كذا، فهل كان بحيرا في السفرتين وبينهما (١٥) عاماً ! وكذلك الغمام !

(٢) فيه وفي الكافي ٥ : ٣٧٥ والسيرة الحلبية ١ : ١٢٩ أنّ ورقة كان عمّ خـديجة، وهـو غـير صحيح لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن أسد وخديجة هي بنت خويلد بن أسد، فهما ابنا عم.

(٣) الخرائج والجرائح ١ : ١٤٠ الحديث ٢٢٧ بتصرف، وعنه في بحار الأنوار ١٦ : ٣ ـ ٤.

الخاطب أبو طالب:

وروى الكـليني في (فروع الكافي) بسنده عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّه قال:

لمّا أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتزوج خديجة بنت خويلد، أقبل أبو طـالب في أهل بيته ومعه نفر من قريش حتّىٰ دخل علىٰ ورقة بن نوفل (ابن) عـمّ خـديجة، فابتدأ أبو طالب بالكلام فقال:

«الحمد لربّ هٰـذا البيت، الّذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريـة إسماعـيل، وأنزلنا حرماً آمناً، وجـعلنا الحكّـام عـلىٰ النـاس، وبـارك لنـا في بـلدنا الّـذي نحن فيه.

ثمّ إنّ ابـن أخي هٰذا ـ يعني رسول الله ـ لا يوزن برجل من قريش إلّا رجح، ولا يقاس بأحد منهم إلّا عظم عنه، ولا عِدل له في الخلق، وان كـان مُقلاً في المال، فإنّ المال رفد جار وظل زائل. وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة. وقـد جـئناك لنخطبها اليك برضاها وأمرها. والمهر عليّ في مالي، الّذي سألتموه، عاجله وآجله. وله ـ وربّ هٰذا البيت ـ حظّ عظيم ودين شائع ورأي كامل» ثمّ سكت أبو طالب.

فتكلّم ابن عمّها وتلجلج، وقصر عـن جواب أبي طـالب وأدركـه القـطع والبَهر، وكان رجلاً من القسّيسين[1].

---

(١) وعليه فلا يصح ما رواه في بحار الأنوار ١٦ : ١٩ عن الكـازروني في كـتابه (المـنتقىٰ) عـن الواقدي قال: فلمّا أتمّ أبو طالب خطبته تكلّم ورقة بن نوفل فقال: «الحمد للّه الّذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا علىٰ ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذٰلك كلّه، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم. وقد رغبنا بالاتصال بحـبلكم وشرفكم. فاشهدوا عليّ ـ معاشر قريش ـ بأنّي قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله علىٰ أربعمائة دينار» ثمّ سكت ورقة.

⟵

فقالت خديجة مبتدئة : يا (ابن) عمّاه انّك وإنْ كنت أولىٰ بنفسي منيّ في (الغياب) فلست أولىٰ بي من نفسي في الشهود. قد زوّجتك يا محمّد نفسي، والمهر عليَّ في مالي، فأمر عمّك فلينحر ناقة فليولم بها، وادخل علىٰ أهلك.

فقال أبو طالب : اشهدوا عليها بقبولها محمّداً، وضمانها المهر في مالها.

فقال بعض قريش : وا عجباه! المهر علىٰ النساء للرجال ؟!

فغضب أبو طالب غضباً شديداً وقام علىٰ قدميه وقال : اذا كانوا مثل ابن أخي هٰذا طُلبت الرجال بأغلىٰ الأثمان وأعظم المهر، واذا كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلّا بالمهر الغالي!

ونحر أبو طالب ناقة. ودخلَ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بأهله[1].

من تولّىٰ تزويج خديجة؟!

وروىٰ الصدوق في : (كتاب من لا يحضره الفقيه) مرسلاً : أنّه لمّا تزوج النبيّ خديجة بنت خويلد خطبها أبو طالب إلىٰ أبيها ـ ومن الناس من يقول الىٰ عمّها ـ ثمّ روىٰ الخطبة ثمّ قال : فتزوجها ودخل بها من الغد، فكان أوّل ما حملت ولدت عبداللّٰه بن محمّد صلى الله عليه وآله[2].

← وتكلّم أبو طالب وقال : قد احببت أن يشركك عمّها، فقال عمّها : اشهدوا عليَّ ـ يا معشر قريش ـ أني قد أنكحت محمّد بن عبداللّٰه خديجة بنت خويلد، وشهد عليَّ بذٰلك صناديد قريش. فأمرت خديجة جواريها أنْ يرقصن ويضربن بالدفوف! وقالت : يا محمّد مر عمّك أبا طالب ينحر بكرة من بكراتك واطعم الناس علىٰ الباب! وهلمّ فنم القيلولة مع أهلك!.

(١) بحار الأنوار ١٦ : ١٣، ١٤ عن فروع الكافي ٥ : ٣٧٤.

(٢) بحار الأنوار عن كتاب من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٩٧ ح ٤٣٩٨ وروى الخطبة الطبرسي في إعلام الورىٰ : ١٤٠ وابن شهر آشوب في المناقب ١ : ٤١، ٤٢ عن الجويني في السيرة ←

وروىٰ ابن اسحاق في سيرته : أنّ خديجة بنت خويلد عرضت علىٰ رسول الله أن يخرج في مالها الىٰ الشام تاجراً مع غلامها ميسرة، فقبل رسول الله وخرج حتّىٰ قدم الشام، فباع سلعته واشترىٰ ما أراد، ثمّ أقبل قافلاً إلىٰ مكّة ومعه ميسرة، فلمّا قدم مكّة علىٰ خديجة حدّثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يرىٰ من إظلال الملكين إياه.

فلمّا أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت الىٰ رسول الله فقالت له : يابن عمّ، إنّي قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِكَ في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثمّ عرضت عليه نفسها.

فلمّا قالت ذٰلك لرسول الله ذكر ذٰلك لأعمامه. فخرج معه عمّه حمزة ابن عبد المطّلب حتّىٰ دخل علىٰ خويلد بن أسد، فخطبها اليه فتزوجها[1].

بل مرّ أنّ الّذي نهض معه صلى الله عليه وآله هو أبو طالب، وهو الّذي خطب خطبة النكاح، وكان أسنّ من حمزة، وهو الّذي كفل محمّداً، فلم يكن حمزة ليتزعم الأمر دون أبي طالب، وأبو طالب هو أخو عبد الله لأمّه دون سائر إخوانه أبناء عبد المطّلب. وحمزة لا يكبر النبي إلّا بسنتين أو أربع.

وانفرد ابن إسحاق بأنّ خويلداً أبرم هٰذا الزواج، أمّا غير ابن إسحاق

← عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي، وعن ابن بطة في الابانة، وعن الزمخشري في ربيع الابرار وفي تفسيره، وعن الخركوشي في شرف المصطفىٰ وروىٰ الخطبة اليعقوبي في تأريخه عن عمّار بن ياسر ٢ : ٢٠ والأوائل ١ : ١٦٢. والسيرة الحلبية ١ : ١٣٩.

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٩ـ ٢٠١ وليس في سيرة ابن هشام ما رواه الحلبي في سيرته ١ : ١٣٨ عن ابن إسحاق : أنّ خديجة قالت له : يا محمّد اَلا تتزوج ؟ قال من ؟ قالت : أنا ! قال : ومن لي بك ؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش ! وتردّه الأخبار المعتبرة في الباب سيّما ما في خطبة أبي طالب من نعت النبيّ صلى الله عليه وآله وبني هاشم.

فقد ذكروا أنّ خويلداً كان قد قُتل في حرب الفجار أو مات في عامه[١] وأنّ الّذي زوج خديجة ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد كما مرّ، أو عمّها عمرو بن أسد[٢]، أو أخوها عمرو بن خويلد بن أسد، كما في (الروض الأُنف) و(شرح المواهب).

خديجة تعرض نفسها علىٰ النبي صلى الله عليه وآله:

وجـاء في رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر ما يفيد أنّ خبر سفر النبيّ بأموال خديجة الىٰ الشـام وأنّ خديجة احبّته حيث حدّثها غلامها ميسرة بأخباره، وأنّها بعثت الىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله فعرضت نفسها عليه... كان هٰذا قد شاع في الناس يـومذاك فكانوا يقولون: إنّها استاجرته بشيء من أموالها، وكان عمّار بن ياسر يقول «أنا أعلم الناس بتزويج رسول اللّٰه خديجة بنت خويلد... إنّه ما كـان ممّا يقول الناس انّها استأجرته بشيء، ولا كان اجيراً لأحد قط...

بل كنّا نمشي يوماً بين الصفا والمروة إذ بخديجة بنت خويلد واختها هالة، فلمّا رأت رسول اللّٰه جاءتني هالة اختها فقالت: يا عمّار ما لصاحبك حاجة في خديجة؟

---

(١) الخبر في طبقات ابن سعد ١ : ١٣٢، ١٣٣ عن الواقدي قال: الثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم من حديث عروة بن الزبير عن عائشة، وعن عكرمة عن ابن عباس: أنّ عمّها عمرو بن أسد زوّجها رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه [وآله] وسلّم وأنّ أباها مات قبل الفجار. وذكـره الطبري ٢ : ٢٨٢. والكامل ١ : ٢٥ ونقل أصل خبر وفاته في عام الفجار المجلسي في البحار ١٦ : ١٩ عن الكازروني في المنتقىٰ عن الواقدي أيضاً. وذكر الخبر اليعقوبي ٢ : ٢٠. وتأريخ الخميس ١ : ٢٦٤. والسيرة الحلبية ١ : ١٣٨. وكشف الغمّة ٢ : ١٣٩ عن كتاب معالم العترة النبوية للجنابذي الحنبلي عن ابن عباس أيضاً. وذكر الطبرسي مثل ابن إسحاق في إعـلام الورىٰ ١ : ٢٧٤ ثمّ قال: وقيل: زوّجها عمّها عمرو بن أسد.

(٢) المصادر السابقة في الهامش ١.

قلت : واللّٰه ما أدري. فرجعت فذكرت ذلك له، فقال : ارجع فواضعها وعدها يوماً نأتيها فيه، ففعلت.

فلمّا كان ذلك اليوم أرسلت الىٰ عمرو بن أسد (عمّها) وطرحت عليه حِبَراً ودهنت لحيته بدهن أصفر...

ثمّ جاء رسول اللّٰه في نفر من أعمامه، يتقدّمهم أبو طالب، فخطب أبو طالب فقال. ثمّ روىٰ الخطبة المذكورة ثمّ قال : فتزوجها وانصرف[١].

هٰذا، ولم يرد لفظ الاستيجار فيما نعلم من الأخبار إلّا في أخبار ثلاثة :

الأوّل : ما رواه الصدوق في (إكمال الدين) بسنده الىٰ بكر بن عبد اللّٰه الأشجعي عن آبائه : أن رفاق رسول اللّٰه في سفره الىٰ الشام قالوا لابي المويهب الراهب عنه : إنّه يتيم أبي طالب أجير خديجة[٢].

ورواه ابن شهر آشوب في (المناقب)[٣] ولعلّه عنه.

الثاني : ما ساقه ابن شهر آشوب في «المناقب» أيضاً قال : كانت خديجة قد استأجرت النبي ﷺ علىٰ أن تعطيه بكرين ويسير مع غلامها ميسرة الىٰ الشام[٤].

الثالث : ما رواه الدّولابي الحنفي في «الذرية الطاهرة» بسنده عن الزهري قال : لمّا استوىٰ رسول اللّٰه وبلغ أشدّه ـ وليس له كثير مال ـ استأجرته خديجة

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٢٠ والبداية والنهاية : ٢٩٥. ونقل الخبر محقق البحار المرحوم الرباني الشيرازي بهامش البحار ١٦ : ١٩ وعلّق عليه يقول : «قلت : فيها غرابة وشذوذ، ولم يرد ذلك من طرق الإمامية بل ورد من طريق لا يعتمد عليه» وذلك لأنّه يشتمل علىٰ أنّ خديجة سقته ذلك اليوم، أي الخمر، فلمّا أصبح أنكر ثمّ أمضاه!

(٢) كمال الدين : ١٨٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤١.

ـبنت خويلد الىٰ سوق حُباشة ـوهو سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش. فقال رسول اللّٰه: ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة(١) ورواه الطبري في تأريخه عن ابن سعد صاحب الطبقات بسنده عن الزهري أيضاً، لكنّه عقّبه يقول: «قال محمّد بن سعد: قال الواقدي: فكلّ هٰذا مخلط»(٢).

هل كان النبيّ صلى الله عليه وآله أجيراً لخديجة أو مضارباً؟

ولئن كان ما افتتحنا به الفصل من خبر (الخرائج) عن جابر لا يعيّن نوع المعاملة وانّما يقول «يتّجر الرجل لها ويأخذ وقر بعير ممّا أتىٰ به» ممّا هو أعمّ من الإجارة والوكالة والمضاربة؛ فانّ ما جاء في التفسير المنسوب الىٰ الإمام الحسن العسكري عن أبيه الهادي عليه السلام يصرّح بذٰلك فيقول: انّ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله كان يسافر الىٰ الشام مضارباً لخديجة بنت خويلد(٣) وكذٰلك ابن اسحاق يقول: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات مال وشرف، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه(٤).

---

(١) الذرية الطاهرة: ٤٩ ورواه الاربلي في كشف الغمّة ٢: ١٣٥، ١٣٦ عن كتاب «معالم العترة النبوية» للجنابذي الحنبلي بسنده عن الزهري أيضاً. وذكر مثله الطبرْسي في إعلام الورىٰ ١ : ٢٧٤.

(٢) الطبري ٣ : ٢٨١، ٢٨٢.

(٣) التفسير المنسوب الىٰ الإمام العسكري عليه السلام : ١٦ كما في بحار الأنوار ١٧ : ٣٠٨.

(٤) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٩ ورواه عنه الطبري ٢ : ٢٨٠ وعنه الجنابذي الحنبلي في معالم العترة النبوية كما في كشف الغمّة ٢ : ١٣٤. وعلّق المحقق في سيرة ابن هشام يقول: المضاربة المقارضة. وقال الإمام الخميني في تحرير الوسيلة ١ : ٦٠٨ «وتسمّىٰ المضاربة قراضاً، وهي عقد واقع بين شخصين علىٰ أن يكون رأس المال في التجارة لأحدهما والعمل من الآخر، ولو حصل ربح يكون بينهما» ولعلّ الأمر قد التبس علىٰ المحقق.

وعلىٰ هٰذا فقد يكون سفره ﷺ الىٰ الشام لا لكونه أجيراً لخديجة، بل مضارباً بأموالها.

ومجمل القول: إنّ رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر تنفي أنْ يكون النبيّ أجيراً لأحد حتّىٰ خديجة، كما تنفي أنْ يكون قد رعىٰ الغنم لأحد من المكيين، كما ادّعي عن أبي هريرة.

والعمل لا يتنافىٰ مع العبقريات والنبوات، ولا يضع من شأن الانسان مهما كان، بل هو من أفضل الطاعات اذا كان في سبيل العيال والأولاد وخير الناس، ولكنّ تأريخ محمّد منذ ولادته الىٰ أنْ بلغ سنّ الرجولة وأصبح زوجاً لخير امرأة عرفها تأريخ المرأة، ومواقف جدِّه ثمّ عمّه والمراحل الّتي عاش فيها معهما عزيزاً موفور الكرامة، لا يفارقهما في ليل أو نهار، يبذلان في سبيل راحته واطمئنانه الغالي والنفس، من تتبّع ذٰلك وأدرك أنهما منذ طفولته كانا يترقبان له مستقبلاً يهز العالم من أقصاه الىٰ أقصاه ويحدث تحولاً في تأريخ البشرية، وأنهما كانا يخافان عليه دعاة الأديان وطواغيت العرب.. لابدّ وأن يقف علىٰ أقل التقادير موقف المشكك من تلك المرويات الّتي تنصّ علىٰ أنّه كان يرعىٰ الغنم للمكيين بالقراريط، ويذهب بعد ذٰلك أجيراً الىٰ الشام في تجارة خديجة بقسم من الأرباح، سيّما بعد رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر أنّه لم يكن أجيراً لأحد من الناس، وأنّ زواجه من خديجة لم يكن مسبوقاً بمعاملة بينهما، بل كان بناءً علىٰ رغبتها بعد أن وجدت فيه الرجل الّذي يمكن أنْ ترتاح اليه، وقد بلغت الأربعين، وأشراف قريش يطمعون في زواجها بالطمع في ثرائها. أمّا محمّد بن عبد اللّٰه ﷺ فقد وجدت فيه حسب المعلومات الّتي توفرت لديها عنه ضرباً آخر من الرجال لا تستغويه متعة الدنيا، فطلبته الىٰ نفسها وأرسلت اليه من يشجعه علىٰ خطبتها من عمّها أو ابن عمّها.

وليس بغريب علىٰ المرأة الفاضلة كخديجة أنْ تطلب لنفسها محمّد بن عبد الله ﷺ وتفضله علىٰ سادة مكّة وأشرافها، فلقد كان في القمّة في صفاته الّتي لم يعرف العرب لها مثيلاً ماضيهم وحاضرهم. واجتهد خصومه أنْ يجدوا في حياته ولو نزوة تخدش تأريخه المجيد، أو مغمزة منه لنيل جاه أو اصطياد ثروة أو انحراف مع غرائز الشباب الّتي تثور وتتمرد أحياناً علىٰ العقل والخلق والحكمة، فلم يجدوا شيئاً من ذٰلك. وكان قد جمع إلىٰ ذٰلك من صباحة الوجه وجمال التركيب ما لم يتوفر في أحد سواه كما وصفوه:

فقد جاء في رواية عمرو بن شمر عن جابر أنّه قال: قلت لأبي جعفر محمّد بن علي الباقر صف لي رسول الله. قال: كان نبيّ الله أبيض الوجه مشرَّباً بحُمرة، أدعج العينين، مقرون الحاجبين، شثن الأطراف كأن الذهب أُفرغ علىٰ براثنه، عظيم مشاشة المنكبين. اذا التفت التفت جميعاً من شدّة استرساله. سربته سائلة من لُبّته الىٰ سرته كأنها وسط الفضة المصفّاة، وكأن عنقه الىٰ كاهله إبريق فضّة، يكاد أنفه إذا شرب الماء أن يرد الماء. واذا مشىٰ تكفّأ كأنه ينزل من صبب، لم ير مثل نبيّ الله قبله ولا بعده[1].

إذن، فليس بغريب إذا خطبته خديجة لنفسها، وظلّت تشاطره آلامه وتناصره بقلبها وعقلها وما لها حتّىٰ لحقت بربّها قبل هجرته إلىٰ المدينة بسنة أو سنتين عن خمسة وستين عاماً[2].

أوهام واهية:

ولكنْ ليس معنىٰ هٰذا أن نصدّق ما نقله الحلبي في سيرته: أنّه دخل علىٰ

---

(١) الكافي ١: ٤٤٣.

(٢) انظر سيرة المصطفىٰ: ٦٢، ٦٣.

خديجة قبل التزويج، فأخذت يده فضمته الىٰ صدرها![1] كما لا نشكّ في كذب ما نقله: أنّ عمّها كان يأنف من أن يزوّجها من محمّد يتيم أبي طالب فاحتالت عليه هي حتّىٰ سقته الخمر، فزوّجها في حال سكره، فلمّا أفاق ووجد نفسه أمام الأمر الواقع لم يجد بدّاً من القبول[2] ممّا يتناقض وأخلاق الرسول الكريم وخديجة أُمّ المؤمنين، ولا نراه إلّا كذباً موضوعاً لم يُقصد به سوىٰ الحطّ والوضع من كرامة النبيّ الكريم وتنقيصه من قبل أعداء الاسلام أو الحمقىٰ والمغفّلين. ونعوذ باللّه من هٰذا الهراء[3].

وإنّ كون خديجة هي الّتي عرضت نفسها علىٰ النبيّ، وأنّه لم يكن هو الّذي تقدّم بطلب يدها، لخير جواب لِما جاء في كلمات بعض المستشرقين من اتّهام باطل بأنّه ﷺ إنّما تزوج خديجة طمعاً في مالها.

ولم يبق هٰذا التقدير والحبّ من خديجة للنبيّ من طرف واحد، بل قابله النبيّ بالحبّ والتقدير لها في أيام حياتها وبعد مماتها، حتّىٰ لقد كان ذٰلك يثير بعض أزواجه. ويرىٰ الشيخ آل ياسين هٰذا دليلاً آخر علىٰ بطلان هٰذه الدعوىٰ الواهية[4].

بل إنّ حياة النبيّ من بدايتها الىٰ نهايتها لخير شاهد علىٰ أنّه ما كان يقيم للمال أيّ وزن! وقد انفقت خديجة أموالها برغبتها في سبيل اللّه والدعوة الىٰ دينه وليس علىٰ النبي وملذّاته.

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ١٤٠.

(٢) السيرة الحلبية ١ : ١٣٨، ١٤٠.

(٣) انظر الصحيح للسيد المرتضىٰ ١ : ١١٧ـ ١١٩.

(٤) كتاب النبوة : ٦٣.

وهٰكذا تفعل الحرة العاقلة اللبيبة كما فعلت خديجة، فلا تغرها بهرجة الدنيا وزخرفها وزبرجها، ولا تبحث عن المال والشهرة، ولا عن اللذة والشهوة.. وانّما يكون نظرها الىٰ الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، لأنها هي الّتي تسخّر المال والجاه والقوة في سبيل الانسانية[1].

دوافع زواج النبي صلى الله عليه وآله:

والماديّون الّذين ينظرون الىٰ كلّ شيء من ناحية المال والمادة، يزعمون: أنّ خديجة بما أنّها كانت ذات مال تتاجر به، كانت أحوج ما تكون الىٰ رجل «أمين» لإدارة أُمور تجارتها، لذٰلك اندفعت للزواج بمحمّد «الصادق الأمين» وكان النبي صلى الله عليه وآله يعلم بوضعها المالي وحياتها الكريمة لذٰلك قبل خطوبتها مع ما بينهما من تفاوت العمر!

اِلّا أنّ الّذي نراه في التأريخ هو أنّ دوافع خديجة للزواج بالصادق الأمين كانت دوافع معنوية لا مادية، والشاهد لذٰلك:

١ ـ ما رواه ابن اسحاق قال: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ـ ابن عمّها ـ ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرىٰ منه اذ كان الملكان يظلّانه. وكان ورقة نصرانياً قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس فقال لها: لئن كان هٰذا حقّاً يا خديجة فانّ محمّداً لنبيّ هٰذه الامة، وقد عرفت انّه كائن لهٰذه الأُمة نبيّ ينتظر، هٰذا زمانه[2].

٢ ـ اِنّ سبقها الىٰ الايمان بالإسلام ورسالة رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بحيث كانت أوّل امرأة آمنت به، لما يشهد في صفحات التأريخ بأنّ زواجها كان منبعثاً من اِيمانها

---

(١) انظر: الصحيح للسيد المرتضىٰ ١: ١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٠٣.

بطهارة الصادق الأمين، وإنّ حياة خديجة وما ورد بشأنها من الروايات والأحاديث لما يوضّح هٰذا الموضوع بما لا يدع فيه أيّ شبهة، علىٰ من أراد التفصيل في ذٰلك أن يراجع الروايات الواردة في فضلها وفضيلتها.

عمر خديجة ومهرها:

روىٰ الدّولابي في كتابه: «الذريّة الطاهرة» بسنده عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عباس.. ثمّ قال: وبلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تزوّج خديجة علىٰ اثنتي عشرة أُوقية ذهباً، وهي يومئذٍ ابنة ثمان وعشرين سنة[1].

---

(١) الذريّة الطاهرة: ٥٢ وعنه في كشف الغمّة ٢: ١٣٩. وروى الصفّار عن حمّاد بن عيسىٰ قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: قال أبي: ما زوّج رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً من بناته ولا تزوّج شيئاً من نسائه علىٰ أكثر من اثنتي عشرة أُوقيّة ونشّ، يعني نصف أُوقيّة (البحار ٢٢: ١٩٧، ١٩٨ عن قرب الاسناد: ١٠).

وروىٰ الخبر الكليني بسنده عنه قال: سمعته يقول: قال أبي: ما زوّج رسول الله صلى الله عليه وآله ساير بناته ولا تزوج شيئاً من نسائه علىٰ أكثر من اثنتي عشرة أُوقيّة ونشّ. والأُوقيّة: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً.

ثمّ روىٰ عن حمّاد عن ابراهيم بن أبي يحيىٰ عن الصادق عليه السلام قال: وكانت الدراهم وزن ستة يومئذ.

وروىٰ بسنده عن حذيفة بن منصور عنه عليه السلام قال: كان صداق النبيّ صلى الله عليه وآله اثنتي عشرة أُوقيّة ونشّاً، والأُوقيّة: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً، وهو نصف الأُوقيّة.

وروىٰ بسنده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ساق رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ أزواجه اثنتي عشرة أوقيّة ونشّاً، والأُوقيّة: اربعون درهما، والنشّ: نصف الأُوقيّة: عشرون درهما، فكان ذٰلك خمسمائة درهم. قلت: بوزننا؟ قال: نعم.

وروىٰ بسنده عن أبي العباس قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصداق هل له ←

ونقل ذلك عنه الإربلي في «كشف الغمة» بواسطة كتاب الجنابذي[1]، ثمّ نقل عن الجنابذي قوله: «وعن ابن عباس: أنّه تزوجها وهي ابنة ثمان وعشرين سنة»[2] ولم يسنده الىٰ أيّ سند، وما في كتاب الدولابي ليس كذلك، بل روىٰ خبراً عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عباس ـ فيما يحسب ابن حمّاد ـ (كما في الكتاب) في تزويج خديجة بمباشرة أبيها ووليمتها لذلك. ثمّ قال: وبلغني.. وذكر مهرها وعمرها كما مر. والظاهر أنّ القائل: وبلغني هو ابن حمّاد الدّولابي ـ كما فهم كذلك الاربلي ـ ولا ابن عباس، ولكن خلط ابن الخشاب الجنابذي فنابذ الفهم والنقل الصحيح فنسب ذلك الىٰ ابن عباس علىٰ غير أساس. والله هو العاصم من الخطأ في القياس والمقياس، ومن وساوس الخنّاس في صدور الناس.

وعلىٰ هذا، فينحصر الخبر بكون عمر خديجة عند زواجها بالرسول في الثامنة والعشرين، في مرفوعة الدوّلابي فحسب، ومن دون أن تصح نسبة ذلك الى ابن عباس.

← وقت (يعني الحد للمهر) قال: لا، ثمّ قال: كان صداق النبيّ ﷺ اثنتي عشرة أُوقيّة ونشّاً، والنشّ نصف الأُوقيّة، والاوقيّة: اربعون درهماً، فذلك خمسمائة درهم (بحار الأنوار ٢٢: ٢٠٥، ٢٠٦ عن فروع الكافي ٢: ٢٠).

وروىٰ الصدوق بسنده عن الصادق عليه السلام قال: ما تزوج رسول الله ﷺ شيئاً من نسائه ولا زوج شيئاً من بناته علىٰ اكثر من اثنتي عشرة أوقيّة ونشّ، والأُوقيّة: أربعون درهماً، والنش: عشرون درهماً (البحار ٢٢: ١٩٨ عن معاني الأخبار: ٦٤، ٦٥).

وكذلك ذكر المهر الطبرسي في إعلام الورىٰ: ١٤٠ مرسلاً وابن شهر آشوب في المناقب ١: ١٦١ عن (تاج التراجم). ويبدو من لحن هذه الأخبار أنها ناظرة الىٰ ردّ ما كان يروى بغير هذا المعنىٰ في مبلغ صداق ازواج النبي ﷺ ولا سيا خديجة رضي الله عنها.

(١) كشف الغمة ٢: ١٣٧.

(٢) كشف الغمة ٢: ١٣٩.

أما الخبر المشتهر عن كونها في الأربعين من عمرها: فـاليعقوبي لم يـصرّح بذٰلك ولكنّه ذكر في وفاتها أنها توفّيت «ولها خمس وستون سنة»[١] وهٰذا يقتضي أن يكون عمرها حين زواجها حسب المشهور أربعين سنة.

أمّا الطبري فقد نقل عـن الكـلبي قـوله: «وخـديجة يـومئذٍ ابـنة أربـعين سنة»[٢].

والمسعودي في «مروج الذهب» قال: «وهي يومئذ بنت أربعين» وفي «التنبيه والإشراف» أنّها توفيت ولها خمس وستون سنة[٣].

ونقل سبط ابن الجوزي عن الواقدي قوله: توفّيت وهي بنت خمس وستين سنة[٤] والاربلي في «كشف الغمّة» نقل عن «معالم العترة النبوية» للجنابذي عن ابن سعد صاحب الطبقات: يرفعه إلىٰ حكيم بن حزام قال: «توفّيت خديجة في شهـر رمضان سنة عشر من النبوة، وهي ابنة خمس وستين»[٥] فيكون عمرها في زواجها أربعين سنة. والكازروني قال: «فتزوّجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة»[٦].

ومعنىٰ كلّ هٰذا أنّ المؤرخين القدامىٰ كالكلبي والواقدي وكاتبه ابن سـعد واليعقوبي متفقون علىٰ المشهور في سن خديجة في زواجها أي الأربعين، وان كـان الاسناد الوحيد ينحصر في حكيم بن حزام إذ يذكر تأريخ وفاتها عليها السلام وهي عمّته،

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٣٥.

(٢) الطبري ٣ : ٢٨٠.

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٨٧ والتنبيه والاشراف : ١٩٩، ٢٠٠.

(٤) تذكرة الخواص : ٣٠٤.

(٥) كشف الغمّة ٢ : ١٣٩.

(٦) بحار الأنوار ١٦ : ١٩.

إِذ هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، فهو أعلم بها، ولا يعارضه شيء اللهم إلّا ما انفرد به ابن حماد الدولابي بقوله: وبلغني.. من غير اسناد، فلا يصح اعتماده.

هل كانت خديجة متزوجّة؟

قال ابن هشام: «وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك.. فولدت له هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة. وكانت قبل أبي هالة عند عُتيِّق ابن عابد المخزومي فولدت له: عبد اللّٰه، وجارية تزوّجها صيفيّ بن أبي رفاعة»[١].

أما الطبري فقد روىٰ عن الكلبي عن أبيه قال: وكانت قبله عند عتيِّق بن عابد المخزومي... فولدت لعتيِّق جارية، ثمّ توفّي عنها. وخلف عليها أبو هالة بن زرارة بن نبّاش... ثمّ توفّي عنها فخلف عليها رسول اللّٰه وعندها هند بن أبي هالة[٢].

وروىٰ الدولابي في «الذرية الطاهرة» بذٰلك أخباراً ثلاثة عن الزهري ومحمّد بن إِسحاق وقَتادة بن دَعامة، وروىٰ رابعاً عن الليث بن سعد فعكس فذكر أبا هالة ثمّ عتيِّق[٣] فهو مردود، وخبر قَتادة نقله الاربلي في كتابه[٤].

وقال ابن شهر آشوب في كتابه (المناقب) في ترتيب أزواجه: تزّوج بمكّة أوّلاً خديجة بنت خويلد. قالوا: وكانت عند عتيِّق بن عائذ المخزومي، ثمّ عند أبي هالة زرارة بن نبّاش الاسدي[٥].

---

(١) ابن هشام ٤: ٢٩٣.

(٢) الطبري ٣: ١٦١ والطبرسي في اعلام الورى ١: ٢٧٤.

(٣) الذرية الطاهرة: ٤٥ ـ ٤٧.

(٤) كشف الغمّة ٢: ١٣٨، ١٣٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١: ١٥٩.

وروىٰ أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضىٰ في (الشافي) وأبو جعفر في (تلخيص الشافي): أنّ النبيّ تزوَّج بها وكانت عذراء. يؤكّد ذلك ما ذكر في كتابي (الأنوار) و(البدع): أنّ رقية وزينب كانتا ابنتي هالة اخت خديجة[1]!

---

(١) المناقب ١ : ١٥٩. والظاهر أنّه يقصد بكتاب الأنوار: كتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار لأبي الحسن البكري المتقدم الذكر سابقاً، وهو مخطوط، سرد عنه المجلسي قصّة زواجه من صفحة ٢٠ الىٰ ٧٧ج ١٦ ثمّ قال «انّما أوردت تلك الحكاية (!) لاشتمالها علىٰ بعض المعجزات والغرائب (!) وانْ لم نثق بجميع ما اشتملت عليه، لعدم الاعتماد علىٰ سندها كما أومأنا إليه، وإن كان مؤلفه من الأفاضل والأماثل» يقول ذلك لأنه التبس عليه ببكريّ آخر هو من مشايخ الشيخ الشهيد، كما قال قبل هذا، وعلّق عليه المحقق الرباني الشيرازي بأنّ هذا البكري ليس هو البكري من مشايخ الشيخ الشهيد، بل هو متقدم عليه وعلىٰ ابن تيمية المتوفىٰ ٧٢٨هـ ومعروف بالكذب وقد حكىٰ هو أيضاً: انّها كانت قد تزوجت قبله برجلين أحدهما عمرو الكندي (!) والثاني عتيِّق بن عائذ (بحار الأنوار ١٦ : ٢٢).

وكتاب (البدع) هو كتاب أبي القاسم الكوفي المذكور قبل ذلك، وهو (الاستغاثة في بدع الثلاثة) وقال فيه: انّ الإجماع من الخاص والعام من أهل الآثار ونقلة الأخبار علىٰ أنّه لم يبق من اشراف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلّا من خطب خديجة ورام تزويجها فامتنعت علىٰ جميعهم من ذلك، فكيف يجوز ـ في نظر أهل الفهم ـ أن تكون خديجة يتزوجها أعرابي من تميم، وتمتنع من سادات قريش وأشرافها ؟! ألا يعلم ذووا التمييز والنظر أنّه من أبين المحال وافظع المقال ؟! (ص ٧٠).

ولإجماع ـ فيما نعلم ـ من أهل الآثار ونقلة الأخبار من الخاص والعام علىٰ خطبة خديجة من قبل جميع أشراف قريش، اللهم إلّا ما انفرد بحكايته (!) البكري المذكور آنفاً فيما حكاه ممّا هو أشبه بقصص العامّة من التأريخ المسند والخبر المعتبر قال:

فلمّا ماتا خطبها عقبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي مهاب ـ ولكلّ منهما أربعمائة عبد وأمة ـ وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان، وخديجة لا ترغب في واحد منهم (بحار الأنوار ١٦ : ٢٢).

←

أما الطبرسي فقد ذكر الخبر بلا خلاف فيه[١] ونقله عنه المجلسي في (البحار) كذلك أيضاً[٢].

أولاد خديجة من النبيّ صلى الله عليه وآله:

روىٰ الحميري بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ولد لرسول اللّه صلى الله عليه وآله من خديجة: القاسم والطاهر، وأُمّ كلثوم، ورقيّة، وزينب وفاطمة[٣].

← وأمّا (تلخيص الشافي) فلا يبقىٰ إلّا هو، والظاهر أنّه أخذه من كتاب أبي القاسم الكوفي، وقد عرفت حاله ومستنده.

(١) إعلام الورىٰ ١ : ٢٧٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٢ : ٢٢٠ وعكس في (الاستيعاب) وفي (شرح المواهب) فقالا: كانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي (لا التيمي) ومات أبو هالة في الجاهلية وقد ولدت له هنداً، فهو أخو فاطمة بنت خديجة، وكان هند فصيحاً بليغاً وصّافاً فروىٰ عنه الحسن عليه السلام حديث صفة النبيّ قال: حدّثني خالي هند بن أبي هالة(*). وقد شهد بدراً وقيل: أُحداً. وقتل مع علي عليه السلام يوم الجمل. وولدت خديجة لأبي هالة أيضاً هالة بن أبي هالة. وبعد تزوّجها عتيّق بن عابد (كذا) المخزومي فولدت له هنداً بنت عتيّق، وقد أسلمت وصحبت. راجع ترجمة خديجة في (الاستيعاب).

(٣) قرب الإسناد: ٢٧ والصواب تقديم زينب علىٰ فاطمة طبقاً للخبر التالي. وانظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال ١٢ : ٧٦ ـ ٧٧.

(*) روىٰ الحديث الشيخ الصدوق في معاني الأخبار: ٧٩ الحيدري. والشيخ الطبرسي في مكارم الاخلاق: ٧ وابن الأثير في أُسد الغابة ٥ : ٧٢ ط. إسماعيليان. وراجع: نسب قريش لمصعب الزبيري: ٢٢ وأُسد الغابة ٥ : ١٢ و ١٣ و ٧١ والإصابة ٣: ٦١١، ٦١٢ والسيرة الحلبية ١ : ١٤٠. فمن الصعب جداً دعوىٰ ابن شهر آشوب بكارتها وانكار زوجيها السابقين وأولادها منهم بما يتضمن ذلك من خبر الحسن المجتبىٰ عن خاله هند في صفة النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ ما الداعي إلىٰ ذلك؟!

وروىٰ الصدوق بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: ولد لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله من خديجة: القاسم والطاهر ـ وهو عبدالله ـ وأُمّ كلثوم، ورقيّة، وزينب وفاطمة[1].

وقال الكليني: ولد له منها قبل مبعثه: القاسم، ورقية، وزينب وأُمّ كلثوم، وولد له بعد المبعث: الطيب والطاهر وفاطمة. وروي أيضاً: أنّه لم يولد بعد المبعث إلّا فاطمة عليها‌السلام، وانّ الطيب والطاهر ولدا قبل مبعثه[2].

وقال الشيخ الطبرسي: فأوّل ما حملت ولدت عبد الله بن محمّد وهو الطيب «الطاهر» والناس يغلطون فيقولون: ولد له منها أربعة بنين: القاسم وعبد الله والطيب والطاهر، وانّما ولد له منها ابنان، الثاني: القاسم، وقيل: إنّ القاسم أكبر، وهو بكره، وبه كان يكنىٰ. وأربع بنات: زينب ورقيّة وأُمّ كلثوم وفاطمة[3].

وقال ابن شهر آشوب: أولاده: وله من خديجة: القاسم وعبد الله، وهما الطاهر والطيب، وأربع بنات: زينب ورقيّة وأُمّ كلثوم وفاطمة.. وفي (الأنوار)، و(الكشف)، و(اللمّع)، وكتاب البلاذري: أنّ زينب ورقية كانتا ربيبتيه من جحش. فأمّا القاسم والطيّب فماتا بمكّة صغيرين، مكث القاسم سبع ليال[4].

وروىٰ المجلسي عن الكازروني عن ابن عباس قال: أوّل من ولد لرسول الله بمكّة قبل النبوة القاسم وبه كان يكنىٰ، ثمّ ولد له زينب، ثمّ رقيّة، ثمّ فاطمة، ثمّ أُمّ كلثوم، ثمّ ولد له في الإسلام عبد الله فسمّي الطيّب والطاهر. وأُمّهم جميعاً خديجة

---

(١) المصدر عن الخصال: ٤٠٤ الحديث ١١٥. وروىٰ فيه الحديث ١١٦ بسنده عن الصادق عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في خبر قال: «وانّ خديجة رحمها الله ولدت منّي طاهراً ـ وهو عبد الله وهو المطهّر ـ وولدت مني القاسم، وفاطمة ورقيّة وأُمّ كلثوم وزينب».

(٢) اصول الكافي ١: ٤٣٩، ٤٤٠.

(٣) إعلام الورىٰ ١: ٢٧٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ١٦١، ١٦٢.

بنت خويلد. وكان أوّل من مات من ولده القاسم ثمّ مات عبدالله بمكّة، فقال العاص بن وائل السهمي. قد انقطع ولده فهو ابتر، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[١].

وقيل: إنّ الذكور من أولاده ثلاثة والبنات أربع: أولهن زينب، ثمّ القاسم، ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رقيّة، ثمّ عبدالله وهو الطيّب والطاهر[٢].

وقال ابن اسحاق: ولدت لرسول الله ولده: القاسم ـ وبه كان يكنّىٰ ـ والطّاهر، والطّيب، وزينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم، وفاطمة عليها السلام. فأمّا القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأمّا بناته فكلّهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن.

وقال ابن هشام: أكبر بنيه القاسم، ثمّ الطيّب، ثمّ الطّاهر، وأكبر بناته رقيّة، ثمّ زينب، ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة[٣].

وقال اليعقوبي: ولدت له قبل أنْ يبعث: القاسم، ورقيّة، وزينب، وأمّ كلثوم، وبعد ما بعث: عبد الله وهو الطيّب والطاهر، ـ لانّه ولد في الإسلام. وفاطمة[٤].

روىٰ الطبري عن هشام الكلبي عن أبيه قال: فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم والطيّب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم، وفاطمة[٥].

وقال المسعودي: ولد له ـ من خديجة ـ القاسم ـ وبه كان يكنّىٰ وكان أكبر بنيه

---

(١) الكوثر: ٣. والخبر في بحار الأنوار ٢٢: ١٦٦ عن المنتقى للكازروني.

(٢) بحار الأنوار ٢٢: ١٦٦ عن (المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ) الباب الثامن فيما كان سنة خمس وعشرين من مولده.

(٣) سيرة ابن هشام ١: ٢٠٢.

(٤) اليعقوبي ٢: ٢٠.

(٥) الطبري ٣: ١٦١.

سناً ـ ورقيّة، وأُمّ كلثوم، وولد له بعد ما بعث: عبد اللّٰه ـ وهو الطيب والطاهر لانّه ولد في الإسلام، وفاطمة[1].

وعلّق المحقّق علىٰ قول ابن اسحاق بموت القاسم قبل الإسلام يقول: في موت القاسم في الجاهلية خلاف، فقد ذكر السهيلي في (الروض الأُنف) عن الزبير «أنّ القاسم مات رضيعاً، وأنّ رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ دخل علىٰ خديجة بعد موت القاسم وهي تبكي، فقالت: يا رسول اللّٰه لقد درّت لُبينة القاسم، فلو كان عاش حتّىٰ يستكمل رضاعه لهون عليّ!

فقال: إنْ شئتِ أسمعتك صوته في الجنة؟ فقالت: بل أُصدّق اللّٰه ورسوله ثمّ قال: وفي هٰذا دليل علىٰ أنّ القاسم لم يهلك في الجاهلية[2].

وروىٰ الكليني في (فروع الكافي) بسنده عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: دخل رسول اللّٰه علىٰ خديجة حين مات القاسم ابنها وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: درّت دُريرة فبكيت. فقال: يا خديجة أما ترضين اذا كان يوم القيامة أن تجيئي الىٰ باب الجنة وهو قائم فيأخذ بيدك فيدخلك الجنة وينزلك أفضلها. وذٰلك لكلّ مؤمن. إنّ اللّٰه أحكم وأكرم أن يسلب المؤمن ثمرة فؤاده ثمّ يعذّبه بعدها أبداً[3].

وروىٰ بسند آخر عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال: توفّي طاهر ابن رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله فنهىٰ رسول اللّٰه خديجة عن البكاء، فدخل عليها وهي تبكي فقال لها: ما يبكيك؟ ألم أنهك؟! فقالت: بلىٰ يا رسول اللّٰه، ولكن درّت عليه الدُريرة فبكيت. فقال لها: أما ترضين أن تجديه قائماً علىٰ باب الجنة،

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٩١.

(٢) هامش سيرة ابن هشام ١ : ٢٠٢ عن (الروض الأُنف).

(٣) بحار الأنوار ١٦ : ١٦ و ١٩ عن فروع الكافي ١ : ٥٩.

فإذا رآك أخذ بيدك فأدخلك أطهرها مكاناً وأطيبها؟ قالت: وإنّ ذٰلك كذٰلك؟ قال: فإن الله أعزّ وأكرم من أنْ يسلب عبداً ثمرة فؤاده فيصبر ويحتسب ويحمد الله عزّوجلّ ثمّ يعذّبه(١).

فهٰذا هو الصحيح الراجح وأحتمل أنّه وقع سهو من أحد الرواة للخبر في الطريق السابق فأخطأ اسم الطاهر والتبس عليه بالقاسم. وأمّا خبر (الروض...) عن الزبير، فهي مرسلة لا أظنها إلّا مسروقة عن خبر عمرو بن شمر عن جابر بالطريق الّذي وقع فيه الخطأ والالتباس. وعليه فالذي كانت تبكيه خديجة ويدرّ عليه درّها هو عبد الله الطيب الطاهر وليس القاسم، ذلك لما يأتي في نزول سورة الكوثر عن الحسن والباقر والصادق عليهم السلام أنّ القاسم كان قد درج يمشي بل كان يركب الابل، فلعلّه كان موتهما كليهما بعد البعثة ويبدو أنّ عبد الله ولد بعد القاسم بعد البعثة ومات قبله ثمّ مات القاسم(٢).

---

(١) بحار الأنوار ١٦ : ١٦ عن فروع الكافي ١ : ٦٠.

(٢) خلافاً (لهيكل) في كتابه إذ قال: أمّا القاسم وعبد الله فلم يعرف عنهما إلّا أنّهما ماتا طفلين في الجاهلية لم يتركا أثراً يبقىٰ أو يذكر؛ لكنّهما من غير شك قد ترك موتهما في نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شكّ في نفس خديجة ما جرح أُمومتها جرحين داميين وهي لا ريب(!) وقد اتجهت عند موت كلّ واحد منهما في الجاهلية الىٰ آلهتها الأصنام تسألها: ما بالها لم تشملها برحمتها وبرّها. (حياة محمّد: ١٢٨) ولا ريب في بطلان ظنونه، فلا مستند لزعمه هٰذا، وليس إلّا حدساً ناشئاً من قياس خديجة بسائر نساء قريش.
ونحن إذ تبيّنا أن دوافع زواجها برسول الله إنّما كانت دوافع معنوية، وذٰلك لأنّها كانت قد سمعت من ابن عمها ورقة بن نوفل النصرانيّ وغلامها ميسرة عن الراهب النصرانيّ أن محمّداً نبيّ آخر الزمان فتزوجت به لذٰلك، وأضفنا الىٰ ذٰلك كراهته للاصنام حتىٰ انّه حينما أقسم عليه بحيرا الراهب بالأوثان قال: إنّها أبغض خلق الله اليه.. فلا يمكنا مع ذٰلك أن نقول: إنها كانت تلجأ في موت أولادها الىٰ الأصنام وهنّ أبغض خلق الله الىٰ حبيبها محمّد صلى الله عليه وآله. ⟵

← ولا يفوتنا هنا أنّ ننوّه الىٰ أنّ القسطلاني قال : قيل : ولد له ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف(!) ومع هٰذا يكون أولاده اثني عشر كلّهم ولدوا في الإسلام سوىٰ هٰذا (المواهب اللدنية ١ : ١٩٦) والظاهر أن مستنده ما نقله المقدسي عن قتادة قال : ولدت خديجة لرسول اللّٰه عبد مناف في الجاهلية ، وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنىٰ: أباالقاسم فعاش حتّىٰ مشىٰ ثمّ مات، وعبداللّٰه مات صغيراً. وأمّ كلثوم، وزينب، ورقيّة، وفاطمة (البدء والتأريخ ٤ : ١٣٩، ٥ : ١٦) وقول قتادة هٰذا شاذ يتنافىٰ مع كلّ ما تقدّم عن غيره وهو كثير مستفيض مشهور، كما مر ويشبه هٰذا في الشذوذ ما ذهب اليه أبوالقاسم الكوفي إذ قال : كانت لخديجة اُخت اسمها هالة ، تزوجها رجل مخزومي فولدت له بنتاً اسمها هالة ، ثمّ خلف عليها رجل تميمي يقال له أبو هند ، فأولدها ولداً اسمه هند ، وكان لهٰذا التميمي امرأة اُخرىٰ قد ولدت له زينب ورقية فماتت ومات التميمي فلحق ولده هند بقومه ، وبقيت هالة ـ اخت خديجة ـ والطفلتان من التميمي وزوجته الاُخرىٰ فضمتهم خديجة اليها . وبعد أن تزوجت بالرسول صلى الله عليه وآله ماتت هالة فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول صلى الله عليه وآله ، وكان العرب يزعمون أنّ الربيبة بنت فنسبتها اليه ، مع أنهما ابنتا أبي هند زوج اختها (الاستغاثة : ٦٨).

ورویٰ الحافظ عبد الرزاق في مصنّفه عن عمر بن دينار عن الحسن بن محمّد بن علي قال : إنّ أبا العاص بن الربيع كان زوجاً لبنت خديجة (المصنف ٥ : ٢٢٤).

وقال مغلطاي في سيرته : وخلف عليها (خديجة) أبو هالة النباش بن زرارة فولدت له هنداً والحرث وزينب (سيرة مغلطاي : ١٢).

فعلىٰ الأوّل تكون زينب ورقيّة من ضرة هالة اُخت خديجة ، وعلىٰ الثاني والثالث تكون زينب بنت خديجة من زوجها السابق أو الأسبق . ولكن لا مجال لهٰذه الأقوال بعد تصريح نصّ الخبرين المعتبرين للحميري والصدوق المسندين الىٰ الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام «ولد لرسول اللّٰه من خديجة» وفيهم رقيّة وزينب ، وليست العبارة نسبة الأبوة أو البنوة لتحمل علىٰ عادة العرب في نسبة الربائب فنحتمل صدق مقال صاحب الاستغاثة : كان العرب يزعمون أنّ الربيبة بنت فنسبتا اليه .

تجديد بناء الكعبة ووضع الحجر:

الحجر الصخر المنضود بعضه على بعض بلا ملاط بينها يُسمى رَضماً، والكعبة المعظّمة حتى تجديد بنائها قبل البعثة النبوية المباركة كانت كذلك رضماً، فوق القامة[١] ومرّ في خبر القمي في تفسيره عن الصادق عليه السلام في بناء إبراهيم عليه السلام: أنّه رفعه إلى السماء تسعة أذرع[٢] وفي «الكافي» عنه عليه السلام أيضاً قال: كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع ولها بابان[٣].

وفي «الكافي»: كان طول الكعبة تسعة أذرع بدون سقف[٤] وفي موضع آخر منه: أنّ بنيان إبراهيم عليه السلام كان سُمكُه ـ أي ارتفاعه ـ تسعة أذرع، والطول ثلاثين ذراعاً والعرض اثنين وعشرين ذراعاً[٥].

وفيه في خبر آخر: التعبير بأن حائطها كان قصيراً، وأتاهم سيل من أعلا مكة فدخل الكعبة فانصدعت، فسُرق من الكعبة غزال من ذهب، فأرادت قريش أن يهدموا الكعبة ويبنوها....

وقد كان بعث ملك الروم بسفينة فيها سقوف وآلات وخشب إلى الحبشة ليُبنى له هناك بيعة (=كنيسة) فطرحتها الريح إلى ساحل العرب وبطحت فيه، وبلغ ذلك قريشاً فخرجوا إليها فابتاعوها وما يصلح للكعبة من خشب وزينة وغير ذلك وصاروا به إلى مكة.

ثمّ هدّموا الكعبة ونحّوا حجارتها حولها حتى بلغوا القواعد التي وضعها

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٠٥.

(٢) تفسير القمي ١ : ٦٢.

(٣) الكافي ٤ : ٢٠٧، الباب ٧، الحديث ٧.

(٤) الكافي ٤ : ٢٠٧، الباب ٧، الحديث ٨، وفي الفقيه ٢ : ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣١٩.

(٥) الكافي ٤ : ٢١٧، الباب ٩، الحديث ١، وفي الفقيه ٢ : ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٢.

إبراهيم عليه السلام، وأرادوا الزيادة في عرصتها فحرّكوا القواعد التي وضعها إبراهيم عليه السلام فأصابتهم زلزلة وظلمة فكفّوا عنها.. وكان ذلك قبل مبعث النبيّ صلى الله عليه وآله بثلاثين عاماً[1].

وفيه عن الصادق عليه السلام: أنّ قريشاً لما هدموا البيت وأرادوا بناءه اُلقي الرُعب في روعهم حتى قال قائل منهم[2]: ليأت كل رجل منكم بأطيب ماله، ولا تأتوا بمال اكتسبتموه من حرام أو قطيعة رحم! ففعلوا[3].

وساهم في البناء بنو سهم وبنو مخزوم وبنو عبد شمس وبنو أسد بن عبد العزى، كل منهم ما بين ركنين منه، وكان لبني هاشم من الحجر الأسود إلى الركن الشامي وساهم رسول الله فكان له من باب الكعبة إلى نصف ما بين الركنين الحجر الأسود واليماني[4].

---

(١) الكافي ٤ : ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٤ وأوّله في الفقيه ٢ : ١٩٤، الباب ٦١، الحديث ٢١٢٠ مرسلاً وفي علل الشرائع ٢ : ١٥٧، الباب ٢٠٢، الحديث ١ عن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام . وبالنسبة إلى عمر النبيّ حين بناء البيت أن يكون قبل مبعثه بثلاثين سنة يقتضي أن يكون عمره يومئذ عشر سنين تقريباً! وهذا غريب ويتنافى مع ما يأتي من الأخبار، الا أن يكون في الأصل: قبل مهاجره، وعرض عليه التصحيف، وعليه يكون عمره يومئذ أكثر من عشرين عاماً فيكون قريباً مما في اليعقوبي ٢ : ١٩ : وهو ابن خمس وعشرين سنة، وليس كما في السيرة ١ : ٢٠٤ : خمساً وثلاثين سنة.

(٢) روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن صفوان: أنّ القائل كان أبا وهب بن عمرو المخزومي. وقال: والناس يخلونه للوليد بن المغيرة المخزومي ٢ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦. ونسبه اليعقوبي ٢ : ١٩٠ إلى أبي طالب، ولو كان هو لذكره الصادق عليه السلام، ولعلّه تصحيف من أبي وهب.

(٣) الكافي ٤ : ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٣ وفي الفقيه ٢ : ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٠.

(٤) الكافي ٤ : ٢١٩، الباب ٩، الحديث ٥ وذيله، وهما في الفقيه ٢ : ٢٤٨، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٣ وبعده.

فبنوه حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأسود فتشاجروا فيه أيهم يضع الحجر الأسود في موضعه، حتى كاد أن يكون بينهم شر، فحكّموا أول من يدخل من باب المسجد[١] باب بني شيبة، فطلع رسول الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين قد جاءكم، فحكّموه، فبسط رداءه ـ وكان كِساءً طارونياً أي خزّاً ـ ووضع الحجر فيه ثمّ قال: يأتي من كل رَبع من قريش رجل. فكانوا: عتبة بن ربعة من عبد شمس، والأسود بن المطّلب من بني أسد بن عبد العزّى، وأبو حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم، وقيس بن عدي من بني سهم، فرفعوه، ووضعه النبيّ في موضعه[٢] فخصّه الله به[٣] فلما بنوها كسوها وصائل الأردية[٤].

مولد فاطمة عليها السلام:

مرّ في خبر الحميري عن الإمام الباقر عليه السلام، والصدوق في «الخصال» عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: أنْ عُدّت فاطمة عليها السلام في آخر عداد أولاد خديجة من رسول الله ﷺ. وكذلك كان في كلام كلّ من الكليني والطبرسي وابن شهر آشوب. وفي قول ابن إسحاق وابن هشام واليعقوبي والطبري والمسعودي.

وافتتح الكليني في «أُصول الكافي»: «باب مولد فاطمة» وقبل أنْ يفتتح الباب وفي آخر الباب السابق حسب النسخ الموجودة من الكتاب، أورد بسند صحيح عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ولدت فاطمة بنت محمّد ﷺ بعد مبعث

---

(١) الكافي ٤: ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٣ وفي الفقيه ٢: ٢٤٧، الباب ٦٤، الحديث ٢٣٢٠ عن الصادق عليه السلام.

(٢) الكافي ٤: ٢١٧، الباب ٩، الحديث ٤.

(٣) من الخبر الأسبق.

(٤) من الخبر الأسبق. والوصائل جمع الوصلة: القطعة، والأردية جمع الرداء.

رسول اللّٰه بخمس سنين. وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً»[١] ثمّ افتتح الباب فقال: ولدت فاطمة ـ عليها وعلىٰ بعلها السلام ـ، بعد مبعث رسول اللّٰه بخمس سنين، وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً، بقيت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً»[٢] وكذٰلك في «روضة الكافي» قال: ولدت بعد البعثة بخمس سنين[٣].

والظاهر أنّه يستند في ذٰلك الىٰ ما رواه في الأُصول قبيل الباب، صحيحاً.

والخبر ـ كما مرّ ـ ليس فيه جملة «وقريش حينئذٍ تبني البيت» ممّا جاء فيما رواه عنه عليه‌السلام الاربلي في «كشف الغمة» عن كتاب «تأريخ مواليد ووفيات أهل البيت» لابن الخشاب يرفعه عن أبي جعفر محمّد بن علي قال: «ولدت فاطمة بعد ما أظهر اللّٰه نبوة نبيّه وأنزل عليه الوحي بخمس سنين، وقريش تبني البيت، وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً» ثمّ قال: «وفي رواية صدقة: «ثمان عشرة سنة وشهر وخمسة عشر يوماً» ثمّ قال: «وكان عمرها مع أبيها بمكّة ثمانية سنين»[٤].

وهكذا مرَّ الاربلي علىٰ هٰذا الخبر المرفوع لابن الخشّاب مرور الكرام من دون أنْ يلاحظ عليه التناقض فيه؛ فهو من جانب يقول: ولدت فاطمة بعد البعثة، ومن جانب آخر يقول: وقريش تبني الكعبة! وهٰذان الأمران لا يجتمعان؛ فإنّ البيت بُني قبل البعثة بخمس سنين لا بعدها. اللهم الّا أنْ نقول بأن الجملة: «وقريش تبني البيت» مزيد مردود من الراوي، وإلّا فأصل الخبر مردود الىٰ أهله.

---

(١) أُصول الكافي ١ : ٤٥٧.

(٢) أُصول الكافي ١ : ٤٥٨.

(٣) روضة الكافي : ٢٨١.

(٤) كشف الغمّة ٣ : ٧٥.

ويشبه هٰذا الخبر المرفوع لابن الخشاب عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في جملة : «وقريش تبني الكعبة» خبر آخر مسند لابن حمّاد الدّولابي «الحنفي» في كتابه «الذرية الطاهرة» بسنده عن يحيىٰ بن شبل عن أبي جعفر قال : «دخل العباس علىٰ عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول اللّٰه وأحدهما يقول لصاحبه : أيّنا أكبر؟ فقال العباس : وُلدتَ ياعلي قبل بناء قريش البيت بسبع سنوات، ووُلدَت ابنتي وقريش تبني البيت، ورسول اللّٰه يومئذٍ ابن خمس وثلاثين سنة، قبل النبوة بخمس سنين»[1].

والظاهر أنّ المراد بأبي جعفر هو الباقر عليه السلام كما في أخبار أُخرىٰ عنه مصرحة باسمه في الكتاب ومنها خبر قبل هٰذا عن أبي جعفر محمّد بن علي قال : «توفّيت فاطمة بعد النبيّ ﷺ بخمسٍ وتسعين ليلة في سنة إحدىٰ عشرة».

وإنْ كان الراوي المباشر للخبر السابق : يحيىٰ بن شبل، لم أجده في مظانه من كتب الرجال.

والغريب أنّ الاربلي روىٰ الخبرين وغيرهما بادئاً لهما بقوله : «ونقلت من كتاب : «الذرية الطاهرة» للدّولابي، ولكنّه حذف الأسناد بادئاً لهٰذا الخبر بقوله : «وقيل..» من دون أنْ يشير الىٰ أنّه يرويه عن أبي جعفر الباقر عليه السلام . فلعلّه لم يتنبّه لذٰلك[2].

وعلىٰ أيّ حال فالخبران عاميّان معارضان لما رواه الكليني عنه عليه السلام بسند صحيح.

أما عن الصادق عليه السلام فقد روىٰ الطبري الإمامي في «دلائل الإمامة» بسنده عنه عليه السلام قال : «ولدت فاطمة في جُمادى الآخرة : اليوم العشرين منها

---

(١) الذرية الطاهرة : ١٥٢.

(٢) كشف الغمّة ٢ : ١٢٨، ١٢٩.

سنة خمس وأربعين من مولد النبيّ ﷺ فأقامت بمكّة ثمان سنين»[١].

وقال اليعقوبي: «وبعد ما بعث: عبد اللّٰه ـ وهو الطيّب والطاهر، لأنّه ولد في الإسلام ـ وفاطمة»[٢] ومثله المسعودي[٣].

وكذٰلك ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب) في ترجمة خديجة: أنّ الطيّب قد ولد بعد النبوة، وولدت بعده اُمُّ كلثوم، ثمّ فاطمة.

ولكنّ الشيخ المفيد قال: «كان مولد السيدة الزهراء سنة اثنتين من المبعث»[٤] وتبعه تلميذه الشيخ الطوسي فقال في «المصباح»: «في اليوم العشرين من جُمادىٰ الآخرة سنة اثنتين من المبعث كان مولد فاطمة في بعض الروايات» ثمّ قال: «وفي رواية اُخرىٰ: سنة خمس من المبعث» ثمّ قال: «والعامّة تروي أنّ مولدها قبل المبعث بخمس سنين»[٥].

وأقدم نص علىٰ ذٰلك منهم فيما بأيدينا هو مارواه ابن حماد الدّولابي «الحنفي» في كتابه «الذرية الطاهرة» وقال به الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) في «مقاتل الطالبيين»[٦] وقال سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص»: «وأمّا فاطمة عليها السلام قال علماء السير: ولدتها خديجة وقريش تبني البيت الحرام قبل النبوة بخمس سنين، وهي أصغر بنات رسول اللّٰه»[٧] والمحب الطبري في «ذخائر العقبىٰ»[٨] روىٰ رواية

---

(١) دلائل الإمامة: ١٠.

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٠.

(٣) مروج الذهب ٢: ٢٩١.

(٤) كما في بحار الأنوار ٤٣: ٩ عن الإقبال عن حدائق الرياض للشيخ المفيد ٣: ٢٦٢ ط. قم.

(٥) المصباح للطوسي ٥٥٤.

(٦) مقاتل الطالبيين: ٣٠.

(٧) تذكرة الخواص: ٣٠٦.

(٨) ذخائر العقبىٰ: ٥٣.

ابن حماد الدّولابي عن الباقر عليه السلام عن عباس. وقال به الزرندي الحنفي في «نظم درر السمطين»[١] ومغلطاي في سيرته[٢] والديار بكري في «تاريخ الخميس» وأضاف القول بسبع سنين قبل البعثة، بل واثنتي عشرة سنة قبلها[٣].

وإن كان المحبّ الطبري والدّيار بكري عقّبا ذلك بنقل ما يدل من الحديث علىٰ أنّ نطفة فاطمة قد انعقدت من ثمر جاء به جبرئيل الىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله من الجنة، وقد نقل ذلك المرعشي النجفي في ملحقات «احقاق الحق» عنهما وعن ميزان الاعتدال[٤]، ولسان الميزان، والروض الفائق، ونزهة المجالس، ومجمع الزوائد، وكنز العمّال ومنتخبه، ومحاضرة الأوائل، ومقتل الحسين للخوارزمي، وتأريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومفتاح النجاة، ومستدرك الحاكم، وتلخيصه للذهبي، وأخبار الدول، والمناقب لابن المغازلي، والمناقب لعبد الله الشافعي، واللآلي المصنوعة، وإعراب ثلاثين سورة[٥].

ومن الخاصّة عن العامّة عن الصحابة عن النبيّ صلى الله عليه وآله روىٰ الصدوق بسنده عن طاووس اليماني عن ابن عباس عن عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وآله[٦] وروىٰ في «عيون المعجزات» عن حارثة بن قدامة عن سلمان عن عمّار عن فاطمة عليها السلام[٧].

---

(١) نظم درر السمطين: ١٧٥.

(٢) سيرة مغلطاي: ١٧.

(٣) تأريخ الخميس ١: ٢٧٧.

(٤) ميزان الاعتدال ١: ٣٨، ٢٥٣ و ٢: ٢٦، ٨٤، ١٦٠، ٢٩٧ و ٣: ٥٤٠ وإن كان هنا أشار إلى أنّه حديث موضوع.

(٥) إحقاق الحق ١٠: ١ ـ ١٠.

(٦) علل الشرائع ١: ٢١٨.

(٧) عيون المعجزات، كما في البحار ٤٣: ٨.

ومن الخاصّة عن الأئمة عليهم السلام روىٰ الصدوق في «علل الشرائع» عن الباقر عليه السلام[١] وفي «معاني الأخبار» عن الصادق عليه السلام[٢] والقمي في تفسيره كذلك[٣] والصدوق أيضاً في (الأمالي) و(العيون) عن الرضا عليه السلام[٤].

كل ذلك ممّا يؤيد أو يدل علىٰ كون ولادتها بعد البعثة. وقد تقدّم أنّ المشهور في سن خديجة حين الزواج بالنبيّ هو أنها كانت في الأربعين والنبيّ في الخمس والعشرين وقد بعث في الأربعين، فخديجة حينئذٍ فيما بعد الخمس والخمسين، وهو سن اليأس من الحمل ولكن لغير القرشية والكنانية والنبطية، كما هو مقرّر في الفقه، وخديجة قرشية، وهٰذا يعني أنّ قابلية الحمل كانت موجودة لا تزال عند خديجة، وأنّ عمرها حينئذٍ كان، لا يأبىٰ من الحمل[٥].

---

(١) علل الشرائع ١: ٢١٧.

(٢) معاني الأخبار: ٣٧٧.

(٣) تفسير القمي، كما في البحار ٤٣: ٦.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١١٦ وعنه في البحار ٤٣: ٤ وعن أمالي الصدوق.

(٥) صحيح أنّ حمل المرأة في هٰذه السن العالية نادر الوقوع، ولكنْ قد وقع في التأريخ نماذج منه، وحتّىٰ اليوم: فقد نشرت جريدة «إطلاعات» الإيرانية بتأريخ ٢٠ اردبيهشت ١٣٥١ هجري شمسي: أنّ أمرأة تدعىٰ «شوشنا» وضعت في «اصفهان» ولداً ولها من العمر ٦٦ عاماً، ولها ثمانية أولاد أكبرهم عمره ٥٠ وأصغرهم ٢٥ سنة.

وبتأريخ ٢٨ بهمن ١٣٥١ هجري شمسي أيضاً نشرت: أنّ امرأة علوية تدعىٰ «أكرم موسوي» ولها ٦٦ عاماً ولزوجها ٧٤ عاماً، وضعت توأماً في «بندر عباس». ونقلت الجريدة عن الطبيب: أن أكبر امرأة ولدت لحد الآن عمرها ٦٧ عاماً. انظر كتاب: فاطمة الزهراء المرأة النموذجية في الإسلام للشيخ إبراهيم الأميني. وراجع خاتمة قاموس الرجال ١٢: ٨.

عليٌّ عند النبيّ صلى الله عليه وآله:

نصّ بعض المؤرّخين أنّه بعد بناء البيت بسنة، وقبل البعثة بالنبوة بأربع سنين كانت سنة إصابة قريش بقحط شديدٍ كان من آثاره أن تكفّل الرسول صلى الله عليه وآله بعيشة علي عليه السلام عنده في داره مع أولاده[1] فقد روى ابن إسحاق في السيرة عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٤) قال: «كان ممّا أنعم الله علىٰ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأراد به الخير: أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس عمّه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: يا عباس! إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترىٰ من هٰذه الأزمة، فانطلق بنا إليه حتّىٰ نخفّف عنه عياله: آخذ من بنيه رجلاً (كذا) وتأخذ رجلاً فنكفلهما عنه. فقال العباس: نعم.

فانطلقا إليه وقالا له ذٰلك، فقال: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً فضمّه اليه. فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتّىٰ بعثه الله نبيّاً فاتّبعه علي فآمن به وصدّقه»[2].

---

(١) وقال الحلبي في «المناقب»: ذكر أبو القاسم في أخبار أبي رافع من ثلاثة طرق: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حين تزوّج خديجة قال لعمّه أبي طالب: إنّي أحب أن تدفع إليّ بعض ولدك يعينني علىٰ أمري ويكفيني، وأشكر لك بلاءك عندي. فقال أبو طالب: خذ أيّهم شئت. فأخذ علياً عليه السلام (المناقب ٢ : ١٨٠). ولا يمكن التسليم لظاهر هٰذا الخبر، اذ كيف يمكن أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله أخذه إليه «حين تزوّج خديجة» في حين أنّ علياً عليه السلام ولد بعد ثلاثين سنة من عام الفيل ـ علىٰ المشهور ـ وهو صلى الله عليه وآله قد تزوّج خديجة قبل ذٰلك بخمس سنين علىٰ المشهور أيضاً! اللهم إلّا أن يحمل الخبر علىٰ خلاف المشهور في ميلاد عليّ أو زواج خديجة عليها السلام أو المسامحة في قوله «حين تزوّج خديجة» بأكثر من سبع سنين.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٦٢.

ورواه عنه الصدوق في «علل الشرائع»[١] وفي «الخصال» روى عنه عليه‌السلام قال: إنّ رسول الله استوهبني من أبي في صباي، فكنت أكيله وشريبه ومونسه ومحدّثه[٢].

ورواه الطبرسي في «اعلام الورى» عن «دلائل النبوة» للبيهقي عن ابن إسحاق أيضاً[٣].

ونقله ابن شهر آشوب في «المناقب» عن مغازي محمّد بن اسحاق، والبلاذري والطبري، والبُستي، والخرگوشي، والثعلبي، والواحدي، والخوارزمي في أربعينه، والنسوي في المعرفة، عن مجاهد أيضاً وفيه: وأخذ رسول اللّٰه علياً وهو ابن ست سنين، كسنّه يوم أخذه أبو طالب[٤]. أي من أبيه عبد المطّلب عند وفاته.

ونقله الخوارزمي في «المناقب» عن ابن إسحاق أيضاً، وعنه الاربلي في «كشف الغمة»[٥].

وقال البلاذري في «أنساب الأشراف»: «قالوا: وكان أبو طالب قد أقل وأقتر، فأخذ رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ علياً ليخفّف عنه مؤونته، فنشأ عنده»[٦].

وروى الخبر أبو الفرج في «مقاتل الطالبيين» بسنده عن سهل بن سعد الساعدي قال: «كان رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قد أخذ علياً من أبيه وهو صغير، في سنةٍ أصابت قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ العباس طالباً، ليكفوا أباهم مؤونتهم ويخففوا عنه ثقلهم، وكان أبو طالب

---

(١) علل الشرائع ١ : ٢٠١. (٢) الخصال ٢ : ٥٧٢.
(٣) اعلام الورى ١ : ٣٨، ١٠٥ عن البيهقي في دلائل النبوة ٢ : ١٦٢ عن مجاهد أيضاً.
(٤) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٧٩، ١٨٠.
(٥) كشف الغمّة ١ : ٧٩.
(٦) أنساب الأشراف ٢ : ٩٠.

يحبّ عقيلاً ولذلك قال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فقال رسول اللّه : اخترت من اختار اللّه لي عليكم : علياً»[1].

ونقله ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن البلاذري والإصفهاني هكذا : إنّ قريشاً أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ لعمّيه حمزة والعباس : ألا نحملُ ثقَلَ أبي طالب في هذا المَحْل ؟ فجاؤوا اليه وسألوه أنْ يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم ـ وكان شديد الحبّ لعقيل ـ فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمّد ـ صلّى اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ علياً عليه السلام وقال لهم : قد اخترت من اختاره اللّه لي عليكم : علياً .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ١٥ ، هذا وفي بعض التواريخ ، ويحضرني الآن منها «شرح الأخبار» للقاضي النعمان المصري المغربي التميمي الشيعي الفاطمي الإسماعيلي ، فيه أنّه كان بين كلّ واحد من ولد أبي طالب عشر سنين (ج ١ : ١٨٨) فإذا كان لعلي عليه السلام يومئذ ست سنين كان لجعفر ست عشرة سنة ولعقيل ست وعشرون سنة ولطالب ست وثلاثون سنة ، ولذلك يبدو الخبر غريباً .

ولعلّه لهذا انفرد القاضي بذكر سبب آخر لذلك سوى القحط قال : إنّ سببه في ذلك : أنّ أشراف العرب والسادات منهم كانوا إذا شبّ لأحدهم الولد وأراد تقويمه وتأديبه ، دفعه الى شريف من أشراف قومه ليليَ ذلك منه ويستخدمه فيما يقومه به ، لئلّا يدلّ في ذلك عليه دلالة الولد على الوالد . وكان لأبي طالب ثلاثة من الولد (كذا) فلمّا شبّ عقيل دفعه أبو طالب الى عباس أخيه ، ولما شبّ جعفر دفعه الى حمزة أخيه ، ولما شبّ عليّ دفعه الى رسول اللّه ـ صلوات اللّه عليه وآله ـ .

وفي رواية أُخرى : أنّه دفع جعفراً الى عباس ، وعلياً عليه السلام الى رسول اللّه صلى الله عليه وآله ، وأبقى عقيلاً عنده . فلمّا لحق رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالرجال وبان بنفسه وتأهّل كان علي عليه السلام عند رسول اللّه (ج ١ : ١٨٨) .

فالمغربي وإنْ أغرب في خبره هذا ولكنّه ابتعد بذلك عن الغرابة في أعمار هؤلاء الأبناء .

قالوا: فكان علي عليه السلام في حجر رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ منذ كان عمره ست سنين.

وهٰذا يطابق قوله عليه السلام : «لقد عبدت اللّٰه قبل أن يعبده أحد من هٰذه الأُمّة سبع سنين» وقوله: «كنت أسمع الصوت وأُبصر الضوء سنين سبعاً، ورسول اللّٰه حينئذٍ صامت ما أُذن له في الإنذار والتبليغ».

وذٰلك لأنّه اذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه الىٰ رسول اللّٰه من أبيه وهو ابن ست، فقد صحّ أنّه كان يعبد اللّٰه قبل الناس بأجمعهم سبع سنين، وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز، علىٰ أنّ عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئاً من جلال اللّٰه سبحانه وآياته الباهرة. ومثل هٰذا موجود في الصبيان[1].

هٰذا ما نقله ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن البلاذري والإصفهاني، وقد مرّ عليك خبرهما ورأيت البلاذري قد اختصر الخبر جدّاً في سطر ونصف تقريباً، والإصفهاني رواه بسنده عن سهل بن سعد الساعدي، وقد خلا كلاهما عن ذكر عمر علي عليه السلام يومذاك. ولعلّه نقله عن نسخة أُخرىٰ منهما.

نعم نقل الخبر ابن شهر آشوب في «المناقب» عن عدّة منهم البلاذري والطبري والخوارزمي والخركوشي والواحدي والثعلبي والبستي والنسوي، ومغازي محمّد بن إسحاق، عن مجاهد، وفيه: وأخذ رسول اللّٰه علياً وهو ابن ست سنين، كسنه يوم أخذه أبو طالب[2] أي من أبيه عبد المطّلب عند وفاته. ولم يعيّن ذٰلك عن أيّ واحد ممّن أخذ منهم الخبر.

ومهما كان، فان كلام ابن أبي الحديد توجيه وجيه لكلام الإمام عليه السلام.

---

(١) شرح النهج ١ : ١٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٧٩ـ ١٨٠.

الفصل الثالث

البعثة النبويّة المباركة

كان النبيّ صلى الله عليه وآله منذ بدء أمره محدَّثاً مسدّداً:

روىٰ الشريف الرضيّ في «نهج البلاغة» عن علي عليه السلام أنّه قال في وصف الرسول صلى الله عليه وآله : «ولقد قرن اللّٰه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»[1].

وروى ابن أبي الحديد في شرحه : أن بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام سأله عن قول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾[2] فقال عليه السلام : «يوكلّ اللّٰه تعالىٰ بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدّون اليهم تبليغهم الرسالة. ووكّل بمحمّد ملكاً عظيماً منذ فُصل عن الرضاع يرشده الىٰ الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق»[3].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة : ٢٩٢ / المقطع : ١١٨ عن مسعدة بن صدقة عن الباقر عليه السلام .

(٢) الجن : ٢٧.

(٣) شرح النهج ١٣ : ٢٠٧.

ولعلّ من مصاديق ذٰلك ما رفعه ابن اسحاق يقول : ذُكر لي : أنّ رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ كان ممّا يحدّث به عمّا كان اللّٰه يحفظه به في صغره وأمر جاهليته ! أنّه قال : «لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما نلعب به ، فإنّي أُقبل معهم وأُدبر ، وكلّنا قد أخذ إزاره فجعله علىٰ عاتقه ليحمل عليه الحجارة فتعرّىٰ ! إذ لكمني لاكم ثمّ قال : شدّ عليك إزارك ، وما أراهُ فأخذته وشددته عليّ ، ثمّ جعلت أحمل الحجارة علىٰ رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي»[١].

وإنْ كان الطبري يروي في تأريخه بسنده عن محمّد بن الحنفية عن أبيه عليّ عليه‌السلام قال : «سمعت رسول اللّٰه يقول : ما هممتُ بشيء مِمّا كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرّتين ، كلّ ذٰلك يحول اللّٰه بيني وبين ما أُريد من ذٰلك ، ثمّ ما هممت بسوء حتّىٰ أكرمني اللّٰه برسالته.

قلتُ ليلةً لغلامٍ من قريش كان يرعىٰ معي بأعلىٰ مكّة : لو أبصرتَ لي غنمي حتّىٰ أدخل مكّة فأسمر بها كما يسمر الشباب (!) فخرجت أُريد ذٰلك ، حتّىٰ إذا جئت أول دار من دور مكّة ، سمعت عَزْفاً بالدّف والمزامير ، فقلت : ما هٰذا ؟ قالوا : هٰذا فلان تزوّج ابنة فلان. فجلست أنظر اليهم ، فضرب اللّٰه علىٰ أُذني فنُمت ، فما أيقظني إلّا مسّ الشمس ، فرجعت إلىٰ صاحبي ، فقال : ما فعلتَ ؟ فقلت : ما صنعتُ شيئاً ، ثمّ أخبرته الخبر.

ثمّ قلت له ليلة أُخرىٰ مثل ذٰلك ، فقال : افعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكّة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب اللّٰه علىٰ أُذني ، فما أيقظني إلّا مسّ الشمس ، فرجعت الىٰ صاحبي فأخبرته الخبر ، ثمّ ما هممت بعدها بسوء حتّىٰ أكرمني اللّٰه برسالته»[٢].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ١٩٤ .

(٢) الطبري ٢ : ٢٧٩ ورواه عنه ابن أبي الحديد ١٣ : ٢٠٧ .

هٰذا من مصاديق التسديد في السيرة، وأمّا في الفكرة: فمنه ما رواه الصدوق في «إكمال الدين» بسنده عن العباس بن عبد المطّلب عن أبي طالب في خبر بحيرا الراهب أنّه قال للنبيّ ﷺ: «يا غلام! أسألك بحق اللات والعُزّىٰ... فزعموا أنّ رسول اللّٰه قال له: لا تسألني باللات والعزّىٰ، فواللّٰه ما أبغضتُ شيئاً قط بُغضَها»(١).

أمّا قوله في الخبر السابق: «لكمني لاكم ثمّ قال: شدّ عليك إزارك، وما أراه» فنفهم منه أنّه ـ بناءً علىٰ ذٰلك وعلىٰ ما ورَد في كثير من الأخبار ـ كان محدَّثاً، من ذٰلك: ما رواه الصفّار (ت ٢٩٠ هـ) في كتابه «بصائر الدرجات» بسنده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام: مَن الرسول؟ من النبيّ؟ من المحدَّث؟ فقال: «الرسول: الّذي يأتيه جبرئيل فيكلّمه قُبلاً كما يرىٰ أحدكم صاحبه الّذي يكلّمه، فهٰذا الرسول» الىٰ قوله: «وأمّا المحدَّث، فهو: الّذي يسمع كلام الملَك فيحدّثه، من غير أنْ يراه، ومن غير أنْ يأتيه في النوم»(٢).

وما رواه الكليني في «أُصول الكافي» بسنده عن الأحول قال: سألت أبا جعفر عن الرسول والنبيّ والمحدَّث؟ قال: «الرسول: الّذي يأتيه جبرئيل قُبلاً فيراه ويكلّمه، فهٰذا الرسول» الىٰ قوله: «وأمّا المحدَّث، فهو: الّذي يحدَّث فيسمع، ولا يعاين، ولا يرىٰ في منامه»(٣).

ثمّ كان نبيّاً مُبشّراً:

وفي الخبرين نفسهما عن معنىٰ النبوة المجرّدة أي بلا رسالة، قال في الخبر

---

(١) إكمال الدين: ١٧٨ ـ ١٨٥. وابن هشام ١: ١٩٣ عن ابن إسحاق مرفوعاً.

(٢) كما في بحار الأنوار ١٨: ٢٧٠ عن بصائر الدرجات: ١٠٩ و ٣٧١ في ط. ١٣٨١ هـ. ونحوه خبر آخر فيه عنه عن الباقر عليه السلام أيضاً وآخر عنه عن الصادق عليه السلام.

(٣) أُصول الكافي ١: ١٧٦ ونحوه خبران آخران فيه عنه وعن الرضا عليه السلام.

الأول: «والنبيّ: الّذي يؤتىٰ في النوم، نحو رؤيا إبراهيم عليه‌السلام، ونحو ما كان يأخذ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله من السُبات إذا أتاه جبرئيل في النوم. فهٰكذا النبيّ» وقال في الخبر الثاني: «وأمّا النبيّ فهو: الّذي يرىٰ في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه‌السلام، ونحو ما كان رأىٰ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله من أسباب النبوة قبل الوحي، حتّىٰ أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة».

وروىٰ ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن الإمام الباقر عليه‌السلام: «وكّل (الله) بمحمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله ملكاً عظيماً منذ فُصل عن الرضاع، يرشده الىٰ الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق. وهو الّذي كان يناديه: السلام عليك يا محمّد يا رسول الله وهو شابّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أنّ ذٰلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرىٰ شيئاً»[١].

وفي التفسير المنسوب الىٰ الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام عن أبيه قال: «إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا ترك التجارة الىٰ الشام، وتصدّق بكل ما رزقه الله تعالىٰ من تلك التجارات، كان يغدو كلّ يوم الىٰ حِراء يصعده وينظر من قُلله الىٰ آثار رحمة الله، والىٰ أنواع عجائب رحمته وبدائع حكمته، وينظر الىٰ أكناف السماء وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، ويتذكر بتلك الآيات، ويعبد الله حقّ عبادته»[٢].

وقال الطبرسي في «اعلام الورى»: ذكر علي بن إبراهيم وهو من أجلّ رواة أصحابنا قال: «إنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا أتىٰ له سبع وثلاثون سنة، كان يرىٰ في نومه كأنّ آتياً أتاه فيقول: يا رسول الله! وكان بين الجبال يرعىٰ غنماً (لأبي طالب)، فنظر الىٰ شخص يقول له: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٠٧ وعنه في بحار الأنوار ١٥ : ٣٦١.

(٢) التفسير المنسوب الىٰ الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام كما في البحار ١٨ : ٢٠٥.

اليك ليتّخذك رسولاً. وكان رسول اللّٰه يكتم ذٰلك، فأنزل جبرئيل بماء من السماء فقال: يا محمّد قم فتوضأ، فعلّمه الوضوء علىٰ الوجه واليدين من المرفق، ومَسح الرأس والرجلين الىٰ الكعبين وعلّمه السجود والركوع»[١].

ونقل ذٰلك ابن شهر آشوب في كتابه «المناقب» وقبل ذٰلك بدأ فصل المبعث ببيان درجات البعثة فقال: «ولبعثته درجات: أوّلها: الرؤيا الصادقة، والثانية: ما رواه الشعبي، وداود بن عامر[٢]: أنّ اللّٰه قرن جبرئيل بنبوة نبيّه ثلاث سنين يسمع حسّه ولا يرىٰ شخصه، ويعلّمه الشيء بعد الشيء، ولا ينزل عليه القرآن. فكان في هذه المدّة مبشّراً غير مبعوث الىٰ الاُمّة».

ويقصد بما رواه الشعبي: ما رواه ابن سعد في «الطبقات» عن الواقدي بسنده عنه قال: قُرن إسرافيل بنبوة رسول اللّٰه ثلاث سنين، يسمع حسّه ولا يرىٰ شخصه، ثمّ كان بعد ذٰلك جبرئيل عليه السلام[٣].

ويقصد بما رواه داود عن عامر الشعبي أيضاً: ما رواه عنه الطبري أيضاً قال: أُنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن علىٰ لسانه. فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبرئيل عليه السلام. فنزل القرآن علىٰ لسانه عشر سنين بمكّة، وعشر سنين بالمدينة[٤].

---

(١) «إعلام الورىٰ» ١: ١٠٢، وعنه في قصص الأنبياء: ٣١٨ وعنه ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٤٣. وفي آخر خبر الطبرسي: فلمّا تمّ له أربعون سنة أمره بالصلاة وعلّمه حدودها، ولم ينزّل عليه أوقاتها فكان يصلي ركعتين ركعتين في كلّ وقت». وسيأتي وجه تأخير ذكر الركوع عن السجود.

(٢) كذا في المناقب ١: ٤١ والصحيح: مارواه داود عن عامر الشعبي.

(٣) الطبقات ١: ١٩١ والطبري ٢: ٣٨٦ عنه.

(٤) الطبري ٢: ٣٨٧.

وقال الطبري بعد هٰذا: فلعلّ الّذين قالوا: كان مُقامه بمكّة بعد الوحي عشراً، عدّوا مُقامه بها من حين أتاه جبرئيل بالوحي من اللّٰه عزّوجلّ، وأظهر الدعاء الىٰ التوحيد وعدَّ الّذين قالوا: كان مُقامه ثلاث عشرة سنة، من أوّل الوقت الّذي استنبىء فيه، وكان المقرون به إسرافيل، وهي السنون الثلاث الّتي لم يكن أُمر فيها بإظهار الدعوة[١].

ولكن يبقىٰ أنّ ابن شهر آشوب بدّل جبرئيل بإسرافيل سهواً.

أمّا من طرقنا فلا أقلّ ممّا ذكره الشيخ المفيد في «الاختصاص» قال: «قُرن إسرافيل برسول اللّٰه ﷺ ثلاث سنين، يسمع الصوت ولا يرىٰ شيئاً، ثمّ قرن به جبرئيل عليه السلام عشر سنين، وذٰلك حيث اوحي اليه، فأقام بمكّة عشر سنين ثمّ هاجر إلىٰ المدينة فأقام بها عشر سنين[٢].

وهٰذا يعني أنّ تلك السنوات الثلاث كانت منذ بدء البعثة في الأربعين من عمره ﷺ الىٰ الثالث والأربعين، كما نصّ عليه خبر الشعبي وما ذكره الشيخ المفيد وابن شهر آشوب.

فعلىٰ ماذا كان قبل البعثة؟

قبل أنْ نقف وإيّاكم علىٰ مختلف الأخبار في هٰذا المضمار، لنعد فنعيد النظرة علىٰ واقع حال الرسول ﷺ فيما قبل البعثة من حيث العبادة والدّيانة.

والحقيقة هي أنّ واقع الحال في البعثة وما قبلها غير بيّن، فالقرآن الكريم

---

(١) الطبري ٢ : ٣٨٧ ورواه ابن سعد في الطبقات ١ : ١٢٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٣ : ٤ واليعقوبي ٢ : ٢٣ مرسلاً. وروىٰ الحاكم في المستدرك ٢ : ٦١ عن سعيد بن المسيب أنّ القرآن نزل علىٰ الرسول وهو ابن ثلاث وأربعين.

(٢) الاختصاص : ١٣٠، و لا نؤكد نسبة الاختصاص الىٰ الشيخ المفيد.

يقول : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾[١] فحيث لم يكن يدري قبل بعثته ما الكتاب ولا الايمان فهل لم يكن كذٰلك يؤمن ويتديّن بكتاب أو دين كما هو ظاهر لفظ القرآن الكريم ؟ أم ماذا ؟

وأقدم ما نعلم من السابقة التأريخية لهذا التساؤل ـ مع الأسف ـ ليس عصر الرسول نفسه أو المعصومين من عترته عليهم‌السلام ، بل حتّىٰ بعد عصر الغيبة الصغرىٰ وفي بدايات الغيبة الكبرىٰ ، فقد طرح هٰذا السؤال نفسه ضمن مسائل علم الأُصول ، واليك نماذج من ذٰلك :

السيد المرتضىٰ علم الهدىٰ رحمه‌الله يقول في كتابه «الذريعة الىٰ أُصول الشريعة» : «قد استقصينا هٰذا الكلام وفرغناه في كتاب «الذخيرة »»[٢] ويقرّره كذٰلك في «الذريعة» فيقول : «هل كان رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله متعبّداً بشرائع من تقدّمه من الأنبياء عليهم‌السلام ؟ في هٰذا الباب مسألتان : إحداهما : قبل النبوة ، والأُخرىٰ : بعدها . وفي المسألة الأُولىٰ ثلاثة مذاهب : احدها : أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله ما كان متعبداً قطعاً . والآخر : أنّه كان متعبّداً قطعاً . والثالث : التوقف . وهٰذا هو الصحيح . والّذي يدلّ عليه : أنّ العبادة بالشرائع تابعة لما يعلمه اللّٰه تعالىٰ من المصلحة بها في التكليف العقلي ، ولا يمتنع أنْ يعلم اللّٰه تعالىٰ أنْ لا مصلحة للنبيّ قبل نبوته في العبادة بشيء من الشرائع ، كما أنّه غير ممتنع أنْ يعلم أنّ له في ذٰلك مصلحة ، واذا كان كلّ واحد من الأمرين جائزاً ، ولا دلالة توجب القطع علىٰ أحدهما ، وجب التوقف .

---

(١) الشورىٰ : ٥٢ .

(٢) حقق الكتاب المحقق السيد أحمد الحسيني ، وطبع في مؤسسة النشر الإسلامي بقم المقدّسة سنة ١٤١١ هـ في ٦٠٧ صفحة ، يبدأ فيه باب النبوات من ٣٢٢ الى ٤٠٨ ولم أجد الكلام المذكور فيه ولا في سائر أبواب الكتاب ، بل التحويل على الذخيرة لا يوجد في الذريعة أيضاً ٢ : ٥٩٥ ط جامعة طهران .

وليس يقتضي علمه صلى الله عليه وآله بأنْ غيره نبيّ أن يتعبّد بشريعته، بل لابد من أمر زائد علىٰ هٰذا العلم. ولو ثبت أنّه حج أو اعتمر قبل نبوّته لقُطع به علىٰ أنّه كان متعبداً، وبالتظنّي لا يثبت مثل ذٰلك. ولم يثبت أنّه تولىٰ التذكية بيده، ولو ثبت أنّه ذكّىٰ بيده لجاز أنْ يكون من شرع غيره في ذٰلك الوقت أنْ يستعين بغيره في الذكاة فذكّىٰ علىٰ سبيل المعونة لغيره، ولا شبهة في أنّ أكل لحم المذكّىٰ غير موقوف علىٰ الشرع، لأنّه بعد الذكاة يصير مثل كلّ مباح.

وليس لمن قطع علىٰ أنّه ما كان متعبداً أنْ يتعلّق بالقول: بأنّه لو كان تعبّد بشيء من الشرائع لكان فيه متّبعاً لصاحب تلك الشريعة ومقتدياً به، وذٰلك لا يجوز، لأنّه أفضل الخلق، واتّباع الأفضل للمفضول قبيح.

ذٰلك أنّه غير ممتنع أنْ يوجب اللّٰه تعالىٰ عليه بعض ما قامت عليه الحجة به من بعض الشرائع المتقدمة لا علىٰ وجه الاقتداء بغيره فيها ولا الاتّباع»[١].

وقال المحقّق أبو القاسم الحلّي ـ طيّب اللّٰه رمسه ـ في أُصوله: «لو كان متعبّداً بشرع من قبله لكان طريقه الىٰ ذٰلك إمّا الوحي أو النقل، ويلزم من الأوّل: أنْ يكون شرعاً له لا شرعاً لغيره، ومن الثاني: التعويل علىٰ نقل اليهود، وهو باطل، لأنّه ليس بتواتر، لما تطرق إليه من القدح المانع من إفادة اليقين. ونقل الآحاد منهم لا يوجب العمل، لعدم الثقة.

ولو كان متعبّداً بشرع غيره لوجب عليه البحث عن ذٰلك الشرع، لكنّ ذٰلك باطل، لأنّه لو وجب لفعله، ولو فعله لاشتهر، ولوجب علىٰ الصحابة والتابعين والمسلمين الىٰ يومنا هٰذا متابعته علىٰ الخوض فيه، ونحن نعلم من الدّين خلاف ذٰلك»[٢].

---

(١) الذريعة الىٰ أُصول الشريعة ٢: ٥٩٥، ٥٩٦ ط جامعة طهران.

(٢) كما في بحار الأنوار ١٨: ٢٧٥ـ ٢٧٦ باختصار. أما في كتابه «معارج الأُصول» ←

فالسيد المرتضىٰ توقّف، والمحقّق نفىٰ وأنكر، ولكنّ تلميذه العلامة عاد فتوقف: فقد قال -قدّس اللّٰه روحه- في شرحه علىٰ «مختصر الأُصول» لابن الحاجب: «اختلف الناس في أنّ النبيّ ﷺ هل كان متعبداً بشرع أحد من الأنبياء قبله قبل النبوة؟ أم لا؟ فذهب جماعة إلىٰ أنّه كان متعبداً. ونفاه آخرون.

والمثبتون اختلفوا: فذهب بعضهم إلى أنّه: كان متعبّداً بشرع نوح، وآخرون: بشرع إبراهيم، وآخرون: بشرع موسىٰ، وآخرون: بشرع عيسىٰ، وآخرون: بما ثبت أنّه من الشرع».

ولم يتكلم العلّامة فيه بما ينمّ عن مختاره وانّما قرّر مختار ابن الحاجب الشافعي (ت ٦٤٦ هـ) بأنّه كان متعبداً بما ثبت بالتواتر أنّه من شرع قبله، عيسىٰ بل موسىٰ عليهما السلام، فإنّ شريعة عيسىٰ هي شريعة موسىٰ عليه السلام في الأعم الأغلب.

وقرّر استدلاله لذلك «بما نقل نقلاً -يقارب التواتر- أنّه كان يصلّي ويحجّ ويعتمر ويطوف بالبيت، ويتجنّب الميتة ويذكّي ويأكل اللحم، ويركب الحمار (!) وهٰذه أُمور لا يدركها العقل، فلا مصير اليها إلّا من الشرع».

ولكنّه ردّ استدلال غيره علىٰ هٰذا المذهب نفسه: «بأنّ عيسىٰ كان مبعوثاً إلىٰ جميع المكلّفين، والنبيّ كان من المكلّفين، فيكون عيسىٰ مبعوثاً اليه» فقال: «لا نسلّم عموم دعوة من تقدّمه».

← المطبوع فكما يلي: فائدة: اختلف الناس في النبيّ ﷺ هل كان متعبداً بشرع من قبله؟ أم لا؟ وهٰذا الخلاف عديم الفائدة، لأنا لا نشك في أن جميع ما أتىٰ به لم يكن نقلاً عن الأنبياء عليهم السلام، بل عن اللّٰه تعالىٰ بواسطة الملك، ونُجمع على أنه ﷺ أفضل الأنبياء، وإذا أجمعنا علىٰ ثمرة المسألة فالدخول بعد ذلك فيها كلفة: ١٢١. انتهىٰ، وقد ذكر العلّامة الطهراني للمحقق كتاباً آخر في الأُصول باسم «نهج الوصول» الذريعة ٢٤: ٤٢٦، ٤٢٧ فلعل المجلسي نقل كلامه من ذلك الكتاب، ولم يسمّه.

ولكنّه قـال: إنّ الشرع المنقول اليه إن كان آحاداً فهو غير مقبول وأمّا إذا كان متواتراً فقد كان يعمل به من دون لزوم المخالطة لأرباب تلك الشريعة، حتّىٰ يلزم عدم تعبده به من عدم مخالطته لهم. فالنتيجة: أنّه كان يعمل بما ثبت بالتواتر أنّه شرع قبله، بدليل نقلي يقارب التواتر، كما قال.

وقد تقدّم من السيد المرتضىٰ: أنّه لو ثبت لقُطع به علىٰ أنّه كان متعبداً، ولكنّه لم يثبت عنه، والتظنّي لا يُثبت مثل ذلك.

أمّا النصوص المتقدمة فإنّما دلّت على أنّه ﷺ كان في فكره وسلوكه الديني العقائدي العقلي والعملي محدَّثاً مسدّداً.

وبخصوص الصلاة فقد مرّ خبر الطبرسي عن علي بن إبراهيم القمّي: أنّه بعد ما «أتىٰ عليه سبع وثلاثون سنة... نزل عليه جبرئيل وأنزل عليه ماءً مـن السماء وعلّمه الوضوء والسجود والركوع»[1] فقط، لا الصلاة بحـدودها وأوقاتها ففي تمام الخبر: «فلمّا تمَّ له أربعون سنة عـلّمه حـدود الصـلاة ولم يـنزّل عـليه أوقـاتها، فكان يصلي ركعتين ركعتين في كلّ وقت»[2] ممّا يدلّ عليه كثير من معتبر الأخبار، في تفصيل تشريع الصلوات في أبواب عديدة من «وسائل الشيعة» وكـذلك لدىٰ أهل السنة.

وأمّا شأنه ﷺ في كثير من المناسك والمناهي والتروك فليكن كشأن آبائه وأجـداده الأمجاد ممّا دلّ عليه كثير من الأخبار التأريخية وغيرها كما مرّ في محلّه، أمّا أكثر من ذلك التحنّث بالحنيفية «الإبراهيمية» فلا نصّ يصرّح بـه، ولا دليـل عليه.

---

(١) اعلام الورى: ٣٦ وسيأتي وجه تقديم السجود على الركوع.

(٢) إعلام الورىٰ ١: ١٠٢.

وإنْ كـان المولىٰ المجـلسي ـقـدس اللّـه سره ـ قـال: «إنّ الّـذي ظـهر لي من الأخبار المعتبرة والآثار المستفيضة هو: أنّه ﷺ كان قبل بعثته ـ منذ أكمل اللّه عقله في بدو سنّه ـ نبيّاً مؤيّداً بروح القدس، يكلّمه الملك ويسمع الصوت، ويرىٰ في المنام... وكان يعبد اللّه بصنوف العبادات إمّا موافقاً لـما أمـر بـه النـاس بـعد التبليغ، وهو أظهر، أو علىٰ وجه آخر، إمّا مطابقاً لشريعة إبراهـيم عليه السلام أو غـيره ممّن تقدّمه من الأنبياء، لا علىٰ وجه كونه تابعاً لهم وعـاملاً بـشريعتهم، بـل بأنّ ما أُوحي اليه كان مطابقاً لبعض شرائعهم، أو علىٰ وجه آخـر، نسخ بما نزل عليه بعد الإرسال. ولا أظن أنْ يخفىٰ صحة ما ذكرت علىٰ ذي فطرة مسـتقيمة وفـطنة غير سقيمة... ولنذكر بعض الوجوه لزيـادة الاطـمئنان، عـلىٰ وجـه الإجمـال» ثمّ ذكر وجوها ستة[1].

ولنعد لنَستثني من نفينا لنصّ صريح في الإجابة علىٰ السؤال بهٰذا الشـأن: ما رواه الكليني في «أُصـول الكـافي» بسـنده عـن أبي حـمـزة الثمـالي قـال: «سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن العلم أهو شيء يتعلمه العالم [منكم] من أفواه الرجال؟ أمْ في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟

قال: الأمرُ أعظم مِنْ ذلك وأوجب، أمّا سمِعت قول اللّهِ عزّوجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾[2] ثمّ قال: أيّ شيء يقول أصحابكم في هٰذه الآية؟ أيقرّون أنّه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان؟ فقلت: لا أدري ـجعلت فداك ـ ما يقولون، فقال: بلىٰ قـد كـان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان، حتّىٰ بعث اللّه ـعزّوجلّ ـ الروح الّتي ذكر

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ٢٧٧ ـ ٢٨١.

(٢) الشورىٰ: ٥٢.

في الكتاب، فلمّا أوحاها اليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح الّتي يعطيها اللّه ـ عزّوجلّ ـ من شاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم»[١].

فسؤال الثمالي في هذا الخبر من الإمام الصادق عليه‌السلام وإنْ كان عن مصدر العلم للعالم الإلهي الرّباني، ولم يكن السؤال عن حال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله قبل البعثة من حيث الديانة والعبادة إلّا أنّ الإمام أجابه بما اشتمل على ذلك إذ قال: بأنّ مصدر العلم للعالم الإلهي الرّباني هي الروح الّتي يعطيها اللّه من شاء من عباده، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم، بعد ما كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الايمان، كما في نصّ القرآن.

ولكنّ المولى المجلسي فسّر الروح هنا بروح القدس وقال كما مرّ: «كان منذ أكمل اللّه عقله في بدو سنّه نبيّاً مؤيداً بروح القدس» ولذلك أجاب عن الاستدلال بالآية يقول: «وأمّا استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ فلا يدلّ إلّا على أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان في حال لم يكن يعلم القرآن وبعض شرائع الايمان، ولعلّ ذلك كان في حال ولادته قبل تأييده بروح القدس، كما دلّت عليه رواية أبي حمزة وغيرها»[٢].

إذن يبقى علينا أنْ نبيّن معنى الروح:

قد روى الكليني في «أُصول الكافي» بسنده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبداللّه عليه‌السلام عن قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾؟ قال: «خلق من خلق اللّه أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمة من بعده»[٣].

---

(١) أُصول الكافي ١ : ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٢٨١.

(٣) أُصول الكافي ١ : ٢٧٣.

وروىٰ فيه بسنده عنه أيضاً قال: سألت أبا عبد اللّٰه عليه‌السلام عن قول اللّٰه عزّوجلّ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[١] قال: «خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله، وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت»[٢].

وروىٰ فيه بسنده عنه أيضاً قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه‌السلام يقول: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممَّن مضىٰ غير محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله، وهو مع الأئمة يسدّدهم، وليس كلّ من طلب وجد»[٣].

وروىٰ فيه بسنده عن المفضل بن عمر قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته، مُرخىٰ عليه ستره؟ فقال: «يا مفضّل، إنّ اللّٰه تبارك وتعالىٰ جعل في النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله خمسة أرواح: روح الحياة فبه دبّ ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب، وأتىٰ النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه امن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوة ـ فإذا قبض النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله انتقل روح القدس فصار إلىٰ الإمام ـ وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو ـ والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتلهو وتسهو ـ وروح القدس كان يَرىٰ به»[٤].

ونقله المجلسي وقال في بيانه: «أي كان يرىٰ النبيّ والإمام بروح القدس ما غاب عنه في أقطار الأرض والسماء وما دون العرش»[٥].

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) أُصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٣) أُصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٤) أُصول الكافي ١ : ٢٧٣.

(٥) بحارالأنوار ١ : ٢٦٤.

فإذا ضممنا الىٰ ذٰلك أنّه لم يكن يرىٰ جبرئيل ولا أيّ ملك قبل نزول وحي القرآن عليه وإنّما كان يسمع ويحسّ ولا يرىٰ الشخص، كما مرَّ في الخبر المعتبر، أنتج: أنّ هٰذا الروح ـروح القدس ـأيضاً لم يكن معه قبل نزول وحي القرآن عليه، وإنّما أُوتيه بعد ذٰلك أو معه، لا قبله منذ اكتمال عقله في بدوّ سنّه كما ذهب اليه المولىٰ المجلسي ـقدّس اللّٰه سره ـ.

وتعليق الكلام علىٰ الوصف إنْ كان مُشعراً بالعلّية ـكما هو الحقّ ـ فقد علّق الإمام عليه‌السلام وجود هٰذه الروح علىٰ وصف الرسالة: «كان مع رسول اللّٰه» في الخبرين الأوّلين، وليس حتّىٰ النبوة، ممّا يشعر بأنّ هٰذه الروح ـروح القدس ـ كانت مصاحبة مع وصف الرسالة ومتزامنة في البداية معها، لا قبلها، حتّىٰ مع النبوة، فضلاً عمّا قبلها. ولا يقدح في هٰذا خلوّ الخبر الثالث من هٰذا التعليق، فانّه بصدد النفي عن غيره لا الإثبات له.

وبعد كلّ ما تقدم، فإن ما نستطيع الجزم به هو: أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله كان مؤمناً موحداً يعبد اللّٰه ويلتزم بما ثبت له أنّه شرع اللّٰه تعالىٰ، وبما يؤدّي إليه عقله الفطري السليم، والمؤيد المسدّد، فكان أفضل الخلق واكملهم خلقاً وخُلُقاً وعقلاً... وعليه فما يذكر عنه ممّا يتنافىٰ مع التسديد وفقاً لشرع اللّٰه، لا أساس له من الصحة... كالخبر عن استلامه الأصنام! ذٰلك ما نقله القاضي عياض في كتابه «الشفا في أحوال المصطفىٰ» ثمّ نقل عن أحمد بن حنبل: أنّه حديث موضوع[1].

مع أنّ المؤرخين ـومنهم المسعودي ـ عدّوا عدداً من العرب الجاهليين لم يشاركوا الجاهلية في شركها، كقُسّ بن ساعدة الإيادي، وأُميّة بن أبي الصلت الثقفي، وزيد بن عمرو بن نُفَيل العدوي، وأبيه عمرو بن نُفيل أخي الخطّاب بن نُفيل

---

(١) كما في السيرة الحلبية ١ : ١٢٥ و ٢٧٠. والسيرة النبوية لدحلان ١ : ٥١. راجع الصحيح ١ : ١٥٨.

أبي عمر بن الخطاب، وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام ويعيبها، فأولع به عمّه الخطاب سفهاء مكّة وسلّطهم عليه فآذوه، فصار إلىٰ الشام يبحث عن الدّين فسمّته النصارىٰ ومات بالشام[١].

فعدّوا ابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة[٢] وعدّوه من الحنفاء حتّىٰ أنّهم رووا: أنّ زيداً مرّ علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يأكل مع سفيان ابن الحرث من سفرة قدّمت لهما فيها شاة ذبحت لغير اللّٰه تعالىٰ، فدعواه الىٰ الطعام فرفض زيد وقال: أنا لا آكل ممّا تذبحون علىٰ أنصابكم، ولا آكل إلّا ما ذكر آسم اللّٰه عليه! فمنذ ذٰلك اليوم لم يُر النبيّ يأكل ممّا ذبح علىٰ النُصُب حتّىٰ بُعث![٣].

---

(١) مروج الذهب ١ : ٨٢ ـ ٨٩.

(٢) مروج الذهب ١ : ٨٤.

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٥٠ و ٧ : ١١٨ وفي شرحه : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧ : ١٠٨ و ١٠٩. ومسند أحمد ١ : ١٨٩. والسيرة الحلبية ١ : ١٢٣. والروض الأنف ١ : ٢٥٦.

والأخير تنبّه الىٰ تساؤل فطرحه يقول: «كيف وفّق اللّٰه زيداً الىٰ ترك ما ذُبح علىٰ النُصُب وما لم يذكر آسم اللّٰه عليه، ورسوله ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ كان أولىٰ بهٰذه الفضيلة في الجاهلية؛ لما ثبت من عصمة اللّٰه له».

ولكنّه تساهل في الجواب علىٰ هٰذا التساؤل فقال يعتذر لذٰلك: «ليس في الرواية أنّه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قد أكل من السفرة (!) وعلىٰ فرض أنّه قد أكل فإن شرع إبراهيم عليه السلام إنّما جاء بتحريم الميتة لا بتحريم ما ذُبح لغير اللّٰه تعالىٰ (!) أمّا زيد فلعلّه امتنع عن أكل ما ذُبح لغير اللّٰه برأي رآه، لا بشرع متقدم»!

وكذٰلك رجّح العسقلاني في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» أنّ زيداً قد أدرك ذٰلك برأيه(!)

ونقول: لئن أدرك ذٰلك زيد برأيه ولم يدرك النبيّ صلى الله عليه وآله ذٰلك، فلقد كانت النبوّة بزيد أليق منها به صلى الله عليه وآله، والعياذ بالله من فضيلة لابن عمّ الخليفة تمحق حتّىٰ فضيلة النبوة!.

ثمّ كان نبيّاً رسولاً:

روىٰ الصفّار بسنده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام: مَن الرسول؟ مَن النبيّ؟ مَن المحدَّثُ؟ فقال: «الرسول... والنبيّ... ومنهم من تجمع له الرسالة والنبوة، فكان رسول اللّٰه رسولاً نبيّاً: يأتيه جبرئيل قُبلاً فيكلّمهُ ويراه، ويأتيه في النوم»[(١)].

وروىٰ الكليني بسنده عن الأحول قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن الرسول؟ والنبيّ؟ والمحدَّث؟ قال: الرسول... وأمّا النبيّ... وكان محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله حين جُمعت له النبوة وجاءته الرسالة من عند اللّٰه يجيئه بها جبرئيل ويكلّمه بها قبلاً»[(٢)].

وقد مرّ ما ذكره الشيخ المفيد: «قُرن إسرافيل برسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله ثلاث سنين، يسمع الصوت ولا يرىٰ شيئاً. ثمّ قرن به جبرئيل عشرين سنة، وذلك حيث أُوحي إليه. فأقام بمكّة عشر سنين، ثمّ هاجر الىٰ المدينة فأقام بها عشر سنين. وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة»[(٣)].

وروىٰ الصدوق بسنده عن محمّد بن مسلم عن الباقر عليه‌السلام قال: «لقد مكث رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله بمكّة ثلاث سنين مختفياً خائفاً يترقّب، ويخاف قومه والناس. وما أجاب رسولَ اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله أحد قبل علي بن أبي طالب وخديجة ـ صلوات اللّٰه عليهما ـ»[(٤)].

فأوّلاً ـ كان الخوف والإختفاء حتّىٰ عن قومه فضلاً عن سائر الناس.

وثانياً ـ مع ذلك كانت الدعوة قد شملت علياً وخديجة واستجابا له ومعه.

---

(١) بصائر الدرجات: ٣٧١ ط ١٣٨١ هـ.

(٢) أُصول الكافي ١: ١٧٦.

(٣) الاختصاص: ١٣٠. ولا نؤكّد صحة نسبة الكتاب الى الشيخ المفيد.

(٤) إكمال الدين: ١٨٩ و ١٩٧ كما في البحار ١٨: ١٧٧ و ١٨٨.

وروىٰ فيه بسنده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: «مكث رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة بعد ما جاءه الوحي عن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ ثلاثة عشر سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر، حتّىٰ أمره الله أنْ يصدع بما أُمر به، فأظهر الدعوة حينئذٍ»[١].

وروىٰ فيه بسنده عنه عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: «كان رسول الله مختفياً بمكّة خائفاً ثلاث سنين ليس يُظهر أمره، وعلي معه وخديجة، ثمّ أمره الله أنْ يصدع بما أُمر به، فظهر رسول الله وأظهر أمره»[٢].

وروىٰ علي بن إبراهيم القمّي قال: «سئل الصادق عليه السلام عن قوله [تعالىٰ]: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ كيف كان؟ وإنّما أُنزل القرآن في طول عشرين سنة؟ فقال: إنّه نزل جملة واحدة في شهر رمضان الىٰ البيت المعمور ثمّ نزل من البيت المعمور الىٰ النبيّ في طول عشرين سنة»[٣].

ورواه العياشي في تفسيره[٤] ورواه الكليني في «أُصول الكافي» بإسناده عن القميّ عن أبيه الىٰ حفص بن غياث عنه عليه السلام[٥] واستند اليه الشيخ الصدوق في عقائده[٦].

واليه يعود ما رواه الطبري في تأريخه بسنده عن ابن عباس وسعيد ابن المسيّب قالا: «أُنزل علىٰ رسول الله الوحي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة»[٧].

---

(١) إكمال الدين: ١٨٩ و ١٩٧ كما في البحار ١٨: ١٧٧ و ١٨٨.

(٢) إكمال الدين: ١٩٧ كما في البحار ١٨: ١٨٨.

(٣) تفسير القمي ١: ٦٦.

(٤) تفسير العياشي ١: ٨٠.

(٥) أُصول الكافي ١: ٦٢٨.

(٦) عقائد الصدوق: ٥٦.

(٧) الطبري ٢: ٢٩٢. ورواه الحاكم في المستدرك ٢: ٦١٠.

وأوضح منه ما مرّ عن الطبري أيضاً بسنده عن عامر الشعبي قال: «إنّ رسول اللّٰه نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشيء ولم ينزّل القرآن. فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبرئيل فنزل القرآن علىٰ لسانه عشرين سنة: عشراً بمكّة وعشراً بالمدينة»[1].

والّذي نريده من هٰذه الروايات هو أنّ مبدأ نزول القرآن الكريم كان متأخراً عن النبوة بثلاث سنين، فإذا لاحظنا الروايات القائلة بأنّ مدّة نزول القرآن علىٰ النبيّ استغرقت عشرين عاماً، مع الروايات القائلة بأنّ مدّة مكث النبيّ بعد النبوة بمكّة كانت ثلاث عشرة سنة، استنتجنا: أنّ مبدأ نزول القرآن كان بعد النبوة بثلاث سنين، إذ لا شكّ أنّ القرآن كان ينزل عليه حتّىٰ عام وفاته[2].

نعم روىٰ الطبري كذٰلك عن ابن سعد عن الواقدي بسنده عن الشعبي أيضاً قال: «قرن إسرافيل بنبوة رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ ثلاث سنين، يسمع حسّه ولا يرىٰ شخصه، ثمّ كان بعد ذٰلك جبرئيل عليه‌السلام» قال الواقدي: فذكرت ذٰلك لمحمّد بن صالح بن دينار فقال: واللّٰه يابن أخي لقد سمعت عبد اللّٰه بن أبي بكر بن حَزْم، وعاصمَ بنَ عمرَ ابنَ قَتادة يحدّثان في المسجد ورجل عراقي يقول لهما هٰذا، فانكراه جميعاً وقالا: ما سمعنا ولا علمنا إلّا أنّ جبرئيل هو الّذي قُرن به، وكان يأتيه الوحي من يوم نُبّئ الىٰ أن توفّي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ[3].

ولكن قال عنه صاحب «التمهيد»: «هٰذه الرواية وإنْ كان فيها أشياء

---

(١) الطبري ٢ : ٣٨٧ وابن سعد في الطبقات ١ : ١٢٧ ومثله اليعقوبي مرسلاً ٢ : ٢٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٣ : ٤ عن ابن حنبل، والسيوطي في الإتقان ١ : ٤٥.

(٢) التمهيد ١ : ٨٢.

(٣) الطبري ٢ : ٣٨٧ وفي الطبقات ١ : ١٩١.

لا نعرفها، ولعلّها من اجتهاد الشعبي الخاص، لكنّ الّذي نريده من هٰذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدة عشرين عاماً وأنّ نزوله تأخّر عن البعثة بثلاث سنين»[١].

وقد مرّ أنّ الطبري جمع بهٰذا القول بين القول المشهور بأنّ مقام الرسول بمكّة بعد الدعوة كان الىٰ ثلاث عشرة سنة، وبين ما رواه هو عن ابن عباس بأن مقامه بها كان الىٰ عشر سنين، فالعشر سنين من حين أتاه جبرئيل بالوحي القرآني من اللّٰه عزّوجلّ وإظهاره الدعوة الى التوحيد، وثلاث عشرة سنة من أوّل البعثة بالنبوة[٢].

ولا نريد بنقل قول الشعبي أو ما قاله الشيخ المفيد في «الاختصاص» إثبات اختصاص إسرافيل بالثلاث سنين الأُولىٰ من النبوة، واختصاص جبرئيل بالوحي القرآني بعد ذٰلك، علىٰ خلاف المعروف والمشهور في أخبار البعثة.

يوم المبعث:

وقبل أَنْ نقف علىٰ طرف من أخبار البعثة: لنقف علىٰ الأخبار الّتي تعيّن يوم المبعث، ولا تعوزنا النصوص فيه: فقد روىٰ الكليني بسنده عن الصادق عليه السلام قال: «لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنّه اليوم الّذي أُنزلت فيه النبوّة علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله»[٣] ورواه الصدوق[٤] والطوسي[٥] وروىٰ مثله في أماليه[٦].

---

(١) التهيد ١ : ٨٣.

(٢) الطبري ٢ : ٣٨٧.

(٣) الفروع من الكافي ٢ : ١٤٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٩٠ عن الحسن بن راشد عن الصادق عليه السلام. وثواب الأعمال : ٩٩.

(٥) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨.

(٦) أمالي ابن الشيخ : ٢٨.

وروىٰ الكليني عنه عليه‌السلام أيضاً قال: «يوم سبعة وعشرين من رجب نُبّىء فيه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله»[١].

وروىٰ بسنده عن الرضا عليه‌السلام قال: «بعث الله عزّوجلّ محمّداً رحمة للعالمين، في سبع وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً»[٢] ورواه الطوسي[٣].

وروىٰ الصدوق بسنده عنه عليه‌السلام أيضاً قال: «بعث الله محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله لثلاث ليال بقين من رجب، وصوم ذلك اليوم كصوم سبعين عاماً»[٤].

وروىٰ الطوسي بسنده عن الهادي عليه‌السلام قال: «يوم السابع والعشرين من رجب يوم بعث الله محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله الىٰ خلقه رحمةً للعالمين»[٥].

وروىٰ ابن شهر آشوب عن ابن عباس وأنس بن مالك قالا:

«أوحىٰ الله الىٰ محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب»[٦] ومن العامّة روىٰ المتّقي الهندي في «كنز العمّال» عن البيهقي في «شعب الإيمان»، عن سلمان الفارسي قال: «في رجب يوم وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مئة سنة وقام مئة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله محمّداً»[٧].

---

(١) الفروع من الكافي ١ : ٤٦٩.

(٢) الفروع من الكافي ٢: ١٤٩.

(٣) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨.

(٤) ثواب الأعمال : ٨٣.

(٥) تهذيب الأحكام ١ : ٤٣٨ الىٰ خبرين آخرين رواهما الشيخ في مجالسه : ٣٤٩ عن الصادق عليه‌السلام وفي مصباح المتهجد عن الجواد عليه‌السلام في صيام ذلك اليوم من دون ذكر للبعثة. وراجع وسائل الشيعة ٧: ٣٢٩.

(٦) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣.

(٧) منتخب كنز العمال بهامش المسند ٣ : ٣٦٢.

وأورد الحلبي في سيرته عن الدمياطي في سيرته عن أبي هريرة قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب، كتب اللّٰه تعالىٰ له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الّذي نزل فيه جبرئيل علىٰ النبيّ بالرسالة، وأوّل يوم هبط فيه جبرئيل»(١).

وإنْ كانت النصوص من جانب أهل السنة تعوزهم في تعيين يوم المبعث الشريف، فقد مرّ ما لا إعواز معه من النصوص في ذٰلك من طريق أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولكنْ لابد لنا ولا محيص عن الاعتراف بإعواز النصوص في كيفية بدء البعثة.

كيفية بدء البعثة:

رُوي أنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال وهو يصف بعثة النبي محمّد صلى الله عليه وآله: «... حتّىٰ استكمل سنّ الأربعين، ووجد اللّٰه قلبه الكريم أفضل القلوب وأجلّها، وأطوعها وأخشعها، فأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمّد صلى الله عليه وآله ينظر إلىٰ ذٰلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر الىٰ الروح الأمين جبرئيل المطوّق بالنور طاووس الملائكة، هبط إليه وأخذ بضبعه وهزّه وقال: يا محمّد! إقرأ، قال: ما أقرأ؟ قال: يا محمّد! ﴿ **اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾(٢) ثمّ أوحىٰ اليه ما أوحىٰ وصعد جبرئيل الىٰ ربه.

ونزل محمّد من الجبل وقد غشيه من عظمة اللّٰه وجلال أُبّهته ما ركبه الحمّىٰ النافضة، وقد اشتدّ عليه ما كان يخافه من تكذيب قريش إيّاه ونسبته الىٰ الجنون، وقد كان أعقل خلق اللّٰه واكرم بريّته، وكان أبغض الأشياء اليه الشياطين وأفعال

---

(١) السيرة الحلبية ١ : ٣٨٤ وفي آخره دعمٌ لدعوىٰ الشعبي.

(٢) العلق : ١ ـ ٥.

المجانين، فأراد اللّٰه أن يشجّع قلبه ويشرَحَ صَدْرَه، فجعل كلما يمرّ بحجر وشجر ناداه: السلام عليك يا رسول اللّٰه»[١].

هٰذا الخبر هو ممّا يدل علىٰ أنّ أوّل سورة نزلت ـ أو الآيات الأُولىٰ ـ هي هٰذه الآيات الخمس الأُوَل من سورة العلق، ولكنّه الخبر الوحيد الّذي يدلّ علىٰ أنّها نزلت في بداية البعثة في اليوم ٢٧ رجب.

أوّل ما نزل من القرآن:

أمّا ما يدلّ علىٰ أنّها أوّل ما نزل: ففي تفسير القميّ عن أبي الجارود عن الباقر عليه‌السلام في قوله سبحانه: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[٢] قال: ذلك أنّ أوّل سورة نزلت كانت ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثمّ أبطأ جبرئيل عن رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله. فقالت خديجة: لعلّ ربّك قد تركك فلا يرسل إليك؟ فأنزل اللّٰه تبارك وتعالىٰ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[٣].

وروىٰ الكليني بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: «أوّل ما نزل علىٰ رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: ﴿ بسم اللّٰه الرحمن الرحيم * اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وآخر ما نزل عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾[٤] ورواه الصدوق أيضاً[٥].

---

(١) التفسير المنسوب إلىٰ الإمام الحسن العسكري عليه‌السلام. كما في البحار ١٨: ٢٠٦. وقارن بما في تاريخ الطبري ٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٦ مما يفيد أنه شك بنفسه الجنون! وأراد أن يرى بنفسه من حالق! وشك في الملك أنه شيطان! فطمأنته خديجة وابن عمها النصراني ورقة بن نوفل! ولم يرو مثل ذلك من طرقنا. وانظر دلائل الصدق ١: ٤١٢ ـ ٤١٤.

(٢) الضحىٰ: ٣.

(٣) تفسير القمي ٢: ٤٢٨.

(٤) أُصول الكافي ٢: ٦٢٨.

(٥) عيون أخبار الرضا ٢: ٦.

ونقل العلّامة الطبرسي عن كتاب «الإيضاح» لأحمد الزاهد بإسناده عن سعيد بن المسيّب عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة علىٰ نحو ما نزلت من السماء، فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثمّ اقرأ باسم ربّك، ثمّ ن والقلم»[1].

هٰذه الأخبار هي كلّ ما جاءنا في أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام في أوّل ما نزل من القرآن غير مقيّدة له ببداية البعثة، اللهم اِلّا ما مرّ أوّلاً عن تفسير الإمام عليه السلام.

والتفسير هٰذا فيه ما لا يعرف بل ينكر، ممّا طعن به بعض المحقّقين في نسبته اِلىٰ الإمام عليه السلام، ولكنّ ذٰلك لا يقتضي أكثر من استظهار أنّ الراوي كان يحضر عند الإمام عليه السلام فيسأله عن أشياء من تفسير القرآن، وبعد رجوعه الىٰ داره كان يثبت ذٰلك لديه نقلاً بالمعنىٰ كما فهمه، فربّما زاد أو نقص أو أخلّ حسبما تتحمله طاقته وتسعه ظرفيته. وهٰذا اِنّما يقتضي الاحتياط في تلقّي ما جاء فيه بالقبول، باشتراط مطابقته أو موافقته لسائر الآثار الصحيحة، ولا أقلّ من عدم مخالفته لها، ولا يقتضي عدم الاعتماد عليه اِطلاقاً[2].

وليس لنا في كيفية البعثة غير هٰذا الخبر المنفرد كما ترىٰ ـ من تفسير الإمام ـ سوىٰ نصّ علي بن اِبراهيم القميّ، فيما اِذا تلقيناه كالنّص عند إعواز النصوص.

قال: «وكان بين الجبال يرعىٰ غنماً لأبي طالب، فنظر الىٰ شخص، يقول له: يا رسول اللّٰه! فقال له: مَن أنت؟ قال: جبرئيل، أرسلني اللّٰه اِليك ليتخذك رسولاً... ونزل جبرئيل وأنزل عليه ماءً من السماء وقال: يا محمّد! قم وتوضّأ للصلاة. وعلّمه جبرئيل الوضوء وغسل الوجه واليدين من المرفق، ومسح الرأس والرجلين الىٰ الكعبين، وعلّمه السجود والركوع.

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٤٠٥.

(٢) انظر التهيد ١ : ٧٣.

فلمّا تمّ له صلى الله عليه وآله أربعون سنة أمره بالصلاة وعلّمه حدودها، ولم ينزل عليه أوقاتها، فكان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله يصلّي ركعتين ركعتين في كلّ وقت.

وكان علي بن أبي طالب يألفه ويكون معه في مجيئه وذهابه ولا يفارقه، فدخل علي عليه السلام الىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وهو يصلّي، فلمّا نظر إليه يصلّي قال: يا أبا القاسم! ما هٰذه؟ قال: الصلاة الّتي أمرني اللّٰه بها. فدعاه الىٰ الإسلام، فأسلم وصلّىٰ معه. وأسلمت خديجة. فكان لا يصلّي إلّا رسول اللّٰه وعلي وخديجة.

فلمّا أتىٰ لذٰلك أيام دخل أبو طالب الىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ومعه جعفر، فنظر إلىٰ رسول اللّٰه وعلي عليهما السلام بجنبه يصليان، فقال لجعفر: يا جعفر صِل جناح ابن عمّك. فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر، فلمّا وقف جعفر علىٰ يساره برز رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله من بينهما وتقدّم.

فلمّا أسلم عليّ وخديجة وجعفر أسلم زيد (بن حارثة الكلبي) بعدهم. فكان يصلّي خلف رسول اللّٰه: علي وجعفر وزيد وخديجة[1].

وهٰذا النصّ من القميّ وإن لم يكن نصاً من إمام معصوم كما هو المفروض في الخبر عن تفسير الإمام عليه السلام، ولكنّه علىٰ أحسن الظّن بالقميّ، وباستبعاد أكيد أنْ يكون قد أخذ ذٰلك عن غيرهم عليهم السلام، لا يقلّ شأناً عن النصّ عند إعواز النص، بل يفضل النص السابق عن تفسير الإمام، بإنفراده ـ خبر التفسير ـ وتظافر أخبار غير قليلة من الخاصة والعامّة تنصّ علىٰ بدء بعثة الرسول بصلاته ثمّ صلاة علي وخديجة ثمّ زيد وجعفر بن أبي طالب بتوصية أبيه أبي طالب، من دون نصّ علىٰ نزول شيء من القرآن، ببدء بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله في الأربعين من عمره. وسننقل هنا عيّنة من هٰذه الأخبار.

---

(١) إعلام الورىٰ ١: ١٠٢، ١٠٣ ولم نجده في تفسيره، ورواه عنه القطب الراوندي في قصص الأنبياء: ٣١٨ ثمّ ابن شهر آشوب بتغيير يسير كما مرّ.

وقبل ذلك لنتريث قليلاً في خبر علي بن إبراهيم القميّ عندما يلفت النظر من ذكر السجود قبل الركوع، فهل في ذلك عناية خاصّة؟

لم نقف علىٰ عناية خاصّة في ذلك حتّىٰ عثرنا علىٰ رواية رواها ابن أبي الحديد في «شرح النهج» بسنده عن حكيم مولىٰ زاذان قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: «صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنّا نسجد ولا نركع. وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: أُمرتُ به»[١].

أخبار الصلاة:

مرّ تحت عنوان «عليّ عند النبيّ» عن ابن ابي الحديد ما تمامه: «اختلف في سنّ علي عليه السلام حين أظهر النبيّ صلى الله عليه وآله الدعوة إذ تكامل له أربعون سنة: فالأشهر من الروايات أنّه كان ابنَ عشر، وذكر شيخنا أبو القاسم البلخي وغيره من شيوخنا وكثير من أصحابنا المتكلمين: أنّه كان ابن ثلاث عشرة سنة، ثمّ ذكر خبر البلاذري والإصفهاني في ضمّ النبيّ عليّاً إليه منذ كان عمره ست سنين، ثمّ قال: وهذا يطابق قوله عليه السلام: «لقد عبدت الله قبل أنْ يعبده أحد من هذه الأُمّة سبع سنين» وقوله: «كنت أسمع الصوت وأُبصر الضوء سنين سبعاً، ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذٍ صامت ما أُذن له في الإنذار والتبليغ».

وذلك لأنّه اذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه الىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ست، فقد صحّ أنّه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين[٢].

---

(١) شرح النهج ١٣ : ٢٢٩. وغفل عن هذا الراوندي والحلبي فقدّما الركوع على السجود.

(٢) شرح النهج ١ : ١٥.

وروىٰ الكليني بسنده عن سعيد بن المسيّب قال: سألت علي بن الحسين عليه السلام: ابن كم كان علي بن أبي طالب يوم أسلم؟ فقال: أو كان كافراً قط؟! إنّما كان لعلي عليه السلام حيث بعث الله عزّوجلّ رسوله صلى الله عليه وآله عشر سنين، ولم يكن يومئذٍ كافراً، ولقد آمن بالله تبارك وتعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وآله وسبق الناس كلهم الىٰ الإيمان بالله ورسوله، والىٰ الصلاة ثلاث سنين، وكانت أوّل صلاة صلاها مع رسول الله الظهر ركعتين[1].

وروىٰ الشيخ المفيد في «الإرشاد» بسنده الىٰ يحيىٰ بن عفيف بن قيس الكندي عن أبيه عفيف قال: كنت جالساً مع العبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه بمكّة قبل أنْ يظهر أمر النبيّ صلى الله عليه وآله، فجاء شاب فنظر الىٰ السماء حين غلقت الشمس، ثمّ استقبل الكعبة فقام يصلّي. ثمّ جاء غلام فقام عن يمينه، ثمّ جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، ثمّ رفع الشاب فرفعا، ثمّ سجد الشاب فسجدا. فقلت: يا عبّاس، أمر عظيم! فقال العبّاس: أمر عظيم، أتدري من هٰذا الشاب؟ هٰذا محمّد بن عبد الله ابن عبد المطّلب، ابن أخي، أتدري من هٰذا الغلام؟ هٰذا علي بن أبي طالب ابن أخي، أتدري من هٰذه المرأة؟ هٰذه خديجة بنت خويلد. إنّ ابن أخي هٰذا حدّثني أنّ ربّه ربّ السماوات والأرض أمره بهٰذا الدّين الّذي هو عليه، ولا والله ما علىٰ ظهر الأرض علىٰ هٰذا الدّين غير هٰؤلاء الثلاثة[2].

وروىٰ الطبْرسي خبر ضمّ النبيّ علياً اليه في صغره عن كتاب «دلائل النبوة»

---

(١) روضة الكافي: ٢٧٩.

(٢) الإرشاد ١: ٣٠، ٣١. ومن أقدم من بحث هٰذا الموضوع كلامياً هو المتكلمّ المعتزلي الأقدم الشيخ أبو جعفر الإسكافي (م ٢٤٠ هـ) في كتابه: المعيار والموازنة: ٦٦ ـ ٧٨ بتحقيق الشيخ المحقّق المحمودي. وقد أكثر النقل عن الإسكافي ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج. ثمّ القاضي النعمان المصري (م ٣٦٣ هـ) في كتابه: شرح الأخبار: ١٧٨ ـ ١٩١، فراجع.

للبيهقي (ت ٤٥٨) بسنده عن ابن إسحاق عن ابن جَبْر، ورَوىٰ قبله بسند البيهقي عن عفيف الكندي قال:

كنت امرأً تاجراً، فقدمت منىٰ أيام الحج، وكان العبّاس بن عبد المطّلب امرأً تاجراً، فأتيته أبتاع منه وأبيعه. فبينا نحن كذٰلك إذ خرج رجل من خباء، وأخذ يصلّي تجاه الكعبة، ثمّ خرجت امرأة فقامت تصلّي معه بصلاته، وخرج غلام وأخذ يصلّي معه بصلاته. فقلت: يا عبّاس، ما هٰذا الدّين؟ فقال: هٰذا محمّد بن عبدالله يزعم أنّ الله أرسله، وأنّ كنوز كسرىٰ وقيصر ستفتح عليه، وهٰذه امرأته خديجة بنت خويلد، آمنت به، وهٰذا الغلام ابن عمّه علي بن أبي طالب آمن به، قال عفيف: فليتني كنت آمنت به يومئذ فكنت أكون ثانياً تابعه[1].

وروىٰ الخبر هٰذا ابن شهر آشوب (م ٥٨٨هـ) في «المناقب» عن كتاب «المبعث» لابن إسحاق، و«تأريخ الطبري» بثلاثة طرق، و«الإبانة» للعُكبري، بأربع طرق، و«تأريخ النسوي»، والماوردي، ومسند أبي يعلىٰ ويحيىٰ بن مَعين، وتفسير الثعلبي وعن عبدالله بن أحمد بن حنبل[2] بأسانيدهم عن عفيف الكندي وأنّه أخو الأشعث بن قيس الكندي[3] وأنّ العبّاس قال له: إنّ ابن أخي هٰذا حدّثني: أنّ ربّه ربّ السماوات والأرض أمر بهٰذا الدّين، ثمّ قال: والله ما علىٰ ظهر الأرض علىٰ هٰذا الدّين غير هٰؤلاء الثلاثة.

وعن ابن إسحاق عن عفيف قال: فلمّا خرجت من مكّة اذا أنا بشاب جميل علىٰ فرس قال: يا عفيف ما رأيت في سفرك هٰذا؟ فقصصت عليه فقال: لقد صدقك

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٠٥.

(٢) مسند الامام أحمد ١ : ٢٠٩.

(٣) ورواه القاضي النعمان في شرح الأخبار ١ : ١٧٩ قال: أتيت مكّة لأبتاع من عطرها وثيابها.

العبّاس، واللّٰه إنّ دينه لخير الأديان، وانّ أُمّته أفضل الأُمم. قلت: فلمن الأمر من بعده؟ قال: لابن عمّه وختنه علىٰ بنته، يا عفيف الويل كلّ الويل لمن يمنعه حقّه.

ثمّ نقل عن ابن إسحاق قال: إنّ النبيّ كان اذا حضرت الصلاة خرج الىٰ شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذٰلك زماناً.

ثمّ إنّ أبا طالب رأىٰ النبيّ وعلياً يصلّيان فسأل عن ذٰلك فقال النبيّ: إنّ هٰذا دين اللّٰه ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم عليه السلام. وقال علي: يا أبت آمنت باللّٰه وبرسوله وصدّقته بما جاء به وصلّيت معه للّٰه. فقال له: أما إنّه لا يدعو إلّا الىٰ خير، فالزمه.

ولكنّه نقل عن كتاب الشيرازي قال: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا نزل الوحي عليه أتىٰ المسجد الحرام وقام يصلّي فيه، فاجتاز به علي ـ وكان ابن تسع سنين ـ فناداه: يا علي أقبل إليّ، فأقبل إليه ملبّياً، فقال له: إنّي رسول اللّٰه إليك خاصة، والىٰ الخلق عامة، تعال يا علي فقف عن يميني وصَلّ معي. فقال: يا رسول اللّٰه حتّىٰ أمضي وأستاذن والدي! قال: اذهب فإنّه سيأذن لك. فانطلق يستأذنه في اتّباعه، فقال: يا ولدي: تعلم أنّ محمّداً ـ واللّٰه ـ أمين منذ كان، امض واتّبعه ترشد وتفلح. فأتىٰ علي عليه السلام ورسول اللّٰه قائم يصلّي في المسجد، فقام عن يمينه يصلّي معه، فاجتاز بهما أبو طالب وهما يصلّيان، فقال: يا محمّد ما تصنع؟ قال: أعبد إله السماوات والأرض، ومعي أخي علي يعبد ما أعبد يا عمّ... فضحك أبو طالب حتّىٰ بدت نواجذه.

بينما نقل عن ابن الفيّاض في «شرح الأخبار» عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: مرّ علينا أبو طالب ونحن ساجدان، فأخذ بيدي وجعل يرغّبني في ذٰلك ويمضي عليه[1].

---

(١) شرح الأخبار: ١٧٧ و ١٧٩ للقاضي النعمان المصري المغربي التيمي الشيعي ←

ونقل عنه عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت النبيّ يقول: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلىٰ عليّ بن أبي طالب سبع سنين، وذلك أنّه لم يؤمن بي ذكر قبله.

ونقل عن ابن شيرويه الديلمي في «الفردوس» عن جابر قال: قال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله: لقد صلّت الملائكة علي وعلىٰ عليّ بن أبي طالب سبع سنين قبل الناس، وذلك أنّه كان يصلّي ولا يصلّي معنا غيرنا. أو: لم يصلّ فيها غيري وغيره. أو: لم يصلّ معي رجل غيره.

ونقل عن (مسند أحمد) بسنده عن ابن عبّاس[1]. وعن تأريخ الطبري والبلاذري وجامع الترمذي و«الإبانة» للعُكبري، و«الفردوس» للديلمي و«فضائل الصحابة» لابن حنبل بسندهم عن زيد بن أرقم عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: أوّل من صلّىٰ معي علي[2].

ونقل عن ابن حنبل في «مسند العشرة» و«فضائل الصحابة» والترمذي في «الجامع الصحيح» والنسوي في «المعرفة» وابن بطة العكبري في «الإبانة»

← الفاطمي الاسماعيلي، المتوفى في ٣٦٣ هـ. وقد أطلق ابن شهر آشوب عليه لقب: ابن الفيّاض هنا وفي كتابه الآخر: معالم العلماء: ١٣٦ قال: «ابن الفيّاض القاضي النعمان ابن محمّد، ليس بامامي، وكتبه حسان». ولم نجد أحداً غير ابن شهر آشوب لقّبه بهذا. والخبر: عن حبة العرني قال: رأيت عليا عليه‌السلام ضحك علىٰ المنبر، ولم أره ضحك ضحكاً أكثر منه حتىّ بدت نواجذه، ثمّ قال: بينا أنا ورسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ببطن نخلة نصلّي إذ ظهر علينا أبو طالب، فقال: ما تصنعان يابن أخي؟ فدعاه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ورغّبه في الإسلام فقال: ما أرىٰ بالّذي تقول وتصنع بأساً... ثمّ قال علي عليه‌السلام: اللّهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غير نبيّها ـ قالها ثلاث مرات ثمّ قال ـ لقد صلّيت قبل أن يصلّي أحد سبعاً ـ يعني سبع سنين. ورواه ابن حنبل في المسند ١: ٩٩.

(١) مسند الامام أحمد ١: ٣٧٣ ط ١.

(٢) ورواه البلاذري في أنساب الأشراف ٢: ٩٣.

بسندهم عن حبّة العُرني قال: سمعت عليّاً يقول: «أنا أوّل من صلّىٰ مع رسول اللّٰه».

وفي «مسند العشرة» و«فضائل الصحابة» لابن حنبل عن العرني عن علي عليه‌السلام بلفظ: «اللّٰهم لا أعرف أنّ عبداً من هٰذه الأُمّة عبدك قبلي، غير نبيّك» قالها ثلاث مرّات.

وفي مسند أبي يعلىٰ بلفظ: «ما أعلم أحداً من هٰذه الأُمّة بعد نبيّها عبد اللّٰه غيري».

وفي مسندي أحمد وأبي يعلىٰ عن العرني عنه عليه‌السلام قال: «صلّيت قبل أن يصلّي الناس سبعاً»[1].

ونقل عن سنن ابن ماجة القزويني وتأريخ الطبري عن عبّاد بن عبد اللّٰه الرواجني قال: سمعت عليّاً قال: «أنا عبد اللّٰه وأخو رسول اللّٰه، وأنا الصدّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلّا كاذب مفتر؛ صلّيت مع رسول اللّٰه سبع سنين».

ونقل عن سنن ابن ماجة وتفسير الثعلبي عن عبد اللّٰه بن أبي رافع عن أبيه قال: إنّ عليّاً صلّىٰ مستخفياً مع النبيّ سبع سنين وأشهر.

ونقل عن «شرف المصطفى» للخرگوشي النيشابوري (م ٤٠٦هـ) قال: جاء جبرئيلُ الرسولَ بأعلىٰ مكّة وعلّمه الصلاة فانفجرت من الوادي عين حتّىٰ توضّأ جبرئيل بين يدي رسول اللّٰه، وتعلّم رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله منه الطهارة، ثمّ أمر به عليّاً عليه‌السلام[2].

---

(١) مسند أحمد ١: ٩٩ وفي مسند أبي يعلىٰ، الورق ٣١ / بسنده عن حبة العرني عنه عليه‌السلام: خمس سنين. أو: سبع سنين.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٤ ـ ١٩. هٰذا هو الفصل الثاني في الجزء الثاني من الكتاب، ⟵

والاربلي في «كشف الغمّة» ذكر خبر ابن اسحاق في ضمّ النبيّ عليّاً اليه، وأخبار مسند أحمد بن حنبل، ثمّ نقل عن «المناقب» للخوارزمي عن عبدالله بن مسعود خبراً يشبه خبر عفيف الكندي، قال: إنّ أوّل شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ: أنّي قدمت مكّة في عمومة لي فأرشدونا على العبّاس بن عبدالمطلب فانتهينا اليه وهو جالس الىٰ مَن ثَمّ، فجلسنا اليه. فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا تعلوه حمرة، وله وفرة جعدَة الىٰ أنصاف أُذنيه، أقنىٰ الأنف، برّاق الثنايا، أدعج العينين، كثّ اللحية، دقيق المسرُبة[1] شثن الكفين، حسن الوجه، معه مراهق أو محتلم، تقفوه امرأة، قد سترت محاسنها، حتّىٰ قصدوا نحو الحجر فاستلمه، ثمّ استلم الغلام ثمّ استلمته المرأة، ثمّ طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفان معه. فقلنا: يا أبا الفضل إنّ هٰذا الدين لم نكن نعرفه فيكم، أَوَ شيء حدث؟ قال: هٰذا ابن أخي محمّد بن عبد الله، والغلام علي بن أبي طالب، والمرأة امرأته خديجة بنت خويلد، ما علىٰ وجه الأرض أحد يعبد الله تعالىٰ بهٰذا الدين إلّا هٰؤلاء الثلاثة.

ثمّ قال: ومثله عن عفيف الكندي... وقال: وكان عفيف ابن عمّ الأشعث بن قيس. ورواه أحمد بن حنبل في مسنده والنطنزي في «الخصائص» ثمّ نقل عن «الخصائص» في قوله تعالىٰ: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[2] قال: إنّما نزلت في النبيّ

← والفصل الأوّل: المسابقة في الإسلام من ٤ الىٰ ١٣. وأمّا خبر ابن إسحاق في ضمّ النبيّ عليّاً عليه السلام إليه، فقد نقله في فصل الطهارة والرتبة: ١٧٩ عن الطبري والبلاذري والواحدي والثعلبي وشرف النبيّ وأربعين الخوارزمي ومغازي ابن إسحاق..

(١) المسرُبة: الشعر الدقيق من الصدر الىٰ السرة.

(٢) البقرة: ٤٣.

وعليّ خاصّة، لأنّهما أوّل من صلّىٰ وركع[١]، فعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نزلت عَليَّ النبوة يوم الإثنين، وصلّىٰ عليّ معي يوم الثلاثاء».

ونقل خبر ابن أبي رافع بهٰذا المعنىٰ عن «المناقب» للخوارزمي قال: صلّىٰ النبيّ يوم الإثنين وصلّىٰ علي من الغد يوم الثلاثاء، قبل أن يصلّي الناس مع النبي سبع سنين وأشهر.

ونقل عن مسند أحمد بن حنبل بسنده عن علي عليه السلام قوله ـ الّذي نقله ابن شهر آشوب عن سنن ابن ماجة وتأريخ الطبري ـ «أنا عبد الله وأخو رسوله صلى الله عليه وآله، وأنا الصدّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلّا كاذب مفتر، ولقد صلّيت قبل الناس بسبع سنين»[٢].

وروىٰ البحراني خبر ابن إسحاق عن مجاهد بن جَبْر في ضمّ النبيّ عليّاً عليه السلام وهو صغير، في «حلية الأبرار» عن الصدوق بسنده عن ابن اسحاق[٣] وفي موضع آخر عن تفسير الثعلبي[٤] ثمّ روىٰ الأخبار المارّة عن مسند أحمد بن حنبل، ومناقب ابن شهر آشوب، والكليني والصدوق.

ومن العامّة بعدما نقل ابن إسحاق خبر المجاهد بن جبر قال: ذكر بعض أهل العلم: أنّ رسول الله كان اذا حضرت الصلاة خرج الىٰ شعاب مكّة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذٰلك ما شاء الله أنْ يمكثا.

---

(١) ونقله ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ١٣ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس. وعن الباقر عليه السلام.

(٢) كشف الغمّة ١ : ٧٩ ـ ٨٩.

(٣) حلية الأبرار ١ : ٢٣٢.

(٤) حلية الأبرار ١ : ٢٣٩.

ثمّ إنّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول اللّٰه : يابن أخي، ما هٰذا الدّين الّذي أراك تدين به؟ قال : أي عمّ، هٰذا دين اللّٰه ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم، بعثني اللّٰه به رسولاً الىٰ العباد.

وذكروا : أنّه قال لعليّ : أي بُني، ما هٰذا الدّين الّذي أنت عليه؟ فقال : يا أبتِ، آمنت باللّٰه وبرسول اللّٰه، وصدّقته بما جاء به، وصلّيت معه للّه واتبعتهُ، فقال له : امّا انّه لم يدعك إلّا الىٰ خير فالزمه[1].

وقال البلاذري : «وصلّىٰ مع رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة، وهو الثبت» ثمّ نقل أقل من ذٰلك[2].

ثمّ روىٰ بسنده عن زيد بن أرقم قال : أوّل من صلّىٰ مع رسول اللّٰه علي بن أبي طالب[3].

ونقل المحقّق بهامشه عن مسند أبي يعلى بسنده عن حبّة العُرني عنه أنّه قال : ما أعلم أحداً من هٰذه الأمّة بعد نبيّها عَبَد اللّٰه قبلي، لقد عبدته قبل أنْ يعبده أحد منهم خمس سنين. أو قال : سبع سنين. وعنه قال : بعث رسول اللّٰه يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء[4].

أجل، هٰذه عيّنة وافية من أخبار الباب، وهي كما رأيناها خالية عن ذكر القرآن ونزوله والقراءة منه في صلاتهم ولكن ـ قال صاحب التمهيد ـ «لا شكّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يصلّي منذ بعثته، وكان يصلّي معه عليّ عليه السلام وجعفر وزيد بن حارثة

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٩٠.

(٣) أنساب الأشراف ٢ : ٩٢، ٩٣.

(٤) هامش أنساب الأشراف ٢ : ٩٢.

وخديجة، «ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»... فلابدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونةً بالبعثة»[١].

«وإن كان أوّل ما نزل من القرآن سورة العلق أو آيٌ منها فلم سمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنىٰ: أنّها كتبت في بدء المُصحف، لأنّ هٰذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله أو لا أقلّ في عهد متأخِّر من حياته فرضاً، في حين أنّها كانت تسمّىٰ بفاتحة الكتاب منذ بدايات نزولها».

وللإجابة يقول: «أمّا الآيات الخمس من سورة العلق فهي أوّل آيات نزلت، وأمّا سورة الحمد فهي أوّل سورة كاملة نزلت، ولذٰلك سُمّيت بفاتحة الكتاب، ثمّ لم ينزل من القرآن تباعاً إلّا بعد الفترة»[٢].

هذا، وقد مرّ الخبر الطبرسي في «مجمع البيان» عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «أن أول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثمّ اقرأ باسم ربك»[٣]

فترة الوحي:

في تفسير القميّ عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾ قال: ذٰلك أنّ أوّل سورة نزلت كانت ﴿ **اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ ثمّ أبطأ جبرئيل عن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فقالت خديجة: لعلّ ربّك قد تركك فلا يرسل اليك؟ فأنزل اللّٰه تبارك وتعالىٰ: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** ﴾[٤].

---

(١) التمهيد ١ : ٩٦.

(٢) التمهيد ١ : ٨٠ ـ ٨٣.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٤٠٥.

(٤) تفسير القميّ ٢ : ٤٢٨.

وهٰذا اللفظ المروي هنا في هٰذا الخبر عن خديجة عليها السلام أخفّ وطأةً والأمر فيه أيسر ممّا رواه الطبريّ بسنده عن عبد اللّٰه بن شدّاد قال: ثمّ أبطأ عليه جبرئيل فقالت له خديجة: ما أرىٰ ربّك إلّا قد قلاك(!) فأنزل اللّٰه عزّوجلّ: ﴿ وَالضُّحَى ﴾[1] وقد خلا عنه ما رواه ابن إسحاق والطبري عنه عن عبد اللّٰه بن الحسن عن أُمّه فاطمة بنت الحسين عن جدّتها خديجة في بدء نبوة الرسول[2] بل كأنّ ابن إسحاق أراد أن يبرّىء خديجة عن نسبة تلك المقولة اليها فبدأ برواية خبر عن عبد اللّٰه بن جعفر عن رسول اللّٰه قال:

أُمرتُ أنْ أُبشّر خديجة ببيت من قصب (أي ذهب) لا صخب فيه ولا نصب. وقال: حدّثني من أثق به: أنّ جبرئيل عليه السلام أتىٰ رسول اللّٰه فقال: أقرىء خديجة السلام من ربّها. فقال رسول اللّٰه: يا خديجة، هٰذا جبرئيل يُقرئك السلام من ربّك. فقالت خديجة: اللّٰه السلام ومنه السلام وعلىٰ جبرئيل السلام. ثمّ قال ابن إسحاق:

ثمّ فتر الوحي عن رسول اللّٰه فترة من ذٰلك حتّىٰ شقّ ذٰلك عليه فأحزنه، فجاءه جبرئيل بسورة الضحىٰ: يُقسم له ربّه ـ وهو الّذي أكرمه بما أكرمه به ـ أنّه ما ودّعه وما قلاه، ويقول: ما صرمك فتركك وما أبغضك منذ أحبّك، وما عندي من مرجعك إليّ خير لك ممّا عجّلتُ لك من الكرامة في الدّنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ من الفُلُج[3] في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿ فَتَرْضَى ﴾ ثمّ يعرّفه اللّٰه ما ابتدأه به من كرامة في عاجل أمره ومنّه عليه في يُتمه وعيلته وضلالته، واستنقاذه من ذٰلك كلّه برحمته ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ بما جاءك من اللّٰه من نعمته وكرامته من النبوة فاذكرها وادعُ اليها. فجعل رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه

---

(١) الطبري ٢ : ٣٠٠، والتفسير ٣٠ : ١٦٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٥، والطبري عنه ٢ : ٣٠٢.

(٣) الفُلُج : الفوز والغلبة.

[وآله] وسلّم ـ يذكر ما أنعم اللّٰه به عليه وعلىٰ العباد به من النبوة سرّاً الىٰ من يطمئن اليه من أهله[١].

ولو كان كذٰلك فلا ينسجم هٰذا مع ما رواه الطبْرسي عن ابن عبّاس قال: احتبس الوحي عنه صلى الله عليه وآله خمسة عشر يوماً، فقال المشركون: إنّ محمّداً قد ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من اللّٰه لتتابع الوحي عليه، فنزلت السورة[٢].

وهٰذا لاينسجم مع ما روىٰ الطبري عن ابن عبّاس أيضاً في سنوات البعثة إذ قال: بعث رسول اللّٰه لأربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة[٣] فهل عنىٰ بذٰلك أنّه صلى الله عليه وآله قرأ القرآن علىٰ المشركين معلناً لهم الدعوة منذ بدء البعثة حتّىٰ إذا احتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً قالوا فيه ذٰلك؟

وروىٰ الطبري عن ابن شهاب عن جابر بن عبد اللّٰه الأنصاري قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وهو يحدث عن فترة الوحي: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء جالسٌ علىٰ كرسيّ بين السماء والأرض. قال رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ: فجئثت منه فَرقاً[٤] وجئت فقلت: زمّلوني، زمّلوني! فدثروني فأنزل اللّٰه عزّوجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[٥] الىٰ قوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال: ثمّ تتابع الوحي[٦].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤.

(٣) الطبري ٢ : ٢٩٢ بطريقين.

(٤) جُئثت : خِفتُ وفزعت، وفرقاً. خوفاً وفزعاً.

(٥) المدّثّر : ١ ـ ٣.

(٦) الخبر في التفسير ٢٩ : ٩٠ ط بولاق وفي التأريخ ٣ : ٣٠٦ ط دار المعارف. ونقله الطوسي في التبيان ١٠ : ١٧١.

وحسب تعبير الخبر فان جابراً يصف حديث رسول اللّٰه أنّه كان يحدث عن فترة الوحي، والفترة من الفتور، وهو لا يكون في الوحي اِلّا بين وحيين، فلا يكون اِلّا بعد بدء الوحي، وفي نفس الخبر نص بالإشارة الىٰ سبق نزول ملك الوحي اِليه في حراء: «فإذا الملك الّذي جاءني بحِراء جالس علىٰ كرسيّ» وفي آخر الخبر: «ثمّ تتابع الوحي» في مقابل «فتر الوحي».

فالخبر اِذن لا يدلّ علىٰ أنّ الآيات من سورة المدّثّر هي أوّل ما نزل عليه[1] وإن نُقل ذلك عن جابر نفسه، كما في ما روىٰ الطبري عن ابن شهاب عن ابن سلمة قال:

سألت جابر بن عبد اللّٰه: أيّ القرآن أُنزل أوّل؟ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت: ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فقال: لا أُخبرك اِلّا ما حدثنا النبيّ قال: جاورت في حراء فلمّا قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدّامي فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي فإذا هو جالس علىٰ عرش بين السماء والأرض...».

وفي لفظ آخر: «فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، وعن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت امامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً...».

نعم ليس في هٰذين اللفظين من الخبر ما مرّ في اللفظ الأسبق «فإذا الملك الّذي جاءني بحراء» وأيضاً ليس فيهما ما كان في الأسبق أنّه ﷺ كان يحدّث عن فترة الوحي، مع أنّ الراوي هو أبو سلمة بن عبد الرحمن نفسه، وهٰذا غريب! والراوي عنه هو الزهري، ولكنّه لم يفهم من الخبر ما ادّعاه أبو سلمة بل ونسبه الىٰ جابر

---

(١) كما في الميزان ٢٠: ٨٣.

في اللفظين المتأخرين من الخبر دون الأوّل، ولذلك فإنّ الزهري فيما رواه عنه الطبري في حديثه عن فترة الوحي روىٰ اللفظ الأوّل للخبر ثمّ قال: وكان أوّل شيء أنزل عليه ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتّىٰ بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] فقد عوّل علىٰ الخبر بلفظه الأوّل لا الأخيرين، كما فعل البخاري فرواه دونهما، وان كان مسلم قد رواهما معاً.

فالمعوّل علىٰ اللفظ الأوّل للخبر دون الآخرين، حيث أقر راوي الخبر أبوسلمة بنقله عن جابر من دون القول بأن أوّل ما نزل سورة المدّثّر، وإنْ كان قد أضاف ذلك إليه في اللفظين الأخيرين (فالعهدة) فيهما علىٰ الراوي دون جابر، فليس من باب الظن والاجتهاد من جابر، كما في «التمهيد»[2] وعلىٰ هذا فليس القول بإنّ أوّل ما نزل هو سورة المدّثّر من جابر، بل هو من نسبة أبي سلمة الىٰ جابر، دون ثبات علىٰ هذه النسبة فقد روىٰ هو عنه خلافها أيضاً.

نعم لا يمكن تأييد ما في الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «فجئثت منه فرقاً» أي خفت منه خوفاً أو فزعت منه فزعاً، لأنّه بظاهره يتنافىٰ مع ما رواه العياشي في تفسيره عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخَفْ رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أنْ يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله اذا اتّخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّوجلّ مثل الّذي يراه بعينه»[3].

---

(١) الخبر في التفسير ٢٩: ٩٠ ط بولاق وفي التأريخ ٣: ٣٠٤ ـ ٣٠٦. وفي البخاري ١: ٤ وفي صحيح مسلم ١: ٩٨، ٩٩.

(٢) التمهيد ١: ٩٤.

(٣) تفسير العياشي ـ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٢٦٢.

وروىٰ الصدوق في «التوحيد» بسنده عن محمّد بن مسلم ومحمّد بن مروان عن أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام قال: «ما عَلِمَ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّ جبرئيل عليه‌السلام من قبل الله إلّا بالتوفيق»[١].

إذن فالتوفيق الإلهيّ بالوقار والسكينة المنزلة علىٰ رسول لا يتركه لِيَفزع خوفاً من النظر الىٰ ملك الوحي جبرئيل حتّىٰ ولو كان بصورته الأصلية إنْ صحّ التعبير.

أمّا اليعقوبي فقد قال في نزول سورة المدّثّر: وبُعث رسول الله لمّا استكمل أربعين سنة... وعلىٰ جبرئيل جُبّة سندس، وأخرج له درنوكاً من درانيك الجنة، فأجلسه عليه، وأعلمه أنّه رسول الله وبلّغه عن الله وعلّمه: ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأتاه من غد وهو متدثر فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[٢].

هل نزل القرآن في دور الكتمان؟

وممّا يؤيّد عدم نزول القرآن في دَور الكتمان أننا لا نجد من آيات القرآن، ممّا لا خلاف في نزوله قبل سورة الحجر الّتي في أواخرها قوله سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا

---

(١) التوحيد: ٢٤٢ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٢٥٦. وقارن بما في تاريخ الطبري ٢: ٢٠٩ ـ ٣٠٦ مما يفيد أنّه جزع وفزع وقلق واضطراب وشك في نفسه الجنون! وأراد أن يرمي بنفسه من حالق! وشك في الملك أنّه شيطان! فطمأنته خديجة وابن عمها النصراني ورقة بن نوفل!!

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٣. وهذا قريب جداً مما رواه الراوندي في الخرائج والجرائح ١: ٨٣، الحديث ١٣٦ عن الصادق عليه‌السلام قال: كان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يرعى غنم عمه أبي طالب.. وبلغ أربعين سنة.. وتراءى له جبرئيل بأعلى الوادي عليه جبة من سندس.. قال: سمعت صوتاً من السماء: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرئيل.. وأخرج له درنوكاً من درانيك الجنة فأجلسه عليه وأمره بما أراد ثمّ قال: أنا جبرئيل، وقام فلحق محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله بالغنم.

تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١] وهي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وقبلها في النزول سورة الشعراء وهي السابعة والأربعون الّتي في أواخرها قوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[٢] لا نجد في كلّ ذلك ما يتناسب مع مرحلة الكتمان، بل من خصائص السور المكّية ـ ومنها هذه السور ـ خطابها المشركين وجدالها معهم في شركهم وكفرهم وجحودهم للمبدأ والمعاد، ممّا لا يتناسب بظاهره مع الكتمان وإنما الإعلان.

فسور النمل والقصص والإسراء ويونس وهود ويوسف وحتّىٰ الحجر، وهي السور النازلة بعد الشعراء وقبل الحجر، هي سور تساور المشركين وتحاورهم في كثير من آياتها، وسورة الحجر بالخصوص تقول في بدايتها: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٣] فهل هي من الكتمان في شيء؟!

بل قال العلّامة الطباطبائي في تفسيره في التعريف بسورة الحجر: «تشتمل السورة علىٰ الكلام حول استهزاء الكفّار بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ورميه بالجنون، ورمي القرآن الكريم بأنّه من أهذار الشياطين. ففيها تعزية للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وأمر بالصبر والثبات والصفح عنهم وتطييبٌ لنفسه الشريفة وإنذار وتبشير.

وتشتمل السورة علىٰ قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ والآية تقبل الانطباق علىٰ ما ضبطه التأريخ أنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله اكتتم في أوّل

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤.

(٣) الحجر: ٢ ـ ٧.

البعثة ـ ثلاث سنين أو أربعاً أو خمساً ـ لا يعلن دعوته، لاشتداد الأمر عليه، فكان لا يدعو إلّا آحاداً ممّن يرجو منهم الإيمان، يدعوهم خفية ويُسِرّ اليهم الدعوة، حتّىٰ أذن له ربّه في ذٰلك وأمره أنْ يعلن دعوته.

وتؤيّده الروايات المأثورة من طرق الشيعة وأهل السنة: أنّه صلى الله عليه وآله كان يكتتم في أوّل بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامّة الناس حتّىٰ أنزل اللّٰه عليه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ فخرج الىٰ الناس وأظهر الدعوة. فالسورة مكّية نازلة في أوّل الدعوة العلنية»[1].

ثمّ لم يبيّن أنّه صلى الله عليه وآله اذا كان ـ كما قال ـ لا يدعو إلّا آحاداً خفيةً وسراً ممّن يرجو منهم الايمان، فأين كان المستهزئون وبماذا كانوا يستهزئون؟ وكيف كان استهزاؤهم حتّىٰ انّ الرسول صلى الله عليه وآله دعا عليهم فكفاه اللّٰه شرّهم وشرّ استهزائهم؟ واذا كان آخر هٰذه السورة بداية الإذن بالإعلان فما معنىٰ أنْ تكون السورة لتعزية الرسول وصبره؟!

ولا يختص هٰذا الإشكال بالعلّامة الطباطبائي، فقد درج الجميع علىٰ هٰذا القول بلا بيان لهٰذا الإجمال.

ولعلّه التفاتاً الىٰ هٰذا الإشكال ودفعاً له قال السيد المرتضىٰ في «الصحيح»: بعد أن أنذر عشيرته الأقربين انتشر أمر نبوته في مكّة، وبدأت قريش تتعرض لشخصه صلى الله عليه وآله بالاستهزاء والسخرية وأنواع التهم[2].

ومن قبله السيد الحسني فقال في «سيرة المصطفىٰ»: لقد تحدث ـ بعد دعوته صلى الله عليه وآله عشيرته الأقربين ـ جميع الناس في مكّة عن دعوته، وتسرّبت أنباؤها

---

(١) الميزان ١٢ : ٩٥، ٩٦.

(٢) الصحيح ٢ : ٢٦.

لخارج مكّة ولم يعد أمرها خافياً علىٰ أحد من سكان مكّة وجوارها بعد أن أعلنها بصراحة علىٰ بني عمومته وعشيرته[١].

ومعنىٰ ذلك أنّ الأمر اختلف بعد دعوة العشيرة عمّا قبلها فإنّما تسرّبت الدعوة بعد ذلك أمّا ما قبلها فالسر والكتمان. ولكننا لا نجد فيما أُوحي قبل ذلك ما يختلف عما بعده بل نجد الأمر نفسه قبله.

فنجد بداية سورة الشعراء تقول: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾[٢].

وتقول في أواخرها: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ * فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣].

---

(١) سيرة المصطفىٰ: ١٣٣.

(٢) الشعراء: ٣ ـ ٦.

(٣) الشعراء: ١٩٣ ـ ٢١٥.

فماذا يعني كلّ هٰذا الخطاب والعتاب بل التهديد بالعذاب والاعذار بالانذار؟ وهل كلّ هٰذا من الكتمان في شيء؟ والآية الأخيرة هل تعني أن يخفض جناحه لمن اتّبعه من المؤمنين بالدعوة الخاصّة، خاصّةً؟ أم مع من يؤمن به من عشيرته الأقربين في هٰذه الدعوة الخاصّة فحسب؟ أو يؤخذ باطلاق الآية وعمومها؟

والعلّامة الطباطبائي في تفسيره قال في بيان الغرض من هٰذه السورة: «غرض هٰذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وآله قبال ماكذّبه قومه وكذّبوا بكتابه النازل عليه من ربّه. وقد رموه تارة بأنّه مجنون وأُخرىٰ بأنّه شاعر، وفيها تهديدهم مشفّعاً ذٰلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم: موسىٰ وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وما انتهت اليه عاقبة تكذيبهم، لتتسلىٰ به نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه، وليعتبر المكذبون. والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً، وقد اشتملت علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾»[1].

ثمّ لم يبيّن متىٰ كان تكذيب أكثر قومه له؟ وأين كان المكذّبون؟ وبماذا كانوا يكذّبون؟ وبماذا يعتبرون؟ وهو بعد لم يدع عشيرته الأقربين وإنّما يدعوهم بعد نزول الآية في آخر هٰذه السورة نفسها! فكيف التوفيق؟!

ثمّ كيف هي من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً وقد ردّدت نزولها من الثالثة إلى الخامسة بعد البعثة؟!

والسورة الّتي تسبق الشعراء في ترتيب النزول هي سورة الواقعة، وهي في أوائلها تثلّث الناس يوم القيامة: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ثمّ تقسّم هٰؤلاء السابقين من

---

(١) الميزان ١٥ : ٢٤٩، ٢٥٠.

أصحاب اليمين الىٰ: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾[١] وتعود فتقول: ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[٢] وتتابع النعوت والأوصاف فتقول: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾[٣] فما معنىٰ الأوّلين والآخرين من السابقين من أصحاب اليمين؟ فهل كلّ ذٰلك فيمن استجاب للدعوة الخاصّة السرّية؟ ومن هم؟ وكم هم؟ وما معنىٰ أصحاب الشمال ولم تشملهم الدعوة؟ وكذٰلك سائر السور الّتي سبقت الواقعة.

ولكن في مقابل كلّ ذٰلك ممّا يؤيّد سرّية المرحلة الاُولىٰ من الدعوة ونزول القرآن فيها: هو ـ من جانب ـ التناسب الكمّي فيما بين ما نزل من القرآن الىٰ سورة الحجر مع تلك الفترة، ومن جانب آخر: عدم التناسب أو علىٰ الأقل استبعاد أن تكون دعوة العشيرة الأقربين قد حصلت حسب آية: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ من سورة الشعراء السابعة والأربعين في ترتيب النزول من دون أن تكون المرحلة السابقة سرّية مكتومة، أي بعد أن تمرّ علىٰ الدعوة زهاء ثلاث سنين من الدعوة العلنية العامّة، ممّا لا يتناسب ودعوة العشيرة خاصّة بعد كل هٰذه المدة الطويلة من الدعوة العامّة. اللهمّ إلّا أن نقول: إنّ ذلك كان اتماماً للحجة عليهم خاصة، واعلاناً لوصيّه من بينهم، وبذلك يُثبت لهم أن دعوته غيبية وأنّه مطمئن من

---

(١) الواقعة: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الواقعة: ٣٨ ـ ٤٤.

(٣) الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤.

الغيب باستمرارها وثباتها بحيث تحتاج إلى الوصاية من بعده. وهذا هو الصحيح، كما نرى فيما يلي.

حديث الإنذار:

اللّهم إلّا أن نلتزم بأنّ الدعوة كانت بعد مقاطعة قريش للرسول وحصارهم إيّاه وبني هاشم في شعب أبي طالب في حدود السنة السادسة للبعثة، على ما رواه فرات بن ابراهيم الكوفي في تفسيره مسنداً عن أبي رافع ـ مولى العبّاس بن عبد المطّلب ـ قال: إنّ رسول اللّه جمع ولد عبد المطّلب في الشِعب، وهم يومئذٍ ـ ولده لصلبه وأولادهم ـ أربعون رجلاً. فصنع لهم رجل شاة وثرد لهم ثريدة فصبّ عليه ذلك المرق واللحم، ثمّ قدّموها اليهم فأكلوا منه حتّى شبعوا، ثمّ سقاهم عُسّاً واحداً من لبن فشربوا كلّهم من ذلك العُسّ حتّى رَوُوا[١].

فقال أبو لهب: واللّه إنّ منّا نفراً يأكل أحدهم الجفرة[٢] وما يصلحها فما تكاد تُشبعه، ويشرب الفِرْق[٣] من النبيذ فما يُرويه، وانّ ابن أبي كبشة[٤] دعانا على رِجل شاة وعُسّ من شراب فشبعنا وروينا، إنّ هذا لهو السحر المبين!

ثمّ دعاهم، فقال لهم: إنّ اللّه أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين ورهطي المخلَصين، وانّكم عشيرتي الأقربون ورهطي المخلَصون، وإنّ اللّه لم يبعث نبيّاً إلّا جعل له أخاً من أهله ووارثاً ووصيّاً ووزيراً، فأيّكم يقوم فيبايعني على أنّه أخي

---

(١) العُسّ: القدح الكبير.

(٢) الجفرة مؤنث الجفر وهو من أولاد المعز ما فصل عن أُمّه وبدأ بالرعي بعد أربعة أشهر، كما في النهاية للجزري.

(٣) بالفتح أو الكسر فالسكون: السِقاء الممتلئ.

(٤) هو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، شبّهوه به، كما في النهاية للجزري.

ووزيري ووارثي دون أهلي، ووصيّي وخليفتي (في أهلي) ويكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ غير أنّه لا نبيّ بعدي؟! فأمسك القوم.

فقال: والله ليقومنّ قائمكم أو لتكونَنّ في غيركم ثمّ لتندمُنّ! فقام علي عليه السلام وهم ينظرون اليه كلّهم، فبايعه وأجابه الىٰ ما دعاه اليه[1].

وقد يؤيّد دعوىٰ ابن أبي رافع بأن ذٰلك الجمع وتلك الدعوة كانت في الشعب أي بعد الإعلان: أنّ أبا لهب يلتهب بمشاهدته المعجزة فيتهم الرسول بالسحر وينبزه بكنية ابن أبي كبشة ممّا اعتاد عليه المشركون بالنسبة اليه صلى الله عليه وآله فالحالة ليست حالة مفاجأة بعد سرّ وكتمان وانّما تناسب سابق خبر وعلم واعلان.

وكذٰلك يؤيد كون ذٰلك في الشعب بعد الإعلان: أنّ الأمر أمر انذار لا إخبار، والتبشير أنسب ببدء الإخبار من الإنذار، وأنّ الرسول لم يبدأهم بالدعوة اليه والىٰ رسالته، بل الىٰ بيعته ليكون خليفته بعده، ثمّ أنذرهم: ليقومَنّ قائمكم أو لتكونَنّ في غيركم ثمّ لتندمُنّ! فالحالة والموقف ـ كذٰلك ـ ليس موقف مفاجأة ومبادأة بعد سرّ وكتمان، بل تناسب سابق علم وإعلان.

ولعلّه صلى الله عليه وآله أُمر بهٰذه الدعوة في الشعب تحدياً لكبرياء قريش، ولما فيها من يأس للكافرين.

والظاهر أنّ خبرُ أبي رافع خبر حاضرٍ ناظرٍ مباشرٍ إذ هو مولىٰ العبّاس بن عبد المطّلب وهو من بني هاشم المدعوّين والمجتمعين، فلعلّه كان مصطحباً لمولاه هٰذا، ولا نجد فيما بأيدينا مباشراً غيره سوىٰ علي عليه السلام، ورجل من أصحاب النبيّ من ولد عبد المطّلب، لم يُعرَّف بسوىٰ هٰذا ـ روىٰ عنه الخبر: السيد ابن طاووس في «سعد السعود» عن الجزء الخامس من تفسير محمّد بن العبّاس الحجّام

---

(١) تفسير فرات: ٣٠٠ ـ ٣٠٤، الحديث ٤٠٤ ـ ٤٠٨ وبهامش الصفحات مصادر أُخرى من غير الشيعة.

بسنده عن مبارك بن فضالة والحسن البصري قالا :

إنّ قوماً خاضوا في أمر علي عليه‌السلام بعد الّذي كان من وقعة الجمل، فقال رجل من أصحاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله : ويلكم ما تريدون من أوّل سابق بالإيمان بالله والإقرار بما جاء من عند الله؟ لقد كنت عاشر عشرة من ولد عبد المطّلب إذ أتانا علي بن أبي طالب عليه‌السلام فقال : أجيبوا رسول الله الىٰ غَداء غد في منزل أبي طالب.

فلمّا ولّىٰ تغامزنا وقلنا : أترىٰ محمّداً أن يشبعنا اليوم؟ وما منّا يومئذٍ من العشرة رجلاً إلّا وهو يأكل الجَذَعة[1] السمينة ويشرب الفِرْقَ من اللبَن.

فغدوا عليه في منزل أبي طالب، واذا نحن برسول الله، فحيّيناه بتحيّة الجاهلية وحيّانا هو بتحية الإسلام : فأوّل ما أنكرنا منه ذلك. ثمّ أمر بجفَنة من خبز ولحم فقُدّمت الينا، ووضع يده اليمنىٰ علىٰ ذروتها وقال : بسم الله، كلوا علىٰ اسم الله. فتغيّرنا لذلك ثمّ تمسّكنا لحاجتنا الىٰ الطعام، وذلك أننا جوّعنا أنفسنا للميعاد بالأمس. فأكلنا حتّىٰ أنهينا، والجفنة كما هي مدفّقة، ثمّ دفع الينا عُسّاً من لبن ـ وكان عليّ يخدمنا ـ فشربنا كلّنا حتّىٰ رُوينا والعُسّ علىٰ حاله.

حتّىٰ إذا فرغنا قال : يا بني عبد المطّلب : إنّي نذير لكم من الله عزّ وجلّ، إنّي أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب، فإن تطيعوني ترشدوا وتفلحوا وتنجحوا. إنّ هذه مائدة أمرني الله بها فصنعتها لكم كما صنع عيسىٰ بن مريم عليه‌السلام لقومه، فمن كفر بعد ذلك منكم فإنّ الله يعذّبه عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين، واتقوا الله واسمعوا ما أقول لكم. واعلموا ـ يا بني عبد المطّلب ـ أنّ الله لم يبعث رسولاً إلّا جعل له أخاً ووزيراً ووصياً ووارثاً من أهله، وقد جعل لي وزيراً كما جعل للأنبياء قبلي، وإنّ الله قد أرسلني الىٰ الناس كافة وأنزل عليّ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وقد والله

---

(١) الجذَعَة : الغنم له سنة تامة ـ مجمع البحرين.

أنبأني به وسمّاه لي، ولكن أمرني أنْ أدعوكم وأنصح لكم واعرض لكم، لئلا يكون لكم الحجة فيما بعد، وأنتم عشيرتي وخالص رهطي، فأيّكم يسبق اليها علىٰ أنْ يؤاخيني في اللّٰه ويؤازرني في اللّٰه عزّ وجلّ، ومع ذٰلك يكون لي يداً علىٰ جميع من خالفني فأتّخذه وصيّاً ووليّاً ووزيراً يؤدّي عني ويبلّغ رسالتي ويقضي ديني من بعدي وعداتي مع أشياء أشترطها؟! فسكتوا. فأعادها ثلاث مرات ويسكتون، ويثب فيها علي عليه‌السلام فلمّا سمعها أبو لهب قال: تبّاً لك يا محمّد ولما جئتنا به، أهٰذا دعوتنا؟!

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله: أما واللّٰه لتقومن أو يكون في غيركم!

فوثب علي عليه‌السلام فقال: يا رسول اللّٰه أنا لها.

فقال رسول اللّٰه: يا أبا الحسن (كذا)[1] أنت لها، قضي القضاء وجفّ القلم، يا علي اصطفاك اللّٰه بأوّلها وجعلك وليّ آخرها[2].

فهٰذا خبر آخر عن مباشر آخر لم يُعرَّف بأكثر من انّه عاشر عشرة من المدعوّين من العشيرة الأقربين بني عبد المطّلب، ومن أصحاب رسول اللّٰه. ويختلف عن خبر أبي رافع بإبدال موعد الدعوة من الشعب الىٰ منزل أبي طالب ـ ولا يهمّ هٰذا بعد أن كان منزل أبي طالب في شِعبه ـ ومن عدد الأربعين الىٰ العشيرة، وسيأتي الجمع بينهما، وبتفصيل أكثر أيضاً.

ولكنّه يشترك مع خبر أبي رافع في استبعاد أن تكون الدعوة للإعلان بالنبوّة بعد الكتمان. بل تقريب أنْ تكون مسبوقة بالإعلان لا الكتمان، فمقال الرسول لا زال لا يناسب ذٰلك.

سوىٰ علي عليه‌السلام وهٰذين الصحابيّين: أبي رافع ورجل من آل عبد المطّلب

---

(١) مما يُلفت النظر تكنيته له بأبي الحسن يومئذٍ؟!

(٢) سعد السعود: ١٠٦.

لانجد فيما بأيدينا من رواة الخبر مباشراً آخر. ولعلّه لدفع وهم عدم اشتهار القصّة قال الشيخ الطبْرسي في «مجمع البيان»: وقد فعل ذٰلك النبيّ واشتهرت القصّة بذٰلك عند الخاص والعام.

ثمّ أورد عن الثعلبي في تفسيره الخبر المأثور عن البَراء بن عازب الأنصاري ـوهو رابع صحابيّ راوٍ للخبر غير مباشر فيه ـ قال: لمّا نزلت هٰذه الآية جمع رسول اللّٰه بني عبد المطّلب ـوهم يومئذٍ أربعون رجلاً ـ الرجل منهم يأكل المسنّة (الجفرة) ويشرب العُس. فأمر عليّاً عليه‌السلام برِجل شاة فأدَّمها[1]، ثمّ قال: ادنوا بسم اللّٰه، فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتّىٰ صدروا، ثمّ دعا بقعب[2] من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال لهم: اشربوا بسم اللّٰه، فشربوا حتّىٰ رُووا.

فبدرهم أبو لهب فقال: هٰذا ما سحركم به الرجل! فسكت يَومَئذٍ ولم يتكلّم. ثمّ دعاهم من الغد علىٰ مثل ذٰلك من الطعام والشراب، ثمّ أنذرهم رسول اللّٰه فقال: يا بني عبد المطّلب! إنّي أنا النذير اليكم ـمن اللّٰه عزّوجلّ ـ والبشير، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا، ثمّ قال: من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي (في أهلي) يقضي ديني؟! فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً كلّ ذٰلك يسكت القوم ويقول علي عليه‌السلام: أنا. فقال المرّة الثالثة: أنت. فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أمّره عليك؟![3].

ولا يمتاز الخبر عن الأوّلين بشيء سوىٰ ما يمكن أن يجمع به بين عددي المدعوّين في الخبرين: العشرة والأربعين، وذٰلك أنّ ابن عازب قال: فدنا القوم عشرة عشرة. وقد قال من قال: وهم يومئذ أربعون رجلاً.

---

(١) أدّمها: صنع منها أداماً أي طعاماً.

(٢) القعب: إناء من خشب للسوائل.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٧: ٣٢٢ عن تفسير الثعلبي.

وسوىٰ الخبر السابق عن تفسير الحجّام لا نجد فيما بأيدينا أيّ خبر آخر عن أيّ رجل آخر من بني هاشم بل بني عبد المطّلب من العشيرة الأقربين للنبي صلى الله عليه وآله المدعوّين بهٰذه الدعوة الخاصّة، حتّىٰ عن العبّاس عمّه الحاضر في تلك الدعوة والمحجم عن الاستجابة لدعوة الرسول، ممّا جعله علي عليه السلام سبباً لوراثته من ابن عمّه النبيّ دون عمّه العبّاس، إن صحّ التعبير بالوارثة، وذٰلك :

فيما رواه السيد ابن طاووس في «سعد السعود» عن تفسير الحجّام أيضاً عن الحسين بن الحكم الحِبَري بأسناده ومنها عن الطبري بسنده عن ربيعة بن ناجد : أنّ رجلاً قال لعلي عليه السلام : يا أمير المؤمنين لم ورثت ابن عمّك دون عمّك؟ فقال علي عليه السلام : هاؤم! ثلاث مرّات حتّىٰ أشرأبّ الناس ونشروا آذانهم ثمّ قال : دعا رسول الله ـ أو جمع ـ بني عبد المطّلب، كلّهم يأكل الجَذَعة ويشرب الفَرْق، فصنع لهم مُدّاً من طعام فأكلوا حتّىٰ شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمَس ثمّ دعا بغُمَرٍ[١] فشربوا حتّىٰ رُوُوا وبقي الشراب كأنّه لم يُمس ولم يشربوا[٢] ثمّ قال : يا بني عبد المطّلب إنّي بُعثت إليكم خاصّة، والىٰ الناس عامّة، وقد رأيتم من هٰذه الآية ما رأيتم، فأيّكم يبايعني علىٰ أنْ يكون أخي وصاحبي ووارثي؟ فلم يقم اليه أحد.

فقمت ـ وكنت أصغر القوم سنّاً ـ فقال : اجلِس. ثمّ قال (قوله) ثلاث مرّات كلّ ذٰلك أقوم اليه فيقول لي : اجلس حتّىٰ كانت الثالثة، فضرب يده على يدي. فلذٰلك ورثت ابن عمّي دون عمّي[٣].

---

(١) الغُمَر : القدح الصغير.

(٢) التكملة من الطبري ٢ : ٣٢١.

(٣) سعد السعود : ١٠٤، ١٠٥. واسم الراوي في النسخة المطبوعة : أبي ربيعة بن ماجد، وفي البحار ١٨ : ٢١٤ أبي ربيعة بن ناجد وفي علل الشرائع ربيعة ابن ناجد وكذٰلك في الطبري ٢ : ٣٢١ وهو الصحيح.

ورواه الصدوق في «علل الشرائع» بسنده عن ربيعة بن ناجد[١]. وكذٰلك الطبري في تأريخه[٢] ولم نجد الخبر في كتاب الحبري المطبوع في طبعتين[٣].

وهٰذا الخبر كالأخبار السابقة إنّما ينسجم مع كون الدعوة في الشعب أو بعد الإعلان لا مع السّر والكتمان، ولا سيّما بالنظر الىٰ قوله صلى الله عليه وآله: «إنّي بعثت اليكم خاصّة، والىٰ الناس عامّة». وهٰذه الجملة وإنْ كانت تنسجم مع المبادأة بالدعوة إلّا أنّ سائر الجمل في كلام الرسول لا تنسجم وذٰلك. والخبر ليس فيه عدد المدعوّين، ولكن...

روىٰ مختصره فرات بن ابراهيم في تفسيره مسنداً عن علي عليه السلام قال: دعاهم فجمعهم علىٰ فخذة شاة وقعب من لبن، وإنّ فيهم يومئذٍ ثلاثين رجلاً وفي ثلاثة أخبار أُخرى: أربعون رجلاً[٤].

ونقله القميّ في تفسيره فقال: نزلت بمكّة فجمع رسول اللّٰه بني هاشم وهم أربعون رجلاً، كلّ واحد منهم يأكل الجذَعَة ويشرب القربة، فاتّخذ لهم طعاماً يسيراً، وأكلوا حتّىٰ شبعوا، فقال رسول اللّٰه: من يكون وصيّي ووزيري وخليفتي؟ فقال لهم أبو لهب: جزماً سحركم محمّد! فتفرّقوا.

فلمّا كان اليوم الثاني أمر رسول اللّٰه ففَعل لهم مثل ذٰلك، فقال لهم رسول اللّٰه: أيّكم يكون وصيّي ووزيري وخليفتي؟ فقال أبو لهب: جزما سحركم محمّد! فتفرّقوا.

---

(١) علل الشرائع: ٢٠٢.

(٢) تأريخ الطبري ٢: ٣٢١.

(٣) طبعة السيد أحمد الحسيني. وطبعة السيد محمد رضا الحسيني الجلالي.

(٤) تفسير فرات: ٣٠٠ ـ ٣٠٣، كما في بحار الأنوار ١٨: ٢١١، ٢١٢.

فلمّا كان اليوم الثالث أمر رسول اللّٰه ففَعل لهم مثل ذٰلك فقال لهم رسول اللّٰه : أيّكم يكون وزيري وينجز عداتي ويقضي ديني ؟

فقام علي عليه‌السلام فقال : أنا يا رسول اللّٰه. فقال رسول اللّٰه : أنت هو. وكان أصغرهم سنّاً وأحمشهم ـ أي أدقّهم ـ ساقاً وأقلّهم مالاً[١].

وأوّل ما في هٰذا الخبر المختصر بل المختزل بل المنقول بالمعنىٰ لا النص هو أنّه عبّر عن المدعوّين ببني هاشم لا بني عبد المطّلب، ففوّت المطعَن علىٰ ابن تيمية ومن شاكله ممّن طعن في الخبر بأنّ بني عبد المطّلب لم يبلغوا يومئذٍ أربعين رجلاً. ولكن الخبر كسوابقه إنّما ينسجم مع كون الدعوة في الشِعب أو بعد الإعلان لا مع السرّ والكتمان، ولا مع مبادأتهم بالدعوة.

والطريق المسند للخبر عن علي عليه‌السلام غير منحصر بربيعة بن ناجد فالسيد كما رواه عنه في «سعد السعود» رواه في «الطُرَف» عن الأعمش[٢]، والصدوق الّذي رواه عن ابن ناجد رواه أيضاً بسند الأَعمش عن عبد اللّٰه ابن الحارث بن نوفل عن علي عليه‌السلام قال : لمّا اُنزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أي رهطك المخلصين، دعا رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله بني عبد المطّلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فقال : أيّكم يكون أخي ووارثي ووزيري ووصيّي وخليفتي فيكم بعدي ؟ فعرض عليهم ذٰلك رجلاً رجلاً، كلّهم يأبىٰ ذٰلك حتّىٰ أتىٰ عليّ فقلت : أنا يا رسول اللّٰه، فقال : يا بني عبد المطّلب هٰذا أخي ووارثي ووصيّي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي. فقام القوم يضحك بعضهم الىٰ بعض ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع وتطيع لهٰذا الغلام[٣].

---

(١) تفسير القمي ٢ : ١٢٤.

(٢) الطرف : ٧ كما في بحار الأنوار ١٨ : ١٧٩.

(٣) علل الشرائع : ٢٠٣ كما في بحار الأنوار ١٨ : ١٧٨.

والخبر كسوابقه إنّما ينسجم مع كون الدعوة في الشِعب أو بعد الإعلان لا مع السرّ والكتمان، ولا مع مبادأتهم بالدعوة، بل فيه تعريض بأبي طالب وكأنه عُرف بالسماع للرسول.

والسيد ابن طاووس والشيخ الصدوق قد اختصرا الخبر متناً وسنداً، وأكملها: الشيخ الطوسي في أماليه بطريقين عن ابن عبّاس عن علي عليه‌السلام قال: لمّا نزلت هٰذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ علىٰ رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله دعاني فقال لي: يا علي، إنّ اللّٰه تعالىٰ أمرني أن انذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذٰلك ذرعاً وعرفت أنّي متىٰ أباديهم بهٰذا الأمر أرىٰ منهم ما أكره، فصمتُّ علىٰ ذٰلك، فجاءني جبرئيل فقال: يا محمّد انّك اِنْ لم تفعل ما اُمرت به عذّبك ربّك! فاصنع لناَ يا علي ـ صاعاً من طعام واجعل عليه رِجل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن. ثمّ اجمع لي بني عبد المطّلب حتّىٰ اكلّمهم وأبلّغهم ما اُمرت به.

ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم أجمع، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعبّاس وأبو لهب... فلمّا اجتمعوا له دعاني بالطعام الّذي صنعت لهم، فجئت به، فلمّا وضعته تناول رسول اللّٰه جِذْمة[1] من اللحم فنتفها بأسنانه ثمَّ ألقاها في نواحي الصفحة ثمّ قال: خذوا بسم اللّٰه. فأكل القوم حتّىٰ صدروا مالهم بشيء من الطعام حاجة، وما أرىٰ اِلّا مواضع أيديهم. وأيمُ اللّٰه الّذي نفس عليّ بيده اِنْ كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم. ثمّ جئتهم بذٰلك العُسّ فشربوا حتّىٰ رووا جميعاً، وأيم اللّٰه اِن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلمّا أراد رسول اللّٰه أنْ يكلّمهم بدره أبو لهب الىٰ الكلام فقال: لشدّ ما سحركم صاحبكم! فتفرّق القوم ولم يكلّمهم رسول اللّٰه.

(١) الجِذمة: القطعة، وفي الطبري: حِذيةً من اللحم: ما قطع طولاً.

فقال لي من الغد : يا عليّ، إنّ هٰذا الرجل قد سبقني إلىٰ ما سمعت من القول فتفرّق القوم قبل أنْ أُكلّمهم. فعُدْ لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثمّ اجمعهم لي. ففعلت ثمّ جمعتهم فدعاني بالطعام فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، وأكلوا حتّىٰ مالهم به من حاجة، ثمّ قال : اسقهم، فجئتهم بذٰلك العُسّ فشربوا حتّىٰ رووا منه جميعاً.

ثمّ تكلّم رسول الله فقال : يا بني عبد المطّلب إنّي ـ والله ـ ما أعلم شاباً (كذا) في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عزّوجلّ أن أدعوكم اليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني علىٰ أمري فيكون أخي ووصيي ووزيري وخليفتي (في أهلي) من بعدي؟

فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً.

فقمت... فقلت : أنا ـ يا نبي الله ـ أكون وزيرك علىٰ ما بعثك الله به. فأخذ بيدي ـ وإنّي لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً ـ ثمّ قال : إنّ هٰذا أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا...

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أنْ تسمع لابنك وتطيع[1].

وانّما كنّىٰ عليه‌السلام بدقّة الساق وعظم البطن ورمص العين أي وسخه عن صغر سنّه ويختلف هٰذا اللفظ من الخبر عن سوابقه بالنصّ علىٰ المبادأة بأمره معهم بهٰذه الدعوة. وإنْ كان ينقص عن خبر تفسير الحجام بعدم «انذار» فيه، كسوابقه.

ورواية الخبر عن عبد الله بن عبّاس نوع اعتراف بعدم إسلام أبيه العبّاس يومذاك بهٰذه الدعوة الخاصّة المكررة ثلاثاً، بينما فيه ـ ما كان في الخبر السابق ـ

---

(١) امالي الطوسي : ٥٨١ الحديث ٢٠٦ وعنه في بحار الأنوار ١٨ : ١٩١، ١٩٢ وروىٰ مثله فرات بن إبراهيم في تفسيره : ٣٠١ الحديث ٤٠٦.

من التعريض بأبي طالب وكأنّه قد عُرف فيهم بالسمع والطاعة للرسول، كما فيه ـوكما في سوابقه ـ معرفة أبي لهب السابقة عن النبيّ بما وصفه بالسحر، فكأنّه أمر قد عرف من قبل، وإنْ كان نص الخبر بالمبادأة.

وأحد الطريقين اللذين روىٰ بهما الطوسي الخبر هو طريق الطبري الىٰ ابن عبّاس[1] في تأريخه وتفسيره[2] واللفظ في الموضعين «وخليفتي فيكم» لا «خليفتي

---

(١) وطريق الطبري هٰكذا: حدثنا ابن حُميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمّد بن إسحاق (صاحب المغازي) عن عبد الغفّار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد اللّٰه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، عن عبد اللّٰه بن عبّاس، عن علي بن أبي طالب قال... ولكنّ الخبر لا يوجد في سيرة ابن هشام بصفته تهذيباً(!) لسيرة ابن إسحاق.

ونقل نص ابن إسحاق القاضي النعمان المصري في كتابه: شرح الأخبار ١: ١٠٦، ١٠٧ لا بلفظ المتكلّم عن علي عليه‌السلام بل بلفظ حكاية الغائب وقول أبي لهب فيه هٰكذا: لو لم تستدلوا علىٰ سحر صاحبكم إلّا بما رأيتموه صنع في هٰذا الطعام واللبن لكفاكم. وهٰذا يدلّ علىٰ سابق معرفتهم باتّهام النبيّ بالسحر. وقول الرسول فيه «وخليفتي فيكم» وليس خليفتي في أهلي.

(٢) تأريخ الطبري ٣: ٣١٩ ـ ٣٢١ وتفسيره ١٩: ٧٤، ٧٥ ط بولاق ولكنّه في تفسيره حذف جملة «خليفتي فيكم» واستبدلها بجملة «كذا وكذا» في الموضعين فقال في الموضع الأوّل: «فأيّكم يؤازرني علىٰ هٰذا الأمر علىٰ أنْ يكون أخي وكذا وكذا»! وفي الموضع الثاني: «إنّ هٰذا أخي وكذا وكذا»! أمّا ابن كثير الشامي فكأنّه استكثر هٰذه الجملة علىٰ علي عليه‌السلام فمع اعتماده في تأريخه علىٰ تأريخ الطبري مع ذٰلك لم يعتمد عليه هنا بل عوّل علىٰ تفسيره كما فعل ذٰلك في تفسيره ٣: ٣١٥ والبداية والنهاية ٣: ٤٠ والسيرة النبوية له ١: ٤٥٩.

وجاء في «فلسفة التوحيد والولاية» للمرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية ما معناه: إنّ من القدماء الّذين رووا نص النبي علىٰ علي بالخلافة عندما دعا عشيرته وبلّغهم رسالة ربه كل من: ابن حنبل في مسنده وابن الأثير في كامله. ومن المتأخرين: محمّد عبد اللّٰه عنّان في «تأريخ الجمعيات» ومحمّد حسين هيكل في الطبعة الأولىٰ من «حياة محمّد» ولكنّه في الطبعة الثانية فما بعد في مقابل «خمسمائة جنيه»! أخذها من «جماعة» حرّف منه جملة ←

في أهلي» والواسطة بين الطوسي والطبري : جماعة عن أبي المفضل عن الطبري ، فمن أضاف أو حرّف ؟ ليت شعري !

وقد مرّ عن الطبْرسي أنّه روىٰ الخبر في تفسيره «مجمع البيان» عن تفسير الثعلبي عن البراء بن عازب.

ورواه في «إعلام الورىٰ» عن تفسيري الثعلبي النيسابوري وأبي سعيد الخركوشي ، بعنوان : ممّا ذكره الرواة ، من دون تعيين راوٍ خاص قال :

جمع بني عبد المطّلب في دار أبي طالب وهم أربعون رجلاً يومئذٍ يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً ، وكان قد صنع لهم فخذ شاة مع مدّ من البر وأعدّ لهم صاعاً من اللبن ، وقد كان الرجل منهم يأكل الجَذَعة في مقام واحد ويشرب القربة من الشراب. ثمّ أمر بتقديمه لهم ، فقُدّم وأكلت الجماعة من ذٰلك اليسير حتّىٰ عَلوا منه ، ولم يبيّن فيه ما أكلوه وما شربوه منه.

ثمّ قال لهم بعد أن شبعوا وروُوا : يا بني عبد المطّلب اِنّ اللّٰه قد بعثني الىٰ الخلق كافة ، وبعثني اِليكم خاصّة فقال : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وأنا أدعوكم الىٰ

← «خليفتي من بعدي» الىٰ «خليفتي في أهلي» وبهٰذا قد مسخ الحديث المذكور. انظر : فلسفة التوحيد والولاية : ١٣٢ و ١٧٩.

وجاء في التعليقة علىٰ «أعيان الشيعة» أنّ الدكتور هيكل في مقابل شراء الف نسخة من كتابه قد حرف الحديث ومسخه في الطبعة الثانية منه واقتصر علىٰ جملة : أيّكم يؤازرني علىٰ هٰذا الأمر.

هٰذا ما حكاه السيد الحسني في «سيرة المصطفىٰ : ١٣٠ ، ١٣١». والصحيح ما في «الصحيح» : أن هيكل بعد أن ذكر في الطبعة الأُولىٰ من حياة محمّد : ١٠٤ نص الطبري في التأريخ : عاد في الطبعة الثانية ١٣٥٤ هـ صفحة : ١٣٩ فحذف «خليفتي فيكم» واقتصر علىٰ قوله : «ويكون أخي ووصيي» أمّا الخمسمائة جنيه فإنّها كانت ثمن الف نسخة من كتابه كلّ نسخة بنصف جنيه. فلا منافاة ولا خلاف ، ولكنه الاعتساف وخلاف الشرع والإنصاف.

كلمتين خفيفتين في الميزان تملكون بها العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأُمم وتدخلون بهما الجنة وتنجون بهما من النار: شهادة أنْ لا اِلٰه الاّ اللّٰه وأنّي رسول اللّٰه. فمن يجيبني الىٰ هٰذا الأمر ويؤازرني علىٰ القيام به حتّىٰ يكون أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي؟! فلم يجب أحد منهم. فقام علي عليه السلام وقال: أنا يا رسول اللّٰه اؤازرُك علىٰ هٰذا الأمر، فقال: اجلِس فأنت أخي ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي، فنهض القوم وهم يقولون لأبي طالب: يهنك اليوم أنْ دخلت في دين ابن أخيك وقد جعل ابنك أميراً عليك[1].

ولم يذكر الطبْرسي لهٰذه الرواية اسم راوٍ خاص، وقد يكون نقلاً بالمعنىٰ دون لفظ خاصّ، ومهما كان فإن هٰذا اللفظ ينسجم مع المبادأة بالدعوة، ويشترك مع سوابقه في عدم الإنذار فيه اللّٰهم اِلاّ مفهوم قوله: «وتنجون بهما من النار» بلا بيان النار أيّ نار هي؟ وأيضاً في آخره ما يُشعر باستشعار القوم الميل الىٰ دينه من أبي طالب رضي الله عنه فنهوه عن ذٰلك.

أمّا ابن شهر آشوب في «المناقب» فقد أشار الىٰ ما ذكره الطبري في تأريخه وقبله محمّد بن اِسحاق في كتابه وأحمد في مسنده وفضائل الصحابة والخركوشي في تفسيره عن أبي رافع والبراء بن عازب وابن عبّاس وربيعة ابن ناجد وأضاف: ابن جبير، وأدخل أخبارهم بعضها في بعض ثمّ نقل نظم الخبر في شعر دعبل الخزاعي وستة مقاطع من شعر الحميري ومقطعين من العوني[2].

---

(١) إعلام الورىٰ ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٤ ـ ٢٦. وذكر مختصر الخبر الاربلي في «كشف الغمّة ١: ٣٢٧ ـ ٣٢٨ عن ابن البطريق في «العمدة» وقال: «سبق ذكره أبسط من هٰذا». ولكنّي لم أجده فيه قبل هٰذا.

هٰذا ما ذكره بعنوان «مسابقته في البيعة» في فضائل علي عليه السلام، ولكنّه قبل ذلك في مبعث النبيّ قال: روي أنّه لمّا نزل قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد رسول اللّٰه ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت اليه قريش فقالوا: مالك؟ قال: أرايتكم إنْ أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ماكنتم تصدقونني؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد! فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهٰذا دعوتنا! فنزلت سورة تبّت[1] واكتفىٰ المجلسي في باب المبعث[2] من «المناقب» بهٰذا الفصل وهٰذا النقل فقط، فبدا وكأن هٰذا كل ما يرويه ابن شهر اشوب في هٰذه الآية.

بينما الخبر مرسل، أوّل ما فيه أنّه ليس إنذراً للأقربين بل لقريش فهو علىٰ خلاف لفظ الآية.

ولعلّه لهٰذا قدّم الطبري في تأريخه حول الآية رواية ابن عبّاس ثمّ ابن ناجد السابقتين، وقد نقل الأوّل عن ابن إسحاق، ثمّ عاد فنقل عنه ـ وجعله ثالثاً وآخر ما نقل حول الآية ـ عن الحسن البصري قال: لمّا نزلت هٰذه الآية علىٰ رسول اللّٰه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول اللّٰه بالأبطح ثمّ قال: يا بني عبد المطّلب، يا بني عبد مناف، يا بني قصي، ثمّ فخّذ قريشاً قبيلة قبيلة حتّىٰ مرّ علىٰ آخرهم فقال: إنّي أدعوكم الىٰ اللّٰه وأُنذركم عذابه[3].

ولكنّ الطبري ـ كالمازندراني ـ لم يذكر ما في مثل هٰذا النقل من ضعف الإرسال في السند ومن الإشكال في متنه ودلالته، وكأنّهما لم يريا بين معنىٰ الآية وما نقلاه من عمل الرسول بها أيّ تناف أو خلاف.

والظاهر أنّ ما أرسله ابن شهر آشوب هو ما في «الدر المنثور» عن البخاري

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٦.

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ١٩٧.

(٣) الطبري ٣ : ٣٢٢ والخبر في التفسير ١٩ : ٧٥ ط بولاق.

وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور عن ابن عبّاس. وعلىٰ هٰذا فتكون الرواية عن ابن عبّاس علىٰ صورتين: الأُولىٰ عنه عن علي عليه‌السلام في يوم الدار والدعوة، والثانية هٰذه الموقوفة عليه من دون اسناد عن أبيه العبّاس أو علي عليه‌السلام، فالأُولىٰ هي الأَولىٰ بالقبول سنداً وموافقة للكتاب، والثانية مقطوعة مخالفة لظاهر الآية: «الأقربين» فهي هُراء.

وأظهر منها هُراءً ما في «الدر المنثور» أيضاً عن أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» وفي «الدلائل» عن أبي هريرة قال: لمّا نزلت هٰذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله قريشاً وعمَّ وخصَّ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً. يا معشر بني كعب بن لؤي... يا معشر بني قصي... يا معشر بني عبد مناف... يا بني عبد المطّلب... ـ في كلّها يقول: أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم ضرّاً ولانفعاً ـ وفي آخر الخبر: يا فاطمة بنت محمّد انقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لكِ ضرّاً ولا نفعاً، إلّا أنّ لكم رحماً وسأبلّها ببلالها!

فهٰذه الرواية أبعد ما تكون من الآية حيث تقول: إنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله جعل يدعو قريشاً قبيلة قبيلة، فكأن أبا هريرة يعمّم الإنذار قريشاً عامة، بينما الآية تصرّح بالعشيرة الأقربين، وهم إمّا بنو عبد المطّلب أو بنو هاشم.

وكأنَّ أبا هريرة ـ أو من أجرىٰ هٰذا الهراء علىٰ لسانه ـ كان ناظراً الىٰ هٰذا الإشكال بالخلاف بين عمل الرسول بالتعميم ومفاد الآية بالتخصيص، فقال: «وعمّ وخصّ» وهو لا يرفع الإشكال. ثمّ كيف دعاهم فجمعهم فأنذرهم بهٰذا؟ وكيف جمع معهم ابنته فاطمة وكم كان عمرها يومئذ؟ واين كان أبو هريرة يوم نزول الآية وقد أسلم قبل وفاة النبيّ ببضع سنين والخبر مقطوع عليه. فهو مردود.

وأبعد من ذٰلك في الابتعاد بمفاد الآية عن الإمام علي عليه السلام وفضله وسبقه ما في «الدر المنثور» أيضاً عن الطبراني وابن مردويه عن أبي امامة قال: لمّا نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جمع رسول اللّٰه بني هاشم فأجلسهم علىٰ الباب، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت، ثمّ اطّلع عليهم فقال: يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم وافتكّوها بأنفسكم من اللّٰه فإنّي لا أملك لكم من اللّٰه شيئاً. ثمّ أقبل علىٰ أهل بيته فقال: يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا أُمّ سلمة ويا فاطمة بنت محمّد، ويا أُمّ الزبير عمّة رسول اللّٰه، اشتروا (كذا) أنفسكم من اللّٰه واسعوا في فكاك رقابكم فإنّي لا أملك لكم من اللّٰه شيئاً ولا أُغني!

نقل كلّ ذٰلك العلّامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» وعلّق علىٰ هٰذه الرواية الثالثة فقال: فقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ آية مكيّة في سورة مكيّة، ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة، فأين كانت يوم نزولها عائشة وحفصة وأُمّ سلمة ولم يتزوج النبيّ صلى الله عليه وآله بهنَ اِلّا في المدينة؟ ثمّ قال: فالمعتمد من الروايات ما يدلّ علىٰ أنّه صلى الله عليه وآله خصّ بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبد المطّلب. ثمّ يقول: ومن عجيب الكلام قول الآلوسي بعد نقل الروايات: واذا صحّ الكلّ (بنقل الصحاح) فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار![1].

ومن نافلة القول أَنْ نقول: لا يرد عندنا أيّ احتمال في افتعال هٰذه الأقوال حول هٰذه الآية، سوىٰ الابتعاد بمفادها حسب الخبر الصحيح عمّا في ذٰلك من الدليل علىٰ سبق علي عليه السلام في الإيمان وسبق قول الرسول له: «أنت أخي ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي».

---

(١) الميزان ١٥ : ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

ولكنْ لاحافظة لكذوب :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقة وإنْ خالها تخفىٰ علىٰ الناس تُعلم

نعم من الرواة من لم يكن يفكر في شيء سوىٰ الفخر بأسلافه، فلم يأبه بذكر شيء سوىٰ ذٰلك.

نجد مثال ذٰلك في هٰذا الموضوع عند اليعقوبي حيث روىٰ الخبر عن الفضل بن عبدالرحمٰن الهاشمي من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب. قال : أمره اللّٰه عزّوجلّ أنْ ينذر عشيرته الأقربين، فوقف علىٰ «المروة» ثمَّ نادىٰ بأعلىٰ صوته : يا آل فهر؛ فاجتمعت اليه بطون قريش حتّىٰ لم يبق أحد منهم، فقال له أبو لهب : هٰذه فهر، فنادىٰ : يا آل غالب فانصرف غيرهم (وهٰكذا... حتّىٰ نادىٰ) يا آل هاشم فأقام بنو عبدالمطّلب، فقال أبو لهب : هٰذه هاشم قد اجتمعت. فجمعهم في دار الحارث بن عبد المطّلب(!) وكانوا أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه. فصنع لهم طعاماً فأكلوا عشرة عشرة حتّىٰ شبعوا، وكان جميع طعامهم رجل شاة وشرابهم عُسّاً من لبن، وانّ منهم من يأكل الجَذَعة ويشرب الفَرْق. ثمّ أنذرهم وأعلمهم تفضيل اللّٰه اِيّاهم واختصاصه لهم اذ بعثه بينهم وأمره أنْ ينذرهم (!)

فقال أبو لهب : خذوا علىٰ يد صاحبكم قبل أَنْ يأخذ علىٰ يده غيركم، فإنْ منعتموه (أي حاميتموه) قُتِلتم، وإنْ تركتموه ذللتم !

فقال أبو طالب : يا عورة؛ واللّٰه لننصرنّه ثمّ لنعيننّه. يابن أخي إذا أردت أنْ تدعو الىٰ ربّك فأعلمنا حتّىٰ نخرج معك بالسلاح.

وأسلم يومئذٍ جعفر بن أبي طالب، وعتبة بن الحارث[1].

أمّا علي فلا كلام عنه! وأمّا هٰذه الدعوة بهٰذه الكيفية فقد انفرد بها اليعقوبي، وهي عجيبة غريبة، بعيدة عن الحكمة والمعقول، فهي مردودة.

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٢٧.

ولا يفوتني في الخاتمة أَنْ الفت نظر القرّاء الكرام الىٰ أنّ ما عدا هٰذا الخبر الأخير من أخبار الإنذار في يوم الدار للأقربين من العشيرة، تكاد تُجمع علىٰ أنّ المعدّ للطعام وطابخه لهم هو علي عليه‌السلام دون سواه لا خديجة ولا جواريها ولا فاطمة بنت أسد...

إلّا ما رواه الحميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الإمام الكاظم عليه‌السلام في معجزاته عليه‌السلام : أنّه لما ألّب عليه قومه وسائر العشائر (وهذا أيضاً ينصّ على كون ذلك بعد الاعلان) أمر علياً أن يأمر خديجة (كذا ولعلّها كانت بمنأى عنه فكان علي الوسيط بينهما) : أن تتّخذ له طعاماً، ففعلت. وأمره أن يدعو له أقرباءه من بني عبد المطلب، فدعا أربعين رجلاً.

فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : يا علي، هات لهم طعاماً.

فأتاه بطعام من ثريدة يأكلها الثلاثة والأربعة، فقدّمها إليهم وقال: سمّوا وكلوا، فسمّى، ولم يسمّ القوم وأكلوا حتى شبعوا وصدروا[1].

---

(١) قرب الاسناد: ٢٥٢ الحديث ١٢٣٣.

الفصل الرابع

إعلان الدعوة

مرحلة الدعوة العلنية العامّة:

روىٰ الصدوق في «إكمال الدين» بإسناده عن عبد اللّٰه بن علي الحلبي عن الصادق عليه السلام قال: مكث رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بمكّة بعد ما جاءه الوحي عن اللّٰه تبارك وتعالىٰ ثلاث عشرة سنة، مستخفياً منها ثلاث سنين، خائفاً لا يظهر حتّىٰ أمر اللّٰه عزّوجلّ أنْ يصدع بما اُمر، فأظهر حينئذٍ الدعوة[1].

وروىٰ العياشي في تفسيره عن الحلبي عنه عليه السلام أيضاً قال: اكتتم رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله بمكّة سنين ليس يظهر، وعليّ معه وخديجة، ثمّ أمره اللّٰه أنْ يصدع بما يؤمر، فظهر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فجعل يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كذّاب، امض عنّا[2].

وروىٰ الصدوق في «الخصال» بسنده عن أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي قال: كان المستهزئون (برسول اللّٰه) خمسة من قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي،

---

(١) إكمال الدين: ١٩٧ كما في بحار الأنوار ١٨ : ١٧٧.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٣.

والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزُهْري، والأسود بن المطّلب، والحارث بن الطلاطلة الثقفي[١]. ورواه العياشي بزيادة: فلمّا قال اللّٰه تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ علم رسول اللّٰه أنّه قد أخزاهم، فأماتهم اللّٰه بشرّ ميتات[٢].

وقال القميّ في تفسيره: إنّ النبوة نزلت علىٰ رسول اللّٰه يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء ثمّ أسلمت خديجة زوج النبيّ ﷺ، ثمّ دخل أبو طالب الىٰ النبيّ وهو يصلّي وعلي بجنبه، وكان مع أبي طالب جعفر، فقال له أبو طالب: صِلْ جناح ابن عمّك، فوقف جعفر علىٰ يسار رسول اللّٰه، فبدر رسول اللّٰه من بينهما. فكان رسول اللّٰه يصلّي، وعلي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة يأتمون به.

فلمّا أتىٰ لذٰلك ثلاث سنين أنزل اللّٰه عليه ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[٣].

والمستهزئون برسول اللّٰه خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطّلب، والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن طلاطلة الخزاعي.

أمّا الوليد: فكان رسول اللّٰه دعا عليه ـ لما كان يبلغه من إيذائه واستهزائه ـ فقال: اللهم اعم بصره واثكله بولده! فعمي بصره... ومرّ برجل من خزاعة وهو يريش نبالاً له فوطأ علىٰ بعضها فأصاب عقبه قطعة من ذٰلك فدميت. فمرّ برسول اللّٰه ومعه جبرئيل فقال جبرئيل: يا محمّد، هٰذا الوليد بن المغيرة، وهو من المستهزئين بك؟ قال: نعم، فلمّا مرّ أشار جبرئيل الىٰ ذٰلك الموضع (من النبل في

---

(١) الخصال ١ : ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٢ بل يخزيهم فيميتهم بشرّ ميتات، كما سيأتي قريباً.

(٣) الحجر : ٩٤ ـ ٩٥.

عقبه) فرجع الوليد الىٰ منزله ونام علىٰ سريره، فسال منه الدم حتّىٰ صار الىٰ فراش ابنته، فانتبهت فقالت: انحلّ وكاء القربة! قال الوليد: ما هٰذا وكاء القربة ولكنه دم أبيك، فاجمعي لي ولدي وولد أخي فإنّي ميت. فجمعتهم.

فقال لعبد اللّٰه بن أبي ربيعة: إنّ عُمارة بن الوليد بأرض الحبشة بدار مَضيعة، فخذ كتاباً من محمّد الىٰ النجاشي أن يردّه! ثمّ فاضت نفسه.

ومرّ ربيعة بن الأسود[1] برسول اللّٰه، فأشار جبرئيل الىٰ بصره فعمي ومات.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار جبرئيل الىٰ بطنه فلم يزل يستسقي حتّىٰ انشق بطنه.

ومرّ العاص بن وائل فأشار جبرئيل الىٰ رجليه، فدخل عود في أخمص قدميه وخرج من ظاهره ومات.

ومرّ به الحارث بن طلاطلة فأشار جبرئيل الىٰ وجهه، فخرج الىٰ جبال تهامة فأصابته من السماء ديم فاستسقىٰ حتّىٰ انشق بطنه. فهٰذا هو قول اللّٰه: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾.

فخرج رسول اللّٰه ﷺ فقام علىٰ الحجر فقال: «يا معشر قريش، يا معشر العرب، ادعوكم الىٰ شهادة أنْ لا اله اِلّا اللّٰه وأنّي رسول اللّٰه، وآمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة».

فاستهزأوا به وقالوا: جُن محمّد بن عبد اللّٰه. ولم يجسروا عليه لموضع أبي طالب[2].

---

(١) كذا، ولم يذكر كذٰلك من قبل، والظاهر أنّ ربيعة هنا مصحّف: أبي زمعة الأسود بن المطّلب!

(٢) تفسير القميّ ١ : ٣٧٩.

وظاهر هٰذا الأخير هو المبادأة بالدعوة العلنية، بعد ثلاث سنين من نزول النبوة عليه صلى الله عليه وآله كما صرّح به في أوّل مقاله، وكما مرّ في الخبر الأوّل عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام.

وأيضاً ظاهر الأخير من كلام القمي أنّ ذٰلك كان بعد هلاك المستهزئين به لا قبله، ولكنّ مقاله خلو من الاجابة عن أن هٰؤلاء المستهزئين بماذا كانوا يستهزئون في مرحلة الكتمان؟

أمّا طلب الوليد من عبد اللّٰه بن ربيعة أن يأخذ من محمّد كتاباً الىٰ النجاشي بأرض الحبشة أنْ يردّ عُمارة بن الوليد الىٰ مكّة، فلا يلازم سابق الإعلان فقط بل يستلزم أنْ يكون ذٰلك بعد الهجرة الىٰ الحبشة واكتشاف ميل النجاشي الىٰ الدين الجديد! والقميّ في مقاله هٰذا مرّ عليه مرور الكرام وكأنّه لم يلتفت الىٰ هٰذه المفارقة الواضحة، وكذٰلك كلّ من نقل عنه مقاله هٰذا.

أمّا الطبْرسي في تفسيره فقد قال: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ عن ابن عبّاس وابن جريج ومجاهد وابن زيد والزجاج: أي أظهر وأعلن وأبنْ وصرّح بما اُمرت به غير خائف. وقال الزجاج: والصدع في الزجاج والجدار بينونة بعضه عن بعض. وعن أبي مسلم: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي لا تلتفت اليهم ولا تخف منهم. ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أي شرّ المستهزئين واستهزاءهم بأنْ أهلكناهم.

فعن ابن عبّاس وابن جبير: أنّهم كانوا خمسة نفر من قريش: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زمعة الأسود بن المطّلب، والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن قيس.

وعن محمّد بن ثور: كانوا ستة رهط، وسادسهم: الحارث بن الطلاطلة.

قالوا: أتىٰ جبرئيل النبيّ صلى الله عليه وآله والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبرئيل ورسول اللّٰه الىٰ جنبه، فمرّ به الوليد بن المغيرة المخزومي فأومىٰ بيده الىٰ ساقه،

فمرّ الوليد علىٰ قين لخزاعة وهو يجرّ ثيابه فتعلّقت بثوبه شوكة، فمنعه الكِبْر أن يخفض رأسه فينزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته، فلم يزل مريضاً حتّىٰ مات.

ومرّ به العاص بن وائل السهمي فأشار جبرئيل الىٰ رجله فوطأ العاص علىٰ شوكة فدخلت في أخمص رجله فلم يزل يحكّها حتّىٰ مات.

ومرّ به الأسود بن المطّلب بن عبد مناف فأشار الىٰ عينه فعمي.

وقيل: رماه بورقة خضراء فعمي وجعل يضرب رأسه علىٰ الجدار حتّىٰ هلك.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار الىٰ بطنه فاستسقىٰ حتّىٰ مات.

وقيل: أصابته السَّموم فصار أسود، فأتىٰ أهله فلم يعرفوه فطردوه فمات.

ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأومىٰ الىٰ رأسه فامتخط قيحاً فمات.

وقيل: إنّ الحرث بن قيس أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فما زال يشرب حتّىٰ انقدّ بطنه فمات[1].

ولئن كان الطبْرسي صاحب التفسير هٰذا قد لخّص بعض الأخبار عن غير الأئمة الأطهار عليهم السلام بشأن هؤلاء المستهزئين، في كتابه هٰذا «مجمع البيان» تبعاً للشيخ الطوسي في كتابه «التبيان» وإنْ كانت رواية ابن عبّاس فيما رواه مقطوعة عليه دون أن يسندها الىٰ علي عليه السلام فإنْ الطبْرسي الآخر صاحب «الاحتجاج» قد روىٰ بشأن المستهزئين خبراً مبسوطاً عن الإمام الكاظم عن جده الحسين عليه السلام فيما أجاب به علي عليه السلام حَبْراً يهودياً شامياً جاء الىٰ مجلس فيه أصحاب رسول الله: أبو معبد الجهني وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عبّاس[2] ممّا يكشف لنا عن مصدر خبر ابن عبّاس عن ذٰلك.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٥٣٣، ٥٣٤. وسمّاهم في التبيان ٦: ٣٥٦ عن سعيد بن جبير.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣١٤ ـ ٣٢٢.

ولئن كان الخبر في «الاحتجاج» مرسلاً مرفوعاً فقد رواه الصدوق في «الخصال» مسنداً، قال: فأمّا المستهزئون فقال اللّٰه عزّوجلّ له: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ فقتل اللّٰه خمستهم، قد قتل كل واحد منهم بغير قِتلةِ صاحبهم، في يوم واحد:

أمّا الوليد بن المغيرة: فإنّه مرّ بنبل لرجل من بني خزاعة قد راشه في الطريق، فأصابته شظية منه فانقطع أكحله[١] حتّىٰ أدماه فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

وأمّا العاص بن وائل السهمي: فإنّه قد خرج في حاجة إلىٰ كَداء[٢] فتدهده[٣] تحته حجر فسقط فتقطّع قطعة قطعة فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

وأمّا الأسود بن عبد يغوث: فإنّه خرج يستقبل ابنه زمعة ومعه غلام له، فاستظلّ بشجرة تحت كَداء، فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخذ رأسه فنطح به الشجرة فقال لغلامه: امنع هٰذا عني: فقال: ما أرىٰ أحداً يصنع بك شيئاً اِلّا نفسك! فقتله وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

قال الصدوق: وفي خبر آخر قول آخر: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد دعا عليه أن يعمي اللّٰه بصره وأنْ يثكله ولده، فلمّا كان ذٰلك اليوم جاء حتّىٰ صار الىٰ كَداء فأتاه جبرئيل عليه السلام بورقة خضراء فضرب بها وجهه فعمي، وبقي حتّىٰ أثكله اللّٰه بولده يوم بدر ثمّ مات.

وأمّا الحارث بن الطُلاطلة: فإنه خرج من بيته في السموم فتحول حبشياً فرجع الىٰ أهله فقال: أنا الحارث فغضبوا عليه فقتلوه وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

---

(١) الاكحل: عرق الحياة في اليد أو الرجل ـ القاموس.

(٢) كداء ـ كسَماء ـ جبل بأعلىٰ مكّة. القاموس ومراصد الإطلاع.

(٣) تدهده: تدحرج.

وأمّا الأسود بن المطّلب: فإنّه أكل حوتاً مالحاً فأصابه غلبة العطش فلم يزل يشرب الماء حتّىٰ انشق بطنه فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

وذلك أنّهم كانوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا له: يا محمّد ننتظر بك الىٰ الظهر فإن رجعت عن قولك وإلّا قتلناك!

فدخل النبيّ منزله فأغلق عليه بابه مغتمّاً بقولهم. فأتاه جبرئيل عليه السلام ساعته فقال له: يا محمّد، السلام يقرئك السلام وهو يقول: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أظهر أمرك لأهل مكّة وادع، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ قال: يا جبرئيل كيف أصنع بالمستهزئين وما أوعدوني؟ قال له: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ قال: يا جبرئيل كانوا عندي الساعة بين يدي؟ فقال: قد كُفيتهم. فأظهر أمره عند ذلك[1].

أمّا هذا المقطع الأخير من الخبر فهو صريح في أنّ قوله سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ليس بداية مرحلة الدعوة العلنية، بل كان بادئاً بها من قبل مواجهاً ومقابلاً بها المشركين ومنهم هؤلاء المستهزئون، وقد بلغت المواجهة بعد الاستهزاء إلىٰ حد التهديد بالقتل إنْ لم يرجع عن قوله، وأن قوله سبحانه ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ليس إلّا وعداً برفع المانع بعد وجود المقتضي كما يقولون، لا إيجاداً للمقتضي. فكيف التوفيق؟ وعلىٰ هذا فمعنىٰ الإعراض عن المشركين هنا هو عدم الاعتناء والاعتداد بتهديدهم. ومعنىٰ قوله ﴿ فَاصْدَعْ ﴾ هو عدم ترتيب الأثر علىٰ تهديدهم بدخول الدار وغلق الباب والامتناع عن الدعوة بالرسالة، وليس البدء بها.

وقد مرّ في خبر الطبْرسي: قالوا: أتىٰ جبرئيل النبي صلى الله عليه وآله والمستهزئون يطوفون بالبيت... ولا نجد هذا في خبر الكاظم عن علي عليه السلام، ومتىٰ كان ذلك هل قبل نزول الآية أم بعدها؟

---

(١) الخصال ١: ٢٧٩، ٢٨٠.

نجد جواب ذٰلك فيما رواه الراوندي في «الخرائج والجرائح»: أنّه لمّا نزل ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بشّر النبيّ أصحابه: أن الله كفاه أمرهم يعني خمسة نفر، فأتىٰ الرسول صلى الله عليه وآله البيت والقوم في الطواف وجبرئيل عن يمينه.

فمرّ الأسود بن المطّلب، فرمىٰ (جبرئيل) بورقة في وجهه خضراء فأعمىٰ الله بصره وأثكله بولده.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأومأ الىٰ بطنه فاستسقىٰ ماء فمات حبناً[1].

ومرّ به الوليد بن المغيرة فأومأ الىٰ جرح كان في أسفل رجله فانتقضَ بذٰلك فقتله.

ومرّ به العاص بن وائل السهمي فأشار الىٰ أخمص رجله فخرج علىٰ حمار له يريد الطائف فدخلت في (أخمص رجله) شوكة فقتلته.

ومرّ به الحارث بن طلاطلة فأومأ اليه فتقيّأ قيحاً فمات[2].

إذن فإتيان جبرئيل بالرسول الىٰ البيت ومرور هٰؤلاء المستهزئين به في طوافهم حول البيت، وإيماء الرسول اليهم بالتعريف وإيماء جبرئيل اليهم بالعذاب، كان بعد نزول جبرئيل عليه بالآيات وتبشيره لأصحابه بها وبهلاك المستهزئين حسب ما جاء فيها.

أمّا ما اختصره الطبْرسي في تفسيره عن ابن عبّاس وابن جبير ومحمّد ابن ثور، فقد نقله ابن شهر آشوب عنهم فقال: كان المستهزئون به جماعة منهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعة الأسود بن

---

(١) حبناً: من عظم البطن تورماً من الاستسقاء.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٦٣، الحديث ١٠٩ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٢٤٠.

المطّلب، والعاص بن وائل السهمي، والحرث بن قيس السهمي، وعقبة بن أبي معيط وقهيلة بن عامر الفهري، والأسود بن الحرث، وأبو أُحيحة سعيد بن العاص، والنضر بن الحرث العبدي، والحكم بن العاص بن أُمية، وعُتبة بن ربيعة، وطُعيمة بن عدي، والحرث بن عامر بن نوفل، وأبو البختري العاص بن هاشم بن أسد، وأبو جهل، وأبو لهب. وكلّهم قد أفناهم اللّٰه بأشد نكال.

وكانوا قالوا له: يا محمّد ننتظر بك الىٰ الظهر، فإن رجعت عن قولك وإلاّ قتلناك! فدخل منزله وأغلق عليه بابه، فأتاه جبرئيل ساعته فقال له: يا محمّد، السلام يقرأ عليك السلام وهو يقول: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وأنا معك وقد أمرني ربّي بطاعتك.

فلمّا أتىٰ البيت رمىٰ الأسود بن المطّلب في وجهه بورقة خضراء وقال: اللهم اعم بصره واثكله بولده. فعمي وأثكله اللّٰه بولده.

وروي: أنّه أشار الىٰ عينه فعمي فكان يضرب رأسه علىٰ الجدار حتّىٰ هلك.

ثمّ مرّ به الأسود بن عبد يغوث فأومىٰ الىٰ بطنه فاستسقىٰ ماء ومات حَبناً.

ومرّ به الوليد فأومىٰ الىٰ جرح اندمل في بطن رجله من نبل فتعلقت به شوكة فنن فخدشت ساقه ولم يزل مريضاً حتّىٰ مات.

ومرّ به العاص فعابه، فخرج من بيته فلفحته السَموم، فلمّا انصرف الىٰ داره لم يعرفوه فباعدوه فمات غماً. وروي أنّهم غضبوا عليه فقتلوه.

وروي أنّه وطأ علىٰ شَبْرَقَةٍ[1] فدخلت في أخمص رجله فقال: لُدغت فلم يزل يحكّها حتّىٰ مات.

ومرّ به الحارث بن طلاطلة فأومىٰ الىٰ رأسه فتقيّأ قيحاً. ويقال: لدغته الحية. ويقال: خرج الىٰ كَداء فتدهده عليه حجر فتقطع.

---

(١) الشبرق: نبت حجازي يؤكل وله شوكة، فإذا يبس فهو الضّريع.

وأمّا الأسود بن الحارث: فإنّه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتّىٰ انشقت بطنه.

وأمّا قهيلة بن عامر: فخرج يريد الطائف ففُقد ولم يوجد.

وأمّا عيطلة: فإنّه أُتي بشوك فأصاب عينيه فسالت حدقته علىٰ وجهه. وقيل: استسقىٰ فمات.

وأمّا أبو لهب: فإنّه (مات بعد بدر) ورماه اللّٰه بالعدسة (الطاعونية) فعاش سبع ليال (ومات) وكانت قريش تتقي العدسة، فتركه ابناه ثلاثاً لا يدفنانه، حتّىٰ رمته قريش علىٰ جدار بأعلىٰ مكّة وقذفوا عليه الحجارة حتّىٰ واروه بها[1].

وروىٰ ابن إسحاق خبر المستهزئين عن عروة بن الزبير قال: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر من ذوي الأسنان والشرف في قومهم:

من بني أسد بن عبد العزّىٰ: الأسود بن المطّلب.

ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث.

ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة.

ومن بني سهم: العاص بن وائل.

ومن بني خزاعة: الحارث بن الطُلاطلة.

فلمّا تمادوا في الشرّ وأكثروا برسول اللّٰه الاستهزاء، أنزل اللّٰه تعالىٰ عليه ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وأتىٰ جبرئيل رسول اللّٰه وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول اللّٰه الىٰ جنبه، فمرّ به الأسود بن المطّلب فرمىٰ في وجهه بورقة خضراء فعمي. ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار الىٰ بطنه فاستقىٰ بطنه فمات حَبناً (أي انتفاخاً) ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار الىٰ أثر جُرحٍ بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٠٨.

ذٰلك بسنين، فانتقض به فقتله. ومرّ به العاص بن وائل فأشار الىٰ أخمصَ رجله فخرج علىٰ حمار له يريد الطائف فربض به علىٰ شبْرقة[١] فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته. ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار الىٰ رأسه فامتخط قيحاً فقتله[٢].

والخبر السابق نقله ابن شهر آشوب عن تفسير محمّد بن ثور وهو عن التابعي سعيد بن جبير وعن ابن عبّاس مقطوعاً عليه، وإنّما جاء اسم أبي رافع في أخر الخبر، ولعلّه هو الراوي المعاصر الناقل لابن عبّاس. وقد مرّ في خبر الصدوق عن الكاظم عن علي عليه السلام أنّ ابن عبّاس كان حاضراً في المجلس سامعاً للخبر عن علي عليه السلام، فلعلّ ما بين الخبرين من خلاف جاء من رواية أبي رافع أو ادخال ابن عبّاس للخبرين بعضهما في بعض.

والمستهزئون في هٰذا الخبر سبعة عشر رجلاً فصّل مقتل تسعة منهم وأجمل الباقين، وآخر المذكورين بالتفصيل أبو لهب مع التصريح بمقتله بعد بدر، والمومى اليه منهم خمسة فحسب فلعلّ هٰذا هو وجه الجمع المعقول بين الخبرين، ولعلّه هو وجه اختصار الخبر عند الطبْرسي.

وإذا استثنينا خبر تفسير القمّيّ بما فيه ممّا يلازم حدوثه بعد الهجرة الىٰ الحبشة، فلا يبقىٰ في سائر الأخبار إلّا عدم وضوح باعث الاستهزاء في حال اختفاء الدعوة، ممّا لم نجد الجواب المقنع عنه. اللهم إلّا أنْ نقول ـ كما في خبر الصدوق وابن عبّاس ـ بأنّ الصدع بالأمر لم يكن بداية إعلان بل كان عن امتناع وقع للتهديد الأكيد من هؤلاء المستهزئين كما مرّ، وهو المتعيّن الراجح.

وقد مرّ في خبر الراوندي في «الخرائج» والطبْرسي في «المجمع» وابن شهر آشوب في «المناقب» عن ابن عبّاس وابن جبير وتفسير محمّد بن ثور:

---

(١) نبت حجازي يؤكل وله شوك كما مرّ، فإذا يبس فهو الضّريع.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٥٠ ـ ٥٢.

أنّ الرسول ﷺ أتىٰ البيت ومعه جبرئيل عن يمينه والقوم في الطواف. فأيّ طواف كان هٰذا لهم جميعاً بعد تهديدهم إيّاه؟

لعلّنا نجد جواب هٰذا فيما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سيرته: أنّ نفراً من قريش اجتمعوا الىٰ الوليد بن المغيرة ـ وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم ـ فقال لهم: يا معشر قريش! إنّه قد حضر هٰذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هٰذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً[1].

لنا من هٰذا النص التصريح بأنّ مناسبة عقد هٰذا المؤتمر بل المؤامرة علىٰ الرسول ﷺ كانت هي حضور موسم الحج أو العمرة ووفود العرب إليهم لذٰلك وهم قد سمعوا بأمره ﷺ.

وتختلف صورة الخبر لدىٰ القمّيّ في تفسيره قال: كان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً مجرّباً من دُهاة العرب... وكان له مال كثير وحدائق (في الطائف) وكان له عشرة بنين بمكّة، وعشرة عبيد عند كلّ عبد ألف دينار يتّجر بها ـ وتلك هي القنطار في ذٰلك الزمان ـ ولذا كان قد قال لقريش: أنا أتوحّد بكسوة البيت سنةً وعليكم في جماعتكم سنة، ولذٰلك سمّاه الله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾[2].

وكان رسول الله ﷺ يقعد في الحجر فيقرأ القرآن...

فاجتمعت قريش الىٰ الوليد فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هٰذا الّذي يقول محمّد؟ أشعر هو؟ أم كهانة؟ أم خُطَبٌ؟ فقال: دعوني أسمع كلامه.

فدنا من رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد أنشدني من شعرك! قال: ما هو شعر، ولكنّه كلام الله الّذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه. فقال: اتل عليّ منه شيئاً.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٨.

(٢) المدّثر : ١١.

فقرأ رسول الله ﴿ حم السجدة ﴾ فلمّا بلغ الىٰ قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[١] اقشعرّ الوليد وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته. ومرّ الىٰ بيته ولم يرجع الىٰ قريش من ذٰلك.

فمشوا الىٰ أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي) فقالوا له : يا أبا الحكم، إنّ أبا عبد شمس قد صبا الىٰ دين محمّد، أما تراه لم يرجع الينا!

فغدا أبو جهل اليه فقال له : يا عمّ، نَكَّسْتَ رؤوسنا وفضحتنا وأشمتَّ بنا عدوّنا وصبوتَ الىٰ دين محمّد؟!

فقال : ما صبوت الىٰ دينه ولكنّي سمعت منه كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود! فقال له أبو جهل: أخُطَبٌ هو؟ قال : لا، إنّ الخُطَبَ كلام متصل، وهٰذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضاً. قال : أفشعر هو؟ قال : لا، أما إنّي قد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها، وما هو بشعر. قال : فما هو؟ قال : دعني أُفكر فيه!

فلمّا كان من الغد قالوا : يا أبا عبد شمس، ما تقول فيما قلناه؟ قال : قولوا : هو سحرٌ؛ فإنّه آخِذٌ بقلوب الناس.

فأنزل الله علىٰ رسوله في ذٰلك : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ... ﴾[٢] وكان من المستهزئين برسول الله[٣].

---

(١) فصّلت : ١٣. وهي ٦١ في ترتيب النزول كما في التمهيد : ١٠٥.

(٢) المدثّر : ١١ ـ ٢٧.

(٣) تفسير القميّ ٢ : ٣٩٣، ٣٩٤ وعنه في إعلام الورىٰ ١ : ١١٣، ١١٤.

وعلىٰ هٰذا فقوله سبحانه: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ و﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ كان تصعيداً في تهديده وإنذاره قبل تبشير الرسول بكفاية شرّه بهلاكه والمستهزئين معه بقوله ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ وهٰذا أيضاً ممّا يلازم كون الصدع بأمره قبلَ هٰذا بغير قليل، حتّىٰ تكون وفود العرب في الموسم ـكما قال الوليد ـ قد سمعوا بأمره ﷺ، فإنّ الدعوة السريّة أو غير العلنية لا يبلغ صداها هٰذا الحد أبداً، بحيث يحتار المشركون في كيفية مواجهتهم لهم في الموسم. وَلعلّ الوليد بعد موقفه هٰذا ونزول هٰذه الآيات فيه بالتهديد قابل هو وأصحابه النبيّ بالتهديد الشديد والأكيد لتحديد دعوته دون حضور الموسم، ثمّ حضروا طواف الموسم فوسمهم جبرئيل بعذاب اللّٰه الشديد في الدنيا قبل الآخرة، وبذٰلك كفىٰ رسول اللّٰه شرّهم وشرّ استهزائهم به وبرسالته. فانطلق الرسول بخطبته العامّة في الموسم علىٰ حجر إسماعيل حول البيت في مطاف المسجد الحرام.

وممّا يؤيّد ذٰلك تعبير الرسول ﷺ في تلك الخطبة، إذ هي بالإضافة الىٰ مخاطبة قريش تحتوي علىٰ الخطاب للعرب، وهو اذا ضُمّ الىٰ مخاطبة قريش ـمثلاًـ دلّ علىٰ العرب ممّا عداهم لا هم.

فلننظر الىٰ نصّ الخطاب:

خُطَبُ النبي ﷺ للدعوة العلنية:

بعد أَنْ حكىٰ القميّ في تفسيره قصّة هلاك المستهزئين قال: «فخرج رسول اللّٰه ﷺ فقام علىٰ «الحجْر» فقال:

«يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم الىٰ شهادة أن لا اله اِلّا اللّٰه وأنّي رسول اللّٰه، وآمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة».

فاستهزأوا منه وقالوا: جُنّ محمّد بن عبد اللّٰه. ولم يجسروا عليه لموضع أبي طالب[1].

فالخطاب لقريش عامّة وللعرب بالأعم، والمَقام الّذي اختاره لخطابه العام هٰذا هو حجر إسماعيل حول البيت في مطاف المسجد الحرام أي أجمع مجامع الحجّ وأشرف مواقفه فكان كما روىٰ ابن هشام عن ابن إسحاق: وصدرت العرب من ذٰلك الموسم بأمر رسول اللّٰه ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلّها[2].

وهٰذا هو ماكان يحذره أُولئك المستهزئون المهدّدون لمنعه عن الإعلان بدعوته في ذٰلك الموسم العام.

ولكنْ هل كان هٰذا هو البيان الأوّل العام لدعوته العلنية العامّة؟

أمّا اليعقوبي فيقول: وأقام رسول اللّٰه بمكّة ثلاث سنين... يدعو الىٰ توحيد اللّٰه عزّوجلّ وعبادته، والاقرار بنبوّته ويكتم أمره... حتّىٰ قالت قريش: إنّ فتىٰ ابن عبد المطّلب ليُكلَّم من السماء... ثمّ أمره اللّٰه أنْ يصدع بما أرسله به فأظهر أمره وقام «بالأبطح» فقال:

«إنّي رسول اللّٰه، أدعوكم الىٰ عبادة اللّٰه وحده وترك عبادة الأصنام الّتي لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت» فاستهزأت به قريش وآذته.

وكان المؤذون له جماعة منهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، وعُقبة بن أبي مُعيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وعمرو بن الطُلاطلة الخزاعي.

وكان المستهزئون به: العاص بن وائل السهمي والحارث بن قيس بن عدي السهمي، والأسود بن المطّلب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن

---

(١) تفسير القمّيّ ١ : ٣٧٩. وعنه في إعلام الورىٰ ١ : ١٠٦.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٩١.

عبد يغوث الزُهْري. وكانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحب[١].

فهو يروي أوّل خطبة له بالأبطح لا الحجر، فلعله قبل الموسم. ثمّ هو يرىٰ قصة المستهزئين بعد الصدع بالأمر، وكأنّه يرىٰ صدعه بالأمر بمعنىٰ أنّه «عاب عليهم آلهتهم، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا كفاراً»[٢] أو هو مرحلة ما بعد الصدع.

ثمّ هو يرىٰ فرقاً بين المؤذين له وهم خمسة والمستهزئين به وهم خمسة آخرون. فلعلّ محمّد بن ثور الّذي عدّهم سبعة عشر رجلاً قد خلط بينهم.

وقبله قال ابن إسحاق: فلمّا بادىٰ رسول اللّٰه ﷺ قومه بالإسلام ـ وصدع به كما أمره اللّٰه ـ لم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه حتّىٰ ذكر آلهتهم وعابها، فلمّا فعل ذٰلك أعظموه وناكروه وأجمعوا علىٰ خلافه وعداوته إلّا من عصم اللّٰه منهم بالإسلام[٣].

فهل يعني ذٰلك أنّه لمّا بادىٰ قومه لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتّىٰ صدع بأمره كما أمره اللّٰه فذكر آلهتهم وعابها، فأنكروا ذٰلك وأعظموه وعادوه وأجمعوا علىٰ خلافه؟ لعلّه يعني ذٰلك.

وإذا كان كذٰلك فلعلّه ﷺ بعد مرحلة الدعوة السرية، وبعد مرحلة الدعوة الخاصّة للأربعين للأقربين من العشيرة بني عبد المطّلب أو بني هاشم، بادىٰ قومه بدعوته العامّة العلنية دون هٰذا المعنىٰ من الصدع بالأمر، فبدأ بخطبته علىٰ «الصفا» الخالية من هٰذا المعنىٰ من الصدع بالأمر أي عيب الآلهة وذكرها بالسوء كما في «المناقب» لابن شهر آشوب قال: رُوي أنّه لمّا نزل قوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (أي بعد هٰذه المرحلة) صعد رسول اللّٰه ـ ذات يوم ـ الصفا،

(١ و ٢) اليعقوبي ٢ : ٢٤.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٢.

فقال : يا صباحاه! فاجتمعت اليه قريش فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتكم إنْ أخبرتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم ماكنتم تصدّقونني ؟ قالوا : بلىٰ، قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

قال قَتادة : ثمّ إنّه خطب فقال : أيّها الناس، إنّ الرائد لا يكذب أهله، ولو كنت كاذباً لما كذبتكم، واللّٰه الّذي لا اله إلّا هو، إنّي رسول اللّٰه إليكم حقّاً خاصّة والىٰ الناس عامّة، واللّٰه لتموتون كما تنامون، ولتُبعثون كما تستيقظون، ولتُحاسبون كما تعملون، ولتُجزوْنَ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنّها الجنة أبداً أو النار أبداً. وإنّكم أوّل من أُنذرتم[1].

وهٰذه الجملة الأخيرة من هٰذه الخطبة علىٰ «الصفا» هي الّتي تحملنا علىٰ القول : بأنّها أوّل خطبة، فالخطبة «بالأبطح» ثمّ الخطبة «بالحجر» في الموسم. فلعلّ هٰذا هو وجه الجمع المعقول بين الخطب الثلاث.

من هم المقتسمون؟

وكأننا نجد فيما رواه الطوسي ثمّ الطبْرسي في تفسيرهما عن ابن عبّاس ومقاتل، نجد فيه المتمّم لأمر هٰذا الموسم، فقد قال مقاتل في قوله سبحانه : ﴿ **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾[2] إنّهم هم الّذين اقتسموا طرق مكّة يصدون عن رسول اللّٰه ﷺ والايمان به.

وقال ابن عبّاس : إنّهم كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة «أيّام الموسم» يقولون لمن أتىٰ مكّة : لاتغترّوا بالخارج منا المدّعي النبوة. فأنزل اللّٰه بهم عذاباً فماتوا شرّ ميتة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٦، ٤٧.

(٢) الحجر : ٩٠، ٩١.

وجعلوا القرآن عضين أي جزّؤوه أجزاءً فقالوا: سحر، وقالوا: مفترىٰ، وقالوا: أساطير الأوّلين[١] وكذٰلك روىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي: أنّ المقتسمين كانوا ستة عشر رجلاً خرجوا الىٰ عقاب مكّة أيّام الحج علىٰ طريق الناس (الحجاج) علىٰ كلّ عقبة أربعة منهم، ليصدّوا الناس عن النبيّ ﷺ، واذا سألهم الناس عمّا أُنزل علىٰ رسول الله قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم[٢].

فلعلّ الوليد في بدايات الموسم بعث هٰؤلاء الستة عشر رجلاً علىٰ طرق مكّة مقتسمينها فيما بينهم يصدّون من أتىٰ مكّة عن الايمان برسول اللّه ﷺ، وكما اقتسموا طرق مكّة فيما بينهم كذلك اقتسموا القول في القرآن بين مكذّب وقائل إنّه سحر وقائل إنّه أساطير الأوّلين.

ثمّ إنّ الوليد جمع اليه هٰؤلاء النفر من قريش وقال لهم: اجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضا. فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به... ثمّ قال لهم: إنّ أقرب القول فيه أنّ تقولوا هو ساحرٌ جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذٰلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلّا حذّروه إيّاه وذكروا لهم أمره، فأنزل اللّه فيه قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً... ﴾[٣].

ثمّ نزل فيه خاصّة وفي خمسة من أصحابه: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ولعلّ سائر السبعة عشر رجلاً الّذين عدّهم محمّد بن ثور في تفسيره عن ابن عبّاس وابن جبير ـ علىٰ رواية ابن شهر آشوب ـ من المستهزئين، هم من المقتسمين مع

---

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٣١.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٥٤٩.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٨، ٢٨٩.

المستهزئين، الّذين روىٰ الطبْرسي هنا عن ابن عبّاس أنّهم كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد، فمعه يكونون سبعة عشر رجلاً. وقد ذكر عذاب ثلاثة منهم عدا المستهزئين وإنْ كان لم يذكر عذاب الجميع إلّا بالاجمال، دون التفصيل.

والموسم ـكما لاحظته ـ ذُكر في كلا الأمرين: المقتسمين، والمستهزئين، من دون تفريق بينهما ممّا يحمل بظاهره علىٰ أوّل موسم بعد إعلان الدعوة العامّة، فإن كانت طبيعة الأُمور تقتضي فاصلاً زمنيّاً أطول من موسم واحد بين الأمرين ـكما هو ظاهر الحال ـ فمن المحتمل أن يكون الاقتسام في الموسم الأوّل، ثمّ محاولة الاعتبار بالتجربة من اختلاف آرائهم وأقوالهم في الرسول والقرآن، فالسعي في توحيد آرائهم وأقوالهم فيهما في الموسم الثاني، وأنّ ما نزل في الوليد والمستهزئين والمقتسمين في سورتي الحجر والمدثّر كان في الموسم الثاني بعد إعلان الدعوة لا الأوّل.

ما نزل من القرآن قبل «فاصدع»:

إذ وقفنا علىٰ الحوادث المشار إليها بقوله سبحانه ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾[١] وقوله سبحانه ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[٢] والآيات من أواخر سورة الحجر، وهي الرابعة والخمسون في ترتيب النزول[٣] أي يسبقها من القرآن في النزول ثلاث وخمسون سورة، ولنا فيها آيات واشارات الىٰ ما يسبق ما أُشير إليه في هٰذه الآيات الأخيرة من سورة الحجر ممّا يدخل في تأريخ الإسلام، فلنقف عليها علىٰ ترتيبها علىٰ التوالي:

---

(١) الحجر: ٩٠، ٩١.

(٢) الحجر: ٩٤، ٩٥.

(٣) التمهيد: ١: ١٠٥ وتلخيصه ١: ٩٨.

رتّبوا في ترتيب النزول بعد سورة العلق: سورة القلم الّتي تفتتح بالآية: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ممّا يوحي إلىٰ أنّ هٰذه الجملة إنّما هي تنزيه له عمّا اتّهمه به المشركون من الجنون، كما في الآية بعدها: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ وكما في الآية بعدها: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ و﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[١] وليس من التأويل اذا بحث الدارس لهٰذه الآيات عن الشخص المعيّن المعنيّ بها، بل الظاهر من الآيات هو ذٰلك وما عداه خلاف الظاهر.

ونقل الطبْرسي ثلاثة أقوال في ذٰلك: قيل يعني الوليد بن المغيرة فإنّه عرض علىٰ النبيّ المال ليرجع عن دينه. وقيل يعني: الأخنس بن شُريق الثقفي. وقيل: يعني: الأسود بن عبد يغوث[٢] بينما لم نجد خلافاً في المعنيّ بأوصاف سورة المدثّر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ أنّه الوليد. وحقاً وجدناه الوحيد الّذي يوصف في الأخبار التأريخية بذٰلك الوصف في المال والبنين ليس سواه ولم يوصف الآخران معه بذٰلك الوصف في المال والبنين، فهو الأولىٰ أن يكون المقصود عند الإطلاق والترديد.

أمّا متىٰ تليت عليه الآيات؟ وأيّ آيات؟ ومن تلىٰ؟ وكيف؟ وما هو تفصيل عرضه المال علىٰ الرسول ليرجع عن دينه أو عن الإعلان به ودعوته اليه؟ وكيف منع عن هٰذا الخير؟ فلم يبق لنا من تفسير المفسّرين الأوائل، ولا الأخبار التأريخية إلّا هٰذه الأقوال الثلاثة علىٰ الترديد فقط، فضلاً عمّا يحلّ لنا التنافي بين هٰذه الآيات من القرآن ودور الكتمان.

---

(١) القلم: ١٠ ـ ١٥.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٥٠١.

وأسطع من ذلك ما في أواسط السورة من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1] فهل يمكننا أن نحكم أنّ هٰذا أيضاً من القرآن في دور الكتمان؟! بل هو إعلام وإعلان.

بل روىٰ ابن شهر آشوب في «المناقب» عن ابن عبّاس: أنّ الوليد ابن المغيرة أتىٰ قريشاً فقال: إنّ الناس يجتمعون غداً بالموسم وقد فشا أمر هٰذا الرجل في الناس، وهم يسألونكم عنه فما تقولون؟ فقال أبو جهل: أقول: إنّه مجنون، وقال أبو لهب: أقول إنّه شاعر، وقال عُقبة بن أبي مُعيط: أقول إنّه كاهن. فقال الوليد: بل أقول هو ساحر يفرّق بين الرجل والمرأة وبين الرجل وأخيه وأبيه. فأنزل اللّٰه تعالىٰ: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[2].

وفي العلق قبل القلم قالوا: إنّ المعنيّ بالآية: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى ﴾ هو الوليد أيضاً إذ كان ينهىٰ الناس عن أن يطاع رسول اللّٰه وعن الصلاة[3] وقيل: هو أبو جهل، فإنه حاول أنّ يطأ رقبة الرسول في سجدته في الصلاة في المسجد الحرام[4] ولكنّي عبرته الىٰ القلم، إذ قالوا إنّ النازل من العلق قبل القلم إنّما هي الآيات الخمس الأوائل، وأمّا هٰذه الآية فهي متأخرة في النزول عن تلك، فلعلّنا نعود اليها فيما بعد.

وثالثة السور ـ «المزمّل»:

وعاشرة آياتها: ﴿ وَاصبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهجُرهُمْ هَجراً جَمِيلاً * وَذَرنِي

---

(١) القلم: ٣٤ـ٣٦.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ١: ٤٨.

(٣) تفسير القمّيّ ٢: ٤٣٠.

(٤) مجمع البيان ١٠: ٧٨٢ عن صحيح مسلم.

وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾[١] قال في «المجمع» : قيل : نزلت في صناديد قريش والمستهزئين[٢] وأليس من الإعلان الآيات التالية في السورة : ﴿ إِنَّا أَرسَلنَا إِلَيكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُمْ كَمَا أَرسَلنَا إِلَىٰ فِرعَونَ رَسُولاً * ... فَكَيفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرتُمْ يَوماً يَجعَلُ الوِلدَانَ شِيباً * ... إِنَّ هٰذِهِ تَذكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾[٣].

ورابعة السور ـ «المدّثّر»:

وفيها الآيات بشأن الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد مرّ خبره مع المستهزئين.

وقد مرّ من قبل خبر جابر بن عبد اللّٰه الأنصاري عن الرسول ﷺ أنّها أوّل سورة نزلت عليه بعد الفترة بعد حِراء، وعليه تكون ثانية السور لا الرابعة، ويمكن الجمع بينهما بمثل الكلام في سورة العلق، بأنّ ما نزل ثانياً بعد الفترة هي حتّىٰ الآية العاشرة، أي الىٰ ما قبل ما يتعلق بالوليد، ثمّ نزل باقيها ـ بعد المزمّل ـ رابعاً.

وبهٰذا الصدد قال العلّامة الطباطبائي «والسورة مكيّة من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة» لكنّه قال بعد هٰذا : واحتمل بعضهم أنْ تكون السورة أوّل ما نزل علىٰ النبي ﷺ عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدّة في أوّل البعثة. ثمّ قال «وهٰذا لا يتعدّىٰ طور الإحتمال»[٤] فما معنىٰ قوله «في أوائل البعثة وظهور الدعوة»؟ أمّا أنْ تكون هي أوّل سورة نزلت من القرآن فقد قال : يكذّبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته القرآن علىٰ القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنه ورميهم له بأنّه «سحر يؤثر»[٥] ويصدق مثل ذٰلك في سابقتيه المزمّل

---

(١) المزمّل : ١٠، ١١.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٥٧٣.

(٣) المزمل : ١٥ ـ ١٩.

(٤) الميزان ٢٠ : ٧٩.

(٥) الميزان ٢٠ : ٧٩.

والقلم، ولم يقل بمثل هٰذا هنـاك. بل قبل أن تكون العلق أوّل سورة كاملة[١]. وفيها ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * ... أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ... كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَه ﴾ أفليست هـٰذه أيـضاً كتلك الآيات صريحة في سبق أمره بالتقوىٰ وتكذيبهم له واعراضهم عنه؟ ولم يقل مثل ذٰلك هنا، والأمر واحد.

السورة الخامسة ـ «الفاتحة»:

فقد قال اليعقوبي: إنّها الفاتحة[٢] والظاهر أنّها هي رواية جابر بن زيد[٣] أمّا خبر ابن عبّاس فلم يعرض للفاتحة. ومرّ ترجيح أن تكون الفاتحة ـكما هو معنىٰ الفاتحة ـ فاتحة كتاب اللّٰه. وقد يوجَّه عدم ذكر ابن عبّاس للفاتحة بأنّ العلق فما بعد من القرآن في دور الإعلان والفاتحة كانت نازلة من قبل. وهي السورة الوحيدة ـ في عداد هٰذه السور الأوائل ـ الّتي ليس فيها ما يقتضي أو يستدعي سبق شيء من القرآن أو الإسلام قبلها.

سادسة السور ـ «المسد»:

سورة تبّت أو أبي لهب أو المسد، قال القميّ في تفسيرها: إنّ أُمّ جميل بنت صخر بن حرب «أبي سفيان»[٤] كانت تنمّ علىٰ رسول اللّٰه أي تنقل أحـاديثه الىٰ الكفّار، ولمّا اجتمع زوجها أبو لهب مع قريش في «دار الندوة» وبايعهم علىٰ قتل محمّد رسول اللّٰه، نزلت السورة[٥] وهٰذا يعني أنّ السورة نزلت بعد مؤتمر قريش بقتل

---

(١) الميزان ٢٠ : ٣٢٢.

(٢) اليعقوبي ٢ : ٣٣.

(٣) التمهيد ١ : ١٠٣ وتلخيصه ١ : ٩٥.

(٤) كذا في القميّ، وهو غلط، فهي بنت حرب أُخت ابي سفيان كما يأتي عن مجمع البيان.

(٥) تفسير القميّ ٢ : ٤٤٨.

الرسول، وهٰذا لا يتّفق مع كونها السورة السادسة أي الأوائل، فهو مردود.

ومن الطبرسي يعلم أنّ ما قاله القميّ في معنىٰ «حمّالة الحطب» هو قول عن ابن عبّاس[1] أمّا في سبب نزولها فقد روىٰ عن البخاري عن سعيد ابن جبير عن ابن عبّاس أيضاً قال: صعد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فأقبلت اليه قريش فقالوا له: مالك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدّقوني؟ قالوا بلىٰ. فقال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد! فقال أبو لهب تبّاً لك، ألهٰذا دعوتنا جميعاً؟! فأنزل اللّٰه هٰذه السورة[2].

وهٰذا كما ترىٰ صريح في حصر ما نزل من القرآن في دور الكتمان في السور الخمس الأوائل السابقة علىٰ المسد، وأمّا المسد فهي أوّل سورة من دور الإعلان. والخبر مروي عن ابن جبير عن ابن عبّاس، وعنهما روي خبر الإنذار في يوم الدار للعشيرة الأقربين أي الدعوة الخاصّة بين الكتمان والإعلان كما مرّ، وذٰلك لا يتّفق مع هٰذا عنهما.

ولكن لا ريب أنّ سورة اللهب لا تناسب الكتمان أيضاً، فكيف التوفيق؟

وروىٰ الطبْرسي أيضاً في قوله سبحانه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلت هٰذه الآية صعد رسول اللّٰه علىٰ الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت اليه قريش، فقالوا: مالك؟ فقال... فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهٰذا دعوتنا جميعاً؟

فأنزل اللّٰه تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ الىٰ آخر السورة[3] وهٰذا أيضاً

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٢.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٥١.

(٣) مجمع البيان ٨ : ٣٢٣. وانظر وقارن التبيان ١٠ : ٤٢٧.

كذلك يتنافىٰ مع الدعوة الخاصّة ليوم الدار للأقربين من العشيرة من ناحية، وأيضاً من ناحية أُخرىٰ يتنافىٰ مع خبر ابن عبّاس في ترتيب النزول إذ يقتضي نزول المسد بعد الشعراء أو العكس أو استثناء آية الإنذار وما يلازمها من الشعراء ولم ينقل ذلك عنه.

ولكن روىٰ الطبْرسي أيضاً ما يصلح شأناً لنزول السورة من دون هذه الملازمات، قال: عن سعيد بن المسيّب قال: كانت لأُمّ جميل بنت حرب أُخت أبي سفيان قلادة فاخرة من جوهر فقالت: لأُنفقنّها في عداوة محمّد! قال الطبْرسي: ولمّا أنذر النبيّ أبا لهب بالنار قال: إن كان ما تقول حقّاً فإنّي أفتدي بمالي وولدي[1] فأنزل اللّٰه: ﴿ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ** ﴾ بدل القلادة. وهذا لا يستلزم ما كان يستلزمه الخبران عن ابن عبّاس، ولكنّه يستلزم سبق الإعلان والمجاهرة حتّىٰ حدّ العداء الحادّ من أبي لهب وامرأته.

وقد روىٰ الطبْرسي أيضاً في شدّة عدائه ونصبه للنبيّ ما يدلّ علىٰ ذلك في أوائل الإعلان: عن طارق المحاربي قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز، إذْ أنا بشابّ (كذا) يقول: أيّها الناس قولوا: لا اله إلّا اللّٰه تفلحوا. وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمىٰ ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها الناس إنّه كذّاب فلا تصدّقوه. فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: هو محمّد يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذّاب[2].

فقوله: هو محمّد يزعم أنّه نبيّ، في جواب: مَن هذا، يُشعر بأنّ هذا كان في بداياته.

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٢.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٢.

وروى الحِميري في «قرب الاسناد» بسنده عن الكاظم عليه‌السلام في معجزاته صلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه: حين نزلت «سورة تبّت» أتته أُمّ جميل امرأة أبي لهب ومعه صلى‌الله‌عليه‌وآله أبو بكر، فقال له: يا رسول الله، هذه أُمّ جميل تريدك وهي مُحفظَة ـ أي مُغضَبة ـ ومعها حجر تريد أن ترميك به! فقال له: إنّها لا تراني. فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله... ثمّ قال أبو بكر لرسول الله: يا رسول الله لم ترك؟ قال: لا، ضرب الله بيني وبينها حجاباً[1].

السورة الثامنة ـ «الأعلىٰ»[2]:

وروىٰ العياشي في تفسيره عن عقبة بن عامر الجُهني قال: لمّا نزلت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله: اجعلوها في سجودكم.

ورواه أيضاً في «الدر المنثور» عن أحمد وأبي داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله[3].

وتمام الخبر: ولمّا نزل: ﴿ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[4] قال صلى‌الله‌عليه‌وآله: اجعلوها في ركوعكم. والواقعة هي السورة السادسة والأربعون، وهٰذا يدلّ علىٰ ما مرّ عن أنّ الصلاة كانت في اوائل تشريعها بسجود بلا ركوع، ثمّ شُرّع الركوع بعد ذٰلك[5].

ومرّ عن ابن شهر آشوب في «المناقب» عن تفسير القطّان عن ابن مسعود:

---

(١) قرب الاسناد: ٢٥٦، الحديث ١٢٤٦.

(٢) السر في عدم ذكرنا لبعض السور هو عدم اشتمالها على الآيات ذات الإشارة الى الحوادث التأريخية.

(٣) الميزان ٢٠: ٢٧٠.

(٤) الواقعة: ٧٤.

(٥) صفحة: ٣٨٥.

أنّ علياً عليه السلام سأل رسول الله : ما أقول في السجود في الصّلاة؟ فنزل : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وسأله : ما أقول في الركوع؟ فنزل : ﴿ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فكان أوّل من قال ذلك[١].

والسورة العاشرة ـ «الضحىٰ»:

أو الحادية عشرة هي «سورة الضحىٰ» وفي تفسير القمّي في سبب نزولها روىٰ عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ قال : ذلك إنّ أوّل سورة نزلت كانت ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثمّ أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالت خديجة : لعلّ ربّك قد تركك فلا يُرسل اليك. فأنزل الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[٢] وهذا يقتضي أن تكون الضحىٰ الثانية لا العاشرة.

وقيل : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح. فقال. سأُخبركم غداً. ولم يقل : إنْ شاء الله، فاحتبس عنه الوحي هذه الأيام، فاغتمّ لشماتة الأعداء. فنزلت السورة تسلية لقلبه[٣] وهذا يقتضي أنْ تكون السورة مدنيّة بعد الثمانين لا عاشرة المكيات.

وعن ابن عبّاس قال : احتبس الوحي عنه صلى الله عليه وآله خمسة عشر يوماً فقال المشركون : إنّ محمّداً قد ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتتابع عليه[٤].

وقيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله رُميّ بحجر في اصبعه فقال يخاطبها :

هل أنتِ إلّا اصبع رُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢ : ١٤ ـ ١٩.

(٢) تفسير القمّي ٢ : ٤٢٨.

(٣ و ٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤.

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يوحى اليه، فقالت له أُمّ جميل بنت حرب امرأة أبي لهب: يا محمّد ما أرىٰ شيطانك اِلّا قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث! فنزلت السورة[١].

ولايتنافىٰ خبر ابن عبّاس مع هٰذا الأخير اِلّا في عدد أيّام احتباس الوحي عنه صلى الله عليه وآله فقد تكون أمّ جميل هي السبب في إِشاعة الخبر بين المشركين ممّا أشاع بينهم ذٰلك، فهي حمّالة الحطب، وهٰذا من حطبها.

أمّا العدد المذكور في خبر أُمّ جميل: (ليلتين أو ثلاث)، فهو يوحي كأنّما الوحي كان قبل ذٰلك مستمراً كلّ يوم وليلة، وهٰذا لم يُعهد عنه صلى الله عليه وآله ولم ينقل، فالراجح هو عدد ابن عبّاس: خمسة عشر يوماً، أو مقاتل: أربعين يوماً[٢].

ولكن عن البرقي بإسناده عن رجل من أهل البصرة قال: رأيت الحسين بن علي عليه السلام يطوف بالبيت فسألته عن قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فقال: أمره أن يحدّث بما أنعم اللّٰه عليه من دينه[٣].

وقال القميّ في معنىٰ الآية: أي بما أنزل اللّٰه عليك وأمرك به[٤].

ونقل الطبْرسي عن مجاهد والزّجاج: أي بلّغ ما أُرسلتَ به وحدّث بالنبوة الّتي آتاكها اللّٰه، وهي أجلّ النعم. وعن الكلبي (هشام بن محمّد ت ٢٠٦) قال: يريد بالنعمة: القرآن اذْ كان القرآن أعظم ما أنعم اللّٰه عليه به، فأمره أنْ يقرأه[٥].

وقال ابن إِسحاق: ثمَّ فتر الوحي عن رسول اللّٰه فترة من ذٰلك حتّىٰ شقّ ذٰلك عليه فأحزنه، فجاءه جبرئيل بسورة الضحىٰ يقسم له ربّه وهو الّذي أكرمه بما

(١ و ٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٤.

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٤٧٤.

(٤) تفسير القميّ ٢ : ٤٢٨.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٨.

أكرمه به : أنّه ما ودّعه وما قلاه ، ويقول : ما صرمك فتركك وما أبغضك منذ أحبّك ، وما عندي من مرجعك إليّ خير لك ممّا عجّلتُ من الكرامة في الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ من الفَلْج (الفوز والغلبة) في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿ فَتَرْضَى ﴾ . ثمّ يعرّفه اللّٰه ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره ومنّه عليه في يُتمه وعيلته وضلالته واستنقاذه من ذلك كلّه برحمته ... ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بما جاءك من اللّٰه من نعمته وكرامته من النبوة فاذكرها وادع اليها . فجعل رسول اللّٰه ـ صلّى اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ يذكر ما أنعم اللّٰه به عليه وعلى العباد به من النبوّة سرّاً الى من يطمئن اليه من أهله[1].

ثمّ يقول : فلمّا دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتّى فشا ذكر الإسلام بمكّة وتُحدّث به ... قال اللّٰه تعالى له : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فأمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو اليه . وكان ـ فيما بلغني ـ بين ما أخفى رسول اللّٰه أمره واستتر به من مبعثه الى أن أمره اللّٰه تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ... كان فيها أصحابه اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى شعاب مكّة فاستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينا رسول اللّٰه في نفر من أصحابه في شعب من شعاب مكّة يصلّون إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فعابوا عليهم ما يصنعون[2] ؛ وكأنّ هذه الحادثة كانت هي المناسبة لإعلان الدعوة . أمّا قبل ذلك فإنّما كان يذكر النبوة لمن كان يطمئن اليه من أهله سرّاً . إذن فكيف اطلعت عليه أمّ جميل فاحتطبت عليه الى المشركين فأشاعوا عليه أنّ الوحي منقطع عنه ؟! اللهم إلّا أن نخلص من ذلك كما خلص ابن إسحاق فلم يقل بشيء من ذلك ، وإنّما قال : ثمّ فتر الوحي عنه فترة حتّى شق عليه وأحزنه فجاءه جبرئيل بسورة الضحى .

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

ولم يقل ما الّذي نزل من القرآن قبلها حتّىٰ في ابتداء تنزيله، ولكنّه بعد أن ذكر ابتداء النزول في شهر رمضان قال: ثمّ تتام الوحي اليه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وهو مؤمن باللّٰه ومصدّق بما جاءه منه قد قبله بقبوله وتحمّل منه ما حمله علىٰ رضا العباد وسخطهم... فمضىٰ علىٰ أمر اللّٰه علىٰ ما يلقىٰ من قومه من الخلاف والأذىٰ[1] ثمّ يقول: ثمّ فتر الوحي... فلو كان صلى الله عليه وآله إنّما جعل يذكر النبوة سِرّاً الىٰ من يطمئن اليه من أهله بعد قوله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[2] فكيف ومن أين علم به قومه فيتحمل ما يلقاه منهم من الخلاف والأذىٰ؟!

والسورة الثانية عشرة ـ «الشرح»:

هي متتالية للضحىٰ إنْ لم نقل بوحدتهما كما نقل ذلك الفخر الرازي عن طاووس بن كيسان اليماني وعمر بن عبد العزيز، وجاء في بعض أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام[3] وأفتىٰ به بعض فقهائنا[4].

واختلفوا في معنىٰ الوزر في قوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ويبدو لي بقرينة وحدة سياق السورتين أنَّ المقصود بالوزر ما تحمله من ثقل انقطاع الوحي عنه واحتباسه، وهو العسر الّذي تحمله، واليسر بعده تجديد الوحي اليه، واليوم وقد فرغ من ذلك الهمّ والغمّ فعليه أن ينصَب في التحديث بما أنعم اللّٰه عليه من النبوّة ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

وقال صاحب كتاب النظم في تفسير السورة: إنّ اللّٰه بعث نبيّه وهو مُقلٌّ مخفٌّ وكانت قريش تعيّره بذلك حتّىٰ قالوا له: إنْ كان بك من هذا القول الّذي تدّعيه

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٧.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٥٨.

(٣) الميزان ٢٠ : ٣٦٥.

(٤) المحقّق الحلّي في الشرائع والمعتبر.

طلب الغنىٰ جمعنا لك مالاً حتّىٰ تكون أيسر أهل مكّة. فكره النبيّ ذٰلك وظـن أنّ قومه إنّما يكذبونه لفقره، فوعده اللّٰه سبحانه الغنىٰ ليسلّيه بذٰلك عمّا خامره من الهمّ فقال: ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ أي لا يحزنك ما يقولون وما أنت فيه من الإقلال، فإنّ مع العسر يُسراً في الدنيا عاجلاً. ثمّ أنجز ما وعده فلم يمت حتّىٰ فتح عليه الحجـاز وماوالاها من القرىٰ العربية وعامّة بلاد اليمن، فكان يعطي المئتين من الإبل ويهب الهبات السنيّة، ويعدّ لأهله قوت سنته[١] فهل كان بين الضحىٰ والشرح من التحديث بنعمة النبوة منه ﷺ ما جرّ المشركين الىٰ اقتراح تقديم المال اليه ردعاً له عن دعوته؟!

السورة الثالثة عشرة ـ «العصر»:

وقال الطبْرسي: قيل: المراد بالإنسان هو الوليد بن المـغيرة وأبـو جـهل[٢] ونسب السيوطي إلىٰ ابن عبّاس القول بأنّه أبو جهل[٣]. وعلىٰ هٰذا فلا يخلو قـوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ عن تعريض به أو بهما اذ كـانا يـتواصـيان بالباطل والصبر عليه في مواجهة الحقّ. وهٰذا أيضا ممّا يقتضي الإعلان، كما يقتضيه إطلاق قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

السورة الرابعة عشرة ـ «العاديات»:

إنّما علّقنا علامة استفهام على كون سورة العاديات هي الرابعة عشرة نزولاً، لأنّها كذلك حسب الخبر المعتمد في ترتيب نزول السور[٤].

إلّا أنّ القميّ والكوفي في تـفسيريهما[٥] والمـفيد في إرشـاده[٦] والطـوسي في أماليه[٧] رووا مدنية السورة عن سلمان وأبي‌ذر وابن عباس والباقر والصادق عليهما السلام، ونقل الطوسي في تفسيره عن الضحاك مدنيّتها، وعن ابن عباس وتلامذته مجاهد وقتادة وعطاء: أنّ العاديات الضابحات والمثيرات نقعاً والمـوريات قـدحاً كـلّها

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٧٢.
(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨١٥.
(٣) الدر المنثور ٦ : ٣٩١.
(٤) التمهيد ١ : ١٠٣، ١٠٤.
(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٣٤ و ٤٣٨ والفرات الكوفي : ٥٩٩ الحديث ٧٦١.
(٦) الإرشاد ١ : ١٦٥.
(٧) أمالي الطوسي : ٤٠٧، م ١٤، ح ٦١.

أوصاف الخيول المغيرات صباحاً بالمدينة، إذ لم يكن للمسلمين خيل بمكة. ومع كل ذلك نقل عن ابن عباس كونها مكية[١]! فعكس الطبرسي عن ابن عباس وقتادة[٢] ثمّ روى عن الصادق عليه السلام مدنيّتها وكذا عن عطاء وعكرمة والحسن ومجاهد والربيع ما يفيد مدنيّتها[٣] وكذا في تاريخه عن بعض أهل السير[٤]!

إلّا أنّه في تفسيره روى عن عطاء عن ابن عباس خبراً في ترتيب نزول السور فعدّ العاديات مكية، وآخر عن عكرمة والحسن البصري كذلك، وفي ثالث عن سعيد بن المسيب عن علي عليه السلام (كذا) كذلك[٥] والراونية روى مدنيّتها[٦] وكذا الساروي الحلبي عن مقاتل والزجاج ووكيع والسدّي والثوري وأبي صالح عن ابن عباس، وعن أم سلمة[٧]. وكذا القرطبي في تفسيره عن أنس بن مالك وابن عباس وتلميذه قتادة[٨] وقال ابن حجر: باسناد صحيح عن ابن عباس قال: ما ضبحت دابة إلّا فرس أو كلب[٩] فهو يصرّ على أن الضبح إنما هو للخيل، ولم يكن بمكة قتال حتى تعدو الخيل ضبحاً وتُغير صبحاً فتثير نقعاً وتوري قدحاً! وعليه فمنطوق السورة يأبى كونها مكية بل هي مدنية، نزلت سنة ثمان للهجرة في جمادي الثانية[١٠]. وعليه فنحن نستثنيها من الخبر المعتمد ونؤجل خبرها إلى حوادث الثامنة للهجرة[١١].

السورة الخامسة عشرة ـ «الكوثر»:

قال القميّ في تفسير الكوثر: نهر في الجنة، أعطاه الله محمّداً عوضاً عن ابنه

---

(١) التبيان ١ : ٣٩٥، ٣٩٦.
(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٠١.
(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٠٢، ٨٠٣.
(٤) إعلام الورى ١ : ٣٨٣.
(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦١٢، ٦١٣.
(٦) الخرائج والجرائح ١ : ١٦٨.
(٧) مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٦٦ و ١٦٧.
(٨) تفسير القرطبي، سورة العاديات.
(٩) فتح الباري ١٠ : ٣٥٧.
(١٠) الطبقات لابن سعد ق ١ ج ٢ : ٩٤. وانظر: عليّ إمام البررة ٣ : ١٢٩ ـ ١٨٠ للخرسان.
(١١) في المجلد الثالث : ١٦٠ : سرية وادي الرمل.

إبراهيم (كذا) وكان الرجل ـ في الجاهلية ـ اذا لم يكن له ولد سُمي أبتر، فدخل رسول الله المسجد وفيه عمرو بن العاص والحكم بن أبي العاص، فقال له عمرو: يا أبا الأبتر! (كذا) ثمّ قال عمرو: إنّي لأشنأ محمّداً. أي: أبغضه، فأنزل الله علىٰ رسوله السورة[١].

ونقله الطباطبائي في «الميزان» وعلّق عليه يقول: الخبر ـ علىٰ إرساله وإضماره ـ معارض لسائر الروايات[٢] ثمّ لم يأخذ عليه ما فيه من تهافت في اسم ابن النبيّ المتوفّى حيث ذكر إبراهيم ابن مارية القبطية المتوفّى بعد الهجرة بالمدينة، ثمّ عرّج علىٰ معنىٰ الأبتر في الجاهلية، ثمّ ذكر دخول الرسول الىٰ المسجد وفيه عمرو بن العاص وليس هو إلّا المسجد الحرام بمكّة. ثمّ ذكر أنّه قال له: يا أبا الأبتر بينما هو الأبتر، فيا لضعف النص!

وروىٰ الدولابي في «الذرّية الطاهرة» بسنده عن جابر الجعفي عن محمّد بن علي الباقر عليه‌السلام قال: كان القاسم ابن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قد بلغ أن يركب الدابّة ويسير علىٰ النجيب (الابل) فلمّا قبضه الله قال (العاص بن وائل السهمي): قد أصبح محمّد أبتر من ابنه، فأنزل الله علىٰ نبيّه: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ عوضاً عن مصيبتك في القاسم ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[٣].

أمّا الطبْرسي فقد روىٰ عن ابن عباس: انّه كان قد توفّي عبد الله بن محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله من خديجة، وكانوا يسمّون من ليس له ابن: أبتر، واتفق أن التقىٰ العاص بن وائل السهمي عند باب بني سهم برسول الله وهو يخرج من المسجد

---

(١) تفسير القمي ٢: ٤٤٣.

(٢) الميزان ٢٠: ٣٧٣.

(٣) الذرّية الطاهرة: ٦٧.

فتحادثا، وكان أُناس من صناديد قريش جلوساً في المسجد، فلمّا دخل العاص سألوه: من كنت تتحدث معه؟ قال: ذٰلك الأبتر، فسمّته قريش بالأبتر[١].

وجاء مختصر الخبر عنه في «الدر المنثور» قال: مات عبد اللّٰه، فقال العاص بن وائل السهمي، قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل اللّٰه ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[٢].

ولكنّه أخرج عن الصادق عليه‌السلام قال: توفّي «القاسم» ابن رسول اللّٰه بمكّة، فمرّ رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وهو آتٍ من جنازته علىٰ العاص بن وائل وابنه عمرو، فقال (عمرو) حين رأىٰ رسول اللّٰه: إني لأشنؤه! فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتر، فأنزل اللّٰه: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[٣].

يمتاز هٰذا الخبر عمّا مرّ بذكر عمرو بن العاص وأنّه هو الشانیء الأبتر وانْ كان أبوه العاص هو النابز للنبيّ بلقب الأبتر، ويؤيده ما في «الاحتجاج» للطبْرسي عن الحسن بن علي عليهما‌السلام في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاص يقول له: ثمّ قمت خطيباً وقلت: أنا شانئ محمّداً، وقال: العاص بن وائل (ولم يقل: أبوك لأنّه عاهر): إنّ محمّداً رجل أبتر لا ولد له فلو قد مات انقطع ذِكره. فأنزل اللّٰه تبارك وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[٤].

فالخبران الأوّلان عن ابن عباس إنّما ذكرا نابز النبيّ بلقب الأبتر وأنّه كان العاص بن وائل أبا عمرو بن العاص، ثمّ لم يذكرا الشانیء له صلى‌الله‌عليه‌وآله المجاهر له الشنآن. والخبران الآخران عن الصادق والمجتبىٰ عليهما‌السلام ذكراهما، فلا منافاة بينهما، ولعلّ ابن عباس سالم عمرو بن العاص أو اتقاه فاكتفى بذكر أبيه دونه.

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٦.

(٢ و ٣) الدر المنثور ٦ : ٤٠١، سورة الكوثر.

(٤) الاحتجاج ١ : ٤١١، ط. النجف الأشرف.

كما فعل كذٰلك السّدي فقال: كانت قريش اذا مات ذكور الرجل تقول: بتر فلان والأبتر: الفرد! فلمّا مات ولدٌ للنبيّ قال العاص بن وائل: بتر الرجل[١].

وكما فعل ابن إسحاق قال: بلغني أنّه كان العاص بن وائل السهمي اذا ذكر رسول اللّٰه قال: دعوه فإنّما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه. فأنزل اللّٰه في ذٰلك: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي ما هو خير لك من الدنيا وما فيها[٢]. وهذا يقتضي أن ذلك كان بعد وفاة عبد الله والقاسم كليهما، وقد مرّ في أولاده ﷺ أن القاسم كان الأكبر فعبد الله بعده في الإسلام، ومرّ أيضاً أنّه هو الميت رضيعاً، وهنا مرّ عن الباقر عليه‌السلام أن القاسم بلغ أن يركب الدابة ويسير على الابل، فيكون موته بعد عبد الله في الإسلام أيضاً.

والّذي تشير اليه السورة وتدلّ عليه الأخبار التأريخية والتفسيرية هو أيضاً ممّا يقتضي الإعلان لا الكتمان، بل المجاهرة بالإحن والشنآن، والحنق والعدوان.

السورة السادسة عشرة ـ «التكاثر»:

روىٰ الطبْرسي عن مقاتل والكلبي قالا: نزلت في حيّين من قريش: بني عبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، تكاثروا وعدّوا أشرافهم، فكثرهم بنو عبد مناف، ثمّ قالوا: نعدّ موتانا! حتّىٰ زاروا القبور فعدّوهم قالوا: هٰذا قبر فلان وهٰذا قبر فلان، فكثرهم بنو سهم لأنّهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية[٣] فنزلت السورة. وعليه فلا يصح ما قيل من مثل ذٰلك في الأنصار أو اليهود ممّا يقتضي مدنية السورة.

---

(١) الميزان ٢٠ : ٣٧٢.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣٤. وانظر الميزان ٢٠ : ٣٧٠ في معنىٰ الكوثر.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨١١.

ولا ننسىٰ هنا ماكان من معاوية وبني أُمية وبني مروان وقريش عموماً من العداء للأنصار، ممّا يدفعهم الىٰ أن يعطفوا ماكان من الذم القرآني عليهم الىٰ من سواهم ولا سيما الأنصار وفيهم الأوتار.

السورة السابعة عشرة ـ «الماعون»:

روىٰ الطبْرسي عن ابن جريج قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان ينحر في كلّ أُسبوع جزورين، فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصاه. وعن السدّي ومقاتل بن حيّان قالا: نزلت في الوليد بن المغيرة. وعن الكلبي قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وعن عطاء عن ابن عباس قال: نزلت في رجل من المنافقين[1] وأظن هنا في عطاء أنّه قد ناله في هٰذا القول عطاء بني أُمية أو أصابه سهم من سهام وزرائهم من بني سهم، ليعطف عنهم ذمّاً قرآنياً مكّيّاً الىٰ رجل من المنافقين في المدينة.

وفي السورة آية: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ممّا يشير الىٰ وجود مصلّين وفيهم مراؤون، فهل يتفق هٰذا وقول ابن إسحاق: أنّهم قبل اعلان الدعوة كانوا إذا أرادوا الصلاة ذهبوا الىٰ شعاب مكّة فاستخفوا بصلاتهم فيها؟ فمن كان يرائي لمن؟

السورة الثامنة عشرة ـ «الكافرون»:

روى المفيد في أماليه بسنده عن ابن إسحاق مسنداً قال: إن نفراً من قريش منهم:أُمية بن خلف، والعاص بن سعيد، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة اعترضوا لرسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في الامر، فإن يكن الذي نحن عليه الحق فقد أخذت منه بحظك منه،

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤.

وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد اخذنا بحظنا منه! فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ إلى آخر السورة(١).

وروى مثله الطبرسي في «مجمع البيان» وزاد:

فعدل رسول اللّٰه ﷺ الىٰ المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام علىٰ رؤوسهم ثمّ قرأ عليهم حتّىٰ فرغ من السورة، فأيسوا عند ذٰلك فآذوه وآذوا أصحابه(٢).

وقال ابن إسحاق في السيرة: بلغني أنّه اعترض رسول اللّٰه وهو يطوف بالكعبة: الأسود بن المطّلب، والوليد بن المغيرة، وأُميّة بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا: يا محمّد هلمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإنْ كان الّذي تعبد خيراً ممّا نعبد كنّا قد أخذنا بحظنا منه، وان كان ما نعبد خيراً ممّا تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فأنزل اللّٰه فيهم: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾(٣).

وروىٰ الطبري بسنده عن ابن عبّاس قال: إنّ قريشاً وعدوا رسول اللّٰه - صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم - أن يُعطوه مالاً فيكون أغنىٰ رجل بمكّة، ويزوّجوه ما أراد من النساء، وقالوا له: هٰذا لك عندنا يا محمّد وكفّ عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإنْ لم تفعل فإنّا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك، ولنا فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا اللات والعزّىٰ سنة، ونعبد إلٰهك سنة! فقال النبيّ: حتّىٰ أنظر ما يأتي من عند ربّي!

---

(١) أمالي المفيد: ٢٤٦.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٤٠.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٨٨.

فجاء الوحي من اللوح المحفوظ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[١]. وعليه فهٰذه هي بداية أذية المشركين للرسول والمسلمين، وهي تقتضي الإعلان لا الكتمان. وكأن أذىٰ أبي لهب وزوجته للرسول من قبل كان خاصّاً به وبهما فاختصت السورة بهما.

السورتان العشرون والواحدة والعشرون ـ «المعوّذتان»:

قال القمي : حدثني أبي، عن بكر بن محمّد، عن الصادق عليه السلام قال : كان سبب نزول المعوّذتين أنّه وعك رسول الله صلى الله عليه وآله فنزل جبرئيل بهاتين السورتين فعوّذه بهما[٢].

وروىٰ الطبرسي عنه عليه السلام قال : جاء جبرئيل الىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وهو شاكٍ، فرقاه بالمعوّذتين و ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وقال : باسم اللّٰه أُرقيك، واللّٰه يشفيك من كل داء يؤذيك، خذها فلتُهنيك[٣].

وروىٰ عن أبيه الباقر عليه السلام قال : إنّ رسول اللّٰه اشتكىٰ شكوىٰ شديدة ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرئيل وميكائيل، فقعد جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرئيل بـ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾، وعوّذه ميكائيل بـ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾[٤].

وعن كتاب «طب الأئمة» عن الصادق عليه السلام : أنّ جبرئيل أتىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وقال له : إنّ فلاناً اليهودي سحرك، ووصف له السِحر وموضعه، فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام حتّىٰ أتىٰ القُليب فبحث عنه فلم يجده، ثمّ اجتهد في طلبه حتّىٰ وجده فأتىٰ به النبيّ صلى الله عليه وآله وإذا هو حقة فيها قطعة كرب نخل، في جوفه وَتَرٌ عليها إحدىٰ عشرة

---

(١) الطبري ٢ : ٣٣٧.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠.

(٣ و ٤) مجمع البيان ١٠ : ٨٦٧.

عقدة، وكان جبرئيل عليه السلام قد انزل المعوّذتين، فأمر النبيّ علياً أن يقرأهما على الوَتَر، فجعل كلمّا قرأ آية انحلّت عقدة حتّىٰ فرغ منها، فكشف اللّه عن نبيّه ما سُحِر به وعافاه[1].

وفي «الخرائج والجرائح» للقطب الراوندي قال: إنّ امرأة من اليهود عملت له سحراً فظنّت أنّه ينفذ فيه كيدها. والسحر باطل مُحال، إلّا أنّ اللّه دلّه عليه فبعث من استخرجه، وكان علىٰ الصفة الّتي ذكرها وعلىٰ عدد العقد الّتي عُقد فيها ووصف، مالو عاينه معاين لغفل عن بعض ذٰلك[2].

ولعلّه أخذ القول باليهودية ممّا اختصره ابن جزي الكلبي في «التسهيل» قال: قيل: إنّ بنات «لُبيد» كنّ ساحرات، فهنَّ ـ وأبوهنَّ ـ سحرن رسول اللّه وعقدن له إحدىٰ عشرة عقدة، فأنزل اللّه المعوّذتين: إحدىٰ عشرة آية بعدد العقد، وشفىٰ اللّه رسوله[3].

وشاء الراوي ـ في خبر آخر ـ أن يحذف اسمه ويكتفي بوصفه باليهودية فقال: سحر النبيّ يهودي فاشتكىٰ، فأتاه جبرئيل بالمعوّذتين وقال: إنّ رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان. فأرسل علياً عليه السلام فجاء به، فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ حتّىٰ قام النبيّ كأنّما نشط من عقال[4].

وأخرج مفصله البيهقي في «دلائل النبوة» عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة قالت: كان لرسول اللّه غلام يهودي يخدمه يقال له: لبيد بن أعصم، فلم تزل به اليهود حتّىٰ سحر النبيّ، فكان يذوب (أو: يدور)

---

(١) طب الأئمة: ١١٨.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٣٤، الحديث ٣٣ وعنه في بحار الأنوار ١٨: ٥٧.

(٣) التسهيل ٤: ٢٢٥.

(٤) الدر المنثور ٦: ٤١٧.

ولا يدري ما وجعه. فبينا رسول اللّٰه ذات ليلة نائم إذْ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الأوّل للثاني: ما وجعه؟ قال: مطبوب (أي مسحور) قال: من طبَّه؟ قال: لُبيد ابن أعصم؟ قال: بِمَ طبَّه؟ قال: بمشط ومشاطة وجفّ طلعة نخل ذكر بذي أروان (بئر) وهي تحت راعوفة البئر (الصخرة علىٰ فم البئر).

فلمّا أصبح رسول اللّٰه غدا ومعه أصحابه إلىٰ البئر فنزل رجل (؟) فاستخرج الجف، فإذا فيها مشط رسول اللّٰه ومن مشاطة رأسه (شعر رأسه) واذا تمثال من شمع تمثال رسول اللّٰه وإذا فيها أُبر مغروزة، وإذا وَتَر فيه إحدىٰ عشرة عقدة. فأتاه جبرئيل بالمعوّذتين فقال: يا محمّد ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وحلّ عقدة، ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وحلّ عقدة، حتّىٰ فرغ منها وحل العقد كلها، وجعل لا ينزع ابرة إلّا يجد لها ألماً ثمّ يجد بعد ذٰلك راحة، فقيل: يا رسول اللّٰه لو قتلت اليهودي؟! فقال: قد عافاني اللّٰه، وما وراءه من عذاب اللّٰه أشد[1].

وقد قالوا: إنّ أوهىٰ الطرق الىٰ ابن عباس هو طريق الكلبي عن أبي صالح عنه[2] وابن عباس رواه عن عائشة، وإنْ أوهم الطبْرسي فقال: عن ابن عباس وعائشة[3] ولكن عائشة من أين علمت وأخبرت عن الملكين؟ ونجد الجواب فيما رواه الشيخان في الصحيحين عنها قالت: سحر رسول اللّٰه رجل من يهود بني زُريق يقال له: لُبيد بن الأعصم، حتّىٰ كان يخيّل اليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله! حتّىٰ اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول اللّٰه ثمّ دعا ثمّ دعا. ثمّ قال: يا عائشة: جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الّذي

---

(١) كما في الدر المنثور ٦: ٤١٧.

(٢) الإتقان ٢: ١٨٩.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٨٦٥.

عند رأسي للّذي عند رجلي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبّه؟ قال: لُبيد بن الأعصم، قال: في أيّ شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلعة نخل ذكر قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان (أو: ذِروان).

قالت: فأتاها رسول اللّٰه في أُناس من أصحابه ثمّ رجع وقال: يا عائشة، واللّٰه لكأنّ ماءها نُقاعة الحِنّاء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين. فقلت: هلا استخرجته؟ فقال: لا، أمّا أنا فقد شفاني اللّٰه، وخشيت أن يثير ذٰلك علىٰ الناس شراً(!) ثمّ أمر بالبئر فدفنت[1].

وعليه بنىٰ السيوطي فقال: المختار أنّ المعوّذتين مدنيتان لانهما نزلتا في قصّة سحر لبيد بن الأعصم[2] ولعل اليعقوبي عدّهما من أواخر المدنيات لذٰلك أيضاً[3].

ومرّ في خبر «الدر المنثور» و«طب الأئمة» أن الرسول أرسل علياً فجاءه بالسحر، وفي خبر «الصحيحين» و«دلائل النبوة» أنّه خرج مع ناس من أصحابه فنزل اليه رجل منهم فاستخرج السحر، وأمر بالبئر فطمّت، ومن الطبيعيّ القطعيّ أنْ ينقطع لبيد بعد ذٰلك عن خدمته، ومع ذٰلك لم يُرو الخبر عن غير ابن عباس عن عائشة!

والغريب أنّ ابن عباس كأنّه لم يرَ في الخبر تنافياً مع ما رواه في ترتيب نزول السور وأن المعوذتين من أوائل المكّيات لا من أواخر المدنيات![4].

أمّا الأخبار الثلاثة الأُول عن القميّ عن الصادق عليه السلام وعن الطبرسي عنه، وعن الباقر عليه السلام، فهي خلو ممّا ينافي شأن النبيّ ومكّية السورتين، وأمّا الخبر

---

(١) البخاري ٤ : ١٤٨ و ٧ : ١٧٦ ومسلم ٧ : ١٤.

(٢) الإتقان ١ : ١٤.

(٣) اليعقوبي ٢ : ٤٣.

(٤) التمهيد ١ : ١٠٣ وتلخيصه ١ : ٩٥.

الرابع عن «طب الأئمة» عن الصادق عليه‌السلام فهو عن المفضّل بن عمر ومحمد بن سنان المطعونين بالتضعيف، ولا أراه إلّا متسرّباً من غيرهم عليهم‌السلام.

السورة الثانية والعشرون ـ «التوحيد»:

قال القميّ في تفسيره: كان سبب نزولها: أنّ اليهود جاءت الىٰ رسول اللّٰه فقالت: ما نسب ربّك؟ فأنزل اللّٰه: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾[١].

ورواه الكليني في «الكافي» بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: إنّ اليهود سألوا رسول اللّٰه فقالوا: انسب لنا ربّك. فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثمّ نزلت ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ الىٰ آخرها[٢] ورواه الطبرسي في «مجمع البيان»[٣].

وفي «الإحتجاج» للطبرسي عن العسكري عليه‌السلام أنّ السائل هو عبد اللّٰه بن صوريا اليهودي[٤].

وروىٰ الطبرسي عن الضحاك وقتادة ومقاتل قالوا: جاء أُناس من أحبار اليهود الىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا: يا محمّد صف لنا ربّك لعلّنا نؤمن بك، فإنّ اللّٰه أنزل نعته في التوراة. فنزلت السورة[٥].

إلىٰ هنا تبدو هٰذه الأخبار وكأنّها تستلزم مدنية السورة، ولكن روىٰ الطبرسي عن تفسير القاضي ما يدفع هٰذه الدلالة قال: إنّ عبد اللّٰه بن سلام انطلق الىٰ رسول اللّٰه وهو بمكّة، فقال له رسول اللّٰه: أُنشدك باللّٰه هل تجدني في التوراة رسول اللّٰه، فقال: انعت لنا ربّك. فنزلت هٰذه السورة فقرأها النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله

---

(١) تفسير القمي ٢: ٤٤٨.

(٢) كما في الميزان ٢٠: ٣٩٠.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٨٥٩.

(٤) كما في الميزان ٢٠: ٣٩٠ عن الاحتجاج، ولم اجده فيه في أخبار العسكري عليه‌السلام.

(٥) مجمع البيان ١٠: ٨٥٩.

فكانت سبب إسلامه إلّا أنّه كان يكتم ذلك الى أنْ هاجر النبيّ الى المدينة ثمّ أظهر الإسلام[١] فلعلّه كان هو وعبد الله بن صوريّا اليهودي كما مر عن خبر «الاحتجاج» عن العسكري عليه‌السلام.

ولكن روى القميّ أيضاً عن الضحّاك عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبيّ بمكّة: صف لنا ربّك لنعرفه فنعبده. فأنزل الله على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾[٢] وروى الطبْرسي تفصيله عنه أيضاً قال: إنَّ عامر بن الطُّفيل وأربد بن ربيعة ـ أخا لَبيد الشاعر ـ أتيا النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، فقال له عامر ابن الطُّفيل: الى ما تدعونا يا محمّد؟ فقال: الى الله فقال: صِفه لنا أمن ذهب هو أم من فضّة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت السورة. وأرسل الله الصاعقة على أربد فأحرقته وطُعن عامر في خنصره فمات[٣].

وقد يُجمع بينهما بأنّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله تلى التوحيد عليهم، فاستهزأوا به فنزل العذاب بهم، أمّا نزول السورة فقد كان من قبل لليهود القادمين اليه من المدينة، فلا تنافي.

وفي إتيان اليهود اليه من المدينة دلالة على انتشار خبره وبلوغه اليها، وهذا أيضاً ممّا لا يتلاءم مع دور الكتمان، بل الإعلان.

السورة الثالثة والعشرون ـ «النجم» ومعراج الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله:

قال القميّ: النجم رسول الله و﴿ إِذَا هَوَى ﴾ أي لمّا أُسري به الى السماء. فهو قسم برسول الله وردّ على من أنكر المعراج[٤].

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٩.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤٨.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٩.

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٣٣. وجاء في اللغة: هوى في الجبل أي صعد فيه، فهوى من الأضداد.

ولعلّه أخذ ذلك من خبر رواه الطبْرسي عن الصادق عليه السلام قال: ان محمّداً صلى الله عليه وآله لمّا نزل من السماء السابعة ليلة المعراج[1] مع ما بين النصين من الفرق.

وروىٰ القمي عن الصادق عليه السلام قال: بينا رسول اللّه صلى الله عليه وآله راقد بالأبطح وعلىٰ يمينه علي عليه السلام وعن يساره جعفر وحمزة بين يديه... إذ أدركه إسرافيل بالبراق وأسرى به إلىٰ بيت المقدس وعرض عليه محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء، فصلّىٰ فيها، وردّه من ليلته الىٰ مكّة. فمرّ في رجوعه بعير لقريش وإذا لهم ماء في آنية فشرب منه وأهرق باقي ذلك. وقد كانوا أضلوا بعيراً لهم وكانوا يطلبونه.

فلمّا أصبح صلى الله عليه وآله قال لقريش: إنّ اللّه قد أسرى بي في هٰذه الليلة الىٰ بيت المقدس، فعرض عليّ محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء، وإنّي مررت بعير لكم في موضع كذا وكذا واذا لهم ماء في آنية فشربت منه وأهرقت باقي ذلك، وقد كانوا أضلوا بعيراً لهم.

فقال أبو جهل ـ لعنه اللّه ـ: قد أمكنكم الفرصة من محمّد، سلوه كم الأساطين فيها والقناديل. فقالوا: يا محمّد إنّ ها هنا من قد دخل بيت المقدس، فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلّق صورة بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما سألوه. فلمّا أخبرهم قالوا: حتّىٰ تجيء العير ونسألهم عمّا قلت. فقال لهم: وتصديق ذلك أنّ العير تطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر.

فلمّا أصبحوا أقبلوا ينظرون الىٰ العقبة ويقولون: هٰذه الشمس تطلع الساعة. فبينا هم كذلك إذا طلعت العير مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر. فسألوهم عمّا قال رسول اللّه، فقالوا: لقد كان هٰذا: ضلّ جمل لنا في موضع كذا وكذا،

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٦١.

ووضعنا ماءً بارداً وأصبحنا وقد اهريق الماء. فلم يزدهم ذٰلك إلّا عتواً[١].

رواه القميّ مرسلاً بلا إسناد، ورواه الصدوق في أماليه عن أبيه عن القميّ عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان بن الأحمر البجلي عن الصادق عليه السلام[٢].

هٰذا الخبر كما مرّ ذكَر الإسراء من مكّة الىٰ المسجد الأقصىٰ وهو بيت المقدس فقط ولم يذكر عروجه صلى الله عليه وآله منه الىٰ السماوات العلىٰ.

وقال الطبرسي: فمن جملة الأخبار الواردة في قصّة المعراج ما روي: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أتاني جبرئيل عليه السلام وأنا بمكّة فقال: قم يا محمّد. فقمت معه وخرجت الىٰ الباب فإذا جبرئيل ومعه ميكائيل وإسرافيل، فأتىٰ جبرئيل عليه السلام بالبراق... فقال: اركب، فركبت ومضيت حتّىٰ انتهيت الىٰ بيت المقدس. ثمّ ساق الحديث الىٰ أنْ قال: ثمّ أخذ جبرئيل عليه السلام بيدي الىٰ الصخرة فأقعدني عليها، فإذا معراج الىٰ السماء لم أر مثلها حسناً وجمالاً، فصعدت الىٰ السماء الدنيا ورأيت عجائبها وملكوتها... ثمّ صعد بي جبرئيل الىٰ السماء الثانية... ثمّ صعد بي الىٰ السماء الثالثة... ثمّ صعد بي الىٰ السماء الرابعة... ثمّ صعد بي الىٰ السماء الخامسة... ثمّ صعد بي الىٰ السماء السادسة... ثمّ صعد بي الىٰ السماء السابعة... ثمّ جاوزناها متصاعدين الىٰ أعلىٰ علّيّين. ووصف ذٰلك الىٰ أن قال: ثمّ كلّمني ربّي وكلّمته، ورأيت الجنة والنار، ورأيت العرش، وسدرة المنتهىٰ.

---

(١) تفسير القميّ ٢: ١٣، ١٤ ورواه الطبرسي في إعلام الورىٰ ١: ١٢٤. ومختصره في الكافي ٨: ٢٦٢، الحديث ٣٧٦، والخرائج والجرائح ١: ٢٤، الحديث ٤ و ١٤٠ و ٢٢٨ وعن علي عليه السلام وفيه أن ذلك كان بعد ثلاث سنين من مبعثه.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٦٣. وروىٰ بعده خبراً باسناده الىٰ عبد الرحمن بن غنم في الإسراء والمعراج، قريب من سابقه. وفي: ٤٨٠ روىٰ خبراً آخر عن الباقر عليه السلام.

ثمّ رجعت إلىٰ مكّة، فلمّا أصبحت حدثت بـه النـاس فكـذّبني أبـو جـهل والمـشركون، وقـال مـطعم بـن عـدي: أتـزعم أنّك سرت مسـيرة شهـرين في ساعة؟! أشهد أنّك كـاذب! ثمّ قـالوا: أخـبرنا عـمّا رأيت. فـقال مـررت بـعير بني فلان وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طـلبه وفي رحـلهم قـعب مملوء مـن مـاء فشربت الماء ثمّ غطيته كما كان. قال: ومـررت بـعير بـني فـلان فـنفرت بكـرة فلان فانكسرت يدها قالوا: فأخبرنا عن عيرنا. قال: مررت بها بالتنعيم يتقدّمها جمل أورق (بين الغبرة والسواد) عليه قرارتـان محـيطتان، ويـطلع عـليكم عـند طلوع الشمس.

قالوا: فخرجوا يشتدون نحو الثنيّة وهم يقولون: لقد قضىٰ محمّد بيننا وبينه قضاءً بيّناً وجلسوا ينتظرون متىٰ تطلع الشمس فيكذّبوه. فقال قـائل: واللّـه إنّ الشمس قد طلعت، وقال آخر: واللّٰه هٰذه الإبل قد طلعت يـقدمها بـعير أورق. فبُهتوا ولم يؤمنوا[١].

ورواه محمّد بن إسحاق عن أمّ هانئ بنت أبي طـالب ـرضي اللّـه عـنها ـ قالت: إنّ رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ ليلة أُسري به صلّىٰ العشاء الآخرة في بيتي ثمّ نام عندي تلك الليلة في بيتي ونمنا. فلمّا كان قُبيل الفجر أيقظنا رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ، فلمّا صلّىٰ الصبح وصلّينا معه (كـذا) قال: ياأُمّ هانئ لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهٰذا الدار ثمّ ذهبت الىٰ بيت المقدس فصلّيت فيه ثمّ ها أنا قد صليت معكم الآن صلاة الغداة كما ترين. ثمّ قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه فقلت له: يا نـبيّ اللّـه لاتحـدّث بهـذا النـاس فيكذّبوك ويؤذوك! قال: واللّٰه لأُحدثنّهم به.

---

(١) مجمع البيان ٦: ٦٠٩، ٦١٠.

فقلت لجارية لي حبشية: ويحكِ اتّبعي رسول الله ـصلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ حتّىٰ تسمعي ما يقول الناس وما يقولون له. فقالت: لمّا خرج رسول الله الىٰ الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا: ما آية ذٰلك يا محمّد؟ فإنّا لم نسمع بمثل هٰذا قط! قال: آية ذٰلك: أنّي مررت وأنا متوجه الىٰ الشام بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فانفرهم حسّ الدابّة فشذّ عنهم بعير فدللتهم عليه. ثمّ أقبلتُ حتّىٰ اذا كنت بوادي ضَجْنان (علىٰ بريد من مكّة بوادي تهامة) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثمّ غطّيت عليه كما كان، وآية ذٰلك أنّ عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنيّة «التنعيم» يقدمها جمل أورق (بين الغبرة والسواد) عليه غرارتان: احداهما سوداء والاُخرىٰ بألوان مختلفة.

قالت (اُمّ هانئ عن جاريتها) فابتدر القوم الثنيّة فلم يلقهم شيء قبل الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنّهم وضعوه مملوءاً ماءً ثمّ غطّوه وأنّهم هبّوا (من نومهم) فوجدوه مغطّىٰ كما غطّوه ولم يجدوا فيه ماءً، وسألوا الآخرين وهم بمكّة، فقالوا: صدق والله، لقد اُنفِرنا في الوادي الّذي ذكر، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا اليه حتّىٰ أخذناه[1].

وفي تمام الخبر السابق عن الصادق عليه‌السلام قال: لمّا نزلت السورة واُخبر بذٰلك عتبة بن أبي لهب فجاء الىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله وتفل في وجهه وقال: كفرت بالنجم وبرب النجم، وطلّق ابنته صلى‌الله‌عليه‌وآله. فدعا عليه وقال: اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك.

فخرج عتبة الىٰ الشام فنزل في بعض الطريق، وألقىٰ الله عليه الرعب فقال لأصحابه: أنيموني بينكم ليلاً. ففعلوا، فجاء أسد فافترسه من بين الناس.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٤٣، ٤٤.

وفي ذٰلك قال (بعد ذٰلك) حسّان :

سائلْ بني الأصفر إنْ جئتهم ... ما كان أنباء بني واسع
لا وسّع اللّٰه له قبره ... بل ضيّق اللّٰه علىٰ القاطع
رمىٰ رسول اللّٰه من بينهم ... دون قريش، رمية القاذع
واستوجب «الدعوة» منه بما ... بُيّن للناظر والسامع
فسلّطَ اللّٰه به «كلبَه» ... يمشي الهوُينا مِشية الخادع
والتقم الرأس بيافوخه ... والنحر منه قفزة الجائع
من يرجع العام الىٰ أهله؟ ... فما «أكيل السبع» بالراجع
قد كان هٰذا لكم عبرة ... للسيد المتبوع والتابع[1].

وعن قولهم له : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في طريق الشام وغير ذٰلك، ممّا جادلوه به عبّر اللّٰه تعالىٰ بقوله سبحانه : ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى** ﴾[2] وفي السورة قوله سبحانه : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى** ﴾[3] وقد مرّ في الخبر السابق عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه سمّىٰ من المكذّبين لحديثه عن إسرائه ومعراجه : أبا جهل ومطعم بن عدي. ثمّ مرّ خبر عتبة بن أبي لهب وأنّه كان أشدهم تكذيباً له. فهل الآية تشير الىٰ أحد هؤلاء المكذّبين؟

سمّىٰ المفسّرون أحد ثلاثة أشخاص من صناديد مشركي قريش مصداقاً لهٰذه الآية، وخبراً رابعاً تسمي مسلماً مصداقاً معيّناً لها. ليس إلّا واحداً من الثلاثة المشركين مذكوراً في المكذّبين لحديث الرسول عن إسرائه ومعراجه هو أبو جهل،

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٦١.

(٢) النجم : ١١، ١٢. والآيات : ١٩ ـ ٢١ يتعلق بها قصة الغرانيق، وراجع ١ : ٣٣.

(٣) النجم : ٣٣ ـ ٣٥.

فيما نقله الطبرسي عن محمّد بن كعب القرظي : أنّ الآية في أبي جهل، وذٰلك أنّه قال : واللّٰه ما يأمرنا محمّد إلّا بمكارم الأخلاق! فذٰلك قوله سبحانه : ﴿ وأعطىٰ قليلاً وأكدىٰ ﴾ أي أعطىٰ قليلاً من نفسه تصديقاً ثمّ لم يؤمن. وعن السدّي قال : نزلت في العاص بن وائل السهمي وذٰلك أنّه كان يوافق رسول اللّٰه في بعض الأُمور. وعن مجاهد وابن زيد قالا : نزلت في الوليد بن المغيرة.

وعن الكلبي عن السدي عن ابن عباس : أنّ عثمان بن عفان كان ينفق ويتصدق من ماله، فقال له أخوه من الرضاعة : عبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح : ما هٰذا الّذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقىٰ لك شيء! فقال عثمان : إنّ لي ذنوباً وانّي أطلب بما أصنع رضا اللّٰه وأرجو عفوه. فقال له عبد اللّٰه : أعطني ناقتك وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلّها! فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن الصدقة، فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ ثمّ قطع نفقته، الىٰ قوله : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾[1].

وهٰذا الخبر دلّ ـ فيما دلّ ـ علىٰ إسلام عثمان، كما دلّ الخبر السابق عن تفسير القمّي في إسراء النبي صلى الله عليه وآله علىٰ إسلام حمزة أيضاً، كما دلّ خبر ابن إسحاق عن أُمّ هانئ بنت أبي طالب علىٰ إسلامها، فلنمرّ علىٰ أخبار إسلام حمزة وعثمان.

إسلام حمزة عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله :

أمّا إسلام حمزة : فكذٰلك فعل الطبْرسي في «اعلام الورىٰ» إذ جعله الخبر السابق لخبر إسرائه صلى الله عليه وآله الىٰ بيت المقدس، نقلاً عن علي بن إبراهيم ابن هاشم باسناده قال : كان أبو جهل قد تعرض لرسول اللّٰه وآذاه بالكلام، واجتمعت بنو هاشم وكان حمزة في الصيد فأقبل ونظر الىٰ اجتماع الناس فقال : ما هٰذا؟ فقالت

---

(١) مجمع البيان ٩ : ٢٧١ وقبله الزمخشري في الكشاف ٤ : ٣٣. وبعده الواحدي في أسباب النزول : ٣٣٥، ٣٣٦.

له امرأة: يا أبا يعلىٰ إنّ عمرو بن هشام (أبا جهل) قد تعرض لمحمّد وآذاه. فغضب حمزة ومرّ نحو أبي جهل وأخذ قوسه فضرب بها رأسه ثمّ احتمله فجلد به الأرض. واجتمع الناس فقالوا: يا أبا يعلىٰ صبوت الىٰ دين ابن أخيك؟ قال: نعم، أشهد أن لا اله إلّا اللّٰه وأنّ محمّداً رسول اللّٰه. علىٰ جهة الغضب والحمية. ورجع الىٰ منزله.

وغدا علىٰ رسول اللّٰه فقال: يابن أخ أحقّ ما تقول؟ فقرأ عليه رسول اللّٰه ﷺ سورة من القرآن فاستبصر، وثبت علىٰ دين الإسلام، وفرح رسول اللّٰه ﷺ، وسُر أبو طالب بإسلامه وقال في ذٰلك:

فصبْراً أبا يعلىٰ علىٰ دين أحمد ... وكن مُظهراً للدين -وفُقّت- صابراً
وحُطْ من أتىٰ بالدين من عند ربّه ... بصدق وحقّ، لا تكن -حمزُ- كافراً
فقد سرّني اذ قلت: إنّك مؤمن ... فكن لرسول اللّٰه -في اللّٰه- ناصراً
وناد قريشاً بالّذي قد اتيته ... جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحراً[1].

وروىٰ الخبر ابن إسحاق عن رجل من أسْلَمْ قال: إنّ أبا جهل مرّ برسول اللّٰه عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّٰه ﷺ. ثمّ انصرف عنه فعمد الىٰ نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم.

وكانت مولاة لعبد اللّٰه بن جُدعان في مسكن لها تسمع ذٰلك. فلم يلبث أبو جهل حتّىٰ أقبل حمزة بن عبد المطّلب متوشحاً قوسه راجعاً من الصيد، وكان إذا رجع من ذٰلك لم يصل إلىٰ أهله حتّىٰ يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذٰلك لم يمر علىٰ ناد من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعزّ فتىٰ في قريش وأشد شكيمة. وكان رسول اللّٰه قد رجع الىٰ بيته. فلمّا مرّ حمزة بمولاة ابن جُدْعان قالت له: يا أبا عُمارة لو رأيت مالقي ابن أخيك محمّد آنفاً من أبي الحكم بن هشام:

---

(١) إعلام الورىٰ ١: ١٢٢، ١٢٣.

وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره ثمّ انصرف عنه، ولم يكلّمه محمّد ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ.

فاحتمل حمزة الغضب... فخرج يسعىٰ ولم يقف علىٰ أحد، مُعداً لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به. فلمّا دخل المسجد نظر اليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتّىٰ إذا قام علىٰ رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّةً منكَرةً ثمّ قال: أتشتمه وأنا علىٰ دينه أقول ما يقول، فرُدّ ذٰلك عليّ إن استطعت! فقامت رجال من بني مخزوم الىٰ حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة فإنّي واللّٰه قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً.

فلمّا أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قد عزّ وامتنع، وأنّ حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[١].

وزاد المقدسي يقول: «عزّ به النبيّ ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وأهل الإسلام، فشقّ ذٰلك علىٰ المشركين فعدلوا عن المنابذة الىٰ المعاتبة، وأقبلوا يرغّبونه في المال والأنعام، ويعرضون عليه الازواج»[٢].

أمّا إسلام عثمان: فقد قال ابن اسحاق: بلغني أنّه أسلم بعد أبي بكر[٣]. وروىٰ ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» عن المدائني عن عمر بن عثمان عن أبيه: أنّه دخل علىٰ خالته أروىٰ بنت عبد المطّلب، فدخل رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فجعل ينظر اليه وقد ظهر شأنه، فجرىٰ له معه حديث وقرأ عليه بعض الآيات ثمّ قام فخرج. قال عثمان: فخرجت خلفه فأدركته وأسلمت[٤].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣١١، ٣١٢.

(٢) البدء والتأريخ ٤ : ١٤٨، ١٤٩ و٥ : ٩٨.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٢٦٧.

(٤) الاستيعاب ٤ : ٢٢٥.

وخبر ابن إسحاق يتضمّن الدلالة علىٰ سبق إسلام أبي بكر، كما عدّه هو فيمن أسلم بعد علي عليه‌السلام وخديجة وزيد بن حارثة، وأنّه أسلم بعد عثمان: الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف الزُهْري، وسعد بن أبي وقّاص الزهْري، وطلحة بن عبيدالله التيمي وأنّهم استجابوا لأبي بكر فجاء بهم الىٰ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فأسلموا وصلّوا.

وحيث جاء في عبارة ابن إسحاق أنّهم استجابوا لأبي بكر فجاء بهم الىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بينما لم يصرّح ابن إسحاق بأنّهم أسلموا بدعوة أبي بكر، لذٰلك اضاف ابن هشام هٰذه الكلمة: «بدعائه» ثمّ نبّه عليه فقال: قوله «بدعائه» عن غير ابن إسحاق[1] وهٰذا من أمانته، ولكنّه اجتهاد من ابن هشام، ولا دليل عليه، بل ظاهر قول ابن إسحاق أنّهم إنّما استجابوا لأبي بكر ليأتوا الىٰ الرسول، وأنّهم إنّما أسلموا علىٰ يد الرسول نفسه، فالعبارة لا تدلّ علىٰ أنّهم أسلموا بدعوة أبي بكر إيّاهم، بل هي في خلاف ذٰلك أظهر كما هو واضح.

وكما روىٰ ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» ما دلّ علىٰ عدم إسلام عثمان بدعوة أبي بكر بل بدعوة الرسول نفسه، كذٰلك روىٰ المقدسي في «البدء والتأريخ» رواية مفادها أنّ طلحة ذهب بنفسه الىٰ الرسول فأسلم، وقالوا: إنّه كان في بُصرىٰ الشام، فسمع من راهب فيه خروج نبيّ في ذٰلك الشهر اسمه «أحمد» فلمّا قدم مكّة سمع الناس يقولون: تنبّأ محمّد بن عبد الله، فأتىٰ الىٰ أبي بكر فسأله فأخبره ثمّ أدخله علىٰ رسول الله فأسلم[2].

روىٰ تفصيله الطبْرسي عن «دلائل النبوة» بسنده عن إبراهيم بن محمّد بن

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢٦٦ ـ ٢٦٩.

(٢) البدء والتأريخ ٥: ٨٢ والبداية والنهاية ٣: ٢٩ ومستدرك الحاكم ٣: ٣٦٩.

طلحة، عن أبيه عن جدّه طلحة بن عبيد اللّٰه التيمي قال: حضرت سوق بصرىٰ فإذا راهب في صومعته قال: سلوا أهل هٰذا الموسم: أفيهم أحد من أهل الحرم؟ فقلت: نعم، أنا. فقال: قد ظهر أحمد أم بعد؟ قال: قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبداللّٰه بن عبد المطّلب، هٰذا شهره الّذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم ومُهاجَره الىٰ حَرّةٍ وسَباخٍ ونخلٍ. قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتّىٰ قدمت مكّة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمّد بن عبد اللّٰه الأمين قد تنبّأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة. قال: فخرجت حتّىٰ دخلت علىٰ أبي بكر فقلت: اتبعت هٰذا الرجل؟ قال: نعم فانطلق اليه وادخل عليه فإنّه يدعو الىٰ الحقّ. قال طلحة: فأخبرته بما قال الراهب. فخرج بي أبو بكر فدخل بي علىٰ رسول اللّٰه فأسلمت وأخبرته بما قال الراهب، فسرّ رسول اللّٰه بذٰلك.

قال الراوي: فلمّا أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدّهما في حبل واحد فلم يمنعهما بنو تيم[١] فهٰذا يؤيّد قول ابن إسحاق دون ابن هشام. وقال المقدسيّ في «البدء والتأريخ» في إسلام سعد ابن أبي وقاص: كان سبب إسلامه أنّه قال: رأيت في المنام كأنّي في ظلام فأضاء قمر فاتبعته، فإذا أنا بعلي وزيد -وروي: فإذا أنا بزيد وأبي بكر- قد سبقاني اليه. ثمّ بلغني أنّ رسول اللّٰه يدعو الىٰ الإسلام مستخفياً، فلقيته بأجياد فأسلمت[٢].

وأمّا الزبير بن العوّام: فقد نقل ابن أبي الحديد في «شرح النهج» عن «نقض العثمانية» لأبي جعفر الإسكافي أنّه قال: إنّ الزبير كان قد أسلم قبل أبي بكر[٣].

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٠٩ عن دلائل البيهقي ١ : ٤١٩.

(٢) البدء والتاريخ ٥ : ٨٥.

(٣) شرح النهج ١٣ : ٢٢٤.

وعلىٰ هٰذا فلم يبق ممّن أسماهم ابن إسحاق أو ابن هشام سوىٰ عبد الرّحمٰن بن عوف فقط. وقد نقل ابن إسحاق قسماً من أخبار الإسراء والمعراج عن عبد اللّٰه بن مسعود وأبي سعيد الخُدْري، ممّا يدلّ علىٰ سبق إسلامهما أيضاً[١].

فرض الصلوات:

قال ابن إسحاق: وفيما بلغني من حديث عبد اللّٰه بن مسعود عن النبي ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ: أنّ جبرئيل انتهىٰ به الىٰ السماء السابعة ثمّ انتهىٰ به الىٰ ربّه ففرض عليه خمسين صلاة كلّ يوم!

قال رسول اللّٰه: فأقبلت راجعاً، فلمّا مررت بموسىٰ بن عمران سألني: كم فُرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كلّ يوم. فقال: إنّ الصلاة ثقيلة وإنّ أُمّتك ضعيفة، فارجع الىٰ ربّك فاسأله أنْ يخفّف عنك وعن أُمّتك. فرجعت فسألت ربّي أن يخفّف عنّي وعن أُمّتي، فوضع عنّي عشراً، ثمّ انصرفت، فمررت علىٰ موسىٰ فقال لي مثل ذٰلك، فرجعت فسألت ربّي فوضع عنّي عشراً، ثمّ انصرفت فمررت به علىٰ موسىٰ فقال لي مثل ذٰلك، فرجعت فسألته فوضع عنّي عشراً، ثمّ لم يزل يقول لي مثل ذٰلك كلّما رجعت اليه قال: فارجع فاسأل، حتّىٰ انتهيت الىٰ أن وُضع ذٰلك عنّي إلّا خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، ثمّ رجعت الىٰ موسىٰ فقال لي مثل ذٰلك فقلت: قد راجعت ربّي وسألته حتّىٰ استحييت منه، فما أنا بفاعل.

ثمّ قال: فمن أدّاهن منكم إيماناً واحتساباً لهن كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة[٢] وفي هٰذا المعنىٰ الأخير روىٰ الصدوق في «الخصال» بسنده عن الزهْري عن أنس قال: فرضت علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله ليلة أُسري به الصلاة خمسين،

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣٧.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٥.

ثمّ نقصت فجعلت خمساً، ثمّ نودي: يا محمّد ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ إنّ لك بهٰذه الخمس خمسين.

وفيه بسنده عن الصادق عليه السلام قال: لمّا خفّف اللّٰه عن النبيّ صلى الله عليه وآله حتّىٰ صارت خمس صلوات، أوحىٰ اللّٰه اليه: يا محمّد خمس بخمسين.

وباسناده عن زيد بن علي عن سيّد العابدين قال: لمّا هبط رسول اللّٰه الىٰ الأرض نزل عليه جبرئيل فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يُقرئك السلام ويقول: إنّها خمس بخمسين، ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1].

وحكىٰ علي بن إبراهيم بن هاشم القمي في تفسيره عن أبيه عن محمّد ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أنّه حدّث بحديث معراج الرسول عن لسانه الىٰ أن قال: ثمّ غشيتني صبابة (أو سحابة) فخررت ساجداً فناداني ربّي: إنّي قد فرضت علىٰ كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلىٰ اُمّتك، فقم بها أنت في اُمّتك.

قال رسول اللّٰه: فانحدرت حتّىٰ مررت علىٰ إبراهيم فلم يسألني عن شيء، حتّىٰ انتهيت الىٰ موسىٰ فقال: ما صنعت يا محمّد؟ فقلت: قال ربّي: فرضت علىٰ كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلىٰ اُمتك. فقال موسىٰ: يا محمّد انّ اُمّتك آخر الاُمم وأضعفها. وإنّ ربّك لا يردّ عليك شيئاً، وانّ اُمّتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجع الىٰ ربّك فاسأله التخفيف لاُمّتك. فرجعت الىٰ ربّي حتّىٰ انتهيت الىٰ سدرة المنتهىٰ فخررت ساجداً ثمّ قلت: فرضت علي وعلىٰ اُمّتي خمسين صلاة ولا اُطيق ذٰلك ولا اُمّتي فخفّف عنّي. فوضع عنّي عشراً. فرجعت الىٰ موسىٰ فأخبرته فقال: لا تطيق، فرجعت الىٰ ربّي، فوضع عنّي عشراً. فرجعت الىٰ موسىٰ

---

(١) العلل: ٥٥، والأمالي: ٢٧٥ والتوحيد: ١٧٦ والفقيه ١: ١٩٧ ط الغفّاري.

فأخبرته فقال: ارجع. وفي كلّ رجعة ارجع اليه أخرّ ساجداً، حتّىٰ رجع الىٰ عشر صلوات، فرجعت الىٰ موسىٰ فأخبرته فقال: لاتطيق، فرجعت الىٰ ربّي فوضع عنّي خمساً، فرجعت الىٰ موسىٰ فأخبرته، فقال: لاتطيق، فقلت: قد استحييت من ربّي ولكن أصبر عليها.

فناداني (ربّي): كما صبرت عليها فهٰذه الخمس بخمسين، كلّ صلاة بعشر، ومن همَّ من اُمّتك بحسنة يعملها كتَبْتُ له عشرة، وإنْ لم يعملها كتَبْتُ واحدة. ومن همَّ من اُمّتك بسيئة فعملها كتَبْتُ عليه واحدة، وإنْ لم يعملها لم أكتب عليه شيئاً[١].

ونقله الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» مرسلا[٢].

وبإسناده عن زيد بن علي قال: سألت أبي سيد العابدين عليه‌السلام فقلت له: يا أبه أخبرني عن جدّنا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا عُرج به الىٰ السماء وأمره ربّه عزّوجلّ بخمسين صلاة، كيف لم يسأله التخفيف عن اُمّته حتّىٰ قال له موسىٰ بن عمران: ارجع الىٰ ربّك فاسأله التخفيف فإنّ اُمّتك لا تطيق ذٰلك؟

فقال: يا بُنيّ إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لا يقترح علىٰ ربّه عزّوجلّ ولا يراجعه في شيء يأمره به، فلمّا سأله موسىٰ ذٰلك وصار شفيعاً لاُمّته اليه لم يجز له ردّ شفاعة أخيه موسىٰ، فرجع الىٰ ربّه فسأله التخفيف، إلىٰ أن ردّها الىٰ خمس صلوات.

فقلت له: يا أبت فَلِم لَمْ يرجع الىٰ ربّه عزّوجلّ ولم يسأله التخفيف من خمس صلوات وقد سأله موسىٰ عليه‌السلام أنْ يرجع الىٰ ربّه عزّوجلّ ويسأله التخفيف؟

فقال: يا بُنيَّ أراد صلى‌الله‌عليه‌وآله أن يحصل لاُمّته التخفيف مع أجر خمسين صلاة، لقول الله عزّوجلّ: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[٣].

---

(١) تفسير القميّ ٢ : ١٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ١٩٧.

(٣) الأمالي : ٣٧١، والتوحيد : ١٧٦ والعلل : ١٦١ ومن لا يحضره الفقيه ١ : ١٩٧.

وقد تعرّض السيد المرتضىٰ في «تنزيه الأنبياء» للمسألة فقال: إنْ قيل: فما الوجه في الرواية المشهورة: أنّ النبيّ ليلة المعراج لمّا خوطب بفرض الصلاة راجع ربّه تعالىٰ مرّة بعد أُخرىٰ حتّىٰ رجعت إلىٰ خمس، وفي الرواية: أنّ موسىٰ عليه السلام هو القائل له: إنّ أُمّتك لا تطيق هٰذا، وكيف ذهب ذٰلك علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله حتّىٰ نبّهه موسىٰ عليه؟ وكيف يجوز المراجعة منه مع علمه بأنّ العبادة تابعة للمصلحة وكيف يجاب عن ذٰلك مع أنّ المصلحة بخلافه؟! ثمّ قال: أمّا هٰذه الرواية فهي من طريق الآحاد الّتي لا توجب علماً وهي مع ذٰلك مضعّفة[1] ثمّ أجاب سائر الأسئلة بناءً علىٰ أنْ تكون الرواية صحيحة.

وقال اليعقوبي: وفي الليلة الّتي أُسري به افتقده أبو طالب فخاف أن تكون قريش قد اغتالته أو قتلته، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطّلب معهم الشِفار، وأمرهم أن يجلس كلّ رجل منهم الىٰ جانب رجل من قريش، وقال لهم: إنْ رأيتموني ومحمّداً معي فأمسكوا حتّىٰ آتيكم، وإلّا فليقتل كلّ رجل منكم جليسه ولا تنظروني. فوجدوه علىٰ باب أُمّ هانيء، فأتىٰ به بين يديه حتّىٰ وقف علىٰ قريش فعرّفهم ما كان منه، فأعظموا ذٰلك وجلّ في صدورهم، وعاهدوه وعاقدوه أنّهم لا يؤذون رسول اللّٰه ولا يكون منهم اليه شيء يكرهه أبداً[2].

وقال ابن شهر آشوب: روي أنّه افتقده أبو طالب في تلك الليلة فلم يزل يطلبه، ووجّه الىٰ بني هاشم يقول: يالها من عظيمة إنْ لم أرَ رسول اللّٰه الىٰ الفجر! فبينا هو كذٰلك إذ تلقّاه رسول اللّٰه وقد نزل من السماء علىٰ باب أُمّ هانيء، فقال له: انطلق معي.

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١٢١.

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٦. ورواه الراوندي في الخرائج والجرائح ١: ٨٥، الحديث ١٤٠.

فأدخله بين يديه المسجد ودخل بنو هاشم، فسلّ أبو طالب سيفه عند الحجر وقال لبني هاشم: أخرجوا ما معكم يا بني هاشم! ثمّ التفت الىٰ قريش فقال: واللّٰه لو لم أره ما بقيتْ منكم عين تطرِف! فقالت قريش: لقد ركبت منّا عظيماً(١).

السورة الرابعة والعشرون ـ «عبس»:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾(٢).

روىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان»: عن الصادق عليه‌السلام: «أنّها نزلت في رجل من بني أُميّة كان عند النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، فجاء ابن أمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكىٰ اللّٰه سبحانه ذلك وأنكره عليه».

ولكنّه روىٰ بعد هٰذا خبراً آخر عنه عليه‌السلام قال: «كان رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله اذا رأىٰ عبد اللّٰه بن أُمّ مكتوم قال: «مرحباً، مرحباً، لا واللّٰه لا يعاتبني اللّٰه فيك أبداً» وكان يصنع به من اللطف حتّىٰ كان يكفُّ عن النبيّ ممّا يَفعل بـه».

وهٰذا يناسب مع المعروف والمشهور في شأن نزول السورة: أن ابن أُمّ مكتوم ـ وهو عبد اللّٰه بن شريح العامري ـ أتىٰ رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله وهو يناجي أُبـيّاً وأُميّة ابني خلف، وأبا جهل بن هشام، والعبّاس بن عبد المطّلب، وعتبة ابن أبي ربيعة، يدعوهم الىٰ اللّٰه ويرجو إسلامهم. فقال: يا رسول اللّٰه أقرئني وعلّمني ممّا علّمك اللّٰه. فجعل يناديه ويكرر النداء ولايدري أنّه مشتغل مقبل علىٰ غيره، حتّىٰ ظهرت الكراهة في وجه رسول اللّٰه لقطعه كلامه، فأعرض عنه وأقبل علىٰ القوم الّذين يكلّمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول اللّٰه بعد ذلك يكرمه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٨.

(٢) عبس : ١ ـ ١٢.

ويقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي.

ثمّ قال الطبْرسي: فان قيل: فلو صحّ هٰذا الخبر فهل يكون العبوس ذنبا أم لا؟ فالجواب: أن العبوس والانبساط مع الأعمىٰ سواء، إذ لا يشقّ عليه ذٰلك، فلا يكون ذنباً، فيجوز أنْ يكون عاتب اللّٰه سبحانه بذٰلك نبيّه ﷺ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق، وينبّهه بذٰلك علىٰ عظم المؤمن المسترشد، ويعرّفه أن تأليف المؤمن ليقيم علىٰ ايمانه أولىٰ من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه[1].

هٰذا والمعنىٰ الأوّل الّذي رواه عن الصادق عليه السلام جاء في أصل الكتاب: «التبيان» للشيخ الطوسي هٰكذا: وقال قوم: إنّ هٰذه الآيات نزلت في رجل من بني أُميّة كان واقفاً مع النبيّ، فلمّا أقبل ابن أُمّ مكتوم تنفّر منه وجمع نفسه وعبّس وجهه، فحكىٰ اللّٰه تعالىٰ ذٰلك وأنكره معاتبة علىٰ ذٰلك[2] وقريب منه في تفسير القمي[3].

وفي هٰذه السورة آية رُبط خبرها بسورة النجم قبلها، وذٰلك قوله سبحانه: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... ﴾[4] قال الطبْرسي: عن مقاتل والكلبي: هو عتبة بن أبي لهب اذ قال: كفرت بربّ النجم اذا هوىٰ[5].

ورواه السيوطي في «الدر المنثور» عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرت بربّ النجم اذا هوىٰ. فدعا عليه النبيّ ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام[6].

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٦٦٣، ٦٦٤.

(٢) التبيان ١٠: ٢٦٩.

(٣) تفسير القمي ٢: ٤٠٤.

(٤) عبس: ١٧، ١٨.

(٥) مجمع البيان ١٠: ٦٦٥.

(٦) الدر المنثور ٦: ٢١٥.

السورة الخامسة والعشرون ـ «القدر»:

فهي أوّل سورة وآيات ذكر فيها «ليلة القدر» وأنّها سلام حتّىٰ مطلع الفجر بل خير من ألف شهر، وأن الملائكة والروح تنزّلُ فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر، وقد نَزَلت فيها بالقرآن علىٰ رسول اللّه ﷺ، والنازل منه اذ ذاك هٰذه الخمس والعشرون سورة.

السورة التاسعة والعشرون ـ «قريش»:

وليس قبلها الفيل ولا في رواية، فلا مجال للقول بتعلق اللام في بداية هٰذه السورة: «لإيلاف قريش» بكيفية هلاك أصحاب الفيل، فضلاً عن القول بوحدة السورتين، بل المترجح المتعيّن ما نقله الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الخليل وسيبويه: أنّ «لإيلاف» يتعلق بـ«فليعبدوا» أي: ليجعلوا عبادتهم شكراً لنعمة إيلافهم واعترافاً بها[١].

السورة الثانية والثلاثون ـ «الهُمزَة»:

روىٰ الطبْرسي عن مقاتل قال: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبيّ من ورائه ويطعن عليه في وجهه. وهٰذا يوافق قول قتادة وسعيد بن جبير في معنىٰ الهُمزة وبأنّه المغتاب، واللُّمَزة بأنّه الطعان. وقال ابن عباس والحسن وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح بالعكس أي أنّ الهُمَزة هو الّذي يطعن في الوجه بالعيب، واللُمَزة الّذي يغتاب عند الغَيبة[٢]. وعلىٰ أي حال فالسورة ـ علىٰ هٰذا ـ من أوّل ما نزل في ذم الوليد وتقريعه لما كان يناله من النبيّ ﷺ قبل ما أصابه وسائر أصحابه من المستهزئين. عن ابن اسحاق: أنّها نزلت في أُميّة بن خلف الجمحي،

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٢٩، وانظر رد الطباطبائي لأخبار وحدة السورتين ٢٠ : ٣٦٤.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨١٨.

وكان يهمز النبيّ ﷺ(١) وفي «روح المعاني» أنّها في العاص بن وائل(٢) وهما أيضاً من المستهزئين برسول اللّٰه ﷺ.

السورة الثالثة والثلاثون ـ «المرسلات»:

وفيها روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» عن عبد اللّٰه بن مسعود قال: بينا نحن مع النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ في غار بمنىٰ اذ نزلت عليه سورة ﴿ **والمرسلات عرفاً** ﴾(٣).

السورة الرابعة والثلاثون ـ «ق»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** ﴾(٤) وقال الطبْرسي في «مجمع البيان»: قيل: إنّها نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو اخيه في الاِسلام فمنعهم. فيكون المراد بالخير الّذي يمنع عنه هو الاِسلام(٥).

السورة الخامسة والثلاثون ـ «البلد»:

وفيها: ﴿ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴾(٦) قال الطبْرسي في «مجمع البيان» قال مُقاتل الكلبي: هو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنّه دخل في الاِسلام وأذنب ذنباً فاستفتىٰ رسول اللّٰه فأمره أنْ يكفّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات منذ دخلت

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٨٢.

(٢) روح المعاني ٣٠ : ٢٣٠.

(٣) الدر المنثور ٦ : ٣٠٢.

(٤) ق : ٢٤ ـ ٢٦.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٢٢٠.

(٦) البلد : ٥ ـ ٧.

في دين محمّد... وكان كاذباً لم ينفق ما قاله، فقال اللّٰه سبحانه: أيظن أن اللّٰه تعالىٰ لم ير ذٰلك فَعَل أو لم يفعل أنفق أو لم ينفق.

وقيل: هو أبو الأسد بن كلدة الجمحي، وكان قوياً شديد الخلق بحيث كان يجلس علىٰ أديم عكاظي فتجره العشرة من تحته فيتقطع ولا يبرح من مكانه، وكان قد انفق مالاً كثيراً في عداوة النبيّ صلى الله عليه وآله: فأخبر اللّٰه عن مقالته ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً ﴾ يفتخر بذٰلك(١).

السورة السابعة والثلاثون ـ «القمر»:

روىٰ القمي في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: اجتمعوا أربعة عشر رجلاً أصحاب العقبة ليلة أربعة عشر من ذي الحجة، فقالوا للنبيّ: ما من نبيّ إلّا وله آية، فما آيتك في ليلتك هٰذه؟ فقال النبيّ: ما الّذي تريدون؟ فقالوا: ألم يكن لك عند ربك قدرٌ؟! فأمر القمر أن ينقطع قطعتين!

فهبط جبرئيل وقال: يا محمّد إنّ اللّٰه يقرؤك السلام ويقول لك: إنّي قد أمرت كلّ شيء بطاعتك. فرفع رأسه فأمر القمر أن ينقطع قطعتين! فانقطع قطعتين! فسجد النبيّ صلى الله عليه وآله شكراً لله... ثمّ رفع النبيّ رأسه ورفعوا رؤوسهم ثمّ قالوا: يعود كما كان؟ فعاد كما كان؟ ثمّ قالوا: ينشق رأسه! فأمره فانشق. فسجد النبيّ شكراً لله...

فقالوا: يا محمّد حين يُقدم مسافرونا من الشام واليمن فنسألهم ما رأوا في هٰذه الليلة؟ فإن يكونوا رأوا مثل ما رأينا علمنا أنّه من ربك، وان لم يروا مثل ما رأينا علمنا أنّه سحر سحرتنا به! فأنزل اللّٰه ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ الىٰ آخر السورة(٢).

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٤٨.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٤١.

وعليه فهٰذه هي المرة الثانية لتجربتهم صدق مقال الرسول ﷺ بتصديق المسافرين له، بعد أخباره عن الإسراء به الىٰ بيت المقدس. ولعلّهم قالوا ذٰلك بعد أن قالوا: سحرنا محمّد، فقال رجل ـكما رواه الطبْرسي عن جبير بن مطعم ـ إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلّهم.

قال الطبْرسي: وقد روىٰ حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم: عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وحذيفة بن اليمان وابن عمر وابن عباس وعليه جماعة المفسّرين، بل أجمع المسلمون علىٰ ذٰلك، فلا يعتد بخلاف من خالف فيه.

قال: ومن طعن في ذٰلك: بأنّه لو وقع انشقاق القمر في عهد رسول الله لمّا كان يخفىٰ علىٰ أحد من أهل الأقطار. فقوله باطل.

لأنّه قد وقع ذٰلك ليلاً فيجوز أن يكون الناس كانوا نياما فلم يعلموا بذٰلك، علىٰ أن الناس ليس كلّهم يتأملون ما يحدث في السماء وفي الجوّ من آية وعلامة، فيكون مثل انقضاض الكواكب وغيره ممّا يغفل الناس عنه، ولأنّه يجوز أن يكون الله قد حجبه عنهم بغيم ونحوه[1].

وقد روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» بأسناده عن ابن مسعود قال: انشقّ القمر... فقالت قريش: هٰذا سحر ابن أبي كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به المسافرون فإنّ محمّداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم. فجاء المسافرون فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه. فأنزل الله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[2].

السورة الثامنة والثلاثون ـ «ص»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٢٨٢.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٣٢، سورة القمر.

سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾[1].

رویٰ الكليني في «اُصول الكافي» بسنده عن جابر عن ابي جعفر الباقر عليه‌السلام قال: أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا علىٰ أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذىٰ آلهتنا، فادعه ومُرْه فليكفّ عن آلهتنا ونكفّ عن الٰهه!

فبعث أبو طالب الىٰ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فدعاه، فلمّا دخل النبيّ لم ير في البيت إلّا مشركاً فقال: السلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، ثمّ جلس. فأخبره أبو طالب بما جاؤوا به. فقال: أوَ هل هم في كلمة خير لهم من هٰذا، يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم! فقال ابو جهل: نعم وما هٰذه الكلمة؟ قال: تقولون: لا إلٰه إلّا اللّٰه. فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون: **﴿ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾** فأنزل اللّٰه في قولهم **﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾** الىٰ قوله **﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾**[2] ونقله القمي في تفسيره بمعناه بلا اسناد وأضاف: نزلت بمكّة لمّا أظهر رسول اللّٰه الدعوة اجتمعت قريش الىٰ أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب! إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا. فان كان الّذي يحمله علىٰ ذٰلك العدم جمعنا له مالاً حتّىٰ يكون أغنىٰ رجل في قريش ونملّكه علينا!

فأخبر أبو طالب رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله بذٰلك فقال: واللّٰه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته، ولكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب ويدين لهم بها العجم ويكونوا ملوكاً في الجنة.

---

(١) ص: ٤ ـ ٧.

(٢) اُصول الكافي ٢: ٦٤٩.

فقال لهم أبو طالب ذٰلك فقالوا: نعم وعشر كلمات!

فقال لهم رسول اللّٰه: تشهدون أنْ لا اله اِلّا اللّٰه وأنّي رسول اللّٰه!

فقالوا: نَدَعُ ثلاثمئة وستين الٰهاً ونعبد الٰهاً واحداً؟! فأنزل اللّٰه ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـذَا لَشَـيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾[1].

وروىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» أنّهم كانوا خمسة وعشرين من أشراف قريش منهم أبو جهل بن هشام كما مرَّ في خبر الكليني ومنهم الوليد ابن المغيرة والنضر بن الحارث، وأبي واُميّة ابنا خلف الجمحي وعتبة وشيبة ابنا ربيعة المخزومي. أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن اخيك، فإنّه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا!

فدعا أبو طالب رسول اللّٰه فقال: يا ابن أخي! إنّ هٰؤلاء قومك يسألونك. فقال: ماذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلٰهك! فقال: او تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟! فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذٰلك وعشراً أمثالها. فقال: قولوا لا إلٰه إلّا اللّٰه. فقاموا وقالوا: «أجعل الآلهة الٰهاً واحداً» فنزلت هٰذه الآيات.

---

(١) ص: ٤ ـ ١٠. تفسير القمي ٢: ٢٢٨ وذكر مختصره ابن شهر آشوب في المناقب ١: ٥٤، ومثله الطبري ٢: ٣٢٤ عن السدّي و٣٢٥ عن ابن عباس. وأورد الخبرين في تفسيره: ٢٣: ٧٩ ـ ٨١ ط بولاق.

قال: وروي أنّ النبيّ ﷺ استعبر ثمّ قال: يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، علىٰ أنْ أترك هٰذا الأمر، ما تركته حتّىٰ ينفذه الله أو أمضي دونه! فقال له أبو طالب: امض لأمرك، فوالله لا أخذلك أبداً[1].

وخرجوا من مجلسهم الّذي كانوا فيه عند أبي طالب وهم يقولون ـ وقيل: إنّ القائل هو عُقبة بن أبي معيط الأموي ـ: اثبتوا علىٰ عبادة آلهتكم واصبروا علىٰ دينكم وتحملوا المشاق لأجله، فإنّ هٰذا الّذي نراه من زيادة أصحاب محمّد أمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدّة[2].

ولا أحسب القمي متحقّقاً من قوله اذ قال: نزلت بمكّة لمّا أظهر رسول الله الدعوة؟ بمعنىٰ أنّ نزول هٰذه السورة كانت هي نقطة النقلة من المرحلة السرية الىٰ الدعوة العلنية؟ ولكنّ كلامه هٰذا علىٰ أيّ حال، بل القصّة برمتها كسابقاتها تستلزم عدم سريّة المرحلة.

السورة التاسعة والثلاثون ـ «الأعراف»:

وأوّلها: ﴿ المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] فهل هٰذا يعني الانذار الخاص والسرّي، وذكرىٰ للمؤمنين كذٰلك؟ بل الظاهر غير ذٰلك.

وفيها قوله سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

---

(١) مجمع البيان ٨: ٧٢٥ ـ ٧٢٧.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١: ٢٨٥ وعنه الطبري ٢: ٣٢٦.

(٣) الأعراف: ١ ـ ٢.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١].

قال القمي في تفسيره: انّ اناساً كانوا يطوفون عراةً بالبيت، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانوا لا يأكلون إلّا قوتاً، فأمرهم الله بلبس الثياب، وأن يأكلوا ويشربوا ولا يُسرفوا[٢] ورواه الطبْرسي عن جماعة من المفسّرين[٣].

وروىٰ السيوطي في «الدر المنثور» باسناده عن ابن عباس قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراةً فأمرهم الله بالزينة، ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ والزينة اللباس، وهو ما يواري السوآت، وما سوىٰ ذلك من جيّد البزّ والمتاع.

وفيه بسنده عنه أيضاً قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون أشياء أحلّها الله من الثياب وغيرها، فأنزل الله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ثمّ يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء «خالصة يوم القيامة».

وفيه بسنده عن مولاه عكرمة فصّل القول في هؤلاء من أهل الجاهلية وما كانوا يحرّمون ولماذا فقال: كانت الحُمْسُ من قريش وبطون من كنانة ومن يأخذ مأخذها من قبائل العرب: بني عامر بن صعصعة وخزاعة وثقيف والأوس والخزرج لا يأكلون اللحم (في الحج) ولا يأتون البيوت إلّا من أدبارها، ولا يضربون وبراً ولا شعراً وإنّما يضربون الأدم، واذا قدموا (للحج) طرحوا ثيابهم

---

(١) الاعراف: ٣١ ـ ٣٣.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٢٨.

(٣) مجمع البيان ٤ : ٦٣٧.

الّتي قدموا فيها وقالوا: هٰذه ثيابنا الّتي نريد أن نتطهر الىٰ ربنا عمّا فيها من الذنوب والخطايا فمن يعيرنا مِئزراً، فان لم يجدوا طافوا عُراة، فاذا فرغوا من طوافهم اخذوا ثيابهم الّتي كانوا قد وضعوها.

وفيه بسنده عن سعيد بن جبير قال: كان الناس يطوفون بالبيت عُراة يقولون: لا نطوف في ثياب اذنبنا فيها. فجاءت امرأة فألقت ثيابها وطافت وهي واضعة يدها علىٰ قُبلها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أُحلّه

فنزلت هٰذه الآية: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[١].

وفي السورة قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٢].

وروىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام والزهري ومجاهد عن سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير عن ابن مسعود وابن عباس قالا: كان المسلمون يتكلّمون في صلاتهم ويسلّم بعضهم علىٰ بعض، واذا دخل داخل فقال لهم: كم صليتم أجابوه. فنُهوا عن ذٰلك وأُمروا بالاستماع[٣].

السورة الحادية والأربعون ـ «يسٓ»:

﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فهو من الأنبياء المرسلين، وظاهر الخطاب بل صريحه فعليته العامّة لا شأنيته بالقوّة، ولا الفعلية السريّة أو الخاصة، بل ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ

---

(١) الدر المنثور ٣: ٧٥، سورة الأعراف.

(٢) الأعراف: ٢٠٤.

(٣) مجمع البيان ٤: ٧٩١.

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[١].

وهنا قال القمي في تفسيره: إنّها نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته، وذلك أنّه حلف أبو جهل: لئن رأىٰ النبيّ يصلي ليدمغنّه، فجاء والنبيّ قائم يصلي (حول الكعبة) ومعه حجر، ولكنّه جعل كلمّا رفع الحجر ليرميه أثبت اللّه يده الىٰ عنقه ولايدور الحجر بيده، ولمّا يرجع الىٰ أصحابه يسقط الحجر من يده. فقام رجل آخر من رهطه فقال: أنا أقتله! فلمّا دنا منه سمع قراءة رسول اللّه فأُرعب، فرجع الىٰ أصحابه وقال: حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه، فخِفت أن أتقدّم. فلم يؤمن من أولئك الرهط من بني مخزوم أحد[٢].

وروىٰ السيوطي في «الدر المنثور» زيادة عن ابن عباس قال: كان النبيّ ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتّىٰ تأذّىٰ به ناس من قريش حتّىٰ قاموا ليأخذوه، واذا أيديهم مجموعة الىٰ أعناقهم، واذا هم لا يبصرون. فجاؤوا، الىٰ النبيّ فقالوا: ننشدك اللّه والرحم ـ يا محمّد ـ فدعا النبيّ حتّىٰ ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ... ﴾[٣] ولعلّه كان هذا بعد ردّ الرسول لهم عند عمّه أبي طالب، كردّ فعل من أبي جهل بعد فعل الرسول ذلك.

وفي السورة قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٤]

---

(١) يس: ٦ ـ ٩.

(٢) تفسير القمي ٢: ٢١٢ ونقل مثله الطبْرسي في مجمع البيان ١٠: ٦٤٩.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٦٩، سورة يس.

(٤) يس: ٧٧، ٧٨.

وروىٰ الطبْرسي في «مجمع البيـان» عن الصادق عليه‌السلام : أن القائل هو أُبيّ بن خلف الجُمحي. وقال الحسن : هو أُميّة بن خلف، أخوه. وقال ابن جبير : هو العـاص بن وائل السهمي[١]. وهم ثلاثة من المستهزئين الستة.

ورواية الصادق عليه‌السلام في كلام الطبْرسي هي روايـة العـياشي عـن الحـلبي عنه عليه‌السلام قال : جاء أُبيّ بن خلف فأخذ عظماً بالياً من حـائط فـفتّه ثمّ قـال : ... إذا كنّا عظاماً ورُفاتاً أإنّا لمبعوثون خلقاً؟ فأنزل اللّـه : ﴿ قَـالَ مَـنْ يُـحْيِ الْـعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٢].

السورة الثانية والأربعون ـ «الفرقان»:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * ... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[٣].

في تفسير القمي : في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الامام الباقر عليه‌السلام في قوله : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون : أبا فكيهة وجَبْراً وعَدَاساً وعابساً مولىٰ حُوَيطب. وقوله : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو قول النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة «اكتتبها» قال القمي : قالوا : هٰذا الّذي يقرأه محمّد ويخبرنا به إنّما يـتعلّمه ويكتبه عـن رجل من علماء النصارىٰ يقال له : ابن قبيطة[٤].

ونقل الطبْرسي في «مجمع البـيان» عـن مجـاهد قـالوا : أعـان محـمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله علىٰ هٰذا القرآن : عَدّاس مولىٰ حُويطب بن عـبد العـزّىٰ، ويسـار غـلام العـلاء

---

(١) مجمع البيان ١٠ : ٦٧٨.

(٢) الميزان ١٧ : ١١٨ ونقل معناه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٦.

(٣) الفرقان : ١ ـ ٥.

(٤) تفسير القمي ٢ : ١١١ وابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢١.

ابن الحضرمي، وحَبْر مولىٰ عامر، وكانوا من أهل الكتاب[١] ونقل ابن شهر آشوب مثله في «المناقب»[٢].

وفيها قوله: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾[٣] روىٰ السُيوطي في «الدر المنثور» بأسناده عن ابن عباس: أنّ عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري، والأسود بن المطّلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد اللّٰه بن أُميّة، وأُميّة بن خلف، والعاصي ابن وائل، ونبيه بن الحجاج، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض: ابعثوا الىٰ محمّد فكلّموه وخاصموه حتّىٰ تُعذروا منه.

فبعثوا اليه: إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك. فجاءهم رسول اللّٰه فقالوا له: يا محمّد! إنّا بعثنا اليك لنعذر منك، فإنْ كنت إنّما جئت بهٰذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا، وإنْ كنت تطلب الشرف فنحن نسوّدك، وإنْ كنت تطلب ملكاً ملّكناك.

فقال رسول اللّٰه: ما بي ممّا تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكنّ اللّٰه بعثني اليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أنْ أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم، فإنْ تَقْبَلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تردّوه علي أصبر لأمر اللّٰه حتّىٰ يحكم اللّٰه بيني وبينكم.

---

(١) مجمع البيان ٧: ٢٥٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩ وذكر: حميراً مولىٰ عامر!.

(٣) الفرقان: ٧، ٨.

قالوا: يا محمّد! فإنْ كنت غير قابل منّا شيئاً عرضناه عليك فسل لنفسك ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسلْه أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضّة تغنيك عمّا تبتغي - فإنّك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه - حتّىٰ نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك ان كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول اللّٰه: ما أنا بفاعل، ما أنا بالّذي يسأل ربّه هٰذا وما بُعثت اليكم بهٰذا، ولكنّ اللّٰه بعثني بشيراً ونذيراً.

فأنزل اللّٰه في قولهم ذٰلك: ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ...** ﴾[١].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾[٢].

نقل الطبْرسي في «مجمع البيان» عن ابن عباس قال: نزل قوله: ﴿ **يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ** ﴾ في عُقبة بن أبي مُعيط وأُبيّ بن خلف الجُمحي، وكانا متخالّين (صديقين)، وذٰلك: أن عقبة كان لا يقدم من سفر اِلّا صنع طعاما فدعا اليه أشراف قومه. وكان يكثر مجالسة الرسول. فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاما ودعا الناس فدعا رسول اللّٰه الىٰ طعامه.

فلمّا قرّبوا الطعام قال رسول اللّٰه: ما أنا بآكل من طعامك حتّىٰ تشهد أنْ لا اله اِلّا اللّٰه وأنّي رسول اللّٰه. فقال عُقبة: أشهد أنْ لا اله اِلّا اللّٰه وأشهد أنّ محمّداً رسول اللّٰه.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦٢ وروىٰ القصّة مرّة أُخرىٰ عن ابن عباس أيضاً سبباً لنزول الآيات: ٩٠ - ٩٣ من سورة الاسراء ٤: ٢٠٢ كما سيأتي، ورواها الطبْرسي في مجمع البيان في سورة الاسراء ٦: ٦٧٨.

(٢) الفرقان: ٢٧ - ٢٩.

وبلغ ذٰلك أُبيّ بن خلف، فأتاه وقال له: صبوت يا عُقبة؟! قال: لا ـ والله ـ ماصبوت، ولكن دخل عليّ رجل فأبىٰ أنْ يَطعم من طعامي إلّا أنْ أشهد له، فاستحييت أنْ يخرج من بيتي ولم يَطعم، فشهدت له فطعم. فقال أُبيّ: ماكنت براض عنك أبداً حتّىٰ تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذٰلك عقبة، وارتدّ، وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه! فقال النبيّ ﷺ: لا ألقاك خارج مكّة إلّا علوت رأسك بالسيف.

فوقع يوم بدر أسيراً بيد المسلمين فأمر رسول الله بتنفيذ حلفه فيه من بين سائر أُسارىٰ المشركين، ولم يقتل من الأُسارىٰ يومئذٍ غيره[1].

وعليه، فالظالم في الآية: عُقبة بن أبي مُعيط الأموي، وفلان خليله أُبيّ بن خلف الجُمحي، والذكر الّذي جاءه شهادته بالشهادتين ولو أُخذت منه حياءً، وضلاله بعد الذكر استجابته لطِلبة خليله بالارتداد والبصاق في وجه رسول الله ﷺ.

السورة الرابعة والأربعون ـ «مريم»:

وهي الّتي قرأ شطراً منها جعفر بن أبي طالب الطيار علىٰ النجاشي ملك الحبشة في الهجرة اليها، فيعلم أنّها نزلت قبل ذٰلك وأنّ الهجرة اليها بعد هٰذه السورة. وفيها قوله سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ... ﴾[2] قال الطبْرسي: روي في الصحيح: عن خبّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً غنياً وكان لي علىٰ العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي: لا أقضيك حتّىٰ تكفر بمحمّد!

---

(١) مجمع البيان ٧: ٢٦٠، ٢٦١ وفيه: وأمّا أُبي بن خلف فقد قتله النبيّ يوم أُحد بيده في المبارزة. وروىٰ الخبر السيوطي بسنده عن ابن عباس أيضاً في الدر المنثور ٥: ٦٨.

(٢) مريم: ٧٧.

فقلت: لن أكفر به حتّىٰ تموت وتبعث. قال: فإنّي لمبعوث بعد الموت فسوف أقضيك دينك اذا رجعت الىٰ مال وولد. فنزلت الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾(١).

السورة السادسة والأربعون ـ «الواقعة»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾(٢) وروىٰ العيّاشي في تفسيره عن عُقبة بن عامر الجهني قال: لمّا نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: اجعلوها في ركوعكم.

ورواه أيضاً في «الدر المنثور» عن أحمد وأبي داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه صلى الله عليه وآله(٣).

وهٰذا ممّا يؤيد ما مرّ عن أنّ الصلاة في أوائل تشريعها كانت بسجود بلا ركوع، ثمّ شُرّع فيه الركوع بعد ذٰلك(٤).

السورة السابعة والأربعون ـ «الشعراء»:

وفيها آية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وقد سبق القول فيها.

وفيها أيضاً قوله سبحانه: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾(٥) ونقل الطبْرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل: أنّهم شعراء المشركين وكلّهم من قريش منهم أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطّلب، وأبو عزّة عمرو بن عبد اللّٰه، وعبد اللّٰه

---

(١) مجمع البيان ٦ : ٨١٦ ويقصد بالصحيح البخاري ومسلم كما في أسباب النزول للواحدي : ٢٤٨ ط الجميلي وفي ابن هشام ١ : ٣٨٣، ومثله في مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٣.

(٢) الواقعة : ٧٤.

(٣) الميزان ٢٠ : ٢٧٠. وفي الدر المنثور ٦ : ١٦٨.

(٤) صفحة : ٣٨٥ و ٤٥٧.

(٥) الشعراء : ٢٢٤.

بن الزِّبَعْرى السهمي، ومُسافع بن عبد مناف الجُمحي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي... اجتمعوا وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمّد، قالوا الشعر وتكلّموا بالكذب والباطل ويهجون النبيّ، واجتمع اليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم هجوهم[١].

السورة التاسعة والأربعون ـ «القصص»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾[٢] ونقل الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي قال: كانت مقالتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم الىٰ رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم، يسألونهم عن محمّد صلى الله عليه وآله. فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة فرجع الرهط الىٰ قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا[٣].

والعلّامة الطباطبائي مع أنّه يذكر في بحوثه الروائية روايات أسباب النزول لم يذكر هذا الخبر عن «مجمع البيان» ولكنّه قال في تفسير الآيات: سياق الآيات يشهد بأن المشركين من قوم النبيّ صلى الله عليه وآله راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه، وهو مصدق للتوراة.

---

(١) مجمع البيان ٧: ٣٢٥.

(٢) القصص: ٤٦ ـ ٤٨.

(٣) مجمع البيان ٧: ٤٠٢.

فأجابوهم بتصديقه والايمان بما يتضمّنه القرآن من المعارف الحقّة، وأنّهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾[١].

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا: إنّ القرآن سحر والتوراة سحر مثله ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾[٢] هٰذا ما تلوّح به الآيات الكريمة بسياقها[٣].

ولم يذكر الخبر مَن هٰؤلاء العلماء اليهود من أهل يثرب الّذين صدّقوا بالقرآن فأغضبوا المشركين، وأثنىٰ عليهم القرآن في هٰذه الآيات؟ ولعلّهم هم الّذين أسلموا منهم فيما بعد: تميم الداري والجارود العبدي وعبد اللّٰه بن سلّام، الّذين نقل الطبْرسي في «مجمع البيان» عن قَتادة: أنّهم لمّا أسلموا نزلت فيهم الآيات: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾[٤] بينما الآيات مكيّة من سورة مكيّة قبل الهجرة الىٰ المدينة. وقد ذكر في الخبر معهم سلمان الفارسي أيضاً، وهو غريب![٥].

اِيمان أبي طالب:

وفيها بعده قوله سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٦].

---

(١) القصص: ٥٣.

(٢) القصص: ٥٥.

(٣) الميزان ١٦: ٤٧، ٤٨.

(٤) القصص: ٥٢.

(٥) مجمع البيان ٧: ٤٠٣.

(٦) القصص: ٥٦.

قال القميّ في تفسيره: نزلت في أبي طالب عليه السلام، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: يا عمّ قل: لا إلٰه إلّا الله، أنفعك بها يوم القيامة، فيقول: يابن أخي أنا أعلم بنفسي. ولكنّه لم يمت حتىٰ شهد العباس بن عبد المطّلب عند رسول الله: أنّه تكلّم بها عند الموت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أرجو أنْ تنفعه يوم القيامة. وقال: لو قمت المقام المحمود لشفعت في أبي وأُمّي وعمّي، وأخ كان لي مواخياً في الجاهلية[1].

وروىٰ القميّ هٰذا الأخير قبل هٰذا عن أبيه عن محمّد بن أبي عمير عن معاوية وهشام عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وقال الطبْرسي: رووا عن ابن عباس وغيره: أنّ قوله: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ نزلت في أبي طالب، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يحبّ إسلامه فنزلت فيه هٰذه الآية... وفي هٰذا نظر كما ترىٰ؛ فإنّ النبيّ لا يجوز أنْ يخالف الله سبحانه في إرادته، كما لا يجوز أنْ يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالىٰ ـ علىٰ ما زعم القوم ـ لم يرد إيمان أبي طالب وأراد كفره وأراد النبيّ إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين ارادتي الرسول والمُرسِل، فكأنّه سبحانه يقول: إنّك ـ يا محمّد ـ تريد إيمانه ولا أُريد إيمانه... مع تكفّله بنصرتك وبذل مجهوده في اعانتك والذبّ عنك ومحبته لك ونعمته عليك... وفي هٰذا ما فيه[3] وقال في سورة الأنعام: وقد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السلام علىٰ إيمان أبي طالب، وإجماعهم حجّة؛ لأنهم أحد الثقلَين اللذَين أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بالتمسك بهما بقوله: «إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا».

---

(١) تفسير القمي ٢ : ١٤٢. ونقل السيّد ابن طاووس في الطرائف ١ : ٤٢٤ عن الواسطي في أسباب النزول عن ابن المفضّل: أنها نزلت في الحارث بن نعمان بن عبد مناف، قال للنبي يوماً: إنا نعلم أن الذي جئت به حق ويمنعنا من اتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا ولا طاقة لنا بهم لقلتنا وكثرتهم! فنزلت الآية. وانظر الكشاف ٢ : ١٦٧ وتفسير ابن كثير ٣ : ٣٩٥.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٥.

(٣) مجمع البيان ٧ : ٤٠٥، ٤٠٦. وانظر التبيان ٨ : ١٦٤.

ويدل علىٰ ذلك ما رواه ابن عمر : أنّ أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح الىٰ رسول الله فأسلم وكان أعمىٰ فقال ﷺ : ألا تركت الشيخ فآتيه؟ فقال أبو بكر : أردت أنْ يأجره الله تعالىٰ، والّذي بعثك بالحق لأنا كنت باسلام أبي طالب أشدّ فرحاً منّي بإسلام أبي التمس بذلك قرة عينك. فقال ﷺ : صدقت.

وروىٰ الطبري بأسناده : أنّ رؤساء قريش لمّا رأوا ذبّ أبي طالب عن النبيّ اجتمعوا عليه وقالوا : جئناك بفتىٰ قريش جمالاً وجُوداً وشهامة : عُمارة بن الوليد، ندفعه اليك وتدفع الينا ابن أخيك الّذي فرّق جماعتنا وسفّه أحلامنا فنقتله!

فقال أبو طالب : ما انصفتموني، تعطوني ابنكم فأغذوه وأُعطيكم ابني فتقتلونه[1]، بل فليأت كلّ امرىء منكم بولده فأقتله. وقال :

مـعنا الرسـول رسـول المـليك ... بـبيض تـلالا كـلمع البرُوق
أذود وأحمـي رسـولَ المـليك ... حمـاية حـام عـليه شـفيق

قال : وأقواله وأشعاره المنبئة عن اسلامه كثيرة مشهورة لا تُحصىٰ، فمن ذلك قوله :

ألم تـعلموا أنّـا وجـدنا محـمّداً ... نبيّاً كموسىٰ خُـطّ في أوّل الكتْب
أليس أبـونا هـاشم شـدّ أزرَه ... وأوصىٰ بنيه بـالطعانِ وبـالحرْب

وقوله من قصيدة :

وقـالوا لأحمـدَ : أنت امـرؤ ... خلوفُ اللسان ضعيف السبب
ألا إنّ أحمـدَ قـد جـاءهم ... بحـقٍّ ولم يأتهـم بـالكذِبْ

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٦ ـ ٣٢٧ عن ابن إسحاق، والخبر في السيرة ١ : ٢٨٥، والنقل لا زال للطبرسي في مجمع البيان.

وقوله في حديث الصحيفة وهو من معجزات النبيّ صلى الله عليه وآله :

وقد كان في أمرِ الصحيفة عِبرة ... متىٰ ما يُخبَّر غائبُ القوم يَعْجَبِ
محا اللّٰهُ منها كفرَهم وعقوقَهم ... وما نقموا من ناطقِ الحق مُعربِ
وأمسىٰ ابن عبد اللّٰه فينا مصدَّقاً ... علىٰ سخَطٍ من قومنا غيرَ مُعْتَبِ

وقوله في قصيدة يحضّ أخاه حمزة علىٰ اتباع النبيّ والصبر في طاعته :

فصبراً ـ أبا يعلىٰ ـ علىٰ دين أحمد ... وكن مُظْهراً للدين ـ وُفّقتَ ـ صابراً
فقد سرّني إذ قلت إنّك مؤمن ... فكن لرسول اللّٰه ـ في اللّٰه ـ ناصراً

وقوله في وصيته وقد حضرته الوفاة :

أُوصي بنصر النبيّ الخيرِ مشهدُه ... علياً ابني وشيخَ القوم عبّاساً
وحمزةَ الأسد الحامي حقيقته ... وجعفراً : أن يذودا دونه الناسا
كونوا ـ فداءً لكم أُمّي وما ولدَت ـ ... في نصر أحمدَ دون الناس أتراساً

في أمثال هٰذه الأبيات ممّا هو موجود في قصائده المشهورة، ووصاياه وخطبه، ما يطول به الكتاب[1] فإنّ استيفاء ذٰلك جميعه لا تتسع له الطوامير، وما روي من ذٰلك في كتب المغازي وغيرها أكثر من أن يُحصىٰ، يكاشف فيها من كاشف النبيّ ويناضل عنه ويصحح نبوته... ولا شكّ في أنّه لم يختر تمام مجاهرة الأعداء استصلاحاً لهم ولحسن تدبيره في دفع كيدهم، لئلّا يُلجئوا الرسولَ الىٰ ما ألجأوه اليه بعد موته[2].

وقال العلّامة الطباطبائي : وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضة علىٰ ايمانه، والمنقول من أشعاره مشحون بالإقرار علىٰ صدق النبيّ وحقيقة دينه، وهو الّذي آوىٰ النبيّ صغيراً وحماه بعد البعثة وقبل الهجرة، وقد كان أثر مجاهدته

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٤٤٦.

(٢) مجمع البيان ٧ : ٤٠٦.

وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة[١].

وقال في تفسير الآية : لمّا بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين ـ وهم قوم النبيّ ـ من نعمة الهداية، وضلالهم باتباع الهوىٰ واستكبارهم عن الحق النازل عليهم، وايمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق، ختم هٰذا الفصل من الكلام بأنّ أمر الهداية الىٰ اللّٰه لا اِليك، يهدي هٰؤلاء من أهل الكتاب وهم من غير قومك الّذين تدعوهم، ولا يهدي هٰؤلاء وهم قومك الّذين تحب اهتداءهم، وهو أعلم بالمهتدين[٢].

وفي السورة قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[٣] قال الطبْرسي : قيل : إنّما قاله الحرث بن نوفل بن عبد مناف فإنّه قال للنبيّ ﷺ : إنّا لنعلم أنّ قولك حقّ، ولكنْ يمنعنا أنْ نتّبع الهدىٰ معك ونـؤمن بك مخافة أن يتخطفَنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب[٤].

وروىٰ السيوطي بأسناده عن ابن عباس : أنّ القائل هو : الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف[٥].

وفيها قوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[٦] ونقل الطبْرسي عن السُدّي

---

(١) الميزان ١٦ : ٥٧.

(٢) الميزان ١٦ : ٥٥.

(٣) القصص : ٥٧.

(٤) مجمع البيان ٧ : ٤٠٦.

(٥) الدر المنثور ٥ : ١٣٤، سورة القصص.

(٦) القصص : ٦١.

ومحمّد بن كعب القَرَظي أنّها نزلت في [رسول الله] وعلي بن أبي طالب والحمزة بن عبد المطّلب [وعمّار بن ياسر] وفي أبي جهل [والوليد بن المغيرة] ثمّ قال: والأولىٰ أنْ يكون عامّاً فيمن يكون بهٰذه الصفة[1].

السورة الخمسون ـ «الإسراء»:

وقد سبق القول عن المعراج في «سورة النجم» وكانت السورة الثالثة والعشرين، وكان الحديث فيها مع المشركين قبل هٰذه.

وفيها قوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً** ﴾[2] روىٰ الطبْرسي عن الزجاج والجُبّائي قالا: نزلت في قوم كانوا اذا صلّىٰ النبيّ ﷺ وتلا القرآن عند الكعبة ليلاً يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس الىٰ الدين. وقال الكلبي: هم أبو سفيان وأبو جهل وامرأة أبي لهب والنضر بن الحرث، حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءته للقرآن، فكانوا يأتونه ويمرّون به ولا يرونه، حال الله بينه وبينهم حتّىٰ لا يؤذوه[3].

وبعدها قوله سبحانه: ﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** ﴾[4] قال الطبْرسي قيل: يعني به أبا جهل وزمعة بن الأسود وعمرو بن هشام وحويطب بن عبد العزّىٰ، اجتمعوا وتشاوروا في أمر النبيّ، فقال أبو جهل: هو مجنون، وقال زمعة: هو شاعر، وقال حويطب: هو كاهن. ثمّ أتوا الوليد بن المغيرة وعرضوا ذٰلك عليه فقال: هو ساحر[5].

---

(١) مجمع البيان ٧: ٤٠٨.

(٢) الإسراء: ٤٥.

(٣) مجمع البيان ٧: ٦٤٥.

(٤) الإسراء: ٤٧.

(٥) مجمع البيان ٧: ٦٤٦.

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾[١] روىٰ الطبْرسي عن الكلبي قال : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة ، فيقولون : يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم ! فيقول لهم : اني لم أُؤمر فيهم بشيء ، فنزلت[٢].

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾[٣] فاستحقوا العقاب بالتكذيب بالآية الّتي هم طلبوها بالتعيين اقتراحاً علىٰ نبيّهم. وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام قال : ذلك أنّ محمّداً سأله قومُه أنْ يأتيهم بآية ، فنزل جبرئيل فقال : إنّ الله يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾ الىٰ قومك ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ وكنّا اذا أرسلنا الىٰ قرية آية فلم يؤمنوا أهلكناهم ، فلذلك أخّرنا عن قومك الآيات[٤].

وروىٰ السيوطي بإسناده عن ابن عباس قال : سأل أهل مكّة النبيّ صلى الله عليه وآله أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعون. فأُوحي اليه : إن شئت أن نتأنّىٰ بهم ، وان شئت أن نؤتيهم الّذي سألوا فإن كفروا أُهلكوا كما أُهلكت مَن قبلهم مِن الأُمم ؟ قال : لا ، بل أستأني بهم. فانزل الله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ﴾[٥].

وذكر هٰذا في معنىٰ الآية الشيخ الطبْرسي[٦] بلا إسناد الىٰ رواية.

وبعدها قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ

---

(١) الإسراء : ٥٣.

(٢) مجمع البيان ٧ : ٦٥٠.

(٣) الإسراء : ٥٩.

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢١.

(٥) الدر المنثور ٤ : ١٩٠ ، سورة الإسراء.

(٦) مجمع البيان ٧ : ٦٥٣.

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾[١].

روىٰ الطبْرسي عن سعيد بن جبير والحسن وقَتادة ومجاهد عن ابن عباس قالوا: إنّ المراد بـ﴿ الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ ما أراه في إسرائه الىٰ المسجد الأقصىٰ برؤية العين لا رؤيا المنام، ولكنّه حيث رأىٰ ذٰلك ليلاً وأخبر بها حين أصبح سمّاها رؤيا.

وروىٰ عن الحسن وابن عباس أنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم. وتقدير الآية: (وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن الّا فتنة للناس).

وأراد بالفتنة الامتحان وشدة التكليف، ليعرض المصدق بذٰلك لجزيل ثوابه والمكذّب لأليم عقابه. وانّما كانت شجرة الزقوم فتنة لما روي: أنّ أبا جهل قال: إنّ محمّداً يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثمّ يزعم أنّه تَنبُت فيها الشجرة! فقال المشركون: إنّ النار تحرق الشجرة فكيف تنبت الشجرة في النار؟! وصدّق بها المؤمنون[٢].

وقال فيه: روي أنّ قريشاً لمّا سمعت الآية: ﴿ أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾[٣] قالوا: ما نعرف هٰذه الشجرة، فقال ابن الزِّبعرى: الزقوم بلغة اليمن أو البربر: الزبد والتمر! فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية زَقّمينا! فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقّموا بهٰذا الّذي يخوفكم به محمّد فيزعم أنّ النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة. فأنزل اللّٰه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾[٤].

---

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) مجمع البيان ٧: ٦٥٤، ٦٥٥.

(٣) الصافات: ٦٢.

(٤) مجمع البيان ٨: ٦٩٤ والآية في الصافات: ٦٣.

وأوّل ما ذكرت شجرة الزقوم في القرآن ذكرت في سورة الواقعة السادسة والأربعين، في قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾[١] فالظاهر أن استهزاء أبي جهل والمشركين كان هنا لأوّل مرة، وفي سورة الإسراء بعد أربع سور من الواقعة أشار الىٰ فتنتهم بهٰذه الشجرة المذمومة في القرآن في سورة الواقعة. ثمّ كرّر ذلك في سورة الصافات، وإلّا فالصافّات قد نزلت بعد الاسراء.

وروىٰ السيوطي باسناده عن جماعة منهم البخاري والترمذي والنسائي وأحمد بن حنبل والطبري والطبراني والبيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا ﴾ أنّها ليست رؤيا منام بل هي رؤيا عين لما رآه ليلة أُسري به الىٰ بيت المقدس. وأنّ ﴿ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ ﴾ هي شجرة الزقوم. ورواه أيضاً عن ابن عساكر وابن سعد وأبي يعلىٰ عن أُمّ هانىء[٢].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[٣] وقال ابن شهر آشوب في «المناقب»: قال قريش مكّة... إنّ هٰذه الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنّما أرض الأنبياء الشام فائت الشام. فنزلت ﴿ وَإِنْ كَادُوا... ﴾[٤] ورواه الطبْرسي عن مجاهد وقتادة[٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٦].

---

(١) الواقعة: ٥١ ـ ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٩١، سورة الإسراء.

(٣) الإسراء: ٧٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩.

(٥) مجمع البيان ٦: ٦٦٧.

(٦) الإسراء: ٨٥.

روىٰ السيوطي بإسناده عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل هٰذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح[١] فان أجابكم فليس بنبيّ، وإن لم يجبكم فهو نبيّ، فإنّا نجد في كتبنا ذٰلك. فوكّلهم اللّه في معرفة الروح الىٰ ما في عقولهم ليكون ذٰلك علماً علىٰ صدقه ودلالةً لنبوّته[٢].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾[٣].

روىٰ الطبْرسي عن ابن عباس: أنّ جماعة من قريش وهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطّلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد اللّه بن أبي أُميّة، وأُميّة بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، والنضر بن الحارث، وابو البختري بن هشام... اجتمعوا عند الكعبة وقال بعضهم لبعض: ابعثوا الىٰ محمّد فكلّموه وخاصموه. فبعثوا اليه: إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك.

وكان صلى الله عليه وآله حريصاً علىٰ رشدهم، فظنّ أنّهم بدا لهم في أمره، ولذٰلك بادر اليهم. فقالوا: يا محمّد! إنّا دعوناك لنُعذِر اليك، فلا نعلم أحداً أدخل علىٰ قومه ما ادخلت علىٰ قومك: شتمت الآلهة وعِبت الدين وسفّهْتَ الأحلامَ وفرّقت

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٩٥، سورة الإسراء.

(٢) مجمع البيان ٦: ٦٧٤.

(٣) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

الجماعة، فإنْ كنت جئت بهٰذا لتطلب مالاً اعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت بك علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء!

فقال ﷺ: ليس شيء من ذٰلك، بل بعثني اللّٰهُ اليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإنْ قبلتم ما جئت به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتّىٰ يحكم اللّٰه بيننا.

قالوا: إذن فليس أحد أضيق بلداً منّا، فاسأل ربّك أن يسيّر هٰذه الجبال ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضىٰ وليكن فيهم قُصيّ ـ فإنّه شيخ صدوق ـ لنسألهم عمّا تقول: أحقٌ هو أم باطل؟

فقال: ما بهٰذا بُعثت. قالوا: فإنْ لم تفعل ذٰلك فاسأل ربّك أنْ يبعث ملَكاً يصدّقك ويجعل لنا جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب.

فقال: ما بهٰذا بعثت، وقد جئتكم بما بعثني اللّٰه به، فإن قبلتم، وإلّا فهو يحكم بيني وبينكم. قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت أنّ ربّك إن شاء فعل ذٰلك ـ قال: ذاك الىٰ اللّٰه إن شاء فعل.

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتّىٰ تأتي باللّٰه والملائكة قبيلاً.

فقام النبيّ ﷺ، وقام معه عبد اللّٰه بن أبي أُميّة المخزومي ابن عمته عاتكة بنت عبد المطّلب فقال: يا محمّد! عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثمّ سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثمّ سألوك أنْ تعجّل ما تخوّفهم به فلم تفعل، فو اللّٰه لا أُؤمن بك أبداً حتّىٰ تتّخذ سلّماً الىٰ السماء ثمّ ترقىٰ فيه وأنا انظر ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك وكتاب يشهد لك.

وقال أبو جهل: إنّه أبىٰ إلّا سبّ الآلهة وشتم الآباء، وأنا أعاهد اللّٰه لأحملنّ حجراً، فاذا سجد ضربت به رأسه!

فانصرف رسول اللّٰه حزيناً لِما رأىٰ من قومه، فأنزل اللّٰه سبحانه الآيات[١] وذكر مختصره ابن شهر آشوب في «المناقب»[٢].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾[٣] روىٰ العياشي عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن الباقر والصادق عليهما‌السلام قالا: كان رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله اذ كان بمكّة يجهر بصلاته فيعلم بمكانه المشركون فكانوا يؤذونه، فأُنزلت هٰذه الآية عند ذٰلك[٤] وكأنّ في قولهما عليهما‌السلام «اذ كان بمكّة» إشعاراً بأن ذٰلك كان في حالة خاصة، وليس مطلقاً.

والىٰ هٰذه الرواية من العياشي يشير الطبْرسي يقول: روي عن أبي جعفر وأبي عبد اللّٰه عليهما‌السلام: أن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله كان اذا صلّىٰ فجهر في صلاته تَسَمَّعَ له المشركون وذٰلك بمكّة في أوّل الأمر، فيؤذونه ويشتمونه، فأمره سبحانه بترك الجهر[٥].

وروىٰ الطوسي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنّ النبيّ كان اذا صلّىٰ جهر في صلاته بمكّة في أوّل الأمر، فيسمعه المشركون فيشتمونه ويؤذونه وأصحابه، فأمر اللّٰه بترك الجهر[٦] ورواه عن ابن عباس ابن اسحاق في سيرته[٧].

---

(١) مجمع البيان ٦ : ٦٧٨، ٦٧٩. ورواه السيوطي في الدر المنثور ٣ : ٢٠٢ وكذٰلك رواه سبباً لنزول الآيتين ٧ و٨ من سورة الفرقان ٥ : ٦٣، وكلاهما عن ابن عبّاس والقصّة واحدة! وأخبار النزول هكذا مضطربة ومشوّشة.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٥٥.

(٣) الإسراء : ١١٠.

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣١٨.

(٥) مجمع البيان ٦ : ٦٨٩.

(٦) التبيان ٦ : ٥٣٤.

(٧) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٣٥.

السورة الحادية والخمسون ـ «يونس»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[1].

روى الطبْرسي عن مقاتل قال: نزلت في خمسة نفر: عبد اللّه بن أُميّة المخزومي، والوليد بن مغيرة المخزومي، ومِكرز بن حفص، والعاص بن عامر ابن هاشم، وعمرو بن عبد اللّه العامري، قالوا للنبيّ ﷺ: ائت بقرآنٍ ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّىٰ ومناة وهُبل وليس فيه عيبُها. ومثله عن الكلبي مختصراً[2] وقبله نقل الطوسي عن الزجّاج قال: كان غرضهم إسقاط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ومن ذكر البعث والنشور، فأمر اللّٰه تعالىٰ نبيّه أنْ يقولَ لهم في جواب ذٰلك: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾[3].

السورة الثانية والخمسون ـ «هود»:

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ فالبشارة: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ والانذار: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأمّا كيفية مواجهتهم له ولكتابه هٰذا ففي قوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ

---

(١) يونس: ١٥ ـ ١٧.

(٢) مجمع البيان ٥: ١٤٦ ورواه الواحدي في أسباب النزول: ٢١٦ ط الجميلي.

(٣) التبيان ٥: ٣٥٠.

يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[١].

روىٰ الكليني في «الكافي» باسناده عن سدير الصيرفي الكوفي عن الامام الباقر عليه‌السلام قال : أخبرني جابر بن عبد الله : أنّ المشركين كانوا اذا مرّوا برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حول البيت، طأطأ أحدهم رأسه وظهره (هٰكذا) وغطّىٰ رأسه بثوبه لا يراه رسول الله، فأنزل الله : **﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾** ورواه العياشي، وعنه الطبْرسي في «مجمع البيان» والبحراني في «البرهان» والفيض الكاشاني في «الصافي»[٢] ورواه السيوطي بإسناده عن أبي رَزين قال : كان أحدهم يحني ظهره ويستغشي بثوبه[٣].

وفيها قوله سبحانه : **﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾**[٤].

وروىٰ الطبْرسي عن ابن عبّاس : أنّ رؤساء مكّة من قريش أتوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا : يا محمّد إنْ كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكّة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة ! فأنزل الله تعالىٰ : **﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ... ﴾**[٥].

وبعدها قوله سبحانه : **﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾**[٦].

---

(١) هود : ١ ـ ٥.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٣٩ ومجمع البيان ٥ : ٢١٥ والبرهان ٢ : ٢٠٦ والصافي ١ : ٧٧٧.

(٣) الدر المنثور ٣ : ٣٢٠، سورة هود.

(٤) هود : ١٢.

(٥) مجمع البيان ٥ : ٢٢١.

(٦) هود : ١٣.

السورة الرابعة والخمسون ـ «الحجر»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] وما مرّ فيها من أبحاث.

والآن وبعد أن استعرضنا ما نزل من القرآن الكريم قبل هٰذه الآية ممّا فيه إشارة الىٰ حوادث البعثة وما بعدها، فهل كان فيه ما ينسجم مع سرّية الدعوة حتّىٰ نزول هٰذه الآية وبداية الإعلان للعموم بها مع نزول هٰذه الآية؟ أم كان جُلّه أو كله ممّا لا ينسجم إلّا مع الإعلان بالدعوة للعموم منذ الأوّل أو الأوائل؟ ممّا يؤيّد الخبر والقول بتقدم المرحلة السرّية علىٰ نزول القرآن، وبدء الدعوة العلنية العامّة مع بدء نزول القرآن أو قريباً منه، وقد مرّ خبره والقول به قبل هٰذا.

وسبق أيضاً في معنىٰ قوله سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ عدم التسليم لما اشتهر في معناه أنّه أُمر بإظهار الدعوة العامّة والإعلان بها، واختيار خبر المفيد أنّ الآية أمر بالإعراض عن تهديد المشركين المستهزئين الستة المقتسمين الأبواب الستّة لمنع الحجاج والمعتمرين عن الاستماع والاستجابة للرسول الأمين، الّذين أمهلوه الىٰ الزوال ليترك أمره أو يقتلوه. فالآية أمر له بالاعراض عن هٰذا التهديد لهؤلاء المشركين والصدع بأمره، لا ابتداءً به بل استمراراً واستدامة فيه. وسبق أنْ لولا هٰذا المعنىٰ لما كان أيّ معنىٰ مناسب للاعراض عن المشركين في الآية، بل كان الأنسب أنْ يؤمر بالتصدّي لهم لا بالاعراض عنهم. وكذٰلك ماكان من المناسب أن يتواجد هناك مستهزئون معروفون بذٰلك، مقتسمون لأبواب مكّة للمنع عنه في حين أنّ دعوته سرّية.

إذن فالصدع بالأمر وإعلان الدعوة لم يكن الحدث الآخِر المشار اليه في هٰذه

---

(١) الحجر: ٩٤، ٩٥.

الآيات الأواخر من «سورة الحجر» بل هو الحدث الأوّل المشار اليه بالآيات الأوائل من سورة القلم أو المدثر أو الضحىٰ.

ويبقىٰ أهم الأحداث المشار اليها فيما نزل من القرآن الىٰ آخر «سورة الحجر»: المعراج في (سورة النجم: ٢٣) ثمّ إنذار العشيرة الأقربين في (سورة الشعراء: ٤٢) ثمّ الإسراء في (سورة الإسراء: ٥٠). إذن فالإنذار كان بين المعراج والإسراء، بعد المعراج بكثير وقبل الإسراء بقليل. فمتىٰ كانت هٰذه الحوادث؟

وقبل الوصول الىٰ جواب هٰذا السؤال أقول: إنّما فرّقت هنا بين المعراج والإسراء وقدّمت ذكر المعراج علىٰ الإسراء تبعاً لسورتي النجم والإسراء في ترتيب النزول، وسورة النجم لم تذكر الإسراء وسورة الإسراء لم تذكر أكثر من الإسراء، بل إنّ الضمائر في آيات سورة النجم غير صريحة في الرجوع الىٰ الرسول ﷺ بل هي مرددة بينه وجبرئيل عليه‌السلام لولا أنّ الأخبار والروايات والأحاديث فسّرتها بالمعراج وبعد الإسراء، بل إنّ الآيات إنّما أشارت الىٰ ماكان قد تحدّث عنه الرسول فجادله فيه المشركون «أفتمارونه علىٰ ما يرىٰ» وفي سورة الإسراء أضافت الإخبار بالمعراج بعد الإسراء، فلم تجعل المعراج بلا إسراء، ولا الإسراء بلا معراج فكان كلاهما إسراء ومعراجاً، ممّا جعل أخبارهما متداخلة غير متمايز أوّلها عن الثاني، بل ولا أحدهما عن الآخر.

ومن المحتمل أن تكون الآية الاولىٰ من سورة الإسراء إنّما تُذكّر بما تضمّنته وأضمرت عنه وأشارت اليه سورة النجم السابقة، لولا أنّ الأخبار أفادت التكرار مرتين[1]، ولكنّهما غير متمايزتين حتّىٰ في تأريخهما.

---

(١) انظر أُصول الكافي ١ : ٤٤٢ ومناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٧ وسعد السعود : ١٠٠ والميزان ١٣ : ٢٧٠.

الفصل الخامس

الإسراء والمعراج

تأريخ المعراج والاسراء:

وفي تأريخ الإسراء: روىٰ القطب الراوندي في «الخرائج والجرائح» عن علي عليه السلام أنّه: لمّا كان بعد ثلاث سنين من مبعثه صلى الله عليه وآله أُسري به الىٰ بيت المقدس وعُرج به منه الىٰ السماء ليلة المعراج، فلمّا أصبح من ليلته حدّث قريشاً بخبر معراجه[1].

ومجموع ما نقله المجلسي في باب المعراج في تأريخه كما يلي: ذكر خبر «الخرائج»[2] ونقل عن «المناقب» عن ابن عبّاس أنّه: كان في شهر ربيع الأوّل بعد النبوّة بسنتين. وفيه عن الواقدي والسدّي أنّه: كان قبل الهجرة بستة أشهر في السابع عشر من شهر رمضان[3].

---

(1) الخرائج والجرائح ١ : ١٤١ ط قم.

(2) بحار الأنوار ١٨ : ٣٧٩.

(3) بحار الأنوار ١٨ : ٣٨١.

وعن الواقدي أيضاً في «المنتقىٰ» للكازروني قال: كان المسرىٰ في ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية عشرة من النبوة قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً. وفيه قيل: ليلة سبع عشرة من ربيع الأوّل قبل الهجرة بسنة، من شعب أبي طالب الىٰ بيت المقدس. وقيل: ليلة سبع وعشرين من رجب. وقيل: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين وذٰلك سنة ثلاث وخمسين من عام الفيل[1].

وعن «العُدد القوية» قال: في ليلة احدىٰ وعشرين من رمضان قبل الهجرة بستة أشهر كان الإسراء برسول اللّه. وقيل: في السابع عشر من شهر رمضان ليلة السبت. وقيل: ليلة الاثنين من شهر ربيع الأوّل بعد النبوة بسنتين. وفيه عن كتاب «التذكرة»: في ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية من الهجرة كان الإسراء[2]. فالاختلاف من سنة بعد البعثة الىٰ سنتين بعد الهجرة!

ويبدو أنّ الراجح من هٰذه الأقوال والروايات هو رواية الراوندي عن علي عليه‌السلام، فلننظر في سائر المرجّحات.

أمّا سورة النجم فإنّها نزلت بعد اثنتين أو ثلاث وعشرين سورة، وقد نزل بعدها أربع وستون سورة في مكّة[3] فالطبيعي أن تكون قد نزلت فيما بين الثلثين الأوّل والثاني من العشر سنين مدّة التنزيل بمكّة قبل الهجرة، أي في نهاية السنة الثالثة أو بدايات العام الرابع من تلك المدّة.

إلّا أنّه يمكن القول بأنّ السور الأوائل من القصار المفصّلات، بينما ما يليها من المئين والمثاني المطوّلات، فمن المحتمل أنْ تكون السور العشرون الأُوائل نازلة في السنة الأُولىٰ من تلك المدّة، والسور الستون البواقي نازلة في السنين التسع

(١) بحار الأنوار ١٨ : ٣٠٢.

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٣١٩.

(٣) راجع مجمع البيان ١٠ : ٦١٢ في سورة الانسان والتمهيد : ١٠٥ وتلخيصه : ٩٥.

البواقي، وعليه فيكون المعراج ونزول سورته في أواخر السنة الأُولىٰ من تلك المدّة.

وقد مرّ في خبر القميّ في تفسيره: أنّ اسماعيل المَلِك سأل جبرئيل: من هٰذا معك؟ فقال: محمّد، قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم[١] أو: أوَ قد أُرسل اليه؟[٢] وإنّما يتناسب هٰذا التساؤل مع أوائل البعثة بالنبوة أو الرسالة والتنزيل عليه، لا بعد ذٰلك بكثير، فضلا عمّا بعد الهجرة.

ومع الالتفات الىٰ التفريق بين البعثة بالنبوة والرسالة ينتفي الخلاف بين عمدة الأقوال: السنة الثانية والخامسة، فالثانية من الرسالة والتنزيل هي الخامسة من البعثة بالنبوة، وسيما وأنّ رواية السنة الثانية تنتهي الىٰ ابن عبّاس وهو المعروف بالقول بنزول القرآن في عشر سنين، فكأنّه لا يحسب الثلاث سنوات الأُولىٰ لاعتبار أنّه صلى الله عليه وآله إنّما أُمر بالانذار بعدها.

وابن عبّاس أدرك مدّة قصيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله ولم يكن معه حين معراجه حتّىٰ يكون شاهداً بتأريخه، فلابدّ أنّه نقله من شخص آخر لم يذكره، فهو نقل تأريخي لم يُذكر المصدر فيه فلا قيمة له عند التحقيق، لولا أنّا نعلم أنّ أكثر علم ابن عبّاس هو من علم علي عليه السلام، فيبدو أنّه ينقله عنه عليه السلام، إلّا أنّ النقل اختلف عنهما بين الاثنين والثلاث.

ولعلّ الّذين أرّخوا المعراج بعام ونصف أو بخمسة عشر شهراً بعد مبعثه[٣] أو بعد البعثة بستة عشر شهراً[٤] أخذوا السنتين عن ابن عبّاس واجتهدوا فيها بالمداقة في شهورها مختلفين.

---

(١) تفسير القميّ ٢ : ٥.

(٢) تأريخ الخميس ١ : ٣١٠ ومجمع الزوائد ١ : ٧٠ عن المواهب اللّدنية ٢ : ٦.

(٣) سيرة مغلطاي : ٢٧.

(٤) شرح الشفا للقاري ١ : ٢٢٢.

ولعلّ مِن أقوىٰ ما يدلّ علىٰ تأريخ المعراج بأوائل السنة الخامسة: ما مرّ من اثبات ميلاد فاطمة الزهراء عليها السلام في السنة الخامسة من النبوّة، بالاضافة الىٰ ما رویٰ عن الامام الصادق عليه السلام وابن عبّاس وسعد بن مالك وسعد بن أبي وقّاص وعائشة: أنّها إذ عاتبته علىٰ كثرة تقبيله لابنته الزهراء قال لها: يا عائشة! لمّا أُسري بي الىٰ السماء أدخلني جبرئيل الجنة، فناولني منها تفّاحة، فأكلتها، فصارت نطفة في صلبي، ففاطمة من تلك النطفة، ففاطمة حوراء إنسية، وكلّما اشتقت الىٰ الجنّة قبّلتها[1].

وقد عُلم بِمّا مرّ أنّ فاطمة ولدت بعد البعثة بخمس سنين أي في السنة الثانية من الرسالة والتنزيل ـ وهو محمل قول الشيخ المفيد ومن قال بولادتها في السنة الثانية ـ واذا كان ظهور نطفة فاطمة واستقرارها في موضعها طبيعياً اقتضىٰ أن يكون المعراج قبل ذلك بأكثر من تسعة أشهر ولا أقلّ منها، ولكن لا يدرىٰ هل هي من المعراج الأوّل أو الثاني؟ فلو كانت من الأوّل اقتضىٰ ذلك ترجيح القول الأوّل بأن المعراج كان بعد سنة من الرسالة، ليكون ميلاد الصديقة في السنة الثانية.

وبما أن التأريخ بسنة البعثة بالنبوة لا السنة العربية بدءاً بمحرّم، فالحساب من شهر شعبان ـ بعد البعثة في أواخر شهر رجب ـ واليه، وعليه فيترجّح القول بكون

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ٣١٥ و ٣٥٠ و ٣٦٤ عن تفسير القمّيّ وعلل الشرائع وملحقات إحقاق الحقّ للمرعشي ١٠: ١ ـ ١١ وأخبار الدول: ٨٧ وتأريخ بغداد ٥: ٨٧ وذخائر العقبى: ٣٦. وكنز العمّال ٣٠: ٩٤ و ١٤: ٩٧. ومجمع الزوائد ٩: ٢٠٢. ومحاضرات الأوائل: ٨٨. ومستدرك الحاكم ٣: ١٥٦ وتلخيصه للذهبي والمطالب السنية: ٢٣٩. ومفتاح النجا: ٩٨ مخطوط. ومقتل الخوارزمي: ٦٤ ومناقب المغازلي: ٣٥٨ والمواهب اللدنية ٢: ٢٩، وميزان الاعتدال ١: ٣٨ و ٢٥٣ و ٢: ٢٦ و ٨٤ و ١٦٠ و ٢٩٧ ونزهة المجالس ٢: ١٧٩. ونظم درر السمطين: ٧٧. ووسيلة المآل: ٧٨. وينابيع المودة: ٩٧.

المعراج الأوّل في شهر رمضان ولعله في احدىٰ ليالي القدر : التاسع عشر او الحادي والعشرين كما مرّ عن «العُدد القوية» وكما مرّ عن «المنتقىٰ» عن الواقدي، وعن «المناقب» عن الواقدي والسدي. وبعد تسعة أشهر من شهر رمضان يكون شهر جُمادى الثانية ميلاد الصدّيقة عليها السلام. وفي شهر رجب بعد الجُمادى الثانية تنتهي السنة الثانية للرسالة والخامسة للنبوة.

وعليه فيكون ما في «الخرائج» عن علي عليه السلام من تأريخ المعراج بالسنة الثالثة تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني، فإمّا كذٰلك في شهر رمضان أيضاً أو في شهر ربيع الأوّل في ليلة السابع عشر منه أي ميلاد الرسول صلى الله عليه وآله كما عن «الاقبال»[1] ومرّ عن «العُدد القوية» و«المنتقىٰ» وعن «المناقب» عن ابن عبّاس.

أمّا اذا افترضنا ميلاد الزهراء عليها السلام بعد الإسراء والمعراج الثاني، وافترضنا ما في «الخرائج» عن علي عليه السلام تأريخاً له ـ أي للثاني ـ فإنّ ميلاد الزهراء سيكون في السنة الثالثة من الرسالة والسادسة من النبوة، مِمّا لا يتفق مع القول المعوّل عليه والروايات المعتمدة. وكذٰلك أيضاً إذا افترضنا السنة الثالثة تأريخاً للمعراج الأوّل. اللهم إلّا أنْ نقول بتأخير الولادة عن الإسراء والمعراج الىٰ السنة الخامسة من الرسالة، أي بعد سنتين من المعراج في السنة الثالثة، ولكنّه خلاف ظاهر الأخبار، نعم إلّا أن نقول بأنّ الإسراء والمعراج الثاني كان في السنة الخامسة من الرسالة والولادة بعدها فيها كذٰلك. ولكن هٰذا يقتضي أن يكون عمر الصدّيقة حين الهجرة خمس سنين وحين الزواج ست سنين ممّا لم يقل به أحد ولا يُعقل. فنرجع الىٰ ترجيح كونها من المعراج الأوّل وميلادها بعده كما مرّ، وحيث لم يتّفق ذٰلك مع كون المعراج الأوّل في السنة الثالثة من الرسالة كما مرّ آنفاً، فليكن ذٰلك تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني.

---

(١) الاقبال : ٦٠١.

ويبقىٰ أننا لو رجّحنا أن تكون السنة الثالثة فيما رواه «الخرائج» عن علي عليه‌السلام تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني، فهنا اشكالان :

الأوّل : أنّ الخبر بصدد بيان ما يتعلق بالمعراج بالتفصيل، فلماذا لم يبيّن بل لم يُشر الىٰ المعراج الأوّل السابق ـ أو الآخر اللاحق ـ لا من قريب ولا من بعيد؟ وكذٰلك أكثر أخبار الإسراء والمعراج.

الثاني : أنّنا لو رجّحنا القول بكون الإسراء والمعراج الثاني في السنة الخامسة من الرسالة كان ذٰلك منسجماً مع كون سورة الإسراء السورة الخمسين في ترتيب النزول، ونزل في الخمس سنين بعدها زهاء ثلاثين سورة من المئين أو المثاني المطوّلات نسبيّاً بينما لو رجّحنا السنة الثالثة تأريخاً للإسراء والمعراج الثاني استلزم أن يكون النازل في مدّة هٰذه السنين الثلاثة خمسين سورة، بينما النازل في السبع سنين البواقي ثلاثين سورة. اللهم إلّا أن يلتزم بذٰلك بحجة أن السور الأوائل قصار مفصّلات والبواقي مئين أو مثان مطوّلات نسبيّاً.

ولعلّ ممّا يؤيّد هٰذا ما رواه السيوطي في «الدر المنثور» باسناده عن عبد اللّٰه بن مسعود قال عن سورة الإسراء ومريم والكهف : إنّهنّ من العتاق الأُول[1] هٰذا وهو من المهاجرين الىٰ الحبشة، وهي كانت في السنة الخامسة.

والظاهر أن المقصود بالخامسة هي الخامسة من النبوة لا الرسالة والتنزيل، أي بعد الرسالة والتنزيل بعامين، ولكن حتّىٰ لو كانت الخامسة من الرسالة فإنّ ظاهر الخبر أنّ سورة الإسراء كانت قد نزلت قبل الهجرة الىٰ الحبشة بمدّة ليست بقصيرة بل طويلة.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٣٦ عن ابن الضريس وابن مردويه وصحيح البخاري ٣ : ٩٦.

تأريخ يوم الدار:

أمّا تأريخ انذار يوم الدار فهو يتبع تأريخ الإسراء والمعراج الثاني قبله بمدة تسع وتتناسب لنزول سورتي: النمل ٤٨ وآياتها ٩٢ والقصص ٤٩ وآياتها ٨٨. فلو قلنا بكون المعراج الثاني في السنة الخامسة أو الثالثة، فلو كان في الربيع الأوّل منها وهو الشهر الثامن منها كان من الممكن أن يكون الانذار في أوائلها أواخر شهر رجب أو شعبان أو رمضان منها، أما لو كان المعراج في شهر رمضان اقتضىٰ أن يكون الانذار في أوائل السنة السابقة: الرابعة أو الثانية من الرسالة.

ويكون عمر علي عليه‌السلام يومئذٍ ـ علىٰ أنّ ميلاده بعد عام الفيل بثلاثين سنة ـ في السنة الثانية من الرسالة: خمس عشرة سنة، وفي السنة الرابعة منها: ست عشرة سنة.

وحيث جرّنا البحث عن المرحلة السرّية والعلنية الىٰ ملاحظة سير الحوادث بعد البعثة والتنزيل من خلال الآيات الكريمة حتّىٰ آخر السورة الرابعة والخمسين، سورة الحجر، فلا بأس بأنْ نستمر علىٰ هٰذه الطريقة لنلاحظ سير الحوادث من خلال نزول التنزيل.

السورة الخامسة والخمسون ـ «الأنعام»:

الّتي نزلت جملة واحدة كما في خبر أُبي بن كعب عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله كما في «مجمع البيان»[1]. وخبر العياشي عن الامام الصادق عليه‌السلام[2] والقميّ عن الرضا عليه‌السلام[3] وفيها قوله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ**

(١) مجمع البيان ٤ :٤٢١ وعن عكرمة وقتادة.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٥٣.

(٣) تفسير القميّ ١ : ١٩٣ .

كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾[١].

وروىٰ الطبْرسي عن الكلبي قال: نزلت في عبد اللّٰه بن أبي أُميّة ونضر بن الحارث ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمّد لن نؤمن لك حتّىٰ تأتينا بكتاب من عند اللّٰه ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنّه من عند اللّٰه وأنّك رسوله[٢] وكذٰلك رواه ابن شهر آشوب في المناقب[٣].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٤].

قال الطبْرسي قيل: إنّ أهل مكّة قالوا لرسول اللّٰه: يا محمّد تركتَ ملة قومك، وقد علمنا أنّه لا يحملك علىٰ ذٰلك إلّا الفقر، فإنّا نجمع لك من أموالنا حتّىٰ تكون أغنانا، فنزلت الآية[٥] ونقله كذٰلك ابن شهر آشوب في «المناقب»[٦].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٧].

---

(١) الأنعام: ٧ ـ ٩.

(٢) مجمع البيان ٤: ٤٢٨.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٨.

(٤) الأنعام: ١٤ ـ ١٥.

(٥) مجمع البيان ٤: ٤٣٣.

(٦) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩.

(٧) الأنعام: ١٩، ٢٠.

في «تفسير القميّ» برواية أبي الجارود عن الامام الباقر عليه السلام قال: إنّ مشركي أهل مكّة في أوّل ما دعاهم رسول اللّٰه قالوا له: يا محمّد! ما وجد اللّٰه رسولاً يُرسله غيرك؟! ما نرىٰ أحداً يصدّقك بالذي تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارىٰ فزعموا أنّه ليس لك ذكر عندهم. فأتنا بمن يشهد أنّك رسول اللّٰه. فقال رسول اللّٰه: ﴿ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾[١] وروىٰ الطبْرسي مثله عن الكلبي[٢] وكذٰلك ابن شهر آشوب في «المناقب»[٣].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٤].

قال الطبْرسي في «مجمع البيان» قيل: إنّ نفراً من مشركي مكّة منهم: أبو سفيان بن حرب وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة[٥] وغيرهم، جلسوا الىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وهو يقرأ القرآنَ، فقالوا للنضر: ما يقولُ محمّد؟ فقال: أساطيرُ الأوّلينَ مثل ماكنت أُحدثكم عن القرون الماضية، فأنزل اللّٰه هٰذه الآية.

وروي: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يصلي بالليل ويقرأ القرآنَ في الصلاة جهراً، رجاء أنْ يستمع الىٰ قراءته انسان فيتدبر معانيه ويؤمن به، فكان المشركون اذا سمعوه آذوه ومنعوه عن الجهر بالقراءة، فكان اللّٰه تعالىٰ يلقي عليهم النومَ أو يجعل في قلوبهم أكنّة ليقطعهم عن مرادهم[٦].

---

(١) تفسير القميّ ١: ١٩٥.

(٢) مجمع البيان ٤: ٤٣٦ والواحدي في أسباب النزول: ١٧٤ عن الكلبي أيضاً.

(٣) المناقب للسروي ١: ٥٠.

(٤) الأنعام: ٢٥.

(٥) كذا، والمفروض أنّه هلك مع المستهزئين الستة قبل نزول الأنعام.

(٦) مجمع البيان ٤: ٤٤٢.

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[١] قال الطبْرسي: أي ينهون الناس عن اتباع النبيّ ويتباعدون عنه فراراً منه، أو ينهون الناس عن استماع القرآن ويتباعدون عن استماعه، كما عن محمّد بن الحنفية وابن عبّاس والحسن والسدّي وقَتادة ومجاهد، وقال مقاتل وعطاء: عَنى به أبا طالب بن عبد المطّلب! وهذا لا يصح؛ لأنّ هذه الآية معطوفة على ما تقدمها وما تأخر عنها معطوف عليها، وكلها في ذم الكفار المعاندين[٢] وفيها قوله سبحانه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٣].

قال الطبْرسي في مجمع البيان: روي: أنّ أبا جهل قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ما نتّهمك ولا نكذّبك، ولكنّا نتّهم الّذي جئت به ونكذّبه[٤].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٥].

في «تفسير القميّ» في خبر أبي الجارود عن الامام الباقر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ اسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف،

---

(١) الأنعام: ٢٦.

(٢) مجمع البيان ٤: ٤٤٤.

(٣) الأنعام: ٣٣.

(٤) مجمع البيان ٣: ٤٥٦ ونقله الواحدي في أسباب النزول: ١٧٦ عن أبي ميسرة وخبراً آخر عن السدي وقولاً آخر عن مقاتل.

(٥) الأنعام: ٣٥.

دعاه رسول اللّٰه أن يُسلم فغلب عليه الشقاء، فشقّ ذلك علىٰ رسول اللّٰه فأنزل اللّٰه قوله: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾[1].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

روىٰ الطبْرسي عن الثعلبي باسناده عن عبد اللّٰه بن مسعود قال: مرّ الملأُ من قريش علىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وعنده صهيب وخبّاب وبلال وعمّار وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهٰؤلاء عن قومك؟! أفنحن نكون تبعاً لهم؟! أهٰؤلاء منَّ اللّٰه عليهم؟! اطْرُدْهُمْ عنك، فلعلّك إن طردتهم تبعناك! فأنزل اللّٰه في ذٰلك قوله سبحانه: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ ... ﴾[3].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا

---

(١) تفسير القمّي ١ : ١٩٨.

(٢) الأنعام : ٥١ ـ ٥٤.

(٣) مجمع البيان ٤ : ٤٧٢ ورواه الواحدي في أسباب النزول : ١٧٦ والسيوطي في لباب النقول : ١٠٧.

خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[١].

روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» عن عكرمة عن ابن عبّاس: أن النضر بن الحارث لفّق جُملات هٰكذا: والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً... يقابل بها سورة المرسلات (الثالثة والثلاثين في النزول) فنزلت الآية[٢].

وقال الطوسي: قال عكرمة إن الآية ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى... ﴾ نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة حيث قال سوف يشفع فيّ اللات والعزّىٰ[٣].

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٤].

روىٰ الطَبْرسي عن الامام الباقر عليه السلام قال: لمّا نزلت ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال المسلمون: إن كان كلّما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟! فأنزل اللّٰه: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا. ثمّ نقل عن البلخي قال: كان ذٰلك في أوّل الاسلام وكان يختصّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله ورخّص المؤمنين في ذٰلك بقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ولمّا كثر المسلمون

---

(١) الأنعام: ٩٣، ٩٤.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٠.

(٣) التبيان ٤: ٢٠٨ وعنه في مجمع البيان ٤: ٥٢١.

(٤) الأنعام: ٦٨ ـ ٦٩.

نسخت هذه الآية بقوله: ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾(١).

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

روى القمّيّ في تفسيره بسنده عن الامام الصادق عليه‌السلام قال: كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون الله، وكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون، فنهى الله المؤمنين عن سبّ آلهتهم لكي لا يسبّ الكفار اله المؤمنين(٣).

وأضاف الطبْرسي عن ابن عبّاس: أنّ المشركين قالوا لرسول الله: يا محمّد! لتنتهينّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجونّ ربّك! فنزلت: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾(٤).

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) مجمع البيان ٤ : ٤٨٩ وروى السيوطي في ذلك خبرين عن ابن عبّاس وابن جريج في الدر المنثور : الأنعام.

(٢) الأنعام : ١٠٨.

(٣) تفسير القمّيّ ١ : ٢١٣. وفي التبيان ٤ : ٢٣٢ عن الحسن وفي أسباب النزول : ١٤٨.

(٤) مجمع البيان ٤ : ٥٣٧. وفي التبيان عن الحسن البصري، وهو ممن أخذ عن ابن عبّاس.

(٥) الأنعام : ١٠٩ ـ ١١١.

روىٰ الطبْرسي عن الكلبي ومحمّد بن كعب القُرظي : قالت قريش : يا محمّد ! تخبرنا أنّ موسىٰ كان معه عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنّ عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ، وتخبرنا أنّ ثمود كانت لهم ناقة... فأتنا بآية من الآيات حتّىٰ نصدّقك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيّ شيء تحبّون أنْ آتيكم به ؟

قالوا : اجعل لنا الصفا ذهباً ! وابعث لنا بعض موتانا حتّىٰ نسألهم أحقّ ما تقول أمْ باطل ؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً !

فقال رسول الله : فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدّقونني ؟ قالوا : نعم، والله لئن فعلت لنتّبعنّك أجمعين.

وسأل المسلمون رسول الله أنْ ينزّلها عليهم حتّىٰ يؤمنوا.

فقام رسول الله يدعو أنْ يجعل الله الصفا ذهباً !

فجاءه جبرئيل فقال له : إنْ شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكن إنْ لم يصدقوا عذّبتهم ! وإن شئت تركتهم حتّىٰ يتوب تائبهم. فقال رسول الله : بل يتوب تائبهم. فأنزل الله تعالىٰ هٰذه الآية[1] في الآيات العشر من الآية ١١٢ الىٰ الآية ١٢٢ بدأ الله بتسلية رسوله عن أقوال الكفّار تخرّصاً أمام آيات الكتاب المنزل عليه، وأنّ من اتّبع غيره ضلّ وأضلّ، وأنّ أعداء الانبياء شياطين من الجن والانس، وأنّ أقوالهم زخرف وافتراء واقتراف للاثم والباطل، وحكم بغير ما أنزل الله، ومن أطاعهم فقد ضلّ عن سبيل الله الىٰ اتّباع الظنون والتخرّصات، والله أعلم بالمهتدين والضّالّين عن سبيله، ثمّ قال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ

---

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٤٠. ومعناه في التبيان ٤ : ٢٣٦. وفي أسباب النزول : ١٨٠.

مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾[١].

وفي قوله سبحانه: ﴿ **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** ﴾ قال الطبْرسي قيل: هو ماذكر في سورة المائدة من قوله: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتَةُ وَالدَّمُ...** ﴾ واعترض علىٰ هٰذا: بأنّ سورة المائدة نزلت بعد الأنعام بمدّة فلا يصح أنْ يقال: إنّه فصّل. إلّا أنْ يُحمل علىٰ أنّه بيّن علىٰ لسان الرسول ﷺ وبعد ذٰلك نزل به القرآن[٢].

وقال الطباطبائي: ويظهر من الآية أنّ محرّمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام، وقد وقعت في سورة النحل من السور المكية، فهي نازلة قبل الأنعام[٣]. والآيات من سورة النحل هي من الآية ١١٤ الىٰ ١١٨ وهي: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ فلو كان قولُه: ﴿ **فَصَّلَ لَكُمْ** ﴾ في سورة الأنعام يجعلُنا نقول بنزول النحل قبل الأنعام، فانّ هٰذه الآية من النحل: ﴿ **قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ يجعلنا نسلِّم للأخبار الدالة علىٰ نزول الأنعام قبل النحل، فالأنعام الخامسة والخمسون والنحل السبعون في الترتيب. أمّا قوله ﴿ **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ** ﴾ في الأنعام فنقبل فيه قول الطبْرسي بأن يكون المراد به بيان النبيّ لا القرآن.

وبعدها قوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** ﴾[٤].

---

(١) الأنعام: ١١٨، ١١٩.

(٢) مجمع البيان ٤: ٥٥٢ والواحدي في أسباب النزول: ١٨٠ رواية في سبب نزول الآية راجعها.

(٣) الميزان ٧: ٣٣٢.

(٤) الأنعام: ١٢٤.

روىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل قال: إنّ أبا جهل بن هشام قال: زاحمَنا بنو عبد مناف في الشرف حتّىٰ اذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيٌّ يوحىٰ اليه! واللّٰه لانؤمن به ولا نتّبعه اِلّا أن يأتينا وحي كما يأتيه[١] ونقل مثله ابن شهر آشوب في «المناقب»[٢].

وفي الآيات العشر من الآية ١٣٦ الىٰ ١٤٦ يبين اللّٰه اعـتقادات المـشركين الفاسدة وخصالهم الذميمة ومقالاتهم الباطلة، حيث جـعلوا بـعض الأشـياء للّٰـه وبعضها للأصنام وحرّموا الحلال وقتلوا أولادهم لاعتقاداتهم الباطلة ومـقالاتهم الفاسدة: فجعلوا للّٰه ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نـصيباً، وزيّـنوا لأنـفسهم قـتل أولادهم: البنين والبنات خيفة العيلة والفقر والعار، وحرّموا ركوب ظهور بـعض الأنعام، ولم يلتزموا بذكر اسم اللّٰه عليها عند التذكية، وحرّموا بعض ما في بـطون الأنعام علىٰ النساء وخصّصوه للرجال، وأباحوه لكـليهما إنْ كـان مـيتة. ثمّ بـيّن المحرّمات حاصراً لها في أن تكون: ميتة، أو دماً مسـفوحاً، أو لحم خنزير، أو ما أُهل لغير اللّٰه به فلم يذكر اسـم اللّٰه عليه عند التذكية، ثمّ ذكر أنّ اليهود بغوا فحرّم ملوكهم علىٰ فقرائهم شحوم البقر والغنم ولحوم كل ذي ظفر من الطيور، فجزاهـم اللّٰه ببغيهم هٰذا أن حرّم ذٰلك عليهم جميعاً إلّا ما كان من الشحوم في ظهور البـقر والغنم وحواياهما أي الأمعاء حتّىٰ المباعر.

ومن الآية: ١٥١ عقّبَ ما سبق بـذكر سـائر المحـرمات: فـالشرك، وقـتل الأولاد خشية الاملاق، وقتل النفس الّتي حرّم اللّٰه، وما ظهر منها وما بطن مـن الفواحش، ومال اليتيم، وبضمنها عدّ بعض الفرائض: فبالوالدين احساناً، والوفاء بعهد اللّٰه، والقسط في الكيل والميزان، ورعاية العدالة في الشهادة ولو لذي القربىٰ،

---

(١) مجمع البيان ٤: ٥٥٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٥٠، ٥١.

واتباع الصراط المستقيم، واتباع هٰذا الكتاب المبارك الكريم، وتقوىٰ اللّٰه. وفي الآية: ١٦١ ذكر أن الصراط المستقيم والدين القيّم هو ملة ابراهيم الحنيف والطاهر من الشرك، وأن رسول اللّٰه ممّن هداه اللّٰه الىٰ ذٰلك الصراط المستقيم والدين القيم فمَحياه ومماته للّٰه تعالىٰ.

وهنا قال الطبْرسي: قيل: إنّ الكفار قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: اتّبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأً! فأنزل اللّٰه هٰذا[1].

هٰذا وقد روىٰ في أوّل تفسيره للسورة عن قتادة وعِكرمة عن أُبيّ بن كعب وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: أنّها نزلت بمكّة جملة واحدة ليلاً[2] فكيف التوفيق بين هٰذا وبين أخبار أسباب نزول الآيات من هٰذه السورة؟ ويصدق هٰذا القول قبل الطبْرسي علىٰ القميّ والعياشي أيضاً وكثير من المفسّرين الآخرين كذٰلك.

أمّا العلّامة الطباطبائي فقد خصّص الجزء السابع من تفسيره «الميزان» بتفسير سورة الأنعام، وقطّعها الىٰ أكثر من عشرة مقاطع وختم كلّ مقطع ببحث روائي شمل عدداً غير قليل من أخبار شأن نزول آيات منها، وعلّق في موارد متعددة عليها بأنّها تنافي نزول السورة جملة واحدة بمكّة، منها فيما رواه ـ ورويناه ـ عن القميّ عن الامام الباقر عليه السلام: أنّ رسول اللّٰه كان يحب اسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف... فقال: إنّها لا تلائم الروايات الكثيرة الدالة علىٰ نزول السورة دفعة. ولكنّه عاد فقال: وان كان يمكن توجيهها بوقوع السبب قبل نزول السورة ثمّ الاشارة بالآية الىٰ السبب المحقّق[3] ويمكن هٰذا التوجيه في جميع ما نقلناه من أخبار أسباب النزول لآيات هٰذه السورة.

---

(١) مجمع البيان ٤: ٦٠٦.

(٢) مجمع البيان ٤: ٤٢١.

(٣) الميزان ٧: ٦٨.

السورة السابعة والخمسون ـ «لقمان»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١].

في تفسير القميّ: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الامام الباقر عليه السلام قال: هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وكان راوياً لأحاديث الناس وأشعارهم[٢]. ولعلّه هو الرجل الّذي روىٰ فيه الكليني في «أُصول الكافي» بسنده عن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هٰذا؟ فقيل: علّامة، فقال: وما العلّامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ذاك علم لا يضرّ من جهله، ولا ينفع من علمه، ثمّ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل[٣].

وروىٰ الخبر الأوّل الطبْرسي عن الكلبي قال: نزل قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، كان يتّجر فيخرج الىٰ فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيحدّث بها قريشاً ويقول لهم: إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أُحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة. فيتركون استماع القرآن ليستمعوا الىٰ حديثه[٤]

---

(١) لقمان: ٦، ٧.

(٢) تفسير القميّ ٢: ١٦١.

(٣) أُصول الكافي ١: ٣٢.

(٤) مجمع البيان ٨: ٤٩٠ وروي الخبر عن ابن عبّاس في التفسير المنسوب اليه: تنوير المقباس: ٣٤٤. ورواه ابن اسحاق في سيرته ١: ٣٢١. ورواه الواحدي في أسباب النزول عن مقاتل والكلبي: ٢٨٧ ط الجُميلي. والسيوطي عنه في الدر المنثور سورة لقمان.

وروىٰ مثله ابن شهر آشوب في «المناقب»[١].

وكان قد دعاه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله الىٰ الإسلام، فـفي روايـة أبي الجـارود في «تفسير القمّيّ» عن الامام البـاقر عليه السلام أيـضاً قـال: قـال رسـول اللّٰـه صلى الله عليه وآله للنضر بن الحارث: اتّبع ما أُنزل اليك مـن ربّك. فـقال: بـل أتّـبع مـا وجـدت عليه آبائي، وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّـاسِ مَـنْ يُـجَادِلُ فِـي اللهِ بِـغَيْرِ عِـلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَـهْدِيهِ إِلَـى عَـذَابِ السَّعِيرِ ﴾[٢].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِـدَةٍ إِنَّ اللهَ سَـمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[٣] في رواية أبي الجارود في «تفسير القمّيّ»: بلغنا ـ واللّٰه أعلم ـ عن الامام الباقر عليه السلام قال: إنّهم قالوا: يا محمّد! خُلقنا أطواراً: نُطفاً ثمّ علقاً، ثمّ أُنشئنا خلقاً آخر كما تزعم، وتزعم أنّا نُبعث في ساعة واحدة! فقال اللّٰه: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[٤].

وفي آخر السورة: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَـعْلَمُ مَـا فِـي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَـمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٥]. وفي «أسباب النزول» للواحدي: أن رجلاً من بني مازن يقال له: الحارث بن عمرو جاء الىٰ النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وقال له: يا محمّد! قد علمت بأيّ أرض وُلدت فبأيّ أرض أموت؟ وقد تركت امرأتي حُبلىٰ فمتىٰ تلد؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٥٢.

(٢) تفسير القمّيّ ٢: ١٦٦ و الآية من لقمان: ٢٠، ٢١.

(٣) لقمان: ٢٨.

(٤) تفسير القمّيّ ٢: ١٦٧.

(٥) لقمان: ٣٤.

وقد أجدبت بلادنا فمتىٰ تخصب؟ وقد علمت ماكسبت اليوم فماذا اكسب غدا؟ ومتىٰ تقوم الساعة؟ فنزلت هٰذه الآية[١].

السورة الستون ـ «الزُمر»:

«ويظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف عمّا هو عليه من التوحيد والدعوة اليه والتعرض لآلهتهم، وخوّفوه بآلهتهم، فنزلت السورة... تؤكد الأمر بأن يخلص دينه للّٰه سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعلمهم أنّه مأمور بالتوحيد واخلاص الدين... وذكّرت المشركين وأنذرتهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة مضافاً الىٰ ما يصيبهم في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر... ووصفت المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشّرتهم بما سيثيبهم اللّٰه في الآخرة مرة بعد مرّة»[٢].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣] قال الطباطبائي: هٰذا حث وترغيب لهم في الهجرة من مكّة، إذ كان التوقف فيها صعباً علىٰ المؤمنين بالنبيّ، والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم... والّذي ينطبق علىٰ مورد الآية هو الصبر علىٰ مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفر والفسوق من آمن باللّٰه وأخلص له دينه واتقاه[٤] ولم ينسبه الىٰ أحد. والظاهر أنّه أخذه من الطبْرسي قال: هٰذا حث لهم علىٰ الهجرة من مكّة، عن ابن عبّاس، أي لا عذر لأحد في ترك طاعة اللّٰه، فان لم يتمكن منها في أرض

(١) أسباب النزول: ٢٨٩ ورواه السيوطي في الدر المنثور عن عكرمة، وسمّىٰ الرجل: الورّاث.

(٢) الميزان ١٧: ٢٣١، ٢٣٢.

(٣) الزمر: ١٠.

(٤) الميزان ١٧: ٢٤٤.

فليتحوّل الىٰ اخرىٰ يتمكن منها فيها، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[١] وقبله روىٰ الطوسي معناه عن مجاهد[٢].

فالكلام رواية عن مجاهد عن ابن عبّاس، وهي لا تصرّح بمقصد الهجرة من مكّة الىٰ أين، ولم يرد دليل أو اشارة إلىٰ أنّ تعيين الهجرة الىٰ الحبشة كان وحياً، بل الظاهر أنّ النبيّ ﷺ رأىٰ أنّ خير مصداق لسعة أرض اللّٰه لهم هي الحبشة، وعبّر عن ذٰلك بقوله : «هي أرض صدق؛ فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد»[٣].

وعن ظروف نزول هٰذه الآية في سورة الزمر قال الطبْرسي في «مجمع البيان» : قال المفسرون : ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كلّ قبيلة علىٰ من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذّبونهم، فافتتن من افتتن وعصم اللّٰه منهم من شاء. ومنع اللّٰه رسوله بعمه أبي طالب. فلمّا رأىٰ رسول اللّٰه ما بأصحابه ولم يقدر علىٰ منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج الىٰ أرض الحبشة وقال : إنّ بها ملكاً صالحاً لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا اليه حتّىٰ يجعل اللّٰه للمسلمين فرجاً. وأراد به النجاشي، واسمه أصحمة ـ وهو بالحبشة : عطية ـ وإنّما النجاشي اسم الملك كقولهم : كسرىٰ وقيصر. فخرج اليها سراً أحدَ عشرَ رجلاً وأربع نسوة... فخرجوا الىٰ البحر وأخذوا سفينة الىٰ أرض الحبشة بنصف دينار. وذٰلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول اللّٰه. وهٰذه هي الهجرة الاولىٰ[٤]

---

(١) مجمع البيان ٨ : ٧٦٧.

(٢) التبيان ٩ : ١٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٤ ورواه الطبْرسي في مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ عن المفسّرين.

(٤) مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ وفي بحار الأنوار عن المنتقىٰ للكازروني قال : وكان مخرجهم في رجب في الخامسة، وخرجت قريش في آثارهم ففاتوهم، فأقاموا عند النجاشي شعبان ورمضان ورجعوا في شوال. بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢.

فالسورة نزلت في الخامسة. وبما أنّ هجرة المسلمين إنّما هي من جرّاء تعذيب قريش للمسلمين، لذلك نبدأ هنا بذكر أخبار عن ذلك.

ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين:

قال ابن اسحاق: ثمّ إنّ المشركين عدَوا علىٰ من أسلم واتبع رسول اللّه من أصحابه، فوثبت كلّ قبيلة علىٰ من فيها من المسلمين مَن استضعفوه منهم، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم، بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكّة اذا اشتدّ الحر، ليفتنوهم عن دينهم، فنهم من يصلب لهم ويعصمه اللّه منهم، ومنهم من يُفتن من شدّة البلاء الّذي يصيبه...

وكان أبو جهل الفاسق في رجال من قريش يُغرون بالمسلمين، وكان اذا سمع بالرجل أسلم وله شرف ومنَعَة، انّبه وأخزاه وقال له: تركتَ دينَ أبيك وهو خير منك! لنُسَفّهنَّ حِلمك ولنُفَيّلَنَّ (نُخَطِّئَنّ) رأيك ولنضَعنَّ شرفك! وان كان تاجراً قال له: لنُكَسِّدَنَّ تجارتك ولنُهلِكَنَّ مالَك! وان كان ضعيفاً ضربه وأغرىٰ به غيره.

حتّىٰ أنّ الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي حين أسلم، مشىٰ رجال من بني مخزوم الىٰ أخيه هشام بن الوليد[١] ليأخذه وفتية آخرين منهم قد أسلموا منهم: سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة، فقالوا لهشام: إنّا قد أردنا أنْ نعاتب هٰؤلاء الفتية علىٰ هٰذا الدين الّذي أحدثوه لنأمن بذٰلك من غيرهم. فقال هشام في أخيه الوليد: فعليكم به فعاتبوه واحذروا علىٰ نفسه! فتركوه.

وكانوا يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأُمّه اذا حميت الظهيرة يعذّبونهم

---

(١) من هنا يعلم أنّ هٰذا كان بعد هلاك الوليد الأب في المستهزئين الستة.

برمضاء مكّة. فبلغني أنّ رسول اللّٰه كان يمرّ بهم فيقول لهم: صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة[١].

وعن ابن عبّاس قال: كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويُعطّشونه حتّىٰ ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضرّ الّذي نزل به حتّىٰ يعطيهم ما سألوه من الفتنة... افتداءً منهم ممّا يبلغون من جَهده، حتّىٰ إن الجُعَل يمرّ بهم فيقولون له: أهٰذا الجُعل الهك؟ فيقول: نعم[٢].

وعن هشام بن عروة بن الزبير: أنّ عمر بن الخطاب ـ وهو يومئذ مشرك ـ كان يعذّب جارية مسلمة من حيّهم فيضربها لتترك الإسلام حتّىٰ اذا ملّ قال لها مُستهزئاً!: إنّي أعتذر اليك! إنّي لم أتركك إلّا مَلالةً، فتقول له: كذٰلك فَعَل اللّٰه بك! فابتاعها أبو بكر فأعتقها.

واعتق النهديّة وبنتها، وأُمّ عُبيس وزُنّيرة، وأُصيب بصرها حين اعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرَها إلّا اللات والعُزّىٰ، فقالت: كذَبوا وبيتِ اللّٰه ما تضرُّ اللات والعُزّىٰ وما تنفعان، فردّ اللّٰه بصرها.

وأعتق عامر بن فُهيرة وشهد بدراً وأُحداً وقُتل شهيداً يوم بئر معونة.

ومرّ ببلال بن رباح، وكان أُميّة بن خلف الجُمَحي يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه علىٰ ظهره في بطحاء مكّة، ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره، ويقول له: لا تزال هٰكذا حتّىٰ تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللات والعُزّىٰ! فيقول وهو في ذٰلك البلاء: أحد أحد. وكان دار أبي بكر في بني جُمح، فمرّ به وهم يصنعون به ذٰلك، فقال لأُميّة بن خلف: ألا تتقي اللّٰه في هٰذا المسكين؟ حتّىٰ متىٰ! قال: أنت الّذي أفسدته فأنقذه ممّا ترىٰ. فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه

---

(١) انظر رجال الكشي: ٣٠.

(٢) ولعل هذا كان بعد تصويب القرآن والرسول لتقية عمار بن ياسر، كما سيأتي.

وأقوىٰ، علىٰ دينك، أُعطيكه به. قال: قد قبلت. فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر عنه غلامه وأخذه فأعتقه[١].

وقال اليعقوبي: وأسلم خلق عظيم وظهر أمرهم وكثرت عدتهم وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين؛ فأخذت قريش من استضعفت منهم الىٰ الرجوع عن الاسلام والشتم لرسول اللّٰه، فكان ممّن يعذّب في اللّٰه: عمّار بن ياسر وياسر أبوه وسُمية أمّه... وخبّاب بن الأرت، وصُهيبُ بن سنان، وابو فكَيهة الأزدي، وعامر بن فهيرة، وبلال بن رباح واشتد علىٰ القوم العذاب ونالهم منه أمر عظيم، فرجع عن الأسلام خمسة نفر، منهم: أبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس الفاكه بن المغيرة[٢].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٣٩ـ ٣٤٣ بتصرف. هٰذا وقد روىٰ الإسكافي في نقض العثمانية عن ابن اسحاق والواقدي أن عامر بن فُهيرَة وبلالاً اعتقهما رسول اللّٰه، كما في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٧٣. ولذٰلك عدّ ابن شهر آشوب بلالاً من موالي النبي ﷺ ج ١ : ١٧١. وقال ابن هشام في عامر بن فُهيرة : أنّه كان أسود من مولدي الأسد ١ : ٢٧٧. ومعنىٰ ما رواه ابن اسحاق هو أن أبا بكر لم يكن من المستضعفين فلم يعذَّب في اللّٰه، بل اطلق واعتق عدداً منهم. ولكن ابن هشام ذكر أن نوفل بن خويلد بن أسد (ابن عم خديجة، وهل هو أبو ورقة بن نوفل ؟!) وكان من شياطين قريش، قرن بين أبي بكر وطلحة بن عبد اللّٰه في حبل، فبذٰلك كانا يسمّيان : القرينين، كما في سيرة ابن هشام ١ : ٣٠١. وأضاف الجاحظ في العثمانية قال : ضربه نوفل بن خويلد مرتين حتىٰ أدماه، وشدّه مع طلحة بن عبيد اللّٰه في قَرَن. وجعلهما في الهاجرة عُمير بن عثمان، ولذٰلك كانا يُدعيان القرينين، كما في العثمانية : ٢٨ وعنها في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٣. وردّ عليه الإسكافي في نقض العثمانية فقال : انتم في أبكر بين أمرين : تارة تجعلونه رئيساً متّبعاً وكبيراً مُطاعاً، وتارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً وهجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً؛ فإنّا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلّا بعبد أو عسيف (الأجير) أو لمن لا عشيرة له تمنعه. كما في شرح النهج للمعتزلي ١٣ : ٢٥٥.

(٢) اليعقوبي ٢ : ٢٨.

الفصل السادس

الهجرة الأُولىٰ

الهجرة الىٰ الحبشة:

قال ابن اسحاق: فلمّا رأىٰ رسول اللّٰه ـصلّىٰ اللّٰـه عـليه [وآله] وسـلّم ـ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من اللّٰه ومن عـمه أبي طالب، وأنّه لا يقدر علىٰ أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم الىٰ أرض الحبشة، فانّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتّىٰ يجعلَ اللّٰه لكم فرجاً ممّا أنتم فيه.

فخرج عند ذٰلـك المسلمون من أصحاب رسول اللّٰـه الىٰ أرض الحـبشـة، مخافة الفتنة، وفِراراً الىٰ اللّٰه بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام.

وكـان أوّل من خرج من المسلمين: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ومعه امرأته أُم سلمة بنت أبي أُميّة بن المغيرة المخزومي.

وعثمان بن عَفّان بن أبي العاص بن أُميّة، ومعه امرأته رقيّة بنت رسول اللّٰه.

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو، ووَلدت له بأرض الحبشة محمّد بن أبي حذيفة.

وعامر بن ربيعة العدوي، ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حَثْمَة العدوي.

والزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد.

ومُصعب بن عمير، من بني عبد الدار.

وعبد الرحمن بن عوف الزُهْري.

وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم العامري.

وسهيل بن وهب الفهري.

وعثمان بن مظعون الجُمحي[١] وكان عليهم عثمان بن مظعون، في قول ابن هشام[٢] وروىٰ الواقدي: أنّ الّذين هاجروا الهجرة الاولىٰ خرجوا متسلّلين سرّاً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتّىٰ انتهوا الىٰ الشُعيبة، منهم الراكب ومنهم الماشي، ووفق اللّٰه للمسلمين ـ ساعة جاؤوا ـ سفينتين للتّجار حملوهم فيها الىٰ أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرَجُهم في: رجب في السنة الخامسة من حين نُبّيء رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وخرجت قريش في آثارهم حتّىٰ جاؤوا البحر، حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً[٣].

وقال اليعقوبي: لمّا رأىٰ رسول اللّٰه ما فيه أصحابه من الجُهد والعذاب وما هو فيه من الأمن بمنع أبي طالب عمّه اياه، قال لهم: ارحلوا مهاجرين الىٰ أرض الحبشة الىٰ النجاشي، فإنّه يُحسن الجوار.

فخرج في المرة الأُولىٰ: اثنا عشر رجلاً.

وفي المرة الثانية: سبعون رجلاً، سوىٰ أبنائهم ونسائهم.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١: ٣٤٤، ٣٤٥ وزاد الواقدي: عبد اللّٰه بن مسعود كما في الطبقات ١: ٢٠٤ وعنه في الطبري ٢: ٣٣٠.

(٢) سيرة ابن هشام ١: ٣٤٥ منه.

(٣) طبقات ابن سعد ١: ٢٠٤ وعنه في الطبري ٢: ٣٢٩.

وكان لهم عند النجاشي منزلة[1].

وقد مرّ خبر ابن اسحاق وقد وصف رحلة من عدّهم مع عثمان بن مظعون الىٰ الحبشة بالهجرة الأُولىٰ، ولكنّه بعد عدّهم قال: «ثمّ خرج جعفر ابن أبي طالب عليه السلام وتتابع المسلمون حتّىٰ اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه» ثمّ أخذ في عدّهم وأنسابهم، فعدّ من بني هاشم رجلاً واحداً هو: جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخَثْعمية، ووَلدت له بأرض الحبشة عبد اللّٰه بن جعفر. ثمّ عدّ من بني أُميّة وحلفائهم سبعة نفر، فعدّ أولهم: عثمان بن عَفان ومعه رقية ابنة رسول اللّٰه، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعهما نساؤهما. ومن حلفائهم: عبد اللّٰه بن جَحْش وأخوه عبيد اللّٰه (وهو الّذي تنصّر في الحبشة) معه امرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وقيس بن عبد اللّٰه ومعه امرأته بَرَكة مولاة أبي سفيان.

ثمّ عدّ من بني نوفل رجلاً، ومن بني عبد بن قصي رجلاً، ومن بني عبد شمس رجلين، ومن بني أسد من قريش أربعة نفر منهم الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد، ويزيد بن زمعة ابن الأسود بن المطّلب بن أسد (وزمعة أو أبوه الأسود احد المستهزئين الستة).ومن بني عبد الدار خمسة نفر منهم: مصعب بن عمير. ومن بني زهرة وحلفائهم من بَهراء وهُذيل ستة نفر منهم: عبد الرحمٰن بن عوف، وأبو وقاص وابنه عامر، وعبد اللّٰه بن مسعود وأخوه عتبة، والمقداد بن عمرو من قُضاعة، وكان قد تبنّاه في الجاهلية الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة، فكان يقال له: المقداد بن الأسود. ومن بني تيم رجلين.

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٢٩.

ومن بني مخزوم وحلفائهم ثمانية نفر منهم: أبو سلمة عبد اللّٰه بن عبد الأسد ومعه امرأته أُمّ سلمة هند بنت أبي أُميّة بن المغيرة المخزومي، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة، وعيّاش بن أبي ربيعة بن المغيرة. وسلمة بن هشام. ومن بني جُمح أربعة عشر رجلاً منهم: عثمان بن مظعون، وابنه السائب بن عثمان، وأخواه قدامة بن مظعون، وعبد اللّٰه بن مظعون، ومن بني سهم أربعة عشر رجلاً. ومن بني عدي خمسة نفر. ومن بني عامر ثمانية نفر. ومن بني الحارث بن فهر ثمانية نفر منهم: أبو عبيدة عامر بن عبد اللّٰه بن الجرّاح.

ثمّ قال ابن اسحاق: فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين ـ سوىٰ أبنائهم الّذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ـ ثلاثة وثمانين رجلاً، إنْ كان عمّار بن ياسر فيهم، وهو يشك فيه[1].

إذن فهو في هٰذا العدّ يعدّد أهل الهجرة الثانية الىٰ الحبشة وعليهم جعفر بن أبي طالب، ولعلّه في عدده ـ ثلاثة وثمانين رجلاً ـ قد جمع أهل الهجرة الأُولىٰ مع الثانية، بينما اليعقوبي جرّد أعداد الهجرة الثانية فقط فقال بالسبعين، أو باستثناء النساء والأطفال كما قال.

وكذٰلك فعل القمي في تفسيره إذ قال: لمّا اشتدّت قريش في أذىٰ رسول اللّٰه وأصحابه أمرهم رسول اللّٰه أنْ يخرجوا الىٰ الحبشة، وأمر جعفر ابن أبي طالب أنْ يخرج معهم، فخرج جعفر وخرج معه سبعون رجلاً من المسلمين حتّىٰ ركبوا البحر[2].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٤٥ـ ٣٥٣ ونقله الطبري بعبارة: وقال آخرون. وذكر العدد: اثنين وثمانين، الطبري ٢ : ٣٣٠ ورواه عن محمّد بن اسحاق كذٰلك ٢ : ٣٣١.

(٢) تفسير القمي ١ : ١٧٦.

كتاب النبيّ الىٰ النجاشي:

وهنا روىٰ الطبْرسي في «إعلام الورىٰ» عن الحافظ الحسكاني عن ابن اسحاق، والطبري عن ابن اسحاق أيضاً قال: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُميّة الضَمْري الىٰ النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً» ثمّ ذكر صورة الكتاب، وجواب النجاشي[1].

ولا يوجد الخبر في سيرة ابن هشام، وظاهر الطبْرسي أنّ هٰذا الكتاب كان من مكّة حين خرج عمرو بن العاص مع عُمارة بن الوليد الىٰ الحبشة، حسب خبر الطبْرسي نفسه، ومع عبد الله بن أبي ربيعة حسب خبر ابن اسحاق عن أُمّ سلمة كما يأتي وفي الكتاب أمر بإكرام جعفر وأصحابه وقِراهم، فالمناسب أن يكون في بداية الهجرة مع جعفر، أو مع خروج عمرو بن العاص الىٰ الحبشة سفيراً من قبل معاندي مكّة لايذاء جعفر وأصحابه.

ويظهر من الحلبي في السيرة: أنّ عمرو بن العاص خرج الىٰ الحبشة بعد غزوة بدر وأنّ رسول الله لمّا بلغه ذٰلك بعث عمرو بن أُميّة الىٰ النجاشي بكتاب يوصي فيه بالمسلمين، قال: «لمّا أوقع الله بالمشركين يوم بدر ورجعوا خائبين قالوا: إنّ ثارنا بأرض الحبشة، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة الىٰ النجاشي ليدفع اليهما مَن عنده من المسلمين، فلمّا بلغ ذٰلك رسول الله بعث الىٰ النجاشي عمرو بن أُميّة الضَمْري بكتاب يوصي فيه بالمسلمين»[2].

واتفقوا علىٰ أنّ الرسول الىٰ النجاشي هو عمرو بن أُميّة الضَمْري، ولكنّهم اختلفوا في إسلامه: ففي «أُسد الغابة» عن أبي نُعيم: أنّه أسلم قديماً وهاجر الىٰ

---

(١) إعلام الورىٰ ١: ١١٨، ١١٩ وفي مستدرك الحاكم ٢: ٦٢٣، ٦٢٤ والطبري ٢: ٦٥٢، ٦٥٣.

(٢) سيرة الحلبي ٣: ٢١٢. وانظر: مكاتيب الرسول ١: ١٢٠ ـ ١٣٠.

الحبشة، ثمّ هاجر الىٰ المدينة وأوّل مشاهده بئر معونة[١] وعليه فلا اشكال لا في حمله الكتاب الأوّل ولا في حمله الكتاب الثاني بعد صلح الحديبية وقبل خيبر في تجهيز المسلمين من الحبشة الىٰ المدينة. ولكن في «الاستيعاب» و«الاصابة» عن ابن سعد[٢]: أنّه شهد بدراً واُحداً مع المشركين، وأسلم بعد اُحد. وعليه فلم يكن وقتئذٍ مسلماً، فلا يصح حمله الكتاب الأوّل حتّىٰ بعد بدر بناءً علىٰ خبر الحلبي بإرسال المشركين لعمرو ابن العاص الىٰ الحبشة بعد بدر. ولذا فقد أورد الحلبي علىٰ نفسه بذٰلك، وفي الجواب رجّح خبر إرسال المشركين لعمرو الىٰ الحبشة بعد الأحزاب، في السنة الخامسة للهجرة.

وقد روىٰ الخبر هٰذا ابن اسحاق في السيرة بسنده الىٰ عمرو بن العاص نفسه قال: لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منّي، فقلت لهم: تعلمون ـ واللّٰه ـ انّي أرىٰ أمر محمّد يَعلو الاُمور علوّاً منكراً، وانّي قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أنْ نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمّد علىٰ قومنا كنّا عند النجاشي، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبّ الينا من أن نكون تحت يدي محمّد، وإنْ ظهر قومُنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم اِلّا خير. قالوا: اِنّ هٰذا الرأي. قلت: فاجمعوا لنا ما نُهدي له. وكان أحبّ ما يُهدىٰ اليه من أرضنا الأَدم. فجمعنا له أَدَماً كثيراً، ثمّ خرجنا حتّىٰ قدمنا عليه.

فواللّٰه إنّا لعنده إذ جاءه عمرو بن اُميّة الضَمْري ـ وكان رسول اللّٰه قد بعثه اليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه وخرج من عنده ـ فقلت لأصحابي: هٰذا

---

(١) اُسد الغابة ١: ٦١، ٩٩.

(٢) الطبقات ١: ٢٥٨.

عمرو بن أُميّة الضَمْري، لو قد دخلت علىٰ النجاشي وسألته إيّاه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذٰلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمّد.

فدخلت عليه فسجدت له ـ كما كنت أصنع ـ فقال: مرحباً بصديقي؛ أهديت إليّ من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت اليك أَدَماً كثيراً، ثمّ قرّبته اليه، فأعجبه. ثمّ قلت له: أيّها الملك، انّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنّه قد أصابَ من أشرافنا وخيارنا.

قال: فغضب ثمّ مدّ يده فضرب بها أنفي ضربةً ظننت أنّه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقًا منه. فقلت له: واللّٰه لو ظننت أنّك تكره هٰذا ما سألتكه. قال: أتسألني أن أُعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الّذي كان يأتي موسىٰ لتقتله! قلت: أيّها الملك، أكذٰلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتّبعه، فإنّه واللّٰه لعلىٰ الحق، وليظهرنّ علىٰ من خالفه كما ظهر موسىٰ علىٰ فرعون وجنوده... فخرجت الىٰ أصحابي وقد حال رأيي عمّا كان عليه.

ثمّ خرجت عامداً الىٰ رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فلقيت خالدَ بن الوليد وذٰلك قُبيل الفتح... فقدمنا المدينة علىٰ رسول اللّٰه(١).

هٰذا وقد قال من قبل: «لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق» ثمّ خرجنا فقدمنا عليه، فواللّٰه إنّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أُميّة الضَمْري، وكان رسول اللّٰه قد بعثه اليه في شأن جعفر وأصحابه».

انّ ارسال رسول اللّٰه لعمرو بن أُميّة الىٰ النجاشي في شأن جعفر وأصحابه إمّا كان في بداية هجرتهم لطلب ايوائهم وحمايتهم والارفاق بهم، أو في نهايتها في تجهيز المسلمين الىٰ المدينة في السنة السابعة قبل خيبر. فرحلة عمرو بن العاص هٰذه إمّا كانت بعد الأحزاب فى أواخر السنة الخامسة، لأن غزوة الأحزاب كانت في شوال

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٣: ٢٨٩، ٢٩٠ بتلخيص آخر الخبر.

سنة خمس من الهجرة، أو كانت رحلته في أوائل السادسة، وبعد عام في أوائل السابعة ورد عليهم عمرو بن أُميّة حاملاً كتابَ النبيّ الىٰ النجاشي، حينما كتب الىٰ الملوك والرؤساء.

وهنا تختلف نسخ الكتاب: فأكثر نسخ الكتاب يشتمل علىٰ الوصية بجعفر وأصحابه، وبعضها خلو عنها: «كصبح الأعشى»[1] للقلقشندي (ت ٨٢١) و«المواهب اللدنية في السيرة النبوية»[2] للقسطلاني (ت ٩٢٣) و«انسان العيون في سيرة الأمين المأمون»[3] المعروف بالسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤) وهٰذا ما تأيّد به البروفيسور حميد اللّٰه المستوفي في كتابه القيّم «الوثائق السياسية» فقال: «وممّا يجدر ذكره أن الحلبي والقسطلاني والقلقشندي لا يذكرون عبارة: وقد بعثت اليك ابن عمي...» في متن المكتوب، وهي لا توجد في متن المَكْتوب الّذي اكتشف حديثاً... فنظن: أنّ رسول اللّٰه ﷺ قد اعطىٰ ابن عمه جعفراً كتاباً الىٰ النجاشي وقت هجرته الىٰ الحبشة...»[4].

بينما سائر المصادر تذكر هٰذه العبارة، وكلها بما فيها هٰذه الثلاثة تذكر جواب النجاشي الىٰ النبي ﷺ وفيه: «وقد عرفنا ما بعثت به الينا، وقد قَرَيْنا ابن عمك وأصحابه، وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك واسلمت علىٰ يديه للّٰه رب العالمين»[5].

---

(١) صبح الأعشىٰ في صناعة الانشاء ٦ : ٣٧٩.

(٢) المواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣ : ٣٧٩.

(٣) السيرة الحلبية ٣ : ٢٧٩.

(٤) الوثائق السياسية : ٤٦ ـ ٤٨ رقم ٢٣.

(٥) الطبري ٢ : ٦٥٢، ٦٥٣ واعلام الورىٰ : ٤٥، ٤٦ والكامل ٢ : ٦٣ واسد الغابة ١ : ٦٢ والبداية ٣ : ٨٤ وزاد المعاد ٣ : ٦١ وصبح الأعشىٰ ٦ : ٤٦٦ والسيرة الحلبية وزيني دحلان وإعلام السائلين.

ثمّ الكتاب خلو عن تجهيز المسلمين من الحبشة اليه الىٰ المدينة، كما هو خلو عن خطبته لأُمّ حبيبة ابنة أبي سفيان بواسطة النجاشي، بينما من المستبعد جـدّاً أن يكون كلا الأمرين متأخرين عن عهد هٰذه الرسالة.

ولعلّ الجواب الصحيح هو ما رواه الطبري عن الواقدي قال: أرسل رسولُ اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ الىٰ النجاشي ليزوّجه أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، ويبعث بها اليه مع مَن عنده من المسلمين[1] من دون ذكر كتاب في ذٰلك.

ولم يذكر الواقدي ولا الطبري اسم الرسول بهٰذه الرسالة الشفوية ولا ألفاظها، ولكن ابن سعد ذكر أن الرسول هو عمرو بن أُميّة نفسه وذكر شطراً من رسالته الشفوية الىٰ النجاشي ولكن من دون ذكر خطبة النبيّ لأُمّ حبيبة ولا طلب تجهيز المسلمين اليه الىٰ المدينة، قال:

قال عمرو بن أُميّة: يا أصحمة! (كذا) إنّ عليّ القول وعليك الاستماع! إنّك كأنّك في الرقة علينا منّا، وكأنّا في الثقة بك منك، لأنّا لم نظنّ بك خيراً قطّ إلّا نلناه ولم نخفك علىٰ شرّ قط إلّا أمنّاه، وقد أخذنا الحجة عليك من قِبل آدم، والانجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرد وقاضٍ لا يجور [فأسلم] وفي ذٰلك موقع الخير واصابة الفضل، وإلّا فأنت في هٰذا النبيّ الأُميّ كاليهود في عيسىٰ بن مريم، وقد فرّق رسله الىٰ الناس، فرجاك لِما لم يرجهم له، وأمّنك علىٰ ما خافهم عليه، لخير سالف وأجر يُنتظر.

فقال النجاشي: أشهدُ باللّٰه أنّه النبيّ الّذي ينتظره أهل الكتاب، وأنّ بشارة موسىٰ براكب الحمار كبشارة عيسىٰ براكب الجمل، وانّه ليس الخبر كالعيان، ولكن أعواني من الحبشة قليل، فأنظرني حتّىٰ أُكثّر الأعوان وأُليّن القلوب، ولو استطيع أن آتيه لأتيته[2].

---

(١) الطبري ٢: ٦٥٣.

(٢) الطبقات ١: ٢٥٩ وعنه في سيرة الحلبي ٣: ٢٧٩ وزيني دحلان بهامش سيرة الحلبي ٣: ٦٧.

ولنعد الآن الىٰ ذكر نصّ كتاب النبيّ الىٰ النجاشي بالروايتين: الخالية عن ذكر جعفر والّتي فيها ذكره، علىٰ التوالي:

«بسم اللّٰه الرّحمٰن الرّحيم، من محمّد رسول اللّٰه الىٰ النجاشي عظيم الحبشة، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أمّا بعد: فإنّي أحمد اليك اللّٰه الّذي لا الٰه إلّا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهدُ أنّ عيسىٰ بن مريم روح اللّٰه وكلمته ألقاها الىٰ مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسىٰ من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده.

وانّي أدعوك الىٰ اللّٰه وحده لا شريك له، والموالاة علىٰ طاعته، وأن تتّبعني وتوقن بالّذي جاءني، فإنّي رسول اللّٰه، وانّي أدعوك وجنودك الىٰ اللّٰه عزّوجلّ.

وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي. والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ»[1].

«بسم اللّٰه الرّحمٰن الرّحيم، من محمّد رسول اللّٰه الىٰ النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإنّي أحمدُ اليك اللّٰه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسىٰ بن مريم روح اللّٰه وكلمته، ألقاها الىٰ مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسىٰ فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه.

وانّي أدعوك الىٰ اللّٰه وحده لا شريك له، والموالاة علىٰ طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالّذي جائني فإنّي رسولُ اللّٰه، وقد بعثت اليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر يمن المسلمين، فإذا جاؤوك فاقِرهم ودع التجبّر. وانّي أدعوك وجنودك الىٰ اللّٰه عزّوجلّ.

---

(١) صبح الأعشىٰ ٦: ٣٧٩. والمواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣: ٣٧٩. والسيرة الحلبية ٣: ٢٧٩.

وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصحي. والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ»[١].

فلمّا وصل الكتاب الىٰ النجاشي أخذه ووضعه علىٰ عينيه ونزل عن سريره وجلس علىٰ الأرض إجلالاً واعظاماً، ثمّ اسلم ودعا بحُقّ من عاج وجعل فيه الكتاب[٢].

ثمّ أحضر جعفراً وأصحابه وأسلم علىٰ يدي جعفر وكتب بذٰلك الىٰ رسول اللّٰه: «بسم اللّٰه الرّحمٰن الرّحيم، الىٰ محمّد رسول اللّٰه، من النجاشي: الأصحم بن أبْجَر، سلام عليك يا نبيّ اللّٰه ورحمة اللّٰه وبركاته، من اللّٰه الّذي لا إلٰه اِلّا هو، الّذي هداني الىٰ الإسلام.

أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابك ـ يا رسولَ اللّٰه ـ فيما ذكرت من أمر عيسىٰ، فوَرَبِّ السماء والأرض إنّ عيسىٰ ما يزيد علىٰ ما ذكرت تُفْروقاً[٣] إنّه كما قلت. وقد عَرَفنا ما بُعثتَ به الينا، وقد قَرَينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنّك رسول اللّٰه صادقاً مصدَّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت علىٰ يديه للّٰه ربّ العالمين.

---

(١) أقدم من نقله عن ابن اسحاق: الطبري ٢: ٦٥٢ ثمّ الحاكم الحسكاني في المستدرك ٢: ٦٢٤. ثمّ الطبْرسي في إعلام الورىٰ: ٤٥. ثمّ ابن الأثير في اسد الغابة ١: ٦٢ والكامل ٢: ٦٣. وروىٰ الرسالة ابن كثير في البداية ٣: ٨٤ وابن القيم في زاد المعاد ٣: ٦١ وأشار ابن سعد في الطبقات ١: ٢٥٨ ورواها المستوفي في الوثائق السياسية: ٤٦ عن مصادر منها اعلام السائلين لابن طولون. وبحث حولها المحقق الأحمدي في مكاتيب الرسول ١: ١٢١ ـ ١٣١.

(٢) مكاتيب الرسول ١: ١٢٨ عن الطبقات والسيرة الحلبية وزيني دحلان بهامش الحلبية ٣: ٦٧.

(٣) التُفْروق: قمع التمر، ويكنىٰ به عن قلة الشيء، يقال: ماله تفروق، أي ليس له شيء.

وقد بعثت اليك بابني أزها ابن الأصحم بن أبْجر[١]، فإنّي لا أملك إلّا نفسي، وإن شئتَ أن آتيكَ فعلتُ يا رسول الله، فإنّي أشهد أنّ ما تقول حقّ، والسلام عليك يا رسول الله»[٢].

هٰذه هي اجابة النجاشي علىٰ كتاب النبيّ اليه في دعوته الىٰ الإسلام ضمن كتبه الىٰ الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية وقبل خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، علىٰ ما يبدو من فحوىٰ الرسالة، كما في كلّ المصادر التأريخية تقريباً، ومن المستبعد أن يكون كتاب النبيّ ﷺ اليه وهٰذا الجواب من النجاشي عليه متزامناً مع بداية هجرة الحبشة كما يبدو هٰذا من الطبْرسي في «إعلام الورىٰ» عن الحاكم الحسكاني[٣].

ولنا عود على البحث في إرسال رُسله بكتبه إلى الملوك والرؤساء.

---

(١) في الروض الانف: أن علياً وجد أبا نيزر ابن النجاشي عند تاجر بمكّة فاشتراه منه واعتقه مكافأة لمّا صنع أبوه بالمسلمين. ويقال: إنّ الحبشة ارسلوا وفداً منهم الىٰ أبي نيزر بعد أبيه النجاشي ليملّكوه فأبىٰ عليهم وقال: ما كنت لاطلب الملك بعد أن منّ اللّٰه عليّ بالاسلام. ولم يكن لونه لون الحبشة بل كان حسن الوجه طويلاً.

(٢) الطبري ٢: ٦٥٣ عن ابن اسحاق، وعنه في المستدرك ٢: ٦٢٤ وعنه في إعلام الورىٰ: ٤٦ وأُسد الغابة ١: ٦٢ والكامل ٢: ٦٣ والبداية ٣: ٨٤ وزاد المعاد ٣: ٦١ وصبح الاعشىٰ ٦: ٣٧٩ والمواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٣: ٣٧٩ والسيرة الحلبية ٣: ٢٧٩ وسيرة زيني دحلان بهامش الحلبية ٣: ٦٧. ومجموعة الوثائق السياسية: ٤٦، ومكاتيب الرسول ١: ١٢١ ـ ١٣١. ومن الغريب مع كل هٰذه المصادر تشكيك السيد الحسني في سيرته في صحة رواية اسلام النجاشي بعد أن نقل رواية الرسالة عن البداية لابن كثير، سيرة المصطفىٰ: ١٨٣، ١٨٤.

(٣) وقد تزامن مع هٰذا الكتاب والجواب أمران آخران هما: خطبة النبيّ لأُمّ حبيبة بواسطة ←

وفد قريش الىٰ النجاشي:

في تفسير القميّ قال: لمّا اشتدّت قريش في أذىٰ رسول الله وأصحابه الّذين آمنوا به بمكّة قبل الهجرة، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا الىٰ الحبشة، وأمر جعفر بن أبي طالب أنْ يخرج معهم.

فخرج جعفر، ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتّىٰ ركبوا البحر.

← النجاشي، وتجهيزه المسلمين من الحبشة اليه الىٰ المدينة، وكتاب النبيّ ﷺ خلو منهما بروايتيه، وقد مرّ تقريب أن يكون ذٰلك برسالة شفوية مع حامل الكتاب عمرو بن أُميّة الضَّمْري، ولم يُروَ كتاب آخر في ذٰلك، ومن المستبعد ذٰلك أيضاً.

وتفرّد من بين المصادر مصدران نقلا جوابين آخرين للنجاشي علىٰ كتابين آخرين للنبيّ ﷺ في الأمرين، هما «سواطع الأنوار» و«الطراز المنقوش»: أنّ النجاشي كتب اليه في جواب كتابه في تزويج أُمّ حبيبة:

«بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، الىٰ محمّد ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ من النجاشي أصحمة (كذا) سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته. أمّا بعد؛ فإنّي قد زوّجتك امرأة من قومك وعلىٰ دينك، وهي السيدة أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هدية جامعة: قميصاً وسراويل وعطافاً وخُفّين ساذجين. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وكتب اليه ﷺ في جواب كتابه ﷺ في تجهيز المسلمين الىٰ المدينة:

«بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، الىٰ محمّد ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ من النجاشي أصحمة (كذا) سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلّا الّذي هداني للإسلام، أمّا بعد فقد ارسلت اليك ـ يا رسول الله ـ من كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكّة الىٰ بلادي، وها أنا ارسلت اليك ابني اريحا (كذا) في ستين رجلاً من أهل الحبشة، وان شئتَ أتيتك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإنّي أشهد أنّ ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته» كما في الوثائق السياسية: ٤٨ عن الباب الأوّل من الطراز المنقوش وسواطع الأنوار: ٨١.

فلمّا بلغ قريش خروجهم بعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد الىٰ النجاشي، ليردّوهم اليهم، وكان عمرو وعُمارة متعاديين... فبرئت بنو مخزوم من جناية عُمارة، وبرئت بنو سهم من جناية عمرو بن العاص[١].

فوردوا علىٰ النجاشي، وكانوا قد حملوا اليه هدايا فقبلها منهم.

ثمّ قال عمرو بن العاص: أيّها الملك، إنّ قوماً منّا خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وصاروا اليك، فردّهم الينا.

فبعث النجاشي الىٰ جعفر فجاؤوا به.

فقال له: يا جعفر، ما يقول هٰؤلاء؟ قال جعفر: أيّها الملك وما يقولون؟ قال: يسألون أنْ أردّكم اليهم. قال: أيّها الملك، سَلْهم: أعبيد نحن لهم؟ فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام. قال: فسلْهم: ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال: لا، مالنا عليكم ديون. قال: فلكم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟ قال عمرو: لا. قال: فما تريدون منّا؟! آذيتمونا فخرجنا من بلادكم.

فقال عمرو بن العاص: أيّها الملك خالَفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرّقوا جماعتنا، فردّهم الينا لنجمع أمرنا.

فقال جعفر: نعم أيّها الملك، خالفناهم بأنّه بعث اللّٰه فينا نبيّاً أمر بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام[٢]، وحرّم

---

(١) فلمّا ركبوا السفينة شربوا الخمر، فقال عُمارة لعمرو بن العاص ـ وكان قد اخرج معه أهله ـ قل لأهلك تقبّلني، فقال عمرو: لا يجوز هٰذا! فسكت عُمارة، ولمّا انتشىٰ عمرو ـ وكان علىٰ صدر السفينة ـ دفعه عُمارة والقاه في البحر، فتشبّث عمرو بصدر السفينة وأدركوه فأخرجوه.

(٢) وردت الزكاة في السور المكية منها في المزمّل في قوله سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقرِضُوا اللهَ قَرضاً حَسَناً ﴾ (المزمل: ٢٠) وهي السورة الثالثة أو الرابعة، وفي سورة الأعراف قوله سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ←

الظلم والجور، وسفك الدماء بغير حقها، والزنا، والربا، والميتة والدم[1] وأمرنا بالعدل والاحسان، وإيتاء ذي القربىٰ، وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي.

فقال النجاشي: بهٰذا بعث الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام! ثمّ قال: يا جعفر، هل تحفظ ممّا أنزل الله علىٰ نبيّك شيئاً؟ قال: نعم، ثمّ قرأ عليه «سورة مريم» فلمّا بلغ الىٰ قوله: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾.

⟵(الأعراف: ١٥٦) وهي السورة التاسعة والثلاثون أو الأربعون في النزول، فهي قبل سورة مريم الرابعة والأربعين الّتي تلا منها جعفر علىٰ النجاشي. نعم يُدّعىٰ أنّها آيات مدنيات في سور مكية، لأن تشريع الزكاة لم يكن في مكّة قبل الهجرة بل في المدينة بعد الهجرة ببضع سنين ولكن لا ملازمة بين التسليم بتشريع الزكاة في المدينة وبين قبول هٰذه الدعوىٰ بكون الآيات مدنية في سور مكية، إلّا اذا سلّمنا بأن الزكاة في هٰذه الآيات بمعنىٰ الزكاة المفروضة دون المندوبة، ولنا مندوحة عن قبول ذٰلك بترجيح تفسير الزكاة في هٰذه الآيات بالزكاة بالمعنىٰ اللغوي العام أي الصدقات المستحبة المندوب اليها. وبذٰلك نتوسع في معنىٰ الأمر في كلام جعفر بما يعم الندب أيضاً. وبهٰذا نتفصّىٰ عن الاشكال بورود الزكاة في كلام جعفر.

ولكن لا مناص عن اشكال ورود الصيام في كلامه أيضاً ـ على رواية أمّ سلمة الآتية ـ إلّا ان ذٰلك لا يقودنا الىٰ القول بأن الرواية موضوعة كما ذهب اليه أحمد أمين في فجر الإسلام: ٧٦، كما لا يقودنا ذٰلك الىٰ الالتزام بأن الصيام قد شرع في مكّة قبل الهجرة أي قبل نزول آيتها في السنة الثانية بعد الهجرة ضمن آيات سورة البقرة. بل نحتمل السهو في حديث أم سلمة أو أحد الرواة، أو أن يكون ذٰلك مرجّحاً لكون هٰذه المناظرة بعد وقعة الأحزاب أو بعد بدر كما رواه الحلبي في سيرته كما مرّ، ولكن يلازم ذٰلك أن نلتزم بأن التشريعات الجديدة كانت تصلهم في الحبشة كيفما كان، وليس ذٰلك ببعيد.

(١) ان أوّل ما نزل من القرآن في تحريم الميتة في الآية: ١٢١ من سورة الأنعام، وهي السورة ٥٥ في ترتيب النزول، فيحتمل أن تكون الهجرة بعدها، ولا نجزم به اذ فيها: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وقبلنا فيه بقول الطبْرسي بأن المراد به بيان النبيّ لا القرآن.

فلمّا سمع النجاشي بهٰذا بكىٰ بكاءً شديداً وقال : هٰذا والله هو الحقّ.

فقال عمرو بن العاص : أيها الملك ، اِنّ هٰذا مخالفنا فردّه الينا .

فرفع النجاشي يده فضرب بها وجه عمرو ، ثمّ قال : اسكت ، والله ـ يا هٰذا ـ لئن ذكرته بسوء لافقدنك نفسك !

فقام عمرو بن العاص من عنده والدماء تسيل علىٰ وجهه ، وهو يقول : اِنْ كان هٰذا كما تقول ـ أيها الملك ـ فإنّا لا نتعرض له .

ورجع عمرو الىٰ قريش فأخبرهم أنّ جعفراً في أرض الحبشة في اكرم كرامة(١).

وروىٰ ابن اسحاق بسنده عن زوج رسول الله أُمّ سلمة هند ابنة أبي أُميّة بن المغيرة المخزومي أنّها قالت : لمّا نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها النجاشي خير جار : أمنّا علىٰ ديننا وعبدنا الله تعالىٰ لانؤذىٰ ولا نسمع شيئاً نكرهه .

---

(١) وكانت علىٰ رأس النجاشي وصيفة له تذب عنه ، فنظرتْ الىٰ عمارة بن الوليد ، فلمّا رجع عمرو بن العاص الىٰ منزله قال لعمارة : لو راسلت جارية الملك ، فراسلها فأجابته ، فقال له عمرو : قل لها : تبعث اليك من طيب الملك شيئاً . فقال لها ، فبعثت اليه ، فأخذ عمرو من ذٰلك الطيب ، فادخل عمرو الطيب علىٰ النجاشي وقال : أيّها الملك ان حرمة الملك عندنا وطاعته علينا وما يكرمنا اذا دخلنا بلاده ونأمن فيه : أن لا نغشه ولا نريبه ، وان صاحبي هٰذا الّذي معي قد أرسل الىٰ حرمتك وخدَعَها فبعثت اليه من طيبك . ثمّ وضع الطيب بين يديه فغضب النجاشي وهمّ بقتل عمارة ، ثمّ قال : لا يجوز قتله فانهم دخلوا بلادي فلهم أمان ، ثمّ دعا السحرة فقال لهم : اعملوا به شيئاً أشد عليه من القتل ، فأخذوه ونفخوا في احليله الزئبق فصار مع الوحش يغدو ويروح ولا يأنس بالناس ، فبعثت قريش بعد ذٰلك فكمنوا له في موضع حتىّ ورد الماء مع الوحش فأخذوه ، فما زال يضطرب في أيديهم ويصيح حتىّ مات ، كما في تفسير القمي ١ : ١٧٦ـ ١٧٨ وعنه في اعلام الورىٰ : ٤٣ ـ ٤٥ بلا إسناد وكذٰلك اليعقوبي ٢ : ٣٠ والإصفهاني عن الواقدي في الأغاني ٨ : ٥٠ .

فلمّا بلغ ذٰلك قريشاً ائتمروا بينهم أنْ يبعثوا الىٰ النجاشي فينا رجلين منهم جَلدَين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا ممّا يُستطرف من متاع مكّة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَم، فجمعوا له أَدَماً كثيراً، فلم يتركوا من بطارقته بطريقاً اِلّا أهدوا له هدية. وبعثوا بذٰلك عبد اللّٰه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم فقالوا لهما: ادفعا الىٰ كلّ بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثمّ قدّما الىٰ النجاشي هداياه، ثمّ سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم.

فخرجا حتّىٰ قدما علىٰ النجاشي... فلم يبقَ من بطارقته بطريق اِلّا دفعا اليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكلّ بطريق منهم: إنّه قد لجأ الىٰ بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين مبتَدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثَنا الىٰ الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم، فاذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسلمَهم الينا ولا يكلّمهم، فان قومهم أعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم.

ثمّ انهما قدّما هداياهما الىٰ النجاشي فقبلها منهما، ثمّ كلّماه فقالا له:

أيّها الملك، انه قد لجأ الىٰ بلدك منّا غِلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا اليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردّهم اليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فقالت بطارقته من حوله: صدقا أيها الملك، فان قومهم اعلم بما عابوا عليهم، فأسلمْهم اليهما فليردّاهم الىٰ بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وقال: لا هااللّٰه، اِذاً لا أسلمهم اليهما، ولا يُكاد لقوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني علىٰ من سواي، حتّىٰ ادعوهم فأسألهم عمّا يقول هٰذان في أمرهم، فان كان كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الىٰ قومهم، وان كانوا علىٰ غير ذٰلك منعتُهم منهما وأحسنت جوارَهم ما جاوروني.

ثمّ أرسل الىٰ أصحاب رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فدعاهم فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا وقال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل اذا جئتموه؟ قالوا: نقول ـ واللّٰه ـ ما علمنا وما أمرَنا به نبيّنا ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ كائناً في ذٰلك ما هو كائن.

فلمّا جاؤوا سألهم النجاشي ـ وقد دعا أساقفته حوله ـ فقال لهم: ما هٰذا الدين الّذي قد فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هٰذه الملل؟

فكان الّذي كلّمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضّعيف؛ فكنّا علىٰ ذٰلك، حتّىٰ بعث اللّٰه الينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافَه، فدعانا الىٰ اللّٰه لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصَنات، وأمرَنا أن نعبد اللّٰه وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة ـ وعدّد عليه أُمور الإسلام ثمّ قال ـ فصدّقناه وآمنّا به، واتّبعناه علىٰ ما جاء به من اللّٰه: فعبدنا اللّٰه وحده فلم نُشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا. فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا من عبادة اللّٰه الىٰ عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث. فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الىٰ بلادك واخترناك علىٰ من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيّها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مِمّا جاء به عن اللّٰه من شيء؟ فقال جعفر: نعم. قال النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ صدراً من ﴿ كهيعص ﴾[1] فبكىٰ ـ واللّٰه ـ النجاشي حتّىٰ اخضلّت لحيته وبكت أساقفته حتّىٰ أخْضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمّ قال النجاشي: إنّ هٰذا والّذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة. ثمّ قال لعمرو وعبد اللّٰه: انطلقا فلا ـ واللّٰه ـ لا أُسلمهم اليكما ولا يكادون. فخرجا من عنده.

وقال عمرو بن العاص: واللّٰه لآتينّه غداً عنهم بما استأصل به خضْراءهم؛ واللّٰه لأُخبرنّه أنّهم يزعمون أن عيسىٰ بن مريم عبدٌ. وكان عبد اللّٰه بن ربيعة أتقىٰ الرجلين فقال: لا أفعل فان لهم أرحاماً.

فغدا عليه عمرو من الغد فقال له: أيّها الملك، إنّهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل اليهم فسَلْهُم عمّا يقولون فيه. فأرسل اليهم ليسألهم عنه.

فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسىٰ بن مريم اذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ـ واللّٰه ـ ما قال اللّٰه وما جاء به نبيّنا، كائناً في ذٰلك ما هو كائن.

فلمّا دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسىٰ بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه بالّذي جاء به نبيّنا ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ: هو عبد اللّٰه ورسوله وروحه وكلمته، ألقاها الىٰ مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده الىٰ الأرض فأخذ منها عوداً ثمّ قال: واللّٰه ما عدا عيسىٰ بن مريم ما قلتَ هٰذا العودَ (أي بمقداره) فتناخرت بطارقته حوله، فقال لهم: وإنْ نخرتم واللّٰه.

---

(١) مريم: ١، وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول.

ثمّ قال للمسلمين: اذهبوا فانتم شيُوم (آمنون) ومن سبّكم غَرِم، من سبّكم غَرِم، وما اُحبّ أن لي دَبَراً (اي جبلاً) من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثمّ قال لرجاله: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها.

فخرجا من عنده مقبوحَين مردوداً عليهما ما جاءا به.

وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[1].

رضي اللّٰه عن اُمّ المؤمنين اُمّ سلمة اذ سلم لنا حديثها هٰذا المسند الوحيد عن هجرة الحبشة ووفد قريش اليها في طلبهم، وهي أحد المهاجرين اليها الأكثر من ثمانين رجلاً وامرأة، ولم يسلم لنا سواه حديث مسند آخر عن أحد سواها من سائر المهاجرين الثمانين. اللهم اِلّا ما نقلناه عن القميّ في تفسيره مرسلاً وبلا اسناد، وما مرّ عن عمرو بن العاص، مع ما بين هٰذه الأخبار الثلاثة من تفاوت بيّن، ولا سيّما بين خبري اُمّ سلمة وعمرو بن العاص، ولا سيّما من جهة عدم اشارته الىٰ أيّ شيء ممّا حدّثت عنه اُمّ سلمة ممّا يتعلق بـه وبلقائه السابق بالنجاشي كوافد من قبل قريش في طلب المهاجرين، بل هويتحدث عن لقائه هٰذا الأخير وكأنّه أوّل لقاء له به فيما يرتبط بالإسلام، وان كان ينقل عنه أنّه قال فيه: «مرحباً بصديقي» وأنّه سجد له كما كان يصنع، فكأنّه يتنكّر لما كان منه في الوفادة عن قريش الىٰ الحبشة.

خروج الحبشة علىٰ النجاشي:

قال ابن اسحاق: وحدثني جعفر بن محمّد عن أبيه[2] قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنّك قد فارقت ديننا.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٥٧ ـ ٣٦٢.

(٢) ولذٰلك عدّ الشيخ الطوسي ابن اسحاق من أصحاب الصادق عليه السلام في رجاله : ٢٨١. كما عدّه في أصحاب الباقر عليه السلام : ١٣٥.

فأرسل الىٰ جعفر وأصحابه فهيّأ لهم سُفناً وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فان هُزمت فامضوا حتّىٰ تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثمّ عمد الىٰ كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إلٰه إلّا اللّٰه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، ويشهد أنّ عيسىٰ بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته، القاها الىٰ مريم، ثمّ جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج الىٰ الحبشة فقال:

يا معشر الحبشة! ألستُ أحقَ الناس بكم؟ قالوا: بلىٰ، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أنّ عيسىٰ عبدٌ! قال: فما تقولون أنتم في عيسىٰ؟ قالوا: نقول: هو ابن اللّٰه، فوضع يده علىٰ صدره علىٰ قبائه وقال: هو يشهد أنّ عيسىٰ بن مريم لم يزد علىٰ هٰذا شيئاً. ـوهو يعني ماكتب ـفرضوا وانصرفوا عنه[1].

وقد روى في آخر خبر أمّ سلمة قالت: فو اللّٰه انا لَعلىٰ ذٰلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه... وسار اليه النجاشي وبينهما عرض النيل (كذا).

فقال أصحاب رسول اللّٰه: مَن رجل يخرج حتّىٰ يحضر الوقيعة ثمّ يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوّام ـوكان من أحدث القوم سنّاً ـأنا، قالوا: فأنت، فنفخوا له قربةً فجعلها في صدره ثمّ سبح عليها حتّىٰ خرج الىٰ ناحية النيل الّتي بها ملتقىٰ القوم، ثمّ انطلق حتّىٰ حضرهم. فو اللّٰه انا لعلىٰ ذٰلك، متوقعون لما هو كائن، إذ طَلَعَ الزّبير وهو يسعىٰ فَلَمَعَ بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي وأهلك اللّٰه عدوّه ومكّن له في بلاده...

ورجع النجاشي وقد أهلك اللّٰه عدوّه ومكّن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة. فكنّا عنده في خير منزل حتّىٰ قدمنا علىٰ رسول اللّٰه وهو بمكّة[2].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٦٥.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٦٢.

روىٰ ابن اسحاق هٰذا الخبر عن ابن شهاب الزُهْري عن أُمّ سلمة بواسطة قريبها أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي، ثمّ قال ابن اسحاق: قال الزُهْري: فحدّثتُ عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن عن أُمّ سلمة[1] وغاية ما يفيده هٰذا الخبر تقرير عروة بن الزبير لخبر أُمّ سلمة عن الزّبير، ولم يرد الحديث بذٰلك عن هجرة الحبشة عن الزبير نفسه ولا بواسطة أحد أبنائه ولا سيّما عروة المحدث المؤرخ! وبعد هٰذا حدّث ابن اسحاق بحديث الامام الصادق عليه السلام عن خروج الحبشة علىٰ النجاشي، وغاية ما فيه: أنّهم خرجوا عليه فأرسل الىٰ جعفر وأصحابه قال: فان هُزمت فامضوا... وان ظفرت فاثبتوا... وخرج الىٰ الحبشة وقد صفّوا له... فرضوا وانصرفوا... وليس فيه أن اللّٰه أهلك عدوّه وظفر النجاشي. فهٰذه زيادة في خبر أُمّ سلمة. بينما يعوزه ما في حديث الامام الصادق عليه السلام من تهيئة السفن وركوبهم فيها وانتظارهم لخبره. واذا كان لابدّ من ترجيح ففي حديث الامام الصادق عليه السلام من المرجّحات ما ليس في الخبر عن أُمّ سلمة.

ولا يفوتنا آخر خبر أُمّ سلمة إذ قالت: حتّىٰ قدمنا علىٰ رسول اللّٰه وهو بمكّة. ثمّ ليس في الخبر ولم يذكر ابن اسحاق أو ابن هشام متىٰ كان هٰذا الرجوع؟ ثمّ هي تقول: قدمنا، ولا تستثني أحداً. ولكنّ الظاهر أنّها عوّلت علىٰ المعلوم يوم حدثيها لقريبها أبي بكر المخزومي. بينما يقول ابن اسحاق: وبلغ أصحاب رسول اللّٰه الّذين خرجوا الىٰ أرض الحبشة إسلام أهل مكّة، فأقبلوا لمّا بلغهم ذٰلك، حتّىٰ اذا دنوا من مكّة بلغهم أنّ ماكانوا تحدّثوا به من اسلام أهل مكّة كان باطلاً، فلم يدخل أحدٌ إلّا بجوار أو مستخفياً[2] منهم: عثمان بن عفّان ومعه امرأته رقية بنت رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وأبو سلمة المخزومي ومعه امرأته أُمّ سلمة

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٦٣.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣.

المخزومية. والسكران بن عمرو ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس. وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم معه امرأته أمّ كلثوم بنت سُهيل بن عمرو، وعديله أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سُهيل بن عمرو، وأخوها عبد اللّٰه بن سهيل بن عمرو. وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حَمِنة. فهٰؤلاء عشرة أزواج. ومن غيرهم: الزبير بن العوّام، ومُصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو، وعبد اللّٰه ابن مسعود، وعمّار بن ياسر، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبد اللّٰه وقُدامة، وابنه السائب بن عثمان. ومن ثَمَّ يقول ابن اسحاق: فجميع مَن قدم مكّة من أصحابه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً[1].

هٰذا وقد سبق منه القول بأنّهم كانوا: اثنين وثمانين رجلاً وامرأة[2].

وقال عن جميع من قدم المدينة من الّذين حملهم النجاشي مع عمْرو ابن أُميّة الضّمري في السفينتين الىٰ رسول اللّٰه ﷺ إنّهم كانوا ستة عشر رجلاً، ومحمّد والحارث ابنا حاطب الجُمحي مع أمّهم فاطمة بنت المجلّل، وعبد اللّٰه بن المطّلب الزُّهْري مع أمّه رملة بنت أبي عوف السّهمي، قدمتا بأبنائهما بعد هلاك أزواجهما في الحبشة، في احدىٰ السفينتين.

ثمّ عدّ تسعة[3] نفر ممّن هلك مِن الرجال بأرض الحبشة مسلمين، وواحداً منهم تنصّر بها، هو عبيد اللّٰه بن جحش حليف بني أُميّة وصهر أبي سفيان علىٰ ابنته رملة أمّ حبيبة، لمّا قدم أرض الحبشة تنصّر بها فكان اذا مرّ بالمسلمين من أصحاب

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٣ ـ ١٠.

(٢) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٥٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٤ : ١٠ عد سبعة ثمّ عدّ رجلاً من أبنائهم، وفي ٤ : ٧ عدّ ممن هلك المطّلب بن أزهر الزّهري، ثمّ لم يعدّه ضمن الثمانية.

رسول اللّٰه قال: فقَحنا وصأصأتم[١] أي: انا قد فتّحنا أعيننا فأبصرنا ولم تفتحوا أعينكم فتبصروا وأنتم تلتمسون ذلك! ومات بها نصرانياً. ولذلك تزوّج امرأته رسول اللّٰه بواسطة النجاشي قبل رجوعهم الىٰ المدينة بعد الحديبية وقبل خيبر. وكان معها ابنتها حبيبة، وبها كانت تكنّىٰ.

وعدّ ممّن هلك بماء شربوه في طريق الرجوع: موسىٰ بن الحارث واختيه عائشة وزينب وأُمّهم ريطة ابنتي الحارث ولم يبق من الاسرة سوىٰ ابنتهم فاطمة.

وبالجملة فقد عدّ ابن اسحاق عدا من قدم علىٰ رسول اللّٰه ﷺ مكّة، وسوىٰ من حملهم النجاشيّ في السفينتين، ممّن تخلّف عن بدر وقدم بعد ذلك، عدّهم: أربعة وثلاثين رجلاً[٢] فهؤلاء مع من قدم مكّة: ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن حملهم النجاشي في السفينتين: ستة عشر رجلاً، ليكون المجموع: أربعة وثمانين رجلاً، سوىٰ النساء. وقد عدّ جميع من هاجر الىٰ أرض الحبشة من النساء: ستّ عشرة امرأة، سوىٰ بناتهن اللاتي ولدن هنالك[٣] وعدّ ممن وُلد من أبنائهم بأرض الحبشة: خمسة، ومن البنات: خمساً أيضاً[٤] فيكون المجموع: مئة وعشرة أشخاص من الرجال والنساء والبنين والبنات، وهم مع من مات منهم والّذي تنصّر مائة وعشرون.

جوار أبي طالب، والوليد:

قال ابن اسحاق: كانت أُمّ أبي سلمة المخزومي: برة بنت عبد المطّلب، اخت أبي طالب، فكان أبو طالب خال أبي سلمة، ولذلك دخل مكّة في جواره.

---

(١) إن الجرو ـ ولد الكلب ـ اذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صأصأ ـ أي صوّت ـ قبل ذلك، فاذا فتح عينيه أوّل مايفتح وهو صغير قيل: فقح الجرو، واستعارهما هنا للانسان فضربه لهم وله مثلاً!

(٢) و (٣) ابن إسحاق في السيرة ٤ : ١٠.

(٤) ابن إسحاق في السيرة ٤ : ١١.

ثمّ روىٰ عن أبيه اسحاق بن يسار، عن حفيد أبي سلمة: سلمة بن عبد اللّٰه بن عمر بن أبي سلمة، أنّه حدّثه: أن أبا سلمة لمّا استجار بأبي طالب مشىٰ اليه رجال من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعتَ منّا ابن أخيك محمّداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منّا؟ قال: إنّه استجار بي، وهو ابن اختي، وإن أنا لم أمنع ابن اختي لم أمنع ابن أخي.

فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش، واللّٰه لقد اكثرتم علىٰ هٰذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، واللّٰه لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه حتّىٰ يبلغ ما أراد!

فقالوا: بل ننصرف عمّا تكره يا أبا عتبة.

فحين سمعه أبو طالب يقول ما يقول رجا فيه أنْ يقوم معه في شأن رسول اللّٰه، فقال (قصيدة) يحرّض بها أبا لهب علىٰ نصرته ونصرة رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ.

ثمّ ذكر عشرة أبيات منها قوله:

جزىٰ اللّٰه عنّا: عبد شمس، ونوفلاً ... وتيماً، ومخزوماً: عقوقاً ومائما[1]
بتفريقهم من بعد وُدّ واُلفة ... جماعتنا، كيما ينالوا المحارما
كذبتم ـ وبيت اللّٰه ـ نَبزي[2] محمّداً ... ولمّا تروا يوماً ـ لدىٰ الشِعب ـ قائما[3]

ويظهر من هٰذا البيت الأخير أنّ ذٰلك كان في حين حصار الشِعب، فالنبيّ كان بجوار عمّه أبي طالب، ودخل فيه معه ابن عمّة النبيّ أبو سلمة، وكذٰلك احتمىٰ

---

(١) بتخفيف الهمزة من المأثم، وهٰذا من شواهد ما اشتهر عن قريش أنّهم كانوا يخفّفون الهمزة، همزة الوسط لا الأوّل.

(٢) نبزي أي: ننفي محمّداً عن أنفسنا.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٨ ـ ١١.

ذوو البيوتات والأُسر بعشائرهم، وهاجر بعضُهم ومَن سواهم الىٰ الحبشة، ورجع منهم من رجع بجوار أو اختفىٰ، وبقي الباقون في الحبشة، فرجع بعضهم الىٰ المدينة بعد بدر، وكان آخر من رجع العشرون رجلاً وامرأة في السفينتين بعد الحديبية وقبل خيبر.

وان كان ابو سلمة المخزومي قد ترك حمىٰ عشيرته بني مخزوم مستجيراً بخاله أبي طالب، فانّ عثمان بن مظعون الجُمحي دخل بجوار من الوليد بن المغيرة المخزومي[1]، ولكنّه:

لمّا رأىٰ ما فيه أصحابُ رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إنّ غدوّي ورواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقَون من البلاء والأذىٰ في الله مالا يصيبني، لنقص كبير في نفسي.

ثمّ مشىٰ الىٰ الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفَتْ ذمّتك، قد رددتُ اليك جِوارك... قال: فانطلق الىٰ المسجد فاردد عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا فخرجا حتّىٰ أتيا المسجد، فقال الوليد: هٰذا عثمان قد جاء يرّد عليّ جواري. قال: صَدَق، قد وجدتُه وفيّاً كريم الجوار ولكنّي قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره. ثمّ انصرف.

وكان لبيد بن ربيعة الشاعر جالساً في مجلس قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لَبيد: ألاكلُّ شيء ـ ما خلا الله ـ باطلُ. فقال عثمان: صدقت. قال لبيد: وكلُّ نعيم ـ لا محالة ـ زائل. فقال عثمان: نعيم الجنة لا يزول. فقال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذىٰ جليسكم فمتىٰ حدث هٰذا فيكم؟

---

(١) فهٰذا الخبر أيضاً من الأخبار الّتي تنافي هلاك الوليد مع المستهزئين الستة.

فقال رجل من القوم : إنّ هٰذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدنّ في نفسك من قوله .

فردّ عليه عثمان حتّىٰ استشرىٰ أمرهما وعظم ، فقام اليه الرجل فلطم عينه فخضّرها[١].

والحوار في الخبر ـ إن صحّ ـ بين الرجل من قريش ولبيد الشاعر يُشعر بعدم انتشار أخبار الإسلام بما يبلغ الشاعر لبيد بن ربيعة ، وكذٰلك ينمّ عن عدم منابذة المسلمين للمشركين كافة بما يحترز معه ابن مظعون عن مجالستهم في أنديتهم ومجالسهم والاستماع الىٰ شعرائهم.

بينما مرّ في خبر أبي سلمة المخزومي شعر أبي طالب يقول :

كذبتم وبيت اللّه نبزي محمّداً ولمّا تروا يوماً ـ لدىٰ الشِعب ـ قائماً

ويظهر منه ـ كما مرّ ـ أن ذٰلك كان في حين حصار الشِعب ، وقد ذكر القمي والطبْرسي والراوندي وابن شهر آشوب أن مدة الحصار كانت أربع سنين[٢] وقد قال الثلاثة ـ ما عدا القمي ـ : إنّ أبا طالب مات بعد ذٰلك بشهرين . وقد روىٰ الصدوق عن الصادق عليه‌السلام : أنّ أبا طالب لمّا حضرته الوفاة أوحىٰ اللّٰه عزوجل الىٰ رسول اللّٰه : اخرج منها فليس لك بها ناصر فهاجر الىٰ المدينة[٣] وروىٰ العياشي عن علي بن الحسين عليهما‌السلام : أن رسول اللّٰه لمّا فقد عمه أبا طالب أوحىٰ اللّٰه اليه :

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٨ ـ ١٠ وقد اطلق الخضرة علىٰ السواد هنا كما قد يطلق السواد علىٰ الخضرة فيقال : سواد العراق يراد خضرة زروعها ، إذ الخضرة من بعيد زرقاء داكنة مكدّرة اللون .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٠ إعلام الورىٰ ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ وقصص الأنبياء : ٣٢٩ والمناقب ١ : ٦٥.

(٣) اكمال الدين : ١٧٢ .

يا محمّد اخرج من القرية الظالم أهلها وهاجر الىٰ المدينة فليس لك اليوم بمكّة ناصر[١].

وعليه فان بدء حصار الشِعب كان متزامناً أو متقارباً مع بداية الهجرة الىٰ الحبشة، في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله[٢] وبما أن بعثته كانت في شهر رجب علىٰ مذهب أهل البيت عليهم السلام كما مرّت أخباره، فذلك يعني أن هجرة الحبشة كانت في نهاية السنة الخامسة وبداية السادسة. وعلىٰ قول ابن شهر آشوب: فلمّا توفي ابو طالب خرج النبي صلى الله عليه وآله الىٰ الطائف وأقام فيه شهراً ثمّ انصرف الىٰ مكّة[٣]. ولذلك فنحن ننتقل هنا إلى حديث شِعب أبي طالب رضي الله عنه.

حديث شِعب أبي طالب رضي الله عنه[٤]:

روى نصر بن مزاحم المنقري (م ٢١٢هـ) بسنده عن أبي روق الهمداني عن ورقة لابن عمر الأرحبي في إمارة الحجّاج بن يوسف الثقفي: أنّ علياً عليه السلام كتب إلى معاوية في جواب كتاب منه إليه مع أبي مسلم الخولاني الشامي كتاباً جاء فيه:

«فأراد قومنا قتل نبيّنا واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهُموم وفعلوا بنا

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧.

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٦٠ والمنتقىٰ للكازروني : ٤٤ كما في بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ١ : ١٧٣.

(٤) في معجم معالم مكة التاريخية للبلادي : أن اسمه اليوم شِعب علي، وهو محل منازل بني هاشم من قبل النبوة، وفيه مولد الرسول صلى الله عليه وآله وفي موضعه مكتبة مكة المكرمة، وازيل ما عداها سنة (١٤١٠هـ) وحال بعض أهل الخير دون هدمها لتكون متحفاً، فوق المسجد الحرام بثلاثمئة متر تقريباً عن يسارها أبو قبيس وعن يمينها الخنادم وبين يديها سوق الليل في شارع الغزة. وراجع مجلة ميقات الحج ع ٥ : ٢٢١.

الأفاعيل: فمنعونا الميرة وأمسكوا عنّا العَذب، وأحلسونا الخوف[1] وجعلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطرّونا إلى جَبَل وَعْر، وأوقدوا لنا نار الحرب، وكتبوا علينا بينهم كتاباً: لا يواكلونا ولا يشاربونا، ولا يناكحونا، ولا يبايعونا، ولا نأمن فيهم إلّا من موسم إلى موسم.

فعزم الله لنا على منعه والذبّ عن حوزته والرمي من وراء حَوْمته والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، مؤمننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي به عن الأهل... فكان ذلك ما شاء الله أن يكون...»[2].

والمعتزلي الشافعي رواه عن الاسكافي في «نقض العثمانية» فقال: إنّه عليه السلام ذكر حاله يومئذٍ فقال في خطبة له مشهورة.. فلما انتهى من هذا المقطع علّق عليه يقول: «ولقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم وقطعوا عنهم المارّة والميرة، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً صباحاً ومساءً، لا يرون وَجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجاؤهم»[3]. ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارّة والميرة فكانوا يتوقّعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يرون وجْهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجاؤهم»[4].

---

(١) الحِلْس: البساط تحت الفُراش، وكِساء رقيق تحت برذعة البعير، وهما ملازمان، فيكنّى بذلك عن الملازمة، فأحلسونا أي ألزمونا الخوف، أي جعلوا الخوف ملازماً لنا كملازمة الحِلَس للبيت والبعير.

(٢) وقعة صفين: ٨٥ و ٨٩ ـ ٩١.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ١٣: ٢٥٤ عن نقض العثمانية للاسكافي. هذا وقد روى المقطع من الكتاب الرضيّ في الكتاب ٩ من كتب نهج البلاغة وشرَحه المعتزلي في ١٤: ٤٧ ـ ٨٤. ورواه أخوه المرتضى في العيون والمحاسن عن شيخه المفيد: ٢٨٧ ط. المؤتمر. والدينوري في الأخبار الطوال: ١٥٤ والبلاذري في أنساب الأشراف: ٢٧٧ عن الكلبي عن أبي مخنف عن أبي روق الهمداني أيضاً. والأندلسي في العقد الفريد ٢: ٣٣٥ والخوارزمي في المناقب: ١٧٦.

(٤) نقض العثمانية للاسكافي: وعنه في شرح النهج للمعتزلي ١٣: ٢٥٤.

قال الشيخ الطبرسي في «إعلام الورىٰ» : اجتمعوا في دار الندوة وكتبوا بينهم صحيفة : أن لا يواكلوا بني هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوّجوهم ولا يتزوّجوا اليهم ولا يحضروا معهم، حتّىٰ يدفعوا اليهم (رسول اللّٰه) ليقتلوه، وأنهم يد واحدة علىٰ محمّد، يقتلونه غيلة أو صراحاً. وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلّقوها في الكعبة، وتابعهم أبو لهب علىٰ ذلك، ولم يدخل فيها مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد المطّلب[١].

وقال القمي في تفسيره : فلمّا اجتمعت قريش علىٰ قتل رسول اللّٰه ﷺ وكتبوا الصحيفة القاطعة جمع أبو طالب بني هاشم وحلف لهم بالبيت والركن والمقام والمشاعر في الكعبة : لئن شاكت محمّداً شوكة لأثبنّ عليكم، أو لآتينّ عليكم! وأدخله «الشِعب» وكان يحرسه بالليل والنهار قائماً علىٰ رأسه بالسيف أربع سنين[٢].

وقال الطبرسي : وكان يحرسه بالليل والنهار : فاذا جاء الليل قام بالسيف عليه ورسول اللّٰه مضطجع، ثمّ يقيمه ويُضجعه في موضع آخر، فلا يزال الليل كلّه هٰكذا. ووكّل به ولده وولد أخيه(؟) يحرسونه بالنهار.

وكان أبو جهل، والعاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعُقبة بن أبي مُعَيْط يخرجون الىٰ الطُرُقات الّتي تدخل مكّة، فمن رأوا معه ميرة نهوه أن يبيع بني هاشم شيئاً، ويحذّرونه إنْ باع شيئاً أن ينهبوا ماله.

---

(١) اعلام الورىٰ : ٤٩ و ٥٠ وتلميذه الراوندي في قصص الأنبياء : ٣٢٩. والخرائج والجرائح ١ : ١٤٢ الحديث ٢٣٠ وذكره قبل في : ٨٥ الحديث ١٤١ وفيه : كانت في الكعبة فخافوا عليها السرق فجعلوها عند أُم أبي جهل!

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٠.

فكان من يدخل من العرب مكّة لا يجسر أن يبيع بني هاشم شيئاً، ومن دخلها وباعهم شيئاً انتهبوا ماله. وكانت خديجة لها مال كثير فانفقته علىٰ رسول اللّٰه في الشِعب.

وبقوا في الشِعب أربع سنين لا يأمنون إلّا في الموسم، ولا يشترون ولا يبايعون اِلّا في الموسم، وكان يقوم بمكّة في كلّ سنة موسمان: موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكان اذا جاء الموسم خرج بنو هشام من الشِعب فيشترون ويبيعون، ثمّ لا يجسر أحد منهم أن يخرج، الىٰ الموسم الثاني: فأصابهم الجهد بذٰلك.

وكان رسولُ اللّٰهِ صلّى الله عليه وآله يخرج في كلّ موسم ويدور علىٰ قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون جانبي حتّىٰ أتلو عليكم كتاب اللّٰه ربّي، وثوابكم علىٰ اللّٰه الجنة؟ وأبو لهب في أثره يقول: لا تقَبلوا منه فانه ابن أخي وهو ساحر كذّاب.

وكان أبو العاص بن الربيع ـوهو ختن رسول اللّٰه علىٰ ابنته زينب ـ يجيء بالعير بالليل عليها البرّ والتمر الىٰ باب الشِعب ثمّ يصيح بها فتدخل الشِعب. ولذا قال رسول اللّٰه صلّى الله عليه وآله: «لقد صاهرنا أبو العاص فأحمَدَ صِهرَنا، لقد كان يَعْمِد الىٰ العير ـونحن في الحصار ـ فيرسلها في الشِعب ليلاً».

إيمان أبي طالب عليه السلام:

وبعثت قريش الىٰ أبي طالب: ادفع الينا محمّداً لنقتله ونملّكك علينا! فقال ابو طالب قصيدته الطويلة الّتي يقول فيها:

الم تعلموا أن ابننا لا مكذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنىٰ بقول الأباطل
وأبيضُ يُستسقىٰ الغَمامُ بوجهه ... ثِمالُ اليتامىٰ، عصمةٌ للأرامل
يطوف به الهُلّاكُ من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

كذبتم ـ وبيتِ اللّٰه ـ نُبزي محمّداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل
ونُسْلِمُه، حتّىٰ نُصرَّعَ دونَه ... ونُذْهلَ عن أبنائنا والحلائل
لَعَمْري لقد كُلِّفْتُ وَجْداً بأحمد ... وأحببته حبَّ الحبيب المواصِل
وجُدْتُ بنفسي دونه وحَمَيْتُه ... ودافعتُ عنه بالذرا والكلاكل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وشيناً لمن عادىٰ، وزينَ المحافل
حليماً رشيداً حازماً غير طائشٍ ... يوالي إله الحقّ ليس بماحِل
فأيّده ربّ العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقُّه غير باطِل

فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه[1].

وذكر الخبر ابن شهر آشوب وأضاف: كان النبيّ ﷺ اذا أخذ مضجعه ونامت العيون جاء أبو طالب فأنهضه عن مضجعه وأضجع علياً مكانه ووكّل عليه ولده وولد أخيه (؟) فقال علي عليه السلام: ياأبتاه انّي مقتول ذات ليلة. فقال أبو طالب:

اصبرنْ يابُني فالصبر أحجىٰ ... كلُّ حيٍّ مصيره لشَعوب[2]
قد بَلَوْناك والبلاء شديد ... لفداء النجيب وابن النجيب
لفداء الأعز ذي الحسب الثا ... قب والباع والفناء الرحيب
إن تُصبك المنونُ بالنبل تَبْرىٰ ... فمصيب منها وغير مصيب
كلّ حيّ وان تطاول عمراً ... آخذ من سهامها بنصيب

فقال علي عليه السلام:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ... ووالله ما قلت الّذي قلت جازعاً
ولكنّني أحببت أن ترَ نُصْرتي ... وتعلَمَ أني لم أزلْ لك طائعا
وسعْيي لوجه الله في نصر أحمد ... نبيّ الهدىٰ المحمود طفلاً ويافعا

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٢٦ ، ١٢٧ . وذكرها تلميذه القطب الراوندي في : قصص الأنبياء : ٣٣٩ .

(٢) الشَعوب : الموت .

وقبل هٰذا روىٰ من شعر أبي طالب في الحصار :

وقالوا : خُطَّةً جوراً وحُمْقاً وبعض القول أبلج مستقيمُ:
لِتَخرُجْ هاشم فيصير منها بلاقِعَ بطنُ مكّة والحطِيمُ
فمهلاً قومَنا لا تركبونا بمظلمة لها أمر وخيمُ
فيندَم بعضكُم ويذلَّ بعضٌ وليس بمفلح أبداً ظلومُ
فلا ـ والراقصات بكل خُرْقٍ[1] الىٰ معمور مكّة لا يريمُ
طوالَ الدهر ـ حتّىٰ تقتلونا ونقتلكم وتلتقيَ الخصومُ
ويعلمَ مَعْشَرٌ قطعوا وعقّوا بأنّهمُ همُ الجلد الظليمُ
أرادوا قتلَ أحمدَ ظالميه وليس لقتله فيهم زعيم
ودون محمّد فتيان قوم همُ العِرنين والعضو الصميم

ورَوىٰ من قصيدة اخرىٰ له يقول :

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسىٰ خُطَّ في أوّل الكُتْبِ
أليس أبونا هاشم شدّ أزْرَه وأوصىٰ بنيه بالطِّعانِ وبالضَرب
وإنّ الّذي علّقْتُمُ من كتابكم يكون لكم يوماً كراغية السَّقْبِ[2]
أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفَرَ الثرىٰ ويُصبحَ من لَمْ يَجْن ذنباً كذي الذنب[3]

وروىٰ هٰذه القصيدة ابن اسحاق وأضاف :

ولاتَتْبَعوا أمر الوُشاة وتَقْطَعوا أواصرنا بعد المودّة والقُرْبِ
وتستجلبوا حَرْباً عواناً وربّما أمرَّ ـ علىٰ من ذاقه ـ جَلَبُ الحربِ

---

(١) الخُرق : القفر.

(٢) يشير بذلك الىٰ قصة فصيل ناقة صالح عليه السلام ، فالراغية من الرُغاء وهو صوت الابل ، والسَقب : ولد الناقة .

(٣) مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٣ ـ ٦٥ .

فلسنا ـ وربِّ البيتِ ـ نُسْلِم أحمداً | لعزّاءَ[١] من عَضِّ الزَمانِ ولا كرْب
ولما تَبِن منا ومنكم سوالف[٢] | وأيدٍ أُتِرَّتْ بالقُساسية الشُهبِ[٣]
بمعتَرَكٍ ضيّق ترىٰ كِسَرَ القنا | به، والنسورَ الطُّخم يعكفْن كَالشَّرْب[٤]
ولَسْنا نَمَلُّ الحربَ حتّىٰ تَمَلَّنا | ولا نشتكي ماقد ينوبُ من النَكْب
ولكنّنا أهل الحفائظ والنُّهىٰ | اذا طار أرواحُ الكُماة من الرَّعْبِ

قال ابن اسحاق: ويذكرون أن أبا جهل بن هشام لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد وهي مع رسول اللّٰه في الشعب، فتعلق ابو جهل بحكيم وقال له: أتذهب بالطعام الىٰ بني هاشم؟ واللّٰه لا تبرح أنت وطعامك حتّىٰ افضحك بمكّة! فجاء ابو البختريّ بن هِشام فقال له: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام الىٰ بني هاشم! فقال له أبو البختريّ: طعام كان لعمّته عنده فبعثت اليه فيه، افتمنعُه أن يأتيها بطعامها! خلّ سبيل الرجل، فأبىٰ أبو جهل حتّىٰ نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لَحْيَ بعير فضربَه به فشجّه ووطأه وطأً شديداً.

قال: وكان كاتب الصحيفة منصور بن عِكرمة فدعا عليه رسول اللّٰه فشُل بعض أصابعه[٥] وقال اليعقوبي: فشلّت يده. كما بالغ في عدد المتعاقدين المتعاهدين علىٰ الصحيفة فقال: وختموا علىٰ الصحيفة بثمانين خاتماً[٦] بينما قال الطبرْسي:

---

(١) العزّاء: الشدة.

(٢) السوالف: صفحات الأعناق.

(٣) أُترت: قُطعت. والقُساسية نسبة الىٰ قُساس جبل فيه معدن حديد.

(٤) الشرب: الجماعة من القومَ ـ أو الحيوان ـ يشربون.

(٥) ابن إسحاق في السيرة ١: ٣٧٧ ـ ٣٨٠ وروىٰ الخبر بألفاظه الطبري ٢: ٣٣٦ بدون مايتعلق بأبي طالب!.

(٦) اليعقوبي ٢: ٣١.

وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلّقوها في الكعبة[١] ولا أرىٰ رؤساء قريش يزيدون عن أربعين رجلاً في مكّة.

وقال اليعقوبي في تأريخ الحصار ومدته: ثمّ حصرت قريش رسول اللّه وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب في الشِعب الّذي يقال له: شعب بني هاشم، بعد ست سنين من مبعثه. فأقام ـ ومعه جميع بني هاشم وبني المطلب ـ في الشِعب ثلاث سنين. حتّىٰ انفق رسولُ اللّه مالَه، وأنفق ابو طالب ماله، وانفقت خديجة مالها، وصاروا الىٰ حدّ الضرّ والفاقة[٢] بينما قلل ابن اسحاق فقال: فأقاموا علىٰ ذلك سنتين أو ثلاثاً، حتّىٰ جُهدوا، لا يصل اليهم شيء اِلّا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش[٣] وقد مرّ عن القمي والطبْرسي انّها كانت أربع سنين انتهت قبل هجرته بقليل.

وحيث انتقلنا بالآية العاشرة من سورة الزمر الىٰ حديث هجرة الحبشة، ثمّ بتقريب أن بداية حصار الشعب كان قريباً من بدايات هجرة الحبشة انتقلنا الىٰ حديث الشعب، يلزمنا الاذعان بأن نزول السور بعد الزمر كان في أيام حصار الشِعب، الا ما كان نزوله أيام موسمي العمرة والحج وبعد الشعب قبل الهجرة، اذن فما كان من الآيات يفيد حواراً بين النبي والمشركين كان ممّا يحتمل نزولها في أيام المواسم.

السورة الحادية والستون ـ «السجدة (فصّلت)»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٢٦.

(٢) اليعقوبي ٢ : ٣١.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٧٩.

وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾[١]. وروى الطبرْسي في «مجمع البيان» عن مقاتل: قال: إنّ أبا جهل رفع ثوباً بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد! أنت من ذلك الجانب ونحن من هٰذا الجانب، فاعمل أنت علىٰ دينك ومذهبك انّنا عاملون علىٰ ديننا ومذهبنا[٢] فنزلت سورة السجدة. ونقل مثله ابن شهر آشوب في «المناقب»[٣].

وبعده قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾[٤].

وروىٰ الطبرْسي عن الفرّاء قال: كانت قريش تطعم الحاج وتسقيهم، فحرّموا ذلك علىٰ من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله، فهٰذا هو الزكاة في هٰذا الموضع[٥].

السورة الثالثة والستون ـ «الزخْرف»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٦].

روىٰ الطبرْسي في «الاحتجاج» عن أبي محمّد الحسن العسكري أنّه قال: قلت لأبي علي بن محمّد عليه السلام: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يناظر المشركين اذا عاتبوه ويحاجّهم؟

---

(١) فصّلت: ٣ ـ ٥.

(٢) مجمع البيان ٩: ٤، ٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٥٦ ولا يخفىٰ أنّ هٰذا ممّا يناسب التزامن مع بدء الحصار في شعب أبي طالب.

(٤) فصلت: ٦، ٧.

(٥) مجمع البيان ٩: ٦.

(٦) الزخرف: ٣١.

قال: بلىٰ مراراً كثيرة، منها مـا حكىٰ اللّٰه من قولهم... ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾... وذلك أن رسول اللّٰه ﷺ كـان قـاعداً ذات يوم بمكّة بفناء الكعبة، اذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش منهم: الوليد بـن المغيرة المخزومي (كذا) وأبو البختري ابن هشام، وأبو جهل، والعاص بـن وائـل السهمي، وعبد اللّٰه بن أبي أُميّة المخزومي، وكان معهم جمع ممّن يليهم كثير. ورسول اللّٰه ﷺ في نفر من أصحابه يقرأ عليهم كتاب اللّٰه ويؤدّي اليهم عـن اللّٰـه أمـره ونهيه.

فقال المشركون بعضهم لبعض: لقد استفحل أمر محمّد وعظم خَطْبه، فتعالوا نبدأ (كذا) بتقريعه وتبكيته وتوبيخه والاحتجاج عليه وابطال ماجاء به، ليهـون خطبه علىٰ أصحابه ويصغر قدره عندهم، فلعله ينزع عمّا هو فيه من غيّه وباطله وتمرّده وطغيانه، فان انتهىٰ وإلّا عاملناه بالسيف الباتر!

قال أبو جهل: فمن ذا الّذي يلي كلامه ومجادلته؟

قال عبد اللّٰه بن أبي أُميّة المخزومي: أنا لذلك، أفما ترضاني له قرناً حسـيباً ومجادلاً كفيّاً؟

فاتوه بأجمعهم، فابتدأ عبد اللّٰه بن أبي أُميّة المخزومي فقال:

يا محمّد! لقد ادّعيت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً: زعمت أنك رسول ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون رسـوله بشراً مثلك تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب وتمشي في الأسواق كما نمشي! وهٰذا ملك الروم وهٰذا ملك الفرس لا يبعثان رسولاً إلّا كثير المال عـظيم الحـال، له قـصور ودور، وفساطيط وخيام، وعبيد وخدام، وربّ العالمين فوق هٰؤلاء كـلّهم فـهم عبيده، فلو كنت نبياً لكان معك ملَك يصدقك ونشاهده. بل لو أراد اللّٰه أن يبعث الينا نبياً لكان إنما يبعث الينا ملَكاً لا بشراً مثلنا.

فقال رسول اللّٰه ﷺ : فهل بقي من كلامك شيء؟

قال : نعم، لو أراد أن يبعث الينا رسولاً لبعث أجلّ من فيما بيننا اكثرهم مالاً وأحسنهم حالاً، فهلّا أُنزل هٰذا القرآن، ـالّذي تزعم أن اللّٰه أنزله عليك وابتعثك به رسولاً ـ علىٰ رجل من القريتين عظيم : إمّا الوليد بن المغيرة بمكّة، وإمّا عروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

فقال له رسول اللّٰه ﷺ : يا عبد اللّٰه، أمّا ما ذكرت... الىٰ أن قال : وأمّا قولك : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ : الوليد ابن المغيرة بمكّة أو عروة بالطائف. فان اللّٰه ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة لما سقىٰ كافراً به مخالفاً له شربة ماء، وليس قسمة اللّٰه اليك، بل اللّٰه هو القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه، وليس هو ممّن يخاف أحداً كما تخافه أنت لماله وحاله، ولا ممّن يطمع في أحد في ماله أو في حاله كما تطمع أنت فيخصه بالنبوة لذلك، ولا ممّن يحب أحداً محبة الهواء كما تحب أنت فيقدّم من لا يستحق التقديم، وانما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وجلاله الّا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته، وكذلك لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله إلّا أشدهم تباطؤاً عن طاعته. واذا كان هٰذا صفته لم ينظر الىٰ مال ولا الىٰ حال، بل هٰذا المال والحال من تفضّله، وليس لأحد من عباده عليه ضريبة لازبة، فلا يقال له : اذا تفضّلت بالمال علىٰ عبد فلابدّ أن تتفضّل عليه بالنبوة ايضاً، لأنه ليس لأحد إكراهه علىٰ خلاف مراده ولا الزامه تفضّلاً، لأنه تفضّل قبله بنِعمه.

وذٰلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَ رَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[١] أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا[٢].

هٰذا، وقد روىٰ فيه فيما أجاب به أبو الحسن علي بن محمّد العسكـري عليه السلام نفسُه في رسالته الىٰ أهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض أنّه قال: اليـه الصفوة يصطفي من يشاء من عباده، اصطفىٰ محمّداً ـ صلوات الله عليه وآله ـ وبعثه بالرسـالة الىٰ خلقه، ولو فوّض اختيار أُموره الىٰ عباده لأجاز لقريش اختيار أُميّة بن أبي الصلت وأبي مسعود الثقفي، إذ كانا عندهم أفضل من محمّد صلى الله عليه وآله، لما قالوا: **﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾** يعنونهما بذلك[٣].

والخبر الأول في ذكره في رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومي يعارض ما رواه الطبرْسي نفسه في «الاحـتجاج» عـن أمـير المـؤمنين عليه السلام اذ عـدّه مـن المستهزئين الخمسة أو الستة[٤] وهو مارواه الصدوق أيضاً مسنداً في «الخصال»[٥] وفيه أنهم ماتوا في يوم واحد حين نزول قوله سبحانه: **﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾** من سورة الحجر النازلة قبل السجدة بخمس عشرة سورة. فيبقىٰ الخبر الثاني عن الامام الهادي عليه السلام بلا معارض، وفيه بدل الوليد أُميّة بن أبي الصلت الثقفي نفسه.

ويشترك مع الخبر الأول من «الاحتجاج» في ذكر الوليد، مانقله الطبرْسي في «مجمع البيان» عن قتادة عن ابن عباس. ووافق خبر قتادة خبري «الاحتجاج» في رجل الطائف أنّه: عروة بن مسعود الثقفي. وانفرد مجاهد فيهما أنهما: عتبة بن أبي ربيعة من مكّة، وابن عبد ياليل من الطائف، وانفرد ابن عباس في رجل الطائف:

---

(١) الزخرف: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) الاحتجاج ١: ٢٦ ـ ٣٢ باختصار.

(٣) الاحتجاج ٢: ٢٥٥. والطباطبائي نقل الخبر الأول ولم ينقل الثاني في الميزان ١٨: ١٠٦.

(٤) الاحتجاج ١: ٣٢١ و٣٢٢.

(٥) الخصال ١: ٢٨٠.

أنّه حبيب بن عمرو الثقفي[١] ووافق القمي في تفسيره خبري «الاحتجاج» وقتادة في رجل الطائف أنّه عروة بن مسعود، وقال: هو عمّ المغيرة بن شعبة الثقفي، ولم يذكر رجل مكّة[٢] ومسعود وحبيب وعبد ياليل اخوة ابناء عمرو بن مسعود الثقفي كما في «مجمع البيان»[٣]

السورة الرابعة والستون ـ «الدخان»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ وفي تفسير القمي قال: نزلت في أبي جهل[٤] وفي «مجمع البيان»: الأثيم أي الآثم وهو أبو جهل. روي: أن أبا جهل أُتي بتمر وزبد فقال: هٰذا هو الزقوم الّذي يخوّفنا به محمّد[٥] وقد مرّ عنه تفصيله في سورة الصافات.

السورة السادسة والستون ـ «الأحقاف»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٦].

وروىٰ الطبرْسي في «مجمع البيان» عن الزهري قال: لما توفي ابو طالب اشتدّ البلاء علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فعمد لثقيف بالطائف، رجاء أن يؤوه...

---

(١) مجمع البيان ٩: ٦. وفي لباب النقول: ١٣٨: ابو مسعود الثقفي.

(٢) تفسير القمي ٢: ٢٨٣.

(٣) مجمع البيان ٩: ١٣٩.

(٤) تفسير القمي ٢: ٢٩٢.

(٥) مجمع البيان ٩: ١٠٢ وابن اسحاق في سيرته ١: ٣٨٨.

(٦) الأحقاف: ٢٩، ٣٠.

ورجع رسول الله ﷺ الىٰ مكّة حتّىٰ اذا كان (بنخلة) قام في جوف الليل يصلي فمرّ به نفر من جن أهل (نصيبين) فوجدوه يصلي صلاة الغداة ويتلو القرآن فاستمعوا له. وهو مروي عن جماعة منهم سعيد بن جبير[١].

هٰذا ما نقله هنا الطبرْسي ممّا يقتضي وفاة أبي طالب ؑ قبل نزول سورة الأحقاف (السادسة والستين) وقد بقي من السور المكّية عشرون سورة يقتضي أنها نزلت بمكّة بعد وفاة أبي طالب وبعد الهجرة الىٰ الطائف وقبل الهجرة الىٰ المدينة ممّا يخالف خبري العياشي والصدوق[٢] أمّا القمي فقد قال: كان سبب نزول هٰذه الآية (كذا) أن رسول الله ﷺ خرج من مكّة الىٰ سوق عكاظ ـ ومعه زيد بن حارثة ـ يدعو الناس الىٰ الاسلام فلم يجبه أحد ولم يجد من يقبله، فرجع الىٰ مكّة. فلمّا بلغ موضعاً يقال له «وادي مجِنَة» تهجّد بالقرآن في جوف الليل فمرّ به نفر من الجن فلمّا سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له ولما سمعوا قراءته قال بعضهم لبعض: أنصتوا، فلمّا فرغ رسول الله من القراءة ولّوا الىٰ قومهم منذرين قالوا: ﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً ... ﴾ ثمّ قال القمّي: فأنزل الله علىٰ نبيه: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ السورة كلّها وفيها حكىٰ الله قولهم[٣].

وخلط القمّي بهٰذا بين السورتين: الأحقاف والجن، وفي سورة الجن قال: وقد كتبنا خبرهم في سورة الأحقاف[٤] أي جعل السبب نفس السبب في السورتين، بينما سورة الجن هي الأربعون في النزول والأحقاف السادسة والستون، مع ظهور

---

(١) مجمع البيان ٩ : ١٣٩، ١٤٠.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧ واكمال الدين : ١٧٢.

(٣) تفسير القمي ٢ : ٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٥٥٤.

في سورة الجن بأنها كانت الأولىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾[(١)].

ونقل الطبرْسي في «مجمع البيان» خبر سوق عكاظ عن البخاري ومسلم والواحدي باسنادهم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: انطلق رسول اللّه ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين الىٰ سوق عكاظ، وكان قد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشهب، فلمّا رجعوا الىٰ قومهم قالوا: ما ذاك الّا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها. فمرّ النفر الّذين أخذوا نحو تهامة بالنبي وهو بنخل (ومرّ في خبر الزهري: في نخلة) عامدين الىٰ سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هٰذا الّذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا الىٰ قومهم وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ فأوحىٰ اللّه الىٰ نبيّه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾[(٢)] اذن فخبر سوق عكاظ وبطن نخلة لسورة الجن لا الأحقاف.

وقال الطبرْسي: قال آخرون: أُمر رسول اللّه أن ينذر الجن ويدعوهم الىٰ اللّه ويقرأ عليهم القرآن، فصرف اللّه اليه نفراً من الجن من نينوىٰ (العراق) فقال ﷺ لأصحابه: اني أُمرت أن أقرأ علىٰ الجن الليلة، فأيكم يتبعُني؟ فاتّبعه عبد اللّه بن مسعود. قال عبد اللّه: ولم يحضر معه احد غيري، فانطلقنا حتّىٰ اذا كنا

---

(١) الجن: ٩، ١٠.

(٢) مجمع البيان ١: ٥٤٤. ولا يوجد الخبر في أسباب النزول المطبوع للواحدي في الأحقاف، ولم يذكر الجن.

بأعلىٰ مكّة دخل رسول اللّٰه شِعب الحَجون وخطّ لي خطاً أمرني أن أجلس فيه قال: لا تخرج منه حتّىٰ أعود اليك. ثمّ انطلق حتّىٰ قام فافتتح القرآن، فغشيته أسِودة كثيرة حتّىٰ حالت بيني وبينه حتّىٰ لم أسمع صوته، ثمّ طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتّىٰ بقي منهم رهط، وفرغ رسول اللّٰه مع الفجر، فانطلق وقال لي: هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم، رأيت رجالاً سوداً عليهم ثياب بيض. قال: اولئك جن نصيبين[1].

ولكنه نفسه روىٰ بعد ذلك عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد اللّٰه ابن مسعود: من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكّة، فقلنا اغتيل رسول اللّٰه ﷺ أو استطير! فانطلقنا نطلبه من الشعاب. فلقيناه مقبلاً من نحو حِراء، فقلنا: يا رسول اللّٰه! أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك وقلنا له: بتنا الليلة بشرّ ليلة باتَ بها قوم حين فقدناك! فقال لنا: إنّه أتاني داعي الجن فذهبت أُقرئهم القرآن. ثمّ ذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. فأمّا أن يكون صحبه منا أحد فلم يصحبه[2].

ويبدو أن المتعيّن للقبول من هذين الخبرين الأخيرين عن ابن مسعود هو الأخير، إذ هو المنسجم مع الآية من سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ ﴾: «أتاني داعي الجن» لا الخبر السابق: «إني أُمرت أن أقرأ علىٰ الجن الليلة». فلا داعي للأخذ بما مرّ عن الزُهري تفسيراً للآية من الأحقاف، فما كان معنىٰ الخبر هو خبر سعيد بن جبير المشتمل علىٰ بطن نخلة وقد مرّ عن البخاري ومسلم والواحدي أن خبره عن سورة الجن.

---

(١) مجمع البيان ٩: ١٤٠.

(٢) مجمع البيان ٩: ١٤٠ و ١٠: ٥٤٤.

السورة التاسعة والستون ـ «الكهف»:

وروىٰ القمّي في تفسيره بسنده عن الامام الصادق عليه‌السلام قال:

كان سبب نزولها (يعني الكهف): أن قريشاً بعثوا ثلاثة نفر الىٰ نجران: النضر بن الحارث بن كلدة، وعُقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود والنصارىٰ مسائل يسألونها رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله، فخرجوا الىٰ نجران الىٰ علماء اليهود فسألوهم فقالوا:

سلوه عن ثلاث مسائل، فان أجابكم فيها علىٰ ماعندنا فهو صادق، ثمّ سلوه عن مسألة واحدة فان ادعىٰ علمها فهو كاذب. قالوا: وما هذه المسائل؟ قالوا: سلوه عن فتية كانوا في الزمن الأول فخرجوا وغابوا وناموا وكم بقوا في نومهم حتّىٰ انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأيّ شيء كان معهم من غيرهم؟ وما كان قصّتهم؟

واسألوه عن موسىٰ حين أمره اللّٰه أن يتّبع العالم ويتعلم منه، من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كانت قصّته معه؟

واسألوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها حتّىٰ بلغ سدّ يأجوج ومأجوج، من هو؟ وكيف كانت قصّته؟

ثمّ أملَوا عليهم أخبار هذه الثلاث مسائل وقالوا لهم: إن أجابكم بما قد أملينا عليكم فهو صادق، وان أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدقوه.

قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سلوه متىٰ تقوم الساعة؟ فان ادعىٰ علمها فهو كاذب، فان قيام الساعة لا يعلمها الا اللّٰه تبارك وتعالىٰ.

فرجعوا الىٰ مكّة واجتمعوا الىٰ أبي طالب رضي‌الله‌عنه فقالوا: يا أبا طالب! اِنّ ابن أخيك يزعم أنّ خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فان أجابنا عنها علمنا أنّه صادق، وان لم يجبنا علمنا أنّه كاذب.

فقال أبو طالب: سلوه عمّا بدا لكم، فسألوه عن الثلاث مسائل.

فقال رسول اللّٰه ﷺ : غداً أُخبركم. ولم يستثن[١] فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتّىٰ اغتمّ النبيّ ﷺ وشكّ أصحابه الّذين كانوا آمنوا به، وفرحت قريش واستهزؤا وآذوا. وحزن أبو طالب.

فلمّا كان بعد أربعين يوماً نزلَ عليه جبرئيل بسورة الكهف. فقال رسول اللّٰه : يا جبرئيل لقد أبطأت! فقال : إنّا لا نقدر أن ننزل إلّا باذن اللّٰه[٢].

ونقل الطبرْسي في «مجمع البيان» مثله عن محمّد بن اسحاق عن سعيد ابن جبير وعكرمة عن ابن عباس : أن قريشاً انفذوا النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي مُعيط الىٰ أحبار اليهود بالمدينة وقالا لهم : إنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا، فصفا لهم صفة محمّد وخبّراهم بقوله وسلاهم عنه.

فخرجا حتّىٰ قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن النبيّ ﷺ وقالا لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود : اسألوه عن ثلاث فان أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل وان لم يفعل فهو رجل متقوّل، فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم، فانه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فان أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبيّ.

فانصرفا الىٰ مكّة فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد. وقصّا عليهم القصة.

---

(١) أي لم يقل : إن شاء اللّٰه.

(٢) تفسير القمّي ٢ : ٣١، ٣٢ وسند الخبر : حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه‌السلام ، فهو صحيح لولا ما يبدو فيه من الانقطاع بين ابراهيم بن هاشم وابن أبي عمير. والخبر يقتضي أن تكون فترة الوحي الأربعون يوماً قبل نزول سورة الكهف، وستأتي الفترة كذلك في خبر ابن اسحاق إلّا أنها خمس عشرة ليلة.

فجاؤوا الىٰ النبيّ ﷺ فسألوه، فقال: أُخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن: فانصرفوا عنه.

فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّٰه اليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبرئيل، حتىّٰ أرجف أهل مكّة وتكلموا في ذٰلك، فشق علىٰ رسول اللّٰه ﷺ ما يتكلم به أهل مكّة عليه.

ثمّ جاءه جبرئيل عن اللّٰه سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف، وفيه ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾. وقال رسول اللّٰه ﷺ لجبرئيل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبرئيل؟ فقال له جبرئيل: ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ** ﴾[١].

وفي قوله سبحانه في السورة: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ** ﴾[٢] قال: قد ذكرنا فيما قبل ما جاء في الرواية: أن النبيّ ﷺ سُئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين فقال: اخبركم عنه غداً. ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه أياماً حتىّٰ شُق عليه، فأنزل اللّٰه تعالى هٰذه الآية بأمره بالاستثناء بمشيئة اللّٰه تعالىٰ[٣].

السورة السبعون ـ «النحل»:

قال القمّي في تفسيره: نزلت لما سألت قريش رسول اللّٰه ﷺ أن ينزّل عليهم العذاب، فأنزل اللّٰه تعالىٰ: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾[٤].

وروىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الحسن البصري قال: إن المشركين

---

(١) مجمع البيان ٦ : ٦٩٧. وعند ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢١.

(٢) الكهف : ٢٣، ٢٤.

(٣) مجمع البيان ٦ : ٧١٢. وعند ابن إسحاق في السيرة ١ : ٣٢٧.

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٢.

قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله : ائتنا بعذاب اللّٰه، فقال سبحانه ما معناه : إن أمر اللّٰه آتٍ وكل ما هو آت قريب، فمعنىٰ ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ اي قرب أمر اللّٰه بعقاب هؤلاء المشركين المقيمين علىٰ الكفر والتكذيب بيوم القيامة وبعذاب اللّٰه، وكانوا يستعجلونه كما حكىٰ اللّٰه سبحانه عنهم قولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فتقديره : قل لهٰؤلاء الكفار : لا تستعجلوا القيامة والعذاب فان اللّٰه سيأتي بكل واحد منهما في وقته وحينه كما تقتضيه حكمته[1].

ويدعم هٰذا المعنىٰ مارواه العياشي في تفسيره عن هشام بن سالم عن بعض أصحابه قال سألت الصادق عليه السلام عن قول اللّٰه : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فقال : اذا أخبر اللّٰه النبيّ صلى الله عليه وآله بشيء الىٰ وقت أنّه كائن فكأنه قد كان، فهو قوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ حتّىٰ يأتي ذلك الوقت[2].

ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[3].

وروىٰ الطبْرسي عن الكلبي قال : نزلت في المقتسمين، وهم ستة عشر رجلاً خرجوا الىٰ عقاب مكّة أيام الحج علىٰ طريق الناس، علىٰ كل عقبة أربعة منهم، ليصدّوا الناس عن النبيّ صلى الله عليه وآله، فاذا سألهم الناس عمّا أُنزل علىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله قالوا : أحاديث الأوّلين وأباطيلهم[4] ونقل مثله في «المناقب»[5].

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٣٧.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٤.

(٣) النحل : ٢٤، ٢٥.

(٤) مجمع البيان ٦ : ٥٤٩.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١ : ٤٩.

روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» مفصّله عن السدي قال: اجتمعت قريش فقالوا: إنّ محمّداً رجل حلو اللسان اذا كلّمه الرجل ذهب بعقله، فانظروا أُناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكّة، علىٰ رأس كل ليلة أو ليلتين (كذا) فمن جاء يريده فردّوه عنه.

فخرج ناس منهم في كلّ طريق، فكان اذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمّد فينزل بهم، قالوا له: أنا فلان بن فلان فيعرفه بنسبه ويقول: أنا أُخبرك بمحمّد فلا يريد أن تعني اليه، هو رجل كذّاب لم يتبعه علىٰ أمره إلّا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأمّا شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له. فيرجع بعضهم، وذٰلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

واذا كان الوافد ممّن عزم اللّٰه له علىٰ الرشاد فقالوا له مثل ذٰلك في محمّد قال: بئس الوافد أنا لقومي ان كنت جئت حتّىٰ بلغت، إلّا مسيرة ليلة، رجعت قبل أن القىٰ هٰذا الرجل وأنظر ما يقول وآتي قومي ببيان أمره. فيدخل مكّة فيلقىٰ المؤمنين فيسألهم: ماذا يقول محمّد؟ يقولون: ﴿ خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾[١].

وخبر السدي هٰذا لا يبعد أن يعدّ تفصيلاً لمختصر خبر الكلبي السابق قبله، ولكن الكلبي قال «في عقاب مكّة أيام الحج» والسدي: «في كل طريق من طرق مكّة علىٰ رأس كلّ ليلة او ليلتين فاذا اقبل الرجل وافداً لقومه» ثم لا يذكر الحج والاعتبار يساعد علىٰ الاوّل لا الثاني. والثاني لا ينصّ علىٰ عنوان «المقتسمين» ولا علىٰ عددهم «الستة عشر رجلاً» كما هو في الكلبي. هٰذا وقد مرّ خبر المقتسمين مع المستهزئين الستة الّذين كفىٰ اللّٰه رسوله شرّهم بهلاكهم في يوم واحد باشارة جبرئيل اليهم ودعاء الرسول عليهم، فهل يعني الكلبي أن المقتسمين كانوا

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١١٦.

مستمرين علىٰ عملهم ذٰلك بعد هلاك المستهزئين، من لدن نزول سورة الحجر الرابعة والخمسين حتّىٰ بعد نزول سورة النحل وهي السبعون؟ أم يعني أنّ الآية نزلت تحكي شأنهم القديم غير المستمر؟ أو أنّه أمر حاضر متكرر؟ والظاهر الأخير.

وقد يبدو للنظر: أن تكون هذه الفترة بين نزولي سورتي الحجر الرابعة والخمسين والنحل السبعين، هي فترة حصار الرسول وبني هاشم في شِعب أبي طالب، وهي الفترة الفاصلة بين المقتسمين الأوائل وبين تجديد عملهم مرة اخرىٰ حين نزول سورة النحل.

ويدفعه: أنّ موسم الحج في الأشهر الحُرم كان مستثنىٰ من حكم الحصار، ولذٰلك كان الرسول يخرج من الحصار فيه بشيراً ونذيراً، وقد ورد الخبر بالنصّ علىٰ مزاولة المشركين لعملهم ذلك في الصدّ عنه ﷺ في أيام الموسم أيام الحصار في الشعب، فلا فترة في البين.

وحصْر المشركين للرسول وبني هاشم مدة ثلاث سنين أو نحوها من جملة الحوادث المهمّة في تأريخ الإسلام بعد البعثة وقبل الهجرة، وهي: إنذار يوم الدار، والاسراء والمعراج، والهجرة الىٰ الحبشة، والهجرة الىٰ الطائف، ثمّ الهجرة الىٰ المدينة. وقد وردت الاشارة في آيات القرآن الكريم الىٰ الانذار والاسراء والمعراج بالاجمال في سورتي الاسراء والنجم، وكذٰلك الهجرة الأخيرة الىٰ المدينة. أمّا حادث الحصار والهجرة الىٰ الحبشة والهجرة الىٰ الطائف فلا نجد في آيات القرآن الكريم إشارة اليها حَسَب التفسير المشهور.

ولتبيّن مدىٰ صحة دعوىٰ المرحلة السرّية مع نزول القرآن فيها، استعرضتُ ما نزل من القرآن حتّىٰ سورة الحجر الّتي فيها ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ وبعد ذلك اردت الدخول في سرد الحوادث، ولكن حيث لاحظت الخلاف في ترتيبها وتواريخها رجعت الىٰ مواكبة السور المكية حسب ترتيب النزول.

وهنا في سورة النحل في الآية الحادية والأربعين نقف علىٰ ذكر الهجرة في قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

وهي أوّل آية تذكر الهجرة، وهي في عداد آيات سورة النحل المكية، وهي السورة السبعون، وبعدها ستّ عشرة سورة نزلت في مكّة قبل الهجرة، فهل المعنيّ بها الهجرة الاولىٰ الىٰ الحبشة؟ أم الثانية الىٰ المدينة؟

نقل الطبرْسي في «مجمع البيان» عن الحسن وقتادة: أنّ قوله ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ ﴾ الىٰ آخر السورة مدنية[٢] وكذلك نقل السيوطي في «الاتقان»[٣] ثمّ ذكر الطبرسي سائر الأقوال بسائر الاستثناءات في الآيات، ولم يتظافر النقل باستثناء قَتادة، بل روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» عن قَتادة نفسه أيضاً أنها الهجرة الىٰ الحبشة[٤].

وسنذكر أن هٰذه السورة هي آخر سورة نزلت في شِعب أبي طالب، ونذكر بعد ذلك أن بيعة العقبة الاولىٰ أيضاً كذلك كانت في آخر موسم عمرة قبل الخروج من الشِعب، وأنّ النبيّ أذن لأصحابه بعد ذٰلك بالهجرة الىٰ المدينة تدريجيّاً. فلو كانت الآية العاشرة من سورة الزمر بقوله سبحانه فيها ﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ مبدأ إذن النبيّ بالهجرة الىٰ الحبشة، فمن المحتمل أن تكون هٰذه الآية مبدأ إذن الرسول هٰذه المرّة بالهجرة الىٰ المدينة، مع وضوح الفرق بين الفترتين في حال البلدين. ولكنّنا لا نجد شيئاً في ذٰلك عند رواة الحديث والتفسير والتأريخ.

---

(١) النحل : ٤١.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٥٣٥.

(٣) الاتقان ١ : ١٥.

(٤) الدر المنثور ٥ : ١١٨ والتمهيد ١ : ١٥٢.

ومن المحتمل كذلك أيضاً أن تكون الآية بل السورة ممّا نزل في أواخر السنة الحادية عشرة للبعثة، قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، اذ كان قد قدم مكّة من أرض الحبشة أبو سلمة عبد اللّٰه بن عبد الأسد المخزومي مع زوجته أُمّ سلمة، فلمّا آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج الىٰ المدينة مهاجراً فكان أوّل من هاجر الىٰ المدينة من أصحاب رسول اللّٰه[١].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[٢].

قال القمي في تفسيره: هو لسان أبي فكهية مولىٰ ابن الحضرمي، كان أعجمي اللسان، وكان قد اتبع نبيّ اللّٰه وآمن به، وكان من أهل الكتاب، فقالت قريش: هٰذا ـ واللّٰه ـ يعلّم محمّداً بلسانه[٣].

ونقل الطبرْسي عن مجاهد وقتادة قالا: أرادوا به عبداً لبني الحضرمي رومياً يقال له عائش، صاحب كتاب، أسلم وحسن اسلامه.

وعن عبد اللّٰه بن مسلم قال: كان في الجاهلية غلامان نصرانيان من أهل عين التمر (في العراق) اسم أحدهما يسار والآخر جَبر، كانا يقرءان كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ربما مرّ بهما واستمع لقراءتهما، فقالوا: إنّما يتعلم منهما[٤].

وعن ابن عباس قال: قالت قريش: إنّما يعلمه بَلْعام، وكان قيناً رومياً نصرانياً بمكّة[٥].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٢.

(٢) النحل : ١٠٣.

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٩٠.

(٤) أسباب النزول للواحدي : ٢٣١.

(٥) مجمع البيان ٦ : ٥٩٥ و روىٰ السيوطي عنه أيضاً قال: كان رسول اللّٰه يعلّم قيناً ←

وقـال ابن اسحاق: بلغني أن رسول اللّٰه كان كثيراً مايجلس عند المروة الىٰ مَبيعَة غلام نصراني يقال له: جَبْر عبدٌ لبني الحضرمي، فكانوا يقولون: واللّٰه مـا يعلّم محمّداً كثيراً ممّا يأتي به إلّا جبرٌ النصرانيّ غلام بني الحضرمي. فأنزل اللّٰه تعالىٰ في ذلك: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[1].

مقتل ياسر وسمية وتعذيب ابنهما عمّار:

ومنها قوله سـبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَـذِبَ الَّـذِينَ لَا يُـؤْمِنُونَ بِآيَـاتِ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّـهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُوْلَئِكَ الَّـذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَـرَمَ أَنَّـهُمْ فِـي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

روىٰ العياشي في تفسيره عن الصادق عليه‌السلام قال: إنّ عمّار بن ياسر أُخذ بمكّة فقالوا له: ابرأ من رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله، فبرأ منه، فأنزل اللّٰه عذره: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾.

← بمكّة اسمه بَلعام ـ وكان أعجمي اللسان ـ فكان المشركون يرون رسول اللّٰه يدخل عـليه ويخرج من عنده، فقالوا إنما يعلّمه بَلعام، الدر المنثور ٤: ١٣١ وروىٰ روايات اخرىٰ باسماء: أبي اليسر، ومقيس.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٣٣.

(٢) النحل: ١٠٥ ـ ١١٠.

وروىٰ فيه عنه عليه السلام قال : أما سمعت قول الله في عمّار : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

وروىٰ فيه عنه عليه السلام قال : إنّ هٰذه الآية نزلت في عمّار وأصحابه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾(١).

ولذٰلك قال القمي في تفسير هٰذه الآية : هو عمّار بن ياسر أخذته قريش بمكّة، فعذّبوه بالنار حتّىٰ أعطاهم بلسانه ما أرادوا، وقلبه مطمئن بالايمان... ثمّ قال في عمّار أيضاً : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢).

وروىٰ الكليني في (الكافي) بسنده عن الصادق عليه السلام أيضاً قال : إنّ عمّار بن ياسر اكرهه أهل مكّة وقلبه مطمئن بالايمان، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله عندها : يا عمّار إنْ عادوا فَعُد، فقد أنزل الله عذرك : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ وأمرك أن تعود إن عادوا(٣).

وروىٰ الطبرسي في «مجمع البيان» عن قَتادة وابن عباس قال : نزلت الآية في جماعة أُكرهوا علىٰ الكفر، وهم : عمّار وياسر أبوه وأُمّه سمية وصُهيب وبلال وخبّاب، عُذّبوا حتّىٰ قُتل ابو عمّار وأُمه، فاعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه، فأخبر الله سبحانه بذلك رسوله، فقال قوم : كفر عمّار، فقال صلى الله عليه وآله : كلّا إنّ عمّاراً مُلىء إيماناً من قرنه الىٰ قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه. وجاء عمّار الىٰ رسول الله وهو يبكي، فقال صلى الله عليه وآله : ما وراءك ؟ فقال : شرّ يا رسول الله، ما تُركتُ حتّىٰ

---

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٩٠، ٣٩١.

(٣) أُصول الكافي ٢ : ٢١٩ عن القمّي أيضاً.

نِلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير! فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: إن عادوا لك فعُدْ لَهُم بما قلت. ثمّ قال: فنزلت الآية[١].

بينما مرّ في خبر الكليني عن الصادق عليه السلام أنّ النبيَّ قال له: «إن عادوا فَعُدْ فقد أنزل الله عذرك وأمرك أن تعودَ إنْ عادوا» ممّا ظاهره أن الآية كانت قد نزلت عليه ﷺ قبل مقابلة عمّار له لا بعدها. وقد مرّ في خبر الطبرْسي نفسه: أن الله أخبر بذلك رسوله قبل مجيء عمّار الىٰ الرسول، فالظاهر أنّ نزول الآيات كان قبل المقابلة لا بعدها، وعليه فلا محلّ لقوله: «فنزلت الآية» كما لا محل لما أخرجه السيوطي في (الدر المنثور) عن مصنف عبد الرزاق، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبري، والبيهقي في (دلائل النبوة) من طريق أبي عبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر، عن أبيه عن آبائه قال: أخذ المشركون عمّار بن ياسر فلم يتركوه حتّىٰ سبَّ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ وذكر آلهتهم بخير، ثمّ تركوه. فلمّا أتىٰ رسولَ الله قال له: ما وراءك؟ قال: شرّ، ما تُركتُ حتّىٰ نِلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير! قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالايمان، قال: فان عادوا فَعُدْ، فنزلت.

وبقوله: فان عادوا فَعُد، لا محلّ لما أخرجه السيوطي فيه عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ أن يهاجر الىٰ المدينة قال لأصحابه... فأصبح بلال وخبّاب وعمّار... فأخذهم المشركون... وأمّا عمّار فقال لهم كلمة أعجبتهم، تقيّةً، ثمّ خلّوا عن بلال وخبّاب وعمّار فلحقوا برسول الله فأخبروه بالّذي كان من أمرهم... وأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[٢].

---

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٩٧.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٣٢، ١٣٣.

وكذا لا محل لما رواه قبله الواحدي في (أسباب النزول) عن ابن عباس قال: إنّ المشركين أخذوا عماراً وأباه ياسراً وأُمه سُميّة وبلالاً وخبّاباً وسالماً. فأمّا سُميّة فانها رُبطت بين بعيرين ووُجىء قُبلها بحربة فقُتلت، وقتل زوجُها ياسر، فهما أوّل قتيلين في الإسلام، وأمّا عمار فانه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً. فأُخبر النبيّ بأن عماراً كفر! فقال: كلّا، إنّ عماراً مُلىء ايماناً من قرنه الى قدمه، واختلط الايمان بدمه ولحمه! فأتى عمّار رسول اللّه وهو يبكي، فجعل رسول اللّه يمسح عينيه وقال: إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت. فأنزل اللّه[١].

وبهذا المعنى ما رواه الكشي في رجاله بسنده عن الليث بن سعد عن عمر مولى غفرة قال: حُبس عمّار فيمن حُبس وعُذّب، فانفلت فيمن انفلت من الناس فقدم على رسول اللّه ﷺ فقال: أفلح أبو اليقظان! قال: ما أفلح ولا أنجح لنفسه؛ لأنهم لم يزالوا يعذّبونه حتّى نال منك! قال: إن سألوا مِنْ ذاك فزدهم[٢].

بل روى فيه بسنده عن محمّد المحمودي المروزي قال: إنّ عمّار بن ياسر قتلت قريش أبويه ورسول اللّه يقول: صبراً آل ياسر فانّ موعدكم الجنة، ما تريدون من عمّار؟ عمّار مع الحق والحق مع عمّار حيث كان، عمّار جلدة بين عيني وأنفي، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار. وألقته قريش في النار فقال فيه رسول اللّه ﷺ: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمّار كما كنت برداً وسلاماً على ابراهيم. فلم تصله النار ولم يصبه منها مكروه[٣] وهذا يدل على وجود الرسول في مكّة حينذاك، فلعلّ ذلك كان في أيام الموسم إذ كان يخرج فيه النبيّ وبنو هاشم

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٣١ ط الجميلي.

(٢) رجال الكشي: ٣٥ ط مشهد.

(٣) رجال الكشي: ٣٠ ط مشهد. وروى مختصر الخبر ابن إسحاق في السيرة ١: ٣٤٢.

وسيأتي أن الآيات الاولىٰ من آخر سورة مكية هي «العنكبوت» نزلت في عمّار بن ياسر أيضاً[١]، ولعلّنا نجد في ذلك حلاًّ للاشكال، ومحملاً لهذه الأخبار الّتي تفيد أن عمّاراً عُذّب قُبيل هجرته بل وقد هاجر الرسول ﷺ، وأنّه هاجر الىٰ المدينة ولكنه لم يواجه الرسول حياءً منه لما قاله من كلمة الكفر، أو واجهه وهو يبكي من ذلك، حتّىٰ طمأنه النبيّ بعدم الاثم عليه. فان هٰذه الأخبار انما تناسب تلك الفترة لا قبلها.

وأيضاً نجد بالقول بتعدد الموقف لعمّار، محملاً جميلاً لطيفاً لقول الرسول له: «إن عادوا لـك فعُد لهم» بأنّها كلمة قالها له في هذهِ المرّة مشيراً له بلطف الىٰ أنّ هٰذا الأمر سيتكرّر منهم ومنك، وأن الاشارة الىٰ تكرار ذلك أيام هجرته. ولكن الرواة خلطوا فجعلوا هٰذه الجملة مقولة له من الرسول ﷺ في المدينة بعد الهجرة حيث لا توقع بعودة مشركي قريش الىٰ تعذيب عمّار لافتتانه عـن دينه. فما معنىٰ أن يقول له الرسول: ان عادوا فعُدْ لَـهُم؟.

ونجد بذلك أيضاً محملاً لخلط بعض الرواة حيث رووا ما يفيد أنّ هٰذه الآيـة من سورة النحل المكيّة نزلت بعد الهجرة في عمار، كما مرّ عن السـيوطي في «الدر المنثور»[٢] ممّا استلزم استثناء هٰذه الآيات من مكية السورة بلا موجب.

أوّل لقاء الخزرج بالنبيّ في موسم العمرة:

بما أنّ الآية (١٢٥) من سورة النحل تستتبع خبر خروجهم مـن الشـعب، وقبل ذلك كان لقاؤه ﷺ بالخزرج في موسم العمرة في شهر رجب، لذلك نقدم هنا الخبر عن ذلك:

---

(١) هذا الكتاب: ٦٨٢.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٣٢، ١٣٣.

روى الطبرسي في «اعلام الورى» عن القمي قال: كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، فكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار. وكان آخر حرب بينهم يوم بُعاث[1].

وعند استعداد الخزرج لهذه الحرب لما دعوا عبد الله بن أُبيّ بن سَلول (= اسم جدّته) وكان من أشرافهم واسخيائهم، قال: هذا ظلم منكم للأوس ولا أُعين على الظلم، فلم يدخل مع قومه الخزرج في حرب بُعاث ولم يُعنهم على الأوس، واتّفق ان كانت حرب بُعاث للأوس على الخزرج، فلما كان كذلك رضى الفريقان بالمصالحة ورضوا به أن يملّكوه عليهم، وأخذوا يُعدّون له اكليلاً لذلك.

وكان الأوس والخزرج يسمعون من يهود قَينُقاع وقريظة والنضير فيما بينهم يقولون لهم: هذا أوان نبيّ يخرج بمكة يكون مُهاجرَه إلى يثرب (المدينة) لنقتلنّكم به يا معشر العرب (وهم عرب).

ومن الخزرج وقبل أن يملّكوا عليهم عبد الله بن أُبيّ، حاول بعضهم أن يسأل من قريش مكة حلفاً على الأوس، فخرج منهم لموسم العمرة في شهر رجب ذكوان بن عبد القيس وأسعد بن زرارة الخزرجيان، وكان ذلك حين محاصرة بني هاشم في الشِعب.

وكان أسعد بن زرارة من قبل صديقاً لعتبة بن ربيعة المخزومي فنزل عليه وقال له: إنه كان بيننا وبين قومنا (الأوس) حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عُتبة: بعُدت دارنا عن داركم، ولنا شُغل لا نتفرّغ معه لشيء!

قال أسعد: أنتم في حرمكم وأمنكم، فما شغلكم؟

قال عتبة: خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول الله سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا!

---

(١) اسم حصن الاوس، وكانت الحرب عنده فسميت به. النهاية ١ : ١٣٩.

قال أسعد: مَن هو منكم؟ قال: هو ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً!

قال: فأين هو؟ قال: إنهم لا يخرجون من شِعبهم إلّا في الموسم، فهو اليوم يجلس في الحِجر، فلا تكلّمه ولا تسمع منه كلمة فإنه يسحرك بكلامه!

فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي من أن أطوف بالبيت؟

قال عتبة: ضع قُطناً في أُذنيك!

فحشا أسعد أُذنيه من القطن ودخل المسجد فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر ومعه قوم من بني هاشم، فلما مرّ به نظر إليه نظرة وجازه، ولكنه قال في نفسه: أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه حتى ارجع إلى قومي فأُخبرهم؟! هذا جهل ليس فوقه جهل! ففي الشوط الثاني اخرج القطن من أُذنه ورمى به ودنا من رسول الله وحيّاه بتحية الجاهلية: أنعِم صباحاً. فرفع إليه رسول الله رأسه وقال له: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحيّة أهل الجنة: السلام عليكم.

فجلس إليه أسعد وقال: إن عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو؟

قال صلى الله عليه وآله: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله، وادعوكم إلى (وتلا عليه آيتين من سورة الأنعام): ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٥١، ١٥٢.

فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله. ثمّ قال: يا رسول الله، بأبي أنت وأُمي، أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك فلا أحد اعزّ منك. ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّم الله لنا أمرنا فيك. والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشّروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارنا هجرتك وعندنا مقامك فقد اعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلّا لنطلب الحلف على قومنا وقد أتاني الله بأفضل مما أتيت له.

ثمّ أقبل ذكوان فناداه أسعد وقال له: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به وتجزنا بصفته فهلمّ وأسلم، فأسلم ذكوان.

ثمّ قالا: يا رسول الله ابعث معنا رجلاً يعلّمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك.

وكان مصعب بن عمير بن هاشم (من بني عبد الدار) يحبّه أبوه عمير بن هاشم ويكرمه ويفضّله على أولاده، وأسلم، فجفاه أبواه (وكان قد خرج من مكة إلى الحبشة في الهجرة الأُولى ولكنه عاد مع من عاد بعد شهرين إلى مكة) فكان مع رسول الله في الشِعب حتى تغيّر وأصابه الجَهد، وكان قد تعلّم من القرآن كثيراً (فلما طلب الخزرَجيان معلماً بالقرآن وداعياً إلى الإسلام في يثرب) أمر رسول الله مصعب بن عمير بالخروج معهما، فخرج معهما إلى يثرب، وأنزله أسعد بن زرارة في داره، وأخذ يخرج معه كل يوم يطوف به على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام، فيجيبه من كل بطن منهم الرجل والرجلان من أحداثهم وشبابهم. حتى ذهب به أسعد إلى خاله سعد بن مُعاذ من بني عمرو بن عوف من الأوس فأسلم وأسلم معه كثير من بني عمرو بن عوف في قباء (كما سيأتي تفصيله).

وكتب مصعب إلى رسول الله بأن الأوس والخزرج قد دخلوا في الإسلام، فلما بلغ ذلك رسول الله أذن لهم بالخروج إلى المدينة[١].

هجرة أبي سلمة إلى المدينة:

مرّ في الخبر: أن من المهاجرين الأولين إلى الحبشة كان أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي مع زوجته أُم سلمة هند بنت أبي أُمية المخزومي، وأنهم خرجوا في شهر رجب في الخامسة من البعثة فأقاموا في الحبشة شهرين وسمعوا بإسلام أهل مكة فرجع جمع منهم ـ منهم أبو سلمة وزوجه ـ في شوال[٢].

وأُمّ أبي سلمة: برة بنت عبد المطلب أُخت أبي طالب، فأبو طالب خاله. ولذلك دخل مكة في جوار خاله أبي طالب.

فمشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعت منّا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منّا؟!

قال: إنه استجار بي، وهو ابن أُختي، وإن أنا لم أمنع ابن أُختي لم أمنع ابن أخي.

وأكثروا الكلام على أبي طالب حتى قام أبو لهب وقال لهم: يا معشر قريش، والله لقد اكثرتم على هذا الشيخ (وكان له تسعون سنة) ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد!

فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتيبة[٣]!

---

(١) إعلام الورى ١ : ١٣٦ ـ ١٣٩.

(٢) بحار الأنوار ١٨ : ٤٢٢ عن المنتق.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ٢٤٨.

وقال ابن إسحاق : لما قدم أبو سلمة من أرض الحبشة آذته قريش ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار هاجر إلى المدينة ، وذلك قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة (ونزل في بني عمرو بن عوف في قباء كما يأتي) .

وروى عن أبيه عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أُم سلمة[١] قالت : لما أجمع أبو سلمة على الخروج إلى المدينة جهّز لي بعيره فأركبني ومعي ابني سلمة في حجري وجعل يقودنا .

وجاءنا رجال من بني مخزوم فقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها[٢] فعلامَ نتركك تسير بصاحبتك ؟! ثمّ نزعوا خِطام البعير من يده فأخذوني منه وحبسني أهلي عندهم ، وعندي ابني سلمة . وانطلق أبو سلمة إلى المدينة . وجاء رهط أبي سلمة فقالوا لنا : إذ نزعتموها من صاحبنا فلا نترك ابننا عندها ! فتجاذبوا بينهم ابني سلمة حتى خلعوا يدي عنه وانطلقوا به منّي !

فكنت اخرج غداة كل يوم إلى الأبطح فأجلس فيه فما أزال ابكي حتى أُمسي فارجع إلى أهلي ! قريباً من سنة ! حتى مرّ بي يوماً رجل من بني عمّي فترحّم عليّ ، وجاء إلى أهلي فقال لهم : ألا تُخرجون هذه المسكينة ، فرّقتم بينها وبين زوجها وبينها وبين ولدها ؟! فعند ذلك ردّوا إلي ابني ، ثمّ قالوا لي : إن شئت فالحقي بزوجك .

قالت : فارتحلت بعيري وأخذت ابني في حجري وخرجت أُريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله .. فلما كنت بالتنعيم (مخرج مكة إلى المدينة) لقيني عثمان بن طلحة من بني عبد الدار ، فعرفني فقال : يا بنت أبي أُمية إلى أين ؟ قلت : أُريد زوجي بالمدينة ! قال : أوَ ما معك أحد ؟ قلت : لا والله إلّا الله وابني هذا !

---

(١) كذا ، وأُم سلمة جدّة أبيه عبد الله فلعلّه روى عن أبيه عبد الله عن جدّته أم سلمة .

(٢) لعله لجوار أبي طالب له .

فقال: والله مالي أن أتركك، ثمّ أخذ بخطام البعير فانطلق بي، فكان إذا بلغ المنزل ينيخ بي ثمّ يتأخّر عني حتى أنزل فإذا نزلت كان يأتي فيأخذ بعيري فيحطّ عنه ثمّ يقيده بشجرة، ثمّ يتنحّى عني إلى شجرة أُخرى فيضطجع تحتها. فإذا دنى الرواح يقوم إلى بعيري فيقدمه ثمّ يتأخّر عنّي ويقول: اركبي فإذا ركبت يأتي فيأخذ بخطامه فيقوده، وهكذا حتى إذا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله. ثمّ انصرف راجعاً إلى مكة[١].

صحيفة المقاطعة الظالمة:

ومنها قوله سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٢].

ذكر ابن شهر آشوب في «المناقب» عن «شرف المصطفىٰ» للخرگوشي: أن الآية: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ نزلت علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله في أواخر أيام الحصار في شِعب أبي طالب، فقال صلى الله عليه وآله: كيف ادعوهم وقد صالحوا علىٰ تركي الدعوة؟ فنزل جبرئيل فأخبر النبيَّ: أنّ اللّٰه بعث علىٰ صحيفتهم الأرَضة، فلحستْها[٣].

وروى قبله القطب الراوندي في «قصص الأنبياء»: أنّه لما أتى على رسول الله صلى الله عليه وآله في الشِعب أربع سنين، بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابّة الأرض

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ١١٢ ـ ١١٣ بتصرف في الألفاظ.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٦٥.

فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور، وتركت اسم الله، ونزل جبرئيل عليه فأخبره بذلك[1].

ورواه في «الخرائج والجرائح» فقال: حاصروا بني هاشم في الشِعب ـ شِعب عبد المطّلب ـ أربع سنين. فأصبح النبيّ يوماً وقال لعمه أبي طالب: إن الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعتنا قد بعث الله عليها دابة (الأرض) فلحَست كلَّ ما فيها غير اسم الله.

فقال أبو طالب: يابن أخي أفأصِر إلى قريش فأُعلمهم بذلك؟ قال: إن شئت.

فصار أبو طالب رضي الله عنه إليهم فاستبشروا بمصيره إليهم واستقبلوه بالتعظيم والاجلال وقالوا:

قد علمنا الآن أنّ رضا قومك أحبّ إليك مما كنت فيه، أفتسلّم إلينا محمداً، ولهذا جئتنا؟!

قال: يا قوم، إني قد جئتكم بخبر أخبرني به ابن أخي محمد، فانظروا في ذلك، فإن كان كما قال فاتقوا الله وارجعوا عن قطيعتنا، وإن كان بخلاف ما قال سلّمته إليكم واتّبعت مرضاتكم!

قالوا: وما الذي أخبرك؟!

قال: أخبرني: أن الله قد بعث على صحيفتكم دابّةً (الأرض) فلحسَت ما فيها غير اسم الله، فحطّوها، فإن كان الأمر بخلاف ما قال سلّمته إليكم[2]!

وكانت قبل في الكعبة فخافوا عليها السرق (فجعلوها) عند أُمّ أبي جهل! فبعثوا إليها، فوضعت بين أيديهم وخواتيمهم عليها.

---

(١) قصص الأنبياء للراوندي: ٣٢٩.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ١٤٢ الحديث ٢٣٠.

فقال أبو طالب: هل تنكرون منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال: إن ابن أخي حدّثني ـ ولم يكذبني قط ـ أن الله قد بعث على هذه الصحيفة الأَرَضَة فأكلت كلّ قطيعة وإثم وتركت كل اسم هو لله! فإن كان صادقاً أقلعتم عن ظلمنا، وإن يكن كاذباً ندفعه إليكم فقتلتموه!

فصاح الناس: نعم أنصفتنا يا أبا طالب. ففُتحت ثمّ أُخرجت، فإذا هي مُتْربة (مقطّعة) كما قال[١].

فأتوا بها وفكّوا الخواتيم، فاذا فيها «باسمك اللهم» واسم «محمّد» فقط! فقال لهم أبو طالب: اتقوا اللّه وكفّوا عمّا أنتم عليه. فسكتوا وتفرّقوا.

واجتمع سبعة نفر من قريش علىٰ نقضها وقالوا: أخرقها اللّه، ومنهم: مُطعِم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وزهير بن أبي أُميّة المخزومي زوج عاتكة بنت أبي طالب[٢] وهشام ابن عمرو بن لؤيّ بن غالب، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود ابن المطّلب... وعزموا أن يقطعوا يمين كاتبها: منصور بن عكرمة، فوجدوها شلّاء، فقالوا: قطعها اللّه.

وفي ذٰلك قال أبو طالب:

ألا هل أتىٰ بحريّنا صنعُ ربنا ... علىٰ نأيهم؟[٣] واللّه بالناس أرودُ
فيخبرهم: أن الصحيفة مُزّقَتْ ... وأن كلَّ مالم يرضَهُ اللّه يَفْسُدُ
يراوحها إفك وسحر مُجَمَّعُ ... ولم تلق سحراً آخر الدهر يصعدُ

---

(١) الخرائج والجرائح ١ : ٨١ الحديث ١٤١.

(٢) وسيأتي عن ابن اسحاق ان اُمّه عاتكة، بنت عبد المطّلب وابن اسحاق اقرب الىٰ الاتقان.

(٣) يقصد المهاجرين الىٰ الحبشة. وذكر القصيدة ابن اسحاق في سيرة ابن هشام ١ : ١٧ـ ١٩، ستة وعشرين بيتاً.

وله أيضاً في ذلك :

وقد كان من أمر الصحيفة عبرة ... متىٰ مايخبَّرْ غائب القوم يَعْجَب
محا اللّٰه منها كفرهم وعقوقَهم ... ومانقموا من ناطق الحق مُعْرِبِ
وأصبح ماقالوا من الأمر باطلاً ... ومن يختلق ماليس بالحق يُكذبِ
وأمسىٰ ابنُ عبد اللّٰه فينا مصدَّقا ... علىٰ سَخَطٍ من قومنا، غيرَ معْتَبِ

وله أيضاً في ذلك :

تطاول ليلي بهمٍّ نَصَب ... ودَمْعي كسَحٍّ السِّقاء السَّرِب
ولعبُ قُصيٍّ بأحلامِها ... وهَلْ يرجِع الحلُم بعد اللعب
ونفيُ قُصَيٍّ بني هاشمٍ ... كنَفْيِ الطُّهاة لِطافَ الحطب[1]
وقالوا لأحمد : أنت امرؤٌ ... خَلوفُ الحديثِ ضعيف النَسَب
وان كان أحمد قد جاءهم ... بحق ولم يأتهم بالكذب
علىٰ أنّ إخوانَنا وازروا : ... بني هاشمٍ وبني المطّلب
ورمتم بأحمد مارمتمُ ... علىٰ الآصرات وقرب النَسَب
فأنّىٰ، وماحجَّ من راكب ... وكعبةِ مكّة ذات الحُجُب
تنالون أحمد؟ أو تصطلوا ... بروس الرماح وحدِّ القُضُب[2]

وذكر الخبر الراوندي إلىٰ أن قال : فتفرق القوم ولم يتكلم أحد منهم، وعند ذلك قال نفر من بني عبد مناف وبني قُصي ورجال من قريش ولدتهم نساء بني هاشم منهم : مطعم بن عدي ـ وكان شيخاً كبيراً كثير المال له أولاد ـ وأبو البختري بن هشام، وزهير بن أُميّة المخزومي في رجال من أشرافهم، قالوا : نحن براء ممّا

---

(١) أي : كما ينفي الطبّاخ الخشب الجيّد عن الاحتراق.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥ ـ ٦٧ ونقل المقطوعة والّتي قبلها السيد هاشم البحراني في حلية الأبرار ١ : ٦٢ ـ ٦٤ عن المستدرك لابن بطريق عن مغازي ابن اسحاق.

في هٰذه الصحيفة. وقال أبو جهل: هٰذا أمر قُضي بليل! ورجع أبو طالب الىٰ الشِعب وخرج منه هو والنبيّ ورهطه، وخالطوا الناس[١] والظاهر أنّه نقله من كتاب شيخه الطَبْرسي: «إعلام الورىٰ»[٢].

وذكر الخبر ابن هشام في سيرته قال: ذكر بعض أهل العلم: أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عمّ، إنّ ربيّ الله قد سلّط الأرَضَةَ علىٰ صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً لله الا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان.

فقال: أربّك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد.

ثمّ خرج الىٰ قريش، فقال: يا معشر قريش، إنّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمّ صحيفتكم، فان كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عمّا فيها، وان كان كاذباً دفعت اليكم ابن أخي. فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا علىٰ ذلك ثمّ نظروا، فاذا هي كما قال رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ـ فزادهم ذلك شراً.

فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[٣].

ونقل الخبر السيد هاشم البحراني عن كتاب «المستدرك» ليحيىٰ بن الحسن ابن البطريق الحلي عن كتاب «المغازي» لابن اسحاق قال: ثمّ إن الله أرسل علىٰ صحيفة قريش ـ الّتي كتبوا فيها تظاهرهم علىٰ بني هاشم ـ الارَضة، فلم يدع فيها اسماً لله تعالىٰ الا اكلته! وبقيَ فيها الظلم والقطيعة والبهتان (بعكس السابق) فأخبر الله بذلك رسول الله ﷺ فأخبر أبا طالب.

---

(١) قصص الأنبياء: ٣٣٠.

(٢) إعلام الورىٰ ١: ١٢٦، ١٢٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢: ١٦، ١٧.

فقال له أبو طالب: يابن أخي من حدّثك بهذا؟ وليس يدخل علينا أحد ولا تخرج أنت الىٰ أحد، ولستَ في نفسي من أهل الكذب!

فقال رسول الله ﷺ: أخبرني ربّي بهذا.

فقال له عمه: إن ربك الحق وأنا أشهد أنك صادق.

ثمّ جمع أبو طالب رهطه، ولم يخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ، كراهية أن يفشوا ذٰلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة الخبَّ والمكر. وانطلق أبو طالب برهطه حتّىٰ دخل المسجد، والمشركون من قريش في ظل الكعبة.

فلمّا أبصروه تباشروا به وظنّوا أن الحصر والبلاء حملهم علىٰ أن يدفعوا رسول الله فيقتلوه! فلمّا انتهىٰ اليهم أبو طالب ورهطه رحّبوا به وقالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم وفي حياته فرقتكم وفسادكم!

فقال أبو طالب: قد جئتكم في أمر لعله يكون فيه صلاح وجماعة، فاقبلوا ذٰلك منّا، هلمّوا صحيفتكم الّتي فيها تظاهركم علينا.

فجاؤوا بها وهم لا يشكّون أنهم سيدفعون رسول الله اليهم اذا نشروها.

فلمّا جاؤوا بصحيفتهم قال أبو طالب: صحيفتكم بيني وبينكم، فان ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني: أن الله عزوجل قد بعث علىٰ صحيفتكم الأرضة فلم تدع لله تعالىٰ اسماً الا اكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان. فان كان كاذباً فلكم عليّ أن أدفعه اليكم تقتلونه، وان كان صادقاً فهل ذٰلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟

فأخذ عليهم المواثيق واخذوا عليه. فلمّا نشروها فاذا هي كما قال رسول الله ﷺ فاستسرّ أبو طالب وأصحابه وقالوا: أرأيتم أيّنا أولىٰ بالحزّ والقطيعة والبهتان؟!

فقام المطعم بن عدي بن نوفل بن مناف، وهشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، فقالوا: نحن بَراء من هٰذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالي أحداً في فساد أمرنا. وتتابع علىٰ ذٰلك ناس من أشراف قريش. فخرج القوم من شِعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد[١].

وقال ابن اسحاق في السيرة: مشىٰ هشام بن عمرو بن ربيعة الىٰ زهير بن أبي أُمية ابن المغيرة المخزومي ـ وكانت امه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له: يازهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب... وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يبتاع منهم؟! أمّا إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) ثمّ دعوته الىٰ مادعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبداً.

قال: ويحك ياهشام فما أصنع؟ انما أنا رجل واحد، واللّٰه أن لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتّىٰ انقضها.

قال: قد وجدتَ رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال: ابغِنا رجلاً ثالثاً.

فذهب (هشام) الىٰ المُطْعِم بن عدي فقال له: يا مُطعم، أقد رضيت ان يهلك بطنان من بني عبد مناف (بنو هاشم وبنو المطّلب) وأنت شاهد علىٰ ذٰلك موافق لقريش فيه؟ أما واللّٰه لئن أمكنتموهم من هٰذه لتجدنّهم اليها منكم سراعاً!

قال: ويحك فما أصنع؟ انما أنا رجل واحد. قال: قد وجدتَ ثانياً. قال: مَن هو؟ قال: أنا قال: ابغنا ثالثاً. قال: قد فعلتُ. قال: مَن هو؟ قال: زهير بن أبي أُمية. قال: ابغنا رابعاً.

فذهب (هشام) الىٰ أبي البختريّ بن هشام فقال له ما قال للمُطعِم. فقال: وهل من أحد يُعين علىٰ هٰذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير ابن أبي أُمية والمطعم بن عدي، وأنا معك. قال: ابغنا خامساً.

---

(١) حلية الأبرار ١: ٦١، ٦٢.

فذهب (هشام) الىٰ زمعة بن الاسود بن المطلب، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال له: وهل علىٰ هٰذا الأمر الّذي تدعوني اليه من أحد؟ قال: نعم، وسمّىٰ له القوم. فاتّعدوا ليلاً بأعلىٰ مكّة في مقدّم الحَجون.

فاجتمعوا هناك وتعاقدوا علىٰ القيام في الصحيفة حتّىٰ ينقضوها وقال زهير: أنا أبدؤكم فاكون أوّل من يتكلم.

فلمّا أصبحوا غدوا الىٰ أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أُمية، فطاف بالبيت سبعاً ثمّ أقبل علىٰ الناس فقال: ياأهل مكّة! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكىٰ لا يباعون ولا يبتاع منهم؟! واللّٰه لا أقعد حتّىٰ تُشقَ هٰذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وكان أبو جهل في ناحية المسجد فقال: كذبت، والله لا تُشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت ـ واللّٰه ـ اكذب، مارضينا كتابها حيث كُتبت.

وقال أبو البختريّ: صدق زمعة، لا نرضىٰ ماكتُب فيها، ولا نُقرُّ به.

وقال المُطعِم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذٰلك، نبرأ الىٰ اللّٰه منها وممّا كتب فيها.

فقال أبو جهل: هٰذا أمر قُضي بليل، تُشوورَ فيه بغير هٰذا المكان.

فقام المُطعِم الىٰ الصحيفة ليشقّها فوجَدَ الأرضةَ قد اكلتها الا «باسمك اللّٰهم».

وكان أبو طالب حاضراً في ناحية المسجد[1].

أمّا الآية التالية: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** ﴾[2] فقد اشتهر أن الآية نزلت بعد مقتل حمزة سيد الشهداء في أُحد في الثالثة بعد الهجرة، وبمثله قال القمي في تفسيره[3] ورواه العياشي

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ١٤ ـ ١٦. هذا، ولا يخفى دافع التنكّر لدور أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) النحل: ١٢٦.

(٣) تفسير القمي في آخر الجزء الأول.

في تفسيره[١]، عن الصادق عليه السلام. وعليه عدّ الآية بعضهم من مستثنيات السورة المكية، وأنّها مدنية.

ولكن نقل الطَبرسي في «مجمع البيان» عن الحسن قال: نزلت الآية قبل أن يؤمر النبيّ بقتال المشركين، علىٰ العموم، وانما اُمر بقتال من قاتله. وعن ابراهيم وابن سيرين ومجاهد: أنّ الآية عامة في كلّ ظلم كغصب ونحوه، فانما يجازىٰ بمثل ما عمل[٢] فان صحّ الخبر عن الصادق عليه السلام فيمكن حمله علىٰ تعدّد النزول، أو التذكير بالآية.

وعليه فلعل قوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أي عاقبتم مقاطعة المشركين وقطعهم لأرحامهم معكم بحصاركم في شعب أبي طالب، فعاقبوهم بمثل ما عاملوكم به من القطيعة والهجران. ثمّ يقول في الآية التالية: ﴿ وَاصْبِرْ ... ﴾ عن المقابلة بالمثل ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لعدم هدايتهم واصرارهم علىٰ ضلالهم ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم السابق بحصركم في الشعب، ومكرهم اللاحق ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ وفي الآية التالية خاتمة السورة: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ولذلك فانهم ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

وعليه فالآية تشير الىٰ آخر أمر حصر الرسول وبني هاشم في شعب أبي طالب، وتكون سورة النحل آخر سورة نزلت قبل نهايته.

واذا قرّبنا أن حصار الشِعب بدأ قريباً من بداية هجرة الحبشة بعد الاذن فيها في الآية العاشرة من سورة الزمر، وهي الستون في ترتيب النزول، وها نحن هنا قرّبنا أن تكون سورة النحل السبعون في النزول آخر مانزل في آخر أيام

---

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٧٥.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٦٠٥.

حصار الشِعب، وقد مرّ أن مختار مؤرّخينا الطبرْسي والراوندي وابن شهر آشوب أن مدة الحصار كانت أربع سنين[١] فمن الطريف أن لازم ذلك أن ستين سورة الىٰ سورة الزمر نزلت في مدة خمس سنين، ولكن في مدة أربع سنين اخرىٰ كان فيها الرسول في حصار الشِعب معه بعض المسلمين من بني هاشم وبني عبد المطّلب. والمستضعفون من المسلمين الثمانين في هجرة الحبشة، وآخرون منهم في مكّة في جوار أو حلف أو استضعاف معزولون عن الرسول اِلّا في أيام المواسم، لم ينزل من القرآن سوىٰ عشر سور تقريباً. وتبقىٰ من السور المكّية ست عشرة سورة تتناسب أن تكون قد نزلت في مدة سنة وستة أشهر مكث فيها النبيّ فى مكّة بعد وفاة أبي طالب وهجرة الطائف في قول ابن شهر آشوب[٢] حسب كيفية النزول قبل حصار الشعب.

وفاة أبي طالب وخديجة:

روىٰ العياشي في تفسيره عن سعيد بن المسيّب عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: كانت خديجة قد ماتت قبل الهجرة بسنة، ومات أبو طالب بعد موت خديجة بسنة. فلمّا فقدهما رسول الله صلى الله عليه وآله سئم المُقام بمكّة ودخله حزن شديد، وأشفق علىٰ نفسه من كفّار قريش، فشكىٰ الىٰ جبرئيل ذلك، فأوحىٰ الله اليه: يامحمّد اُخرج من القرية الظالم أهلها، وهاجِر الىٰ المدينة فليس لك اليوم بمكّة ناصر[٣].

---

(١) إعلام الورى ١ : ١٢٦ وقصص الأنبياء : ٣٣٩ والخرائج والجرائح ١ : ١٤٢ الحديث ٢٣٠. ومناقب آل أبي طالب ١ : ٦٥. وفي مروج الذهب ٢ : ٢٩٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣ ط قم.

(٣) تفسير العياشي ١ : ٢٥٧.

وروىٰ الشيخ الصدوق بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: إنّ أبا طالب اظهر الكفر وأسرّ الايمان، فلمّا حضرته الوفاة أوحىٰ اللّٰه عزوجل الىٰ رسول اللّٰه: أُخرج منها فليس لك بها ناصر، فهاجَرَ الىٰ المدينة(١).

ولكن روىٰ الطوسي في أماليه بسنده عن هند بن أبي هالة الأسدي ربيب رسول اللّٰه من خديجة قال: كان اللّٰه عزوجل يمنع عن نبيّه بعمه أبي طالب عليه‌السلام، فما كان يخلص اليه من قومه أمر يسوؤه مدة حياته. فلمّا مات أبو طالب نالت قريش من رسول اللّٰه بُغيتها وأصابته بعظيم من الأذىٰ حتّىٰ تركته لَقيً فقال: لأسرع ما وجدنا فقدك ياعم، وصَلتك رحم، وجُزيت خيراً ياعم. ثمّ ماتت خديجة بعد أبي طالب بشهر، واجتمع بذلك علىٰ رسول اللّٰه حُزنان حتّىٰ عُرف ذٰلك فيه(٢).

وقال الشيخ الطبرْسي في «إعلام الورىٰ»: خرج النبيّ ورهطه من الشعب وخالطوا الناس، ومات أبو طالب بعد ذٰلك بشهرين، وماتت خديجة بعد ذٰلك، وورد علىٰ رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله أمران عظيمان وجزع جزعاً شديداً، ودخل علىٰ أبي طالب وهو يجود بنفسه وقال: يا عم ربَّيت صغيراً ونصرت كبيراً وكفلت يتيماً، فجزاك اللّٰه عني خير الجزاء(٣) ونقله تلميذه القطب الراوندي في «قصص الأنبياء» بلا اسناد عنه(٤).

وقال الراوندي في وفاة أبي طالب: توفي أبو طالب عمّ النبيّ وله صلى‌الله‌عليه‌وآله ست وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعون يوماً. ثمّ قال: والصحيح أن أبا طالب توفي في آخر السنة العاشرة من مبعث رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله. ثمّ توفيت خديجة بعد

---

(١) اكمال الدين: ١٧٢.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٦٣ الحديث ٣٧ وعنه في بحار الأنوار ١٩: ٥٧.

(٣) إعلام الورىٰ ١: ١٢٩.

(٤) قصص الأنبياء: ٣٣٠.

أبي طالب بثلاثة أيام، فسمّىٰ رسول اللّٰه ذٰلك العام: عام الحزن[١].

وتبعهما ابن شهر آشوب في أن أبا طالب توفي بعد خروجه من الشِعب بشهرين، وفي تعيين السنة قال: بعد النبوة بتسع سنين وثمانية أشهر. ثمّ قال: فلمّا توفي أبو طالب خرج النبيّ ﷺ الىٰ الطائف وأقام فيه شهراً، ثمّ انصرف الىٰ مكّة ومكث بها سنة وستة أشهر[٢] فالمجموع احدىٰ عشرة سنة وبضعة أشهر، وهو خلاف المشهور في مدة مكث الرسول بمكّة قبل الهجرة.

أمّا ابن اسحاق فبعد أن ذكر الهجرة الىٰ الحبشة وصحيفة المقاطعة وحصار الشِعب وفكّه، قال: ثمّ إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت علىٰ رسول اللّٰه المصائب بهلاك خديجة ـ وكانت له وزير صدق علىٰ الاسلام يشكو اليها ـ وبهلاك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنَعَةً وناصراً علىٰ قومه. وذٰلك قبل مُهاجَره الىٰ المدينة بثلاث سنين.

فلمّا هلك ابو طالب نالت قريش من رسول اللّٰه من الأذىٰ ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ـ حتّىٰ ـ حدّثني هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن جده قال: اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر علىٰ رأسه تراباً، فدخل رسول اللّٰه بيته والتراب علىٰ رأسه، فقامت اليه احدىٰ بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول اللّٰه يقول لها: لا تبكي يا بنية، فان اللّٰه مانعٌ أباك. وقال: ما نالت مني قريش شيئاً حتّىٰ مات أبو طالب[٣].

---

(١) قصص الأنبياء: ٣١٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٣.

(٣) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٥٧، ٥٨ ثمّ روى هنا خبراً عن العباس بن عبد اللّٰه بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس، في اجتماع وجوه من قريش الىٰ أبي طالب عند ثقل حاله ←

والطَبْرسي في «إعلام الورىٰ» نقل صدر مقال ابن اسحاق، ثمّ نقل عن كتاب «المعرفة» لابن مَندة قول الواقدي كذلك: أنهم خرجوا من الشِعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي هٰذه السنة توفيت خديجة وأبو طالب وبينهما خمس وثلاثون ليلة[١].

وابن شهر آشوب نقل قول الواقدي كذلك: أنهم خرجوا من الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي هٰذه السنة توفي أبو طالب. الا أنّه قال: وتوفيت خديجة بعده بستة أشهر[٢].

ولم يستند الواقدي فيما ذهب اليه الىٰ نصّ خبر، ولكن الظاهر أنّه يستند في وفاة خديجة الىٰ نصّ خبر رواه عنه تلميذه وكاتبه ابن سعد بسنده عن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد قال: توفيت خديجة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة، فخرجنا بها من منزلها حتّىٰ دفنّاها بالحَجون، فنزل رسول اللّٰه في حفرتها. قيل: ومتىٰ ذٰلك يا ابا خالد؟ قال: بعد خروج بني هاشم من الشِعب بيسير، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أو نحوها[٣]. ونقل سبط ابن الجوزي عن ابن سعد عن الواقدي عن علي عليه‌السلام قال: «لما توفي ابو طالب اخبرت رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله فبكىٰ بكاءً شديداً ثم قال: اذهب فغسّلْه وكفّنْه وواره، غفر الله له ورحمه. فقال له العباس: يا رسول اللّٰه

← في مرضه الّذي توفي فيه، وفي آخره نزول سورة (ص). بينما هي السورة الثامنة والثلاثون علىٰ رواية ابن عباس نفسه، ولذلك فنحن نقلنا الخبر في شأن نزول السورة عند ذكرها، الصفحة ٤٩٩. وفي سند الخبر هنا إرسال «عن بعض أهله» فلا عبرة به. ثمّ من غير المعقول أن تكون قريش قد طمعت في أبي طالب مرة اخرىٰ بعد ذٰلك الحصار الّذي طال أربع سنين!

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٣٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٧٣.

(٣) كشف الغمة ٢ : ١٣٩ عن معالم العترة النبوية للجنابذي عن الطبقات لابن سعد.

(كذا)، انك لترجو له؟ فقال: إي والله إنّي لأرجو له. وجعل رسول اللّه صلى الله عليه وآله يستغفر له أياماً لا يخرج من بيته»[١].

وكذٰلك قال اليعقوبي: وتوفيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستون سنة. ودخل عليها رسول اللّٰه وهي تجود بنفسها فقال: بالكره مني ما أرىٰ، ولعلّ اللّٰه أن يجعل في الكره خيراً كثيراً، إذا لقيتِ ضَرّاتِك في الجنة ـ يا خديجة ـ فأقرئيهنّ السلام. قالت: ومَن هُنّ يا رسول اللّٰه؟ قال: إن اللّٰه زوّجنيكِ في الجنة، وزوّجني مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم، وكلثوم اخت موسىٰ.

ولما توفيت خديجة جعلت فاطمة تتعلق برسول اللّٰه وهي تبكي وتقول: أين أُمّي؟ أين أُمّي؟ فنزل جبرئيل فقال: قل لفاطمة: إن اللّٰه تعالىٰ بنىٰ لأُمك بيتاً في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب.

وتوفي أبو طالب بعد خديجة بثلاثة أيام، وله ست وثمانون سنة، وقيل: تسعون سنة. ولما قيل لرسول اللّٰه: إن أبا طالب قد مات! عظم ذٰلك في قلبه واشتدّ له جزعه، ثمّ دخل عليه فمسح جبينه الأيمن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثمّ قال: يا عم ربّيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً، فجزاك اللّٰه عنّي خيراً.

ومشىٰ بين يدي سريره وجعل يعرض له ويقول: وصلتك رحم وجُزيت خيراً.

وقال: اجتمعت علىٰ هٰذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً. يعني مصيبة خديجة وأبي طالب.

---

(١) تذكرة الأُمة بخصائص الأئمة: ٨.

وروي عنه أنّه قال: إن اللّه عزوجل وعدني في أربعة: في أبي وأمي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية.

واجترأت قريش علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله بعد موت أبي طالب وطمعت فيه وهمّوا به مرة بعد اخرىٰ. وكان رسول اللّه يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب لايسألهم الا أن يؤوه ويمنعوه ويقول: إنما اريد أن تمنعوني ممّا يراد بي من القتل حتّىٰ ابلّغ رسالات ربّي. فكانوا يقولون: قوم الرجل أعلم به. ولم يقبله احد منهم[١].

وقال البلاذري: قالوا: مات أبو طالب في السنة العاشرة من المبعث وهو ابن بضع وثمانين سنة، ودفن بمكّة في الحجون[٢].

ثمّ روىٰ بسنده عن أبي صالح مولىٰ ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب قيل له: لو أرسلت الىٰ ابن أخيك فأتاك بعنقود من جنته لعلّهُ يَشفيك؟! فأتاه الرسول بذلك وأبو بكر عنده، فقال له أبو بكر: ﴿ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٣] [فلمّا رجع الرسول الىٰ ابي طالب بجواب أبي بكر] قال: ليس هذا جواب ابن أخي[٤].

وطابق الطبري في تأريخه ابن اسحاق راوياً عنه لم يزد عليه شيئاً[٥].

---

(١) اليعقوبي ٢ : ٣٦.

(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٢٩.

(٣) الأعراف : ٥٠.

(٤) أنساب الأشراف ٢ : ٣٤. وقريب منه مارواه ابن حنبل في كتاب الفضائل من مسنده بسنده عن أنس بن مالك قال: لما مرض أبو طالب مرضه الّذي مات فيه أرسل الىٰ النبي ـ صلّىٰ اللّه عليه و[آله] وسلّم ـ: أُدع ربك أن يشفيني فان ربك يطيعك وابعث اليّ بقطاف من قِطاف الجنة. فارسل اليه النبيّ: وأنت يا عم إن أطعت اللّه عزوجل أطاعك. الحديث: ٢٧٤ ولا منافاة بين الخبرين.

(٥) الطبري ٢ : ٣٤٣، ٣٤٤.

وافتقد التوفيق المسعودي بين كتابيه، فقال في:

«مروج الذهب»: وفي سنة ست وأربعين (من مولده) كان حصار قريش للنبيّ وبني هاشم وبني المطلب في الشِعب. وفي سنة خمسين كان خروجه ومن تبعه من الشِعب، وفي هٰذه السنة كانت وفاة خديجة زوجه[1] وقال في:

«التنبيه والإشراف»: وتوفي عمه أبو طالب وله بضع وثمانون سنة، وزوجته خديجة بنت خويلد ولها خمس وستون سنة في العاشرة من مبعثه، بينهما ثلاثة أيام، وقيل أكثر من ذٰلك. وذٰلك بعد إبطال الصحيفة وخروج بني هاشم وبني عبد المطلب من الحصار في الشِعب بسنة وستة أشهر. وكان مدة مقامهم في الحصار ثلاث سنين وقيل: سنتين ونصفاً، وقيل: سنتين علىٰ ما في ذٰلك من التنازع. ثمّ يقول: وفي هذه السنة سنة خمسين من مولده...[2] نعم، انما الخلاف بين الكتابين في مدة الحصار، فاختار في «مروج الذهب» أنها أربع سنين آخرها الخمسون من عمر الرسول وفيها وفاة خديجة وأبي طالب، وبينما اختار في «الإشراف» أنها ثلاث سنين وبعدها بسنة ونصف كانت وفاتها.

ونقل الشيخ الطوسي في «المصباح» عن ابن عياش أن وفاة أبي طالب ـ رحمة اللّٰه عليه ـ كان في السادس والعشرين من شهر رجب[3].

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٩٤.

(٢) التنبيه والاشراف : ٢٠٠.

(٣) المصباح : ٥٦٦.

الفصل السابع

الهجرة الىٰ الطائف

النبيّ صلى الله عليه وآله يعرض نفسه على القبائل:

وله صلى الله عليه وآله هِجرات الىٰ بعض القبائل قبل الطائف، فقد نقل المعتزلي أنّه عقيب وفاة أبي طالب، أُوحي اليه صلى الله عليه وآله : أن اخرج منها فقد مات ناصرك.

فخرج الىٰ بني عامر بن صعصعة ومعه علي عليه السلام وحده، فعرض نفسه عليهم وسألهم النصر وتلا عليهم القرآن، فلم يجيبوه. فعادا الىٰ مكّة. وكانت مدة غيبته في هٰذه الهجرة عشرة أيام، وهي أوّل هجرة هاجرها بنفسه[1].

وروى ابن إسحاق عن الزُهري: أنّه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عزّ وجل وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له: بَحيرة بن فراس: أرأيت إن نحن بايعناك أو تابعناك على أمرك ثمّ أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال صلى الله عليه وآله : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء!

(١) شرح النهج ٤ : ١٢٨. والظاهر روايته للخبر عن المدائني.

فقال له الرجل: أفتُهدَف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك[١].

ورووا عن أبان البجلي عن ابن عباس عن علي عليه السلام: أن رسول الله لما خرج عن مكّة يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب، خرج الىٰ ربيعة، ومعه علي عليه السلام وأبو بكر، فدفعوا الىٰ مجلس من مجالس العرب. وكان أبو بكر نسّابة فتقدم فسلّم، فردّوا عليه السلام فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أمن هامتها أم من لهازمها[٢] قالوا: من هامتها العظمىٰ، فقال: من أيّ هامتها العظمىٰ أنتم؟ قالوا: من ذُهل الاكبر، قال: أفمنكم عَوف الّذي يقال: لا حرّ بوادي عَوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهىٰ الأحياء؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم جَسّاس حامِي الذّمار ومانع الجار؟قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ فقالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أخوال الملوك من كِندة؟ قالوا: لا، قال: فلستم اذن ذُهلاً الاكبر، أنتم ذهل الأصغر.

فقام اليه غلام قد بَقَل وجْهُه[٣] اسمه دَغْفِل فقال: ياهذا انك قد سألتنا فأجبناك ولم نكتمك شيئاً، فمّن الرجل؟ قال: من قريش، قال: بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة قال: أمكنت واللّٰه الرامي من صفاء الثُغرة، أفمنكم قصيّ بن كلاب الّذي جمع القبائل من فهر فكان يُدعى مجمِّعاً؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الّذي هشم لقومه الثريد «ورجال مكّة مسنتون عجاف»؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الّذي كان في وجهه «قمر يضيء ظلام ليل داج» قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٦٦.

(٢) اللهازم: أُصول الحنكين كنىٰ بها عن الوسط في مقابل الهامة اي الرأس.

(٣) بَقَل: أنبت.

قال : لا ، قال : أفمِن أهل النّدوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الرِّفادة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال :أفمن أهل السّقاية ؟ قال أبو بكر : لا ثمّ اجتذب زمام ناقته هارباً من الغلام راجعاً الىٰ رسول اللّٰه ، فقال دَغْفِل : «صادفَ دَرْءَ السيلِ دَرْءٌ يصدعُهْ» أما واللّٰه لو ثبتَّ لأخبرتُك أنّك من زَمَعات قريش . فذهب قوله مثلاً . وقال علي عليه‌السلام لأبي بكر : ياأبا بكر لقد وقعت من الأعرابي علىٰ باقعة . قال : أجل ، إنّ لكل طامّة طامّة ، والبلاء موكل بالمنطق . فذهب قوله كذلك مثلاً[١].

وهاجر صلى‌الله‌عليه‌وآله الىٰ بني شيبان ، فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ علياً عليه‌السلام وأبا بكر كانا معه ، وأنهم غابوا عن مكّة ثلاثة عشر يوماً ، ولما لم يجدوا عند بني شيبان ماأرادوا من النُصرة عادوا الىٰ مكّة[٢].

ولقد هاجر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عن مكّة مراراً يطوف علىٰ أحياء العرب وينتقل من أرض قوم الىٰ غيرها ، وكان علي عليه‌السلام معه دون غيره[٣].

هجرته صلى‌الله‌عليه‌وآله الىٰ الطائف:

وأما هجرته صلى‌الله‌عليه‌وآله الىٰ الطائف فكان معه علي عليه‌السلام وزيد بن حارثة ، في رواية أبي الحسن المَدائني ، نعم لم يروه محمّد بن اسحاق[٤]. وغاب رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله عن مكّة في هٰذه الهجرة (٢٦) يوماً[٥].

---

(١) دلائل النبوة للاصفهاني : ٢٨٢ ـ ٢٨٨ ، والبيهقي ٢ : ٤٢٢ ـ ٤٢٧ وشرح النهج للمعتزلي ٤ : ١٢٦ ـ ١٢٧ ، عن الميلاني في مجمع الأمثال : ١٧ ، ١٨ .

(٢) م . ن : ١٢٦ .

(٣) م . ن .

(٤) م . ن : ١٢٧ .

(٥) كان خروجه إلى الطائف لثلاث بقين من شوال ، وقدم مكة لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة . أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ .

وقال ابن اسحاق: خرج رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] ـ وسلّم إلىٰ الطائف يلتمس النّصر من ثقيف والمنعَة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من اللّه عزّوجلّ.

ورَوىٰ عن محمد بن كعب القُرظي[١] قال: لما انتهىٰ رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] ـ وسلّم إلىٰ الطائف عمَد الىٰ نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو.

فجلس اليهم رسول الله ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] ـ وسلّم فدعاهم الىٰ اللّه وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته علىٰ الاسلام والقيام معه علىٰ من خالفه من قومه.

فقال له أحدهم: أنا أمرط[٢] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!

وقال الآخر: أما وجد اللّه أحداً يُرسله غيرك؟!

وقال الثالث: واللّه لا أُكلّمك أبداً، لئن كنت رسولاً من اللّه ـ كما تقول ـ لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب علىٰ اللّه ما ينبغي لي أن أُكلّمك. فقام رسول اللّه من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.

وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا يصيحون به ويسبّونه[٣]، حتّىٰ ألجؤوه الىٰ حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه مَن كان يتبعه من سفهاء ثقيف.

---

(١) القُرظي منسوب الىٰ بني قريظة بالمدينة، ولد سنة أربعين وتوفي سنة ١٢٠ يروي عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

(٢) أمرط: أنزع وأرمي به.

(٣) وذكر اليعقوبي خبر هؤلاء الاخوة الثلاثة ٢: ٣٦. وقال: قعدوا له صفّين فلما مرّ رسول الله رجموه بالحجارة حتى أدموا رجله، فكان رسول الله يقول: ما كنت ارفع قدماً ولا أضعها إلّا على حجر!

لجوء النبيّ ﷺ الى حائط بني مخزوم:

فعمد الىٰ ظلّ حَبَلة من عِنَب فجلس اليه، فلما اطمأن قال: «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي. الىٰ مَن تكِلني؟ إلىٰ بعيد يتجهّمني[١] أم الىٰ عدوٍّ ملّكته أمري؟. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي، ولكنّ عافيتَك هي أوسع لي. أعوذ ـبنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرةـ من أن تُنزل بي غضبَك أو يحِلّ عليّ سخطك، لك العتبىٰ حتّىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلّا بك».

فلمّا رآه ابنا ربيعة: عُتبة وشيبة، ورأيا ما لقي، تحركت له رَحِمهما[٢]، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له «عَدّاس» فقالا له: خذ قِطفا من هذا العنب فضَعْه في هذا الطبق ثمّ اذهب به الىٰ ذٰلك الرجل فقل له: يأكل منه. ففعل عَدّاس ثمّ أقبل به حتّىٰ وضعه بين يدي رسول الله ـصلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّمـ ثم قال له: كُلْ: فلما وضع رسول الله فيه يده قال: باسم الله ثم أكل، فنظر عَدّاس في وجهه ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذهِ البلاد. فقال له رسول الله: ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عَدّاس وما دينك: قال: نصراني من أهل نينوىٰ. فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّىٰ؟ فقال له عَدّاس: وما يدريك ما يونس بن متّىٰ؟ فقال رسول الله: ذاك أخي، كان نبيّاً وأنا نبيّ. فاكبّ عَدّاس علىٰ رسول الله يقبّل رأسه ويديه وقدميه[٣].

---

(١) تجهّمه: استقبله بوجه كريه.

(٢) إذ كانت أُم أبيه عبد الله من بني مخزوم.

(٣) وأشار اليعقوبي الى اسلام عدّاس ٢: ٣٦، ونقل الواقدي ١: ٣٣ أنه بقي معهما حتّىٰ خرج معهما الى بدر فقتل معهما: ولكنه تردّد فيه ورجّح القول بأنه لم يخرج ولم يقتل معهم ١: ٣٥.

فلمّا رجع عَدّاس قال له ابنا ربيعة : ويلك يا عَدّاس مالك تُقبّل رأس هٰذا الرجل وقدميه ؟!

قال يا سيديّ ما في الأرض أحد خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلّا نبيّ!

قالا له : ويحك يا عدّاس لا يصرفنّك عن دينك فإنّ دينك خيرٌ من دينه !.

ولما يئس رسول اللّٰه من خير ثقيف انصرف راجعاً من الطائف الى مكة(١).

ثم روىٰ ابن اسحاق اخباراً عن عرضه نفسه على القبائل في موسم العمرة أو الحج، وكأن هذه الأخبار عن فعله ذلك بعد رجوعه من الطائف، مما أدّىٰ الى بيعة الحجّاج من الأنصار له في العقبة :

فحدّث عن ابن شهاب الزُهري قال : اِن النبيَّ ﷺ أتىٰ كندة في منازلهم وفيهم سيّد لهم يقال له مُليح : فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.

وأتىٰ بني عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم : أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك اللّٰه على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

فقال له رسول اللّٰه : الأمر الى اللّٰه يضعه حيث يشاء.

فقال له الرجل : أفتُهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك.

وروىٰ أنه أتىٰ بطناً من كلب يقال لهم بنو عبداللّٰه، فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه... فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

---

(١) ونقل الطبرسي خبر هجرة الطائف والاخوة الثلاثة وعدّاس، عن دلائل النبوة للبيهقي عن الزهري : ٥٣، ٥٤.

وروىٰ أنه أتىٰ بني حنيفة في منازلهم فدعاهم الىٰ اللّٰه وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردّاً عليه منهم[١].

وقال اليعقوبي: وكان رسول اللّٰه يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب في كل موسم ويكلم شريف كل قوم، ويقول: لا أُكره أحداً منكم، إنما أُريد أن تمنعوني مما يراد بي من القتل حتّىٰ ابلّغ رسالات ربّي! فلم يقبله أحد منهم.

وكانوا يقولون: قوم الرجل أعلم به[٢].

مقدّمات الهجرة إلى المدينة:

مرّ في أخبار أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب، خبر الطبرسي عن القمي في إسلام أسعد بن زرارة وإرسال الرسول لمصعب بن عمير معه إلى المدينة ليعلمهم القرآن ويدعو إلى الإسلام، فخرج معه فأنزله أسعد في داره.

فكان يخرج في كلّ يوم يطوف به علىٰ مجالس الخزرج يدعوهم الىٰ الاسلام فيجيبه الأحداث، من كل بطن الرجل والرجلان. وفَتَر امر عبد اللّٰه بن أُبيّ بن سَلول فكره ما جاء به أسعد وذكوان.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٦٠ ـ ٦٦ باختصار.

(٢) اليعقوبي ٢ : ٣٦. ونقله الطبرسي عن دلائل النبوة للبيهقي عن الزهري ١ : ١٣٣. ثم روىٰ عن القمي خبر رجوع النبيّ الىٰ مكّة معتمراً بجوار مطعم العدوي يوماً واحداً ١ : ١٣٥. ولو كانت هجرة لثلاث بقين من شوال وقدومه مكة لثلاث وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، فرجعه كان في أشهر الحج الحُرُم، فلا حاجة للجوار. ولم يذكره ابن اسحاق ولا اليعقوبي، ولم يسنده الطبري وانما قال: وذكر بعضهم ٢ : ٣٤٧، وان أشار اليه ابن هشام ٢ : ٢٠ و الواقدي ١ : ١١٠ وعن تلميذه ابن سعد في الطبقات ١ : ٢١٠، وعنهما ابن الأثير في البداية والنهاية ٣ : ١٣٧.

وقال أسعد لمصعب : إنّ خالي سعد بن معاذ من رؤساء الأوس، وهو رجل عاقل شريف مطاع في بني عمرو بن عوف، فان دخل في هذا الأمر تمّ لنا أمرنا، فهلّم فأتهم.

فجاء مصعب مع أسعد الىٰ محلة سعد بن مُعاذ فقعد علىٰ بئر من آبارهم، واجتمع اليه قوم من أحداثهم، فأخذ يقرأ عليهم القرآن.

فبلغ ذٰلك سعد بن معاذ، فقال لأُسيد بن حُضير : بلغني أن أبا أُمامة أسعد بن زرارة قد جاء الىٰ محلتنا مع هٰذا القرشي (مُصعب بن عمير) يُفسد شبابنا! فأته وانهه.

فجاء أُسيد بن حضير، فنظر اليه أسعد فقال لمصعب بن عمير : إنّ هٰذا الرجل شريف فان دخل في هٰذا الأمر رجوت أن يتم أمرنا، فاصدق اللّٰه فيه.

فلمّا قرب أُسيد منهم قال : ياأبا أمامة! يقول لك خالك : لاتأتنا في نادينا ولا تُفسد شبابنا، واحذر الأوس علىٰ نفسك!.

فقال مصعب : أو تجلس فنعرض عليك أمراً فان أحببته دخلت فيه، وإن كرهته نحّينا عنك ما تكرهه. فجلس، فقرأ عليه سورة من القرآن. فقال أُسيد : كيف تصنعون اذا دخلتم في هٰذا الأمر؟ قال : نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين، ونشهد الشهادتين، ونصلي ركعتين.

فرمىٰ أُسيد بنفسه مع ثيابه في البئر، ثمّ خرج وعصر ثوبه ثمّ قال : إعرض عليّ. فعرض عليه شهادة أن لا اِله اِلاّ اللّٰه وأنّ محمّداً رسول اللّٰه. فقالها، ثمّ صلّىٰ ركعتين ثمّ قال لأسعد : يا أبا أمامة، أنا أبعث اليك الآن خالك، وأحتال عليه في أنْ يجيئك.

فرجع أُسيد الىٰ سعد بن معاذ، فلمّا نظر اليه سعد قال : أُقسم أنّ أُسيداً قد رجع الينا بغير الوجه الّذي ذهب به من عندنا.

وأتاهم سعد بن مُعاذ، فقرأ عليه مُصعب: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ﴾[1] فلمّا سمعها بعث الىٰ منزله فأُتي بثوبين طاهرين، واغتسل وشهد الشهادتين وصلّىٰ ركعتين. ثمّ قام وأخذ بيد مصعب وحوّله اليه.

ثمّ جاء فوقف في بني عمرو بن عوف، فصاح: يابني عمرو بن عوف لا يبقين رجل ولا امرأة بكر ولا ذات بعل، ولا شيخ ولا صبيّ إلاّ أن يخرج، فليس هٰذا يوم ستر ولا حجاب.

فلمّا اجتمعوا أخذ بيد مصعب وقال له: اظهر أمرك وادع الناس علانية ولا تهابنّ أحداً.

ثمّ قال لهم سعد: كيف حالي عندكم؟ قالوا: أنت سيدنا والمطاع فينا ولا نردّ لك أمراً فمُرنا بما شئت. فقال: كلام رجالكم ونسائكم وصبيانكم عليّ حرام حتّىٰ تشهدوا أنّ لا إله إلّا اللّٰه وأنّ محمّداً رسول اللّٰه، والحمد لله الّذي أكرمنا بذٰلك، وهو الّذي كانت اليهود تخبرنا به.

فما بقي دار من دور عمرو بن عوف في ذٰلك اليوم إلّا وفيها مسلم أو مسلمة. وشاع الاسلام بالمدينة وكثر، ودخل فيه أشراف البطنين (الأوس والخزرج) وذٰلك لما عندهم من أخبار اليهود.

وكتب مصعب بذٰلك الىٰ رسول اللّٰه ﷺ. فكان رسول اللّٰه يأمر من يعذّبه قومه بالخروج الىٰ المدينة، فأخذوا يتسلّلون رجلٌ فرجل فيصيرون الىٰ المدينة فينزلهم الأوس والخزرج عليهم ويواسونهم[2].

---

(١) فُصلت: ١ ـ ٢.

(٢) إعلام الورىٰ ١: ١٣٩ ـ ١٤١، ونقله تلميذه القطب الراوندي في قصص الأنبياء: ٣٣١ ـ ٣٣٣ بلا اسناد عنه، ولا يوجد الخبر في تفسير القمي.

السورة الثالثة والسبعون ـ «الأنبياء»:

وفيها قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾[١].

قال الطبرْسي في «مجمع البيان» قالوا: لما نزلت هٰذه الآية أتىٰ عبد اللّٰه بن الزِّبَعْرىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وقال: يا محمّد، ألست تزعم أن عُزيراً رجل صالح؟ وأنّ عيسىٰ رجل صالح، وأنّ مريم امرأة صالحة؟ قال: بلىٰ، قال: فان هٰؤلاء يُعبدون من دون اللّٰه، فهم في النار؟! فأنزل اللّٰه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾[٢].

بينما في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لمّا نزلت هٰذه الآية وجَد منها أهل مكّة وجْداً شديداً، فدخل عليهم عبد اللّٰه بن الزّبعرىٰ وكفار قريش يخوضون في هٰذه الآية، فقال ابن الزبعري: أمحمّد تكلم بهٰذه الآية؟ قالوا: نعم، قال ابن الزّبعرىٰ: إن اعترف بها لأخصمنّه! فجُمع بينهما (كذا) فقال: يا محمّد، أرأيت الآية الّتي قرأت آنفاً أفينا وفي آلهتنا أم في الأُمم الماضية وآلهتهم؟ قال: بل فيكم وفي آلهتكم وفي الأمم الماضية إلّا من استثنىٰ اللّٰه. فقال ابن الزّبعرىٰ: خاصمتك واللّٰه، ألست تُثني علىٰ عيسىٰ خيراً؟ وقد عرفت أن النصارىٰ يعبدُون عيسىٰ وأُمّه، وإن طائفة من الناس يعبدون الملائكة أفليس هٰؤلاء مع الآلهة في النار؟ فقال رسول اللّٰه: لا، فضحكت قريش وضحك، وقالت قريش: خصمك ابن الزِّبعري! فقال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله: قلتم الباطل، أما قلتُ: إلاّ مَنْ استثنىٰ اللّٰه؟ وهو قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾[٣].

---

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) مجمع البيان ٧: ١٠٣.

(٣) تفسير القمي ٢: ٧٦.

وهٰذه الرواية أتم واكمل، وليس فيها أن الاستثناء نزل بعد اعتراض ابن الزبعرىٰ، بل فيها أن الاستثناء كان من قبل وأن الرسول أشار اليه في حديثه.

والخبر ـ كسابقه ـ بظاهره لا ينسجم مع أيام حصار الشِعب، إلّا اذا كان في أيام الموسم.

السورة التاسعة والسبعون ـ «المعارج»:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ... ﴾[١] نقل الطوسي في «التبيان» عن الحسن قال: سأل المشركون النبيّ فقالوا: لمن هٰذا العذاب الّذي يَذكره محمّد! فجاء جوابهم بأنه ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ ونقل عن الفراء: أن سأل أي دعا، والداعي بالعذاب هو النضر بن كلدة، أُسر يوم بدر هو وعقبة بن أبي مُعيط وقتلا صبراً[٢] والطبرسي في «مجمع البيان» نقل قول الحسن، واستدل عن قول الفرّاء بقول مجاهد[٣] ورواه السيوطي في «الدر المنثور» عن السدّي قال: نزلت بمكة في النضر بن الحارث بن كلدة، وكان سؤاله ودعاؤه أن قال: اللهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فكان عذابه أن قُتل يوم بدر[٤].

وعليه فلا محلّ لما رواه الطبرْسي في «مجمع البيان» عن الحاكم الحسكاني بسنده عن سفيان بن عيينة عن الصادق عليه السلام: أنّ الآية نزلت في النعمان بن الحارث الفهري حينما أنكر علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله نصبه لعلي عليه السلام يوم الغدير[٥] اللهم إلّا أن تكون حادثة ثانية مشابهة تليت فيها الآيات بالمناسبة.

---

(١) المعارج: ١، ٢.

(٢) التبيان ١٠: ١١٣.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٥٢٩.

(٤) نقلاً عن الميزان ٢٠: ١١.

(٥) مجمع البيان ١٠: ٥٣٠.

السورة الرابعة والثمانون ـ «الروم»:

﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾[١].

قال الشيخ الطوسي في «التبيان»: روي: أن سبب ذلك هو أنّ الرومَ لمّا غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا: أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا أهل الروم وهم أهل كتاب، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمّداً الّذي معه كتاب. فأنزل اللّه تعالىٰ هٰذه الآيات تسلية للنبيّ والمؤمنين بأن الروم وان غلبتها فارس فانّها ستغلب فارس في ما بعد بضع سنين. قال أبو سعيد الخُدْري: كان النصر يوم بدر للفريقين: للنبيّ علىٰ قريش وللروم علىٰ فارس، ففرح المؤمنون بالنصرين. وقيل: كان يوم الحديبية[٢].

ونقل الطبْرسيّ القول الأوّل عن مقاتل قال: فلمّا كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكّة وأخبر رسول اللّه: أنّ الروم غلبت فارساً ففرح المؤمنون بذلك. ونقل القول الثاني عن الزهري قال: كان ظهور فارس علىٰ الروم في تسع سنين، ثمّ أظهر اللّه الروم علىٰ فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب[٣].

امّا عن معنىٰ «أدنىٰ الأرض» فقد نقل عن الزجّاج قال: أي في أدنىٰ الأرض من أرض العرب. ثمّ عيّنها عن عكرمة فقال: يريد أذرِعات وكَشكر[٤]

---

(١) الروم: ١ ـ ٤.

(٢) التبيان ٨: ٤٦١.

(٣) مجمع البيان ٨: ٤٦١.

(٤) مجمع البيان ٨: ٤٦٠.

ونقل الطبري عن عطاء عن يحيىٰ بن يَعمَر أن أذرِعات وبصرىٰ هي أدنىٰ أرض الشام الىٰ العرب[١].

وعن أذرِعات قال الطبري في تأريخه: مدينة أذرِعات وبُصرىٰ من كُور حوران من الشام[٢] بينما قال الحموي في «معجم البلدان»: بلد في أطراف الشام ممّا يلي البلقاء وعمّان[٣]. وهٰذا هو الأدنىٰ من أرض العرب في الحجاز دون بُصرىٰ وحوران الشام. وأمّا كَسْكر فانها من أرض السواد أي العراق كانت في أسفل دجلة بعد المدائن قرب الواسط، ولعلّها هي أو قريبة من قلعةْ سَكَرْ، وكانت الأدنىٰ من أرض العرب من جهة العراق.

ونقل الطبرْسي في «مجمع البيان» عن مجاهد أن المقصود من «أدنىٰ الأرض» هو أدنىٰ الأرض من أرض الشام الىٰ أرض فارس يريد الجزيرة، فهي أقرب أرض الروم الىٰ فارس[٤] وقال الشيخ الطوسي في «التبيان»: والمراد أدنىٰ الأرض الىٰ جهة عدوّهم[٥] بينما قال الشيخ الطبرْسي في «مجمع البيان»: كان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين فدفعتهم فارس عنه، وهو قوله ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾[٦].

وما أسرع مايتبادر الىٰ الذاكرة تذكّر أن القرآن قد عبّر عن مسجد بيت المقدس بالمسجد الأقصىٰ، فليس مقبولاً أن تكون الأرض أدنىٰ والمسجد فيها المسجد الأقصىٰ.

---

(١) الطبري ٢ : ١٨٥.

(٢) الطبري ١٠ : ١٢٢.

(٣) معجم البلدان ١ : ١٦٢.

(٤) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠.

(٥) التبيان ٨ : ٢٢٩.

(٦) مجمع البيان ٨ : ٤٦٠.

أمّا تمام الخبر عن عكرمة فهو مارواه الطبري في تفسيره وتأريخه بسنده عنه قال: اقتتل فارس والروم في أدنىٰ الأرض وهي يومئذٍ أذرعات فهُزمت الروم، فبلغ ذلك النبيَّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ وأصحابَه وهم بمكّة، فشقّ ذلك عليهم. وكان النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ يكره أن يظهر الأُمّيون من المجوس علىٰ أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكّة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فقالوا: انكم أهل كتاب والنصارىٰ أهل كتاب ونحن أُمّيون، وقد ظهر اخوانُنا من أهل فارس علىٰ اخوانكم من أهل الكتاب، وانكم إن قاتلتمونا لنظْهرنَّ عليكمْ فأنزل اللّٰه: ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾.

فخرج أبو بكر الىٰ الكفّار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم علىٰ إخواننا! فلا تفرحوا ولا يقرّنّ اللّٰه أعينكم، فواللّٰه ليظهَرنّ الروم علىٰ فارس، أخبرنا بذلك نبيّنا.

فقام اليه أُبيّ بن خلف الجُمحي فقال: كذبت يا أبا فَصيل!

فقال له أبو بكر: أنت اكذب يا عدوَّ اللّٰه!.

فقال: أُناحِبك (أُراهنك) عشر قلائص منّي وعشر قلائص منك، فان ظهرت الروم علىٰ فارس غرمتُ، وإن ظهَرت فارس غرمتَ، الىٰ ثلاث سنين.

ثمّ جاء أبو بكر الىٰ النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ فأخبره.

فقال: ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضع: ما بين الثلاث الىٰ التسع، فزايِده في الخَطَر (أي الرهن) ومادِّه في الأجل.

فخرج أبو بكر فلقي أُبيّاً فقال: لعلك ندمت، قال: لا، تعال أُزايدك في الخَطَر (الرهن) ومُدّني في الأجل، فنجعلها مائة قلوص الىٰ تسع سنين، فقبل أُبيّ[1].

---

(١) تأريخ الطبري ٢: ١٤٥، ١٨٤ وفي التفسير ٢٠: ١٣ ط بولاق.

رویٰ الطبري ذلك وقال : قيل : إن قول اللّه تعالىٰ ﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ نزل فيما كان بين ملك الروم هِرَقل وملك فارس پرويز[١].

وقال عنه : هو خسرو پرويز بن هرمز. وكان جميع مدة ملك هرمز اثنتي عشرة سنة[٢] وروىٰ عن هشام الكلبي قال : في سنة احدىٰ عشرة من ملك هرمز، خرج عليه الترك في ثلاثمائة الف مقاتل حتّىٰ صاروا الىٰ هَراة وبادغيس، وإن ملِك الروم (موريق قيصر[٣]) صار الىٰ الضواحي في ثمانين الف مقاتل قاصداً اليه. وان ملِك الخزر صار في جمع عظيم الىٰ باب الأبواب (دربند) فعاث وأخرب، وإن رجلين من العرب أحدهما : عباس الأحول، وعَمْرو الأزرق، نزلا في جمع عظيم من العرب بشاطىء الفرات وشنّوا الغارة علىٰ أهل السواد...

فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك وشاور فيه فاجمعوا علىٰ أن يبدأ بملك الترك (شابه) فوجّه اليه رجلاً من أهل الريّ هو بهرام چوبين في اثني عشر الف رجل اختارهم بهرام من الكهول دون الشباب. فجرت بينهما حروب حتّىٰ قتل بهرامُ شابه برمية رماه اياها، فوافاه برموذة بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فانهزم وتحصّن في حصن فحاصره[٤] فطلب برموذة بن شابه الأمان علىٰ أن يكون ذلك من هرمز الملك، فكتب بهرام الىٰ هرمز فأجابه وكتب له كتاب أمان، وكتب الىٰ بهرام أن يسرّحه اليه. فخرج برموذة بن شابه من الحصن وصار الىٰ هرمز، فاكرمه وبرّه واجلسه معه علىٰ السرير[٥].

---

(١) تأريخ الطبري ٢ : ١٨٤.

(٢) الطبري ٢ : ١٧٦.

(٣) مختصر الدول لابن العبري : ٩٠ في السنة السادسة من ملكه وملك عشرين سنة.

(٤) الطبري ٢ : ١٧٤.

(٥) اليعقوبي ١ : ١٦٧.

وغنم بهرام ما كان في الحصن، وكانت كنوزاً عظيمة، فحملها الىٰ هرمز علىٰ مائتين وخمسين الف بعير، فشكر هرمز لبهرام ما كان منه وللغنائم الّتي صارت اليه[1].

وأخبر برموذة هرمز بما صار الىٰ بهرام من الأموال والكنوز العظام، وأنّه قد كتم ذلك عن اُمناء هرمز، وأن الّذي بعث به قليل من كثير. فكتب هرمز الىٰ بهرام يأمره أن يحمل اليه مافي يده من الأموال. فغلظ ذلك علىٰ بهرام وأخبر به جنده، فذكروا هرمز أقبح ذكر، وخلعوه. وبعث الىٰ هرمز بسفط فيه سكاكين معوجّة الرؤوس، فلمّا رآها هرمز علم أنّه قد عصىٰ فقطّع أطراف السكاكين وردّها اليه، فعلم بهرام ماأراد، فارسل الىٰ خاقان ملك الترك يطلب صلحه علىٰ أن يردّ عليه كل أرض حازها من بلاده، فقبل خاقان، ففعل بهرام ذلك، ثمّ سار حتّىٰ صار الىٰ الريّ.

وكان قد بلغ هرمز أن قوماً قد حملوا ابنه پرويز علىٰ أن يثور علىٰ أبيه، وكان بهرام يعلم بذلك، فدبّر ليوقع شراً بين هرمز وبين ابنه خسرو پرويز، فضرب دراهم كثيرة كتب عليها اسم پرويز وبعث بها الىٰ مدينة هرمز فكثرت في أيدي الناس حتّىٰ بلغ هرمز خبرها، فأراد أن يحبس ابنه خسرو پرويز، فلمّا بلغ الخبر پرويز هرب الىٰ آذربايجان، فاجتمع اليه من بها من رؤسائها والمرازبة أهل الثغور فبايعوه. وكان جند هرمز كارهين لولايته فكتبوا الىٰ ابنه پرويز، فقدم بجيش من آذربايجان، فخلعوا هرمز، وملّكوا پرويز، وسملوا عين هرمز وحبسوه. واستقام الأمر لپرويز. فقصده بهرام بجنده، فخرج پرويز اليه حتّىٰ تواقفوا في النهروان، فكلمه پرويز وعظّم عليه الأمر، فأجابه بهرام بجواب غليظ شديد، والتحموا

---

(١) الطبري ٢ : ١٧٥.

فانكشف عن پرويز جنده وأسلمه أصحابه، فهرب ومضىٰ حتّىٰ صار الىٰ «الرَّها» يريد موريقي ملك الروم، فكتب صاحب «الرها» الىٰ موريقي ملك الروم يخبره أنّه أتاه لينصره. فأجابه ملك الروم فوجّه اليه پرويز بثلاثة نفر من أصحابه فشرط عليهم كل ماأراد، وزوّج پرويز ابنته ووجّه معهم بجيش عظيم، وعليهم أخ له يقال له ثيادوس، فابتنىٰ پرويز بابنة ملك الروم موريق ثمّ سار بجيشه الىٰ ناحية آذربايجان، وكان خاله بندي صار الىٰ آذربايجان ليجد جُنداً، فلمّا علم بمكان پرويز لقيه في جيش عظيم، فزحف پرويز بهم الىٰ بهرام فحاربه محاربة شديدة وأخذت الحرب من الفريقين، واشتدت الحرب حتّىٰ انهزم پرويز وصعد في الجبل وكاد يهلك، ثمّ ثاب اليه جنده، فثابوا الىٰ الحرب حتّىٰ انهزم بهرام چوبين فمضىٰ منصرفاً لا يلوي علىٰ شيء متوجهاً الىٰ ملك الترك.

واستقام الأمر لخسرو پرويز، فكتب الىٰ صاحب الروم بذٰلك، وكتب في النصارىٰ أن يكرَّموا ويقدَّموا ويبرَّزوا ويخبَروا بما قد جرىٰ بينه وبين الرومي من العصمة واللحمة والموادعة. وأهدىٰ اليه ملك الروم ثوبين فيهما الصُلُب فلبسهما[1].

ويقال: إن پرويز كتب للنصارىٰ كتاباً أطلق فيه عمارة بيَعهم، وأن يدخل في ملّتهم من أحبّ الدخول فيها من غير المجوس، واحتجّ في ذٰلك أن أنوشيروان كان هادن قيصر في الأتاوة الّتي أخذها منه علىٰ استصلاح مَن في بلده من أهل بلده واتخاذ بيوت النيران هنالك، وإنّ قيصر (موريقي) اشترط مثل ذٰلك في النصارىٰ. ولم يزل پرويز يبرّ بموريقي ويلطف له[2].

---

(١) اليعقوبي ١ : ١٦٧ ـ ١٦٩.

(٢) الطبري ٢ : ١٨٠ ـ ١٨١.

كان هٰذا مافي تـأريخي اليـعقوبي والطـبري المسـلمَين، أمّـا ابـن العـبري المسيحي فقد أرّخ للموضوع بالسنة الثامنة من ملك مـوريقي، قـال: وفي السـنة الثامنة لموريقي وثب الفرس علىٰ هرمز فسملوا عـينيه ثمَّ قـتلوه ومـلّكوا عـليهم بهرام المرزبان. وكان لهرمز ابن حدث اسمه كسرىٰ (پرويز) فتنكّر كأنّه سائل وشق سلطان الفرس حتّىٰ جاء نصيبين وصار الىٰ الرّهـا ومـنها الىٰ مَنبج، وكـتب الىٰ موريقي كتاباً نسخته:

«للأب المبارك والسيد المقدّم موريقي ملك الروم، من كسرىٰ بن هرمز ابنه، السلام. أمّا بعد فاني أُعلم الملك: أن بهرام ومن معه من عبيد أبي، جهلوا قدرهم ونسوا أنهم عبيد وأنا مولاهم، وكفروا نعم آبائي لديهـم، فـاعتدوا عـليّ وأرادوا قتلي: فهممت أن أفزع الىٰ مثلك فأعتصم بفضلك وأكون خاضعاً لك، لأن الخضوع لملك مثلك وإن كان عدواً أيسر من الوقوع في أيدي العبيد المردة، ولئن يكون موتي علىٰ أيدي الملوك أفضل وأقل عاراً مـن أن يجري علىٰ أيدي العبيد. ففزعت اليك ثقة بفضلك ورجاء أن تترأف علىٰ مثلي، وتمدّني بجيوشك لأقوىٰ بهم علىٰ محـاربة العدو وأصير لك ولداً سامعاً ومطيعا، إن شاء اللّٰه تعالى».

فلمّا قرأ موريقي كتاب كسرىٰ (پرويز) بن هرمز عزم علىٰ اجابة مسألته... وكتب اليه كتاباً نسخته: «من موريقي عبد ايشوع المسيح، الىٰ كسرىٰ ملك الفرس، ولدي وأخي، السلام، أمّا بعد، فقرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر العبيد الّذين تمرّدوا عليك وكونهم غمطوا أنعم آبائك وأسلافك غمطاً، وخروجهم عليك ودحضهم إياك عن ملكك، فداخلني من ذٰلك أمر حرّكني علىٰ الترؤّف بك وعليك وامدادك بما سألت. فأما ما ذكرت مـن أن الاسـتتار تحت جـناح مـلك عـدو، والاستظلال بكنفه آثر من الوقوع في أيدي العبيد المردة، والموت علىٰ أيدي الملوك أفضل من الموت علىٰ أيدي العبيد. فانك اخترت أفضل الخصال، ورغبت الينا في

ذٰلك، فقد صدّقنا قولك وقبلنا كلامك وحقّقنا أملك وأتممنا بغيتك وقضينا حاجتك وحمدنا سعيك وشكرنا حسن ظنّك بنا. ووجّهنا اليك بما سألت من الجيوش والأموال، وصيّرتك لي ولداً وكنت لك أباً. فاقبض الأموال مباركاً لك فيها، وقُد الجيوش و سِر علىٰ بركة اللّٰه وعونه، ولا يعترينّك الضجر والهَلَع، بل تُشمِّر لعدوك ولا تقصّر فيما يجب لك اذا تطأطأت من درجتك وانحططت عن مرتبتك، فاني أرجو أن يظفرك اللّٰه بعدوّك ويكبّه تحت موطىء قدميك ويردّ كيده في نحره ويعيدك الىٰ مرتبتك برجاء اللّٰه تعالىٰ».

وأنجده بعشرين ألفاً (لا ستون الف مقاتل كما سبق عن الطبري عن الكلبي) وسيّر له الأموال أربعين قنطاراً ذهباً. فلمّا وردت الجيوش علىٰ كسرىٰ وقبض الأموال وقرأ الكتاب سار مع جيوش الروم نحو بهرام فلقيه بين المدائن وواسط (لا النهروان ولا آذربايجان) فصارت الهزيمة علىٰ بهرام وقتل أصحابه كلهم، واستباح كسرىٰ پرويز عساكر بهرام ورجع الىٰ مملكته فجلس فيها وبايعه الناس.

ثمّ دعا بالروم فاحسن جائزتهم وصرفهم الىٰ صاحبهم، وبعث معهم الىٰ موريقي من الألطاف والأموال أضعاف ما كان أخذ منه، وردّ دارا وميّا فارقين الىٰ الروم، وأمر ببناء هيكلين للنصارىٰ بالمدائن وجعل أحدهما باسم السيدة (مريم) والآخر باسم مار سرجيس الشهيد.

أمّا موريقي فبعد مصالحته للفرس قطع أرزاق جنوده، فاجتمع عظماء الروم الىٰ مدينة هرقلة وأرادوا تمليك أخيه فطري فهرب، وهرب موريقي الىٰ خلقيدونية، فلحقته الروم فألفَوه وعليه خلقان في زي الفقراء والسوّال فقتلوه في العشرين من ملكه وملّكوا عليهم رجلاً من بطارقتهم يقال له فوقا.

فلمّا بلغ كسرىٰ بن هرمز قتل موريقي، نقض العهد، وغزا دارا فافتتحها، وافتتح أيضاً آمِد وحلب، ثمّ عطف علىٰ قنّسرين ورجع الىٰ الرّها.

وفي السنة الثامنة من ملك فوقا خرج عليه هرقل بن هرقل من افريقية، وركب البحر بجيوشه والفاه هادئاً ساكناً فسبق الىٰ القسطنطينية ودخلها وقتل فوقا وتملك هو بمكانه بعده احدىٰ وثلاثين سنة وخمسة أشهر.

وفي أوّل سنة من ملكه أرسل وفداً الىٰ ملك الفرس ليصالحه فلم يجبه الىٰ ذلك بل غزا أنطاكية وفاميّة وحمص وقيسارية وافتتحها، وفي السنة الخامسة من ملكه افتتح الفرس البيت المقدس، وبعد ثلاث سنين افتتحوا الاسكندرية ومصر ووصلوا الىٰ النوبة وغزوا خلقيدونية فافتتحوها، وفي السنة الخامسة عشرة من ملكه غزا الفرس جزيرة روديسيا فافتتحوها، وأمر كسرىٰ (پرويز) أن يؤخذ رخام الكنائس الّتي في جميع المدن الّتي فتحها الىٰ المدائن.

ولكنْ في آخر هذه السنة غزا هِرَقلُ الفرسَ فافتتحوا مدينة كسرىٰ وسبَوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا[١].

ويفيد تاريخ ابن العبري أن اجتماع عظماء الروم لخلع موريقي من الملك ونصب أخيه فطري بمكانه وفي النهاية تمليك البطريق فوقا كان بعد عشرين سنة من ملك موريقي واثنتي عشرة سنة من ملك خسرو پرويز[٢].

بينما يحكي الطبري عن الكلبي يقول: حتّىٰ مرّ علىٰ ملك پرويز أربع عشرة سنة فخلع الروم موريقي وقتلوه وأبادوا ورثته، وملّكوا عليهم رجلاً يقال له فوقا.

فلمّا بلغ پرويز نكث الروم عهد موريقي وقتلهم اياه، امتعض من ذلك وأنف منه، وأخذته الحفيظة له، وهرب ابن موريقي فالتجأ الىٰ پرويز فآواه وملّكه علىٰ الروم ووجّه له الىٰ بلاد الروم ثلاثة من قواده في جنود كثيفة[٣].

---

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبري الملطي ت ٦٨٥ هـ: ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبري: ٩٠.

(٣) الطبري ٢: ١٨١.

ثمّ تسمي رواية الطبري القواد الثلاثة علىٰ التوالي: دميران أو رمُيوزان، والآخر: شاهين، والثالث: فرّهان وتدعىٰ مرتبته شهر بَراز. وتؤرخ لحملة القائد الأوّل: دميران علىٰ الشام وفلسطين وبيت المقدس خاصة بأربع وعشرين من ملك پرويز، وهو يطابق ما في تأريخ ابن العبري: أن الفرس في السنة الخامسة من ملك هِرقل افتتحوا البيت المقدس[1] وما في سائر التواريخ الفارسية والأجنبية: أنّ ذٰلك كان في السنة السادسة للبعثة و ٦١٥م[2].

وتؤرخ ـ رواية الطبري عن الكلبي ـ لحملة القائد الآخر، شاهين علىٰ أفريقيا ومنها مصر والاسكندرية خاصة بسنة ثمان وعشرين من ملك پرويز، وهذا يقارب من تأريخ ابن العبري لذلك حيث قال: وبعد ثلاث سنين ـ من فتح بيت المقدس ـ افتتحوا الاسكندرية ومصر ووصلوا الىٰ بلاد النوبة[3] (أي في سنة ٦١٨م).

وتؤرخ رواية الطبري عن الكلبي لحملة القائد الثالث: فرّهان وتدعىٰ مرتبته شهر بَراز متّجها الىٰ القسطنطينية بأمرين: أولاً بقتل فوقا الملك وتملك هرقل، وهٰذا كان في سنة ٦١٠م سنة البعثة، بعد ثماني سنين من قتل موريقي وتملّك فوقا وبدء الحملات ٦٠٢م. وتؤرّخ لها ـ ثانياً ـ بحملة هرقل علىٰ مملكة الفرس حتّىٰ كان قريباً من المدائن، ويؤرّخ ابن العبري لذٰلك بالسنة الخامسة عشرة من ملك هرقل، أي سنة ٦٢٥م، والفاصل بين التأريخين: خمس عشرة سنة، ممّا لا يحتمل

---

(١) مختصر تاريخ الدول: ٩١.

(٢) بالفارسية: تاريخ ايران قديم: ٢٢٢ تأليف: پيرنيا، وعن الترجمة الفارسية: تاريخ ايران للجنرال السير پرسي سايكس ١: ٦٦٥ ـ ٦٧٠. هٰذا اذا بنينا علىٰ أن ميلاد الرسول كان في السنة الأربعين من ملك كسرىٰ و ٥٧٠م وأن بعثته كانت في ٦١٠م.

(٣) مختصر تأريخ الدول: ٩١، ٩٢.

معه أن تكون الحملة حملة واحدة، بل حملتين هما مع حملتي القـائدين السـابقين تكون الحملات في رواية الطبري عن الكلبي أربع حملات علىٰ التوالي: شهر براز فرّهان في ٦١٠م ودميران في ٦١٥م وشاهين في ٦١٨م وشهر براز فرّهان أيضاً في ٦٢٥م. اولىٰ هٰذه الحملات في سنة ٦١٠م أي بعد قتل موريق واستخلاف فوقا بثمان سنين بينما الحملات ـ ولا سيّما الاولىٰ ـ موصوفة بأنها كانت للانتقام لحـمىٰ پـرويز موريق ولتمليك ابنه اللاجئ الىٰ پرويز بعـد ابيه، فهل كان ذٰلك بعد هٰذه المدة ؟! ولا تذكر التواريخ الاسلامية حملة قبل ذٰلك.

ولكن التواريخ الفارسية والأجنبية تؤرّخ لحملة في سـنة ٦٠٥م حـاصرت مدينة دارا فيما بين النهرين وافتتحتها بعد عدة أشهر. وفي سنة ٦٠٧م لثلاث سنين قبل البعثة سخّرت مدن ديار بكر: آمِد، وإدِس، وحرّان، وقلاعاً روميّة أُخرىٰ، وعبرت الفرات في سورية واستولت علىٰ مدينة حلب وتقدمت حتّىٰ قرب بيروت الحالية[١] وعن هذه الحملات قال ابن العبري: فـلمّابلغ كـسرىٰ بـن هـرمز قـتل موريق، نَقَض العهدَ وغزا دارا فافتتحها وافتتح أيضاً آمِد وحلب، ثمّ عطف علىٰ قِنسرين ورجع الىٰ الرّها[٢].

وهنا تأتي الحملة الاولىٰ الّتي ذكرتْها رواية الطـبري عـن الكـلبي للـقائد الفارسي: فرّهان والّذي تدعىٰ مرتبته: شهر براز: أمره كسرىٰ (پـرويز) فـقصد القُسطنطينية وخرّب بلاد الروم غضباً ممّا انتهكوا من موريق وانتقاماً له منهم حتّىٰ أناخ في ضفة الخليج القريب من القسطنطينية وخيّم هناك، ولم يخضع لابن موريق

---

(١) بالفارسية: تاريخ ايران قديم: ٢٢٢ تاليف: پيرنيا، وعن الترجمة الفارسية: تـاريخ ايـران !لسير پرسي سايكس ١: ٦٦٥ ـ ٦٧٠.

(٢) مختصر تاريخ الدول: ٩١.

من الروم أحد ولم يمنحه الطاعة، غير أنهم قتلوا فوقا الملك، وملّكوا عليهم رجلا يقال له هِرقل[١] وكان ذلك في سنة ٦١٠م سنة البعثة، وكان هرقل (هراكـليوس) قائداً رومياً في كاراتاز (تونس حالياً) ومنها قدم الىٰ القسـطنطينية وتـقلد أزمـة الأُمور بمساعدة الشعب[٢] وكان هِرقل بـن فوق (كذا) بن مرقس يختلف من مدينة سلونيقية ـ وهو من أهلها ـ الىٰ القسطنطينية بالزاد في البحر وهم محاصرون (بحصار شهر براز) فبانت شهامته وظهرت شـجاعته وأحـبّه أهـل القسـطنطينية، فـخلا بالبطارقة وذوي المراتب فاغراهم بفوقاس، وذكر لهم مانزل بهم في أيامه وذكّرهم بسوء آثاره فيهم وغلبة الفرس علىٰ ملكهم بسوء تدبيره وقبح سياسته واقدامه علىٰ الدماء، ودعاهم الىٰ الفتك به، فأجـابوه الىٰ ذلك فـقتلوه. واجـتمعت البـطارقة وغيرهم من ذوي المراتب من الروم وغيرهم بعد قتل فوقاس لاختيار من يصلح للملك، فوقع اختيارهم ـ بعد خطب طويل وتنازع كثير ـ علىٰ هرقل، فملّكوه. ذكر ذلك المسعودي في «التنبيه والاشراف» ولكنه قال: كـان مـلكه (هِـرقل) لثـلاث وثلاثين سنة خلت من ملك كسرىٰ پرويز ملك بابل، فملك خمساً وعشرين سـنة ـ وقيل اكثر من ذلك ـ وفي أوّل سنة من ملكه كانت هجرة رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ[٣].

بينما قال قبل ذلك في «مروج الذهب»: ثمّ ملك هِرقل وكان قبل ذلك بطريقاً في بعض الجزائر، ولسبع (أو تسع) سنين من ملكه كانت هجرة النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ من مكّة الىٰ المدينة. وهو الّذي ضرب الدنانير والدراهم الهرقلية،

---

(١) الطبري ٢: ١٨٢.

(٢) التاريخان الفارسيان السابقان.

(٣) التنبيه والإشراف: ١٣٣، ١٣٤.

وكان ملكه خمس عشرة سنة. وفي تواريخ أصحاب السير: أن رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ هاجر وملك الروم قيصر بن موريق. وفي تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف: أن ملك الروم كان في وقت ظهور الاسلام «هرقل»[١].

ومن تواريخ الروم «تأريخ مختصر الدول» لغريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري المتوفىٰ في سنة ٦٨٥م قال: ملك هِرقل قيصر احدىٰ وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وفي أوّل سنة من ملكه أرسل وفداً الىٰ ملك الفرس ليصالحه فلم يجبه الىٰ ذلك. بل غزا أنطاكية وفامية وحِمص وقيسارية وافتتحها[٢].

وقال المسعودي: وسيّر (خسرو پرويز) شهريار مَرزبان المغرب الىٰ حرب الروم فنزل أنطاكية، فكانت له مع الروم وپرويز أخبار ومكاتبات وحيل الىٰ أن خرج ملك الروم الىٰ حرب شهريار وقدّم خزائنه في البحر في الف مركب، فألقتها الريح الىٰ ساحل انطاكية، فغنمها شهريار وحملها الىٰ پرويز، فسمّيت خزائن الريح[٣].

أمّا عن تاريخ هذه الحملة: فالذي يتفق مع تاريخ ابن العبري ولا يختلف مع المسعودي هو ما جاء في الترجمة الفارسية لتأريخ ايران للسير پرسي سايكس أن ذلك كان في سنة ٦١١م أي السنة الثانية للبعثة.

وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٤م) استولىٰ الفرس علىٰ دمشق.

وفي السنة السادسة للبعثة (٦١٥م) حاصروا بيت المقدس حتّىٰ افتتحوها ونهبوها بمعونة ستة وعشرين الف يهودي فيها. وبحثوا عن الصليب الّذي

---

(١) مروج الذهب ١: ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) تاريخ مختصر الدول: ٩١.

(٣) مروج الذهب ١: ٣٠٦.

كان النصارىٰ يعتقدون أن المسيح صلب عليه، فكان لهم أقدس شيء علىٰ وجه الأرض، حتّىٰ حصلوا عليه فبعثوا به الىٰ عاصمتهم تيسفون (بغداد حالياً تقريباً) فأرسل پرويز رسالة الىٰ هرقل قال فيها :

«من خسرو شاهنشاه : ملك الملوك وربّ الأرض، الىٰ هراگليوس عبده الحقير عديم الغيرة! أنتم الذين تقولون انكم معتمدون علىٰ ربّكم المسيح ومتوكّلون عليه، فلمّا لم يقدر أن يخلّص بيت المقدس من يدي لا تخدعوا أنفسكم بالباطل بهذه العقيدة الفارغة الّتي لكم بالمسيح، فانه لم يقدر حتّىٰ علىٰ أن يخلّص نفسه من مخالب اليهود، حتّىٰ صلبوه ووتّدوا بدنه وقتلوه بذٰلك الوضع الفضيع»[1].

وعن هٰذه الحملة حكىٰ الطبري عن الكلبي قال : وجّه (پرويز) القائد دميران أو رُميوزان الىٰ بلاد الشام فدوّخها حتّىٰ انتهىٰ الىٰ أرض فلسطين، وورد مدينة بيت المقدس. وكانت خشبة الصليب قد وُضعت في تابوت من ذهب وطُمرت في بستان وزُرع فوقه مَبقلة، فأخذ (دميران) أُسقفها ومن كان فيها من القسّيسين وسائر النصارىٰ وألحّ عليهم حتّىٰ دلّوه علىٰ موضعها، فاحتفر عنها بيده واستخرجها وبعث بها الىٰ كسرىٰ، في أربع وعشرين من ملكه[2].

وأرّخها ابن العبري من جانبه قال : وفي السنة الخامسة لهرقل افتتح الفرس بيت المقدس[3]. وقال السير پرسي سايكس : في السنة ٦١٦م (أي السابعة للبعثة) وصل القائد الايراني شهر بَراز الىٰ مصر بالعبور من صحراء سيناء، واستولىٰ علىٰ

---

(١) عن الترجمة الفارسية لتأريخ ايران ١ : ٦٦٥ ـ ٦٧٠ للسير پرسي سايكس وتاريخ ايران قديم : ٢٢٢ تأليف پيرنيا.

(٢) الطبري ٢ : ١٨١.

(٣) تأريخ مختصر الدول : ٩١.

الاسكندرية ذٰلك الميناء التجاريّ الشهير، وبلغ بحدود ايران الىٰ حدودها علىٰ العهد الهخامنشي[١].

ولكن ابن العبري قال: وبعد ثلاث سنين (من فتح الفرس لبيت المقدس) افتتحوا الاسكندرية ومصر، ووصلوا الىٰ بلاد النوبة (افريقية) وغزوا خلقيدونية فافتتحوها[٢] وهٰذا يقرب ممّا حكاه الطبري عن الكلبي قال: وأمّا القائد الآخر ـ وكان يقال له شاهين وكان فادُوسبان المغرب ـ فانّه سار حتّىٰ احتوىٰ علىٰ مصر والاسكندرية وبلاد نوبة، وبعث الىٰ كسرىٰ بمفاتيح مدينة الاسكندرية في سنة ثمان وعشرين من ملكه[٣].

وقال السير پرسي سايكس: وفي السنة ٦١٧م (أي الثامنة للبعثة) عبر قائد ايراني آخر باسم شاهين، مدينة كاپادوكية واستولىٰ علىٰ مدن تركية الحالية واحدة بعد اخرىٰ حتّىٰ وصل الىٰ مدينة كالسدون قرب القسطنطينية. وفي لقاء بين هراگليوس وشاهين نصحه شاهين أن يرسل رسولاً للصلح الىٰ بلاط خسرو پرويز، وقبِل ذٰلك هراگليوس ففعل... ولكنّ خسرو پرويز وهو في سكر فتوحاته أمر بحبس سفير الروم، وهددّ قائده: لماذا لم يبعث اليه بامبراطور الروم مقيّداً مغلولا!

وفي السنة الثامنة للبعثة سقطت مدينة كالسدونة، ووصل الجيش الايراني الىٰ أبواب مدينة القسطنطينية علىٰ ساحل بحر البوسفور[٤].

---

(١) تأريخ ايران ١: ٦٦٥ ـ ٦٧٠.

(٢) تأريخ مختصر الدول: ٩١، ٩٢.

(٣) الطبري ٢: ١٨٢.

(٤) التأريخان الفارسيان السابقان.

ويبدو أن ابن العبري يشير الىٰ هٰذه الحملة إذ يقول : وفي السنة الخامسة عشرة لهرقل غزا الفرس جزيرة رودس (روديسيا) فافتتحوها، وأمر كسرىٰ (پرويز) أن يؤخذ رخام الكنائس الّتي في جميع المدن الّتي فتحها وتحدّر الىٰ المدائن ولقي فيه الناس جُهداً جهيداً.

وفي هذه السنة غزا هرقلُ الفرسَ فافتتح مدينة كسرىٰ وسبوا منها خلقاً كثيراً وانصرفوا[١].

وفي رواية الطبري عن الكلبي قال : فلمّا رأىٰ هرقل عظيم ما فيه بلاد الروم من تخريب جنود فارس اياها وقتلها مقاتلتهم وسبيهم ذراريهم واستباحتهم أموالهم وانتهاكهم ما بحضرتهم...، [فشاور عظماء الروم فـ] ـأشاروا عليه أن يغزوهم، فاستعدّ لذٰلك.

وكان كسرىٰ (پرويز) قد تقدم الىٰ شهربراز أن يجثم مرابطاً في الموضع الّذي كان فيه، وكان قد غضب علىٰ شاهين فادُوسبان المغرب فأحضره لديه وعزله عن ذٰلك الثغر. فاستخلف هرقل ابناً له علىٰ مدينة قسطنطينية، وأخذ غير الطريق الّذي فيه شهر براز وسار حتّىٰ أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين بعد سنة.

وكان كسرىٰ يومئذٍ مقيماً بدسكرة الملك فلمّا بلغه خبر تساقط هرقل في جنوده الىٰ نصيبين، وجّه لمحاربته رجلاً من قواده يقال له : راهزار في اثني عشر ألف مقاتل، وأمره أن يقيم بنينوىٰ من مدينة الموصل علىٰ شاطئ دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها. فنفذ راهزار لامره وعسكر حيث أمره. فقطع هرقل دجلة في موضع آخر الىٰ الناحية الّتي كان فيها جند فارس.

---

(١) تاريخ مختصر الدول : ٩٢.

ولما أخبرت العيون راهزار أن هرقل في سبعين الف مقاتل أيقن أنّه ومن معه من الجنود عاجزون عن مناهضة سبعين الف مقاتل، فكتب الىٰ كسرىٰ غير مرة: دهم هرقل إياه بمن لا طاقة له ولمن معه بهم لكثرتهم وحسن عُدّتهم. وفي كل ذٰلك كان يجيبه كسرىٰ في كتابه أنه: ان عجز عن اولئك الروم فلن يعجز عن بذل دمه ودمائهم في طاعته. فعبّأ جنده وناهض الروم فقتل وقتل معه ستة الاف منهم وانهزم بقيتهم وهربوا علىٰ وجوههم.

وبلغ كسرىٰ ذٰلك فأغار من دسكرة الملك الىٰ المدائن وتحصّن فيها، وأخذ يستعد لقتال هرقل، وسار هرقل حتّىٰ كان قريباً من المدائن ثمّ انصرف الىٰ أرض الروم[١] هكذا تذكر رواية الطبري عن الكلبي أنّ هرقل أخذ غير الطريق الّذي فيه شهربراز وهو مرابط للموضع الّذي هو فيه، وكان شاهين فادوسبان المغرب قد عزله كسرىٰ پرويز عن ثغر نصيبين لموجدة كانت من كسرىٰ عليه، فكان بباب كسرىٰ حين سار هرقل حتّىٰ أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين، بعد سنة من مسيره.

بينما المسعودي يقول: كان جيش كسرىٰ پرويز محاصراً للقسطنطينية، وكان صاحب جيشه ذٰلك شهربراز، وفسد الأمر بينه وبين كسرىٰ پرويز، فأتاه هِرقل ومالأه علىٰ پرويز، فخرج هِرقل في مراكب كثيرة في الخليج الىٰ بحر الخزر وسار الىٰ طرابزندة وأبواب لازقة (كذا) واستنجد هناك ملوك الأعاجم من اللان والخزر والسير والأبخاز وكُرزان والأرمن وغيرهم، حتّىٰ صار الىٰ بلاد أران والبيلقان وآذربايجان والماهات من أرض الجبل، وأتصلت جيوشه بأرض العراق فشنّ الغارات وقتل وسبى، فاحتال عليه پرويز بحيلة صرفته فرجع الىٰ القسطنطينية[٢].

---

(١) الطبري ٢: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) التنبيه والاشراف: ١٣٤.

وفي هذه العبارة كأنّ هِرقل هو الّذي أفسد الأمر بين شهربراز وپرويز، ومالأه عليه، فخرج عليه، وتغاضىٰ عنه شهربراز فتجاوزه حتّىٰ فعل مافعل.

ولكنّه عكس الأمر قبل ذٰلك في «مروج الذهب» فيقول: ثمّ فسدت الحال بين پرويز وشهريار (كذا) ومايل شهريار ملك الروم، فسيّره شهريار نحو العراق، الىٰ أن انتهىٰ الىٰ النهروان، فاحتال عليه پرويز بكتب كتبها اليه مع بعض من كان في ذمته من أساقفة النصارىٰ في العراق، فأفسد الحال بينه وبين شهريار حتّىٰ ردّه الىٰ القسطنطينية[1] والأوّل أولىٰ من هٰذا الثاني البعيد جدّاً: أن يكون شهر براز أو شهريار هو الّذي سيّر هرقل نحو العراق. ويترجّح ما في «التنبيه والاشراف» علىٰ مافي «مروج الذهب» اذ نسخة الثاني الموجودة والمتداولة هي نسخة سنة ٣٣٢ هـ. في موارد متعددة من الكتاب، والأوّل ألفه سنة ٣٤٥ كما في موارد متعددة من الكتاب أيضاً، وهي سنة وفاة المسعودي، قد نبّه في «التنبيه» علىٰ أنّه حين تأليفه قد بدّل كثيراً من العبارات والمعاني من نسخة «مروج الذهب» التي ألّفها سنة ٣٣٢ هـ وزاد فيها كثيراً بحيث اصبحت اضعاف النسخة الاولىٰ[2] ومعنىٰ ذٰلك أن ما في «المروج» منسوخ بما في «التنبيه» وأن الثاني تنبيه علىٰ ما في الأوّل من منسوخ قد رجع عنه.

ولكنّ الصحيح هو ما في «مروج الذهب»: أن هرقل سار نحو العراق حتّىٰ انتهىٰ الىٰ النهروان ثمّ انصرف راجعاً الىٰ القسطنطينية، لا ما مرّ عن ابن العبري، فأحرجهم بهذا الكتاب الىٰ الخلاف عليه وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه[3].

---

(١) مروج الذهب ١ : ٣٠٦.

(٢) التنبيه والاشراف : ٨٤، ٨٥ و ١٤٩.

(٣) الطبري ٢ : ١٨٣.

وللطبري رواية عن عكرمة تفصّل السبب في فساد الحال بين كسرىٰ وشهربراز وأخيه فرّخان فتقول: بلغ كسرىٰ أن فرّخان شرب خمراً وقال: لقد رأيتني جالساً علىٰ سرير كسرىٰ، فكتب الىٰ شهربراز: اذا أتاك كتابي فابعث اليّ برأس فرّخان.

فكتب شهربراز الىٰ پرويز: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرّخان، إن له نكاية وصوتاً في العدو، فلا تفعل. فكتب اليه پرويز: إن في رجال فارس خلفاً منه، فعجّل عليّ برأسه. فراجعه شهربراز أيضاً، فغضب كسرىٰ فلم يجبه.

ثمّ استعمل فرّخان علىٰ فارس وأمره بقتل أخيه شهربراز، فلمّا قرأ الكتاب قدّم أخاه شهربراز ليضرب عنقه، فقال له: لا تعجل حتّىٰ اكتب وصيّتي، قال: نعم، فدعا بسفط فاعطاه ثلاث صحائف وقال: كل هٰذا راجعت فيك كسرىٰ، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد. فامتنع فرّخان، واتّفقا علىٰ التمرد علىٰ كسرىٰ، فكتب شهربراز الىٰ قيصر ملك الروم (هرقل): اِن لي اليك حاجة لا تحملها البُرد ولا تبلغها الصحف، فالقني ولا تلقني الا في خمسين رومياً، فاني القاك في خمسين فارسياً.

فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق مخافة أن يكون قد مكر به، فأتاه عيونه أن شهربراز ليس معه الا خمسون رجلاً. فبسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكّين. ودعوا ترجماناً بينهما. فقال شهربراز لهرقل: اِن الذين خرّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، واِنّ كسرىٰ حسدنا فأراد أن أقتل أخي فأبَيت، ثمّ أمر أخي أن يقتلني، فقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك.

قال هرقل: قد أصبتما. ثمّ أشار أحدهما الىٰ صاحبه: أن السّر بين اثنين فاذا جاوز اثنين فشا، فقتلا الترجمان بسكّينهما.

ثمّ يقول عكرمة: فأهلك اللّٰه كسرىٰ وجاء الخبر الىٰ رسول اللّٰه يوم الحديبية، ففرح ومن معه[١].

بينما روىٰ رواية اخرىٰ عن يحيىٰ بن يَعْمرَ: أن كسرىٰ (پرويز) بعث شهربراز بجيش الىٰ الشام، وبعث قيصر الروم (هرقل) بجيش من الروم لدفع شهربراز، عليهم رجل يقال له قَطَمَة، فالتقيا ببُصرىٰ وأذرِعات ـ وهي أدنىٰ الأرض اليكم ـ فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس، ففرح بذٰلك كفار قريش وكره المسلمون فأنزل اللّٰه ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ فلم يبرح شهربراز يطؤهم ويخرّب مدائنهم حتّىٰ بلغ خليج القسطنطينية، ثمّ مات كسرىٰ (پرويز) فبلغهم موته، فانهزم شهربَراز وأصحابه، وعند ذٰلك أُديلت عليهم الروم فاتّبعوهم يقتّلونهم[٢].

فهاتان الروايتان عن يحيىٰ بن يعمر ومن قبل عن عكرمة، تتفقان علىٰ أن غلبة الفرس علىٰ الروم كانت بأذرعات من أواخر أراضي الشامات الىٰ صحراء العرب، وأن غلبة الروم علىٰ الفرس كانت بموتِ كسرىٰ وهزيمة شهربراز وأصحابه وهجوم الروم عليهم حينئذٍ، وأن الخبر بذٰلك جاء رسول اللّٰه يوم الحديبية فـفرح ومن معه.

وهٰذا يتّفق مع ما حكاه الطبري عن الكلبي أن بعثة الرسول كانت في العشرين من ملك كسرىٰ پرويز، وهجرته كانت في الثلاث والثلاثين من ملكه[٣] أو لمضي اثنتين وثلاثين سنة وخمسة اشهر، وكان ملكه ثمانياً وثلاثين سنة[٤].

---

(١) الطبري ٢ : ١٨٦ وفي التفسير ٢٠ : ١٣، ١٤.

(٢) الطبري ٢ : ١٨٥.

(٣) الطبري ٢: ١٨٧.

(٤) الطبري ٢ : ٢١٨ و ٢٢٧ و ٢٢٩.

أمّا القول الّذي رواه الطوسي عن أبي سعيد الخدري[١] والطبرْسي عن مقاتل[٢] أنه لما كان يوم بدر وغلب المسلمون كفار مكّة أخبر رسول اللّٰه أن الروم غلبت فارساً... فان يوم بدر كان في منتصف السنة الثانية للهجرة، أي قبل موت كسرىٰ پرويز وهزيمة الفرس أمام الروم بخمس سنين أو خمس سنين وستة أشهر، واذ ذاك لم يؤرّخ للروم انتصار علىٰ الفرس ولم تؤرّخ علىٰ الفرس هزيمة أمام الروم بل كانت الفتوحات تتوالىٰ لهم على الروم.

ولكن ممّا وقع علىٰ عهد خسرو پرويز ما ذكره الطبري قال: ومن ذٰلك ما كان من أمر ربيعة والجيش الّذي كان أنفذه اليهم كسرىٰ پرويز لحربهم فالتقوا بذي قار، وذُكر عن النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ أنّه لمّا بلغه ما كان من هزيمة ربيعة لجيش كسرىٰ قال: «هٰذا أوّل يوم انتصف العرب من العجم، وبي نُصروا»[٣].

وقد قال المسعودي: وفي ملك پرويز كان حرب ذي قار، وهو اليوم الّذي قال فيه النبيّ ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ: «هٰذا أوّل يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصرتْ عليهم بي» وفي رواية أنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر وكانت بين بكر بن وائل والهامرز صاحب كسرىٰ پرويز[٤] فمن المحتمل قوياً أن يكون الانتصار الّذي جاء الخبر به الىٰ رسول اللّٰه فأخبر به أصحابه هو انتصار العرب علىٰ الفرس دون الروم.

أمّا وقعة أذرِعات وكَسْكَرْ، فلم أجد فيما بيدي من كتب التأريخ الرومي والفارسي والعربي نقلاً عنهما شيئاً يخصّهما، والمحتمل القريب من الحملات الّتي

---

(١) التبيان ٨ : ٢٢٨.

(٢) مجمع البيان ٨ : ٤٦١.

(٣) الطبري ٢ : ١٩٣ و٢٠٧.

(٤) مروج الذهب ١ : ٣٠٧ وذكر الخبر اليعقوبي ١ : ٢١٤، ٢١٥.

مرّ ذكرها هي حملات ثلاث: حملة فتح أنطاكية، وحملة فتح دمشق، وحملة فتح القدس، فمن المحتمل أن تكون احدىٰ هٰذه الحملات قد طالت أذرعات في أواخر حدود الاردن نحو الحجاز ولكنها لاتتناسب مع زمان نزول سورة الروم قُبيل الهجرة بقليل، إذ الاولىٰ كانت في ٦١١م أي الثانية للبعثة، والثانية كانت في ٦١٤م أي في الخامسة للبعثة، والثالثة كانت في ٦١٥م أي السادسة للبعثة. بينما القريب المحتمل أن لا تكون الوقعة في أقل من السنة الثامنة للبعثة أي سنة ٦١٧م وفيها كانت حملة القائد الايراني شاهين علىٰ كاپادوكية وكالسدونة ووصولهم الىٰ أبواب مدينة القسطنطينية علىٰ ساحل بحر البوسفور. فهذه الحملة تحتمل الانطباق علىٰ قول الشيخ الطوسي بأن المراد أدنىٰ الأرض من جهة عدوّهم[١] والّذي نقله الطبرسي عن مجاهد بأن المقصود من «أدنىٰ الأرض» هو أدنىٰ الأرض الىٰ أرض فارس، أقرب أرض الروم الىٰ فارس[٢].

أمّا ماقاله الطبْرسي: كان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين، فدفعتهم فارس عنه، وروي أنهم استردوا بيت المقدس وأن ملك الروم مشىٰ اليه شكراً وبُسطت له الرياحين فمشىٰ عليها[٣].

فقد مرّ أن القرآن قد عبّر عن المسجد في مدينة القدس بجوار بيت المقدس بـ«المسجد الأقصىٰ» ولا يسعنا التصديق بأن المسجد أقصىٰ والأرض أدنىٰ «في أدنىٰ الأرض» وليس مقبولاً أن تكون الأرض أدنىٰ والمسجد أقصىٰ. ثمّ إن استرداد الروم لبيت المقدس لم ينقل تأريخياً أن يكون علىٰ عهد خسرو پرويز وهرقل معاصراً للرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

---

(١) التبيان ٨: ٢٢٩.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٦٠ وقال: يريد الجزيرة أي الموصل.

(٣) مجمع البيان ٨: ٤٦٠، ٤٦١.

وممّا يؤيّد أن هٰذا الانتصار الرومي علىٰ فارس كان بعد وقعة بدر بكثير ما رواه الطبرْسي في «مجمع البيان» أن أبا بكر لما أراد الهجرة تعلق به أُبيّ بن خلف وأخذ ابنه عبد اللّٰه بن أبي بكر كفيلاً، وجُرح أُبيّ في أُحد وعاد الىٰ مكّة فمات من تلك الجراحة، جرحه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله.

وروىٰ عن الشعبي قال: لم تمض تلك المدة (تسع سنين) الّتي عقدها أبو بكر مع أُبي بن خلف حتّىٰ غلبت الروم فارساً وربطوا خيولهم بالمدائن... فأخذ أبو بكر الخَطَر (الرهانة) من ورثته وجاء به الىٰ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فتصدّق به[1].

السورة الخامسة والثمانون ـ «العنكبوت»:

﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾[2].

روىٰ الطبرْسي في «مجمع البيان» عن الشِعبي: أن الآية نزلت في أُناس مسلمين كانوا بمكّة فخرجوا الىٰ المدينة فاتبعهم المشركون فآذوهم، فمنهم من نجا ومنهم من قُتل. وعن ابن عباس: أنّه أراد بـ«الناس»: الّذين آمنوا بمكّة: عمار بن ياسر، والوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وعياش ابن أبي ربيعة المخزومي، وسلمة بن هشام المخزومي. وعن ابن جريج: أن الآية نزلت في عمار بن ياسر، وكان يعذَّب في اللّٰه[3].

ولعل هٰذا هو مورد مارواه الكشي في رجاله بسنده عن الليث بن سعد عن عمر مولىٰ غفرة قال: حُبس عمار فيمن حُبس وعُذّب، فانفلت فيمن انفلت من

---

(١) مجمع البيان ٨: ٤٦١، ٤٦٢ والكشاف للزمخشري ٣: ٢١٤.

(٢) العنكبوت: ١، ٢.

(٣) مجمع البيان ٨: ٤٢٧.

الناس، فقدم علىٰ رسول الله ﷺ فقال: أفلح أبو اليقظان! قال: ما أفلح ولا أنجح لنفسه، لأنهم لم يزالوا يعذّبونه حتىٰ نال منك![١].

وما أخرجه السيوطي عن ابن عباس قال: لمّا أراد الرسول أن يهاجر الىٰ المدينة قال لأصحابه... فأصبح بلال وخبّاب وعمّار... فأخذهم المشركون... وأمّا عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم، تقية... ثمّ خلّوا عنهم[٢].

فهذه الأخبار تناسب هذه الفترة وهذه المرة أي حين الهجرة، ولا ترتبط بما حدث له في المرة الاولى حين نزول سورة النحل أواخر أيام حِصار الشِعب، من تعذيب مشركي قريش له ولوالديه وقتلهما وتقيّته وافلاته بها، وقول الرسول له يومئذٍ «ان عادوا لك فعُد لهم» مشيراً الى تكرار الأمر هذه المرة حين الهجرة، فكان كما أشار وألمح ﷺ.

وعليه فما في الخبر عن ابن عباس: «أن أبا جهل أسر عماراً وبقر بطن أُمه» وما في آخره: «أن النبيّ جعل يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت» خلط ووَهْم، اذ كيف يقول له الرسول ذلك في المدينة بعد الهجرة حيث لا يتوقع عودة مشركي قريش الى تعذيب عمار؟! وكذلك أيضاً ما في آخر خبر الكشي عن ابن سعد: أنه قال له: «إن سألوا من ذلك فزدهم» إذ كيف يسألونه ذلك بعد أن قدم علىٰ رسول الله المدينة كما في الخبر؟!

كما أن ذيل خبر السيوطي: «ثم خلّوا عن بلال وخبّاب وعمّار فلحقوا برسول الله فأخبروه بالذي كان من أمرهم ... وأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ خلط لما نزل من القرآن في عمار في المرة الاولى ـ في سورة

---

(١) رجال الكشي: ٣٥.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٣٢.

النحل ـ بما كان على عمار وصاحبيه بلال وخبّاب في هذه المرة الثانية حين هجرتهم الى المدينة، مما يستلزم استثناء هذه الآيات من مكية سورة النحل بلا موجب. كما مرّ ذلك عند الكلام حول الآيات من سورة النحل.

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾[1].

روىٰ السيوطي في «الدر المنثور» عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أُمي: لا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتّىٰ تكفر بمحمّد، فامتنعتْ من الطعام والشراب، فنزلت الآية: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾.

وروىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الكلبي قال: نزلت الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنّه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر الىٰ المدينة قبل أن يهاجر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، فحلفت أُمه أسماء بنت مخزمة التميمي: أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل بيتاً حتّىٰ يرجع اليها.

فلمّا رأىٰ ابناها ابو جهل بن هشام والحرث بن هشام جزعها، ركبا في طلبه حتّىٰ أتيا المدينة، فلقياه وذكرا له القصة، فلم يزالا به حتّىٰ أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه، فتبعهما.

---

(١) العنكبوت: ٨ ـ ١١.

فلمّا خرجا به من المدينة أخذاه وأوثقاه كتافاً وجلداه حتّىٰ برىء من دين محمّد ﷺ جزعاً من الضرب وقال ما لا ينبغي، فنزلت الآية[١].

وعليه فالآية تتنبّأ عن عودته عند حصول نصر اللّٰه لرسوله، ثمّ لا تستبعد الآية أن يكون مؤمناً بباطنه فاللّٰه أعلم به، وكذٰلك كان، فان تمام خبر الطبْرسي عن الكلبي: أنّه لما هاجر النبيّ ﷺ والمؤمنون الىٰ المدينة هاجر عياش وحسن اسلامه وحيث كان أشد أخويه عليه الحرث لذٰلك كان عياش قد حلف لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضربن عنقه، وأسلم الحرث وهاجر الىٰ المدينة وبايع النبيّ ﷺ علىٰ الاسلام، وكان عياش خارجاً عن المدينة فلم يشعر باسلامه حتّىٰ لقيه يوماً بظهر قُبا فضرب عنقه، ولما علم باسلامه بكىٰ واسترجع، ونزلت فيه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ﴾[٢] فأنبأت عن ايمانهما. وعليه فلعل الاشارة إلى المنافقين الىٰ: سعد بن أبي وقاص بلحاظ ما بعد النبيّ ﷺ.

وبعدها قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[٣].

قال القمي في تفسيرها: كان الكفار يقولون للمؤمنين: كونوا معنا، فان الّذي تخافون انتم ليس بشيء، فان كان حقاً فانا نتحمل ذنوبكم. فيعذبهم اللّٰه مرتين مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم[٤].

---

(١) مجمع البيان ٨: ٤٢٩.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٢٩، ٤٣٠.

(٣) العنكبوت: ١٢، ١٣.

(٤) تفسير القمي ٢: ١٤٩. وروي السيوطي في الدر المنثور بسنده عن محمّد بن الحنفية قال: كان ابو جهل وصناديد قريش اذا جاء الناس يسلمون يتلقونهم فيقولون: انّه يحرّم الخمر ويحرّم الزنا فارجعوا ونحن نحمل أوزاركم فنزلت الآية.

ومنها قوله سبحانه: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾[١] روىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل والكلبي قالا: نزلت في المستضعفين من المؤمنين بمكّة أُمروا بالهجرة عنها[٢].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٣] روىٰ الطبْرسي في «مجمع البيان» عن مقاتل والكلبي قالا: نزلت في جماعة كان يؤذيهم المشركون بمكّة فأُمروا بالهجرة الىٰ المدينة، فقالوا: كيف نخرج اليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟ فنزلت فيهم[٤].

وتختم السورة توصيتها المسلمين بالصبر والجهاد بقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

واختلف الخبر هنا عن ابن عباس في آخر سورة نزلت بمكّة قبل الهجرة، فبينما يروي الطبْرسي في «مجمع البيان» عن الحاكم الحسكاني عن عطاء عن ابن عباس أنّه ذكر في آخر السور المكية بعد العنكبوت: سورة المطفّفين[٥] وكذٰلك الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الاتقان»[٦] وابن النديم في «الفهرست» عن محمّد بن النعمان بن بشير الأنصاري، ولكنه قال: ويقال انها مدنية[٧] والسيوطي في «الاتقان» نقل خبراً آخر عن ابن عباس وآخر عن البيهقي عن عِكرمة

---

(١) العنكبوت: ٥٦.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٥٥.

(٣) العنكبوت: ٦٠.

(٤) مجمع البيان ٨: ٤٥٥.

(٥) مجمع البيان ١٠: ٦١٣.

(٦) الاتقان: ١: ١١ عن ابن ضريس من القرن الخامس.

(٧) الفهرست: ٣٧ ط مصر.

عن ابن عباس، اختلفا في ترتيب السور ولكنهما اتّفقا علىٰ اعتبار سورة المطفّفين من السور المدنية بخلاف الخبر السابق الّذي ذكر أنها مكية[١] وأضاف الطبْرسي في «مجمع البيان» القول بذلك عن الحسن والضحاك[٢] وأضاف عن عكرمة عن ابن عباس سبباً لنزولها قال: لما قدم رسول اللّٰه ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل اللّٰه عزّ وجل: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وروىٰ عن السُدي قال: لمّا قدم ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبو جُهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت الآيات[٣] بل في رواية أبي الجارود في «تفسير القمي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: نزلت (سورة المطفّفين) علىٰ نبيّ اللّٰه حين قدم المدينة وهم يومئذ أسوأ الناس كيلاً، فأحسنوا الكيل[٤] وهذا هو معنىٰ مارواه عكرمة عن ابن عباس. فهو المختار.

وعليه فان آخر مانزل من القرآن بمكّة هي سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة كما مر، فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة فهاجروا زرافات ووحداناً، ولحق هو بهم.

---

(١) الاتقان ١ : ١٠.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٥.

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٧.

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤١٠.

الفصل الثامن

بيعة العقبة وانتشار الإسلام في المدينة

بيعة العقبة:

قال القميّ في تفسيره: لما قدمت الأوس والخزرج مكّة، وكان اكثرهم مشركين علىٰ دينهم، وفيهم عبد اللّٰه بن أُبيّ بن سَلول[1]، وفيهم ممّن أسلم بشر كثير. وكان رسول اللّٰه نازلاً في دار عبد المطلب (في منىٰ في أيام موسم الحج) ومعه علي عليه السلام وحمزة والعباس. فجاءهم رسول اللّٰه وقال لهم: تمنعون جانبي حتّىٰ أتلو عليكم كتاب ربكم، وثوابكم علىٰ اللّٰه الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول اللّٰه فخذ لنفسك وربّك ما شئت. فقال: موعدكم العقبة في الليلة الوسطىٰ من ليالي التشريق فاحضروا دار عبد المطّلب علىٰ العقبة، ولا تنبّهوا نائماً.

فلمّا حجّوا رجعوا الىٰ منىٰ، وجاءه منهم سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار. فلمّا اجتمعوا قال لهم رسول اللّٰه: تمنعون جانبي حتّىٰ أتلو عليكم

---

(١) سَلُول: اسم جدّته لأبيه.

كتـاب ربّكم وثوابكم علىٰ اللّٰه الجنة؟ فقال أسعد بن زرارة والبَراء بـن مـعرور وعبد اللّٰه بن حرام[1]: نعم يا رسول اللّٰه، فاشترط لنفسك ولربّك.

فقال رسول اللّٰه: تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم، وتمنعون أهلي ممّا تمنعون منه أهليكم؟ قالوا: فما لنا علىٰ ذٰلك؟ قال: تملكون بها العرب في الدنيا، وتدين لكـم العجم وتكونوا ملوكاً في الجنة. فقالوا: قد رضينا.

فقام العباس بن نضلة الأوسي فقال: يا معشر الأوس والخزرج، تـعلمون علىٰ ماتقدمون عليه؟ إنما تقدمون علىٰ حرب الأحمر والأبيض وعلىٰ حرب ملوك الدنيا، فان علمتم أنّه اذا أصابتكم المصيبة في أنفسكم خذلتموه وتركتموه فلا تغروه، فانّ رسول اللّٰه ـ وان كان قومه خالفوه ـ فهو في عزّ ومنعة.

فقال له عبد اللّٰه بن حرام وأسعد بن زرارة وأبو الهيثم ابن التيهان: مـالك وللكلام؟! ثمّ قالوا: يا رسول اللّٰه، بل دمنا بدمك وأنفسنا بنفسك، فاشترط لربك ولنفسك ما شئت.

فقال رسول اللّٰه: أخرجوا اِليّ منكم اثني عشر نقيباً يكفلون عليكم بذٰلك، كما أخذ موسىٰ مِن بني اسرائيل اثني عشر نقيباً. فقالوا: اختر من شئت.

فأشار جبرئيل عليه‌السلام اليهم، فقال: هٰذا نقيب، وهٰذا نقيب حتّىٰ اختار تسعة من الخزرج وهم: أسعد بن زرارة، والبَراء بن معرور، وعبد اللّٰه بن حرام ـ وهو أبو جابر بن عبد اللّٰه الأنصاري ـ ورافع بن مالك، وسعد بن عُبادة، والمنذر بن عمرو، وعبد اللّٰه بن رواحة، وسعد بن الربيع، وعُبادة بن الصامت. وثلاثة مـن الأوس وهم: أبو الهيثم بن التيهان اليمني حليف بني عمرو بن عوف، وأُسيد بن حضير[2]، وسعد بن خيثمة.

---

(١) أبو جابر بن عبداللّٰه الأنصاري، من شهداء أُحد.

(٢) وروى الصدوق في الخصال ٢ : ٤٩٢ : أسماء النقباء عن القمي أيضاً عن أبان الأحمر ←

فلمّا اجتمعوا وبايعوا رسول اللّٰه صاح بهم ابليس : يا معشر قريش والعرب، هٰذا محمّد والصُباة من الأوس والخزرج علىٰ هٰذه العقبة يبايعونه علىٰ حربكم فأسمَعَ أهلَ منىٰ، فهاجت قريش وأقبلوا بالسلاح.

وسمع رسول اللّٰه النداء فقال للأنصار : تفرّقوا. فقالوا : يارسول اللّٰه إنْ أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا؟

فقال رسول اللّٰه : لم أُؤمر بذٰلك، ولم يأذن اللّٰه في محاربتهم.

فقالوا : يا رسول اللّٰه فتخرج معنا؟

قال : انتظر أمر اللّٰه (بالهجرة) فتفرّقوا.

وخرج حمزة وعلي بن أبي طالب فوقف حمزة علىٰ العقبة ومعه السيف.

فجاءت قريش عن بكرة أبيها قد أخذوا السلاح، فلمّا نظروا الىٰ حمزة قالوا له : ماهٰذا الّذي اجتمعتم عليه؟

قال : ما اجتمعنا، وما ها هنا أحد، وواللّٰه لا يجوز أحد هٰذه العقبة إلّا ضربته بسيفي! فرجعوا. ورجع رسول اللّٰه الىٰ مكّة.

(ولم يُطلع المسلمون من الأوس والخزرج المشركين منهم، وفيهم عبد اللّٰه بن أُبّي بن سلول، فغدت قريش اليه) وقالوا له : قد بلغَنا أنّ قومك بايعوا محمّداً علىٰ حربنا؟ فحلف لهم عبد اللّٰه : أنهم لم يفعلوا ولا علم له بذٰلك، فصدّقوه[1].

ذكر ذٰلك القمي في تفسيره، ونقله عنه الطبْرسي في «اعلام الورىٰ» والقطب الراوندي في «قصص الأنبياء» ولم يتبعه تلميذه ابن شهر آشوب في «مناقب آل

⟵ البجلي عن أشياخه (كذا) وفيهم أُسيد بن حضير، وفي خبرين عن الباقر والصادق عليهما السلام عدّا بدله سهل بن حنيف الأنصاري، ولذا قال صاحب قاموس الرجال ٥ : ٣٥٥ في ترجمة سهل : أن العامة بدلوه بأُسيد لمساعدته لهم في الهجوم على دار الزهراء عليها السلام.

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧٢، ٢٧٣.

أبي طالب» بل قال: كان النبيّ يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب في الموسم، فلقي رهطاً من الخزرج ستة نفر، فقال: أفلا تجلسون أُحدّثكم؟ قالوا: بلىٰ، فجلسوا اليه فدعاهم الىٰ اللّٰه وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: واللّٰه إنّه للنبيّ الّذي كان يُوعدكم به اليهود، فلا تسبقنّكم اليه (فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام) وقالوا له: إنّا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسىٰ أن يجمع اللّٰه بينهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم الىٰ أمرك (ونعرض عليهم الّذي أجبناك اليه من هٰذا الدين، فان يجمعهم اللّٰه بك فلا رجل أعزّ منك، ثمّ انصرفوا عن رسول اللّٰه راجعين الىٰ بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا).

فلمّا كان العام المقبل أتىٰ من الأنصار الىٰ الموسم اثنا عشر رجلاً فلقوا النبيّ ﷺ فبايعوه علىٰ «بيعة النساء»[1] وبعث معهم مصعب بن عمير ابن هاشم يصلي بهم (فكان يصلي بهم ويقرئهم القرآن حتّىٰ سمّي) بينهم بالمقرىء، وحتّىٰ لم تبق دار في المدينة إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون.

(وفي الموسم القادم) خرج جمع من الأنصار مع حجاج قومهم، فاجتمعوا في ليلة من ليالي التشريق في الشعب عند العقبة، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان.

(فقام فيهم رسول اللّٰه) فقال: أُبايعكم علىٰ الإسلام؟

فقال له بعضهم: نُريد أن تعرّفنا ـ يا رسول اللّٰه ـ ما للّٰه علينا وما لك علينا وما لنا علىٰ اللّٰه؟ فقال: أمّا ما للّٰه عليكم: فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً،

---

(١) اصطلح المسلمون فيما بعد باسم بيعة النساء علىٰ البيعة الّتي وردت في الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة، وانّما يكنّىٰ بها عن بيعة لا قتال فيها في مقابل بيعة الحرب. وسورة الممتحنة نازلة بعد صلح الحديبية، فالتسمية متأخرة.

وأمّا ما لي عليكم: فتنصروني مثل نسائكم وأبنائكم، وأن تصبروا علىٰ عضّ السيف وأن يُقتل خياركم[١].

قالوا: فاذا فعلنا ذٰلك فما لنا علىٰ اللّٰه؟

قال: أمّا في الدنيا فالظهور علىٰ من عاداكم، وفي الآخرة الرضوان والجنة.

فقال أبو الهيثم ابن التيهان: إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً، فهل عسيت إن نحن قطعناها أو قطعوها ثمّ أظهرك اللّٰه أن ترجع الىٰ قومك وتدَعنا؟

فتبسّم رسول اللّٰه ثمّ قال: بل الدم الدم والهدم الهدم أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم.

فأخذ البَراء بن معرور بيده ثمّ قال: والّذي بعثك بالحقّ لنمنعنك بما نمنع به أُزرنا فبايِعنا يا رسول اللّٰه فنحن واللّٰه أهل الحروب وأهل الحلَقة، ورثناها كباراً عن كبار.

فقال رسول اللّٰه: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً. فاختاروا.

فقال لهم: أُبايعكم كبيعة عيسىٰ بن مريم للحواريين، كفلاء علىٰ قومكم، علىٰ أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فبايعوه علىٰ ذٰلك.

فصرخ الشيطان في العقبة: يا أهل الجباجب[٢] هل لكم في محمّد والصُباة معه؟! فانهم قد اجتمعوا علىٰ حربكم. ففشا الخبر ونفر الناس وخرجوا في الطلب، فلم يدركوا منهم اِلّا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأمّا المنذر فاعجز القوم هرباً، وأمّا سعد فأدركوه فأخذوه وربطوه بحبل رحله وأدخلوه مكّة يضربونه.

---

(١) وهٰذا معناه أن بيعة النساء السابقة تغيّرت هنا الىٰ بيعة القتال والحرب.

(٢) الجباجب: جمع جُبْجُبَة: الوعاء من أَدَم ونحوه، وتُطلق علىٰ منازلهم في منىٰ لأنها أوعية لهم.

فبلغ خبره الىٰ جبير بن مُطعم والحارث بن حرب بن أُمية (أخي أبي سفيان صخر بن حرب) فأتياه وخلّصاه[١].

هٰذا ما ذكره ابن شهر آشوب في فصل هجرته صلى الله عليه وآله، وقد قال في الفصل السابق في أحواله وتواريخه: كان حصار الشِعب أربع سنين. وقال قبله: توفي أبو طالب بعد نبوته بتسع سنين وثمانية أشهر، وذٰلك بعد خروجه من الشعب بشهرين. وتوفيت خديجة بعده بستة أشهر. ولبث بعدها بمكّة ثلاثة أشهر فأمر أصحابه بالهجرة الىٰ الحبشة(!) فخرج جماعة من أصحابه بأهاليهم، وذٰلك بعد خمس من نبوته(!) وقال: فلمّا توفي ابو طالب خرج الىٰ الطائف وأقام فيه شهراً، ثمّ انصرف الىٰ مكّة ومكث فيها سنة وستة أشهر في جوار مُطعم بن عدي.

ثمّ ذكر مختصر خبر بيعة العقبة الأُولىٰ والعقبة الثانية، ولكنه أضاف ذكر أسماءهم فقال:

كانت بيعة العقبة الاولىٰ بمنىٰ، بايعه خمسة نفر من الخزرج وواحد من الأوس، في خفية من قومهم «بيعة النساء» وهم: جابر بن عبد اللّٰه[٢]، وقطبة بن عامر بن حرام، وعوف بن الحارث، وحارثة بن ثعلبة[٣]، ومرثد ابن الأسد، وأبو أمامة ثعلبة بن عمرو، ويقال: هو أسعد بن زُرارة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٨١، ١٨٢. وهو مختصر خبر ابن إسحاق في السيرة ٢: ٧٠ ـ ٩٣. بل الأصل في هذا الخلط ابن مندة كما نبّه عليه الجزري في أُسد الغابة في ترجمة جابر الأنصاري، كما في قاموس الرجال ٢: ٥٢٣، كما سيأتي.

(٢) لا يوجد جابر فيمن شهد العقبة بل ابوه عبد اللّٰه بن عامر بن حرام. بل يعدّ جابر من أتراب الحسين عليه السلام.

(٣) ولا يوجد هٰذا الاسم أيضاً في الستة الاولىٰ ولا الأخيرة، بل هو جدّ الأوس والخزرج، اليعقوبي ٢: ٣٠.

وفي السنة القابلة ـوهي العقبة الثانية ـ أنفذوا معهم ستة اخرىٰ بالاسلام والبيعة، وهم: أبو الهيثم بن التَيهان، وعُبادة بن الصامت، وذكوان ابن عبد اللّٰه، ونافع بن مالك بن العجلان، وعباس بن عُبادة بن نضلة، ويزيد بن ثعلبة حليف له. ويقال: مسعود بن الحارث، وعُويم بن ساعدة حليف لهم.

ثمّ أنفذ النبيّ عليه‌السلام معهم ابن عمّه (كذا؟): مصعب بن (عمير) بن هاشم، فنزل دار أسعد بن زرارة، فاجتمعوا عليه وأسلم أكثرهم.

وفي السنة القابلة كانت «بيعة الحرب»[١] كانوا سبعين رجلاً وامراتين من الأوس والخزرج، واختار منهم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء قومهم: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فمن الخزرج: أسعد بن زرارة، وجابر ابن عبد اللّٰه الأنصاري[٢] والبَراء بن معرور، وعبد اللّٰه بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وعبد اللّٰه بن رواحة، وسعد بن الربيع. ومن القواقل: عُبادة بن الصامت. ومن الأوس: أبو الهيثم بن التيهان، وأُسيد بن حُضير، وسعد بن خَيثمة[٣].

وظاهره ـكما ترىٰ ـ أنّه يعدّد ثلاث بيعات في ثلاث سنوات متواليات، ولم يسند الخبر لا هنا ولا في فصل هجرته صلى‌الله‌عليه‌وآله.

---

(١) في الكتاب: الحرث، أو الحرس، ولا ريب أن الحرس مصحّف الحرث، وهو مصحّف الحرب، فهو الصحيح ولا معنىً لغيره.

(٢) روى الكشي في رجاله بسنده عن الباقر عليه‌السلام قال: كان عبد اللّٰه أبو جابر بن عبد اللّٰه من السبعين ومن الاثني عشر، وجابر من السبعين وليس من الاثني عشر. رجال الكشي: ٤١. وانظر معناه في قاموس الرجال ٢: ٥٢٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٤، ١٧٥ وهو مختصر خبر ابن إسحاق كما في سيرة ٢: ٧٣ ـ ٧٥ و ٨١ ـ ٨٧. ومنها ما بين الأقواس.

وابن اسحاق يبدأ في خبر اسلام الأنصار، فيذكر عرض الرسول نفسه علىٰ العرب ولقاءه بالستة من الخزرج عند العقبة، وأنهم: أجابوه فيما دعاهم اليـه بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام... ثمّ انصرفوا عن رسـول اللّٰـه راجعين الىٰ بلادهم وقد آمنوا وصدّقوا. ثمّ يسمّيهم. ولا يذكر شيئاً عن البيعة ولا يسمّيها «بيعة النساء» ولا «العقبة الاولىٰ» وابن شهر آشوب سماهما: بيعةَ العـقبة الاولىٰ، وبيعةَ النساء. والعقبةُ الاولىٰ الّتي اضيف فيها الىٰ الستة الأُولىٰ ستة آخرون فكان الجميع اثني عشر رجلاً وبُعث معهم مصعب بن عمير، يسمّيها: العقبة الثانية. والعقبةُ الثانية الّتي كان الأنصار فيها: ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين يسمّيها بـيعةَ الحرب، وهي كذٰلك، ولكنه يجعلها البيعة الثالثة في السنة القابلة أي الثالثة. ولعـلّ منشأ الشبهة له هو أن ابن اسحاق او ابن هشام لا يسمي اللقاء الأوّل[١]، ويسمي اللقاء الثاني بالعقبة الأُولىٰ[٢] ويسمي اللقاء الثالث بالعقبة الثانية[٣] ثمّ يعود عـلىٰ شروط هذه البيعة بعنوان: شروط البيعة في العقبة الأخيرة: قـال ابـن اسـحاق: وكانت بيعة الحرب[٤] فلعله وهِمَ أن البيعة الأخيرة بيعة الحرب غـير بـيعة العـقبة الثانية، فهي الثالثة.

وابن اسحاق يروي الخبر الأوّل عن اللقاء الأوّل للنبيّ بالستة من الخزرج عـن عاصم بن عمر بن قَتادة عن أشياخ قومه[٥] وخبر العقبة الأُولىٰ عن عُبادة بن

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٠.

(٢) م. ن ٢ : ٧٣.

(٣) م. ن ٢ : ٨١.

(٤) م. ن ٢ : ٩٧.

(٥) م. ن ٢ : ٧٠.

الصامت بثلاث وسائط(١)، وبطريق آخر عنه بواسطتين(٢) وخبر العقبة الثانية عن كعب بن مالك الخزرجي بواسطة ابنه معبد عن أخيه عبد اللّٰه عن أبيه كعب(٣) وخبر أسر سعد بن عُبادة عن عبد اللّٰه بن أبي بكر عنه(٤).

ويوهم قوله: كانت البيعة الاولىٰ علىٰ بيعة النساء، وذلك أن اللّٰه لم يكن قد أذن لرسوله ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ في الحرب، فلمّا أذن اللّٰه له فيها وبايعهم رسول اللّٰه(٥) وقوله: وكان رسول اللّٰه قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تُحلل له الدماء... فلمّا عتت قريش علىٰ اللّٰه عزّوجل... أذن اللّٰه عزّوجل لرسوله في القتل والانتصار ممن ظلمهم وبغىٰ عليهم... بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء: أن أوّل آية أُنزلت في اذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغىٰ عليهم قول اللّٰه تبارك وتعالىٰ: ﴿ أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن اللّٰه علىٰ نصرهم لقدير ﴾(٦)... فلمّا أذن اللّٰه تعالىٰ له في الحرب وبايعه هٰذا الحيّ من الأنصار(٧) يوهم قوله هٰذا: أن الاذن له بالحرب صدر بهذه الآية قبل بيعة الحرب في العقبة الثانية قبل الهجرة، ولذٰلك بايعهم النبيّ بيعة الحرب.

ويردّه ما رواه ابن اسحاق عن معبد بن كعب عن اخيه عبد اللّٰه بن كعب عن أبيه كعب بن مالك: أن العبّاس بن عُبادة بن نَضْلة قال له: إن شئت لنميلنّ

(١) م. ن ٢ : ٧٥.

(٢) م. ن ٢ : ٧٦.

(٣) م. ن ٢: ٨١.

(٤) ابن إسحاق ٢ : ٩٢.

(٥) م. ن ٢ : ٩٧.

(٦) الحج : ٣٩.

(٧) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٠ ـ ١١١ .

علىٰ أهل منىً غداً بأسيافنا ؟! فقال رسول اللّه : لم نـؤمر بـذٰلك، ولكـن ارجـعوا الىٰ رحالكم[١].

والآية من سورة الحج، وهي بعد المائة في ترتيب النزول، أي النازلة بـعد عشرين سورة نزلت بعد الهجرة، تقريباً، ممّا لا يناسب معه نزولها حتّىٰ قبل وقعة بدر في منتصف السنة الثانية للهجرة، بل يناسب نزولها بعد ذٰلك تحكي علة الاذن في ذٰلك، فضلاً عن أن تكون قد نزلت قبل بيعة الحرب في العقبة الثانية قبل الهجرة، ممّا يوهمه ظاهر مقال ابن اسحاق، ولكن الحديث اختلط بعضه ببعض في غير وضوح. نعم كان يفهم من بيعة الحرب أن ذٰلك سيكون، وكانت لابن اسحاق روايـة عـن عروة ابن الزبير وغيره عن أوّل آية أُنزلت في الاذن في الحرب والقتال، فانتقل الىٰ نقل الرواية جملة معترضة، لقد خلط ابن شهر آشوب، وزاد في تخليطه أنّه عدّ جابراً من النقباء في بيعتي العقبة والستة الأُولى قبل العقبة، خالطاً بينه وبين جابر بن عبد اللّه بن رئاب، والأصل في خلطه ابن مندة كما في أُسد الغابة[٢].

انتشار الاسلام في المدينة:

مرّ في تعبير القمي في تفسيره : أن رسول اللّه ﷺ بعث الىٰ المدينة مع الاثني عشر نقيباً في بيعة العقبة الاولىٰ : مصعب بن عمير بن هاشم يصلّي بهـم. فكـان يصلّي بهم ويقرئهم القرآن حتّىٰ سمّي بينهم بالمُقرئ، وحتّىٰ لم تبق دار في المدينة الا وفيها رجال ونساء مسلمون.

ومرّ في تعبير ابن شهر آشـوب في «المـناقب» : ثمّ أنـفذ النـبيّ عليه السلام مـعهم

(١) م. ن ٢ : ٩٠.

(٢) كما في قاموس الرجال ٢ : ٥٢٣.

(ابن عمه؟) مصعب بن عمير بن هاشم، فنزل دار أسعد بن زرارة، فاجتمعوا عليه وأسلم اكثرهم. أمّا لماذا نزل دار أسعد بن زرارة؟

فقد مرّ في أخبار حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب رضي الله عنه[1] عن الطبْرسي في «إعلام الورىٰ» عن علي بن ابراهيم القمي قال: كان بين الأوس والخزرج حرب قد بغوا فيها دهوراً طويلة، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعاث» وكانت للأوس علىٰ الخزرج.

وكان عبد الله بن أُبيّ بن سلول شريفاً في الخزرج، ولكنه لم يدخل مع قومه الخزرج في حرب بُعاث ولم يُعنهم علىٰ الأوس وقال: هٰذا ظلم منكم للأوس ولا أُعين علىٰ الظلم. فرضيت به الأوس والخزرج واجتمعوا علىٰ أن يملّكوه عليهم لشرفه وسخائه، وحتّىٰ أنهم اتخذوا له اكليلاً احتاجوا في تمامه الىٰ واسطة كانوا يطلبونها...

وكان أسعد بن زرارة (الخزرجي من بني النجار أخوال الرسول) صديقاً لعتبة بن ربيعة المخزومي، فخرج هو وذكوان الىٰ مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف علىٰ الأوس، فلمّا نزل علىٰ عتبة قال له: انّه كان بيننا وبين قومنا حرب، وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم.

فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم، ولنا شغل لا نتفرغ معه لشئ!

قال أسعد: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟

قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً وأَعظمنا بيتاً.

---

(١) صفحة: ٦٢٥ فما بعدها.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الّذين كانوا بينهم: النضير وقُريظة وقَينُقاع: أنّ هٰذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مُهاجَره الىٰ المدينة، لنقتلنّكم به يا معشر العرب! فلمّا سمع ذٰلك الكلام من عتبة وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود فقال: أين هو؟ قال: جالس في الحِجر، وإنهم لا يخرجون من شعبهم الاّ في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحرك بكلامه.

فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي أن أطوف بالبيت؟

فقال: ضَع في أُذنيك القطن.

ندخل أسعد المسجد وقد حشا أُذنيه من القطن. فطاف بالبيت ورسول اللّه ﷺ جالس في الحِجر مع قوم من بني هاشم، فنظر اليه نظرة فجازه، فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي! أيكون مثل هٰذا الحديث بمكّة فلا نعرفه حتّىٰ أرجع الىٰ قومي فاخبرهم؟! ثمّ أخرج القطن من أُذنيه ورمىٰ به وقال لرسول اللّه: أنعم صباحاً! فرفع رسول اللّه رأسه اليه وقال: قد أبدلنا اللّٰه به ما هو أحسن من هٰذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم. فقال له أسعد: اِن عهدك بهٰذا لَقريب. الىٰ ما تدعو يا محمّد؟ قال: الىٰ شهادة أنْ لا اِلٰه اِلاّ اللّٰه وأني رسول اللّٰه، وأدعوكم الىٰ: ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

---

(١) الأنعام: ١٥١، ١٥٢.

فلمّا سمع أسعد هٰذا قال : أشهد أن لا اله الاّ اللّٰه وحده لا شريك له، وأنك رسول اللّٰه. يا رسول اللّٰه، بأبي أنت وأُمي، أنا من أهل يثرب من الخزرج وبيننا وبين اخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فان وصلها اللّٰه بك فلا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي فان دخل في هٰذا الأمر رجوت أن يتمم اللّٰه لنا أمرنا فيك. واللّٰه يارسول اللّٰه لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارنا دار هجرتك وعندنا مقامك، فقد أعلمنا اليهود ذٰلك، فالحمد للّه الّذي ساقني اليك. واللّٰه ما جئت اِلاّ لنطلب الحلف علىٰ قومنا، وقد آتانا اللّٰه بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أقبل ذكوان. فقال له أسعد : هٰذا رسول اللّٰه الّذي كانت اليهود تبشّرنا به وتخبرنا بصفته، فهلمّ وأسلِمْ. فأسلَم ذكوان.

ثمّ قالا : يا رسول اللّٰه، ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ويدعو الناس الىٰ أمرك. وكان مصعب بن عمير بن هاشم فتى حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه علىٰ أولادهم، فلمّا أسلم جفاه أبواه، ولم يخرج من مكّة فكان مع رسول اللّٰه في الشِعب حتّىٰ تغيّر وأصابه الجَهد، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً. فأمره رسول اللّٰه ﷺ بالخروج مع أسعد فخرج هو مع أسعد الىٰ المدينة، فكان نازلاً علىٰ أسعد بن زرارة، يخرج معه في كلّ يوم يطوف علىٰ مجالس الخزرج يدعوهم الىٰ الاسلام فيجيبه من كلّ بطن الرجل والرجلان من الأحداث.

فقال أسعد لمصعب : إنّ خالي سعد بن مُعاذ من رؤساء الأوس، وهو رجل عاقل شريف مطاع في بني عمرو بن عوف، فان دخل في هٰذا الأمر تم لنا أمرنا، فهلمّ نأتي محلتهم.

فجاء مصعب مع أسعد الىٰ محلة سعد بن مُعاذ. فبلغ ذٰلك سعد بن مُعاذ فقال لأُسيد بن حُضير وكان من أشرافهم : بلغني إن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء الىٰ محلتنا مع هٰذا القرشيّ يفسد شبابنا، فأته وانهه عن ذٰلك.

فجاء أُسيد بن حضير فنظر اليه أسعد فقال لمُصعب بن عمير: إن هٰذا الرجل شريف، فان دخل في هٰذا الأمر رجوت أن يتم أمرنا فاصدق اللّٰه فيه.

فلمّا قرب أُسيد منهم قال: يا أبا أمامة، يقول لك خالك: لا تأتنا في نادينا ولا تفسد شبابنا واحذر الأوس علىٰ نفسك!

فقال مصعب: أو تجلس فنعرض عليك أمراً فان أحببته دخلت فيه وإن كرهته نحّينا عنك ما تكرهه. فجلس، فقرأ عليه سورة من القرآن. فقال: كيف تصنعون اذا دخلتم في هٰذا الأمر؟ قال: نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ونشهد الشهادتين ونصلّي ركعتين.

فرمىٰ بنفسه مع ثيابه في البئر ثمّ خرج وعصر ثوبه ثمّ قال: اعرض عليّ. فعرض عليه: شهادة أن لا إلٰه الّا اللّٰه وأنّ محمّداً رسول اللّٰه. فقالها، ثمّ صلّىٰ ركعتين، ثمّ قال لأسعد: يا أبا أمامة، أنا أبعث اليك الآن خالك واحتال عليه في أن يجيئك!

فرجع أُسيد الىٰ سعد بن معاذ، فلمّا نظر اليه سعد قال: أُقسم أن أُسيداً قد رجع الينا بغير الوجه الّذي ذهب به من عندنا![1].

فلمّا وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمت الرجلين فواللّٰه ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ماأحببت، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا الىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه! ـ وذٰلك أنهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك ـ ليُخفروك!

فقام سعد مغضباً مبادراً تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يد أُسيد ثمّ قال: واللّٰه ما أراك أغنيت شيئاً! ثمّ خرج اليهما.

---

(١) إعلام الورىٰ: ١٣٦ ـ ١٤٠ وليس في تفسير القمي.

فلمّا رآه أسعد قال لمصعب: أي مصعب، جاءك ـ والله ـ سيّد مَن وراءه من قومه إن يتبّعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان!

ولمّا رآهما سعد مطمئنّين عرف أن أُسيداً انّما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشمّتاً وقال لأسعد: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هٰذا منّي! أتغشانا في ديارنا بما نكره؟!

فقال له مصْعب: أو تقعد فتسمع، فان رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وان كرهت عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفْت. ثمّ ركز الحربةِ وجلس، فعرض عليه الاسلام وقرأ عليه من القرآن[1] ﴿ حم * تَنْزيل مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحيم ﴾[2] فلمّا سمعها بعث الىٰ منزله فأُتي بثوبين طاهرَين فاغتسل وشهد الشهادتين وصلّىٰ ركعتين، ثمّ قام وأخذ بيد مُصعب وحوّله اليه وقال: أظهِر أمرك ولا تهابَنَّ أحداً.

ثمّ جاء فوقف في بني عمرو بن عوف وصاح: يابني عمرو بن عوف، لا يبقينّ رجل ولا امرأة ولا بكر ولا ذات بعل ولا شيخ ولا صبيّ الّا أن يخرج، فليس هٰذا يوم ستر ولا حجاب.

فلمّا اجتمعوا قال: كيف حالي عندكم؟ قالوا: أنت سيدنا والمُطاع فينا ولا نردّ لك أمراً فمُرنا بما شئت.

فقال: كلام رجالكم ونسائكم وصبيانكم عليّ حرام حتّىٰ تشهدوا أنْ لا إلٰه الّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، والحمد لله الّذي أكرمنا بذٰلك، وهو الّذي كانت اليهود تخبرنا به.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٨.

(٢) فُصّلت : ١ ـ ٢.

فما بقي دار من دور بني عمرو بن عوف في ذلك اليوم إلّا وفيها مسلم أو مسلمة. وشاع الاسلام بالمدينة وكثر، ودخل فيه من البطنين أشرافهم، وذلك لما كان عندهم من أخبار اليهود.

وكتب مصعب الىٰ رسول الله بأن الأوس والخزرج قد دخلوا في الاسلام، فلمّا بلغ ذلك رسول الله أمرهم بالخروج الىٰ المدينة، فكانوا يتسلّلون اليها رجلاً رجلاً، فينزلهم الأوس والخزرج عندهم ويواسونهم[1].

روىٰ ذلك الطبرسي في «إعلام الورىٰ» عن علي بن ابراهيم القمي، ولا يوجد الخبر في المنشور من تفسيره، وروىٰ الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» عن ابن سيرين (ت ١١٠) قال: اجتمع الأنصار الىٰ أسعد بن زرارة وقالوا له: لليهود يوم يجتمعون فيه كلّ سبعة أيام، وللنصارىٰ يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله عزوجل ونشكره. فلليهود يوم السبت وللنصارىٰ يوم الأحد فاجعلوا يومنا يوم العروبة (وهي اسم الجمعة في الجاهلية فتوافقوا عليه).

فاجتمعوا فيه الىٰ أسعد بن زرارة، فذبح لهم شاة، ثمّ ذكّرهم وصلّىٰ بهم، ثمّ تغدّوا وظلّوا حتّىٰ تعشّوا عنده من تلك الشاة، وذلك لقلّتهم، فسمّوه يوم الجمعة لاجتماعهم اليه فيه. فهذه أوّل جمعة جُمّعت في الاسلام[2] حيث صلّوا فيه مع أسعد بن زرارة فريضة ظهر يوم الجمعة جماعة، قبل قدوم الرسول وتشريع صلاة الجمعة والخطبتين قبلها.

---

(١) إعلام الورىٰ: ١٣٦ ـ ١٤١. وقد مرّ الخبر ضمن أخبار حصار الشِعب، الصفحة ٦٢٥، ولكنّي كررته هنا ابرازاً لدور أسعد بن زرارة الخزرجي وسعد بن مُعاذ الأوسي في انتشار الاسلام في المدينة. والخبر في سيرة ابن هشام ٢: ٧٧ ـ ٨٠ باختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٣٢.

وروىٰ ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك الأنصاري قال: كان (أسعد بن زرارة) أولَ من جمّع بنا بالمدينة في هَزْم (بني) النبيتِ من حرّة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضِمات. وهم يومئذٍ أربعون رجلاً[١].

ولعلّه كان بعد رجوع مصعب بن عمير الىٰ مكّة قبل بيعة العقبة الثانية[٢].

كانت الصلاة يومئذٍ الىٰ بيت المقدس:

قال ابن اسحاق: فلمّا انصرف عنه القوم (من بيعة العقبة الأُولىٰ) بعث رسولُ اللّٰه معهم مُصعبَ بنَ عُمير بن هاشم، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الاسلام ويفقّههم في الدين... وكان يصلي بهم[٣] ولم يقل عن القبلة شيئاً.

ولكنّه روىٰ عن مَعبد بن كعب، عن أخيه عبد اللّٰه بن كعب، عن أبيه كعب بن مالك (الخزرجي) قال: ما بلَغنا أنّ نبيّنا يصلي اِلّا الىٰ الشام فكنّا اذا حضرت الصلاة صلينا الىٰ الشام (يعني القدس)... فلمّا خرجنا من المدينة في حجّاج قومنا... وتوجّهنا لسفرنا... وسيّدنا وكبيرنا البَراء ابن مَعرور، قال لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأياً فواللّٰه ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟! قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البَنيّة (الكعبة) بظهري بل أُصلي اليها. فقلنا: واللّٰه ما بلغنا أنّ نبيّنا يصلي الّا الىٰ الشام وما نريد أن نخالفه. فكنا اذا حضرت الصلاة صلينا الىٰ الشام، وصلّىٰ هو الىٰ الكعبة، وقد عبنا عليه ما صنع، وأبى الّا الاقامة علىٰ ذٰلك وقال: إنّي لمصلّ اليها... حتّىٰ قدمنا مكّة.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٧٧.

(٢) م. ن ٢ : ٨١.

(٣) م. ن ٢ : ٧٦، ٧٧.

فلمّا قدمنا مكّة قال لي: يابن أخي لقد وقع في نفسي ممّا صنعت في سفري شيءٌ: لما رأيت من خلافكم إيّاي فيه، فانطلقْ بنا الىٰ رسول اللّٰه حتّىٰ نسألَه عما صنعتُ.

وكان العباس بن عبد المطّلب عم النبيّ يَقدم علينا تاجراً، فكنا نعرف العباس (ويعرفنا) وكنا لا نعرف رسول اللّٰه ولم نره قبل ذلك، فخرجنا نسأل عنه، فلقينا رجلاً من أهل مكّة فسألناه عن رسول اللّٰه، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، فقال: فهل تعرفان العباس عمّه؟ قلنا: نعم، قال: فاذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس.

فدخلنا المسجد، فاذا العباس جالس، ورسول اللّٰه جالسٌ معه. فسلّمنا ثمّ جلسنا اليه. فقال رسول اللّٰه للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يـاأبا الفضل؟ قال: نعم، هٰذا البَراء بن معرور سيّد قومه، وهٰذا كعب بن مالك، فقال رسول اللّٰه: الشاعر؟ قال العباس: نعم.

فقال له البَراء بن معرور: يا رسول اللّٰه، قد هداني اللّٰه للاسلام، وقد خرجت في سفري هٰذا، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنيّة بظهري فصليت اليها، وخالفني أصحابي في ذٰلك حتّىٰ وقع في نفسي من ذٰلك شيءٌ، فماذا ترىٰ يا رسول اللّٰه؟

قال: قد كنت علىٰ قِبلةٍ لو صبرتَ عليها. فرجع البَراء إلىٰ قبلة رسول اللّٰه وصلّىٰ معنا الىٰ الشام[1].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٨١، ٨٢، هذا وقد مرّ أن البراء بن معرور الأنصاري التيمي كان أحد النقباء الاثنى عشر في بيعة العقبة الثانية وأنّه أول من بايعه صلى الله عليه وآله، فان صحّ الخبر فيحمل على تجاهل النبيّ له عند العباس لعدم علمه ببيعته. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: ←

كان العبّاس يحضر النبيّ ويتَوثّق له؟!:

وكما روىٰ ابن اسحاق هنا عن معبد بن كعب عن أخيه عبد اللّٰه بن كعب عن أبيه كعب بن مالك الخزرجي: أن العباس كان يجالس رسول اللّٰه ﷺ في المسجد الحرام أيام الموسم ويعرّفه بالناس... يستمرّ فيروي عنه: أنّه ﷺ جاءنا ـ في العقبة الثانية ـ ومعه عمه العباس بن عبد المطّلب وهو يومئذٍ علىٰ دين قومه، الا أنّه أحبّ أن يحضر أمر ابن اخيه ويتوثّق له.

فلمّا جلس كان أوّل من تكلم العباس فقال: يامعشر الخزرج: إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو علىٰ مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومَنَعةٍ في بلده(؟!) وانه قد أبىٰ الّا الانحياز اليكم واللحوق بكم(؟) فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه، فانتم وما تحمّلتم من ذٰلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم، فمن الآن فدعوه، فانّه في عزّ ومنَعةٍ من قومه وبلده (؟!).

فقلنا له: قد سمعنا ما قلت. فتكلَّمْ يا رسولَ اللّٰه فـخُذْ لنفسك ولربّك ما أحببت.

فتكلم رسول اللّٰه فتلا القرآن ودعا الىٰ اللّٰه ورغَّب في الاسلام ثمّ قال: أُبايعكم علىٰ أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءَكم وأبناءكم[1].

← كان رسول الله والمسلمون بمكة يصلون إلى بيت المقدس، وكان البراء بن معرور بالمدينة وانّه حضره الموت (في شهر صفر قبل الهجرة بشهر) فأوصى أن يدفن ويجعل وجهه إلى رسول الله إلى القبلة، فجرت السنة بذلك. وروى مثله الصدوق في الخصال ١ : ١٩٢ عن القمي عنه عليه‌السلام أيضاً.

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ٨٤.

ثمّ يروي عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ قومه قالوا: إنّ القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول اللّٰه ـ صلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّم ـ قال العباس بن عُبادة بن نضلَةَ الأنصاري: يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هٰذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من الناس، فان كنتم ترون أنّكم إذا نُهكَت أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو ـ واللّٰه إن فعلتم ـ خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه علىٰ نَهْكَةِ الأموال وقَتْل الأشراف فخذوه، فهو ـ واللّٰه ـ خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فانّا نأخذه علىٰ مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فمالنا بذٰلك يا رسول اللّٰه إن نحن وفينا بذٰلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

وما قال ذٰلك العباس الا ليشدّ العقد لرسول اللّٰه في أعناقهم[1].

وكأنه يروي الخبر كذٰلك عن عبد اللّٰه بن أبي بكر، وإنّه قال في آخر الخبر: قال ذٰلك العباس ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد اللّٰه ابن أُبيّ بن سلول، فيكون أقوىٰ لأمر القوم[2] وكأن ابن اسحاق تخيّل اختلافاً بين القولين فقال: فاللّٰه أعلم أيّ ذٰلك كان.

فان كان بين القولين خلاف في ارادة العباس بن عبادة بقوله ذٰلك تأخير القوم تلك الليلة يرجو أن يحضرها عبد اللّٰه بن أُبيّ بن سَلول. فلا خلاف في أنّه قال ذٰلك ليشدّ العقد لرسول اللّٰه ويقوي أمره وأمرهم، سواء أراد ذٰلك من خِلال حضور ابن سَلول أم لا. هٰذا، ولكن قول ابن أبي بكر يدل علىٰ أنّ طلب رسول اللّٰه منهم

---

(١) م. ن ٢: ٨٨، ٨٩.

(٢) م. ن ٢: ٨٩.

البيعة علىٰ «بيعة الحرب» لم يكن طلباً قد تقدّم به الىٰ القوم من ذي قبل بل كأنّه فاجأهم أو فاجأ جمعهم بذٰلك.

وتتقارب مقالة العباس بن عُبادة مع مقالة العباس بن عبد المطلب، وكلاهما يريد شدّ العقد لرسول اللّٰه ويتوثق له، فيقول أحدهم: وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه. ويقول الآخر: فان كنتم ترون أنكم اذا... أسلمتموه فمن الآن. وكلّ من المقالتين للرّجلين في روايتين، ولا تجمعهما رواية واحدة. فهل كان كلاهما؟ أو أحدهما؟ وان كان أحدهما فهل هو العباس بن عبادة أو العباس بن عبد المطّلب؟

وهل صحيح ماجاء فيما رُوي عن العباس عمّ النبيّ ﷺ أنّه في عزّ من قومه ومَنَعة في بلده؟! وأنّه قد منَعه عن قومه ممن هو علىٰ مثل رأيه؟! كما في النص. وهل صحيح أنّه: أبىٰ الا الانحياز الىٰ الخزرج واللحوق بهم؟! وهل كانت هجرته مجاهراً بها منذ بيعة العقبة الثانية؟! بل يقول ابن اسحاق: وأقام رسول اللّٰه بمكّة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج والهجرة من مكّة الىٰ المدينة[1].

أم أن الصحيح هي رواية عاصم بن عمر بن قَتادة عن أشياخ قومه ورواية عبد اللّٰه بن أبي بكر، وأن المتكلم كان العباس بن عبادة، لا العباس بن عبد المطّلب علىٰ رواية معبد بن كعب. ولا ننسىٰ أن هذه السيرة لابن اسحاق اختصره من كتابه الكبير في التاريخ الّذي صنّفه للمهديّ بن المنصور العبّاسي بأمر المنصور[2].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١١.

(٢) مقدمة سيرة ابن هشام ١ : ط، ي. وزاد عليه اليعقوبي ـ مولىٰ بني العباس ـ فقال: قال العباس للنبيّ: دعني فداك أبي وأمي آخذ العهد عليهم، فجعل ذٰلك اليه، فأخذ عليهم العهود والمواثيق. اليعقوبي ٢ : ٣١.

قصة صنم عمرو بن الجَموح:

ومن القصص المروية في أخبار إسلام الأنصار: قصة معاملة مُعاذ بن عمرو بن الجموح مع صنم أبيه عمرو بن الجَموح، قالوا: كان الأشراف يتّخذون لأنفسهم آلهة يطهّرونها ويعظّمونها، وكان عمرو بن الجَموح سيّداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتّخذ في داره صنماً من خشب يسمّيه مَناة (أي الآلهة الّتي يُمنىٰ أي يراق لديها الدماء قرباناً لها) وكان ابنه مُعاذ بن عمرو بن الجَموح ممّن شهد العقبة وبايع رسول اللّٰه بها، فكان هو وأصحابه يُدلجون بالليل علىٰ صنم عمرو بن الجَموح فيحملونه فيطرحونه في بعض حُفر بني سلمة منكَّساً علىٰ رأسه! فاذا أصبح عمرو غدا يلتمسه، حتّىٰ اذا وجده غسله وطهّره وطيّبه! فاذا أمسىٰ عمرو عَدوا عليه ففعلوا به مثل ذٰلك! فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذىٰ، فيغسله ويطهّره ويطيّبه! ثمّ إذا أمسىٰ يعدون عليه فيفعلون به مثل ذٰلك! فاستخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهّره وطيّبه! ثمّ جاء بسيفه فعلّقه عليه ثمّ قال له: إني واللّٰه ما أعلم من يصنع بك ما ترىٰ، فان كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك! فلمّا أمسىٰ ونام عمرو، عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثمّ ألقوه في بئر من آبار بني سلمة ثمّ أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل! فلمّا غدا عمرو خرج وتتبّعه حتّىٰ وجده في تلك البئر منكّساً مقروناً بكلب ميت! فلمّا أبصره ورآه قال يذكر صنمه ذٰلك وما أبصر من أمره:

واللّٰـــه لو كـنتَ الهـاً لم تكـن   أنت وكلْبٌ وَسْطَ بئرٍ في قَـرَنْ
أُفٍّ لَمـــلْقاك الهـــاً مســـتَدَنْ   الآنَ فتَّشناك عن سـوء الغَـبَنْ

وكلّمه مَن أسلم من رجال قومه، فأسلم برحمة اللّٰه وحَسُن اسلامه[1].

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ٩٥، ٩٦.

الفصل التاسع

هجرة المسلمين الى المدينة

إذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة الى المدينة:

قال ابن شهر آشوب: كان النبيّ ﷺ لم يؤمر الّا بالدعاء والصبر علىٰ الأذىٰ والصفح عن الجاهل، فطالت قريش علىٰ المسلمين، فلمّا كثر عتوّهم أَمر بـالهجرة فقال ﷺ: إنّ اللّه قد جعل لكم داراً تأمنون بها واخواناً.

فخرجوا أرسالاً، حتّىٰ لم يبق مع النبيّ الا علي عليه السلام وأبو بكر[1].

وقال قبله محمّد بن اسحاق: كان رسول اللّه ـ صلّىٰ اللّه عليه [وآله] وسلّم ـ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تُحلل له الدماء[2]، إنما كان يؤمر بالدعاء الىٰ اللّه والصبر علىٰ الأذىٰ والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتّىٰ فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذَّب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم: منهم مَن بأرض الحبشة، ومنهم مَن بالمدينة، وفي كل وجه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ١٨٢. وانظر الطبقات الكبرى ١ : ٢٢٦.

(٢) مرّ الكلام في بيعة العقبة على هذا المعنى.

فلمّا عَتت قريش علىٰ اللّٰه عزّ وجل وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نبيّه ـصلّىٰ اللّٰه عليه [وآله] وسلّمـ، وعذّبوا ونَفَوا من عبدَه ووحّده وصدّق نبيّه واعتصم بدينه، أذن اللّٰه عزّوجل لرسوله في (أخذ البيعة) للقتال والانتصار ممن ظلمهم وبغىٰ عليهم...

لما أذن اللّٰه تعالىٰ له في (أخذ البيعة) للحرب، وبايعه هٰذا الحيّ من الأنصار علىٰ الاسلام والنصرة له ولمن تبعه وأوىٰ اليهم من المسلمين، أمر رسول اللّٰه أصحابه من المهاجرين من قومه ومَن معه بمكّة من المسلمين بالخروج الىٰ المدينة والهجرة اليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم: إن اللّٰه عزّ وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فخرجوا أرسالاً (جمعاً فجمعاً). وأقام رسول اللّٰه بمكّة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج من مكّة والهجرة الىٰ المدينة. فكان أول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة عبد اللّٰه بن عبد الأسد المخزومي بعد عودته من الهجرة الأُولى إلى الحبشة، لما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج مهاجراً إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة[1].

المهاجرون بعد أبي سلمة:

ثمّ قدم المدينة من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حَثْمة.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢: ١١٠، ١١١. ومن المقارنة بين عبارة ابن شهر آشوب وابن اسحاق يبدو أن كلام ابن شهر آشوب انما هو مختصر ماذكره ابن اسحاق، من دون اسناد. وقد قدّمنا خبر هجرة أبي سلمة في محلّه بعد إسلام أسعد بن زرارة وإرسال مصعب بن عُمير، في أخبار أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب رضي الله عنه.

ثمّ عبد اللّٰه بن جَحْش مع أهله وأخيه عبد بن جَحْش وكان شاعراً ضرير البصر، وكان صهر أبي سفيان علىٰ ابنته الفرعة، وكانوا حلفاء بني أُميّة. وقال في ذلك شعراً.

فكان منزل أبي سلمة، وعامر بن ربيعة، وعبد اللّٰه بن جَحْش، وأخيه عبد بن جَحْش علىٰ مُبشّر بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف في قُباء[1].

ثمّ خرج عمر بن الخطّاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، فروىٰ ابن اسحاق عن نافع مولىٰ عبد اللّٰه بن عمر، عن عبد اللّٰه بن عمر، عن أبيه عمر قال: لما أردنا الهجرة الىٰ المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاصي بن وائل السهمي، تواعدنا (أشجار) التناضِب فوق (منزل) سرف (علىٰ ستة أميال من مكّة) وقلنا: أيّنا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعيّاش بن أبي ربيعة عند (أشجار) التناضِب، وحُبِس عنّا هِشام وفُتن فافتَتَن.

فلمّا قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف في قُباء.

وكان عياش بن أبي ربيعة المخزومي ابن عمّ أبي جهل بن هشام المخزومي بل أخاه لأُمّه، فخرج أبو جهل وأخوه الحارث حتّىٰ قدما علينا المدينة، وقالا له: إن امّك قد نذرت أن لا يَمسَّ رأسها مشط ولا تستظلّ من شمس حتّىٰ تراك! فقلت له: يا عياش إنه واللّٰه اِن يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم. فقال: أُبرّ قسمي ولي هناك مالٌ فآخذه، فأبىٰ الا أن يخرج معهما.

فخرج معهما، حتّىٰ اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: ياأخي واللّٰه لقد استغلظتُ بعيري هٰذا أفلا تُعقِبني علىٰ ناقتك هـذه؟ قال: بلىٰ. فأناخ وأناخا ليتحوّل، فلمّا استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثمّ دخلا به مكّة وفتناه فافتَتَن.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٢ ـ ١١٦.

وكان عمر بن الخطّاب حين قدم المدينة قد نزل علىٰ رفاعة بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف في قُباء، ولحق به من أهله وقومه: اخوه زيد ابن الخطّاب، وصهره خُنيس بن حُذافة السهمي، وحُلفاؤهم: واقد بن عبد اللّٰه التميمي، وخَوْليّ بن أبي خَوْليّ وأخوه مالك، وسعيد بن زيد وإياس بن بُكير، وإخوانه: عاقل وعامر وخالد. ونزل عثمان بن عَفان علىٰ أوس بن ثابت أخي حسّان بن ثابت من بني النجار.

وهاجر عبد الرحمن بن عوف فنزل علىٰ سعد بن الربيع الخزرجي.

وهاجر صُهيب بن سنان (الرومي) فروىٰ ابن هشام عن أبي عثمان النهدي قال: لما اراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صُعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الّذي بلغت ثمّ تريد ان تخرج بمالك ونفسك؟! واللّٰه لا يكون ذلك! فقال لهم صُهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟! قالوا: نعم. قال: فاني جعلت لكم مالي. ثمّ هاجر فنزل علىٰ خُبيب بن أساف الخزرجي بالسُنُحْ ومعه طلحة بن عبيد اللّٰه. فلمّا بلغ رسولَ اللّٰه أمر صُهيب قال: رَبح صُهيب! ربح صُهيب!

ونزل الزبير بن العوّام علىٰ منذر بن محمّد من بني جحْجَبىٰ بالعُصْبة، ومعه أبو سبرة. ونزل: مُصعب بن عُمير بن هاشم علىٰ سعد بن مُعاذ (هذه المرة).

وهاجر من بني عبد المطّلب: حمزة بن عبد المطّلب فنزل علىٰ أسعد ابن زرارة (مكان مصعب). وهاجر معه موالي رسول اللّٰه: زيد بن حارثة وأبو كبشة، وأَنَسَة، وحليفا حمزة: ابو مِرثد الغَنَوي وابنه مِرثد، فنزلوا علىٰ كلثوم بن هِدم من بني عمرو بن عوف في قُباء، أو: سعد بن خَيْثمة، وكان عزباً فنزل عليه العُزّاب منهم.

ومن بني المطّلب: مِسطح بن أُثاثة بن عبّاد بن المطّلب، وبنو الحارث ابن المطّلب. عبيدة وأخواه الطفيل والحُصين. ومعهم سُويبط بن سعد من بني عبد الدار،

وطليب بن عمير، وخَبّاب (بن الأرَت) مولىٰ عتبة بن غزوان، فنزلوا علىٰ عبد اللّٰه بن سلمة في قُباء.

ونزل مولىٰ خبّاب: عتبة بن غزوان وابو حذيفة عتبة بن ربيعة، وسالم مولاه، علىٰ عبّاد بن بِشر من بني عبد الأشهل.

ولم يتخلّف بمكّة أحد من المهاجرين الا من حُبس أو فتن، الا عليّ ابن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة. وأقام رسول اللّٰه بمكّة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة[١].

وعُلم من هنا أن عبيدة بن الحارث بن المطّلب واخوانه وموالي رسول اللّٰه: زيد بن حارثة وأبا كبشة وأنسة كانوا قد هاجروا، ولعلّ ذٰلك كان قبل بيعة العقبة الاولىٰ فضلاً عن الثانية ولذٰلك لا يوجد لهم ذكر أو أثر فيها، بل روىٰ ابن اسحاق أنّ العبّاس حضرها يتوثق لابن أخيه وهو علىٰ دين قومه، وقد مرّ الكلام فيه.

وقد ذُكر عن ابن عباس قال: كان أبي من المستضعفين من الرجال، وأُمّي كانت من المستضعفات من النساء، وكنتُ أنا من المستضعفين من الولدان، غلاماً صغيراً[٢] ويقصد بالمستضعفين قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً** ﴾[٣] فإنْ صحّ قوله عن نفسه وأُمّه فاللّٰه أعلم بأبيه.

---

(١) ابن إسحاق في السيرة ٢ : ١١٨ ـ ١٢٣.

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٥٠.

(٣) النساء : ٩٧ ـ ٩٩.

الفصل العاشر

الهجرة النبوية المباركة

شوریٰ دار الندوة:

رویٰ العياشي في تفسيره عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن أحدهما عليه‌السلام قال: إنّ قريشاً اجتمعت فخرج من كلّ بطن أُناس، فانطلقوا الیٰ دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، فاذا هم بشيخ قائم علیٰ الباب، واذ ذهبوا ليدخلوا قال: أدخلوني معكم. قالوا: ومن أنت؟ يا شيخ، قال: أنا شيخ من مضر، ولي رأي أُشير به عليكم.

فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس، وأجمَعوا أمرهم علیٰ أن يُخرجوه.

فقال: ليس هٰذا لكم برأي، ان اخرجتموه أجْلَب عليكم الناس فقاتَلوكم.

قالوا: صدقت ما هٰذا برأي. ثمَّ تشاوروا فأجمَعوا أمرهم علیٰ أن يُوثِقوه.

قال: هٰذا ليس بالرأي، إن فعلتم هٰذا، ومحمّد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم، وما ينفع أحدكم اذا فارقه أخوه وابنه أو امرأته؟!

ثمّ تشاوروا فأجمعوا أمرهم علىٰ أن يقتلوه، يُخرجون من كل بطن منهم بشاب فيضربونه بأسيافهم جميعاً[١].

ورویٰ الصدوق في «الخصال» بسنده عن جابر الجعفي عن الباقر عن علي عليه‌السلام قال: إنّ قريشاً لم تزل تجيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبيّ حتّىٰ كان آخر ما اجتمعت عليه في يوم الدار دار الندوة... فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتّىٰ اجتمعت آراؤها علىٰ أنْ ينتدب من كلّ فخذ من قريش رجل، ثمّ يأخذ كلّ رجل منهم سيفه ثمّ يأتي النبيّ وهو نائم علىٰ فراشه، فيضربونه جميعاً بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، فاذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمهم، فيمضي دمه هدْراً[٢].

وقال القمي في تفسيره: اجتمعوا في دار الندوة، وكان لا يدخل دار الندوة إلّا من أتىٰ عليه أربعون سنة، فدخلوا أربعون رجلاً من مشايخ قريش.

وجاء ابليس في صورة شيخ كبير، فقال له البوّاب: من أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد[٣]، لا يعدمكم مني رأي صائب، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هٰذا الرجل جئت لأُشير عليكم. فقال الرجل: ادخل، فدخل ابليس.

فلمّا أخذوا مجلسهم قال أبو جهل: يا معشر قريش، إنّه لم يكن أحد من العرب أعزّ منّا، نحن أهل اللّٰه تغدوا الينا العرب في السنة مرتين، ويكرموننا، ونحن في حرم اللّٰه لا يطمع فينا طامع، فلم نزل كذٰلك حتّىٰ نشأ فينا محمّد بن عبد اللّٰه،

---

(١) تفسير العياشي ٢ : ٥٤.

(٢) الخصال : ٣٦٧.

(٣) نقل السهيلي في (الروض الأُنف) عن بعض أهل السيرة أنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع محمّد، فلذٰلك تمثل لهم ابليس في صورة شيخ نجدي. كما عنه في هامش سيرة ابن هشام ٢ : ١٢٤، والخبر في السيرة عن ابن عباس.

فكنّا نسمّيه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتّىٰ اذا بلغ ما بلغ واكرمناه ادّعىٰ أنّه رسول اللّٰه وأن أخبار السماء تأتيه، فسفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا، وزعم أنّه من مات من أسلافنا في النار، فلم يرِد علينا شيء أعظم من هٰذا! وقد رأيت فيه رأياً.

قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ندسّ اليه رجلاً منّا ليقتله فان طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات.

فقال الخبيث: هٰذا رأي خبيث! قالوا: وكيف ذٰلك؟ قال: لأنّ قاتل محمّد مقتول لا محالة، فمن ذا الّذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه إذا قتل محمّد تعصّب بنو هاشم وحلفاؤهم من خُزاعة، وإنّ بني هاشم لا ترضىٰ أن يمشي قاتل محمّد علىٰ الأرض فتقع بينكم الحروب في حرمكم وتتفانوا.

فقال آخَر منهم: فعندي رأي آخَر. قالوا: وما هو؟ قال: نثبته في بيت ونلقي اليه قوته حتّىٰ يأتي عليه ريب المنون، فيموت، كما مات زهير والنابغة وامرؤ القيس.

فقال ابليس: هٰذا أخبث من الآخر! قالوا: وكيف ذٰلك؟

قال: لأن بني هاشم لا ترضىٰ بذٰلك، فاذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه.

قال آخَر منهم: لا، ولكنّا نُخرجه من بلادنا ونتفرغ لعبادة آلهتنا.

قال ابليس: هٰذا أخبث من الرأيين المتقدمين! قالوا: وكيف ذٰلك؟ قال:

لانكم تعمدون الىٰ أصبح الناس وجهاً وأنطق الناس لساناً وأفصحهم لهجة فتحملونه الىٰ وادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه، فلا يفجأكم الا وقد ملأها عليكم خيلاً ورجلاً.

فبقوا حائرين... ثمّ قالوا لابليس: فما الرأي فيه يا شيخ؟ قال: ما فيه الاّ رأي واحد.

قالوا: وما هو؟ قال: يجتمع من كل بطن من بطون قريش واحد، ويكون معهم من بني هاشم رجل، فيأخذون سكّينة أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة حتّىٰ يتفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوا فيه، فان سألوكم أن تعطوا الدية فاعطوهم ثلاث ديات. فقالوا: نعم وعشر ديات... ثمّ قالوا: الرأي رأي الشيخ النجدي. ونزل جبرئيل علىٰ رسول اللّٰه وأخبره الخبر[1].

وروىٰ الطوسي في أماليه بسنده عن أبي عبيدة بن محمّد بن عمار بن ياسر حديثاً في مبيت علي عليه‌السلام علىٰ فراش رسول اللّٰه وهجرته الىٰ المدينة، صدره عن سنان بن أبي سنان عن هند بن أبي هالة ربيب رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله من خديجة، وسايره عن أبيه محمّد بن عمار عن أبيه عمار بن ياسر، وعن عبيد اللّٰه بن أبي رافع عن أبيه أبي رافع مولىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، قالوا:

انطلق ذوو الطَول والشرف من قريش الىٰ دار الندوة ليرتأوا ويأتمروا في رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله وأسرّوا ذلك فيما بينهم.

فقال بعضهم ـ وهم العاص بن وائل السهمي وأمية بن أبي خلف الجُمحي ـ نبني له علماً ويُترك بَرَحاً نستودعه فيه، فلا يخلص اليه أحد من الصُباة فيه، ولا يزال في رفق من العيش حتّىٰ يتضيّفه ريب المنون.

فقال أبو سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة: إنا نرىٰ أن نُرحل بعيراً صعباً ونوثق محمّداً عليه كتافاً وشدّاً، ثمّ نقصع البعير بأطراف الرماح فيوشك أن يقطعه بين الدكادك ارباً ارباً!

فقال صاحب رأيهم: إنكم لم تصنعوا بقولكم هذا شيئاً، أرأيتم إن خلص به البعير سالماً الىٰ بعض الأفاريق فأخذ بقلوبهم سحره وبيانه وطلاقة لسانه فصبا

---

(١) تفسير القمي ١: ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

القوم اليه واستجابت القبائل له قبيلة فقبيلة، فليسيرنّ اليكم حينئذٍ بالكتائب والمقانب، فلتهلكُنّ كما هلكت اياد ومن كان قبلكم. قولوا قولكم.

فقال أبو جهل: لكن أرىٰ لكم أن تعمدوا الىٰ قبائلكم العشرة فتندِبوا من كل قبيلة منها رجلاً نجداً، ثمّ تسلّحوا سلاحاً عضباً، وتتمهّل الفتية حتّىٰ اذا غسق الليل وغوّر بيّتوا بابن أبي‌كبشة بياتاً، فيذهب دمه في قبائل قريش جميعاً، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بالعقل[١] منهم.

فقال صاحب رأيهم أصبت يا أبا الحكم. ثمّ أقبل عليهم فقال: هٰذا الرأي فلا تعدلُنّ به رأياً، وأوكِئوا في ذٰلك أفواهكم حتّىٰ يستتبّ أمركم. ثمّ خرج القوم.

فسبقهم جبرئيل بالوحي بما كان من كيدهم[٢].

علي عليه‌السلام والمبيت في فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله:

قال: ولمّا أخبر النبيَّ جبرئيل عليه‌السلام بأمر اللّٰه في ذٰلك ووحيه وما عزم له من الهجرة، دعا رسول اللّٰه علي بن أبي طالب لوقته فقال له: يا علي، إنّ الروح هبط عليّ يخبرني أن قريش اجتمعت علىٰ المكر بي وقتلي، وإنّه أُوحي الي عن ربّي عزوجلّ أن أهجر دار قومي وأن أنطلق الىٰ غار ثور تحت ليلتي، وإنه أمرني أن آمرك بالمبيت علىٰ مضجعي لتُخفي بمبيتك عليه أثري، فما أنت صانع؟

فقال علي عليه‌السلام: أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ اللّٰه؟ قال: نعم. فتبسّم علي ضاحكاً وأهوىٰ الىٰ الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه رسول اللّٰه به من سلامته،

---

(١) العقل هنا: الدية، ومنه عاقلة الرجل.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٦٣ ـ ٤٦٥، الحديث ٣٥.

فكان علي ـ صلوات الله عليه ـ أوّل من سجد لله شكراً، وأوّل من وضع وجهه علىٰ الأرض بعد سجدته من هٰذه الاُمّة بعد رسول الله ﷺ.

فلمّا رفع رأسه قال له علي عليه السلام: إمض بما اُمرت، فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئت... وإن توفيقي الا بالله... فقال له: فارقد علىٰ فراشي واشتمل ببردي الحضرمي، ثمّ اني اخبرك يا علي أن الله تعالىٰ يمتحن أولياءه علىٰ قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه، فأشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل، وقد امتحنك يابن عم وامتحنني فيك بمثل ماامتحن به خليله ابراهيم والذبيح اسماعيل عليهما السلام، فصبراً صبراً، فان رحمة الله قريب من المحسنين، ثمّ ضمّه النبيّ ﷺ الىٰ صدره وبكىٰ وجداً به، وبكىٰ علي عليه السلام جشعاً لفراق رسول الله ﷺ[1].

كيفية هجرة النبي ﷺ الىٰ المدينة:

قال: واستتبع رسول الله أبا بكر بن أبي قحافة[2] وهند بن أبي هالة فأمرهما

---

(١) م. ن.

(٢) روىٰ العياشي في تفسيره ١: ١٠١ عن ابن عباس قال: وجاء أبو بكر ـ وعلي عليه السلام نائم ـ وهو يحسب أنّه نبيّ الله (فلمّا رآه علياً) قال: أين نبيّ الله؟ قال علي: إنّ نبيّ الله قد انطلق نحو بئر ميمون، فأدرِكْه. فانطلق ابو بكر فدخل معه الغار.

وقال الطبري في تاريخه ٢: ٣٧٤ مشيراً الىٰ هٰذا: وقد زعم بعضهم: أن أبا بكر أتىٰ علياً فسأله عن نبيّ الله، فأخبره: أنّه لحق بالغار من ثور وقال: ان كانت لك فيه حاجة فالحقه. فخرج أبو بكر مسرعاً فلحق نبيّ الله في الطريق، فسمع جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين، فأسرع رسول الله المشي فانقطع قِبالُ نعله ففلق ابهامَه حجر فكثر دمها، وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشق علىٰ رسول الله ﷺ فرفع صوته وتكلم فعرفه رسول الله فأقام حتىٰ أتاه، فانطلقا، ورجْل رسول الله تستنّ دماً حتىٰ انتهى الىٰ الغار مع الصبح فدخلاه.

←

أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه الىٰ الغار. ولبث رسول اللّٰه بمكانه مع علي عليه‌السلام يوصيه ويأمره في ذٰلك بالصبر حتّىٰ صلّىٰ العشاءين، ثمّ خرج في فحمة العشاء الآخرة، والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين، فخرج وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1] وأخذ بيده قبضة من تراب فرمىٰ بها علىٰ رؤوسهم، فما شعر القوم به حتّىٰ تجاوزهم ومضىٰ حتّىٰ أتىٰ الىٰ هند وأبي بكر

← وأصبح الرهط الّذين كانوا يرصدون رسول اللّٰه فدخلوا الدار، وقام علي عليه‌السلام عن فراشه، فلمّا دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لاأدري أو كنتُ رقيباً عليه، أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وأخرجوه الىٰ المسجد فحبسوه ساعة ثمّ تركوه.

وجاء الحبس في خبر رواه الرضيّ في «الخصائص»: عن علي عليه‌السلام قال: كنت علىٰ فراش رسول اللّٰه وقد طرح عليَّ ريطته، فأقبلت قريش مع كل رجل منهم هراوة فيها شوكها، فلم يبصروا رسول اللّٰه حيث خرج، فأقبلوا عليّ يضربوني بما في أيديهم حتّىٰ تنفّض جسدي وصار مثل البيض، ثمّ انطلقوا بي يريدون قتلي، فقال بعضهم: لا تقتلوه الليلة، ولكن أخّروه واطلبوا محمّداً. فأوثقوني بالحديد وجعلوني في بيت (قرب البيت الحرام) واستوثقوا مني ومن الباب بقفل فبينا أنا كذٰلك، اذ سمعت صوتاً من جانب البيت يقول: ياعلي! فسكن الوجع الّذي كنت أجده، وذهب الورم الّذي كان في جسدي، ثمّ سمعت صوتاً آخر يقول: ياعلي فاذا الحديد الّذي عليّ قد تقطّع، ثمّ سمعت صوتاً: ياعلي، فاذا الباب قد تساقط ما عليه وفتح. فقمت وخرجت، وقد كانوا جاؤوا بعجوز كمهاء لاتبصر ولا تنام تحرس الباب، فخرجت عليها وهي لاتعقل من النوم. خصائص الأئمة: ٨٥. ومن المستبعد جدّاً أن يكون أبو بكر قد علم باتّجاه الرسول بالسؤال من علي عليه‌السلام في فراش الرسول في حصار المشركين وهم يرمونه، بل المتّجه ماذكره القطب الراوندي في الخرائج والجرائح: ١٤٣ الحديث ٢٣١، قال النبيّ لأصحابه: لا يخرج الليلة أحد من داره. وكما في بحار الأنوار ١٩ : ٧٣.

(١) يس: ٩.

فنهضا معه حتّىٰ وصلوا الىٰ الغار، ثمّ رجع هند الىٰ مكّة بما أمره به رسول اللّه، ودخل رسول اللّٰه وأبو بكر الغار.

فلمّا غلّق الليل أبوابه وأسدل أستاره وانقطع الأثر أقبل القوم علىٰ علي عليه السلام يقذفونه بالحجارة فلا يشكّون أنّه رسول اللّٰه حتّىٰ اذا برق الفجر وأشفقوا أن يفضحهم الصبح هجموا علىٰ علي عليه السلام ـوكانت دور مكّة يومئذٍ سوائب لا أبواب لها ـ فلمّا بصر بهم علي عليه السلام قد انتضوا السيوف وأقبلوا عليه بها يقدمهم خالد بن الوليد بن المغيرة وثب عليّ فختله وهمز يده فجعل خالد يقمص قِماص البكر ويرغو رغاء الجمل ويُذْعَر ويصيح، وهم في عرج الدار من خلفه، وشدّ عليهم علي عليه السلام بسيفه ـيعني سيف خالد ـ فاجفلوا أمامه إجفال النَعَم الىٰ ظاهر الدار، وتبصّروه فاذا علي عليه السلام، قالوا: وانك لعلي؟ قال: أنا علي، قالوا: فانّا لم نردك فما فعل صاحبك؟ قال: لا علم لي به. فاذكت قريش عليه العيون وركبت في طلبه الصّعب والذلول[1].

وقال القمي في تفسيره: فلمّا أمسىٰ رسول اللّٰه جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبو لهب: لا أدعكم أن تدخلوا بالليل فان في الدار صبياناً ونساءً ولانأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة فاذا أصبحنا دخلنا عليه. فناموا حول حجر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله.

وأمر رسول اللّٰه أن يفرش له ففُرش له، فقال لعلي بن أبي طالب: أفدني بنفسك، قال: نعم يا رسول اللّٰه. قال: نَم علىٰ فراشي والْتحِف ببُردتي. فنام علىٰ فراش رسول اللّٰه والْتحفَ ببُردته.

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٦٣ الحديث ١٠٣١.

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله فأخرجه علىٰ قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وقال له جبرئيل: خذ علىٰ طريق ثور. وهو جبل علىٰ طريق منى له سنام كسنام الثور. فدخل الغار[1].

وروىٰ الطوسي في أماليه بسند عن الواقدي بسنده عن ابن عباس قال: اجتمع المشركون في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله، وأتىٰ جبرئيل رسول الله فأخبره الخبر، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. فلمّا أراد رسول الله المبيت أمر علياً عليه السلام أن يبيت في مضجعه صلى الله عليه وآله. فبات علي عليه السلام وتغشىٰ ببرد أخضر حضرمي كان لرسول الله ينام فيه، وجعل السيف الىٰ جنبه. فلمّا اجتمع اولئك النفر من قريش يطوفون ويرصدونه يريدون قتله، خرج رسول الله وهم جلوس علىٰ الباب خمسة وعشرون رجلاً، فأخذ حفنة من البطحاء ثمّ جعل يذرّها علىٰ رؤوسهم وهو يقرأ ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتّىٰ بلغ ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فقال لهم قائل: ما تنتظرون؟ قالوا: محمّداً. قال: خبتم وخسرتم قد والله مرّ بكم فما منكم رجل الا وقد جعل علىٰ رأسه تراباً! قالوا: والله ما أبصرناه![2].

وروىٰ الحِبري في «ما نزل من القرآن في أهل البيت» بسنده عن ابن عباس أيضاً قال: لما انطلق النبيّ صلى الله عليه وآله الىٰ الغار فأنام علياً عليه السلام مكانه وألبسه بُرده وجاءت قريش تريد أن تقتل النبيّ صلى الله عليه وآله فجعلوا يرمون علياً وهم يرون أنّه

(١) تفسير القمي ١: ٢٧٥، ٢٧٦ ونقله الطبْرسي في اعلام الورىٰ ١: ١٤٧، ١٤٨ والقطب الراوندي في قصص الأنبياء: ٣٣٥_٣٣٧.

(٢) أمالي الطوسي: ٤٤٥ الحديث ٩٩٥ ورواه ابن اسحاق عن محمّد ابن كعب القرظي ٢: ١٢٧.

النبيّ ﷺ فجعل يتضوّر[١] فنظروا فاذا هو علي عليه السلام فقالوا: إنك النائم؟! لو كان صاحبك ما تضوّر، لقد استنكرنا ذلك[٢].

وروى الطوسي في أماليه بسنده عن الحسن البصري عن أنس بن مالك قال: لما توجّه رسول الله الى الغار ـ ومعه أبو بكر ـ أمر النبيّ علياً أن ينام على فراشه ويتغشّى ببردته. فبات عليّ موطناً نفسه على القتل. وجاءت رجال من قريش من بطونها يريدون قتل رسول الله، فلمّا أرادوا أن يضعوا أسيافهم فيه لا يشكّون أنّه محمّد، أيقظوه فرأوه علياً فتركوه وتفرقوا في طلب رسول الله[٣].

وقال القمي في تفسيره: فلمّا أصبحت قريش أتوا الى الحجرة وقصدوا الفراش، فوثب علي عليه السلام في وجوههم وقال: ما شأنكم؟ قالوا له: أين محمّد؟ قال: أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نُخرجه من بلادنا؟! فقد خرج عنكم. فأقبلوا يضربون أبا لهب ويقولون له: أتخدعنا منذ الليلة؟!

وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له: أبو كرز، يقفو الآثار، فقالوا له:

---

(١) التضوّر: التلوي والأنين من الألم.

(٢) ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام: ٤٧، ورواه العياشي ١: ١٠١ والفرات: ٦٦ الحديث ٣٣، والبرهان ١: ٢٠٧ وروى مختصره الطبْرسي في إعلام الورى ١: ٣٧٤. هذان خبران عن ابن عباس وليس فيهما ما رواه عنه ابن اسحاق في سيرته برواية ابن هشام قال: قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم. ابن إسحاق في السيرة ٢: ١٢٦، ١٢٧ بل سيأتي في رواية الطوسي عن الثلاثة: عمار بن ياسر وأبي رافع وهند بن أبي هالة: أن الرسول ﷺ انما قال ذلك له بعد نهاية الأمر حين اللقاء به في الغار. بل روى عن الحسن البصري عن أنس بن مالك: أن علياً بات تلك الليلة موطناً نفسه على القتل. ولكنهم وضعوا ذلك ليضعوا من معنى التضحية والنداء في زوج الزهراء عليها السلام.

(٣) أمالي الطوسي: ٤٤٦ الحديث ٤ وعنه في بحار الأنوار ١٩: ٥٥.

يا أبا كرز اليوم اليوم! فوقف بهم علىٰ حجرة رسول اللّٰه فقال: هٰذه قدم محمّد، واللّٰه انها لأُخت القدم الّتي في المقام[١] هٰذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه، فما زال بهم حتّىٰ أوقفهم علىٰ باب الغار ثمّ قال: ما جاوزوا هٰذا المكان، إمّا أنْ يكونا صعدا الىٰ السماء أو دخلا تحت الأرض.

وبعث اللّٰه العنكبوت فنسجت علىٰ باب الغار... وصرفهم اللّٰه عن رسوله فتفرقوا[٢].

وقال الطبْرسي في «إعلام الورىٰ»: وخرج القوم في طلبه، فعمّىٰ اللّٰه أثره وهو نصب أعينهم، وصدّهم عنه وأخذ بأبصارهم دونه، وهم دُهاة العرب، وبعث اللّٰه العنكبوت فنسجت في وجه الغار فسترته وأيّسهم ذٰلك من الطلب.

وبعث اللّٰه حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار[٣].

وأقبل فتيان قريش من كلّ بطن رجل بعصيّهم وهراويهم وسيوفهم حتّىٰ اذا كانوا من النبيّ بقدر أربعين ذراعاً (عشرين متراً) تقدم رجل منهم لينظر مَن في الغار، ورجع الىٰ أصحابه فقالوا له: ما لك لا تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حماماً بفم الغار فعلمت أن ليس فيه أحد. وسمع النبيّ ما قال فدعا لهن وفرض جزاءهن فاتخذن في الحرم[٤].

---

(١) مقام ابراهيم، وهي قدمه.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٧٣ ـ ٢٧٦ ونقله الطبْرسي في اعلام الورىٰ ١ : ١٤٧، ١٤٨ والقطب الراوندي في قصص الأنبياء : ٣٣٥ ـ ٣٣٧ وفي الخرائج والجرائح ١ : ٤٤ ح ٢٣١ وذكر اسم الرجل : أبا كريز.

(٣) نقله ابن شهر آشوب عن زيد بن أرقم بن مالك والمغيرة بن شعبة في مناقب آل أبي طالب ١ : ١٢٨.

(٤) ونقله ابن شهر آشوب عن الزهري في مناقب آل أبي طالب ١ : ١٢٨.

وفي ذلك يقول السيد الحميري في قصيدته المعروفة بالمذهّبة:

حتّىٰ اذا قصدوا لِبابِ مَغارة الْفَوا عليه نسيج غزل العنكب

صنع الاله له، فقال فريقهم: مافي المغار لطالب من مطلب

ميلوا. وصدّهم المليك، ومن يُرد عنه الدفاعَ مليكهُ، لم يَغْطَب[1]

وأمهل علي عليه السلام حتّىٰ اذا أعتم في الليلة القابلة فانطلق هو وهند بن أبي هالة حتّىٰ دخلا علىٰ رسول الله في الغار، فأمر رسول الله هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين، فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي ولك ـ يا نبيّ الله ـ راحلتين نرتحلهما الىٰ يثرب. فقال صلى الله عليه وآله: اني لا آخذهما ولا احداهما اِلّا بالثمن. فقال: فهي لك بذلك. فأمر صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام فأقبضه الثمن[2] ثمّ وصّاه بحفظ ذمّته وأداء أمانته.

وكانت قريش في الجاهلية تدعو محمّداً: الأمين، فكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكّة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك. فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً يهتف بالابطح غدوة وعشيّاً: من كان له قِبَل محمّد أمانة أو وديعة فليأت فلنؤدّ اليه أمانته. ثمّ قال له: انّهم لن يصلوا اليك من الآن ـ يا عليّ ـ بأمر تكرهه حتّىٰ تقدم عليّ، فأدّ أمانتي علىٰ أعين الناس ظاهراً.

ثمّ إني مستخلفك علىٰ ابنتي فاطمة، ومستخلف ربّي عليكما ومستحفظه فيكما.

ثمّ أمره أن يبتاع رواحل له وللفواطم ومن أزمع للهجرة من بني هاشم وقال له: فاذا قضيتَ ما أمرتك من أمر فكن علىٰ أُهبة الهجرة الىٰ الله ورسوله،

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ٧٩.

(٢) وقال بمعناه ابن إسحاق، كما في السيرة ٢ : ١٣١.

وسر اليّ لقدوم كتابي عليك ولا تلبث. ثمّ مكث في الغار ثلاثاً ثمّ انطلق لوجهه يؤمّ المدينة(١).

وقال الطبْرسي: خلّفه النبيّ صلى الله عليه وآله ليخرج أهله فأخرجهم، وأمره أن يؤدّي عنه أماناته ووصاياه وما كان بمؤتمن عليه. فأدّىٰ علي عليه السلام اماناته كلها(٢).

وقال ابن شهر آشوب: واستخلفه الرسول لردّ الودائع، لأنّه كان أميناً... قام على الكعبة فنادىٰ بصوت رفيع: يا أيّها الناس، هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصية؟ هل من صاحب عِدةٍ له قِبلَ رسول الله. فلمّا لم يأت أحد لحق بالنبي صلى الله عليه وآله(٣).

ولكن الطبْرسي في «إعلام الورىٰ» نقلَ ما قاله القمي في تفسيره وأضاف:

خرج رسول الله من الغار فرأىٰ راعياً لبعض قريش يقال له: ابن أُريقط، فدعاه رسول الله وقال له: يابن اريقط، أءتمنك على دمي؟ قال: إذاً أحرسك وأحفظك ولا أدلّ عليك، فأين تريد يامحمّد؟ قال: يثرب. قال: والله لأسلكن بك مسلكاً لا يهتدي اليه أحد... فقال له رسول الله: إئت علياً وبشّره بأنّ الله قد أذن لي في الهجرة فيهيّء لي زاداً وراحلة.

وقال له أبو بكر: إئت أسماء بنتي وقل لها: تُهيِّئ لي زاداً وراحلتين، وأعلِمْ عامر بن فُهيرة أمرنا ـ وكان من موالي أبي بكر وقد أسلم ـ وقل له: ائتنا بالزاد والراحلتين.

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٦٧، ٤٦٨ كما في بحار الأنوار ١٩: ٦٣ وحلية الأبرار: ٩٠.

(٢) إعلام الورىٰ ١: ٣٧٤، ٣٧٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٥٧.

فجاء ابن أُريقط الىٰ علي عليه السلام وأخبره بذلك. فبعث عليّ بن أبي طالب الىٰ رسول اللّٰه بزاد وراحلة، وبعث ابن فُهيرة بزاد وراحلتين[١].

ولكنه (الطبْرسي) عاد في ذكر مقامات علي عليه السلام فروىٰ مختصر خبر ابن أبي رافع عن علي بن ابراهيم بن هاشم قال: كان علي عليه السلام يجهّز النبيّ صلى الله عليه وآله حين كان في الغار يأتيه بالطعام والشراب، واستأجر له ثلاث رواحل للنبيّ ولأبي بكر ولدليلهم[٢].

ونقل ابن شهر آشوب عن الثعلبي في تفسيره وابن عقب في ملحمته وأبي السعادات في (فضائل العشرة)، والغزّالي في (الاحياء) وفي (كيمياء السعادة) برواياتهم عن أبي اليقظان (عمّار بن ياسر) ومن الخاصة: ابن بابويه وابن شاذان والكليني والطوسي وابن عقدة وابن فياض والعبدلي والصفواني والثقفي بأسانيدهم عن ابن عباس وأبي رافع وهند بن أبي هالة عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: أوحىٰ اللّٰه الىٰ جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه. فأيّكما يؤثر أخاه؟ فكلاهما كرها الموت.

فأوحىٰ اللّٰه اليهما: ألا كنتما مثل وليي علي بن أبي طالب: آخيت بينه وبين محمّد نبيي فآثره بالحياة علىٰ نفسه، فظل علىٰ فراشه يقيه بمهجته، اهبطا الىٰ الأرض فاحفظاه من عدوه.

فهبط جبرئيل فجلس عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجعل جبرئيل يقول: بخ بخ! مَن مثلك يابن أبي طالب واللّٰه يباهي به الملائكة؟!

وأنزل اللّٰه فيه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾[٣].

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ١٤٨.

(٢) اعلام الورىٰ ١ : ٣٧٤، ٣٧٥ عن القمي ولم نجده في تفسيره.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢ : ٦٤، ٦٥ والكليني في الروضة : ١١٩ والطوسي في ←

منازل الطريق:

قال الطَبْرسي في «إعلام الورىٰ» في تتمة خبر علي بن ابراهيم القمي: وخرج رسول الله من الغار وأخذ به ابن أُريقط علىٰ طريق نخلة بين الجبال، فلم يرجعوا الىٰ الطريق (الأعظم) الا بقُديد[1].

فنزلوا علىٰ أُم مَعبد هناك[2]. وكانت امرأة بَرْزَة تحتبيء وتجلس بفناء الخيمة، فسألوا تمراً ولحماً ليشتروه فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، واذا القوم مُرملون، وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرىٰ. فنظر رسول الله في كِسر خيمتها فقال: ما هٰذه الشاة يا أُم مَعبد؟ قالت: شاة خلّفها الجُهد عن الغنم. فقال: هل بها من لبَن؟ قالت: هي أجهد من ذٰلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبَها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأُمي ان رأيت بها حلباً فاحلبها. فدعا رسول الله بها فمسح ضرعها وذكر ٱسم الله وقال: اللّٰهم بارك في شاتها. فتفاجّت ودرّت! فدعا رسول الله باناء لها

← الأمالي: ٤٦٩ والكراجكي في كنز الفوائد عن الخطيب الخوارزمي في مناقبه. واليعقوبي ٢: ٣٩ ط بيروت. والآية في البقرة: ٢٠٧.

(١) قاله ابن اسحاق في سيرته وأضاف: ثمّ أجاز بهما فسلك بهما الخرّار، ثمّ سلك بهما ثنيّة المرّة، ثمّ سلك بهما لفتاً أو لقفاً، ثمّ أجاز بهما مُدلَجة لقَفْ، ثم استبطن بهما مُدلجة مِجاح او محاج، ثم سلك بهما مرجح مجاح، ثم تبطنّ بهما مرجح ذي الغضوين او العضوين ثمّ بطن وادي ذي كَشْر، ثمّ أخذ بهما علىٰ الجداجد ثمّ علىٰ الأجرد، ثمّ سلك بهما ذا سلَمَ من بطن مُدلَجة تِعْهِن، ثمّ علىٰ العبابيد او العبابيب أو العيثانة، ثمّ أجاز بهما الفاجّة أو القاحة، ثمّ هبط بهما العَرْج، ثمّ خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنيّة العائر او الغائر عن يمين ركوبة، حتىّ هبط بطن يرئم، ثمّ هبط بهما قُباء علىٰ بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين حين اشتدّ الضحىٰ بل كادت الشمس أن تعتدل. ابن إسحاق في السيرة ٢: ١٣٦. وانظر خريطة مسيرة الهجرة في أطلس تاريخ الإسلام: ٦٩ برقم ٣٩.

(٢) إعلام الورىٰ ١: ١٤٩.

يُريض الرهط فحلب فيه ثجّاً حتّىٰ علته ثُمالته فسقاها، فشربتْ حتّىٰ رُويتْ، ثمّ سقىٰ أصحابه فشربوا حتّىٰ رُووا، فشرب هو آخرَهم وقال: ساقي القوم آخرهم شِرباً. فشربوا جميعاً علّا بعد نَهَلٍ حتّىٰ أراضوا، ثمّ حلب فيه ثانياً عوداً علىٰ بدء فغدوا عندها ثمّ ارتحلوا عنها.

فقلّما لبثت أن جاء زوجُها أبو معبد يسوق عَنزاً عِجافاً هُـزّلاً، ومُخاجُهنّ قليل، فلمّا رأىٰ اللبن قال: من أين لكم هٰذا؟ والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا واللّٰه اِلّا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت[1].

وروىٰ الكليني في «روضة الكافي» بسنده عن الصادق عليه‌السلام قال: كانت قريش قد جعلت لمن يأخذ رسول اللّٰه لما خرج من الغار متوجهاً الىٰ المدينة مئة من الابل، فخرج سُراقة بن مالك بن جُعْشم فيمن يطلب، فلحق برسول اللّٰه، فقال رسول اللّٰه: اللهم اكفني شر سُراقة بما شئت. فساخت قوائم فرسه، فثنىٰ رجله وقال: يا محمّد، اِني علمت أنّ الّذي أصاب قوائم فرسي إنّما هو من قِبلك، فادع اللّٰه أن يُطلق لي فرسي، فلعمري اِن لم يصبكم مني خيرٌ لم يصبكم مني شر. فدعا رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله فأطلق اللّٰه عزوجل فرسه، فعاد في طلب رسول اللّٰه صلى‌الله‌عليه‌وآله، فعل ذلك ثلاث مرات، كلّ ذٰلك يدعو رسول اللّٰه فتأخذ الأرض قوائم فرسه، فلمّا أطلقه في الثالثة قال: يا محمّد، هٰذه ابلي بين يديك فيها غلامي، وإن احتجت الىٰ ظهر أو لبن فخذ منه، وهٰذا سهم من كنانتي علامة، وأنا أرجع فأردّ عنك الطلب. فقال: لا حاجة لي فيما عندك[2].

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ٧٦ وذكره في الخرائج ١ : ١٤٦، ١٤٧، ح ٢٣٤ وفيه أنه قصد رسول اللّٰه فآمن هو وأهله.

(٢) روضة الكافي : ٢١٩ وفي بحار الأنوار ١٧ : ٣٧٨ و ١٩ : ٨٨ عنه ومختصر الخبر في قرب الاسناد : ٢٤٨، الحديث ١٢٢١ عن الكاظم عليه‌السلام.

وذكر الطبْرسي الخبر في «إعلام الورىٰ» بلا رواية قال: وتبعه صلى الله عليه وآله وهـو متوجه الىٰ المدينة سُراقة بن جُعْشم المُدلجي طالباً غِرّته ليحظىٰ بذلك عند قريش، حتّىٰ اذا أمكنته الفرصة في نفسه وأيقن أن قد ظفر ببغيته، ساخت قوائم فرسه، حتّىٰ تغيّبت بأجمعها في الأرض، وهو بموضع جَدْب وقـاع صَفْصَف. فعلم أن الّذي أصابه سماوي فنادىٰ: يا محمّد أدع ربك يُطلق لي فرسي وذمةُ اللّه عليّ أن لا أدلّ عليك أحداً. فدعا له، فوثب جواده كأنّه أفلت من أنشوطة، وكان رجلاً داهية فعلم بما رأىٰ أنّه سيكون له نبأ فقال: اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف[١].

فلمّا كان من الغد وافته قريش فقالوا: يا سُراقة هل لك علم بمحمّد؟ قال: قد بلغني أنّه قد خرج عنكم، وقد نفضتُ هٰذه الناحية لكـم ولم أر أحـداً ولا أثـراً، فارجعوا فقد كفيتكم ما ها هنا[٢] فقال أبو جهل في أمر سراقة أبياتاً، فأجابه سُراقة:

أبا حكم، واللّه لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمـه
عـلمتَ ولم تشكك بأن محـمّداً ... نبيّ بـبرهان، فمـن ذا يـقاومه
عليك بكف الناس عنه، فانّني ... أرىٰ أمره يوماً ستبدو معالمُه[٣]

---

(١) إعلام الورىٰ ١ : ٧٧، ٧٨.

(٢) إعلام الورىٰ ١ : ١٤٩.

(٣) إعلام الورىٰ ١ : ٧٨ نقلاً عن محمّد بن اسحاق، ولا توجد في سيرته بروايـة ابـن هشـام، فرواها المحققون في الهامش ٢ : ١٣٥ عن الروض الأُنف للسهيلي. وانما نقله الطبرسي عنه عن دلائل النبوة للبيهقي ٢ : ٤٨٩. وقد صرّح ابن هشام في مقدمته بحذفه كثيراً من الأشعار. وتمام خبر الكتاب عند ابن اسحاق عن سراقة قال: فكتب لي كتاباً في عظم أو رقعة او خَزَفة(!) ثمّ ألقاه اليّ فأخذته فجعلته في كنانتي ورجعت وسكت حتّىٰ اذا كان فتح مكّة وفرغ من حنين والطائف فخرجت ومعي الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة... فدنوت منه فاسلمت ثمّ رجعت الىٰ قومي فسقت صدقتي اليه. سيرة ابن هشام ٢ : ٦٣٥. وروىٰ البيتين الاولين اليعقوبي ٢ : ٤٠.

ونقله كذلك القطب الراوندي في «الخرائج والجرائح» قال : ولما خرج النبيّ صلى الله عليه وآله وهؤلاء أصبحوا من تلك الليلة الّتي خرجوا فيها في حيّ سُراقة ابن جُعْشم، فلمّا نظر سُراقة الىٰ رسول اللّه قال : أتّخذ يداً عند قريش، وركب فرسه وقصد محمّداً. فقال أصحابه : لحق بنا هٰذا الشيطان! فقال : اِن اللّٰه سيكفينا شره، فلمّا قرب قال : اللّٰهم خذه! فارتطم فرسه في الارض، فصاح : يا محمّد خلّص فرسي، لا سعيت في مكروه أبداً. وعلم أنّ ذلك بدعاء محمّد صلى الله عليه وآله فقال : اللّٰهم ان كان صادقاً فخلّصه، فوثب الفرس فقال : يا أبا القاسم ستمر برِعائي وعبيدي، فخذ سوطي، فكل من تمرّ به فخذ ماشئت فقد حكّمتك في مالي. فقال : لا حاجة في مالك. قال : فسلني حاجة قال : ردّ عنا من يطلبنا من قريش. فانصرف سراقة فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم : انصرفوا عن هٰذا الطريق فلم يمر فيه أحد وأنا اكفيكم هٰذا، وعليكم بطريق اليمن والطائف[١].

خروج علي عليه السلام بالفواطم:

مرّ في الخبر عن أمالي الطوسي : أن علياً عليه السلام أمهل حتى اعتم في الليلة القابلة، فانطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله في الغار.. ثمّ أمره أن يبتاع له وللفواطم ومن يهاجر معه من بني هاشم وقال : فإذا قضيت ما أمرتك فكن على اُهبة الهجرة، ولقدوم كتابي عليك سِر ولا تلبث.. إلى أن قال : ثمّ كتب رسول اللّه الىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام كتاباً يأمره فيه بالمسير اليه وقلّة التلوّم، وكان الرسول اليه أبا واقد الليثي.

فلمّا أتاه كتاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله تهيّأ للخروج والهجرة، فآذن من كان

---

(١) الخرائج والجرائح ١ : ١٤٥.

معه من ضعفاء المؤمنين وأمرهم أن يتسلّلوا ويتحفّظوا اذا ملأ الليل بطن الوادي الىٰ ذي طوىٰ(١).

ونقل ابن شهر آشوب في «المناقب» عن البكري والطبراني والنجدي والواقدي : أن علياً عليه‌السلام لما عزم علىٰ الهجرة قال له العباس : إن محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله ما خرج الا خفياً، وقد طلبته قريش أشدّ الطلب، وأنت تخرج جهاراً في أثاث وهوادج ومال ورجال ونساء وتقطع بهم السباسب والشِعاب من بين قبائل قريش ؟! ما أرىٰ لك أن تمضي الا في خفارة خُزاعة. فقال علي عليه‌السلام :

إنّ المنيّة شربة مودودة　　لاتنزعنّ، وشُدَّ للترحيل
إنّ ابن آمنة النبيَّ محمّداً　　رجلٌ صدوق قال عن جبريل
أرخِ الزِّمام ولا تخف من عائق　　فالله يُرديهم عن التنكيل
اني بربّي واثق وبأحمد　　وسبيله متلاحق بسبيلي

قالوا : فكمن مُهْلع غلام حنظلة بن أبي سفيان في طريقه بالليل، فلمّا رآه سلّ سيفه ونهض اليه، فصاح عليّ صيحة فخرّ منها علىٰ وجهه وجلّله بسيفه، فلمّا أصبح توجه نحو المدينة، فلمّا شارف ضجنان أدركه الطلب ثمانية فوارس(٢).

وخرج علي عليه‌السلام بفاطمة بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وأُمّه فاطمة بنت أسد ابن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ـ وقيل : هي ضُباعة ـ وتبعهم أيمن ابن ام أيمن مولىٰ رسول الله وأبو واقد رسول رسول الله، فجعل يسوق بالرواحل فأعنف بهم، فقال علي عليه‌السلام : إرفق بالنسوة أبا واقد ! إنهنّ من الضعائف. قال : إني أخاف أن يدركنا الطلب ! فقال علي عليه‌السلام : اربع عليك، فان رسول الله قال لي :

---

(١) أمالي الطوسي : ٤٦٩، ٤٧٠ وعنه في بحار الأنوار ١٩ : ٦٤.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٢ : ٥٩.

يا عليّ إنهم لن يصلوا من الآن اليك بأمر تكرهه. ثمّ جعل علي عليه السلام يسوق بهن سوقاً رفيقاً وهو يقول:

وليس الا اللّٰه فارفع ضنكا   يكفيك ربّ الناس ماأهمّكا

فلما شارف ضجنان أدركه الطلب سبعة فوارس من قريش مستلئمين متلثمين، وثامنهم مولىٰ الحارث بن أُمية يُدعىٰ جناحاً. فأقبل علي علىٰ أيمن وأبي واقد وقد تراءىٰ القوم فقال لهما: اَنيخا الابل واعقلاها. وتقدم حتّىٰ أنزل النسوة.

ودنا القوم فاستقبلهم علي منتضياً سيفه، فأقبلوا عليه وقالوا: ظننت أنك يا غدّار ناج بالنسوة؟ ارجع لا أباً لك! قال: فان لم أفعل؟ قالوا: لترجعنّ راغماً أو لنرجعن باكثرك شعراً! وأهون بك من هالك!

ودنا الفوارس من النسوة والمطايا ليثوّروها، فحال علي عليه السلام بينهم وبينها، فأهوىٰ له جناح بسيفه، فراغ علي عليه السلام عن ضربته، وتختّله علي عليه السلام فضربه علىٰ عاتقه فأسرع السيف مضياً فيه حتّىٰ مسّ كاثبة فرسه. فكان علي عليه السلام يشد علىٰ قدمه كشدّ الفارس علىٰ فرسه، فشدّ عليهم بسيفه وهو يقول:

خلّوا سبيل الجاهد المجاهد   آليتُ لا أعبد غير الواحد

فتصدّع القوم عنه وقالوا: احبس نفسك عنّا يابن أبي طالب. قال: فانّي منطلق الىٰ ابن عمي رسول اللّٰه بيثرب، فمن سرّه أن أفري لحمه وأهريق دمه فليتّبعني أو فليدن منّي. ثمّ أقبل علىٰ صاحبيه: أيمن وأبي واقد فقال لهما: أطلقا مطاياكما.

ثمّ سار ظاهراً قاهراً حتّىٰ نزل ضَجْنان، فلبث بها قدر يومه وليلته، ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين وفيهم أُم أيمن مولاة رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله. وبات هو تلك الليلة ومعه الفواطم: أُمه فاطمة بنت أسد ـ رضي اللّٰه عنها ـ وفاطمة بنت رسول اللّٰه، وفاطمة بنت الزبير يصلون ويذكرون اللّٰه قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم، ولم يزالوا كذلك حتّىٰ طلع الفجر فصلىٰ بهم علي عليه السلام صلاة الفجر، ثمّ سار لوجهه يجوب منزلاً بعد منزل لايفتر عن ذكر اللّٰه، وكذلك الفواطم وغيرهن

ممن صحبه حتىٰ قدموا المدينة، وقد نزل الوحي قبل قدومهم بما كان من شأنهم (فتلاه عليهم): ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلْ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ فالذكَر عليّ عليه السلام والانثىٰ الفواطم المتقدم ذكرهن، فعلي عليه السلام من الفواطم وهنّ من عليّ عليه السلام ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[1] وقال له: يا علي، أنت أوّل هٰذه الأمة ايماناً بالله ورسوله، وأوّلهم هجرة الىٰ اللّٰه ورسوله وآخرهم عهداً برسوله، لايحبّك ـ والّذي نفسي بيده ـ الّا مؤمن قد امتحن اللّٰه قلبه للايمان، ولا يبغضك الا منافق أو كافر.

قال عبيد اللّٰه بن أبي رافع: وقال عليّ بنُ أبي طالب يذكر مبيته علىٰ الفراش ومقام رسول اللّٰه في الغار:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصىٰ
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحِجْرِ
وبتُّ اراعيهم متىٰ يأسرونني (أو ينشرونني)
وقد وطّنتْ نفسي علىٰ القتل والأسر

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٥.

وبـــات رســول اللّـــه في الغـــار آمـــناً
هـــناك وفي حـــفظ الالّـــه وفي ســـتر
أقـــــام ثـــلاثاً ثمّ زمّتْ قـــلائص
قـــلائص يــفرين الحـــصا اينما يـفري[١].

قال الطوسي في «المصباح»: في أوّل ليلة من شهر ربيع الأوّل كان مبيت أمير المؤمنين عليه‌السلام علىٰ فراش النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله اذ هاجر من مكّة وكانت ليلة الخـميس، وفي ليلة الرابع منه كان خروجه من الغار متوجهاً الىٰ المدينة[٢].

وهو وان لم يستند في ذلك الىٰ خبر خاص ولكنه لعلّه يستند فيما يستند اليه الىٰ مارواه الكليني في «روضة الكافي» بسنده عن علي بن الحسين عليه‌السلام قال: كان خروج رسول اللّه من مكّة في أوّل يوم من ربيع الأوّل يوم الخميس من سنة ثلاث عشرة من المبعث، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل مع زوال الشمس فصلىٰ الظهر ركعتين[٣].

تم المجلّد الأوّل من الكتاب بعون الملك الوهّاب ضحىٰ يوم الجمعة الثامن من شهر شوّال المكرّم من شهور سنة ١٤١٠ هـ ق وهو يوم هدم قبور أئمة البقيع ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أمالي الطوسي: ٤٦٤ ح ٣٥ وعنه في حلية الأبرار ١: ٩١، وبحار الأنـوار ١٩: ٦٦، ٦٧. وأوّلهم هجرة ليس بمعنىٰ العدد بل كقوله سبحانه: «وأنا أوّل المسلمين» أي من حيث النـيّة والبصيرة والاقدام فهو مستعد تماماً لأن يكون الأوّل. ولعل قوله سبحانه «قاتلوا» كناية عن مقاومة علي عليه‌السلام للمشركين دفاعاً عن الفواطم، وقوله سبحانه: «وقتلوا» كناية عمن قتل استضعافاً كياسر وسُمية.

(٢) مصباح المتهجّد: أوّل أعمال ربيع الأوّل.

(٣) روضة الكافي: ٢٨٠ وعنه في بحار الأنوار ١٩: ١١٥.

فهرس الكتاب

تقديم

كيف ينبغي أن ندرس تأريخ الإسلام

الفصل الاول

البيئة العربية والظروف العالمية قبيل ظهور الإسلام

الفصل الثاني
كيف نشأ النبي ﷺ

الفصل الثالث

البعثة النبويّة المباركة

الفصل الرابع
إعلان الدعوة

الفصل الخامس
الإسراء والمعراج

الفصل السادس
الهجرة الىٰ الحبشة

الفصل السابع
الهجرة الىٰ الطائف

الفصل الثامن
بيعة العقبة وانتشار الإسلام في المدينة

الفصل التاسع

هجرة المسلمين الى المدينة

الفصل العاشر

الهجرة النبوية المباركة